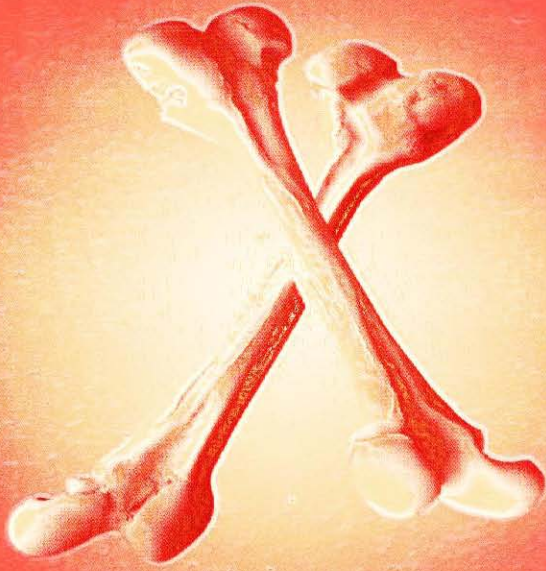


من الكاتبة التي كانت الملهمه لسلسل مسلسلة شبكة «فوكس» الدرامي الشهير «العظام BONES»، والتي تُرجمت كتبها إلى ثلاثين لغة في مختلف أنحاء العالم

كاتي رايكس

Kathy Reichs



وَجَدْتِ مَيِّتَةً

DÉJÀ DEAD

رواية

وُجِدَتْ مَيِّتَةً
DÉJÀ DEAD

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

DÉJÀ DEAD

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

POCKET STAR BOOKS

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 1997 by Kathleen J. Reichs

All rights reserved

Arabic Copyright © 2008 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

وُجِدَتْ مَيِّتَةٌ

DÉJÁ DEAD

رواية

تأليف

كاتي راكس

ترجمة

سعيد الحسنية

مراجعة وتحريير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-496-8

جميع الحقوق محفوظة للناسر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناسر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

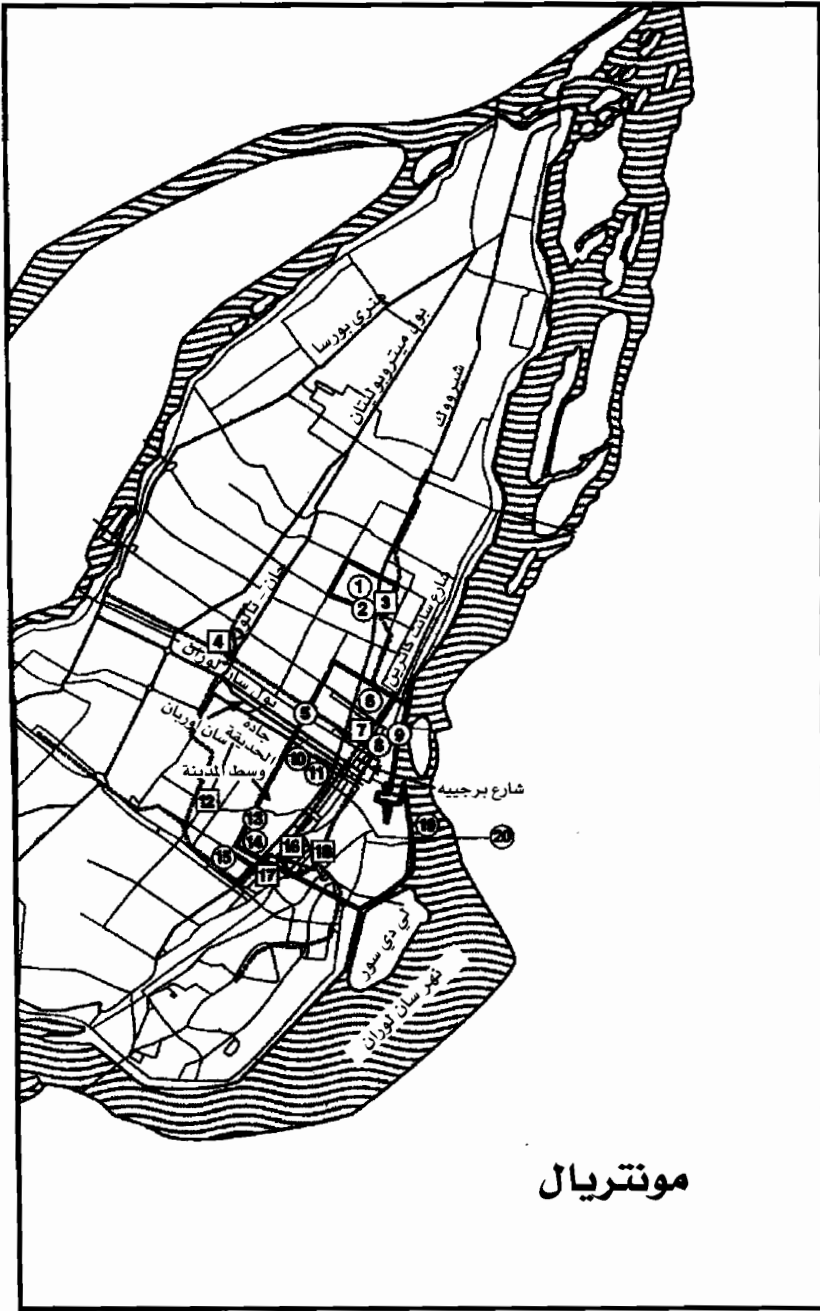
للتضيد وفرز الألوان: أبجد جرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إهداء

إلى كارل ومارتا رايكس،
ألف وأكرم شخصين عرفتهما.

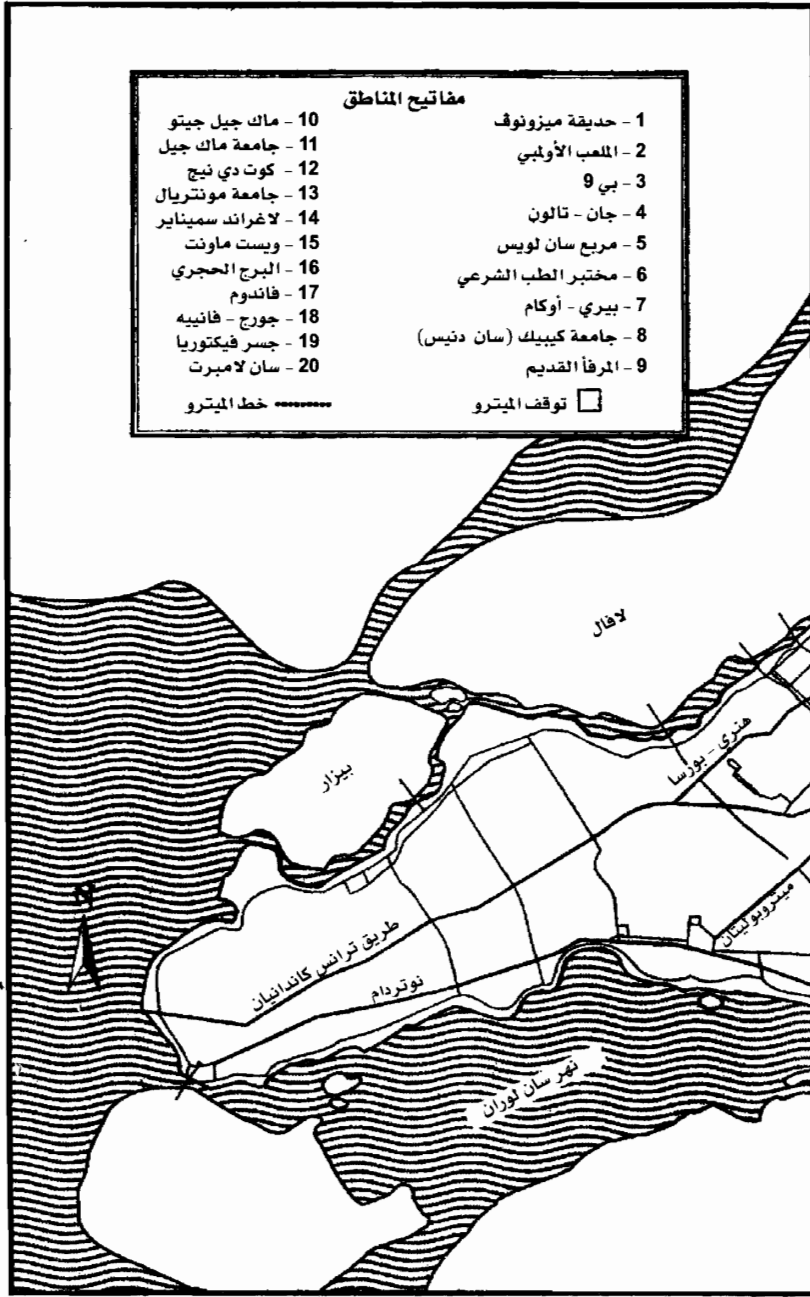
كارليس رايكس 1914 - 1996



مونتريال

مفاتيح المناطق

- | | |
|----------------------|----------------------------|
| 10 - ماك جيل جيتو | 1 - حديقة ميزونوف |
| 11 - جامعة ماك جيل | 2 - الملعب الأولمبي |
| 12 - كوت دي نيچ | 3 - بي 9 |
| 13 - جامعة مونتريال | 4 - جان - تالون |
| 14 - لاغراند سمينابر | 5 - مربع سان لويس |
| 15 - ويست ماونت | 6 - مختبر الطب الشرعي |
| 16 - البرج الحجري | 7 - بييري - أوكام |
| 17 - فاندوم | 8 - جامعة كيبيك (سان دنيس) |
| 18 - جورج - فانييه | 9 - المرفأ القديم |
| 19 - جسر فيكتوريا | □ توقف الميترو |
| 20 - سان لامبرت | |
- خط الميترو



1

لم أكن أفكر بالرجل الذي فجر نفسه للتو، ولكن سبق لي أن فعلت ذلك. أما الآن، فأنا أركز على إعادة تجميع عظامه. وضعتُ أمامي جزءين من الجمجمة، بينما برز جزء ثالث من وعاء فولاذي لا يصدأ مليء بالرمل، ولم يكن الغراء قد جفَّ تماماً في الأجزاء التي فرغتُ من تجميعها. اعتبرتُ أنّ هذه العظام تكفي لي للتأكد من هوية القتيل، وأعتقد أن المحقق الجنائي سيكون مسروراً.

إنني أعمل الآن في وقت متأخر من مساء يوم الخميس الواقع في 2 حزيران عام 1994. وقد وجدتُ نفسي شاردة الذهن أثناء انتظاري جفاف الغراء، إذ أيقنتُ أنّ الصدمة التي من شأنها أن تقطع عليّ شرودي، وأن تحوّل مسار حياتي، وأن تغيّر مفاهيمي حول كلّ ما يتعلق بحدود الفساد البشري لن تحدث قبل مرور عشر دقائق أخرى. رحتُ أستمتع بمشاهدة منظر نهر سان لوران، وهي الميزة الوحيدة التي يجدها المرء في مكثي الضيق. وكان منظر المياه يريح أعصابي وينعشني - وعلى الأخص عندما تنساب بطريقة متناغمة - وينسييني غولدن بوند. أعتقد أن فرويد كان سيستمتع بهذا المنظر هو الآخر.

أخذتني أفكارني إلى عطلة الأسبوع القادم. إذ كنتُ أعتمزم القيام برحلة إلى كيبك سيتي، ولكنني لم أضع بعد تفاصيل هذه الرحلة. فكّرتُ في زيارة سهول أبراهام، وفي تناول بلح البحر، والفظائر الخلاة الرقيقة، بالإضافة إلى شراء بعض الهدايا الصغيرة من البائعين المنتشرين في الشوارع. وبكلمات أخرى، كنتُ أريد أن أهرب عن طريق السياحة. بقيتُ في مونتريال لمدة عامٍ بكامله، عملتُ خلاله

بصفتي عالمة أنثروبولوجيا جنائية للمقاطعة، ولكنني لم أذهب فعلياً إلى تلك النواحي حتى الآن، ولهذا بدت الفكرة برنامجاً جيداً بالنسبة لي. شعرت أنني بحاجة إلى عدة أيام أبتعد فيها عن الهياكل العظمية، والجثث المتحللة، أو الجثث التي سُحبت حديثاً من النهر.

غالباً ما كانت الأفكار ترد بسهولة إلى ذهني، لكن لظالماً كان تنفيذها أمراً صعباً. اعتدتُ أن أدع الأمور تمرّ هكذا. إذ أعتقد أن هذه هي وسيلتي للهروب، أو بالأحرى هذه هي طريقي للسماح لنفسي بالنكوص، ولكي أفتح لنفسي طريقاً للعبور من باب جانبي لتتحقق الخطط التي أرسمتها. والواقع هو أنني مترددة في حياتي الاجتماعية، ومتحمسة جداً في عملي.

أدركتُ أنه يقف أمام الباب قبل أن يمدّ يده ويقرعه. أعرفُ أن الرجل يتحرك بهدوء ينذر أن يتصف به رجلٌ في مثل ضخامته، لكن رائحة غليونه وشت به. شغل بيار لامانش منصب مدير مختبرات الطب الشرعي لمدة عقدين من الزمان تقريباً. وأعرفُ أيضاً أنّ زيارته إلى مكنتي لم تكن اجتماعية أبداً، لذلك شككتُ بأنّ الأخبار التي يحملها إليّ لا بدّ أنّها سيئة. طرق لامانش الباب بهدوء مستخدماً ظاهر يده.

"تيرنس؟" وكان لفظه لاسمي مُقفى مع كلمة فرانس. فلقد امتنع هذا الرجل على الدوام عن استخدام اسمي المختصر، ولعلّ أذنيه لم تتعودا على سماعه. ولكن، ربما يتعلق الأمر بتجربة سيئة له في أريزونا، فهو الوحيد الذي لا يدعوني تمب.

"وحي؟" اعتدتُ أن ألفظ هذه الكلمة بطريقة آلية. إذ وصلتُ إلى مونتريال معتقدةً أنني طليقة اللسان بالفرنسية، لكنني اكتشفتُ أنني لست ماهرة بالفرنسية الكيبكية. فلقد بدأتُ أتعلمها، ولكن ببطء.

نظر الرجل إلى ورقة مكالمات هاتفية كان يحملها، وقال: "تلقيت مكالمَةً للتو". بدت كل ملامح وجهه عامودية تماماً، بما في ذلك الخطوط والتعضّنات التي تنساب من الأعلى وحتى الأسفل، كما أنّها كانت متوازية مع أنفه الطويل والمستقيم ومع أذنيه. بدت تفاصيل وجهه حادة. وعلى الأغلب، بدا وجهه مسنّاً حين كان شاباً. وخیّل إليّ أنّ تعضّنات هذا الوجه قد ازدادت عمقاً مع الزمن. وعجزت عن تقدير العمر الحقيقي لهذا الرجل.

تأمل وجهي الذي لم يكن يطفح بالسعادة، وقال: "وجد رجالان من العاملين في هايدرو كيبك (مصلحة مياه كيبك) بعض العظام هذا اليوم".

عاد الرجل لينظر إلى الورقة الزهرية اللون، وصمت قليلاً، ثم قال بلغته الفرنسية الرسمية الصحيحة: "إنها قريبة من المكان الذي وجدت فيه المقابر التاريخية القديمة في الصيف الماضي". لم يسبق لي أن سمعت الرجل يتكلم مستخدماً الكلمات المختصرة، أو اللغة التي يستخدمها رجال الشرطة، أو اللهجات الأخرى. "سبق لك أن كنت هناك، وأعتقد أنك أمام المهمة ذاتها. أريد أن أرسل شخصاً إلى ذلك المكان كي نتأكد من عدم الحاجة إلى استدعاء محقق جنائي".

رفع نظره عن الورقة، ولاحظت أن تغضّبات وجهه وخطوطه قد ازدادت عمقاً نتيجة تغييره لزاوية النظر. سحب الرجل نفثة من دخان غليونه الأسود، وحاول أن يرسم ابتسامة باهتة على شفتيه.

قلتُ بهدوء أقرب إلى التردد: "أعتقد أنها عظامٌ أثرية؟"

لم يكن البحث في موقعٍ محتملٍ للجريمة من ضمن برنامجي، هذا إذا ما اعترمت الانطلاق في عطفتي يوم غد. إذ يتوجّب عليّ الذهاب إلى مصبغة التنظيف الجاف، والانتهاء من غسل الثياب، والتوقّف عند الصيدلية، وحزم حقبي، ووضع زيت في محرك السيارة، وشرح كيفية الاعتناء بالهرة لُونستون وهو وكيل البناية التي أسكنها.

أوماً بيار موافقاً.

"حسناً". أدركت أن الأمر ليس كذلك بالنسبة إليّ.

ناولني الورقة: "أتريد أن تقلّك سيارة شرطة إلى المكان؟"

نظرتُ إليه، وحاولتُ قدر المستطاع أن أبدو في غاية الجدية: "لا. جئت بسيارتي إلى العمل هذا اليوم". قرأتُ العنوان، ووجدتُ أنّه ليس بعيداً عن مكان سكني فقلت: "سأجده بنفسي".

غادر بيار المكان بالهدوء ذاته الذي صاحب مجيئه. فهو يفضّل انتعال أحذية ذات كعوب مطاطية، ويحرص على أن تبقى جيوبه فارغة كي لا تصدر عنها أي خشخشة، أو أصوات أخرى. فلقد وصلَ مثلما يصل تماشاً إلى نُهر، وغادر بمثل الصمت الذي رافق دخوله إلى المكتب. يعتبر بعض الموظفين طريقته هذه مثيرةً للأعصاب.

وضعتُ مجموعة من المآزر في حقيبة الظهر التي أمتلكها، بالإضافة إلى حدائي المطاطي، وأملتُ أن لا أحتاجها، ثم تناولتُ حاسوبي المحمول، وحقيبة يدي، وأمسكتُ بغطاء المائدة المزخرف الذي اعتبرته ضرورياً في هذا الفصل. وَعَدْتُ نفسي بأنني لن أعود قبل يوم الإثنين، لكن صوتاً آخر في زوايا ذهني تدخل، وأصرَّ على عدم صحة افتراضي.

يندفع فصل الصيف عند وصوله إلى مونتريال مثلما يفعل راقص الرومبا الذي يرتدي ملابس القطنية اللماعة ذات الكشاكش، ويظهر بساقيه اللامعتين، وجلده الملمع بالعرق. إنه باختصار احتفال غير مهذب يبدأ في شهر حزيران، ويستمر حتى أيلول.

يستهج الناس بقدم هذا الفصل ويستمتعون به. إذ تنتقل حياة الناس إلى العلن، وتعاود مقاهي الأرصفة الظهور بعد شتاء طويلٍ وكثيب، وكذلك يظهر راكبو الدراجات، والمتزحلقون الذين يتنافسون في الممرات المخصصة لسير الدراجات، وسرعان ما تتوالى الاحتفالات في الشوارع الاحتفال بعد الآخر، كما تُحوّل حشود الناس الأرصفة إلى أمواج بشرية تفوح بالحياة.

يختلف فصل الصيف كثيراً في سان لوران عن الصيف في الولاية التي أنتمي إليها، أي كارولينا الشمالية، حيث يتميز الفصل ببعض الإقبال على الاسترخاء على كراسي البحر، أو بالتنزه في الجبال، أو بالجلوس على شرفات المنازل في الضواحي. يصعب على المرء أن يحدّد هناك التواريخ الفاصلة ما بين الربيع والصيف، والخريف، من دون الاستعانة برونزامة. فوجئت بهذه الولادة السريعة للربيع في سنتي الأولى التي أمضيتها في هذه المناطق الشمالية، وأبعدت عن أفكاري الحنين إلى الوطن الذي بدأ يخيّم عليّ في الليالي الطويلة، والباردة، والمعتمة.

سيطرت هذه الأفكار على ذهني بينما كنت أقود سيارتي تحت جسر جاك-كارتيه، وعندما بدأت أنعطف غرباً باتجاه فايفر. مررتُ من أمام مصنع شراب مولسون، الذي يمتد على ضفة النهر إلى يساري، ثم مررتُ من أمام برج مبنى راديو كندا الدائري، ورحت أفكّر بالناس المحتجزين داخل هذا المبنى؛ إنهم شاغلو هذه الخلايا الصناعية الذين يتمنون، ومن دون شك، الانطلاق من أماكن أعمالهم، مثلي أنا. تصورهم يتأملون أشعة الشمس من وراء واجهاتهم الزجاجية الشفافة،

ويحتون إلى رؤية الزوارق، والدراجات الهوائية، والأحذية المطاطية، وينظرون إلى ساعاتهم بين حين وآخر، بينما يستمتعون بدفء أشعة شمس حزيران.

أنزلت زجاج نافذة السيارة، ومددتُ يدي كي أشغل جهاز الراديو.

سمعتُ جيرو بولي يغني "*Les Yeux du Coeur*". ترجمتُ كلمات الأغنية في ذهني. استطعت أن أتصوره، وتخلّصته شخصاً ضخماً ذا عينين داكنتين، وخصلات شعره تتطاير حول رأسه، ويتمايل مع موسيقاه متحمساً. تصوّرته رجلاً ميتاً بعمر الرابعة والأربعين.

رجعتُ بتفكيري إلى تلك المقابر التاريخية الأثرية. يتولى المحققون الأثروبولوجيون قضايا مثل هذه. فهم يتفحصون العظام القديمة التي ينبشها عمال البناء، والكلاب، ومياه الفيضانات، وحفّارو القبور. ويشرف مكتب المحقق الجنائي على الوفيات في مقاطعة كيبيك. إذ يجد المحقق الجنائي نفسه مضطراً لمعرفة أسباب الوفاة، وما إذا كان المرء قد مات بطريقة غير مناسبة، أي من دون إشراف الأطباء، أو خارج سريره. وإذا كان موت المرء يهدّد حياة الآخرين، فسيجد المحقق الجنائي نفسه مضطراً لمعرفة هذه المعلومة. ويطلب المحقق الجنائي تفسيراً للوفيات الناتجة عن أعمال العنف، أو التي تحدث فجأة أو في غير أوانها. ولكن الأشخاص الذين قضوا منذ وقت طويل لا يحظون إلا بقدر طفيف من الاهتمام. فلقد بقيت هذه الوفيات تستصرخ الأصوات المطالبة بالعدالة، ولربما حملت معها تحذيراً من كارثة داهمة، لكن هذه الصرخات بقيت ساكنة لوقت طويل جداً. إذ يتم التأكيد أولاً من قديم هذه العظام، ثم تمرّر إلى علماء الآثار. أظن أن هذه القضية ستكون قضية من هذا النوع. وأتمنى ذلك من كل قلبي.

قُدت السيارة عبر طريق متعرج، وعبر ازدحام السيارات في وسط المدينة. ووصلتُ في غضون خمس عشرة دقيقة إلى العنوان الذي أعطاني إياه لامانش؛ لا غراند سيمينايو. تُعتبر لا غراند سيمينايو من بقايا الممتلكات الضخمة لدور العبادة، وهي تحتل مساحةً كبيرةً من الأراضي الواقعة في قلب مونتريال. أنا الآن في سنتر فيل، وسط المدينة، أي الحي الذي أسكنه. صمدت هذه القلعة المتحضرة بصفتها جزيرة خضراء وسط بحر من الأبنية الإسمنتية العالية، ولذلك فإنها تقف شاهدة صامتة على مؤسسة كانت قوية في وقت من الأوقات. رأيتُ الجدران

الحجرية المجهزة بأبراج للمراقبة، والتي تحيط بقلاع رمادية معتمة الألوان. وشاهدتُ أيضاً مساحات من العشب الأخضر التي تلقى عناية مناسبة، بالإضافة إلى مساحات أخرى تُركت من دون عناية.

اعتادت العائلات أن ترسل أبناءها بالآلاف إلى هذا المكان كي يتدربوا على حياة التعبد. وكان ذلك في أيام العز التي عرفتها دور العبادة هذه. أمّا في هذه الأيام، فبدأ عدد قليل من الشبان على الحضور إليها. علمتُ أن الأبنية الكبيرة قد تمّ تأجيرها، وأن مهمة مدارسها ومؤسساتها أصبحت أكثر علمانية، حيث حلّ الإنترنت، والفاكس، مكان النصوص الدينية، وأصبحت المعتقد الفعلي للناس. أعتقد أن هذا المكان يصلح لاتخاذ رمزاً للمجتمع الحديث.

توقفتُ في شارعٍ صغيرٍ قبالة الأرض التابعة للكلية، ونظرت شرقاً باتجاه شيربروك، أي باتجاه ذلك القسم من الأرض الذي تستأجره الآن كلية مونتريال. لم ألاحظ أي شيء غير اعتيادي. أسندتُ مرفقي إلى زجاج النافذة، ثم نظرتُ باتجاه الجهة المقابلة. لسع ساعدي ذلك المعدن الساخن والمغطى بالغبار، فسحبته بسرعة مثلما يفعل سرطان بحري بعد أن يُضرب بعضاً.

شاهدتهم في تلك اللحظة. كانوا مستندين بطريقة فوضوية إلى جدران البرج الحجري الذي يعود إلى القرون الوسطى. استطعتُ أن أرى سيارة شرطة بلونيهما الأزرق والأبيض، وتحمل على جانبها عبارة شرطة مدينة مونتريال، وقد سدّت المدخل الغربي المؤدي إلى الجمّع السكني. شاهدتُ أمامها مباشرة شاحنة تابعة لمؤسسة مياه كيبيك بسلاسلها وأجهزتها، التي تتدلى مثل ملحقات محطة فضائية. شاهدتُ ضابط شرطة يقف إلى جانب الشاحنة، ولكنه كان منشغلاً بالحديث مع رجلين يرتديان ثياب العمل.

انعطفتُ يساراً، والتحقّتُ بالسير المتجه غرباً فوق شيربروك. شعرتُ بالارتياح لأنني لم أرَ مندوبي الصحف. إذ يتحوّل الاحتكاك مع الصحفيين في مونتريال إلى كارثة مزدوجة، لأنني اكتشفتُ أن وسائل الإعلام تستخدم اللغتين الفرنسية والإنكليزية. وأنا لا أعتبر نفسي لطيفة بالضبط عندما أضطر للتكلم بلغة واحدة، لكنني سرعان ما أصبح فظة بالتأكيد إذا ما اضطررتُ لرد هجوم باللغتين معاً.

كان لامانش على حق. سبق لي أن حضرتُ إلى هذه الأمكنة في الصيف الفائت. إنني ما زلتُ أتذكر القضية التي عملتُ عليها حينها، حيث تمّ الكشف عن عظامٍ أثناء إصلاح أحد أنابيب المياه الرئيسية. وكانت ملكية تلك الأراضي تعود إلى دار العبادة. تذكّرتُ وجود المقبرة القديمة، وعمليات الدفن التي جرت. وتذكّرتُ أيضاً استدعاء عالم الآثار. أُقفلت القضية عند هذا الحد. أتمنى من كل قلبي أن يجري التقرير الذي سأكتبه عن هذه القضية على نحوٍ مماثل.

ناورتُ بسيارتي المازدا كي أركنّها أمام الشاحنة. لاحظتُ أنّ الرجال الثلاثة المتواجدين في المكان قد توقفوا عن تبادل الحديث، ونظروا إليّ. تمهّل الضابط قليلاً عندما ترجلتُ من السيارة وكأنه يفكر بالمسألة ملياً، ثم تحرك نحوي. لم يتيسم. أعتقد أنه تجاوز نوبة عمله لأن الساعة أشارت إلى الرابعة والرّبع من بعد الظهر، ولعل الرجل لم يكن سعيداً بالبقاء في هذا المكان. حسناً، هذه هي حالتي أيضاً.

"عليك أن تحرّكي هذه السيارة يا سيدي. لا تستطيعين إيقافها هنا."

أشار الرجل بيده وهو يحدثني كي يدلّني على الاتجاه الذي يفترض بي أن أسلكه لدى مغادرتي. استطعتُ أن أتخيّل أن حركة يده تشبه تماماً حركتها عندما يطرد الذباب عن طبق سلطة البطاطا.

أغلقتُ باب المازدا بشدة وقلتُ: "أنا الدكتورة برينان. أعمل لدى مختبرات

الطب الشرعي."

"هل أتيت من قبل مكتب المحقق الجنائي؟"

كانت لهجته اللطيفة هذه توحى بالثقة، حتى ولو جاءت من فم محقق يعمل لدى أجهزة المخابرات السوفياتية.

قلتُ ببطء، وكانني مدرّسة في الصف الثاني الأساسي: "أجل. إنني الأنثروبولوجية القضائية. وأنا أهتم بالقضايا الغامضة، وبالهيكل العظمية. أعتقد أنّ هذه ربما تفسّر لك الأمرين."

وناولته بطاقة تعريف عن عملي. أنبأتني لوحة نحاسية صغيرة نُبتت فوق جيب قميصه أنه الشرطي غرولكس. نظر إلى الصورة المثبتة على البطاقة، ثم نظر باتجاهي. لم يكن مظهره مقنعاً بالنسبة إليه. كنتُ قد قرّرتُ صباحاً العمل على

تجميع مجموعة طيلة اليوم، ولهذا فقد ارتديت ملابس تناسب مواد الغراء. فارتديت سروالاً من الجينز البني الشاحب، وقميصاً من نفس النوع، ورفعت كمّي حتى المرفقين، وانتعلت حذاءً عالياً، لكن من دون جورين. ضمنت معظم شعري تحت قبعة، أما ما بقي منه فتحرر من القبعة مطيعاً قانون الجاذبية، وراح يتلوى حول وجهي، ثم اتجه نزولاً نحو عنقي. انتشرت بقع جافة في أنحاء وجهي، فجعلتني أبدو وكأنني والدّة في منتصف عمرها أُجبرت على التخلي عن مشروع لصق أوراق الجدران الذي كانت تقوم به، أكثر من كوني أنثروبولوجية تعمل لدى القضاء الشرعي.

تفحص الرجل بطاقتي لوقتٍ طويل، ثم أعادها لي من دون أي تعليق. وأتضح لي أنني لست المرأة التي كان ينتظرها.

سألته: "هل رأيت البقايا العظمية؟"

حرك الرجل يده بطريقة غريبة كي يشير إلى الرجلين اللذين وقفا يراقباننا، ولذلك أرجأاً حديثهما حتى وقت آخر. "لا. إنني أحرس المكان. وجد هذان الرجلان العظام. وسيرشدانك إليها".

تساءلت ما إذا كان الشرطي غرولكس قادراً على تأليف جملة مركبة. أشار بيده مرة ثانية إلى العاملين.

"سأحرس سيارتك".

أومأتُ باتجاهه، لكنه تحرك مبتعداً. راقبني عاملاً مصلحة المياه بصمت أثناء تقديمي نحوهما. وكان كل منهما قد وضع نظارة بوضعية الشكل، ولكنني لاحظت أن أشعة شمس المساء كانت تنعكس بشكل متناوب على زجاج نظارتهما كلما حرك أحدهما رأسه. وتدلّى شارب كل منهما حول فمه أخذاً شكل حرف U المقلوب.

بدا الرجل الذي على يساري أكبرهما سناً. ولاحظت أنه رجل نحيف وداكن الوجه، ويمتلك النظرة ذاتها التي يميّز بها كل كلب صيد صغير. نظر الرجل حوله بعصبية، وتقلت نظرتي ما بين شيءٍ وآخر، وبين شخصٍ وآخر، مثلما تفعل النحلة عندما تنتقل بين زهرة متفتحةٍ وأخرى. أبقى الرجل نظرتي مركزةً نحوّي، ثم أبعدها عني على نحوٍ مفاجئ، وكأنه خشي أن يدفعه تلاقي نظرتي مع نظرات الآخرين إلى

الإقدام على أمرٍ سيندم عليه في ما بعد. نقل ثقلَ وزنه بين قدمٍ وأخرى، ثم أحنى كنفه قبل أن يرفعهما مجدداً.

كان شريكه رجلاً أضخم بكثير. وجهه شاحب، وقد أسدل ضفيرة شعرٍ طويلة ورفيعة. ابتسم الرجل ما إن اقتربتُ منه، فبان على الفور فجوات كانت تحتلها أسنانٌ ذات يوم. شككتُ أن يكون الأكثر ميلاً للثرثرة من بينهما.

بادرني الرجل بالفرنسية: "مرحباً. كيف حالك؟"

رددتُ عليه بإيماءتين متتاليتين: "أنا بخير. أنا بخير."

عرّفتُ بنفسي، ثم سألتُهما ما إذا كانا قد أبلغا عن اكتشافهما للعظام.

فشاهدتُ المزيد من الإيماءات.

"إذا أخبراني عنها". تناولتُ دفتر ملاحظات من حقيبة ظهري، وفتحتُ

الدفتر، وجّهتُ قلمي استعداداً للكتابة. ثمّ ابتسمتُ تشجيعاً لهما.

تكلم الرجل ذو الضفيرة بحماسة، وتدافعت كلماته مثلما يفعل الأطفال الذين ينطلقون لأخذ استراحتهم المدرسية. بدا لي أنه يستمتع بهذه المجازفة. وتميزت لغته الفرنسية بألفاظها المشددة. فتسارعت الكلمات متزاحمةً من فمه، فضاعت أواخر بعضها، على عادة الكيبكيين الذين يسكنون في الجهات العليا من النهر. ووجدتُ نفسي مضطرةً للإصغاء إليه بعناية.

أشار بيده إلى أسلاك الطاقة الكهربائية الموجودة فوق رؤوسنا، ثم أجرى

مسحاً بصرياً شاملاً للمنطقة المحيطة بنا. "كنا نقوم بعملنا، وننظف الموصل

الكهربائي، إذ يتعين علينا إبقاء الخطوط نظيفة".

أومأتُ موافقةً. فالتفت وأشار باتجاه منطقة كثيفة الأشجار، تمتد على طول

قطعة الأرض التي كنا نقف عليها وتابع قائلاً: "عندما نزلتُ إلى تلك الحفرة

الموجودة هناك، شممتُ رائحة غريبة". توقف عن الكلام، وتسمّرت عيناه في اتجاه

الأشجار، ثم مدّ ذراعه، واخترقت سبابته الهواء.

"غريبة؟"

استدار إلى الخلف: "حسناً، لم تكن غريبةً بالتحديد". توقف قليلاً ساحباً

الهواء بشفته السفلى أثناء بحثه عن الكلمة المناسبة في قائمة المفردات التي يحتزنها في

ذهنه. تابع قائلاً: "رائحة جثة. أتعرفين، رائحة جثة؟"

انتظرته كي يكمل حديثه.

"أعرفين؟ وكان حيواناً زحف كي يموت في مكان يناسبه".

هزّ كتفيه قليلاً عندما نطق بهذه العبارة الأخيرة، ثم نظر نحو كي يعرف إذا ما كنت عازمة على موافقته على قوله. كنتُ أعرف ما يتحدث عنه هذا الرجل، فرائحة الموت ليست غريبة عني. فأومأت ثانية.

"اعتقدتُ ذلك. اعتقدتُ أنّ كلباً، أو ربما نمساً، مات في المكان. بدأتُ باستكشاف المكان حول الموصل الكهربائي مستعيناً بمعولي، وركّزتُ على المكان الذي فاحت منه الرائحة الأقوى. وجدتُ، بالتأكيد، مجموعةً من العظام". هزّ الرجل كتفيه مرةً أخرى.

"آه - هه". بدأ شعور غير مريح يسيطر عليّ. إذ لا تصدر رائحة عن الجثث المدفونة منذ زمن طويل.

"وهكذا ناديتُ جيل...". نظر إلى الرجل الأكبر منه سنّاً منتظراً منه الموافقة على كلامه. بدا جيل منشغلاً بالتحديق في الأرض. "... ثم بدأنا نحفر سوياً بين أوراق الأشجار، وتلك العظام التي وجدناها. لم يكن ما وجدناه يشير إلى ما يشبه بقايا كلب أو نمس". طوى الرجل ذراعيه فوق صدره أثناء تلفظه بهذه العبارات، وأخفض ذقنه، ثم وقف على عقبيه.

"ولماذا؟"

"إنه كبير جداً". طوى الرجل لسانه، ثم استخدمه كي يتفحص إحدى الثغرات الموجودة في طقم أسنانه الصناعية. ظهر طرف لسانه، ثم اختفى ما بين أسنانه مثل دودة تتحقق من طلوع شمس النهار.

"هل من شيءٍ آخر؟"

ترجع الرجل النحيل إلى الورا. "ماذا تقصدين؟"

"هل وجدتما شيئاً آخر غير العظام؟"

"أجل. وهذا ما بدا غريباً بالنسبة لي". مدّ ذراعيه على طولهما، وأشار إلى أبعاد ذلك الشيء الغريب بيديه. "وجدنا كيساً مصنوعاً من النايلون يحيط بكل هذه الأشياء...". هزّ كتفيه، ثم رفع راحتي يديه، وترك جملة غير مكتملة.

شعرتُ أنّ انزعاجي يتزايد. "وماذا بعد؟"

"وفينستوز واحدة". قالها بسرعة. وبدا وكأنه شعر بالارتباك والدهشة في الوقت ذاته. رافقي جيل بنظرته. أدركتُ أن فهمه لما يجري يعادل ما فهمته أنا. ابتعد بنظره عن الأرض، ثم ما لبث أن عاد كي يتفحصها ثانية.

ظننت أنني ربما لم أفهم الكلمة التي قالها للتو. "ماذا؟"

"فينستوز. مطبّة، من النوع الذي يُستخدم في الحمامات". أوماً بحركات يديه إلى كيفية استخدامها، وتقدّم بجسده إلى الأمام، ولف يديه حول عصا غير مرئية، ثم راحت ذراعاه ترتفعان وتنخفضان صعوداً ونزولاً. لم تكن هذه الحركات الإيمائية بشعة في سياقها، بل جاءت مزعجة بعض الشيء.

تلقّظ جيل بكلمة "ساكرية..." وستر نظره على الأرض. اكتفيتُ بالتحديق فيه. لم يكن هذا صحيحاً. لذا أهيتُ كتابة ملاحظاتي، ثم أغلقتُ الدفتر.

لم أرغب بانتعال حزمي، وردائي الفضفاض الذي أرتديه أحياناً فوق ملابسني إلا إذا كان ذلك ضرورياً: "هل الأرض رطبة هناك؟"

ردّ الرجل: "لا". نظر مجدداً إلى جيل كي يحصل على تأييد لما قاله. فأوماً الرجل من دون أن يحول بصره عن التراب الموجود على قدميه.

قلت: "حسناً. هيا بنا". تمنيتُ أن أبدو متمتعة بالهدوء أكثر مما شعرتُ به.

مشى الرجل ذو الضفيرة أمامنا فوق العشب وبين الأشجار. وانحدرنا تدريجياً حتى وصلنا إلى واد صغير، ولاحظتُ أنّ الأشجار والأعشاب تتكاثف كلما اقتربنا من قعر الوادي. تبعتُ الرجلين نحو الأجمة. أمسكتُ بالأغصان الكبيرة في يدي اليمين، وهي الأغصان التي دفعها الرجل نزولاً نحوي، قبل أن يمرّرها نحو جيل. ومع هذا بقيتُ بعض الأغصان الصغيرة عالقةً في شعري. فاحت رائحة التراب، والأعشاب، وأوراق الأشجار المتعفنة. وتسَلَّلت أشعة الشمس من خلال الأغصان الخضراء بطريقة غير متساوية جاعلةً من الأرض تبدو مبقّعة مثل قطع أحجية. وجدتُ أنوار الشمس منفذاً لها حتى تصل إلى الأرض. وتراقصت جزئيات الغبار ضمن حزم الأنوار. بينما حامت الحشرات الطائرة حول وجهي، وأزّت في أذني، في حين فضّلت الحشرات الزاحفة أن تلمسك بكاحلي.

توقف العامل الموجود في أسفل الوادي كي يستريح قليلاً، ثم انعطف نحو جهة اليمين. تبعته، وانشغلتُ بمكافحة البعوض، وأبعدتُ النباتات عن طريقي،

وحلقتُ في أسراب البعوض المتطايرة حول عينيّ، وركّزتُ على البعوضة الوحيدة التي اتجهت مباشرة نحو قرنية عيني. انتشرت حبيبات العرق على ثنانيا شعري وشفّيّ، وتسبّبتُ في التصاق خصلات شعري الهاربة بجبهتيّ وعنقي، لذلك ما كان يجدر بي أن أقلق بشأن فستاني، أو شعري.

لم أجد نفسي بحاجة إلى دليلٍ كي أعرف أنني لا أبعد عن الجثة سوى خمس عشرة ياردة. فلقد اشتممتُ رائحة الموت المميزة، والمترجة مع رائحة تربة الغاية، وضوء الشمس. ولم تكن رائحة الجثة المتحللة تشبه أي رائحة أخرى، وهي تحيّم فوقنا وسط هواء المساء الدافئ. صحيحٌ أنها رائحة ضعيفة، لكن لا يستطيع المرء أن يتجاهلها. قويت الرائحة النتنّة شيئاً فشيئاً مع كل خطوة مشيئها، وتعرّزت كثافتها مثل طين أسراب الجراد. لم تعد رائحة الموت ممتزجة مع الروائح الأخرى، لأنها تغلّبت على كل ما عداها. استسلمت روائح الآشنة، والديبال، والصنوبر أمام قوة رائحة اللحم المتعفن.

توقف جميل، وجمّد في مكانه محتفظاً بمسافة معقولة تفصله عن الجثة. فلقد اكتفى الرجل بالرائحة، لذلك لم يكن بحاجة إلى إلقاء نظرة أخرى. في حين توقّف الرجل الأصغر سناً بعد أن تقدّم عشرة أقدام أخرى، والتفت نحوّي، ومن دون أن ينطق بكلمة واحدة، أشار نحو كومة صغيرة مغطاة جزئياً بالأوراق، وبعض البقايا الأخرى. حامت أسراب الذباب حول الكومة مثلما يحوم الأكاديميون حول مائدة طعام مفتوحة.

شعرتُ بتشنجٍ في معدتي فور رؤيتي لهذا المنظر، وبدأ صوتٌ في رأسي يضح بالقول "ألم أقل لك ذلك؟" تزايد الخوف في أعماقي. وضعتُ حقيبي عند أسفل شجرة، وتناولتُ قفازين طبيين. تقدمتُ بهدوء وسط الأغصان الخضراء. وأكد المنظر الذي رأيته مخاوفي.

برزت، من خلال الأوراق والتراب، مجموعة من عظام الأضلاع، والتي أشارت أطرافها نحو الأعلى، فبدت مثل أضلاع قارب في المرحلة الأولى من التصنيع. انحسرتُ كي انظر عن قرب. واعترضتُ أسراب الذباب التي توهجت ألوان قوس القزح من خلال أجسادها الزرقاء - الخضراء. أزحتُ بعض بقايا الأغصان فلاحظتُ أن قسماً من العمود الفقري يثبت الأضلاع في مكانها.

أخذتُ نَفَساً عميقاً، وارتديتُ قفّازيَّ، ثم بدأتُ بإزالة حَفَنَاتٍ من أوراق الأشجار اليابسة، وأوراق الصنوبر الإبرية. وعندما بدأ العمود الفقريُّ يظهر أمام ضوء الشمس أسرعْتُ مجموعة من الحنافس مبتعدةً. تباعدت الحشرات عن بعضها، وتدافعت نحو الخارج، ثم اختفت الواحدة بعد الأخرى بعيداً عن أطراف العظام. تابعتُ إزالة الوحول عن العظام متجاهلةً الحشرات. وتمكّنتُ من تنظيف مساحة ثلاثة أقدام مربعة تقريباً، ببطء وعناية. استطعتُ أن أعرف في غضون عشر دقائق طبيعة الشيء الذي عثر عليه جيل ورفيقه. رفعتُ خصلة شعري بيدي المغطاة بالقفاز المطاطي. وتراجعتُ قليلاً واسترحتُ كي أعين الصورة التي بدأت تظهر أمام عينيّ.

نظرتُ إلى الجذع الذي ظهرتُ منه العظام في بعض أجزائه. فشاهدتُ القفص الصدري، والعمود الفقري، والحوض الذي ما زالت تربطه عضلات وأربطة تعرضت للجفاف. بدا النسيج الرابط متيناً ورافضاً تخفيف قبضته عن المفاصل بعد أشهر أو أعوام، لكن الدماغ والأعضاء الداخلية لم تتمتع بالإصرار ذاته. فلقد تحلّلت بسرعة لأنها تتلقى مساعدة من البكتيريا والحشرات، ويحدث ذلك في غضون أسابيع.

رأيتُ بقايا الأنسجة الجافة البنية اللون والتي تمسك بأسطح عظام الصدر والبطن. جلستُ القرفصاء فأسرعت أفواج الذباب لتحوم من حولي. وتسَلّلت حزم أشعة الشمس من خلال أشجار الغابة المنتشرة في المكان. تأكدتُ من أمرين، أولهما أن الجذع يعود لإنسان، والثاني أن تواجهه في هذا المكان كان منذ وقت قريب.

أدركتُ أيضاً أن وجوده، أو وصوله، إلى هذا المكان لم يكن من قبيل الصدفة. فلقد تأكدتُ من أن الضحية قُتلت ثم رُميت هنا. إذ وُضعت البقايا في كيس من النايلون من النوع العادي الذي يُستخدم لجمع النفايات في المطابخ. وخبّنتُ أن الكيس الذي أصبح ممزقاً الآن قد استُخدم من أجل نقل هذا الجذع. لم أجد الرأس ولا الأطراف، ولم ألاحظ وجود أي أغراض شخصية، أو أي أغراضٍ أخرى في الكيس. ما عدا شيئاً واحداً.

أحاطت عظام الحوض بمطية مثل تلك المستخدمة في الحمامات. وبرز مقبضها الخشبي الطويل نحو الأعلى، وبدا مثل قطعة بوبسيكل مقلوبة، ورأيت دائرة

الغطاس (المطبة) الحمراء ملتصقة بشدة على فتحة الحوض. أوحى لي هذا المنظر بأنها حُشرت عمداً في مكانها. وبدت الفكرة مرعبة مع أنّ الرابط الذي استنتجته كان منطقياً.

وقفتُ ونظرتُ من حولي، وشعرتُ أن ركبتيّ تعترضان على وضعية وقوفي. أعرف من تجاربي السابقة أنّ الحيوانات المفترسة تستطيع جرّ أجزاء من جثة ما مسافات مذهلة. إذ تستطيع الكلاب تحبّبة هذه الأجزاء تحت الأعشاب الكثيفة، لكن الحيوانات الحفّارة تستطيع نقل العظام الصغيرة، والأسنان، إلى حُفر تحت الأرض. نظّفتُ بقايا التراب من يديّ، واستكشفتُ المنطقة المحيطة بي مباشرة، وبحثتُ عن طرقات محتملة.

أزّت أسراب الذباب من حولي، وزعق صوت بوق سيارة في شيربروك، التي خلّتها تبعد مليون ميلٍ عني. تسلّلت إلى ذهني ذكريات غابات أخرى، وقبورٍ أخرى، وعظامٍ أخرى، وبدت مثل صورٍ غير مترابطة من أفلام قديمة. وقفتُ من دون حراكٍ في مكاني، وتابعتُ بحثي بانتباه. لم أشاهد أي أمرٍ شاذٍ في المنطقة المحيطة بي، لكنني أحسستُ بوجود أمرٍ مثل هذا. واختفى هذا الشيء الجاف قبل أن تتمكن خلايا دماغي العصبية من تكوين صورة له. حدث ذلك بسرعة تماثل سرعة اختفاء حزمة من الضوء بعد انعكاسها على سطح مرآة. دفعتني ومضة لم أستطع تفسيرها إلى الالتفات. لم أر شيئاً. تسمّرتُ في مكاني، لكنني لم أكن واثقةً من رؤيتي لأي شيء. طردتُ الحشرات التي حامت أمام عينيّ، ولاحظتُ أنّ الطقس بدأ يميل إلى البرودة.

اللعنة! تابعتُ بحثي. تطايرت حصلات شعري المشبعة بالرطوبة حول وجهي بفعل نسيمات خفيفة استطاعت بعثرة أوراق الأشجار. تملكني الإحساس ذاته مجدداً. اعتقدتُ أنّ ضوء الشمس ينعكس على سطح ما. تقدمتُ خطوات قليلة مع أنني لم أكن متأكدة من مصدر هذا الوميض، ثم توقفت. تنبهت كل خلية من خلايا كياني مترصدة كل الأضواء والظلال. لا شيء. لا يوجد، بالطبع، أي شيءٍ غريب أيتها الغبية! لا يُمكن أن يتواجد أي شيء هناك، حتى الذباب.

فجأة لاحظته. هبّت الريح بلطف فوق سطح لامعٍ وتسبّبت في تموجٍ مؤقتٍ في أضواء المساء. لم يكن التموج كبيراً لكن عينيّ استطاعتا ملاحظته. تمكّنتُ من

التنفس بصعوبة. اقتربتُ أكثر، وتطلعت إلى الأسفل، ولم أفاجأ بما رأيته. فكّرتُ في نفسي أن مهمةً جديدةً بدأت الآن.

تراءت لي من خلال فجوة في جذور شجرة حور صفراء زاوية كيس بلاستيكي آخر. انتشرت باقة من الحوذان (عشب ذو زهرٍ أصفر) حول شجرة الحور والكيس، ونمت بشكل مجموعات معرشة لتختفي تحت الأعشاب التي تحيط بها. بدت الأزهار ذات اللون الأصفر الفاقع مثل الأشكال الهاربة في لوحة بياتريس بوترو، بينما بدت نضارة الأزهار في تناقضٍ شديدٍ مع ذلك الشيء الذي أعرف أنه يخبئ في كيسٍ مصنوعٍ من النايلون.

اقتربتُ من الشجرة، وسمعتُ طقطقة الأغصان الطرية، والأوراق تحت قدمي. استندتُ بإحدى يدي، وجربتُ باليد الأخرى أن أرفع ما يكفي من الكيس المصنوع من النايلون بشكلٍ يمكّني من وضع يدي، ثم أسندتُ جسدي بقوة، وسحبتُ بلطف. لا فائدة. أعدتُ لفّ الكيس المصنوع من النايلون حول يدي وسحبتُ بقوة أكبر إلى أن شعرتُ أنّ الكيس يتحرك. تأكدتُ من أنّ الكيس يحتوي على شيءٍ ما. بدأت الحشرات تطنّ حول وجهي، وبدأت قطرات العرق تتساقط على ظهري، وبدأ قلبي بالخفقان مثل آلة موسيقية تعزف ضمن فرقة.

سحبتُ مرةً أخرى فتحرّر الكيس. دفعتهُ إلى الأمام لمسافة تكفيني كي ألقى نظرة على محتوياته. أو لعلني أردتُ فقط أن أبعده عن أزهار ميز بوترو. اكتشفتُ أنّ الكيس ثقيل بغض النظر عما يحتويه، لكنني كنت شبه متأكدة مما يحتويه. كنت محقة، فما إن بدأتُ بفك رباطات أطراف الكيس حتى فاحت رائحة العفونة القوية وغطت على ما عداها.

حدّق بي وجه بشري. لم يتعفن الوجه تماماً بسبب تغطيته، الأمر الذي أبعده عنه الحشرات التي تسرّع عملية التحلّل، لكن الحرارة والرطوبة غيرتا معالم الوجه، وحوّلته إلى قناعٍ للموت لا يحمل إلا القليل جداً من الشبه بالشخص الذي كان على قيد الحياة. حدقت بي عينان زاويتان ومتقلصتان من تحت جفنين نصف مغمضين. رأيتُ الأنف منحنياً نحو جهة واحدة، والمنخرين منضغطين ومسطّحين على خد غائر. لاحظتُ الشفتين المزمومتين، والتكشيرة الأبدية التي رسمتها مجموعة من الأسنان السليمة. كان لون اللحم في الوجه الميت أبيض بلون العجين،

وتشكلت قشرة بيضاء رطبة قَولبت نفسها حول العظام الموجودة تحتها. أحاطت كتلة من الشعر الأحمر الباهت بكل تلك الأشياء، ولاحظتُ أنّ الخُصَل اللولبية الباهتة قد التصقت بالرأس بواسطة أنسجة الدماغ المُسالمة والمتسربة. مرتجفةً، أغلقتُ الكيس. تذكرتُ عاملي المياه، وتطلعتُ نحو المكان الذي تركتهما فيه. رأيتُ أصغرهما سنّاً يراقبني جيداً، فيما بقي رفيقه خلفه وبعيداً عنه قليلاً، وقد أحنى كتفيه، وأدخل يديه في أعماق جيبي سرواله الذي يرتديه أثناء العمل.

خلعتُ قفّازيَّ ومررتُ بالقرب منهما، ثم خرجتُ من تحت الأشجار لأعود إلى حيث تقف سيارة الشرطة. لم يقولا شيئاً، لكنني سمعت وقع أقدامهما ورائي، فوق أوراق الأشجار.

شاهدتُ الشرطي غرولكس مستنداً إلى السيارة. راقبني وأنا أقرب نحوه لكنه لم يتحرك. سبق لي أن تعاملتُ مع أشخاص أكثر وداً. أستطيع أن أكون باردةً بدوري. "هل أستطيع استخدام جهاز الراديو في سيارتك؟"

انصب واقفاً ومستنداً إلى يديه، واستدار حول السيارة متجهاً نحو جهة السائق. أدخل رأسه من خلال النافذة المفتوحة، وانتزع الميكروفون من مكانه، ثم وجّه نحوّي نظرة تساؤل. قلتُ: "إنها جريمة قتل".

بدا مندهشاً. شعر بالأسف، ثم طلب الرقم الذي أردته. قال للموظف: "قسم الجرائم". سمعتُ صوت رجل تحرّ ينساب في الهواء بعد فترة من التأخير المعتاد، والتحويلات، والخشخشة.

قال الصوت بنبرة من الغضب: "كلوديل".

ناولني الشرطي غرولكس الميكروفون. عرّفتُ بنفسي، وأعطيتُه عنوان الموقع الذي أتواجد فيه. قلتُ له: "لديّ جريمة قتل هنا. وهناك احتمال وجود عملية تخلّص من الجثة. ويُحتمل أن تكون الضحية أنثى، وهناك احتمال حدوث عملية قطع للرأس. أريدك أن ترسل فريقاً من أجل نقل الجثة على الفور". مرتّ فترة انتظار طويلة. واتضح أنّ الجميع وجدوا هذه الأخبار سيئة.

"عفوًا؟"

كررتُ ما سبق وقلته، وطلبتُ من كلوديل أن يُبلغ بيار لامانش عندما يتصل بموظفي المشرحة. فلن تكون هناك حاجة لعلماء الآثار هذه المرة. أعدتُ الميكروفون إلى غرولكس الذي أصغى إلى كلِّ كلمة قلْتُها. ذكّرته بضرورة الحصول على تقرير كامل من العاملين. بدا مثل رجلٍ حُكِمَ عليه للتو بالسجن عشرة أعوام، أو عشرين عاماً. أدرك الرجل أنه لن يتوجّه إلى منزله في وقت قريب. لم أشعر بتعاطفٍ خاصٍ تجاهه، خصوصاً وأنني لن أتمكن من النوم في كيبك سبتي في عطلة نهاية الأسبوع هذه. تبين لي بعد أن اجتزتُ مسافة قليلة باتجاه منزلي بأنه لن يتمكن أحد منا من النوم كثيراً لمدة طويلة. وقد بينت الأحداث أنني كنت محقة، لكنني لم أتمكن من تقدير مدى الرعب الذي تربص بي.

2

بدأ اليوم التالي حاراً ومشمساً مثل اليوم الذي سبقه، وهو الطقس الذي يرفع من معنوياتي في العادة. إنني امرأة يتأثر مزاجها بالطقس، لذلك يتحسن مزاجي مع تحسن ميزان الضغط الجوي، ويهبط معه. لم أشعر أن للطقس أهمية في ذلك اليوم بالذات. وجدت نفسي عند الساعة التاسعة صباحاً في غرفة التشريح رقم 4، وهي أصغر غرفة في مختبرات علوم الطب الشرعي، لكنها الغرفة الأفضل تجهيزاً بوسائل تهوية إضافية. اعتدتُ العمل في هذه الغرفة لأن معظم الجثث التي أعمل عليها لا تكون محفوظة جيداً. لكن أجهزة التهوية لا تكفي، ويبدو أن لا شيء كافٍ في هذه الأيام. لم تستطع المراوح والمطهرات أن تغلب على رائحة الموت المزمّن، كما فشل لمعان الفولاذ غير القابل للصدأ الذي يلتصق بفعل المواد المعقمة بأن يحو آثار الموت البشري.

تستحقّ البقايا التي أخذت من لا غرانده سيميناريو أن تكون في الغرفة رقم 4 بكل تأكيد. عدتُ الليلة الماضية إلى المكان بعد أن تناولتُ عشاءً سريعاً، ثم جهزنا موقع الجريمة. وصلت العظام إلى المشرحة عند الساعة التاسعة والنصف مساءً. وترقد العظام الآن في كيس مصنوع من النايلون فوق عربة مدولبة موجودة إلى يميني. ناقشنا القضية #26704 في الاجتماع الصباحي الذي يعقده فريق العمل. وأوكل إليّ أحد الأطباء الخمسة الذين يعملون في المختبرات معاينة هذه الجثة، بعد استعراض الإجراءات الروتينية. طُلب مني استخدام خبرتي في هذه القضية لأن اللجنة اقتصرت على العظام غالباً، ولأن الأنسجة الطرية كانت قليلة جداً، ومتحللة، بحيث يصعب إجراء تشريح عادي عليها.

سبق أن اتصل صباحاً أحد التقنيين العاملين في المختبرات وقال إنه مريض. وتسبب غيابُه بنقص في المساعدين. يا لهذا التوقيت السيئ! انشغلتُ كثيراً في الليلة السابقة: انتحار مراهق، زوجان وُجدا ميتين في منزلهما، واحتراق شخص نتيجة اندلاع حريق في سيارة فتشوهت معالمه. ها أنا الآن أمام أربع عمليات تشريح، وقد تطوعتُ - فضلاً عن ذلك - لكي أعمل بمفردي.

ارتديتُ ثوبي الجراحي الأخضر، ونظارة الوقاية البلاستيكية، وقفازين مطاطيين. يا للروعة! انتهيتُ من تنظيف الرأس وتصويره. سيتم تصويره بالأشعة السينية هذا الصباح، وسيُغلى بعد ذلك من أجل إزالة اللحم المتعفن وأنسجة الدماغ لكي أتمكن من فحص خصائص الدماغ.

فحصتُ الشعر بتأن، وبحثتُ عن أي ألياف، أو آثار تشكل دليلاً. بدأتُ بتفريق الخُصَل الرطبة، لكنني لم أستطع عدم تخيل آخر مرة أقدمت الضحية فيها على تمشيط شعرها، ورحتُ أتساءل عما إذا كانت قد شعرتُ بالرضا، أو بالإحباط، أو بالامبالاة. هل كان يوم الشعر الجميل، أم يوم الشعر غير المرتب، قبل أن يصبح يوم الشعر الميت؟

حاولتُ طرد هذه الأفكار من ذهني، ووضعتُ العيّنة في كيسٍ أرسلته إلى قسم البيولوجيا، حيث يتم تحليل العيّنة مجهرياً. كذلك، كان الغطاس (المطبة)، والأوكياس المصنوعة من النايلون قد وصلت إلى مختبرات العلوم الشرعية، حيث سيجري فحصها بحثاً عن البصمات، أو أي آثار من سوائل الجسم، أو حتى بحثاً عن مؤشرات تدل على القاتل، أو الضحية، مهما كانت صغيرة.

قضينا ثلاث ساعات في الليلة السابقة مستندين إلى أيدينا وركبنا ونحن نتحسّس من خلال الوحول، ونفتش من خلال الأعشاب والأوراق، ونقلب الأحجار و جذوع الأشجار. لم نجد شيئاً. تابعنا البحث إلى حين أجبرنا الظلام على إنهاء عملنا من دون أن نعثر على شيء. لم نجد ملابس، ولا أحذية، ولا جواهر، ولا أغراض شخصية. علمنا أنّ فريق استعادة مسرح الجريمة سوف يعود اليوم كي يحفر ويغربل، لكنني شككتُ في إمكانية عثوره على شيء. لن أجد بقري علامات الصانعين أو قسائمهم، ولا سحّابات أو مشابك أو جواهر، ولا أسلحة، ولا أربطة، ولا ملابس ممزقة مليئة بالثقوب تساعد على التعرف على الأشياء التي

وجدناها. تخلص الجرم من الجثة بعد أن عراها وقطعها، وجردّها من كل شيء يربطها بالحياة.

عدتُ إلى الكيس الذي يحوي الجثة، أو بقاياها المريعة، وحضرتُ نفسي للبدء في الفحص الأولي لها. سيخضع الجذع والأطراف في ما بعد إلى عملية تنظيف، وسأجري تحليلاً كاملاً لكل العظام. استطعنا أن نحصل على كامل الهيكل العظمي تقريباً. سهّل القاتل هذه العملية علينا عندما أقدم - أو أقدمتُ - على وضع الرأس والجذع في كيسين، ووضع الذراعين والرجلين في كيسين آخرين. وهكذا حصلنا على أربعة أكياس. إنه عمل في غاية الترتيب. ملأ القاتل الأكياس، وتخلص منها مثلما يتخلص المرء من النفايات التي تجمعت على مدى أسبوع. حولتُ نغمتي إلى مكان آخر وأجبرتُ نفسي على التركيز.

أخرجتُ الأجزاء المقطّعة من الأكياس، ورتبْتُها بحسب مواقعها التشريحية على طاولة التشريح المصنوعة من الفولاذ الذي لا يصدأ، والموضوعة في وسط الغرفة. حرصتُ أولاً على إخراج الجذع وركّزته في الوسط ووضعتُ جهة الصدر إلى الأعلى. بدا الجذع متماسكاً بصورة مرضية. لم يكن الكيس الذي احتوى أجزاء الجسد مربوطاً بعناية مثلما كان الكيس الذي احتوى الرأس. وجدتُ الجذع على أسوأ حال ممكنة، فتماسكت العظام بواسطة حزام جلدية مؤلفة من عضلات وأربطة جافة. لاحظتُ أن الفقرات العليا مفقودة، وتمتيتُ أن أجدّها مع الرأس. في حين اختفت الأعضاء الداخلية ولم يتبقَ منها إلا أثرٌ قليل.

انتقلتُ بعدها إلى وضع الذراعين على جانبي الجذع، والساقين إلى الجهة السفلى. لم تتعرض هذه الأطراف إلى ضوء الشمس لذلك لم يلحقها الجفاف مثلما حصل مع الصدر والبطن. لذا احتفظتُ الأطراف بقسم كبير من الأنسجة الطرية المتعفنة. حاولتُ أن أتجاهل الطبقة الصفراء الشاحبة، والتموجة، التي تراجعت بشكل بطيء تحت سطح كل طرف من الأطراف عندما سحبتُها من الكيس المخصص لحفظ الجثث. إذ تسرع الديدان إلى مغادرة الجثة عندما تتعرض للضوء. رأيتها تتساقط من الجثة إلى الطاولة، ومن الطاولة إلى الأرض. حدث ذلك على شكل رذاذ مستمر، وإن ببطء. انتشرت حبيبات الأرز (الديدان) الشاحبة متقلبة قرب قدمي، لكنني تجنبتُ الدوس عليها. في الواقع، لم أعود عليها.

تقدمتُ مسن لوحة الكتابة، وبدأتُ أملأ النموذج. الاسم: مجهول. تاريخ التشريح: 3 حزيران، 1994. المحققون: لوك كلوديل، ميشال شاربونيو، من قسم الجنايات، شرطة مدينة مونتريال.

أضفتُ رقم تقرير الشرطة، ورقم التشريح، ورقم مختبرات الطب الشرعي. اجتاحتني الموجة المعتادة من الغضب نتيجة اللامبالاة المتغترسة التي يُظهرها النظام. إذ لا تسمح الوفيات الناتجة عن العنف بأي خصوصية. فتستبيح هذه الوفيات كرامة الضحية، كما تستبيح حياتها. فتلمس الجثة، وتُفحص بدقة، وتصور، كما تُضاف مجموعة من الأرقام عند كل خطوة. تتحوّل الضحية إلى جزءٍ من الدليل، أو المستند القانوني، وتُعرض أمام الشرطة، والأطباء، والمختصين العدليين، والمحامين، وأخيراً هيئة المحلفين. تُعطى هذه الجثة رقماً، ثم يتمّ تصويرها، وتؤخذ العينات منها، ثم توضع إشارة على إصبع القدم. إنني أعتبر نفسي مشاركة نشطة في هذه العملية، لكنني لم أستطع أبداً أن أتقبّل هذه الموضوعية التي يتميّز بها النظام. إذ تغدو هذه العملية أشبه بعملية سلب ذات مستوى شخصي رفيع. ولكن، سأقوم على الأقل باكتشاف اسم هذه الضحية. تُضاف هذه الوفاة بهذه الطريقة المجهولة إلى قائمة الانتهاكات التي يعانيتها، أو تعانيتها، الضحية.

انتقيتُ أحد النماذج من اللوحة. فلقد اعترمت أن أُغيّر برنامج الفحص الذي أعتمده في العادة، وهكذا فإنني سأترك إجراء الجردة الهيكلية الكاملة إلى وقت لاحق. أخبرني رجال التحري أنهم يريدون معرفة ملخص عن هوية الضحية: الجنس، العمر، والعرق.

اتضح عرقُ الضحية لدي فوراً. شعرها أحمر، وما بقي من الجلد بدا فاتحاً. ولكن، مع ذلك، يقدر التحلّل على فعل أمور غريبة. تفحصتُ تفاصيل عظام الهيكل بعد تنظيفها. أستطيع أن أراهن الآن على أن الضحية تنتمي للعرق القوقازي.

اتجهت تخميناتي في البداية إلى أن الضحية أنثى. كانت معالم الوجه دقيقة، أما معالم البنية الجسدية فدلت على النحافة. ولا يدل الشعر الطويل على شيء. تفحصتُ الحوض. ولاحظتُ عندما قلبته إلى جانبه أن الشق الموجود تحت نصل الورك عريض وغير عميق. عدلت وضعيّة الحوض حتى أستطيع رؤية العظام

العانية، أي تلك المنطقة من الجهة الأمامية حيث يلتقي النصفان الأيمن والأيسر من الحوض. لاحظتُ أنّ القوس الذي يتشكل من حدّيهما الأسفلين كان قوساً عريضاً. ارتفعت حواف دقيقة عبر الجهة الأمامية فوق كل عظمة عانية، فشكّلت بذلك مثلثات واضحة عند الروايا السفلية. إنها مظاهر أنثوية نموذجية. سأخذ القياسات في ما بعد، ثم سأجري تحليل التمييز الوظيفي على جهاز الكمبيوتر، لكن ما من شك عندي في أنّ هذه البقايا العظمية تعود إلى امرأة.

كنت منهمةً في لفّ المنطقة العانية بقطعة قماش مبلّلة عندما روّعني صوت الهاتف. لم ألاحظ مدى السكون المخيم على المكان، أو مدى التوتر الذي شعرتُ به. اقتربتُ من الطاولة، لكنني سرتُ بطريقة متعرجة مثل طفلٍ يلعب لعبة الرمي، كي أتجنب الدوس على الديدان.

قلتُ: "دكتورة برينان". رفعتُ نظارتي إلى أعلى شعري، ثم هالكتُ على الكرسي. واستخدمتُ قلّمي كي أرمي دودة عن سطح الطاولة. سمعتُ صوتاً عبر السماعة يقول: "كلوديل". كان كلوديل أحد رجلّي التحري المعينين لحل هذه القضية. نظرتُ إلى ساعة الحائط التي أشارت إلى العاشرة والرّبع. انتبهتُ بعد قليل إلى أنه لم يكمل كلامه. وأدركتُ أنه يعتبر اسمه رسالةً كافية.

"إنني أعمل عليها الآن". استطعتُ سماع صوت معدني. "يتعيّن..."

قاطعتني: "أتعنين أهما أنثى؟"

"نعم". راقبتُ دودةً أخرى تتقلّص لترسم شكل هلال، ثم انثنت على نفسها، وكرّرت المناورة في الاتجاه المعاكس.

"هل هي بيضاء؟"

"نعم".

"والعمر؟"

"يفترض أن أعطيك تقديرات في غضون ساعة من الزمن".

استطعتُ أن أتصوّره ينظر إلى ساعته.

"حسنًا. سأوافيك بعد العشاء". سمعتُ قرعَةً. كنت قد سمعتُ تصریحاً لتوي،

ولم أسمع طلباً. يبدو أنّ موافقتي لا أهمية لها.

أنهيتُ المكاملة وعدتُ إلى السيدة المستلقية على الطاولة. تناولتُ لوح الكتابة، وقلبتُ الأوراق حتى وصلتُ إلى الصفحة التالية من أوراق التقرير. العمر؟ تجاوزت الضحية سن البلوغ. إذ سبق لي أن تفحصتُ فيها، ولاحظتُ أن أضراس العقل برزت بالكامل.

تفحصتُ الذراعين في المكانين اللذين فصلنا فيهما عن الكتفين. لاحظتُ أن أطراف عظمتي العضد كانت كاملة، لكنني لم أشاهد أي خط فاصل يحدّد الغطاء في الجهتين، أما النهايات الأخرى فكانت من دون فائدة، لأنها قطعت بكل دقة فوق الرسغين تماماً. واعتزمتُ أن أبحث عن الشظايا في وقت لاحق. تطلّعتُ نحو الساقين. كانت نهاية كل عظمة فخذ تامة التكوين على الجهتين اليمنى واليسرى.

أقلقني شيء ما في تلك المفاصل المقطوعة. لم يكن لذلك الشعور أي علاقة برد فعلي المعتاد عندما أرى حالة فساد أمامي، لكنه كان شعوراً غامضاً ومشوهاً. شعرتُ بتجمّد في أحشائي أثناء إعادتي للساق اليسرى إلى مكانها فوق الطاولة. عاودني شعور الملح الذي خيم عليّ في الغابة. طردتُ هذا الشعور، وأجبرتُ نفسي على التركيز على المسألة التي أعالجها. كم يبلغ عمر الضحية؟ يتعيّن عليّ تحديد العمر. إنّ من شأن التقدير الصحيح للعمر أن يزيد من احتمالات التوصل إلى تحديد الاسم. إنّ تحديد اسم الضحية أصبح الآن على رأس سلّم الأولويات عندي.

استخدمتُ مبضعاً من أجل إزالة اللحم الذي يغلف الركبة، ومفاصل المرفقين. أزلته بسهولة. لاحظتُ مرةً أخرى أنّ العظام الطويلة تامة النمو. سأؤكد من هذه المسألة لاحقاً بعد التصوير بالأشعة السينية، لكن كل المؤشرات تدل على أنّ نمو العظام أصبح تاماً. لم ألاحظ وجود شحوم، أو تغيّرات في المفاصل. يعني هذا أنّ الضحية قد بلغت سن البلوغ، لكنها ما زالت شابة. توافق ذلك مع ما لاحظته من سلامة أسنانها.

أريد المزيد من الدقة. أعرف أن كلوديل يرغب في أقصى درجات الدقة. تفحصتُ كل عظمة من عظمتي الترقوة، حيث تلتقي بعظمة القوس عند قاعدة العنق. لاحظتُ أنه رغم أنّ العظمة اليمنى قد انثرت، إلا أنّ سطح المفصل كان مغلفاً بكتلة صلبة من الغضاريف والأربطة الجافة. استخدمتُ السكين كي أقطع ما

أمكنني من أنسجة الجلد، ثم عمدتُ إلى تغليف العظمة بقطعة قماش مبلّلة، وعاودتُ اهتمامي بالحوض.

نزعْتُ قطعة القماش مجدداً، ثم بدأتُ، مستعينةً بالمبضع، بخياطة الغضروف الذي يربط النصفين الأماميين. ساعدت عملية الترطيب على جعل الغضروف أكثر ليونة، وسهّلت عملية قطعه، لكن العملية بقيت مع ذلك بطيئة ومملة. لم أرغب في إتلاف الأسطح التحتية. وتوصلتُ أخيراً إلى فصل العظام العانية، وقطعتُ الأشرطة القليلة المتبقية من العضلات التي تربط الحوض مع الجهة السفلى الخلفية من العمود الفقري. حرّرتُه، ثم نقلتهُ إلى حوض المياه، وغطّستُ القسم العاني من الحوض في المياه.

عدتُ إلى الجثة مجدداً. فانتزعتُ عظمة الترقوة من الكيس، ثم نزعْتُ ما أمكنني من النسيج. ملأتُ بعد ذلك وعاءً بلاستيكياً يُستخدم لأخذ العينات بالمياه، ووضعتهُ قبالة القفص الصدري، ثم قمتُ بتثبيت طرف عظمة الترقوة فيه.

نظرتُ إلى ساعة الحائط، وأشارت عقاربها إلى الساعة الثانية عشرة وأثني عشرة دقيقة من بعد الظهر. ابتعدتُ عن الطاولة ونزعْتُ قفازيَّ الطيبين عن يديّ. بدأ الألم في ظهري يتزايد ببطء. شعرتُ وكأنّ جميع أفراد فريق البوب وارنر قد تمرّونوا فوقه. وضعتُ يديّ على وركي وتمطيتُ. قوّستُ ظهري إلى الخلف، ثم حرّكتُ الجزء الأعلى من جسدي يمنةً ويسرة. لم تنجح هذه الحركات في تخفيف الألم، لكنها في المقابل لم تؤذني. أخذ عمودي الفقري يؤلمني مؤخراً، لأن الانحناء فوق طاولة لمدة ثلاث ساعات يساهم في زيادة الألم. رفضتُ أن أعتقد، أو أؤمن، أنّ كل هذا الألم يرتبط بتقدمي في السن، كما رفضتُ الاقتناع أنّ حاجتي إلى نظارة للقراءة - التي اكتشفتها حديثاً - وزيادة وزني من 52 كلف إلى 54 كلف ونصف، ما هي إلا نتيجة لتقدمي بالسن. يبدو أن لا شيء يرتبط بتقدمي في السن.

التفتُ لأرى دانيال، وهو أحد تقنيي التشريح، يتطلع نحوي عبر زجاج المكتب الخارجي. بدت شفته العليا متشنجة، كما لاحظتُ أنّ عينيه قد أغمضتا لفترة وجيزة. غيّر وقفته فأصبح ثقله على ساق واحدة، بينما أراح الثانية. بدا في وقفته هذه مثل طائر الطيطوي الذي ينتظر وصول موجة تغمر الرمال التي يقف عليها.

سألني: "متى تريدني أن أبدأ التصوير بالأشعة؟" تدلّت نظارته إلى أسفل أنفه، وبدا أنه ينظر من فوق إطارها، وليس من خلالها.
"أتوقع أن أنتهي حوالى الساعة الثالثة". قذفتُ بقفازيَّ الطبيين في السلّة المخصصة للنفايات البيولوجية. وتذكرتُ، فجأةً، كم أنا جائعة. تطلعتُ إلى كوب قهوتي الصباحية الباردة، والتي بقيت كما هي. لقد نسيتُ قهوتي تماماً.

"حسناً". تراجع إلى الخلف، واستدار، ثم توجه نحو القاعة واختفى عن ناظريّ.
ألقيتُ بنظاريّ على طاولة العمل، ثم تناولت قطعة ورقية كبيرة من الدُرْج الموجود أسفل الطاولة. فردتُ قطعة الورق، ثم غطيتُ الجثة. غسلتُ يديّ جيداً، وقلعتُ عائدةً إلى مكنتي الموجود في الطابق الخامس. ارتديتُ ثيابي العادية، وتوجهتُ كي أتناول غدائي. كانت تلك إحدى المرات النادرة بالنسبة إليّ، لكنني شعرتُ اليوم أنني أحتاج إلى أشعة الشمس الدافئة.

وفي كلوديل بوعدة. فرأيتُه في مكنتي عندما عدتُ عند الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر. كان جالساً قبالة طاولة مكنتي، ومركّزاً اهتمامه على الجمجمة التي أعدتُ جمعها على طاولة عملي. التفتَ برأسه عندما سمعني، لكنه لم يقل شيئاً. علقتُ معظفي خلف الباب، وتجاوزته ثم توجهتُ إلى مقعدي.
"بونجور، مسيو كلوديل. كيف حالك؟" وجهتُ ابتسامةً لطيفة نحوه عبر طاولة مكنتي.

"بونجور". بدا غير مكترثٍ بعلمي. انتظرته حتى يتكلم. ولم أهدأ بالاستسلام لجاذبيته.

رأيتُ ملفاً موضوعاً أمامه على الطاولة. وضع يده عليه ونظر إليّ، وذكرني وجهه بمنظر الببغاء. بدت ملاحظته الممتدة ما بين أذنيه وخط منتصف وجهه مائلة بحدة، وبرزت إلى الأمام حتى انتهت بأنف مستدق. وبدا ذقنه، وفمه، وطرف أنفه، متجهة نحو الأسفل بسلسلة من الزوايا التي تشبه حرف V. ويبدو شكل V الذي يظهر في فمه أكثر حدة في المرات النادرة التي يبتسم فيها، وتبدو شفتاه منسحبتين أكثر من كونهما متراجعتين.

تأوه. أبدى الرجل صبراً شديداً معي. لم يسبق لي أن عملتُ مع كلوديل من قبل، لكنني سمعتُ الكثير عنه. يعتبر الرجل نفسه ذكياً فوق العادة.

قال لي: "بحوزتي أسماء عديدة. هناك الكثير من الاحتمالات. اختفى الكثير من الأشخاص خلال الأشهر الستة الماضية".

كان قد سبق لنا أن ناقشنا سوياً مسألة الوقت الذي مضى على الوفاة. ولم يتغيّر رأيي نتيجة عملي الصباحي. أصررتُ على أنّ وفاة الضحية قد حدثت منذ أقل من ثلاثة أشهر، ولهذا فمن المحتمل أن تكون قد حدثت في شهر آذار، أو ما بعده. إذ تتميز فصول الشتاء في كيبيك ببرودها القاسية على الأحياء، وبلطافتها بالنسبة إلى الأموات، فالجثث المتجمدة لا تتحلل، ولا تجتذب الحشرات. ولو كانت عملية التخلص من الجثة قد حدثت في الخريف الماضي، أي قبل بداية فصل الشتاء، لكنّني لاحظتُ علامات تدلّ على تعرّضها للحشرات. إنّ وجود بيوت الحشرات، أو اليرقات، كان سيشير إلى اجتياح غير مكتمل لحشرات الخريف. وأنا لم أجد أي علامة تدلّ على وجودها. تلاقى دلائل درجة اهتراء الجثة، مع معطيات الربيع الدافئ، لتؤشر إلى أنّ الوفاة قد حدثت في غضون ثلاثة أشهر أو أقل. إنّ وجود الأنسجة الرابطة، والغياب التام للأحشاء وأي أجزاء من الدماغ، دلاً أيضاً على أنّ الوفاة قد حدثت في أواخر الشتاء، أو أوائل فصل الربيع.

استندتُ إلى الخلف ونظرتُ نحوه بترقب. أستطيع أن أكون كتومةً بدوري. فتح المغلف وبدأ يقلب محتوياته. واكتفيتُ بالانتظار.

اختار أحد النماذج وأخذ يقرأ: "مريام وايدر". توقف قليلاً ليتفحص المعلومات الموجودة في النموذج. "اختفت في 4 نيسان، 1994". توقف مرةً أخرى. "أنثى. بيضاء". توقف لمدة أطول هذه المرة. "تاريخ الولادة 6 أيلول، 1948".

بدأت وإياه الاحتماب ذهنياً؛ تبلغ المرأة الخامسة والأربعين من عمرها.

قلتُ: "هناك احتمال أن تكون هي". أو مأتُ له بيدي كي يتابع.

وضع النموذج على الطاولة، وأخذ يقرأ النموذج التالي. "صولانج ليجي. أبلغ زوجها عن اختفائها". صمت قليلاً وجهد كي يقرأ التاريخ. "الثاني من أيار، 1994. أنثى. بيضاء. تاريخ الولادة 17 آب 1928".

هزرتُ رأسي: "لا. تبدو مسنةً كثيراً كي هي تكون الضحية".

وضع هذا النموذج خلف النماذج الأخرى، وانتقى نموذجاً آخر. "إيزابيل غاغنون. شوهدت آخر مرة في 1 نيسان، 1994. أنثى. بيضاء. تاريخ الولادة 15 كانون الثاني، 1971".

أوماتُ ببطء: "إنها في الثالثة والعشرين من عمرها. أجل، قد تكون احتمالاً آخر". وضع النموذج على الطاولة.

"سوزان سان بيير. أنثى. فُقدت منذ 9 آذار، 1994". بدأت شفتاه تتحركان وهو يقرأ. "لم تعد من مدرستها". توقف قليلاً، وراح يحسب عمرها لوحده. "عمرها ستة عشر عاماً. يا إلهي!"

هزرتُ رأسي مجدداً: "تبدو صغيرة جداً. هذه الضحية ليست بفتاة". عبس قليلاً وسحب آخر نموذج. "إيفيلين فونتان. أنثى. العمر ستة وثلاثون عاماً. شوهدت لآخر مرة في جزر سيات في 28 آذار. آه، حسناً. إنها من الإينو". "أشك في أن تكون هي الضحية". قلت هذا لأنني لا أعتقد أن البقايا تعود لهندية.

قال: "هذا كل شيء". بقي نموذجان فوق الطاولة. بقيت مريام وايدر، التي بلغت الخامسة والأربعين من عمرها، وإيزابيل غاغنون، التي بلغت الثالثة والعشرين من العمر. لعل إحداهما هي التي ترقد في الطابق السفلي، وفي الغرفة رقم 4 بالتحديد. نظر كلوديل نحوي، وارتفع حاجباه في الوسط ليشكلا حرف V آخر، لكنه مقلوبٌ هذه المرة.

"كم يبلغ عمرها؟" سألتني مشدداً على الفعل في سؤاله، ربما بسبب المعاناة التي يلاقيها في صبره.

"دعنا ننزل إلى الطابق السفلي، ونرى". قلتُ في نفسي إن هذا سيُدخل بعض البهجة إلى قلبي.

لا أستطيع أن أفعل أي شيء مع الأسف. أعرف أن كلوديل معروفٌ بتجنب غرفة المشرحة، لذلك أردتُ أن أتسبب بإزعاجه. بدا للحظة وكأنه وقع في الفخ. استمتعتُ بانزعاجه. تناولتُ معطفٍ مختبرٍ كان معلقاً وراء الباب، وأسرعتُ عبر القاعة، ثم أدخلتُ مفتاحي في باب المصعد. حافظ الرجل على صمته في طريقتنا نزولاً. بدا لي مثل رجل على وشك الخضوع لفحص بروسات. يندر أن

يستخدم **كلوديل** هذا المصعد بالذات، لأنه لا يتوقف إلا في الطابق المخصّص للمشرفة.

استلقت الجثة في مكانها بهدوء. وضعتُ قفّازيَّ ثم انتزعتُ قطعة الورق البيضاء الكبيرة. استطعتُ رؤية **كلوديل** بطرف عيني متسماً عند المدخل. توغل في الغرفة بما يكفي كي يقول إنه دخلها. تنقل بصره فوق سطح الطاولة المصنوعة من الفولاذ غير القابل للصدأ، والواجهات الزجاجية للخزائن التي تحتوي مخزوناً من الأوعية البلاستيكية الشفافة، والميزان المعلق، وكل شيء في ما عدا الجثة. مررتُ بهذه التجربة من قبل. إذ لا تشكّل الصور تهديداً، لكن منظر الدماء والجروح أمرٌ آخر. إن مسرح الجريمة هو نوعٌ من التدريب السريري، ولا يشكّل معضلة. يمكنك أن تشرّح جثة، وتفحصها، وأن تحلّ اللغز. لكن الأمر يتغيّر إذا وضعتَ الجثة على طاولة التشريح. حاول **كلوديل** أن يضع مسحةً من اللامبالاة على وجهه، وجرب أن يبدو هادئاً.

انتزعتُ العظام العانية من المياه وفصلتها بهدوء. استخدمتُ مجساً كي أتفحص أطراف الحزمة الجيلاتينية التي تغطي السطح العاني الأيمن. انفصلت الحزمة أخيراً، ولكن تدريجياً. تميّزت العظمة الموجودة تحتها بتغضّبات عميقة وأحاديد امتدت بشكل أفقي على السطح. شكّلت شظية من العظام القاسية إطاراً جزئياً حول السطح العاني وشكّلت حافة رقيقة، وإن كانت غير تامة. كرّرتُ العملية في الجهة اليسرى، فوجدتها متماثلة مع الجهة اليمنى.

لم يتحرّك **كلوديل** من مكانه قرب الباب. نقلتُ الحوض إلى مكان وجود مصباح **لوكسو**، وسحبتُ ذراعه الامتدادية نحو الحوض، ثم ضغطتُ على الزر. أضواء ضوء الفلوريسنت العظمة. بدأت تظهر تفاصيل عبر العدسة المكبرة المستديرة لم تظهر سابقاً للعين المجردة. نظرتُ إلى أقصى طرف قوس كل عظمة من عظمتي الورك فرأيتُ ما كنت أتوقعه.

قلتُ من دون أن أرفع بصري. "مسيو **كلوديل**. انظر إلى هذه".

تقدم حتى أصبح خلفي، تحرّكتُ من مكاني كي يتمكن من النظر جيداً. أشرتُ باتجاه شذوذ في الطرف الأعلى من الورك. لاحظتُ. أن التواء الحرقفي كان على وشك الالتحام عندما حدثت الوفاة.

وضعتُ الحوض على الطاولة، لكنه تابع النظر باتجاهه من دون أن يللمسه. عدتُ إلى الجثة كي أتفحص عظام الترقوة، وكنتُ متأكدة مما سأجده. سحبتُ الطرف القصي من المياه، وبدأتُ بانتزاع الأنسجة. أشرتُ إلى كلوديل كي ينضم إليّ ما إن استطعتُ رؤية سطح المفصل. أشرتُ إلى طرف العظمة من دون أن أتكلّم أبداً. لاحظتُ أنّ سطحها كان عريضاً وتموجاً، مثل السطح العاني. التصق قرصٌ صغيرٌ من العظام بجهة الوسط، ولاحظتُ أنّ أطراف هذا القرص محددة وواضحة.

"إذاً؟" رأيتُ حبيبات العرق المتساقطة من جبهته. لقد نجح في إخفاء عصبته بشجاعة تامة.

"إنها شابة، ولعلها في أوائل العشرينيات من عمرها."

كسان بوسعي أن أشرح له علاقة العظام بالعمر، لكنني لم أعتقد أنه سيصغي إليّ جيداً، لذلك اكتفيتُ بالانتظار. علقت بقايا غضروفية على قفازيّ، لذلك أبعدتُ يديّ عن جسمي ورفعتُهما، مثلما يفعل الشحاذون، بينما بقي كلوديل مبتعداً بالمسافة ذاتها التي كان سيحافظ عليها فيما لو كان متواجداً مع شخص مصاب بمرض الإيبولا. بقيتُ عيناه تنظران باتجاهي، لكن تركيزه تحول إلى الأفكار التي تجول في رأسه أثناء تفحصه لمعطيات النموذجين باحثاً عن مواصفات مطابقة لما يراه.

"غاغنون". بدا ذلك تصريحاً، وليس سؤالاً.

أومأتُ. إيزابيل غاغنون. العمر ثلاثة وعشرون عاماً.

قال لي: "سأطلب من المحقق البحث عن سجلات أسنانها".

أومأتُ مجدداً. بدا وكأنه يريد معلومات أكثر.

سألني: "ما هو سبب الوفاة؟"

قلتُ له: "لم يتّضح السبب بعد. قد أعرف المزيد عندما أرى صور الأشعة، أو

لعلّي سألاحظ أمراً ما عندما أنتهي من تنظيف العظام".

غادر ما إن انتهيتُ من كلامي. لم يقل وداعاً. ولم أتوقع منه هذا التصرف،

لكنني ارتحستُ إلى مغادرته مثلما ارتاح هو. نزعْتُ قفازيّ ورميتهما جانباً.

مررتُ من أمام جناح التشريح الواسع، وأخبرتُ دانيال أنني انتهيتُ من العمل

على هذه القضية لهذا اليوم. وطلبتُ منه أخذ صور بالأشعة السينية للجثة بكاملها بما في ذلك الجمجمة، بالإضافة إلى صور أمامية وخلفية وجانبية. توقفتُ في الطابق العلوي أمام مختبر الأنسجة، كي أبلغَ رئيس التقنيين أنَّ الجثة أصبحت جاهزة للغلي، لكنني طلبتُ منه بذل عناية خاصة لأن الجثة مقطّعة. لم يكن طلي هذا ضرورياً في الواقع، لأن أحداً لا يستطيع تقليص حجم شخصٍ مثل دينيز. سيظهر هيكلها العظمي في غضون يومين، نظيفاً وسليماً.

أمضيت ما تبقى من فترة ما بعد الظهر مع الجمجمة المغرّاة الموجودة على طاولة مكثي. بقي ما يكفي من مظاهرها للتعرف على صاحبها رغم تقطيعها. لن يكون صاحب هذه الجثة مضطراً لقيادة صهاريج الغاز بعد الآن.

عدتُ إلى منزلي، وعاودني الإحساس بأن شيئاً ما على وشك الحدوث، وهو الإحساس ذاته الذي تملكني عندما كنتُ في الوادي. استفدتُ من انهماكي بعملتي خلال النهار كي أبعد هذا الشعور عني. نجحتُ في إبعاد توجسي هذا عن طريق التركيز التام على هوية الضحية، وعلى جمع جمجمة سائق الشاحنة. استفدتُ خلال وقت الغداء من سرب الحمام في المتنزه كي أبعد هذه الفكرة عني. فلقد انشغلتُ كلياً بالكشف عن نظام التقاط الحبوب الذي تتبعه هذه الحمام. جاءت الحمام الرمادية أولاً، وجاءت الحمام المرقطة ببقع بنية في ما بعد. تبين لي أن الحمام ذات القوائم السوداء تأتي في آخر القائمة.

أصبحتُ جاهزة للاسترخاء الآن. تسنى لي الوقت الكافي كي أفكر، وكي أقلق. سيطر عليّ هذا الشعور ما إن دخلتُ إلى المرآب بسيارتي، فأطفأتُ جهاز الراديو. فصمتت الموسيقى كي يبدأ القلق. زجرتُ نفسي. لا ليس الآن، بل في ما بعد. دعينا نؤجل ذلك إلى فترة ما بعد الغداء.

دخلتُ الشقة. سمعتُ صوت نظام الأمان الذي يبعث الطمأنينة في نفسي. تركتُ حقيبتي في الردهة. أغلقتُ الباب ورائي، واتجهتُ إلى المطعم اللبناني الذي يقع عند زاوية الشارع. طلبتُ تجهيز صحن شيش طاووق، وصحن شاورما، كي آخذهما معي إلى المنزل. هذا ما يعجبني في السكن وسط المدينة؛ أستطيع الحصول على كل أنواع الأطباق العالمية التي تقدّم في مطاعم تقع بالقرب من شقتي. فهل يعود سبب زيادة وزني إلى...؟ لا.

تأملتُ لائحة المأكولات التي تُقدَّم في المطعم: **حمص**، **تبولة**، ورق عريش... يا لهذه القرية العالمية (العالم)! تبتى اللبنانيون الذوق الفرنسي في النهاية. رأيتُ رفاً صُفَّت عليه زجاجات من الشراب الأحمر إلى يسار صندوق النقد في المطعم. كنت أمتلك سلاح الاختيار. نظرت إلى هذه الزجاجات، وشعرت بالرغبة في تناول هذا النوع من الشراب للمرة الألف. تذكرتُ طعمه ورائحته، وصفاءه، ومدى الانتعاش الذي يبعثه في نفسي. تذكرت الشعور بالدفء الذي سيبدأ بالسريان في معدتي وينتشر صعوداً وفي الاتجاهات كافة متخذاً مساراً لولبياً في أنحاء جسمي، ومُثيراً في الشعور بالسعادة في طريقه. إنها مشاعل التحكم، والحماسة، والمنعة. أحسستُ أنني بحاجة إلى هذا الشعور الآن. أجل. هل أخدع نفسي؟ أعلم أنني لن أتوقف عند هذا الحد؟ ماذا يسمون تلك المراحل؟ سأمضي قدماً كي أصل إلى أقصى درجات المنعة إلى أن أصبح غير مرئية. سأمضي بعيداً جداً قبل أن أتخطم. سيكون الشعور بالراحة قصير الأجل، لكن الثمن سيكون غالباً جداً. مضت ستة أعوام على آخر مرة تناولتُ الشراب فيها.

أخذتُ طعامي إلى منزلي وتناولته برفقة هرتي **بيردي**، وشاهدتُ على شاشة التلفاز **مونتريال إكسبو**. نام **بيردي** في حضني ملتفاً حول نفسه، وأخذ يخرخر بنعومة. خسر **مونتريال إكسبو** جولتين أمام **الكيس**. لم يأت أحد على ذكر الجريمة. ارتحت كثيراً لهذا.

استمتعتُ بحمام ساخن لفترة طويلة، وتوجّهتُ إلى سريري عند العاشرة والنصف مساءً. لم أستطع مقاومة تلك الفكرة بعد أن أصبحت وحدي، والظلمة تلفني وسط الهدوء المخيم. نمت تلك الفكرة واكتسبت قوة، مثلما تفعل الخلايا التي يصيبها الجنون، واستطاعت أخيراً أن تتغلغل إلى وعيي، وأصرت على إثبات نفسها. إنها الجريمة الأخرى. الشابة التي وصلت قطعة قطعة إلى المشرحة. رأيتُ تفاصيلها كافة، وتذكرتُ المشاعر التي تملكنتني عندما انشغلتُ بالعمل على عظامها. أتحدثُ عن **شانثال تروتييه** ابنة الستة عشر ربيعاً. خُنقت **شانثال** وتعرضت للضرب، وقُطع رأسها، كما قُطعت أطرافها الباقية. وصلت منذ أقل من نصف عام عارية، ومغلّفة بأكياس النفايات المصنوعة من النايلون.

جَهَّزْتُ نَفْسِي كِي أُحْتَمَ يَوْمِي، لَكِن عَقْلِي رَفَضَ إِتْمَاءَ مَهْمَاتِهِ لِهَذَا الْيَوْمِ.
اسْتَلْقَيْتُ عَلَى سَرِيرِي وَرَأَيْتُ تَكْوَنَ جِبَالٍ وَسَطَ تَحْرُكِ الصَّفَائِحِ الْقَارِيَةِ.
اسْتَسَلَمْتُ لِلنَّوْمِ فِي النِّهَايَةِ، لَكِن الْعِبَارَةُ تَرَدَّدَتْ فِي أَنْحَاءِ جَمْعِي. وَلا حَقَّتَنِي هَذِهِ
الْعِبَارَةُ طِيلَةَ عَطَلَةٍ نَهَايَةِ الْأُسْبُوعِ. الْجَرَائِمُ التَّسْلِسَلِيَّةُ.

3

أخذت غايي تنادي رقم رحلتي. اصطحبتُ معي حقيبة سفرٍ كبيرة، ولهذا وجدتُ صعوبة في شق طريقي وسط المسافرين. انزعج المسافرون الآخرون، لكن لم يتقدم أحد لمساعدتي. استطعتُ أن أرى كاتي جالسة في الصف الأمامي من مقاعد الدرجة الأولى. وكانت قد ارتدت الثوب الحريري الأخضر الفاتح الذي اخترناه لها عند تخرجها من المدرسة الثانوية. أخبرتني لاحقاً أنها لا تحبه، وأسفت لأننا اخترناه لها. أخبرتني أنها تفضّل عليه الثوب الذي يحمل رسومات لأزهار. إذاً لماذا ارتدته؟ ولماذا تتواجد غايي في المطار في الوقت الذي يُفترض فيه أن تكون في جامعتها؟ أخذ صوتها يعلو شيئاً فشيئاً عبر المذياع، وأصبح أكثر خشونة وشدة. جلستُ. كانت عقارب الساعة تشير إلى الساعة وعشرين دقيقة. وصلنا الآن إلى صباح يوم الإثنين. ملأ الضوء حواف ستارة النافذة، لكن لم يتسرب إلى الغرفة إلا القليل منه.

استمر صوت غايي بالمناداة. "... لكنني أعرف أنني لن أستطيع الاتصال بك في ما بعد. أظن أنك تنهضين أبكر مما كنتِ أعتقد. على أي حال، إنني على وشك..."

تناولتُ سماعة الهاتف. "مرحباً". حاولتُ أن أبداً أشد وعياً مما أنا عليه في الواقع. لكن الصوت توقف قبل إتمام الجملة.

"تعب؟ هل أنتِ معي؟"

أوماتُ موافقة.

"هل أيقظتك؟"

"نعم". لم أتمكن بعد من التفكير في جواب أفضل.

"آسفة. هل تريد أن أتصل بك لاحقاً؟"

"لا. لا. استيقظت". منعت نفسي من أن أقول لها إنني مضطرة للنهوض

والرد على الهاتف على أي حال.

"لكنّ الوقت ما زال مبكراً على النهوض يا عزيزتي. اسمعيني، بشأن هذه

الليلة. هل نستطيع أن نجعل... "سمعتُ شيئاً يشبه الصراخ منعها من إكمال جملتها.

"إبقيّ معي. لا بد أنني تركتُ الآلة المحيية في حالة الإجابة الآلية". وضعتُ سماعة

الهاتف مكانها ثم توجّهتُ إلى غرفة المعيشة. رأيتُ الضوء الأحمر يومض. تناولتُ

السماعة النقالة وقلتُ عائدةً إلى غرفة النوم، ثم أعدتُ تلك السماعة إلى مكانها.

"حسناً". أصبحتُ مستيقظة بالكامل في هذه الأثناء، وشعرتُ برغبة في

ارتشاف كوب من القهوة. لذا توجّهتُ إلى المطبخ على الفور.

"أتصل بك كي أتحدث معك بشأن هذه الليلة". تميّز صوتها بشيء من الحدة.

لا أستطيع أن ألومها لأنها أمضت خمس دقائق حتى الآن في محاولة إنهاء جملةٍ

واحدة.

"أنا آسفة يا غايي. أمضيتُ عطلة نهاية الأسبوع بكاملها في قراءة أطروحة

أحد الطلاب. تأخرتُ كثيراً قبل أن أستسلم للنوم، لكن نومي كان عميقاً. حتى

أني لم أسمع رنين الهاتف". إنه لأمرٌ مستغرب حتى بالنسبة إليّ. "ما الأمر؟"

"بشأن الليلة. آه، هل يمكننا تأجيل موعدنا حتى الساعة السابعة والنصف بدلاً

من السابعة؟ جعلني هذا المشروع أكثر عصبية من صرصار في قفص سحلية".

"بالتأكيد. لا مشكلة لدي. لعل الأمر يناسبني أنا أيضاً". أبقيتُ سماعة الهاتف

على كتفي وتوجّهتُ إلى خزانة المطبخ. بحثتُ عن الإناء الذي يحتوي حبوب البن،

وتناولتُ مقدار ثلاث ملاعق ووضعته في المطحنة.

سألتي: "أتريد أن أمر بك لأقلّك؟"

"لا فرق عندي. أستطيع أن أقلّك إذا أردت. إلى أين تريد أن نذهب؟"

فكرتُ في تشغيل المطحنة، ثم قررتُ أن لا أمضي في تنفيذ الفكرة. فلقد بدت غايي

عصبية قليلاً.

مرّت فترة صمت. تصوّرتُها وهي تلهو بخاتم أنفها أثناء تفكيرها بالأمر، أو لربما وضعت حلقةً هذه المرة. انزعجتُ لهذا في البداية، لأنني وجدتُ صعوبة في التركيز أثناء محادثاتي مع غايي. كنتُ أركّز حينها على الخاتم، وأتساءل عن مدى الألم الذي يشعر به المرء عندما يثقب أنفه. ولكنني توقفتُ في المدة الأخيرة عن التفكير في هذا الأمر.

قالت لي: "ستكون هذه الليلة رائعة. ما رأيك في تناول الطعام في مكان ما في الخارج؟ في برنس آرثر، أو سان دينيز؟"
قلتُ: "عظيم! إذاً لست مضطرةً للقدوم إلى هنا. سأمر عليك عند الساعة السابعة والنصف تقريباً. أريدك أن تفكري في مكان جديد. أشعر بضرورة الذهاب إلى مكان رائع".

إنه الروتين المعتاد، رغم أن الأمر محفوف بالمخاطر مع غايي. إنها تعرف المدينة أفضل مني بكثير، ولهذا فأنا أترك لها مسألة اختيار المطعم عادةً.
"حسناً. لكن سنبقى حتى وقت متأخر".

أحبُّتها: "سنبقى حتى وقت متأخر". دُهشت، وشعرت بالارتياح قليلاً. لو تُرك الأمر لها لكانت ستبقي مشغولة بالهاتف إلى الأبد، ولطالما اختلقتُ الأعذار كي أهرب من متابعة المكالمات.

لطالما كان الهاتف شريان الحياة بالنسبة إلى غايي ولي. إنني أتحدث معها على الهاتف أكثر مما أتحدث مع أي شخص آخر. سرنا على هذا المنوال منذ بداية صداقتنا. اعتبرتُ حينها أن مكالماتي الهاتفية معها مصدر ارتياح كبير لي ينقذني من حالة الكآبة التي كانت تسيطر عليّ في تلك الأعوام. اعتدتُ أن أتحدث هاتفياً معها عندما كانت ابنتي كاتي تتناول طعامها في سريرها، بعد أن تكون قد انتهت من حمامها اليومي. كنا نتبادل الأحاديث لساعات عن كتب اكتشفناها حديثاً، ونتبادل الأحاديث عن صفوفنا، وعن أساتذتنا، وعن رفاقنا الطلاب، وحتى عن أمور غير محددة. اعتبرنا أن هذه المكالمات هي مصدر لهونا الوحيد في تلك الفترة من حياتنا التي لم تكن تسمح باللهو.

اختلف هذا النمط قليلاً عبر العقود القليلة الماضية، رغم أن مكالماتنا أخذت بالتباعد. تشاركنا أوقات سرورنا، وأوقات هبوط معنوياتنا، سواء كنا مجتمعين أو

منفصلتين. وجدتُ غايي إلى جانبي عندما اشتركتُ في برنامج التخلص من الإدمان على الشراب، أي عندما كانت تسيطر عليّ رغبيّ في تناول الشراب في ساعات صحوي. وجدتها بقربي حينما كنت أرتعش ويتصبب العرق مني في الليل، ولم تجد غايي بدورها شخصاً غيري تحادثه هاتفياً، وقد امتلأت بهجةً وأملاً عندما كان الحب يدخل إلى حياتها، أو وهي وحيدة ويائسة، عندما فرغ قلبها من الحب.

نقلتُ القهوة فور جهوزها إلى الطاولة ذات السطح الزجاجي الموجودة في غرفة الطعام. ترددت في ذهني ذكرياتي مع غايي. اعتدتُ أن ابتسم عندما كنت أفكر فيها. تذكرتُ غايي عندما كانت في فصل تخرجها. تذكرتها أيضاً عندما كانت تعمل في موقع التنقيب، وعندما كانت تنهمك في الحفر، وقد وضعت منديلاً أحمر اللون بشكلٍ مائل حول خصرها، بينما كانت خصلات شعرها المصبوغة بلون الحنة تتمايل أثناء انشغالها بإزالة التراب مستخدمةً مالجها. أدركتُ أنها لن تُعتبر جميلة أبداً بالمعايير التقليدية، بسبب طولها الذي يبلغ حوالي المتر وثمانين سنتيمتراً. لم تحاول أن تنحف نفسها، أو أن تكتسب سمرة. ولم تعتدُ على إزالة الشعر عن ساقها، أو من تحت إبطها. بقيت غايي كما هي، أي غايي. غابرييل ماكولاي القادمة من تروى ريفيه، كيبك، والتي وُلدت من أمٍ فرنسية وأب إنكليزي.

تصادقتُ وإياها أيام دراستنا الثانوية. كرهتُ صديقتي مادة الأثروبولوجيا الفيزيائية، وعانت من المواد التي أحببتها. وتملكني الشعور ذاته تجاه فصول علم الأجناس التي أحببتها. توجهتُ إلى كارولينا الشمالية، بينما عادت هي إلى كيبك، وذلك بعد مغادرتنا جامعة نورث ويسترن. لم نلتق كثيراً منذ ذلك الوقت، لكن الهاتف بقي صلة الوصل بيننا. ساهمت غايي كثيراً في حصولي على وظيفة أستاذ زائر في ماك جيل في العام 1990. بدأتُ في ذلك العام العمل في المختبر بدوام جزئي، واستمررتُ بهذا بعد عودتي إلى كارولينا الشمالية. بقيتُ أتوجه شمالاً كل ستة أسابيع، وحسب ما تمليه مقتضيات العمل. أخذتُ لنفسي إجازةً من جامعة كارولينا الشمالية في شارلوت هذا العام، وذلك كي أتفرغ لعملي في مونتريال بشكلٍ دائم. اشتقتُ كثيراً إلى رفقة غايي، لذلك استمتعتُ بتجدد صداقتنا.

لفت نظري الضوء الذي يومض في الآلة المحيية. إذ يدل هذا على وصول مكالمة قبل محادثتي مع غايي. سبق لي أن برحمتُ تلك الآلة كي تجيب بعد أربع

دقات إلا إذا بدأ الشريط بالعمل، وعندما سترد الآلة بعد الرنة الأولى. تساءلتُ عن سبب استغراقي في النوم رغم هذه الدقات الأربع، وبعد رسالة بأكملها. تقدمتُ من الآلة وضغطتُ على الزر. عاد الشريط إلى بدايته، ثم بدأ بالدوران، وبدأ ببث الرسالة. مرّت فترة صمت قبل أن أسمع قرقعة. تبع ذلك صوت حاد استمر فترة قصيرة، ثم انساب صوت غايي. إذاً لم يتعد الأمر مشكلة تقنية. حسناً. ضغطتُ على زر الإعادة ثم انصرفتُ كي ارتدي ملابسني استعداداً للذهاب إلى العمل.

يقع مختبر الطب الشرعي في المبنى الذي يُعرف بمبنى QPP، أو SQ، وذلك بحسب توجيهك اللغوي. يُطلق الناطقون بالإنكليزية اسم شرطة مقاطعة كيبيك على هذا المبنى، بينما يعرفه الناطقون بالفرنسية باسم أمن كيبيك. تشبه مختبرات الطب الشرعي في مونتريال مكاتب الطب الشرعي في الولايات المتحدة. تتقاسم هذه المختبرات الطابق الخامس من المبنى مع مختبر العلوم القضائية، وهو المختبر الجنائي المركزي للمقاطعة. تُولف مختبرات الطب الشرعي، ومختبر العلوم القضائية، ووحدة تسمى إدارة المعاينة القضائية. يحتوي المبنى على سجن في الطابق الرابع، والطوابق الثلاثة العليا منه. أما جناحي المشرحة والتشريح فيتواجدان في الطابق السفلي. وتحتل شرطة المقاطعة الطوابق الثمانية المتبقية.

يتمتع هذا الترتيب بميزات متعددة بالنسبة إليّ. فعندما أحتاج إلى رأي بشأن ألياف معينة، أو إلى تقرير بشأن عينة من عينات التربة، لا أضطر سوى إلى النزول عبر الرواق كي أصل إلى مرجع المعلومات التي أحتاجها. يمتلك هذا الترتيب سيئاته أيضاً من جهة سهولة الوصول إلينا. إذ لا يحتاج مفتش من شرطة كيبيك، أو رجل تحر يعمل لدى سلطات المدينة، عندما يريد إيصال دليل أو تقرير، إلا أن يستقل المصعد كي يصل إلينا.

ويشهد هذا الصباح على ما أقوله. فعند وصولي، وجدتُ كلوديل ينتظري أمام باب مكثتي. حمل الرجل مظروفاً بنياً صغيراً في راحة يده. إذا قلتُ إنه بدا لي متوتراً، فكأنني قلتُ إن غاندي بدا جائعاً.

"حصلتُ على سجلات الأسنان". بدا لي أنه يتباهى بهذا المظروف، كما يفعل من يقدم جوائز أكاديمي.

"أحضرها بنفسى".

قرأ الاسم المدون على المظروف. "الدكتور نغوين. تقع عيادته هناك في روزمون. كنتُ سأصل قبل الآن، لكن الرجل يوظف سكرتيرة بلهاء بالفعل".
سألته: "أفضل القهوة؟" لم ألتق سكرتيرة الدكتور نغوين من قبل لكنني شعرت بالتعاطف معها. أدركتُ أن صباحها كان سيئاً.

فتح الرجل فمه ليعطيني جواباً بالقبول أو بالرفض. ولكنني لم أفهم جوابه، لأن مارك بيرغبيرون ظهر في تلك اللحظة. يبدو أن الرجل لم ينتبه لوجودنا، فمرّ من أمام صف من أبواب المكاتب السوداء اللامعة، ثم توقف أمام باب المكتب الجاور لمكتبي. انحنى الرجل ثم وضع حقيبته على ركبته وفخذة. فكّرتُ في منظر مناورة الرافعة في فيلم *فتى الكاراتيه*. فتح الرجل حقيبته وهو في هذا الوضع، وبحث في محتوياتها، ثم تناول مجموعة من المفاتيح.
"مارك؟"

أجفل الرجل، وما لبث أن أغلق حقيبته بقوة، وأنزلها إلى الأرض بحركة واحدة.

كتمتُ ابتسامتي وقلتُ: "صدفة سعيدة".

"شكراً". نظر الرجل نحو *كلوديل* ونحوي، ثم حمل الحقيبة بيده اليسرى، وحمل المفاتيح بيده اليمنى.

يبدو منظر مارك بيرغبيرون غريباً بكل المقاييس، فهو في أواخر الخمسينيات، أو أوائل الستينيات من عمره. أما جسده الطويل والنحيل فمقوسٌ قليلاً، ومنحنٍ إلى الأمام عند الصدر. يبدو الرجل في هذه الوضعية وكأنه يستعد لتلقي ضربة على معدته. ظهرت هالة من شعره الأبيض المجدد من أواسط فروة رأسه، وهذا ما زاد طولَه إلى ما يفوق المتر وتسعين سنتمراً. بدا إطار نظارته على الدوام مبقعاً بطبقة من الشحوم والغبار. ويظهر الرجل وكأنه يركّز بصره على الدوام على قسيمةٍ حسم ذات أحرف متناهية في الصغر. بدا أشبه بشخصية من شخصيات تيم بيرتون مما هو طبيب الأسنان الشرعي.

قلتُ، وأنا أشير إلى رجل التحري: "يملك المسيو كلوديل سجلات الأسنان العائدة إلى غاغنون". رفع كلوديل المظروف وكأنه يؤكد على كلامي.

لم ألاحظ أي رفة جفن وراء عدستي النظارة الوستختين. تأملني بيرغرون بشرود. بدا الرجل مثل نبتة هندباء بجذعه الطويل والنحيل، وبشعره الأبيض. أدركت أنه لا يعلم شيئاً عن القضية التي نعمل عليها.

يعمل بيرغرون من ضمن مجموعة من الأخصائيين الذين يعملون بدوام جزئي لدى مختبرات الطب الشرعي. يقدم كل واحد من هؤلاء الأخصائيين الشرعيين مشورته في كل ناحية من نواحي الاختصاصات المختلفة: طب الأعصاب، التصوير الشعاعي، علم الأحياء الدقيقة، وعلم طب الأسنان. اعتاد الرجل أن يحضر مرة في الأسبوع إلى المختبر، وأن يستقبل مرضاه في عيادته الخاصة بقية أيام الأسبوع، لكنه تغيب عن العمل في الأسبوع الماضي.

لخصت له القضية. "وجد عاملون في الأسبوع الماضي بعض العظام في أرض تخص لا غراند سيمينايو. اعتقد بيار لامانش أن القضية لا تعدو عن كونها مقبرة تاريخية قديمة، فأرسلني إلى الموقع. ولم تكن القضية كذلك".

وضع الرجل الحقيبة على الأرض، وتابع الإصغاء بانتباه. "وجدت أجزاء مقطعة من جثة وضعت في كيس تمهيداً للتخلص منها. أعتقد أن كل هذا جرى في غضون الأشهر القليلة الماضية. تعود الجثة لأثنى بيضاء، ولعلها في أوائل العشرينيات من عمرها".

تصاعدت وتيرة نقرات كلوديل على المظروف. توقفت مؤقتاً عندما تعمّد الرجل النظر إلى ساعة يده، ثم تنحنح.

نظر بيرغرون إليه، ثم عاد ببصره نحوي. تابعت كلامي. "استطعتُ أنا والمسيو كلوديل تضيق مجال الاحتمالات، وحصرناها في احتمال يبدو مؤكداً. تتناسب كل المعطيات، وكذلك التوقيت. حصل على السجلات بنفسه من الدكتور نغوين الذي يعمل في روزمون. هل تعرفه؟" هز بيرغرون رأسه بالنفي، ومد يده الطويلة والنحيلة. قال: "حسناً. أعطني إياها. هل انتهى دينيز من أخذ الصور الشعاعية؟"

قلت له: "قام دانيال بأخذ الصور. لا بد أن الصور موجودة على طاولة مكتبك". فتح باب مكتبه، وما لبث كلوديل أن تبعه. رأيت من خلال الباب المفتوح مظروفاً بنياً صغيراً فوق طاولة المكتب. تناول بيرغرون المظروف وتأمل رقم

القضية. استطعتُ أن أرى كلوديل وهو يتفحص الغرفة، وكأنه ملكٌ يختار المكان الذي يريد الجلوس فيه.

قال بيرغرون: "تستطيع أن تعود في غضون ساعة من الزمن، مسيو كلوديل".

بُهِتَ كلوديل. همَّ بالكلام، لكنه زَمَّ شفتيه فرسمتا خطأً رفيفاً، ثم أعاد تعديل كَمَّيه قبل أن يغادر الغرفة. أُجبرتُ نفسي على عدم الابتسام للمرة الثانية. كنتُ أعلم أنّ بيرغرون لن يطيق محققاً يتطلع من فوق كتفيه أثناء عمله. يبدو أنّ كلوديل قد أدرك هذه الحقيقة لتوّه.

ظهر وجه بيرغرون مجدداً من خلال الباب المفتوح. سألني: "أتريدين الدخول؟"

قلتُ: "بالتأكيد. هل نتناول القهوة؟" لم أتناول قهوتي الصباحية منذ وصولي إلى مكان العمل. اعتدتُ وإياه على إحضار القهوة إلى بعضنا بعضاً. كنا نتناول على إحضارها من المطبخ الصغير الموجود في الجناح المقابل.

تناول كوبه الكبير، وأعطاني إياه: "عظيم. سأنتظرك هنا".
أحضرتُ كوبي وسرتُ عبر الرواق. شعرتُ بالسرور لدعوته لي. إذ اعتدنا على العمل على القضايا ذاتها. عملنا على الجثث المتحللة، والمحترقة، والمحفوظة، أو العظمية. عملنا على هذه الحالات التي لا يُمكن التعرف على أصحابها بالطرائق الاعتيادية. سار عملنا معاً بطريقة جيدة. يبدو أنّ الرجل يوافقني على هذا الرأي.
رأيتُ عند عودتي مربعين أسودين صغيرين معروضين على اللوحة الضوئية.

عرضتُ كل صورة جانباً من الفك، وبدت مجموعتان من الأسنان براقيتين إزاء الخلفية الشديدة السواد. تذكرتُ هذه الأسنان عندما رأيتها لأول مرة في الغابة، ولاحظتُ أنّ سلامة هذه الأسنان تتناقض بشدة مع المكان المريع الذي تواجدت فيه. تبدو مختلفة الآن. إنها نظيفة، وتصطفّ بترتيب تام في صفوف منتظمة جاهزة للتفحص. أضيئت كل الأشكال المعتادة للتيحان، والجذور، وحجيرات اللب، بشدة متفاوتة من اللونين الرمادي والأبيض.

بدأ بيرغرون بترتيب صور الأشعة لما قبل الوفاة ووضعها إلى اليمين، أما صور ما بعد الوفاة فوضعها إلى جهة اليسار. عيّن بأصابعه الطويلة والنحيلة ورمياً

صغيراً في كل صورة من صور الأشعة، ثم أخذ يرتب هذه الصور واحدة واحدة واضعاً الجهة التي تحتوي الإشارة إلى الأعلى. وبعدما انتهى من هذه العملية، اصطفت كل صورة من صور ما قبل الوفاة قبالة مثلتها من صور ما بعد الوفاة. قارن المجموعتين بحثاً عن فروقات. بدا كل شيء متطابقاً. لم تظهر في أي مجموعة أي أسنان ناقصة. ظهرت كل الجذور تامة حتى نهاياتها. وتطابقت كل الخطوط والمنحنيات الموجودة على جهة اليسار، ومثيلاتها الموجودة على جهة اليمين. برزت بوضوح كتلٌ مستديرة ناصعة البياض تمثل الحشوات الصناعية للأسنان. برزت مجموعة الأشكال ذاتها التي ظهرت في صور ما قبل الوفاة بكل تفاصيلها على الصور التي التقطها دانيال.

تفحص بيرغرون صور الأشعة السينية لوقتٍ بدا لي طويلاً جداً، ثم اختار مربعاً من المجموعة التي على يمينه، ووضعها على صورة أشعة ما بعد الوفاة الماثلة لها، وتركها كي أتفحصها لاحقاً. تطابقت الأنماط غير المنتظمة للأضراس تماماً. استدار ليواجهني.

قال لي: "أنا متأكد". أسند ظهره واضعاً مرفقه على الطاولة. "أقولها بشكلٍ غير رسمي بالطبع، وهذا حتى أنتهي من السجلات المكتوبة". مدّ يده كي يتناول قهوته. سينهمك الرجل في مقارنات مضمّنية للسجلات المكتوبة، بالإضافة إلى إجرائه مقارنات أخرى مع صور أشعة سينية أكثر تفصيلاً، لكن لم تملكه أي شكوك عن هوية الضحية. إنها إيزابيل غاغنون.

شعرتُ بارتياحٍ كبيرٍ لأنني لن أكون الشخص الذي سيواجه والدي الضحية، أو زوجها، أو حبيبها، أو ابنها. تواجدتُ في اجتماعات مثل هذه من قبل، وأعرف تلك النظرات جيداً. أعرف نظرات العيون المتوسّلة. سيقولون أخبرينا أنك مخطئة، وأنّ كل ذلك ليس إلا حلماً مزعجاً. دعيه ينتهي. قولي لنا إنّ الأمر ليس كما نظن. تأتي بعد ذلك ساعة الحقيقة. يتغيّر العالم إلى غير رجعة في جزء من الألف من الثانية.

قلتُ له: "أشكرك لأنك نظرت في هذه القضية على الفور يا مارك. وأشكرك على هذا الفحص التمهيدي".

"أتمنى لو أنّ كل القضايا هي بمثل هذه السهولة". ارتشف قهوته، وابتسم قليلاً، ثم هزّ رأسه.

"هل تريدني أن أواجه كلوديل بنفسي؟" حاولتُ أن أبعد المرارة عن صوتي، لكن يبدو أنني لم أنجح في محاولتي هذه. ابتسم ابتسامة من يعرف ما أقصده.

"لا أشك في أنك تستطيعين ترويض المسيو كلوديل".

قلتُ: "أنت محق. هذا بالضبط ما يحتاجه: مروّض".

استطعتُ أن أسمع ضحكته حتى بعد أن عدتُ إلى مكثي.

اعتادت جدتي أن تقول لي إنه يوجد قدرٌ من الطيبة في كل شخص. قالت

لي: "كل ما عليك فعله هو أن تبحتي عنها..." اعتادت أن تقولها بنبرة ناعمة مثل

الحرير... وستجدينها. "يملك كل شخص فضيلةً ما". لا شك، يا جدتي، في أنك

لم تقابلي كلوديل أبداً.

يتميّز كلوديل بفضيلة دقة المواعيد. عاد في غضون خمسين دقيقة.

توقف في مكتب بيرغرون. استطعتُ سماع صوتيهما عبر الجدار. سمعتُ

اسمي يتكرر بينهما مرات عديدة، إلى أن أحاله بيرغرون إليّ. دلّ صوت كلوديل

على الانزعاج. أراد رأياً أصيلاً، لكنه اضطر إلى التنازل، وسماع رأيي مجدداً. بعد

ثوان قليلة، ظهر في مكثي، متجههم الوجه.

لم يبادر أحد منا بإلقاء التحية، بل اكتفى بالانتظار قرب الباب.

قلتُ له: "أنا متأكدة. إنها غاغنون".

عبس قليلاً، لكنني تمكنت من ملاحظة الابتهاج يتجمّع في عينيه. حاز على هوية

ضحية. يستطيع الآن أن يياشر التحقيق. تساءلتُ إن كان قد شعر بشيء تجاه هذه

المرأة الميتة، أم أنه يعتبر الأمر مجرد تمرين له. يتعيّن عليه الآن إيجاد الرجل الشرير، وأن

يتفوق على المجرم بذكائه. سبق لي أن سمعتُ دعابات، وتعليقات، ونكات فوق جثث

الضحايا المشوّهة. يعتبر بعضهم هذه الدعابات طريقة من أجل مواجهة قدرات

العنف، وسداً حامياً ضد المجازر اليومية المستمرة التي يتعرض لها البشر.

هل يمكننا أن نسمي هذا مرح المشرحة، أو ربما نعتبره تغليف الرعب

بالشجاعة الذكورية؟ أعتقدُ أن الآخرين ينظرون إلى الأمر بصورة أعمق. شككتُ

أن كلوديل ينتمي إلى هذه الفئة الأخيرة.

راقبتُ لثوان عديدة. سمعتُ صوت رنين هاتف في مكان ما من القاعة.

صحيحٌ أنني أكره الرجل، لكنني أجبرتُ نفسي على الاعتراف أنّ رأيه بي مهمٌ

جداً. أردتُ الحصول على استحسانه. أردتُه أن يشعر بالود تجاهي. أردتُ أن يتقبلي الجميع، وأن يقبلوني في ناديهم.

لمعت صورة الدكتورة لينتز في ذهني. إنها عالمة النفس التي سمعت محاضراتها منذ وقت طويل.

اعتادت أن تخاطبني بالقول: "تعب، أنت ابنة والد مدمن على الشراب. إنك تبحثين عن الاهتمام الذي حرمت منه، وتريدين الحصول على الاستحسان الأبوي، وهكذا تحاولين إرضاء الجميع".

أوضحتُ هذا الأمر لي، لكنها لم تستطع تصحيح الخلل. يتعين عليّ القيام بهذا التصحيح بنفسني. أعتقد أنني أفرطتُ في التعويض في بعض الأحيان، ولهذا اعتبرني كثيرون مضجرة. لم تكن هذه هي حالي مع كلوديل. أدركتُ أنني كنت أتجنب المواجهة معه.

أخذتُ نفساً عميقاً وبدأتُ باختيار كلماتي بعناية.

"هل فكّرتُ يا مسيو كلوديل في احتمال أن تكون هذه الجريمة مرتبطة بالجرائم الأخرى التي حصلت خلال العامين الماضيين؟"

جمدت ملامحه، وزمّ شفثيه بشدة حتى كادت تختفيان. بدأت دائرة من اللون الأحمر تنتشر من عنقه صعوداً، وبيطء شديد، حتى وصلت إلى وجهه، لكنّ صوته بقي بارداً كالثلج.

جمد في مكانه تماماً: "أي جرائم تقصدين؟"

"أتحدث عن شانتال تروتييه، التي قُلت في تشرين الأول من العام 1993. قُطعت الجثة، وفُصل رأسها عنها، وأفرغت أحشاؤها". نظرتُ إليه مباشرة، "ووجد ما بقي منها ملفوفاً في أكياس نفايات مصنوعة من النايلون".

رفع كلتا يديه حتى مستوى فمه، وشبكهما ببعضهما. تداخلت أصابعه، وأخذ ينقر بهما على شفثيه. سمعتُ الأصوات الخافتة التي أحدثتها الحلقتان الذهبيتان في كمّي قميصه المفصل تفصيلاً مناسباً على قياسه. نظر نحوّي مباشرةً.

قال مشدداً على اللقب الإنكليزي من اسمي: "ميز برينان. أترح عليك أن تحصري اهتمامك في مجال اختصاصك فقط. أعتقد أنه من مسؤوليتنا نحن أن نكتشف أي رابط محتمل بين هذه الجرائم. وحتى الآن، لا وجود، لأي رابط يجمع بينها".

تجاهلتُ التوبيخ: "ألا تلاحظ أنّ الضحيتين من النساء، وقُتلنا خلال العام الماضي، وظهرت على جثتيهما علامات التشويه ومحاولات..."

أهّار أخيراً سد الحفاظ على رباطة الجأش الذي أحكم تشييده، فانفجر غضبه تجاهي كالسيل الجارف.

أطلق في وجهي سيلاً من الشتائم صائحاً: "هل أنتن..."

زَمَّ شفّتيه كي يتلفظ بالشتيمة، لكنه تمكّن من ضبط نفسه في الوقت المناسب. استعاد رباطة جأشه، لكن بجهد كبير.

"لماذا تفرطين في رد فعلك على الدوام؟"

"فكّر في هذه". بصقتُ في وجهه. وجدتُ نفسي أرتجف غيظاً، قبل أن أتوجّه إلى الباب كي أقفله.

4

إنَّ مجرد الجلوس في غرفة البخار والتعرُّق يبعث في المرء شعوراً طيباً. تعمَّدتُ أن أكون في هذه الحالة. سرتُ ثلاثة أميال فوق ستاير ماستر، وأهَّمتُ جولة في نواتيلاس، ثم بدأت أسترخي. لم يكن النادي على مستوى توقعاتي، وكذلك كان ما تبقي من يومي. نجحت التمارين في تبديد بعض الغضب الذي سيطر عليّ، لكنني بقيت مضطربة. أعرف أنَّ كلوديل ليس إلا ذلك الرجل النافه. كان هذا الوصف أحد الأوصاف التي كنت أقذفها في وجهه مع كل جولة من جولات ستاير ماستر. اشتملت القائمة على: تافه، غبي، وبليد. أعتقد أنَّ الأوصاف ذات المقطعين هي الأفضل. ركزتُ على هذه النقطة، ولم أفكر في الأمور الأخرى. نجحت هذه الخطة في تسليتي قليلاً، لكن لم أستطع إبعاد الجرميتين عن ذهني بعد فترة الاستراحة هذه. فكَّرتُ في إيزابيل غاغنون، وشانتال تروتييه. بقي الإسمان يجولان في ذهني مثلما أفعل بحبيبات البازيلاء في صحتي.

غيَّرتُ وضعية منشفتي، وسمحتُ لدماعي أن يعيد ترتيب أحداث اليوم. بدأتُ بالاتصال مع دينيز كي أعرف الوقت الذي سيجهز فيه هيكل غاغنون، وذلك بعد مغادرة كلوديل مكنتي. أردتُ أن أتفحص كل بوصة منه بحثاً عن آثار كدمات. أردتُ أن أبحث عن كسور، أو جروح، أو أي شيء آخر. أزعجني أمرٌ ما في طريقة تقطيع الجثة. أردتُ أن ألقى نظرة عن كتب على علامات الجروح التي تحملها العظام. علمتُ بوجود مشكلة في أجهزة الغلي، ولذلك لن تجهز العظام حتى الغد.

توجّهتُ بعد ذلك إلى خزانة الملفات المركزية، وتناولتُ ملفّ تروتييه. أمضيتُ ما تبقى من فترة العصر منكبّةً على تقارير الشرطة، ونتائج التشريح، وتقارير السموم، والصور. بقيتُ فكرةً تلح على خلایا ذاكرتي. أصرتُ تلك الفكرة على أنّ هاتين القضيتين مترابطتان. رفرتُ على أفكارٍ بعض التفاصيل التي لم أستطع تذكرها، لكنها تربط الضحيتين بطريقة لم أفهمها تماماً. أبلغتني إحدى ذكرياتي المختزنة، التي لم أستطع استعادتها بالكامل، أنّ الأمر لا يقتصر على تقطيع الحثّ ووضعها في الأكياس. أردتُ إيجاد ذلك الرابط.

أعدتُ تعديل وضع منشفتي، ومسحتُ العرق المتصبب على وجهي. تجعد الجلد عند أطراف أصابعي، لكن كل المناطق الأخرى من بشرتي كانت في غاية النعومة. إنني لست من الذين يتحملون كثيراً، لكنني قررت أن أبقى خمس دقائق إضافية.

قُتلتُ شانال تروتييه منذ أقل من عام، أي في خريف أول عام عملٍ متفرغ لي في المختبر. كانت في السادسة عشرة من العمر. وضعتُ صور تشريح جثتها فوق طاولتي عصر هذا اليوم، لكنني لم أحتجها. تذكرتها جيداً، وتذكرتُ كل تفاصيل ذلك اليوم الذي وصلت فيه جثتها إلى المشرحة.

حدث ذلك يوم 22 تشرين الأول، عشية حفلة الحمار. كان يوم الجمعة، لذلك ترك معظم الموظّفين مكاتبهم باكراً كي يتمكنوا من تناول شراب الشعير، وكي يستطيعوا شق طريقهم خلال صناديق المالبك. فلقد أرادوا حضور الحفلة التي تجري كل خريف بشكل تقليدي.

استطعتُ أن أرى لامانش من خلال الحشد الذي تجمّع في قاعة الاجتماعات. كان يتحدث عبر الهاتف. رأيتُ يده التي وضعها على أذنه الأخرى كي يستطيع حجب الضجيج الناتج عن الحفلة. راقبته. تفحص الرجل القاعة بعينه ما إن انتهى من مكالمته. وأشار لي بإحدى يديه عندما رأني، وفهمتُ منه أنه يريدني أن ألقاه في القاعة. فعلى الأمر ذاته عندما شاهد بيرغرون. شرح لي الأمر في المصعد بعد خمس دقائق. قال إنّ شابة صغيرة وصلت للتو. وإن آثار الضرب والتشويه الشديدين ظهرا على جثتها. أضاف إنه من المستحيل التعرف على هوية صاحبة الجثة بصرياً. وأراد من بيرغرون أن يتفحص الأسنان، وأرادني أن أتفحص الجروح التي ظهرت على العظام.

تناقض الجو في المشرحة كلياً مع المهرج السائد في الطابق العلوي. وقف رجلاً تحراً من أمن كيبك على مسافة قريبة من الجنة، بينما أتمك ضابط يرتدي زياً رسمياً من قسم التعرف على الجثث بالتقاط بعض الصور. وكان أن سبق للثقي أن وضع البقايا بصمت تام. لم يقل رجلاً التحري شيئاً. لم تُسمع نكات ولا كلمات منمقة. غاب المهرج المعتاد كلياً، ولم تُسمع في القاعة غير الأصوات الصادرة عن الكاميرا عند التقاط صور تلك الفاجعة الإنسانية الملقاة على طاولة التشريح.

جُمعت الأجزاء التي تبقت من الضحية كي تشكل جثة. وُضعت الأجزاء الستة المملوءة بالدماء في أماكنها التشريحية المناسبة، لكنّ الزوايا لم تكن دقيقة تماماً. تحوّلت، هكذا، إلى نسخة بالحجم الطبيعي من تلك الألعاب التي تُصمّم كي تتحرك في وضعيات غير مطابقة للوضعيات الطبيعية. بدا المنظر بشعاً بالإجمال.

قُطع الرأس من مكان عالٍ من الرقبة، وبدت العضلات المقتطعة بلون أحمر قان يشبه لون الخشخاش. لاحظتُ أنّ الجلد الشاحب قد تراجع قليلاً عند حدود القطع، وكأنه انكمش بلطف نتيجة احتكاكه باللحم الطازج النيء. كانت عيناها شبه مغمضتين، بينما انساب خيطٌ رفيعٌ من الدماء الجافة من منخرها الأيمن. أما شعرها الأشقر الطويل فكان مبللاً وملتصقاً برأسها.

لاحظتُ أنّ الجذع مشطور عند منطقة الخصر، وأنّ ذراعيها انحنتا عند المرفقين فوق المنطقة العليا من الجذع، كما أنّ يديها كانتا تترتاحان فوق معدتها. إنه الوضع المعتاد للدفن فيما عدا أنّ أصابعها لم تكن متشابكة.

كانت يدها اليمنى مقطوعة جزئياً. وبرزت نهايات الأربطة البيضاء، وبدت مثل أسلاك كهربائية انترعت من مكانها. نجح قاتلها أكثر مع يدها اليسرى. وكان الثقي قد وضعها قرب رأسها، حيث بقيت وحيدة، وبدت أصابعها منكمشة مثل أرجل عنكبوت ذاوية.

رأيتُ صدرها مشقوقاً بالطول. امتد الشق من العنق حتى البطن، وتدلّى ثدياها نزولاً نحو جهتي القفص الصدري. بدا أنّ ثقلهما يشدّ جانبي لحم الصدر المشقوق. امتد القسم الأسفل من الجذع من خصرها وحتى ركبتها، في حين كانت ساقاها في القسم الأسفل جنباً إلى جنب، لكنهما وضعتا تحت أماكن

ارتباطهما الطبيعية. بدا هذان القسمان غير ملتحمين عند مفصل الركبة، فظهرت القدمان متجهتين نحو الجانبين، بينما اتجهت أصابع القدمين نحو الأعلى.

اجتاحني وخزة من الألم عندما لاحظتُ أن أظافرها ملونة باللون الزهري الفاتح. شعرتُ بالألم عندما لاحظتُ هذه اللمسة الشخصية، إلى درجة أردتُ معها أن أغطيها، وأن أصرخ طالبةً من الجميع تركها وشأنها. لم أفعل ذلك، لكنني وقفتُ واكتفيتُ بالمراقبة، وانتظرتُ دوري كي أختلس نظرة على الضحية.

استطعتُ مع ذلك أن أرى، حتى عندما أغمض عيني، الحواف المتعرجة للشقوق الموجودة على فروة رأسها، وهي دليلٌ على ضربات متعددة بآلة غير حادة. استطعتُ أيضاً تذكر جروح رقبتهَا بكل تفاصيلها. استطعتُ أن أرى بقع النزيف في عينيها، وهي البقع الدقيقة الناتجة عن انفجار الأوعية الدموية الدقيقة. يُعتبر وجود هذه البقع - الناتجة عن ضغط شديد على الأوعية الوداجية - دليلاً تقليدياً على حدوث عملية خنق.

شعرتُ بتوتر في أعماقي عندما بدأتُ أتساءل عن الأمور الأخرى التي جرت معها. حُرمتُ هذه المرأة الطفلة الهادئة والرقيقة، من تناول زبدة الفستق التي اعتادت عليها، ومن الاجتماع بالقادة الكشفيين، ومن المخيمات الصيفية، وصفوف أيام الأحاد. شعرتُ بالأسى على الأعوام التي لم يُسمح لها بعيشها، والحفلات الراقصة التي لن تحضرها أبداً، وكمية الشراب التي لن تتمكن من تجرعها. نقول - بعد كل ذلك - إننا نحن - الأميركيون الشماليون - قبيلة متحضرة تعيش في العقد الأخير من الألفية الثانية. وعدنا الضحية أن تعيش سبعين عاماً، لكننا لم نسمح لها بالعيش سوى ستة عشر عاماً.

حاولتُ أن أبعد عن ذهني كل ذكريات تلك الضحية التي تمّ تشريحها، وتسببت بشعوري بالألم، ومسحتُ العرق الذي تصبب من وجهي، وهزرتُ رأسي، كما حركتُ شعري إلى الخلف وإلى الأمام. بدأتُ الصور الذهنية بالتدافع في مخيلتي، إلى درجة عجزتُ معها على الفصل ما بينها وبين الصور التفصيلية التي رأيتها ذلك المساء. إنها صورٌ مثل الحياة ذاتها. شككتُ منذ وقت طويل أن تكون الذكريات التي أحتفظ بها عن طفولتي قد نتجت فعلاً عن صور فوتوغرافية قديمة، إنها ليست إلا مزيجاً من اللقطات، ومن صور شرائط الأفلام المعدلة، والتي أصبحت

في النهاية واقعاً جاهزاً للتذكر في ما بعد. تُرجعنا كوداك إلى الوراء. أظن أنه من الأفضل أن نتذكر الماضي بهذه الطريقة. إذ يندر أن نلتقط صوراً في مناسباتنا الحزينة.

فُتِح الباب بغتةً. ودخلت امرأةٌ غرفة البخار. ابتسمت المرأة وأومات نحوي، ثم اهتمكت بنشر منشفتها على المقعد إلى يساري. بدا فحذاها بلون اسفنج البحر. فتناولت منشفتي وتوجَّهتُ لآخذ حمامي.

وجدتُ بيردي بانتظاري عندما وصلتُ إلى منزلي. نظر إليَّ عبر الردهة. رأيتُ انعكاس شكله الأبيض على رنحام الأرضية الأسود اللون. بدا منزعجاً. هل تشعر القبط بمشاعر تماثل مشاعرنا؟ أفترض أنني أقوم بنوع من الإسقاط. تفقدتُ وعاءه فوجدتُ كمية الطعام قليلةً بعض الشيء، لكنه لم يكن فارغاً. شعرتُ بالذنب، لكنني ملأته على أي حال. تكيف بيردي جيداً مع مبادرتي هذه. أعرف أن احتياجاته بسيطة. إنه يحتاج إليَّ، وإلى أسماك فريسكي أوشن، ويحتاج إلى النوم. تتميز هذه الاحتياجات بمرونتها ولا تشكل أي عقبة بالنسبة إليه، بالإضافة إلى إمكانية تغيير مواقعها بسهولة.

بقيتُ لذي ساعة قبل أن يحين موعدي مع غايي، وهكذا استلقيتُ على الأريكة. أحسستُ بالإجهاد الذي تسببت به التمارين والبخار، وشعرتُ كما لو أن مجموعات عضلية مهمة قد تعطلت عن العمل. أعطى الإجهاد ثماره. فلقد استرخيتُ جسدياً، لكن ليس ذهنياً. أحسستُ فعلاً، كالعادة في مثل هذه الأوقات، أنني بحاجة لتناول الشراب.

انتشرت أشعة شمس ما بعد الظهر في أرجاء غرفتي، لكن حدتها خفت بفعل ستائر الموسلين التي تتدلى وراء كل نافذة. هذا هو أكثر ما يعجبني في هذه الشقة. إذ يتمازج ضوء الشمس مع الباستيل الشاحب فتنبعث في الغرفة مشاعر البهجة الساطعة التي تريح أعصابي. إنها جزيرتي الهادئة وسط عالم من التوتر.

تقع الشقة في الطابق الأرضي من مبنى يتخذ شكل U، ويحيط بباحة داخلية. تشغل شقتي معظم الجناح، كما أنها بعيدة عن الجيران. تشرف أبواب فرنسية في إحدى جهات غرفة المعيشة على حديقة الباحة. أما الأبواب في الجهة المقابلة فتشرف على الباحة المخصصة لي. تمثل هذه الباحة مشهداً حضرياً

نادراً؛ العشب، والأزهار في قلب وسط المدينة، حتى إنني أنشأتُ حديقة أعشاب صغيرة خاصة بي.

تساءلتُ في البداية عما إذا كنت سأحب العيش بمفردتي. لم أجرب هذا من قبل. فلقد تركتُ المنزل كي ألتحق بالجامعة. تزوجت بيبي بعد ذلك، وريتُ كاتي، لذلك لم أكن أبداً سيدة مملكتي. لم يكن هناك من داعٍ لكل ذلك القلق الذي شعرتُ به في السابق، لأنني أحببتُ نمط حياتي هذا.

كنتُ أتأرجح ما بين عالمي اليقظة والنوم حينما أعادني رنين الهاتف إلى عالم الواقع. تناولتُ سماعة الهاتف، وشرعتُ أتحدث وأنا أشعر بألم في رأسي بسبب غفوتي التي لم تكتمل. حادثتي على الجانب الآخر صوت إلكتروني يحاول بيعي قطعة أرض مخصصة للدفن.

قلت: "لا أحتاجها". حرّكتُ ساقيّ خارج أريكتي، وهضت. إنها إحدى سلبيات العيش بمفردتي؛ فلقد اعتدتُ على التحدث مع نفسي.

أما الناحية السلبية الأخرى لهذا النمط من العيش فهي اضطراري للعيش بعيداً عن ابنتي. طلبتُ رقمها. رفعتُ السماعة من الرنة الأولى.

"أوه يا ماما. أنا مسرورة جداً لأنك اتصلت بي! كيف حالك؟ لا أستطيع الكلام الآن. لدي اتصال على الخط الآخر، لكن هل أستطيع مكالمتك بعد قليل؟"

ابتسمتُ. إنها كاتي، المتحمسة دوماً، والتي تنظر بألف اتجاه واتجاه. "بالطبع يا حبيبتي. ما من شيء مهم. أردت إلقاء التحية عليك فقط. سأتعشى مع غايي هذه الليلة. سأكلمك في الغد".

"عظيم. قبلها عني. آه، تذكرت. حصلتُ على درجة A في مادة اللغة الفرنسية، إذا كان هذا ما تفكرين فيه". قلتُ ضاحكةً: "لم أشكُ أبداً في قدرتكِ على نيل هذه الدرجة. سأهاتفكِ في الغد".

تمكنتُ بعد عشرين دقيقة من إيقاف سيارتي أمام المبنى الذي تسكن فيه غايي. ساعدتني معجزة على إيقاف سيارتي مقابل باب منزلها. أطفأتُ المحرك، وخرجتُ من السيارة.

تعيش غايي في ساحة كاري سان لوي الصغيرة والرائعة، وهي الساحة التي تقع ما بين شارعَي سان لوران وسان دينيز. يتألف هذا المجمع السكني من بيوت متلاصقة تتخذ أشكالاً غريبة، وتتميز بغنى مكوّناتها الخشبية. تُعتبر هذه الأبنية من بقايا فورة هندسية غابرة. أقدم المالكون على طلاء هذه الأبنية بألوان غريبة تحاكي ألوان قوس القزح، وملأوا باحات منازلهم بكل أنواع الأزهار الصيفية، فبدت هذه الباحات كأنها لوحات صور متحركة رسمها فنانو ديزني.

تخيم على هذا المجمع السكني أجواء من الغرابة توحي بها تلك النافورة المركزية التي تتصاعد من البركة، وكأنها زهرة توليب عملاقة، وكذلك السياج الحديدي المزخرف الذي يحيط بالموقع، والذي يصل علوه إلى ما فوق الركبة بقليل. كما تفصل زخارف حديدية، ذات أشكال منحنية وغريبة، الباحة العشبية العامة عن المنازل المزخرفة التي تحيط بها. بدا أن الفيكتوريين المتشددّين إزاء مسائل الجنس استطاعوا أن يلهوا أنفسهم بهندسة أبنيتهم. أوحى لي هذا الواقع، بطريقة ما، بوجود نوع من التوازن في الحياة.

تطلعتُ نحو المبنى الذي تسكنه غايي. يقع هذا المبنى في الجهة الشمالية من المجمع السكني، وهو الثالث من جهة شارع هنري جوليان. لو رأيت كاتي هذا المنظر لكأنت وصفت ما تراه على أنه "فائض تعيس". أي مثل تلك الأتواب التي اعتدنا أن نسخر منها في مسابقتنا الربيعية السنوية. يبدو أن المصمم الذي عمل على هندسة هذه الأبنية قد أفرغ كل ما في جعبته من التفاصيل الغريبة التي يعرفها، يتألف هذا المبنى من ثلاثة طوابق استخدم الحجر البني اللون في تشييدها، ويتميز الطابق السفلي منه بنوافذه البارزة الكبيرة. يرتفع سقف المبنى بشكل برج مقطوع ذي ستة أضلاع، ويتميز ببلاطاته الصغيرة التي رُكبت بشكل يماثل ذيل حورية البحر. يحيط بقمة السطح ممر مسيَّج بالحديد المزخرف. ظهرت النوافذ المغاربية التصميم بجوانبها السفلية المربعة، أما جوانبها العلوية فشكّلت أقواساً مقببة. وتتميز جميع الأبواب والنوافذ بإطارات من الخشب المحفور بزخارف معقدة، والملوّن بظلال خفيفة من اللون البنفسجي الشاحب. ظهر إلى يسار المجمع السكني سلّم حديدي يصل ما بين الطابق السفلي وبين سقيفة مدخل الطابق الثاني. تماثلت تصميمات أعمدة هذا السلم وحلقاته مع أعمدة سياج المجمع السكني. شاهدتُ

أزهار أوائل حزيران متفتحة في صناديقها الموضوعة أسفل النوافذ، وفي الأوعية الكبيرة التي تحيط بمدخل السقيفة.

كانت بانتظاري. لأنني لاحظتُ، قبل أن أعبّر الشارع، أنّ ستارةً تحركت لبرهة، وأنّ الباب الأمامي قد فُتح. أوّمت لي بيديها، ثم أقفلت الباب، وتأكّدت جيداً من إقفاله. أسرعرت بالنزول على الدرج الحديدي، فتموجت تنورها وراءها مثلما يتموج شرّاع يخست يشق الأمواج. استطعتُ سماعها أثناء اقترابها مني. تحب غابي الأشياء اللامعة، والتي تُصدر أصواتاً. وضعتُ في تلك الليلة حلقةً من الأجراس الفضية البصغيرة حول كاحلها. تصدر هذه الأجراس أصواتاً مع كل خطوةٍ تخطوها. رأيتها مرتديّة ما سمّيته نوفو أشرام في المدرسة الثانوية، فقد اعتادت ارتداء هذه الأزياء دائماً.

"كيف حالك؟"

أجبتها بتحفظ: "أنا في أحسن الأحوال".

أدرّكت من طريقة جوابي أنّ ما أقوله غير صحيح، حتّى وأنا أتلفظ بجمليتي هذه. إلا أنني لم أرغب في التحدّث معها عن الجرائم، أو كلوديل، أو زيارتي التي لم تتم إلى كيبك سيتي، أو عن زواجي المنهار، أو حتّى عن أي شيء آخر شغل تفكيري في المدة الأخيرة.

"وأنت؟"

"أنا بخير".

تمايلت خصللات شعرها عندما حرّكت رأسها من جانب إلى آخر. بخير، أو لست بخير. يشبه هذا ما كان يحدث في الأيام الماضية، لكنّ ليس تماماً. أعرف طريقة سلوكي، وأنا أعرف أنّها تتظاهر أيضاً، وترغب في إبقاء المحادثة في حدودها الدنيا. شعرتُ بقليل من السوداوية، لكنني خفتُ أنّ أتسبّب في هذا الجو المحيط، ولهذا شاركتُ في مؤامرة تجنب الآخر المتبادلة في ما بيننا.

"إذاً، أين سنتناول الطعام؟"

في الواقع، لم أعبّر وجهة الحديث، لأنه لم يبدأ في الأصل.

"بماذا تفكرين؟"

فكّرتُ بالموضوع. اعتدت أن أحسم خياراتي عن طريق تصور الطعام على الطبق الموجود أمامي. أعرف، بالتأكيد، أنّ عقلي يفضل اعتماد الطريقة البصرية.

أعتقد أنني أستطيع القول إنه في ما يتعلق بالطعام، فإنّ دوافعي تكون أشكال
المأكولات وصورها، وليس أنواعها. أردتُ الليلة الحصول على طعامٍ أحمر وثقيل.
"أفضلين طعاماً إيطالياً؟"

فكرت قليلاً قبل أن تقول: "حسناً. ما رأيك بمطعم فيفالددي في برنس آرثر؟
نستطيع الجلوس في الخارج".

"عظيم. لن أكون مضطرة إلى التخلي عن مكان إيقاف سيارتي هذه."
انحرفنا عبر الباحة، ومررنا تحت أوراق الأشجار العريضة التي تظلّل الباحة
العشبية. رأينا رجالاً مسنين جالسين على مقاعدهم يتحدثون معاً، ويتأملون
رفاقهم المواطنين. شاهدتُ امرأةً مرتدية ثوب حمامها تطعم حمامها من كيس
يحتوي على الخبز، وتزجرها مثلما تفعل مع أولاد مشاغبين. رأيتُ حارسين يمشيان
فوق ممر يعبر الباحة، وقد وضعا أيديهما خلفهما بشكل حرفي V متمائلين. توقفا
بين الحين والآخر ليتبادلا التحيات مع المارة، أو من أجل طرح بعض الأسئلة، أو
للرد على مزحة ما.

مررنا قرب المنشأة الإسمنتية الصغيرة التي تقع في الطرف الغربي من الباحة.
لاحظتُ كلمة "فيسباسيان"، فتساءلت، مجدداً عن سبب حفر اسم ذلك
الامبراطور الروماني فوق باب هذه المنشأة.

غادرنا الباحة، وعبرنا شارع لافال، ثم مررنا أمام مجموعة من الأعمدة
الإسمنتية التي تزيّن مدخل شارع برنس آرثر. لم تتبادل أي كلمة حتى هذا الوقت.
بدا هذا غريباً، فليس من عادة غايي أن تكون هادئة، وسلبية، إلى هذه الدرجة.
اعتدتُ أن أسمعها وهي تفصح عن خططها وأفكارها، لكنها التزمت هذه الليلة
بالموقف الذي التزمت به أنا.

راقبتُها بطرف عيني من دون أن تشعر. انشغلت هي أيضاً بتفحص الوجوه
التي تمر قربنا، لكنني لاحظتُ أنها تضع طرف إهامها في فمها بين الحين والآخر. لم
أستنتج من مراقبتي لها أنها شاردة، بل بدت عصبية، وكأنها تبحث عن شيء ما
على الأرصفة المكتظة بالناس.

كان هواء المساء دافئاً ورطباً. اكتشفنا أنّ برنس آرثر مكتظ بروّاده. رأينا
الناس يتحركون في كل الاتجاهات. ولاحظنا أنّ المطاعم فتحت أبوابها ونوافذها.

رأينا الطاولات مليئة بأنواع الأطباق، وبدت هذه الطاولات وكأنها تنتظر من يرتبها في وقت لاحق. انشغل الرجال الذين يرتدون قمصاناً قطنية، والنساء العاريات الأكتاف، في تبادل الأحاديث والضحكات تحت المظلات الملونة الكبيرة. بينما وقف آخرون في صفوف ينتظرون إيجاد أمكنة لهم كي يجلسوا فيها. انضممتُ إلى الصف الموجود خارج مطعم فيفالدي، بينما توجهت غايي إلى الحانة الواقعة في زاوية الشارع كي تشتري زجاجة شراب فرنسي.

عندما جلسنا أخيراً في مكانينا، اختارت غايي طبق فيتوشيني ألفريديو. في حين طلبتُ طبق لحم العجل بصلصة الليمون الحامض، إلى جانب السباغيتي. بقيتُ مخلصه جزئياً لمنظر لحم العجل الأحمر رغم إغراء الليمون الحامض. ارتشفتُ زجاجة مياه بيريه المعدنية أثناء انتظارنا وصول أطباق السلطة التي طلبناها. تحدثنا قليلاً أثناء تناولنا الطعام، وتبادلنا بعض الكلمات التي لا تحمل معنىً محدداً، بل اكتفينا غالباً بالجلوس. لم أستطع أن أعتبر هذه الجلسة الصامتة من نوع جلسات الأصدقاء القدامى الذين اعتادوا رفقة بعضهم بعضاً، لأن جلستنا كانت من نوع تبادل حديث مصطنع.

اعتدتُ على مدّ مزاج غايي وجزره، كما اعتدتُ على دورات حيضي. أحسستُ بوجود بعض التوتر في سلوكها. لم تلتق عينها بعيني، لكنهما طافنا بقلق وكأههما تبحثان عن شيء ما، تماماً كما كانتا في المجمع السكني. اتضح لي أنها محتارة. استنتجتُ ذلك من طريقة ارتشافها لشرابها. انعكس ضوء المساء في الشيانقي في كل مرة رفعت فيها كوبها، وجعلته يتوهج مثل أشعة شمس كارولينا. أعرف مغزى هذه الدلائل. بدأت تفرط في الشراب في محاولة منها لتخفيف حدة قلقها. أعرف أنّ الشراب هو المخدر الذي يستخدمه المتعبون في هذا العالم. وأعرف هذا لأني جرّته. راقبتُ الثلج الموجود وسط كوب البيريه أثناء ذوبانه البطيء، كما راقبتُ الليمون الحامض في حركته المنعشة داخل الكوب. بدأ هذا الليمون بالنزول من مكعب إلى آخر محدثاً ذلك الأزيز.

"غايي، ما بك؟"

أجفّلتُ من سؤالها.

"ما بي؟"

أطلقت ضحكة عصبية قصيرة، وأبعدت خصلات شعرها عن وجهها. لم أستطع فهم ما تشي به عيناها.

حذوتُ حذوها، فانتقلتُ مجدداً إلى موضوعٍ محايد. توقعتُ أن تبلغني عندما تكون جاهزة. هل أصبتُ بالجين؟ وهل يكون ثمن الحميمية خسارتها أحياناً؟
"هل يتصل بك الزملاء القدامى من جامعة نورث ويسترن؟"

سبق لي أن التقيتُ غايي في السبعينيات أثناء دراستنا الجامعية. كنت قد تزوجت حينها، أما ابنتي كاتي فكانت في مرحلة الحضانة. شعرتُ أنني أحسد غايي والآخريين على حرياتهم في ذلك الوقت. فقد حُرمت من التعرف إلى الآخرين في الحفلات التي تستغرق الليل بكامله، وخلال دورات الفلسفة الصباحية. كنتُ في مثل أعمارهم، لكنني عشتُ في عالمٍ مختلف. لم أنشئ علاقات وثيقة إلا مع غايي، لكنني لم أعرف السبب تماماً. كنا مختلفتين، كما هي الحال مع أي امرأتين. برز اختلافنا في ذلك الوقت. وربما تعود هذه الاختلافات إلى إعجاب غايي الذي أظهرته تجاه بيتي، أو أنّ هذا هو ما تظاهرت به، على الأقل. عدتُ بفكري إلى الماضي: بيتي، بصرامته العسكرية، محاطاً بفتيان صغار جالسين على العشب يتناولون أرخص أنواع شراب الشعير. أعرب لي حينها عن كرهه لحفلاتي الجامعية، لكنه وضع كراهيته هذه وراء قناعٍ من الازدراء. بذلتُ غايي، وحدها، مجهوداً كي تحقق اختراقاً لموقفه هذا.

فقدتُ الاتصال مع كل زملائي السابقين، عدا القليلين منهم. توزع هؤلاء في أنحاء الولايات في البلاد حيث يعملون في مختلف الجامعات والمتاحف. نجحت غايي في إبقاء اتصالاتها مستمرة مع زملائها على مدى الأعوام، أو لعل الأصح هو أنّ هؤلاء الزملاء هم الذين أرادوا إبقاء الاتصالات مستمرة معها.

"يتصل بي جو بين حين وآخر. أخبرني أنه يدرّس في إحدى البلدات المعزولة في مكان ما من ولاية أيوا كما أعتقد، أو لعلها في إيداهو". لم تكن جغرافية أمريكا من بين نقاط قوة غايي.

قلتُ مشجعة: "أوه، حقاً؟"

"أما فيرون فيعمل في بيع الأراضي في لاس فيغاس. جاء إلى هنا منذ أشهر قليلة ليحضر مؤتمراً. ترك الأثروبولوجيا، لكنه سعيد مثل طائر البطليوس".

ارتشفت المزيد من شراهما الفرنسيّ.

"ومع هذا فهو يمتلك الشعْر ذاته".

بدت ضحكتها حقيقية هذه المرة. هل يعود سبب هدوئها المفاجئ إلى

الشراب، أو إلى جاذبيتي؟

"آه. استلمتُ أيضاً رسالةً إلكترونيةً من جيني. إنها تفكّر في العودة إلى عالم

الأبحاث. أتعلمين أنّها تزوجت من أحد التافهين، وتخلت من أجله عن وظيفةٍ دائمة

في روتجرز، كي تتبعه إلى كيز؟"

لم تتعود غايي المسائرة في حديثها.

"حسناً، حصلتُ على عضويةٍ جمعيةٍ ما، كما أنّها تجهد نفسها للحصول على

منحة".

ارتشفت جرعة أخرى من شراهما.

"هذا عندما يُسمح لها. ما هي أخبار بيتي؟"

صدمني سؤالها. بقيتُ إلى هذه اللحظة متحفظة جداً في الحديث عن زواجي

الفاشل. بدا الأمر وكأن ضوابط كلامي كانت متوقفة عند هذا الموضوع، وبدأ لي

أنّ إلغاء هذه الضوابط سوف يؤكد هذه الحقيقة. خيّل لي أنّ العمل على ترتيب

الكلمات في جملٍ منتظمة، سوف يؤكد على الواقع الذي لم أكن مستعدة تماماً

لمواجهته. تخنبتُ الحديث عن هذا الموضوع، لكن غايي كانت من إحدى القليلات

اللوّاقٍ أطلعتهن عليه منذ البداية.

"إنه بخير. نتحدث أحياناً".

"لكم يتغيّر الناس".

"أجل، هذا صحيح".

وصلت أطباق السلطة أخيراً، وهكذا ركّزنا في الدقائق القليلة التالية على

صحن التوابل والفلفل. رأيّتها، عندما رفعتُ رأسي أخيراً، جامدةً في مكانها،

ولاحظتُ أنّ مقدار شوكة من الخس قد تسمّر فوق طبقها. ابتعدتُ عني بأفكارها

مجدداً، رغم أنّها بدت غارقةً في عالمها الداخلي هذه المرة، بدلاً من انشغالها بالعالم

الذي يحيط بها.

جربتُ طريقة أخرى.

تناولتُ حبة زيتون سوداء: "أخبريني عن سير مشروعك".
"هـا، ماذا؟ المشروع جيد. إنه يسير سيراً حسناً. حزتُ أخيراً على ثقتهم،
وبدأ بعضهم بالتكلم معي بصراحة".
تناولتُ بعضاً من السلطة.

"غايي. أعرف أنه سبق لك أن شرحت الأمر لي، لكن أخبريني مجدداً. تعلمين
أنني أفهم بالعلوم الفيزيائية. ما هي الغاية من مشروعك بالضبط؟"
انطلقتُ بالضحك على فكرة الفصل المعتاد ما بين طلاب الأنتروبولوجيا
الفيزيائية والثقافية. كان صفناً صغيراً لكنه امتاز بالتنوع: درس بعض الطلاب علم
الأجناس، بينما اختص آخرون باللغويات، أو بعلم الآثار، أو بالأنتروبولوجيا
الأحيائية. أعلم القدر القليل عن التحليل النصّي مثل ما تعرفه هي عن الحمض
النوي في الميتوكوندريا.

"أتذكرين تصنيف الأجناس البشرية الذي حملنا راي على قراءته؟ اليانومامو،
والسيميائي، والتوير؟ حسناً، إنها الفكرة ذاتها. إننا نحاول أن نصفَ عالم بنات
الهوى عن طريق المراقبة عن كُتب، بالإضافة إلى إجراء مقابلات مع المخبرين. أعني
العمل الميداني القريب والشخصي". تناولتُ المزيد من السلطة. "من هن؟ من أين
أتين؟ وما هي أسباب تورطهن في هذا العمل؟ وماذا يفعلن في أيامهن؟ وكيف
يدخلن في دورة الاقتصاد الشرعي؟ وكيف ينظرن إلى أنفسهن؟ وأين..."
"فهمت".

هل يفعل الشراب فعله، أم أنني عزفتُ على وتر حساس تشغف به في حياتها.
لاحظتُ أنها أصبحت أكثر نشاطاً. استطعتُ أن ألاحظ التورّد الذي غزا وجهها
رغم الظلمة التي بدأت تنسدل. التمعت عيناها بأضواء مصابيح الشوارع.
"لفظ المجتمع هؤلاء النساء. لا يكثر أي شخص بهن، في ما عدا الذين
يشعرون أنّ هذه الفئة تشكّل تهديداً لهم، ويريدون التخلص منهن".
أوماتُ، وتناولتُ وإياها المزيد من السلطة.

"يعتقد معظم الناس أنّ البنات يلجأن إلى عالم الليل بسبب تعرضهن
للاغتصاب، أو لأنهن أجبرن على سلوك هذا الطريق، أو لأسباب أخرى. تُقدّم
الكثير من البنات، في واقع الأمر، على هذا السلوك سعياً وراء الحصول على

الأموال. لا تمتلك هؤلاء الفتيات الكثير من الكفاءات التي تؤهلن الدخول في سوق العمل الشرعي، ولهذا فإنهن يدركن أنهن لا يستطعن العيش بمستوى لائق. تقرر الفتيات سلوك هذا الطريق لأعوام معدودة، لأنه العمل الذي يدر عليهن أكبر قدر من المداخيل. إنَّ المتاجرة بالجدس تدرّ أموالاً أكثر من بيع سندويشات البيروغ". تناولنا المزيد من السلطة.

"تمتلك هذه الفئة ثقافتها الخاصة بها، مثلها مثل أي مجموعة أخرى من المجتمع. أنا مهتمة بالشبكات التي تقيمها هذه الفئة، وبالمخططات الذهنية التي تمتلكها، وأنظمة الدعم التي تستند عليها، وأشياء مثل هذه". عاد النادل حاملاً الأطباق الرئيسية التي طلبناها. "ماذا بشأن الرجال الذين يستخدمون الفتيات؟" "ماذا؟" بدا أن سؤالي هذا أثار أعصابها.

"ماذا بشأن الرجال الذين يقصدون تلك الأماكن؟ أعتقد أنهم يشكلون عنصراً مهماً في العملية بكاملها. هل تتحدثون معهم؟" تناولتُ مقدار شوكة من السباغيتي. بدا الارتباك على وجهها، وراحت تتمتم: "أنا... أجل. إننا نتحدث مع بعضهم". مرّت فترة صمت: "كفى حديثاً عني يا قحب. أخبريني عن عملك أنت. هل تمر معك قضايا مشوقة؟" ركّزت عينيها على طبقها. أذهلني تغيير وجهة الحديث، فأجبتُ من دون تفكير. "تجعلني هذه الجرائم متوترة". ندمتُ فوراً على هذه الإجابة. "أي جرائم؟" بدا صوتها عميقاً، وخرجت كلماتها مشدّدة ومرافقة مع نعومة ظاهرة في أواخرها.

"وصلتنا إحدى أشد الجرائم بشاعةً يوم الخميس الفائت". لم أتابع، لأنني أعرف أن غايي لا ترغب أبداً في سماع أخبار عملي. "أوه؟" تناولتُ المزيد من الخبز. بدت مؤدبة. أخبرتني عن عملها، وها هي الآن تستعد لسماعي وأنا أتحدث عن عملي.

"أجل. لم يكن رجال الصحافة موجودين لحسن الحظ. وُجدت الضحية خارج شيربروك الأسبوع الماضي. كانت مجهولة الهوية عندما وصلت. تبين لنا لاحقاً أنها قُتلت في نيسان الماضي".

"تبدو هذه القضية مشابهة لقضاياك الأخرى. لماذا القلق؟"
استرخيتُ في جلستي ونظرتُ إليها متسائلةً عما إذا كان يجدر بي أن أمضي
في هذا الحديث. لا أعرف، لعله من الأفضل أن أكمل. هل إن هذا أفضل بالنسبة
لي؟ لا أستطيع أن أتحدث مع أحدٍ غيرها حول هذا الموضوع. هل تريد فعلاً أن
تسمعي؟

"ثم ذبح الضحية، ثم قُطعت أوصالها، ورُميت في الوادي."
نظرتُ نحوي من دون أن تعلق بشيء.
"أعتقد أن معطيات هذه الجريمة تماثل قضيةً أخرى سبق لي أن عملتُ عليها."
"ماذا تقصدين؟"
"إني أرى... رحتُ أبحث عن الكلمة المناسبة." العناصر ذاتها في الجريمتين."
"مثل ماذا؟" مدّت يدها لتمسك بكوبها.

"أقصد أموراً مثل الضرب الوحشي، وتشويه الجثة."
"لكن هذه الأمور شائعة جداً، أليس كذلك؟ متى تكون النساء ضحايا؟ إنهم
يضربوننا على رؤوسنا، ويخنقوننا، ثم يعمدون إلى تقطيعنا. إنه العنف الذكوري
المعتاد."

قلت معترفةً: "أجل. إنني لا أعلم على وجه التحديد سبب الوفاة في هذه
القضية الأخيرة، لأن الجثة كانت متحللة جداً".

بدت غايي غير مرتاحة. هل أخطأتُ بالتحدث عن هذا الموضوع؟
"وماذا أيضاً؟" رفعتُ كوب شرايها، لكنها لم ترتشف منه.
"إنّ التشويه، وتقطيع الجثة، أو إزالة أجزاء منها، أو... توقفتُ عن متابعة
الكلام لأنني فكرتُ بالغطاس (المطبة). ما زلت غير أكيدة من معني وجودها.
"إذاً، أتظنين أن الوغد ذاته نفذ الجريمتين؟"
"أجل. أعتقد ذلك، لكنني لا أستطيع أن أقنع ذلك الأبله الذي يتولى القضية.
رفض حتى أن يتفحص القضية الأخرى".

"هل يُحتمل أن تكون الجريمتان من فعل أحد الأوغاد الذين يستمتعون بذبح
النساء؟"

أجبتُ من دون أن أرفع رأسي: "أجل".

"أعتقدين أنه سيكرّر فعلته مرةً ثانية؟"

لاحظتُ حدةً في صوتها مجدداً، لكن النعومة اختفت من نهايات كلماتها. وضعتُ شوكتي ونظرتُ إليها. رأيتها تحرق بي عمداً، ولاحظتُ أنها أحنّت رأسها قليلاً إلى الأمام، كما أن أصابعها التفت بإحكام حول مقبض كوب شراها. لاحظتُ أنّ الكوب يرتعش، وأنّ السائل بداخله يتموج قليلاً.

"غايي. أنا آسفة. ما كان يجدر بي أن أتحدث حول هذا الموضوع. غايي، هل أنت بخير؟"

استرخت في مقعدها، ثم وضعت الكوب عمداً على الطاولة، لكنها بقيت ممسكة به للحظة قبل أن تتركه. تابعت التحديق بي، وأومأت للنادل كي يقترب.

"أتريدين قهوة؟"

أومأت بالموافقة.

أهينا عشاءنا، ثم انصرفنا للاستمتاع بشرب الكانولي والكابوتشينو. لاحظتُ أنها استعادت مرحها عندما أخذنا نضحك معاً، وأخذنا نسخر من ذكريات دراستنا في آيسج أوف آكواريوس (عصر برج الدلو)، وعندما أرسلنا شعرنا، وارتدينا قمصانا مصبوغة، وعندما كنا نرتدي سروال الجينز منخفض الخصر والمتسع عند القدمين. كنا بنات جيل هاربٍ من التماثل. انصرفنا من المطعم بعد منتصف الليل بقليل.

سرنا على طول شارع بونس آرثر، وما لبثت ريفيتي أن أثارت موضوع الجريمتين مجدداً.

"كيف يبدو هذا الرجل يا ترى؟"

فاجأني سؤالها.

"أعني، هل هو مخبول؟ أم أنه إنسان طبيعي؟ وهل ستمكين من التعرف

إليه؟"

بدا أنّ اضطرابي يزعجها.

"هل تستطيعين تمييز ذلك السافل وسط جمهور في دار العبادة؟"

"أتعنين القاتل؟"

"أجل."

"لا أعرف".

ألحّت في متابعة الموضوع: "هل يبدو طبيعياً؟"

"أعتقد هذا. إذا كان الشخص ذاته قد أقدم على قتل هاتين المرأتين، وأنا لست أكيدة من هذا يا غايي، فلا شك في أنه منظم جداً. إنه يخطط جيداً. يحدّث كثيرون من القتلة التسلسليين العالم لوقت طويل قبل أن يُلقى القبض عليهم. إنّ كل هذا هو مجرد تخمين، لأنني لست محلّلة نفسيّة".

وصلنا إلى المكان حيث أوقفتُ سيارتي، فأسرعتُ إلى فتح أبوابها. اقتربت مني على حين غرّة وأمسكتني من ذراعي: "دعيني أريك تلك المنطقة".
لم أفهم مقصدها. خانتني سرعة الخاطر. أخذني تفكيري إلى بناية الجسر.
"آه..."

"أعني منطقة الأنوار الحمراء. إنه المشروع الذي أعمل عليه. دعينا نذهب بالسيارة وسأعرفك إلى الفتيات".

نظرتُ إليها عندما غمرتها أنوار سيارة قادمة. بدا وجهها غريباً نتيجة الإضاءة المتغيرة. تنقلّ الضوء عبر جسدها مثل حزمة ضوء مصباح البطارية، فأبرز بعض المعالم وأخفى بعض المعالم الأخرى وراء الظلال. أفنعتي تلهفها. نظرتُ إلى ساعتي التي أشارت عقاربها إلى الثانية عشرة وثمانية عشرة دقيقة من بعد منتصف الليل.
"حسناً". لم تكن الأمور على ما يرام في الواقع. أعرف أنّ عملاً شاقاً ينتظرني في الغد، لكنها بدت قلقة كثيراً بحيث لم يطاوعني قلبي على رفض طلبها.
صعدت إلى السيارة وأسرعتُ في إرجاع المقعد إلى أبعد مسافة ممكنة. اكتسبت بعض المساحة الإضافية، لكن ليس بالقدر الكافي.

خيم الصمت في ما بيننا لدقائق عديدة أثناء قيادتي للسيارة. اتبعتُ تعليماتها واتجهنا غرباً. قطعنا شوارع عديدة ثم انعطفنا جنوباً حتى أصبحنا في سان إرباين. استدرنا بالسيارة حول أقصى الطرف الشرقي لحي غيتو ماك جيل. يتألف هذا الحي من مزيج من بيوت الطلاب ذات الإيجار المنخفض، والبنائيات العالية التي تحتوي شققاً سكنية، بالإضافة إلى بعض المنازل المحددة المشيدة بالحجر الأسمر. انعطفتُ يساراً إلى شارع سان كاترين بعد أن اجتزتُ ستة مربعات سكنية. أصبحت منطقة وسط مونتريال ورائي. استطعتُ أن أرى خيالات مجمع ديجاردان

السكني ومركز الفنون في المرآة الخلفية. بدا لي أن زاويتي المبنيين المتقابلين تقفان وقفة تحد. ظهر تحتها مجمع غاي فافرو السكني وقصر المؤتمرات.

يتراجع وسط مونتريال الفخم بسرعة أمام كآبة الجهة الشرقية من المدينة، لكن شارع سان كاترين يشهد على الحالتين. يبدأ هذا الشارع من شارع ويستمونت الغني، ثم يتهادى من خلال وسط المدينة، ويمضي شرقاً باتجاه بولفار سان لوران، وماين، الخط الفاصل ما بين الشرق والغرب. يحتضن سان كاترين كلاً من الفورم، والإيتون، والسبيكتروم. وتصطف الأبنية العالية والفنادق، بالإضافة إلى المسارح ومراكز التسوق، على جانبي منطقة وسط المدينة. ما إن يصل سان كاترين إلى سان لوران حتى يترك وراءه مجمعات المكاتب والشقق الخاصة، ومراكز المؤتمرات، ومحلات الألبسة، والمطاعم، والحانات المخصصة للعازبين. تبدأ فتيات الليل، والشبان المتسكعون (البانكس) بالانتشار ابتداء من هذه النقطة. تمتد منطقة نفوذ هؤلاء باتجاه الشرق، أي من ماين حتى قرية الشاذين. يتقاسم هؤلاء المنطقة مع تجار المخدرات، وحليقي الرؤوس. يجازف السواح وسكان الضواحي بالقدوم إلى هذه المنطقة بصفتهم زواراً، ويكتفون بإلقاء نظرة لكنهم يتجنبون التقاء العيون. إنهم يشاهدون الجانب الآخر، لكنهم يؤكدون تمايزهم، وهم لا يمكنون طويلاً على أي حال.

ما إن كدنا نصل إلى سان لوران، حتى أشارت غاي بضرورة الانعطاف إلى اليمين. وجدت مكاناً أستطيع إيقاف السيارة فيه أمام لا بوتيك دو سكس، ثم أطفأت محرك السيارة. تجمعت في الجانب الآخر من الشارع مجموعة من النساء خارج مدخل فندق غوانادا. رأيت لافتة الفندق التي كتب عليها غرف سياحية، لكنني شككت في أن يقدم السواح على استئجار مثل هذه الغرف. قالت: "انظري. تقف مونيك هناك".

انتعلت مونيك حذاءً عالياً أحمر اللون مصنوعاً من الفينيل، يصل حتى منتصف ساقها. وارتدت لباساً قابلاً للتمدد، أسود اللون، غطى ردفها، لكن بعدما وصل إلى أقصى حدوديهما. استطعت أن أرى حدود ملابسها الداخلية من خلاله، كما رأيت كتلة بارزة من خلال حاشية بلوزتها المصنوعة من البولستر الأبيض. رأيت قرطبيها البلاستيكيين يتدليان على كتفيها، وقد شكلاً بقعتين

زهريتي اللون وسط شعرها الأسود الفاحم. بدت لي شخصية كارينكاتورية لفتاة ليل.

"هذه كاندي".

أشارت نحو شابة ترتدي سروالاً قصيراً أصفر اللون، وتنتعل حذاءً عالي الساقين. أعطتها مساحيق التجميل التي وضعتها شكل بنت هوى حقيقية. بدت لي صغيرة جداً، ما عدا الانطباع الذي تعطيه إياها السيجارة التي تدخنها، ووجهها الذي يشبه وجه مهرج. كان يُمكنها أن تكون ابنتي.

خُيِّلَ إليّ أنني أمام مشهد مستهلك: "هل تستخدم الفتيات أسماءهن الحقيقية؟"

"لا أعرف. هل كنت ستستخدمين اسمك الحقيقي لو كنت أنت؟"

أشارت نحو فتاة تنتعل حذاءً رياضياً وسروالاً قصيراً جداً.

"وهذه بواريت".

غمرتني موجة من الدهول: "كم يبلغ عمرها".

"تقول إنها في الثامنة عشرة من عمرها، لكنها ربما لم تتجاوز الخامسة عشرة".

استرخت في جلستي ووضعت يديّ على عجلة القيادة. لم أستطع إلا أن أفكّر بقردة الغيبون خلال تقديمها للفتيات لي واحدة بعد أخرى. وقفت هذه الفتيات على مسافات متقاربة، تماماً مثلما تفعل القردة الصغيرة التي تقسم الأرض التي تعيش فيها إلى مناطق نفوذ محددة ومتنوعة. تسيطر كل قردة على منطقتها، وتستبعد عنها بنات جنسها كي تنصرف إلى الإيقاع بشريكها. بدت لي هذه الوقفات المغرية، وكل تلك السخرية والتهكم، طقوساً تمهد للمطازحة، وذلك على طريقة المخلوقات الحية العاقلة. لم يكن الإنجاب من بين أهداف هؤلاء الراقصات.

انتبهتُ إلى أنّ غايي قد توقفت عن الكلام بعد أن انتهت من وصلة تعداد الأسماء. التفتُّ كي انظر إليها. رأيتها تنظر في اتجاهي، لكنها كانت تنظر إلى البعيد، وركّزت نظرها على شيء ما خارج نافذة السيارة، ولعل هذا الشيء كان خارج عالمي أنا.

"هيا بنا".

قالتها بجدوء شديد، إلى درجة أنني بالكاد سمعتها: "ماذا...؟"

"هيا انطلقني!"

أذهلتني شراستها. تهيأتُ للرد عليها، لكن نظرة عينيها أقتعتني أن لا أقول شيئاً.

التزمت الصمت مجدداً أثناء تحرك السيارة. بدت غايي غارقةً في أفكارها العميقة، وكأنهما انتقلت بذهنها إلى كوكبٍ آخر. اقتربنا من منزلها، لكنها فاجأتني بسؤالٍ آخر.

"هل اغتُصِنَ؟"

عدتُ بذاكرتي إلى الوراثة كي أتذكر حديثنا. لم أفلح. إذ فاتي مسار آخر.

"من تقصدين؟"

"النساء".

هل تقصدُ بنات الهوى؟ أم ضحايا جرائم القتل؟

"أي نساء؟"

التزمت الصمت لثوانٍ عديدة، ولم تُجِب.

"لم أعد أطيق هذه المهزلة!"

سارعت بالخروج من السيارة، وصعدت السلم الحديدي قبل أن أتمكن من

الرد عليها. صفعني العنف الذي حملته كلماتها.

5

لم أتلقَ أي اتصال من غايي على مدى الأسابيع القليلة التالية. لم يضع كلوديل اسمي على قائمته هو الآخر، ويبدو أنه استبعدني من حلقاته. تعرفت على بعض المعلومات التي تخص حياة إيزابيل غاغنون عن طريق بيار لامانش.

عاشت مع شقيقها وعشيقها في سان إدوارد، وهو حيّ الطبقة العاملة، الذي يقع إلى الشمال الشرقي من وسط المدينة. عملت هذه الفتاة في متجر العشاق، وهو متجر يقع على مقربة من سان دينيز يتخصص في بيع الملابس التي تصلح للجنسين، بالإضافة إلى بيع أدوات متنوعة أخرى. يُدعى المتجر سلايس أوف لايف (شريحة من الحياة). فكّر الشقيق، الذي يعمل نجّاراً، في هذا الاسم. وجدتُ أنّ المفارقة التي يثيرها الاسم تثير الكتابة.

احتفت إيزابيل يوم الجمعة في الأول من نيسان. وقال شقيقها إنها اعتادت ارتياد الحانات الموجودة في سان دينيز. أضاف أنها تأخرت كثيراً في الليلة السابقة لاختفائها، وقال إنه يظن أنها وصلت إلى المنزل في الثانية فجراً، لكنه لم يتأكد من حضورها بالفعل. غادر الرجلان متوجهين إلى مكائني عملهما في وقت باكر من صباح اليوم التالي. قال أحد الجيران إنه رآها في الواحدة من بعد الظهر. وكان يُتَظَر وصولها إلى المتجر في الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم، لكنها لم تصل أبداً. اكتُشفت بقاياها بعد مرور تسعة أسابيع في لا غراندي سيمينايير. وكانت لم تتعدّ الثالثة والعشرين من عمرها.

ذات مساء، حضر لامانش إلى مكثي في وقت متأخر كي يعرف إذا ما كنتُ انتهيتُ من تحاليلي.

قلتُ له: "هناك الكثير من الكسور في الجمجمة. عملتُ كثيراً حتى أعدتُ تركيبها".

"وي (نعم)".

تناولتُ الجمجمة من حلقة الفلين التي تحيط بها.

"ضربتُ ثلاث مرات على الأقل. هذه هي الضربة الأولى".

أشرت إلى فجوة صغيرة تشبه الصحن. انتشرت مجموعة من الدوائر ذات المركز المشترك التي انطلقت وبدت مثل حلقات لوحة التدريب على الرمي.

"لم تكن الضربة الأولى شديدة بما يكفي لتحطيم جمجمتها، لكنها تسببت بكسر عميق في اللوحة الخارجية، ثم ضربها هنا".

أشرتُ نحو نمط من خطوط الكسور يشبه الانفجار النجمي. بدت هذه مجموعة من الكسور المنحنية وكأنها تتبع نظام المدارات الذي تتبعه الأقمار. إذ تداخلت هذه الخطوط والدوائر مشكّلةً شبكة عنكبوتية من الأضرار.

"هذه هي أكثر الضربات شدةً، وهي التي تسببت بكسرٍ وانسحاقٍ شديدين، فلقد حطّمت جمجمتها".

استغرقت عملية إعادة تجميع قطع أجزاء الجمجمة ساعاتٍ طويلة، لذلك بقيت آثار الغراء ظاهرةً على أطراف هذه الأجزاء.

أصغى إليّ بانتباه شديد، وتنقلت عيناه بإصرار ما بين الجمجمة ووجهي، بحيث ظهرتنا وكأهما تحفران قناةً في الهواء.

"ثم ضربها هنا".

أشرتُ باتجاه خط آخر امتد من نظام انفجار نجمي آخر باتجاه الخط الذي أشرتُ إليه لتوي. تقدم الكسر الطولي الثاني باتجاه الخط الأول، ثم توقف مثلما يبدو طريق في الريف عندما يصل إلى تقاطع بشكل الحرف T.

"جاءت هذه الضربة لاحقاً. إذ وجدت الكسور الجديدة أمامها حاجزاً مؤلفاً من الكسور الموجودة قبلها. ولذلك لم تستطع الخطوط الجديدة عبور الخطوط القديمة، وهذا يعني بالضرورة أن هذا الكسر قد جاء لاحقاً".

"وي".

"يُحتمل أن تكون الضربات قد جاءت من الخلف، وإلى جهة اليمين قليلاً".

"وي".

اعتاد على هذا أمامي. إنَّ امتناعه عن التعليق من جهته لا يدل على عدم اهتمامه، ولا حتى عدم فهمه، لأنَّ بيار لامانش لا يفوته شيء. أشك في أنه احتاج يوماً إلى تفسيرات إضافية. إنَّ ردَّه المؤلف من مقطع واحد كان طريقته المفضلة التي يستخدمها من أجل إجبار محدِّثه على ترتيب أفكاره. يُحتمل أنه يتخذ هذه الطريقة بمثابة تجربة تمهد لعرض القضية أمام هيئة المحلفين. تابعتُ حديثي.

"عندما تتعرض الجمجمة إلى ضربة قوية فإنها تتصرف مثل البالون. تضغط العظمة، التي تتلقى نقطة الصدمة، باتجاه الداخل مدة ثانية مثلما يحصل في كسر بسيط، ثم تندفع في الاتجاه المقابل. لهذا السبب، لا ينحصر الضرر في المكان الذي تلقى فيه الرأس ضربه".

تطلعتُ كي أرى ما إذا كان لا يزال يتابعني، فتأكدتُ من متابعتي لي. "تسمح هندسة الجمجمة بأن تنتقل القوى التي سببت صدمة قوية ضمن مسارات معينة. إنَّ هذا يسمح لنا أن نتوقع انهيار العظمة، أو انكسارها".

"أشرتُ في اتجاه الجبهة. تستطيع الضربة هنا، على سبيل المثال، أن تتسبب بأضرار في محجري العينين، أو الوجه".

أشرتُ نحو منطقة تقع خلف الجمجمة.

"تتسبب الضربة في هذا المكان بكسورٍ في جانبٍ من قاعدة الجمجمة يمتد حتى الجانب الآخر".

أوماً موافقاً.

"لدينا في هذه الحالة كسرَيْن صغيرين، وكسراً عميقاً في مؤخر الجزء الأيمن للجمجمة. وجدتُ أيضاً عدة كسورٍ طولية تبدأ من الجهة المقابلة من الجمجمة، وتتحرك نحو منطقة الضرر في الجزء الأيمن منها. توحي هذه الكسور أنَّ الضحية ضربت من الخلف، ومن جهتها اليميني".

قال لي: "ثلاث مرات".

أكدتُ استنتاجه: "ثلاث مرات".

سألني، رغم معرفته طبيعة جوابي: "هل كانت كافية لقتلها؟"
"يُحتمل هذا. لا أستطيع أن أجزم".

"أوجد دلالات عن السبب".

"لم نجد رصاصات، ولا علامات تدل على الطعن، ولا كسور أخرى.
وجدتُ بعض الجروح الغريبة في العمود الفقري، لكنني لستُ متأكدة تماماً من مغزاها".

"أيحتمل أنها نتجت عن عملية تقطيع الاطراف؟"

هزرتُ رأسي: "لا أعتقد هذا، لأنها لا تتواجد في مكانها المفترض".

أعدتُ الجمجمة إلى حلقتها.

"كانت عملية التقطيع نظيفة جداً. لم يكتفِ القاتل بقطع الأطراف، بل

فصلها بدقة كبيرة عند المفاصل. هل تذكر قضية غاغني؟ أو قضية فالنسيا؟"

استغرقتُ في التفكير دقيقة. وأمالَ رأسه، في حركة نادرة منه، إلى جهة اليمين

ثم إلى جهة اليسار، مثلما يفعل كلبٌ يتخبط داخل كيس من النايلون.

قلتُ موضحةً: "جاءنا غاغني، ربما منذ عامين. كان ملفوفاً بعدة حرامات

كانت قد بُنيت جيداً بأشرطة لاصقة. نُشرت الساقان وغُلقت كل ساقٍ على حدة".

تذكرتُ المصريين القدماء حينها. اعتاد هؤلاء إزالة الأعضاء الداخلية وحفظها

قبل عملية التحنيط. كانوا يعمدون بعد ذلك إلى لفّ الأحشاء بشكلٍ منفصلٍ، ثم

يضعونها مع الجثة. فعل قاتلو غاغني الأمر ذاته بالنسبة لساقيه.

"آه، ومي. أتذكر هذه القضية".

"نُشرت ساقا غاغني من تحت الركبة. حصل الأمر ذاته مع فالنسيا. قُطعت

ذراعه وساقاه فوق بوصات قليلة من المفاصل، أو تحتها".

"تورط فالنسيا في صفقة مخدرات، لكنه انتهى عندنا ملفوفاً بكيس يُستخدم

في لعبة الهوكي".

"نُشرت الأطراف في كلتا الحالتين في الأمكنة المناسبة. أقدم القاتل في هذه

الحالة على فصل المفاصل. أترى؟"

قدّمتُ له رسماً. استخدمتُ الرسم التشريحي التقليدي كي أظهر النقاط التي قُطعت فيها الجثة. مرّ أحد الخطوط التي رسمتها بالعنق، وقطعت خطوط أخرى مفاصل الكتف، والورك، والركبة.

"فصل القاتل الرأس بمستوى الفقرة العنقية السادسة، وأزال الذراعين عند مفاصل الكتف، وفصل الساقين عند مفصل الركبة".
تناولتُ عظمة لوحه الكتف اليسرى.

"أترى كيف أحاطت الشقوق بالحفيرة الروحاء؟"
تفحص كل العلامات، وبمجموعات الأحاديث المتوازية التي تحيط بسطح المفصل.

استبدلت لوحه الكتف بعظمة الحوض: "يلاحظ الأمر ذاته في الساق. انظر إلى الشقّ. وصل القاتل حتى داخل الحجر".

تفحص لامانش الغطاء العميق الذي يحتضن قمة عظمة الفخذ. انتشرت جروح عديدة على جدران هذه العظمة. أخذتُ عظمة الحوض منه وأعطيتُ عظمة الفخذ من دون أن أنطق بكلمة واحدة. تميّز عنق هذه العظمة بشقوق متوازية أحاطت به.

تفحص العظمة لوقتٍ طويلٍ قبل أن يعيدها إلى الطاولة.
"لم ينحرف القاتل عن قاعدته إلا عند اليدين. عمد هناك إلى القطع من خلال العظام".

عرضتُ عليه عظمة لدليل على ما أقوله.

"غريب".

"أجل".

"أيّ من النمطين نستطيع اعتباره نموذجياً؟ هل هو هذا، أم الآخر."
"النمط الآخر. يريد القاتل، عادةً، تقطيع الجثة كي يسهل عليه التخلص منها، وهكذا فإنه يُنهي العملية في أسرع وقتٍ ممكن. يتناول القاتل منشاراً ويبدأ بعملية النشر. أخذ هذا القاتل وقتاً أطول كي يُنجز مهمته".

"مهلاً. ماذا يعني هذا الأمر؟"

فكرتُ ملياً في هذا السؤال.

"لا أعرف".

لم يتكلم أحدنا على مدى اللحظات القليلة التالية.

"تريد العائلة استرجاع الجثة لدفنها. سأحاول تأخير عملية التسليم قدر استطاعتي، لكن تأكدي من التقاط الصور المناسبة، وجّهزي كل شيء استعداداً لأخذ هذه القضية إلى المحكمة".

"أنوي أخذ أجزاء من مكانين مختلفين من الأمكنة التي تظهر عليها علامات الجروح. سأفحصها لاحقاً تحت المجهر لأتأكد من قدرتي على تحديد نوع الأداة المستخدمة".

حرصتُ على انتقاء كلماتي التالية بعناية فائقة، وراقبتُ ردّ فعله عليها.

"إذا تجمّع لديّ القدر الكافي من الدلائل فسأحاول أن أقارن هذه الشقوق مع الشقوق الموجودة في قضية أخرى".

ارتعشت زاوينا فمه قليلاً. لا أعرف إن كان قد فعل ذلك نتيجة سروره أو انزعاجه. يُحتمل أن أكون قد تخيلتُ هذه الحركة.

قال بعد فترة من الصمت: "أجل. ذكر السيد كلوديل هذا الأمر أمامي". نظر إليّ مباشرة. "قولي لي لماذا تعتقدين أن هاتين القضيتين مترابطتان".

أوجزتُ له نقاط التشابه التي لاحظتها ما بين قضيتي تروتييه وغاغنون. يبرز من بين هذه النقاط عملية الضرب، وتقطيع الجثة بعد الوفاة، واستخدام الأكياس البلاستيكية، ورمي هذه الأكياس في أمكنة منعزلة.

"هل تقع القضيتان ضمن صلاحيات وحدة شرطة مدينة مونتريال؟"

"تقع قضية غاغنون من ضمن صلاحية هذه الوحدة، أما قضية تروتييه فتقع

ضمن صلاحيات أمن كيبيك، لأن الجثة وُجدت في سان جيروم".

تُعتبر قضية تحديد مسائل نطاق الصلاحية صعبة في مونتريال، مثلما هي الحال في بقية المدن. تقع المدينة فوق جزيرة وسط نهر سان لوران. لذا، تعالج وحدة شرطة مدينة مونتريال قضايا الجرائم التي تقع فوق الجزيرة ذاتها. أما خارج الجزيرة فصلاحيات معالجة الجرائم تعود إلى مراكز الشرطة المحلية، أو أمن كيبيك. أعرف أن التعاون بين هاتين الوحدتين ليس على المستوى المطلوب في بعض الأحيان.

قال لي بعد برهة من الصمت: "أحياناً يكون السيد كلوديل...". تردد قليلاً قبل أن يتابع "صعباً. تابعي مقارناتك. وأعلميني إن احتجت لشيء".
التقطتُ - في وقت لاحق من الأسبوع - عدة صورٍ لعلامات الشقوق بواسطة المصوّر المجهرى ومن زوايا، وتكبيرات، وتركيزات ضوءٍ متنوعة. قصدتُ أن أحصل على تفاصيل تركيبة هذه الشقوق الداخلية. استخرجتُ عدة أجزاء عظمية صغيرة من أسطح مفاصل عديدة. كنتُ قد خططتُ أن أتفحص هذه الأجزاء بالمجهر الإلكتروني المقطعي، لكنني وجدتُ نفسي غارقةً بالعظام في الأسبوعين التاليين.

فلقد اكتشف بعض الصبية الصغار الذين كانوا يتجولون في متنزهه إقليمي هيكلاً عظمياً لا يغطيه إلا القليل من الثياب. واكتُشفت جثة متحللة على شاطئ بحيرة سان لوي. وعلمتُ أيضاً أن زوجين تزوجا حديثاً وجدا في قبو منزلهما الذي اشترياه حديثاً، صندوقاً مليئاً بالجماجم البشرية التي غُطيت بالشمع، والدماء، والريش. ووجدت جميع هذه المكتشفات طريقها إليّ.

افترضتُ أن البقايا التي وُجدت في بحيرة سان لوي تعود إلى رجلٍ مات حينما تعرض قاربه لحادث في الخريف الماضي، وذلك أثناء عمله بالمنافسة في تهريب السجائر. كنتُ على وشك وضع حجمته في مكانها عندما جاءني الاتصال.
توقعتُ حصول ذلك، لكن ليس بهذه السرعة الكبيرة. بدأ قلبي بالخفقان وأنا أستمع وشعرتُ أنّ دماي تغلي في صدري. وأحسستُ أنّها تغلي مثلما تفعل زجاجة صودا مكربنة بعد خضّها بشدة. وشعرتُ بحرارة شديدة تحتاحني.
كان لامانش يقول: "ماتت منذ أقل من ست ساعات. أعتقد أنه من الأفضل أن تأتي لتلقي نظرة".

6

كانت مارغريت أدكينز في الرابعة والعشرين من عمرها، وعاشت مع زوجها الذي تزوجته مدنياً، وابنها الذي يبلغ السادسة من عمره في حيّ سكني يقبع في ظلال الملعب الأولمبي. كان من المفترض أن تقابل شقيقتها عند العاشرة والنصف من ذلك الصباح. اتفقت الشقيقتان على اللقاء عند العاشرة والنصف لتسوقاً سوياً، ومن أجل تناول غدائهما في وقت لاحق. تخلفت مارغريت عن مواعدها، ولم تردّ على المكالمات الهاتفية بعد أن اتصل بها زوجها عند العاشرة. وكانت قد عجزت عن الرد لأنها قتلت في وقت ما بين مكالمته إياها وبين المساء، أي عندما اكتشفت شقيقتها جثتها. حدث ذلك منذ أربع ساعات، وهذا هو كل ما نعرفه عنها.

بقي كلوديل في مسرح الجريمة، بينما جلس زميله، ميشال شاربونيو، على أحد المقاعد البلاستيكية المصفوفة مقابل الجدار البعيد من جناح التشريح الكبير. عاد لامانش من مسرح الجريمة منذ أقل من ساعة، وقد وصلت الجثة قبله بدقائق معدودة. كانت عملية التشريح قد بدأت عند وصولي، وأدركتُ على الفور أنّ جميع الموجودين سوف يضطرون للعمل لساعات إضافية تلك الليلة.

استلقت الضحية ووجهها نحو الأسفل، وامتدّت ذراعها على جانبيها، ولاحظتُ أنّ راحة يدها كانت موجهة نحو الأعلى بينما أطبقت أصابع يديها. لاحظتُ أيضاً أنّ الأكياس الورقية التي وُضعت فوقها سابقاً قد أُزيلت. انتهى فحص أظفارها والخدوش الدقيقة للتو. كانت عارية، وبدا جلدُها شمعيّاً إزاء سطح

الفولاذ اللامع غير القابل للصدأ. انتشرت دوائر صغيرة على ظهرها نتيجة الضغط على فجوات التهوية الموجودة على سطح الطاولة. رأيتُ عدة شعرات هنا وهناك تلتصق على جلدها، وهي الشعرات التي انفصلت إلى الأبد عن كتلة الشعر المجمعة والمتشابكة التي تحيط برأسها.

بدت المنطقة الخلفية من شعرها مشوهة بشكلها غير المنتظم، وظهرت مثل رسمٍ عشوائي رسمه طفل صغير. تسرّب الدم من شعرها واختلط مع المياه التي استُخدمت لتنظيفها، ثم تجمّع تحت جثتها مؤلفاً بركة شفافة حمراء اللون. انتشر فستانها الطويل، وحمالة صدرها، ولباسها الداخلي، وحقاؤها، وجارباها فوق طاولة التشريح المجاورة. تشبعت كلها بالدماء، وحيّمت الرائحة الحادة ثقيلةً في الهواء. رأيتُ إلى جانب هذه الأغراض كيساً بزمامة مزوداً بحزام مطاطي ولفافة معقمة.

كان دانيال منهمكاً بالتقاط الصور الفوتوغرافية. رأيتُ المربعات ذات الإطار الأبيض على الطاولة الموجودة قرب شاربونيو. لاحظتُ أنّ الصور تتفاوت في درجة وضوحها. بدأ شاربونيو في تفحص الصور واحدةً تلو الأخرى، ثم أرجع كل صورة إلى مكانها الأصلي بعناية تامة. لاحظتُ أنه يمضغ شفته السفلى أثناء تفحصه لهذه الصور.

رأيتُ موظفاً يرتدي زياً رسمياً من قسم تحديد الهوية أثناء التقاطه صوراً بآلة تصوير نيكون مزودة بفلاش يتيح أخذ صور ذات نقاوة عالية حتى في ضوء خافت. وضعت ليزا، التي انضمت حديثاً إلى فريق تقنيي المشرحة، ستارة قديمة الطراز وراء الجثة. تعود هذه الستارة المعدنية المطلية بسطحها الأبيض، إلى حقبة انتشر فيها استخدام مثل هذه الأشياء في غرف المستشفيات، بهدف عزل المرضى أثناء القيام بأعمال تحتاج إلى المحافظة على الخصوصية. بدت المفارقة كبيرة بالنسبة إليّ. رحّتُ أتساءل عن أي خصوصية يحافظون عليها هنا. لم تعد مارغريت أدكينز بحاجة إلى حماية بعد الآن.

ابتعد المصور عن مكان وقوفه بعد أن التقط عدة صور، ثم نظر إلى لامانش متسائلاً. اقترب أخصائي الأمراض من الجثة وأشار إلى خدشٍ في الجهة اليسرى الخلفية من الكتف.

"هل صوّرتَ هذه؟"

حملت ليزا بطاقة مستطيلة الشكل فوق الجهة اليسرى من الخدش. حملت البطاقة رقم مختبرات العلوم الشرعية، ورقم المشرحة، والتاريخ: 23 حزيران، 1994. التقط دانيال والمصور صوراً قريبة.

انشغلت ليزا، من جهة لامانش، بحلاقة الشعر حول جروح الرأس، ورشّت فروة الرأس تكراراً مستخدمةً مرذاذاً. بلغ مجموع الجروح التي عملت عليها ليزا خمسة. ظهرت على كل جرح من هذه الجروح حواف الشقوق المألوفة التي تسببها الأدوات الحادة. قام لامانش بقياس طول الجروح وقطرها، فيما التقطت آلات التصوير صوراً قريبة لها.

قال لامانش بعد فترة صمت: "أعتقد أننا انتهينا من التصوير من هذه الزاوية. اقبلوها على الجانب الآخر من فضلكم".

تقدمت ليزا خطوة، فحجبت الرؤية عني برهة قصيرة. أزاحت الجثة إلى أقصى جهة يسار الطاولة، وقلبتها إلى الخلف قليلاً، ثم قرّبت الذراع اليسرى ووضعتها فوق منطقة المعدة. ساعدها دانيال في قلب الجثة على ظهرها. سمعتُ صوت ارتطامٍ ناعم عندما سقط الرأس على سطح الفولاذ غير القابل للصدأ. رفعت ليزا الرأس ثم وضعت كتلة مطاطية تحت الرقبة وتراجعت إلى الخلف. رأيت مشهداً زاد من سرعة جريان دمي، أي مثلما يحدث مع زجاجة صودا موجودة في صدري، وما لبث أن انفجر فيه بركان من الخوف.

رأيتُ مارغريت أدكينز مشقوقةً من عظمة صدرها حتى عظام عانتها. ظهر شق حاد من عظام القص نزولاً، مظهراً في طريقه ألوان الأحشاء المقطّعة وأنسجتها. استطعتُ أن أرى الغمد اللامع، الذي يحيط بعمودها الفقري، في المنطقة العميقة من الشق أي في الأمكنة التي انتزعت الأعضاء منها.

انتقلتُ ببصري إلى الأعلى فوراً، وأبعدته عن القسوة الفظيعة التي رأيتها في بطن الضحية. لم أجد هناك أي عزاء لي. رأيتُ الرأس مائلاً قليلاً، وقد بان وجهها مثل وجه شبح نتيجة أنفها المقلوب، وذقنها المدبب. رأيتُ خديها البارزين اللذين انتشر النمش فيهما. تناقضت - في ميبتها - بقع النمش الدقيقة البنية اللون مع اللون الأبيض الذي يحيط بها. ذكرني شعرها البني القصير بمنظر بيبي لونغ

ستوكينغ. لم ترتسم أي ضحكة على فمها الصغير. بدا مفتوحاً إلى آخر حد له وبرز منه ثدي الضحية المقطوع، بينما استراحت حلمة هذا الثدي فوق شفتها السفلى الدقيقة.

رفعتُ رأسي فالتقت عيناي بعيني لامانش. بدت لي الخطوط الموازية لعينيها أعمق من المعتاد. لمحتُ ما يشبه التوتر في جفنيه السفليين، التوتر الذي تسبب بتحريك بسيط في الهلالين الموجودين تحتهما. رأيتُ الحزن فيهما، لكنني ربما رأيتُ شيئاً أعمق من الحزن.

لم يقل لامانش شيئاً بل تابع التشريح، مركزاً تارةً على الجثة، وتارةً أخرى على لوحة الكتابة. سجل كل المظاهر الوحشية التي شاهدها، ووصف موقعها وأبعادها. فصل أيضاً كل جرح وكل إصابة. التقت صور للجثة من الجهة الأمامية أثناء انهماكه بالعمل، أي مثلما صوّرت من الخلف. اكتفينا بالانتظار، بينما انشغل شاربونيو بتدخين سجائره.

انتهى لامانش، بعد فترة خلناها دهرأً، من الفحص الخارجي.
"حسناً. خذوها للتصوير الشعاعي".

نزع قفازيه الطبيين، وجلس قبالة الطاولة، ثم انحنى فوق لوح كتابته مثلما يفعل رجل عجوز أمام مجموعة طوابعه.

دفعت ليزا بمساعدة دانيال عربةً مدولبةً من الفولاذ الذي لا يصدأ وأوقفها إلى يمين طاولة التشريح، وقاما بنقل الجثة بكل تجرد ورشاقة مهنيين، ثم ابتعدا بعربتهما إلى قسم التصوير الشعاعي. انتقلتُ بصمت إلى الجهة الأخرى، وجلستُ على المقعد المجاور لمقعد شاربونيو. نهض قليلاً، ثم أوماً باتجاهي وابتسم قبل أن يسحب نفثةً كبيرةً من سيجارته، ويطفئها.

"كيف تسير الأمور يا دكتورة برينان؟"

اعتاد شاربونيو أن يتحدثني بالإنكليزية مفاخرأً بفصاحته، لكن حديثه كان مزيجاً غريباً من اللهجتين الكيبككية والجنوبية. اكتسب لهجته هذه نتيجة تمضيته لطفولته في شيكوتيمي، والتي أثرت عليها سنتان من العيش في حقول النفط في شرق تكساس.

"إنها تسير سيراً حسناً، وأنت؟"

"إنها على ما يرام". هزّ كتفيه بطريقة لا يتقنها إلا الذين يجبون فرنسا، وتميّز
بإحناء الكتفين قليلاً، ورفع راحتي اليدين.

يمتلك شاربونيو وجهاً ودياً وشعراً أشيب حشن الملمس يذكرني دوماً بحقل
كامل من شقائق النعمان. كان رجلاً ضخماً، لكن رقبته كانت كبيرة وغير
متناسبة مع جسمه. حافظ الرجل على ياقاته ضيقة. لاحظتُ أنّ ربطات عنقه
كانت مطويةً ومائلةً قليلاً إلى إحدى الجهتين، أو أنها غير مربوطة ومدلية إلى أسفل
الزر الأول من القميص، وكأنه يفعل هذا كي يعوّض عن عدم التناسب في جسمه.
أعرف أنه كان يعمد إلى إرخائها منذ الصباح الباكر، ولعله فعل ذلك من أجل
جعل الختم يبدو متعمداً، أو لعله أراد فقط أن يكون مرتاحاً. لم يحاول شاربونيو
ارتداء زي جديد كل يوم، أي أنه كان على عكس رجال تحري وحدة شرطة
مدينة مونتريال. لا أعرف، لعله كان يفعل ذلك، لأنه ارتدى اليوم قميصاً بلون
الأصفر الشاحب، وسروالاً مصنوعاً من البوليستر، وسترة رياضية خضراء اللون،
أما ربطة عنقه فكانت بنية اللون.

نُضض كي يتناول مظروفاً أسمر اللون عن الطاولة، وسألني: "هل رأيتِ صور
المجزرة؟"
"ليس بعد".

تناول رزمةً من الصور الفورية وناولني إياها: "إنها الصور الاحتياطية التي
جاءت اليوم مع الجثة".

أومأتُ وبدأتُ بتأمل الصور. راقبني شاربونيو عن كثب. يُحتمل أنه توقع أن
أذهل من مشاهد المجزرة، ثم يمكنه عندها أن يبلغ كلوديل أنني اضطررتُ إلى
إغماض عيني، ولعله كان مهتماً فعلاً برد فعلي.

وجدتُ أنّ الصور في المظروف موضوعة حسب ترتيبها الزمني. نجحت هذه
الصور في تكوين صورة لمسرح الجريمة كما وجده الفريق المختص. أظهرت
الصورة الأولى شارعاً ضيقاً تصطف على جانبيه بنايات قديمة لكنها نظيفة، وتتألف
الواحدة منها من ثلاثة طوابق. رأيتُ صفوفاً متوازيةً من الأشجار تحيط بكل
رصيف على كل جانب. غطتُ أسفل جذوع هذه الأشجار مربعات ترابية صغيرة
محاطة بالإسمنت. وظهرت أمام كل بناية باحة صغيرة مستطيلة الشكل يخترقها ممر

صغير يؤدي إلى درج معدني شديد الانحدار. لاحظتُ وجود درّاجات هوائية ثلاثية الدواليب تسدّ الممر الصغير هنا وهناك.

ركّزت الصور الثلاث التالية على المنظر الخارجي لثلاثة مبانٍ مشيدة بالقرميد الأحمر. لفتت انتباهي بعض التفاصيل. ظهرت لوحات معدنية فوق بابي شقتين في الطابق الثاني، يحملان الرقمين 1407 و1409. قام أحدهم بزرع أزهار تحت إحدى نوافذ الطابق الأرضي الأمامي. استطعتُ أن أُميّز ثلاث زهرات مخملية متقاربة، لكنها ذاوية. بدت رؤوسها الصفراء الضخمة والذابلة متدلية بشكل أقواس متمائلة. تُركت وحدها بعد أن أزهرت. لاحظتُ وجود دراجة هوائية تستند إلى سياج حديدي طاله الصدأ، وهو السياج الذي يحيط بالباحة الأمامية الصغيرة. بدت لوحة معدنية صدئة ملقاة على الأرض، وشكّلت زاوية مع العشب. كانت قريبة جداً من الأرض وكأنها تحاول إخفاء ما كُتب عليها: للبيع.

بدت تلك البناية شبيهة بالبنائيات المجاورة لها التي تصطف على جانبي الشارع، رغم المحاولات التي بُذلت من أجل جعلها تبدو مختلفة. كان يوجد في هذه البناية السلم الحديدي، والشرفة، والأبواب المزدوجة، والستائر المطرزة ذاتها التي توجد في البنائيات الأخرى. رحّت أتساءل: لماذا هذه البناية بالذات؟ ولماذا اختارت الفواجع هذا المكان بالذات؟ ولماذا لم تحلّ هذه الفواجع بالبناية رقم 1405 مثلاً؟ أو في الجهة المقابلة من الشارع؟ أو في مكان أبعد من الحي؟

تابعتُ تأمل الصور واحدة تلو الأخرى. بدا الأمر وكأنني أتأمل في مجهر، وتنقلتُ من درجة تكبير إلى درجة أكبر. أظهرت المجموعة التالية الشقة من الداخل. بدت التفاصيل التي حملتها هذه المجموعة مثيرة للاهتمام. لاحظتُ أنّ الغرفة صغيرة، وأثاثها من النوع المتواضع. رأيتُ جهاز التلفزيون، الذي لا بد من وجوده في كل منزل. وظهرت غرفة المعيشة، وغرفة الطعام. بدت أيضاً غرفة الأولاد، والتي حملت جدرانها صوراً تمثل لعبة الهوكي. رأيتُ كتاباً ملقياً فوق سرير مفرد. حمل الكتاب عنوان: *كيف يسير العالم*. شعرتُ بوخزة ألمٍ أخرى. شككتُ أن يستطيع الكتاب تفسيرها.

أحبت مارغريت أدكينز اللون الأزرق. إذ انتشر اللون الأزرق في كل مكان. حملت الأبواب وكل قطعة من قطع الأثاث اللون الأزرق اللامع.

جاءت أخيراً صورة الضحية. استلقت الجثة في غرفة صغيرة تقع إلى يمار المدخل الأمامي. ظهرت من خلال الأبواب غرفة نوم ثانية، وظهر المطبخ أيضاً. استطعتُ أن أرى من خلال باب المطبخ طاولة من الفورمايكا، ومجموعة من الحصائر البلاستيكية. احتوى المكان الضيق الذي ماتت فيه آدكينز جهاز تلفزيون، وأريكة، وخزانة صغيرة. وتوسطت جثتها كل هذه الأشياء.

استلقت على ظهرها منفرجة الساقين. لاحظتُ أن الضحية كانت بكامل ثيابها، لكن القسم الأعلى المنزوع من فستانها غطى وجهها. رأيتُ معصمها مقيدتين فوق رأسها بطوق من بلوزتها، بينما ظهر مرفقاها وتدلّت يداها الهزيلتان. بدت في هذا الوضع مثل راقصة باليه مبتدئة أثناء تقديمها لحفلتها الأولى.

انفتح الجرح البليغ في صدرها، وظهر اللحم المجبول بدمائها، ولم تحجبه قليلاً إلا ظلمة الفيلم التي تحيط بالجثة، وبدا أن هذه الظلمة تغطي على كل شيء. رأيتُ إشارة مربع قرمزي في المكان الذي انشزع منه ثديها الأيسر، وظهرت حواف هذا الشدي نتيجة الجروح المتعاقبة، وهي الجروح التي تتقاطع عامودية عند الزوايا، أي زوايا تسعين درجة. ذكرني الجرح بالثقوب التي رأيتها على جماجم المايما القدماء. لم يعمد القاتل إلى هذا النوع من التشويه من أجل تخفيف حدة ألم الضحية، أو من أجل طرد أرواح مفترضة من جسدها. وإذا كانت هناك روح حبيسة في جسدها قد تحررت، فمن المؤكد أنها لم تكن روحها. استخدمت مارغريت آدكينز بمثابة معبر سعت بواسطته روح غريبة معذبة وراء الخلاص.

أقدم أحد الأشخاص على سحب نهاية فستانها كي يغطي ركبتيها، وبدا حصر الفستان المطاطي مشدوداً جداً. وتقاطرت الدماء ما بين ساقها وتجمعت تحتها. ماتت الضحية مرتدية جاريبها ومنتعلة حذاءها الرياضي.

أرجعتُ، بصمت، الصور الفوتوغرافية إلى مكانها وناولتُ شاربونيو المظروف. سألتني: "إنها صورٌ مقرزة، أليس كذلك؟" أزال شيئاً صغيراً عن شفته السفلى. تفحصه ثم رماه بعيداً.

"أجل".

قال وهو يهز رأسه: "يظن هذا المغفل أنه جراح لعين. حمل سكاكين حادة النصل".

كنتُ أهيأُ للرد عندما عاد دانيال حاملاً صور الأشعة السينية، وبدأ بوضعها على لوحة الضوء المثبتة على الجدار. أصدرت كل صورة خلال اثنتائها في يده صوتاً يشبه قصف الرعد البعيد.

تفحصنا هذه الصور بالتتابع، وتنقلت نظرتنا الجماعية من اليسار إلى اليمين، ومن رأسها حتى قدميها. أظهرت الصور الأمامية والخلفية للجمجمة وجود كسور عديدة. بقيت مناطق الكتفين، والذراعين، والقفص الصدري، طبيعية. لم نلاحظ أي شيء غير اعتيادي حتى وصلنا إلى صورة بطنها وحوضها. رأى الجميع محتوى الصورة في وقت واحد.

قال شاربونييو: "يا للسماء!"

"بحق الله!"

"يا للفضاعة!"

توهج شكل بشري صغير في أعماق بطن مارغريت أدكينز. حدقنا جميعاً، صامتين، في هذه الصورة. لم نجد سوى تفسير واحد. حُشر هذا الجسد الصغير من خلال المهبل، ثم دُفع باتجاه الأحشاء بقوة تكفي لإخفائه تماماً عن النظر. شعرتُ لدى رؤيتي هذا المنظر وكأن مسعراً ساخناً قد طعنني في أحشائي. وضعتُ يدي على بطني بصورة عفوية، بينما تسارعت دقات قلبي بين أضلعي. حدقتُ بالصورة جيداً، فرأيتُ تمثالاً.

تواجد ذلك الشيء ضمن عظام الحوض العريضة، فبدأ في تناقض حد مع الأعضاء التي وُضع بينها. أحاطت الألوان الرمادية العائدة إلى أمعاء الضحية بذلك الشيء العاري الأبيض اللون. برزت إحدى قدميه إلى الأمام، بينما مدّ يديه الاثنتين. بدا لي أنّ هذا الشيء ما هو إلا تمثال. لاحظتُ أنّ رأس التمثال قد انحنى قليلاً، فظهر مثل تمثال فينوس.

لم يتفوه أحد بأي كلمة في اللحظات القليلة التالية. فقد خيم الصمت التام على الغرفة.

قال دانيال أخيراً: "سبق لي أن رأيتُ هذه الصور". أرجع نظارته إلى أرنبه أنفه بحركة سريعة. واجتاحت ملامحه تشنجات عفوية، فظهر وكأنه لعبة مطاطية.

عُدنا جميعاً إلى تفحص ذلك الشيء المعتم في صورة الأشعة السينية. بدا لي أن تلك العتمة تزيد من حدة الجرم، وتجعلها أكثر بذاءة.

قال شاربونيو: "يبدو ذلك اللعين لقيطاً مريضاً بالفعل". نسي رجل التحقيقات الجنائية هذا كل ما تدرّب عليه من حيادية بسبب الظروف العارمة للحظة الراهنة.

فاجأتني لهجته العنيفة. لم أكن متأكدة ما إذا كانت تلك الوحشية وحدها هي التي أثارت أمراً ما في أعماقه، أم أنّ طبيعة هذا الشيء هي التي أسهمت برد فعله هذا. نشأ شاربونيو، بالتأكيد، في طفولته وسط بيئة تقليدية، مثله مثل غالبية الكيبكيين، أي أنّ إيقاع الحياة التقليدية تحكّم في حياته اليومية. إننا نحافظ على تقديرنا الشديد لهذه التقاليد، رغم تخلي معظمنا عن هذه المظاهر. يستطيع الإنسان أن يرفض ارتداء عباءة من دون أكمام، لكن ذلك لا يعني أنه مستعد لإحراقها. إنني أفهم هذا الوضع. أعيش في مدينة غريبة، وأتكلم لغة غير لغتي، لكنني أنتمي، مع ذلك، إلى القبيلة. وترفض المشاعر المتأصلة الموت بسهولة.

مرت فترة صمت طويلة أخرى. أخيراً تكلم لامانش، لكنه اختار كلماته بعناية. لم أكن متأكدة ما إذا كان قد استوعب العواقب الكاملة لما نشاهده أمامنا. عبّر الرجل عن أفكاره بشكلٍ كاملٍ رغم أنه استخدم نبرة ألطف من تلك التي كنت سأستخدمها لو تكلمتُ بنفسه.

"سيد شاربونيو، أعتقد أنك وزميلك بحاجة للاجتماع معي والدكتورة برينان. أنا متأكد من أنك تعرف بوجود بعض المظاهر المقلقة في هذه القضية، وبعض القضايا الأخرى".

توقف قليلاً ليتيح لنا وقتاً كي نستوعب كلامه، وكي يستشير روزنامته الذهنية. "أريد نتائج هذا التشريح في وقتٍ لاحقٍ الليلة، لأن غدًا هو يوم عطلة. هل يناسبكم أن نجتمع صباح الاثنين؟"

نظر التحري تجاهه، ثم نظر نحوي. بدا وجهه خالياً من أي تعابير. لم أعرف ما إذا كان قد فهم ما يقصده لامانش، أم أنه لم يعرف فعلاً بوجود حالات أخرى. أعرف أنه من المستغرب أن يتجاهل كلوديل ملاحظاتي من دون أن يأتي عليّ ذكرها إلى زميله. وإذا كان الأمر كذلك فلا يستطيع شاربونيو أن يقرّ بجهله بها.

"أجل. حسناً. سأحرص على بذل كل ما بوسعي".

ركز لامانش عينيه الحزيتين على شاربونيو وانتظر لبرهة.

"حسناً. حسناً. سنكون هنا. الأفضل لي الآن أن أخرج إلى الشارع وأبدأ بالبحث عن هذا النذل. إذا جاء كلوديل أخيره أنني سألتقيه في المركز قرابة الثامنة".

بدا مضطرباً. لم يتمكن من التحدث بالفرنسية مع لامانش، وتأكدت من أنه سيتحدث مطولاً مع زميله.

استأنف لامانش عملية التشريح قبل أن يغلق شاربونيو الباب وراءه. كانت بقية العملية عملاً روتينياً. فُتح الصدر بشق يماثل الحرف Y. انترعت الأعضاء الداخلية، وتم وزنها، وتقطيعها وفحصها. حُدّد موقع التمثال، وتم تقييم الأضرار ووصفها. استخدم دانيال مبضعاً كي يقطع جلد فروة الرأس، ثم انترع الوجه وأبعده قليلاً إلى الأمام، ثم انترع فروة الرأس وأبعدها قليلاً إلى الخلف. عمد بعد ذلك إلى انتراع جزء من أعلى طاقة الرأس مستخدماً منشار سترايكر. تراجعت خطوة إلى الوراء. أمسكت أنفاسي لأن الهواء امتلأ بأزيز المنشار، ورائحة العظام المحترقة. كان الدماغ سليماً من الناحية التركيبية. تعلّقت بسطحه كرات هلامية هنا وهناك، فظهر مثل قنديل بحر أسود اللون فوق كرة رمادية ملساء نتيجة الضربات التي تلقتها الضحية على رأسها.

عرفت ما سيكون عليه جوهر تقرير لامانش. سيلحظ التقرير أن الضحية كانت شابة تتمتع بصحة جيدة، أي أنها لا تعاني من أي عليل، أو علامات تدل على أمراض. بقي ذلك صحيحاً حتى ضربها أحدهم على رأسها بقوة كافية كي تكسر جمجمتها. بدأت الأوعية المخية بنزف الدماء إلى دماغها. ضُرب رأس الضحية خمس مرات على الأقل. عمد القاتل بعد ذلك إلى إدخال تمثال في مهبلها. تسبب هذا في انتراع أحشائها جزئياً، ثم قُطع نديها.

اجتاحني قشعريرة حينما رحّت أفكّر بمحتتها. فالجروح التي أصيب بها مهبلها كانت خطيرة جداً. فقد نزفت الكثير من الدماء في تلك المنطقة، لأن التمثال أُدخل بينما كان قلبها ما زال ينبض، أي عندما كانت حية.

"...أبلغني دانيال ما تريدينه يا قمبرنس".

لم أكن أصغي إليه. أعادني صوت لامانش إلى الحاضر. كان قد انتهى من عمله، فاقترح عليّ أخذ عيّنات العظام التي سأفحصها لاحقاً. أُزيلت في وقت سابق من عملية التشريح، عظمة القص والأجزاء الأمامية للأضلاع، لذلك أبلغت دانيال بضرورة إرسالها إلى الطابق العلوي من أجل تغطيسها وتنظيفها.

اقتربتُ من الجثة ونظرتُ إلى التجويف الصدري. لاحظتُ عدداً من الجروح الصغيرة التي تنتشر على العظام الفقرية الواقعة في الجهة العليا من البطن. بدت هذه الجروح مثل آثار من الشقوق الدقيقة في الغمد الصلب الذي يغطي العمود الفقري. "أريدك أن تنتزع الفقرات من هذا المكان إلى هنا. أريد الأضلاع أيضاً." أشرتُ إلى ذلك الجزء الذي يحتوي على الجروح. "أرسلها إلى دينيز. قل له أن يغطسها، لكن من دون أن يغليها. كن حريصاً جداً عند إزالتها. لا تمرر عليها أي نوع من السكاكين".

أصغى إليّ رافعاً يديه اللتين غطاها بقفازيه الطبيين. تحرك أنفه وشفته العليا عندما حاول تعديل وضعية نظارته. وأوماً موافقاً مرات عديدة.

نظر إلى لامانش عندما انتهيتُ من الحديث معه.

سأل: "هل أحيط الجرح؟"

ردّ لامانش: "نعم، لكن بعد أن تنتهي".

بدأ دانيال عمله على الفور. فأزال أجزاء العظام، ثم شرع في إعادة الأعضاء وختم الجزء الأوسط من الجثة. سيعمد في النهاية إلى إرجاع أعلى طاقة الرأس إلى مكانها، وإعادة الوجه إلى مكانه، ثم سيقوم بخياطة الجوانب الممزقة من فروة الرأس. ستبدو مارغريت أدكينز سليمة ما عدا الدرزة التي أخذت شكل الحرف Y، التي تبدو من جهتها الأمامية. ستكون مارغريت بعد قليل جاهزة لعملية الدفن.

عدتُ إلى مكنتي وقد صممتُ على استجماع معنوياتي قبل أن أقود سيارتي متجهةً إلى المنزل. وجدتُ الطابق الخامس مهجوراً بالكامل. أدتُ مقعدي كي أستطيع وضع قدمي على حافة النافذة، ثم تطلعتُ إلى النهر الواسع الذي أعتبره عالمي. ظهر مجمع مايرون من جهتي ممثالاً لمنشأة ليفو. يحتوي المجمع السكني على بنايات رمادية غريبة متصلة بممرات شبكية فولاذية. رأيتُ خلف معمل الإسمنت

قارباً يتحرك ببطء باتجاه أعلى النهر، لكن ظلال الغسق الرمادية حجبت قليلاً أنوار هذا القارب المتباعدة.

بدأت البناية ساكنة تماماً، لكن هذه السكنية المخيفة عجزت عن تهدئتي. كانت أفكارني حالكة مثل مياه النهر تماماً. تساءلت لفترةٍ وجيزةٍ ما إذا كان شخصٌ ما في المصنع ينظر إليّ. قد يكون هذا الشخص وحيداً مثلي، ومتوتر الأعصاب مثلي، نتيجة ساعات العمل الإضافية المليئة بالعبث، والتي تتردد أصدائها في هذه البناية الفارغة التي تضم مكاتب عديدة.

وجدت صعوبة كبيرة في استسلامي للنوم، مع أنني استيقظت عند الساعة السادسة والنصف صباحاً. لا بد أنني كنت متعبة جداً، لكنني شعرت بالتوتر أيضاً. انشغلت بشرود بالعبث في حاجي الأيمن، وهي الحركة التي لطالما أثارت زوجي كثيراً. ولم يفلح نقده لي على مدى الأعوام في دفعي إلى الإقلاع عن هذه العادة. أدركت أن الانفصال يمتلك حسناته أيضاً. أستطيع الآن أن أتملّل قدر ما أشتهي.

عدتُ بخيالي إلى بيتي. تذكّرتُ آخر عام لنا معاً. وظهر أمامي وجه كاتي عندما أخبرناها عن انفصالنا. ظننا أن الأمر لن يشكل صدمةً كبيرةً لها، لأنها كانت بعيدةً عنا في جامعتها. وكم كنا مخطئين. كادت دموعها تدفعي للرجوع عن قراري. برزت أمامي يدا مارغريت أدكينز المنقبضتان نتيجة الموت. لقد لوّنت أبواهما باللون الأزرق بتلك اليدين، وعلّقت أيضاً لوحات ابنها. أخذتني أفكارني إلى القاتل. هل هو هناك الآن؟ هل يستمتع يا ترى بما فعلته يده اليوم؟ وهل أشبع تعطشه للدماء، أم أن حاجته للقتل قد تزايدت نتيجة فعلته هذه؟

رنّ هاتفني قاطعاً السكنية المخيمة مثلما يفعل انفجار صوتي. انتشلني هذا الصوت من ذلك الكهف الشخصي الذي وجدت نفسي داخله. أجفلتُ إلى درجة أنني قفزتُ لا شعورياً، وقلبتُ حاملة الأفلام بمرفقي، فتطايرت أفلام الخبر البيغ والسكرتو في الهواء.

"دكتور برينا..."

"تمب. أوه، شكراً لله! حاولتُ الاتصال بشقتك، لكنك لم تكوني هناك، بالطبع." بدأت ضحكها عميقة، لكنها متوترة. "فكّرتُ في تجربة حظي مع هذا الرقم. لم أظن فعلاً بأنك ستردّين عليه."

عرفتُ صوتها، لكن الصوت اكتسب ميزةً لم أعرفها من قبل. جاء الصوت مفعماً بالحزن، لكنه انساب عالياً بإيقاعات متشابكة. اندفعت كلماتها نحوِي متقطعةً ويائسةً، مثل همسة تنساب مع زفير حاد. شعرتُ مجدداً بتوترٍ في أعماقي.

"لم أسمع صوتك منذ ثلاثة أسابيع يا غايي. لماذا لم..."

"لم أستطع الاتصال بك. تورّطتُ بأمرٍ يا قحب. أحتاج إلى المساعدة".

سمعتُ خشخشة ناعمةً وما يشبه الاحتكاك عبر خط الهاتف عندما نقلت السّماعَة من مكانها. استطعتُ أن أسمع الأصوات المكتومة المنبعثة من مكان عام. سمعتُ معها أصواتاً مكتومةً، لكنها متقطعةً بالإضافة إلى رنين معدني. تخيلتها تقف في كشك هاتف عمومي، وقد انشغلت في تفحص ما يحيط بها. تخيلتُ عينيها المتعبتين على الدوام، اللتين تبتان الخوف، مثلما كان يفعل راديو أوروبا الحرة.

"أيسن أنت؟" تناولتُ قلماً من حافظة الأقلام الموجودة على طاولتي، وبدأتُ بتحريكه دائرياً.

"أنا موجودة في مطعم يدعى لا بيل بروفنس. يقع هذا المطعم على زاوية تقاطع شارعي سانت كاترينا وسان لوران. لا أستطيع الخروج يا قحب. تعالي واصطحبيني معك".

زادت الخشخشة، وأصبحت غايي أكثر توتراً.

"كان يومي طويلاً جداً هنا يا غايي. أنت تتواجدين على بعد مجمّعات سكنية قليلة من شقتك. ألا تستطيعين..."

"إنه عازمٌ على قتلي! لا أستطيع التحمّل أكثر. ظننتُ أنني أستطيع التحمّل، لكنني لا أستطيع. لا أستطيع أن أحمله بعد الآن. يتعين عليّ أن أحمي نفسي. إنه لا يتصرف تصرفاً سليماً، كما أنه أصبح خطراً. إنه مجنون تماماً!"

استمر صوتها بالارتفاع بشكل ثابت حتى وصل إلى أعلى درجات المستيريا. وتوقف الصوت فجأةً. زادت وطأة هذا التوقف عندما تحوّلت إلى الحديث بالفرنسية. توقفتُ عن العبث بالقلم ونظرتُ إلى ساعتي. أشارت عقاربها إلى 9:15 مساءً. اللعنة!

"حسناً. سأكون عندك في غضون خمس عشرة دقيقة. انتظري وصولي.

سأصل من ناحية شارع القديسة كاترين".

تسارعت دقات قلبي وارتعشت يداي. أقفلتُ باب مكتبي، وهرعتُ - رغم تعبي الشديد - في ما يشبه الركض نحو سيارتي. أحسستُ وكأنني احتسيت ثمانية أكواب من القهوة.

7

أخذتني مشاعري إلى أماكن بعيدة أثناء قيادي للسيارة. كانت الظلمة قد أرخت سدولها، لكن المدينة كانت مضاءةً بالكامل. توهجت نوافذ الشقق بالأضواء في الحي الشرقي من المدينة، وهو الحي الذي تتواجد وسطه أبنية أمن كيبك، واستطعتُ أن أرى أجهزة التلفزة المضاءة هنا وهناك مختزقةً بأضوائها عتمة هذه الليلة الصيفية. جلس كثيرون في شرفاتهم، أو في شرفات مداخل منازلهم. تحلق هؤلاء في الخارج تلبيةً لنداء الليالي الصيفية الدافئة، وتبادلوا الأحاديث وارتشفوا المشروبات الباردة. لقد خرجوا كي يستبدلوا حرارة الظهيرة الشديدة ببرودة المساء المتجددة.

تمنيتُ أن أشاركهم جلستهم البيتية هذه، لكنني تمنيتُ فقط أن أتوجه إلى منزلي، وأن أتقاسم شظيرةً من لحم سمك التونا مع بيردي، ثم أستسلم للنوم بعد ذلك. أردتُ أن أتأكد من أن غايي بخير، لكنني أردتها أن تتوجه إلى بيتها بسيارة أجرة. خشيتُ في الواقع أن أتعاطى مع حالة الهستيريا التي تعاني منها. ارتحتُ كثيراً عندما سمعتُ صوتها، لكنني خفتُ على سلامتها. شعرتُ بالقلق لاضطراري أن أذهب إلى ماين. لم يكن هذا المزيج من المشاعر مزيجاً مريحاً.

سرتُ عن طريق شارع رينيه لافيسك ثم استدرتُ إلى اليمين فأصبحت شايناتاوان (الحي الصيني) ورائي. استعد ذلك الحي للإقفال في نهاية اليوم. رأيتُ آخر مالكي المحلات وهو يُدخل صناديقه وأدوات عرض بضائعه إلى الداخل.

امتد شارع ماين شمالاً أمامي، بدءاً من الحي الصيني، ومتوازيًا مع بولفار سان لوران. يُعتبر شارع ماين مركزاً للمحلات والمطاعم الصغيرة، والمقاهي

الرخيصة، بينما يُعتبر سان لوران شريانه التجاري. ويتفرع هذا الشارع من هناك إلى شبكة من الشوارع الخلفية الضيقة، والتي تكثظ بالشقق الصغيرة التي تتميز بإيجارها الرخيصة. بقي شارع ماين خليطاً ثقافياً رغم طابعه الفرنسي. إنه المنطقة التي تتعايش فيها مختلف اللغات والجاتيات العرقية، لكنها تعجز عن الاختلاط في ما بينها. تشبه حالتها هذه حالة الروائح المتنوعة التي تنطلق من عشرات المحلات والمخابز الموجودة فيه. تتجاور على جانبي هذا الشارع المحلات الإيطالية، والبرتغالية، واليونانية، والبولندية، والصينية، وتمتد صعوداً معه من المرفأ حتى الجبل.

كان شارع ماين في ما مضى محطة الاستقبال الرئيسية للمهاجرين. فلقد انجذب القادمون الجدد إلى الشقق الرخيصة، وارتاحوا إلى وجودهم المريح بين بني جنسهم. سكنوا هناك كي يتعلموا طرائق العيش في كندا، وتجمعت كل مجموعة من القادمين الجدد مع بعضها كي تخفف عنها وطأة غربتها، ومن أجل تعزيز ثقافتها بنفسها في وجه ثقافة غريبة عنها. تعلّم بعضهم الفرنسية والإنكليزية، وجنوا ثروات، ثم انتقلوا إلى أماكن أخرى. بينما بقي آخرون، إما لأنهم فضلوا البقاء تحت غطاء الأمان الذي توفره لهم الأماكن المألوفة، وإما لأنهم لم يمتلكوا القدرة على الانتقال. هذه الأيام، انضمت إلى هذه النواة من المحافظين والفاشليين مجموعة متنوعة من غريبي الأطوار والمتوحشين، بالإضافة إلى فرقة من الضعفاء والمنبوذين من المجتمع والذين يعيشون عائلة عليهم. يأتي الغرباء إلى شارع ماين بحثاً عن عدة أشياء: صفقات الشراء بالجملة، والحصول على وجبة غداء رخيصة، والعقاقير غير القانونية، والشراب القوي، والأمور اللاأخلاقية. إنهم يأتون إليه للشراء، وللتحديق في واجهات المحلات، وللضحك، لكنهم لا يمكنون فيه.

يؤلف شارع سانت كاثرين الحد الجنوبي لشارع ماين. انعطفتُ إلى اليمين في هذا المكان، ثم توجهتُ إلى المكان الذي جلستُ فيه مع غاي منذ ثلاثة أسابيع تقريباً. إنه وقت أبكر الآن. لذا، انصرفت بنات الهوى إلى ترتيب مناطق نفوذهن. ولم يصل الدرّاجون بعد.

لا بد أن غاي كانت ترأب المكان، لأنني لمحتها عندما تطلعتُ في المرآة الخلفية بعد أن أصبحتُ في منتصف الشارع، وأخذت تركض ممسكةً حقيبتها بشدة إلى صدرها. بدا خوفها واضحاً، وإن لم يصل إلى درجة الركض بأقصى

سرعتها. ركضت كما يركض البالغون الذين لم يركضوا منذ أن كانوا أطفالاً. لاحظتُ أن ساقها الطويلتين كانتا منحنيتين، وأنَّ رأسها كان منخفضاً. شاهدتُ حقيقةً كيف تتأرجح في تناغم مع خطواتها المسرعة.

دارت حول السيارة، ثم دخلت إليها وجلست مغمضة العينين، في حين كان صدرها يعلو ويهبط. بدا أنها تجهد كي تستعيد هدوءها، فشبكت أصابع يديها بشدة في محاولة منها لإيقاف ارتعاشها. أُرعبتني لأنني لم يسبق لي أن شاهدتها في هذه الحالة من قبل. أعرف أن غايي تتميز بنزعة للتصرف بشكلٍ مثيرٍ أثناء تعرضها لأزمات طويلة المدى، سواء الحقيقية منها أم المتخيلة، لكن لم يسبق لها أن انفعلت إلى هذه الدرجة نتيجة أي أزمة.

لم أقل شيئاً في اللحظات القليلة التالية. كانت الليلة دافئة، لكنني شعرتُ برعشة، وأصبح تنفسي صعباً. تصاعدت في الخارج أصوات زمامير السيارات، ورأيتُ فتاة ليلٍ تعترض سيارة عابرة. حلَّق صوتها في هذا المساء الصيفي صاعداً وهابطاً في مسارات لولبية ودائرية.

"هيا بنا".

قالتها بهدوء شديد إلى درجة كادت أن لا أسمعها.

سألتها: "هلاً تقولين لي ماذا يجري؟"

رفعت يدها وكأنها تريد أن تتفادى توبيخاً ما. ارتعشت يدها، ثم وضعتها على صدرها وهي مبسوطة. استطعتُ أن أحسَّ بالخوف يحتاج السيارة. كان جسدها دافئاً ويعبق برائحة خشب الصندل والعرق.

"سأفعل. سأفعل. أعطيني دقيقة فقط".

بدا صوتي أكثر حدةً مما أردت وأنا أقول لها: "لا تحاولي استفزازي يا غايي".

قالت وقد أحاطت وجهها براحتي يديها: "أنا آسفة. دعينا نغادر هذا المكان بأسرع وقت ممكن".

حسناً، سأفعل ما تقوله. سأتركها تهدأ على طريقته الخاصة، لكن لا بد وأن تخبرني.

سألتها: "هل نتوجه إلى منزلك؟"

أومأت من دون أن ترفع وجهها من بين راحتي يديها. أدرت محرك السيارة وتوجهتُ بها نحو شارع كارلي سان لوي. حافظت على صمتها إلى حين وصولنا إلى البناية التي تسكنها. استمرت يداها بالارتجاف، مع أن وتيرة تنفسها قد عادت إلى طبيعتها. عادت إلى ضم يديها وإبعادهما بين حين وآخر، وأخذت تصفّق بهما وكأنها تؤدي حركة راقصة غريبة ناتجة عن الذعر. إنها راقصة الرعب.

ركنتُ السيارة وأطفأتُ المحرك، لكنني خشيتُ من المواجهة الوشيكة الحدوث. سبق لي أن قدّمتُ لها استشاراتي ونصائحي في أمور تتعلق بالأزمات الصحية، والعائلية، والدراسية، والدينية، وتقدير الذات، والحب. أجهدتُ كل هذه الأمور أعصابي، فتولدت عندي قناعة تامة بأنها ستكون في أحسن حال، وغير مكدره الخاطر، عندما سأراها للمرة الثانية. ستكون قد نسيت مصيبتها في ذلك الوقت. لا يعني هذا أنني لا أتعاطف مع غايي، لكنني خيرتها في هذه الحالة من قبل. تذكّرتُها عندما قالت إنها حامل، ولم تكن كذلك فعلاً. تذكّرتُ أيضاً المحفظة المسروقة التي ظهرت لاحقاً بين وسائل أريكتها. أفلقني مع ذلك رد فعلها الذي تميز بالحدة. تمنيتُ كثيراً أن أنعم ببعض الوحدة كي أدخلو إلى نفسي، لكن لم يبدُ عليها أنها ستتركني وشأني.

"هل تودين أن أبقى معك هذه الليلة؟"

لم تُجيبني. رأيتُ في الجانب الآخر من الباحة رجلاً مسناً وقد رتب لفافهً من القماش تحت رأسه، واسترخى على المقعد كي يمضي ليلته عليه. امتدّ الصمت طويلاً بحيث اعتقدتُ أنها لم تسمعني. التفتُ عازمةً على تكرار عرضي، لكنني وجدتها تحدّق بتركيز في اتجاهي. لاحظتُ أنها استبدلت حركاتها المذعورة التي أبدتها منذ لحظة مضت بالسكون التام. بدا عمودها الفقري متصلباً، بينما انحنى القسم الأعلى من جسدها إلى الأمام حتى إنها بالكاد لامست مسند مقعدها. وضعت إحدى يديها فوق حضنها، بينما وضعت قبضة يدها الأخرى على شفتيها بشدة. أغمضت عينيها قليلاً، وارتعش جفناها السفليان بحركة غير مفهومة. بدت وكأن عقلها مشغولٌ بأمر ما، وأنها تحاول ربط المتغيرات وحساب العواقب. بدا هذا التحوّل المفاجئ في مزاجها مقلقاً جداً بالنسبة لي.

بدت هادئة تماماً الآن، وانساب صوتها خافتاً ومنتظماً: "لا بد أنك تعتقدين بأنني مجنونة".

"أنا مضطربة قليلاً". لم أعبر عما أفكر به فعلاً.
"حقاً؟ إنها طريقة ملطّفة لوصف الأمور".

قالت هذا مع ضحكة استهجان، وأخذت تهزّ رأسها ببطء، فتمايلت جدائل شعرها.

"أعتقد أنني تصرفت بغرابة هناك".

انتظرْتُها كي تكمل. وسمعتُ صوت باب إحدى السيارات ينغلق بشدة، ثم انساب إلى مسامعي صوت ساكسفون حزين صادر من موقف السيارات. سمعتُ أيضاً من البعيد أنين سيارة إسعاف. إنها أصوات يوم صيفي في المدينة. استطعت وسط العتمة أن أحسّ - قبل أن أرى - غايي وقد غيرت نقطة تركيزها. بدا الأمر وكأنها صوّبت نظرها نحو شيء ثم انخرقت على نحو مفاجئ في آخر دقيقة. كيفت بصرها على شيء أبعد من مكاني، وكأنها تعدّل تركيز عدسة بندقيّة آليّة. وعادت إلى العزلة مجدداً، وكأنها تفكّر في الخيارات المفتوحة أمامها، وأي مظهر يجدر بها أن تبدو عليه.

أهمّكت في تناول حقيبتها وكيسها، ومدّت يدها نحو مقبض الباب: "سأكون بخير. أشكرك جداً لأنك أتيت لأجلي".
قررت أن تراوغ أخيراً.

شعرتُ بشيء كأنه الإجهاد، وربما كان ناتجاً عن تعب الأيام القليلة الماضية. فقدتُ أعصابي من دون أن أعرف السبب.

انفجرتُ صارخةً بها: "انتظري دقيقة! أريد أن أعرف ماذا يجري! ذكرت قبل ساعة من الآن أنّ شخصاً ما يريد قتلك! خرجت راکضةً من ذلك المطعم، وعبرت الشارع وأنت ترتخفين، وكان شخصاً غامضاً يلاحقك! استطعت بالكاد أخذ أنفاسك، وارتعشت يداك وكان تياراً كهربائياً قد مسّك. تريدان الآن أن ترحلي من هنا من دون أن تقولي شيئاً غير أشكرك كثيراً على إيصالك لي بالسيارة، ومن دون أي تفسيرات!"
لم يسبق لي أن غضبتُ عليها بهذا الشكل. ارتفع صوتي كثيراً، وبدأت أنفاسي بالتقطع. أحسستُ بنبضٍ في الجهة اليسرى من صدغي.

أجبرها غضبي على أن تجمد في مكافئها. بدت عيناها المستديرتان مجوفتين، وظهرتا مثل عينيّ ظبية تسمرت في مكافئها نتيجة تسليط ضوء قويّ عليهما. مرّت سيارة فتوهج وجهها باللون الأبيض ثم الأحمر، فظهرت صورتها مضخمة. تسمرت في مكافئها للحظة، وكأها مجرد مجسم صلب يقف في سماء يوم صيفيّ. بدا وكأن التوتر قد غادر جسدها بفعل صمام انفتح بشكل مفاجئ. تركت مقبض الباب، وأنزلت حقيبتها ثم استرخت في مقعدها. انكملت على نفسها مجدداً واستغرقت في موجة تأمل جديدة. أعتقد أنها أرادت أن تقرّر من أين تبدأ، وربما راحت تفكر في طرائق بديلة للهرب. ولكنني انتظرتها.

أخذت نفساً عميقاً في النهاية ورفعت كتفيها قليلاً. لا بد أنها استقرت على رأي أخيراً. تأكدت من قرارها ما إن بدأت بالكلام. سوف تسمح لي بالتدخل، ولكن بشكل محدود. اختارت كلماتها بعناية، واختارت مساراً حذراً وسط مستنقع الأحاسيس التي تحتاح ذهنها. استندت على الباب، وانكملت على ذاتي.

"كنت أعمل مع بعض الأشخاص غير العاديين مؤخراً".

اعتبرت أن ما سمعته لم يكن كافياً، لكنني لم أصرّح بذلك علناً.

"لا، لا. أعرف أن هذا يبدو أمراً عادياً. أنا لا أتحدث عن أشخاص الشوارع العاديين. فأنا أستطيع التعامل مع هؤلاء".

عدّبتني اختيارها لكلماتها.

"إذا كنت على معرفة باللاعبين، فيمكنك تعلّم قواعد اللعبة ولغتها، وستكونين على ما يرام في ذلك المكان. يشبه هذا ما يحدث في أي مكان آخر. يتعيّن عليك أن تنتبهي لطريقة السلوك المتبعة في ذلك المكان، وأن لا تُبعدي الناس عنك. الأمر بسيط جداً: ويكمن في أن لا تتطلمي على منطقة نفوذ الآخرين، وأن لا تفكري بحيلة، وأن لا تتكلمي مع رجال الشرطة. لا يُعتبر العمل صعباً هنا لولا الملل من جرّاء مرور الساعات المتناقل، عدا أن الفتيات يعرفني. إنهن يعرفن بأنني لا أشكّل تهديداً لهن".

التزمت الصمت بعد ذلك. لم أعرف ما إذا كانت تستبعدني مجدداً، أو أنها

لجأت إلى ترتيب ملفاتها من جديد. قررت أن أجرب معها مجدداً.

"هل يهددك أحد؟"

لطالما اعتبرت غايي الأخلاق أمراً مهماً، ولهذا شككتُ أنها تحاول حماية مخبرٍ ما.

"أتعنين الفتيات؟ لا. لا. إنهنّ لطيفات معي. لا مشكلة لديّ معهنّ إطلاقاً. أعتقد أنهنّ مسرورات برفقتي. أستطيع أن أكون صريحة مثلهنّ".

عظيم. أصبحتُ أعرف الأمور التي لا تسبب مشكلة. حاولتُ مجدداً. "كيف تتجنيين أن يظنك أحدهم فتاةً مثلهم؟"

"أوه. أنا لا أحاول شيئاً من هذا القبيل. تستطيعين القول إنني اختلطتُ معهنّ، فإن لم أفعل ذلك فسيضرر الهدف الذي أعمل عليه. تعرف الفتيات أنني لا أقوم بخداع أحد، وهكذا فهنّ يثقن بي".

لم أ طرح عليها السؤال البديهي.

"إذا ضايقتني أحدهم فإنني أكتفي بالقول إنني لا أعمل في ذلك الوقت. وينصرف معظمهم عندما يسمعون ذلك".

مرّت فترة صمت أخرى عمدتُ أثناءها إلى ترتيب أولوياتها ذهنياً، وفكّرت في ما عساها تقوله لي، وما عساها تُبقية لنفسها، وما هي الأمور التي ستبقيها طي الكتمان، لكنها تستطيع الإفصاح عنها عند الضرورة. راحت تتحسّس حقيبتها. سمعتُ نباح كلب في الباحة. تأكّدتُ الآن من أنها تقوم بحماية شخصٍ ما، أو أنها تخفي أمراً ما، لكنني لم أحاول أن أثيرها مرةً أخرى.

تابعت كلامها: "أعني معظمهم، ما عدا ذلك الشاب الذي التقيته مؤخراً".

مرّت فترة صمت.

"ومن يكون؟"

مرّت فترة صمت.

"لا أعرف، لكنه جعلني أشعر بالقلق. إنه ليس زبوناً، لكنه يحب مرافقة بنات الهوى. لا أعتقد أنّ الفتيات يكثرن به. إنه يعرف الكثير عن حياة الشوارع، كما أنه مستعد للتحدث معي، وهكذا بدأتُ بإجراء مقابلة معه".

مرّت فترة صمت.

"بدأ مؤخراً بملاحقتي. لم ألاحظ ذلك في البداية، لكنني رحّتُ أراه في أماكن غريبة. اعتاد أن يكون في المترو عندما أصل ليلاً إلى منزلي، أو هنا في الباحة.

رأيتُه ذات مرة في الكونكورديا، خارج مبنى المكتبة حيث يقع مكثي. رأيتُه مرات عديدة ورائي على الرصيف وكان يمشي بنفس الإتجاه الذي أسير فيه أنا. شاهدتُه الأسبوع الماضي عندما كنتُ في شارع سان لوران. أردتُ أن أقنع نفسي أنني أتخيّل وجوده، وهكذا امتحنتُه. كان يتمهّل إذا تمهّلت، ويسرع إذا أسرعت. أردتُ أن أتخلص منه، فدخلتُ محل حلويات. ورأيتُه عندما خرجت وهو يتظاهر بالتفرج على واجهة أحد المحلات على الجانب الآخر من الشارع".

"هل أنت متأكدة من أنه الشاب ذاته؟"

"أنا متأكدة تماماً".

مرّت فترة صمت طويلة وثقيلة. انتظرتُ حتى تنتهي.

"هذا ليس كل شيء".

حدّقتُ بيديها اللتين تلاقنا مجدداً، وتشابكتا بقوة.

"بدأ يحدثني مؤخراً عن أمور غريبة. حاولتُ أن أتجنبه، لكنه ظهر الليلة في المطعم. بدا لي أنه يمتلك راداراً. عاد يحدثني عن المواضيع ذاتها، وطرح عليّ أسئلة غريبة".

عادت للإنطواء على ذاتها. التفتت إليّ بعد هنيهة وكأها وجدت إجابة لم تخطر على بالها من قبل. وحمل صوتها نوعاً من أنواع المفاجأة.

"إنهما عيناه يا قلمب. عيناه غريبتان جداً! فهما سوداوان وقاسيتان، مثل عينيّ الأفعى، كما أن البياض فيهما مشوبّ باللون الزهري ومبقعّ بالدماء. لا أعرف إن كان مريضاً، أو أنه يتسكع طيلة الوقت، أو أي شيء آخر. لم أشاهد عينين مثل عينيه، لأنهما يدفعانك للزحف والاختباء تحت شيء ما أو في مكان آمن. شعرتُ بالرعب يا قلمب! أعتقد أنني كنتُ أفكّر بحديثي معك آخر مرة، وذلك النذل الذي تعملين من أجل كشف هوية ضحيته. فكّرتُ في ذلك على الفور".

لم أعرف ما يجدر بي قوله. لم أستطع رؤية معالم وجهها في الظلمة، لكن حركات جسدها عكست لغة الخوف. كان جذعها صلباً، وذراعها مسيلتين، وتشدّان الحقيبة على صدرها، وكأها تفعل ذلك لحمايته.

"ماذا تعرفين أكثر عن هذا الشاب؟"

"لا أعرف الشيء الكثير".

"وما هي صورته عند الفتيات؟"

"إنهن يتجاهلنه."

"هل بدا خطراً في يوم من الأيام؟"

"لا. ليس بصورة مباشرة."

"هل سبق له أن كان عنيفاً ذات يوم، أو خارجاً عن السيطرة؟"

"لا."

"هل هو متورط بالعقاقير غير القانونية؟"

"لا أعرف."

"أتعرفين من يكون، أو أين يسكن؟"

"لا. هناك الكثير من الأسئلة التي لا نطرحها. إنها قاعدة غير مكتوبة، ونوع

من الاتفاق الضمني هناك."

مرتت، مجدداً، فترة صمت أخرى استغرقنا خلالها في التفكير بما قالته للتو. راقبتُ شخصاً يركب دراجة هوائية وهو يمرّ إلى جانب الرصيف. بدت خوذته ملتصقة، وأومضت عند مروره تحت أحد مصابيح الشوارع. راقبته أيضاً عندما دخل في الظلمة الخالكة مجدداً. عبّر الرجل مجال رؤيتي ثم اختفى ببطء في ظلمة الليل. تبعته يراعة، فأومضت مرات عديدة.

فكرتُ في ما قالته لي، وتساءلتُ إذا ما كان يجدر بي أن ألوم نفسي. هل أثرتُ مخاوفها عندما تحدثتُ عن مخاوفي، أم أنها التقت أحد الرجال المضطربين عقلياً؟ هل تقوم بعملية تضخيم ستسلسلة من المصادفات غير المؤذية، أم أنها في مأزق فعلاً؟ وهل يجدر بي أن أترك الأمور تسير كما قدّر لها أن تسير لفترة معينة؟ هل يتعين عليّ فعل شيء ما؟ وهل هذه قضية تخصّ الشرطة؟ وجدّثني أ طرح على نفسي السلسلة ذاتها التي لا نهاية لها من الأسئلة، والتي اعتدتُ على طرحها.

جلسنا لبعض الوقت، وأصغينا إلى الأصوات الصاردة عن موقف السيارات، ورحنا نشمّ روائح هذه الليلة الصيفية اللطيفة، واستغرقت كل واحدة منا في تأملاتها الخاصة. ساهم هذا الفاصل الزمني المليء بالسكون في تهدئة مشاعرنا. أخيراً، هزت غايي رأسها، وأسقطت حقيبتها في حضنها، ثم استرخت في مقعدها.

لم تكن ملاحظتها واضحة، لكنني استطعتُ ملاحظة التغيير الذي طرأ عليها. جاء صوتها أقوى وأقل توتراً عندما تكلمتُ هذه المرة.

"أعرف أنني أفرط في رد فعلي. إنه شابٌ شاذٌ لكنه غير مؤذٍ، ولا يريد سوى أن يقتحم عزلي. دخلتُ معه في لعبته هذه. أعطيتُ هذا المعتوه فرصة السيطرة على عقلي، وسمحتُ له أن يهز عالمي".

"ألا تصادفين كثيراً من هؤلاء الشاذين، كما تسميهم؟"

"أجل. إن معظم المخبرين الذين أتعامل معهم ليسوا من نوع الإخوة بروكس". ضحكتُ هنا ضحكة قصيرة تخلو من المرح.

"ما الذي يجعلك تعتقدين أن هذا الرجل يختلف عن غيره؟"

فكرتُ قليلاً في سوالي هذا، وأدخلتُ ظفر إبهامي بين أسناني.

"آه. يصعب عليّ التعبير بالكلمات. هناك خط رفيع يفصل ما بين المجانين، والرجال الذين يشكلون خطراً حقيقياً. يصعب عليّ وضع التعريف المناسب. لعلها مجرد غريزة اكتسبتها من تواجدي هناك. لكنني أعرف أنه إذا شعرت امرأة، من اللواتي يتخذن تلك المهنة، بمخطر يهددها من شخص ما، فإنها لن تخرج معه. تمتلك كل امرأة وسائل إغرائها الخاصة بها، لكنها تعرف كيف تضع حدودها. تصلح العينان لهذه الغاية، أو قد تكون على شكل طلب ما. تمتنع هيلين عن الخروج مع أي شخص ينتعل حذاء رعاة البقر".

استراحت قليلاً كي تناقش ذاتها.

"أعتقد أنني انجرفتُ قليلاً بكل ذلك الحديث عن المجرمين التسلسليين، والمهووسين الجنسيين".

مرّت فترة تأمل ذاتي أخرى. حاولتُ أن أسترق نظرة إلى ساعة يدي.

"يحاول ذلك الرجل أن يرعبني".

مرّت فترة سكون أخرى حاولت خلالها تهدئة نفسها.

"يا لذلك المتسكّع!"

لربما حاولت أن تزيد من ثورتها. فبدأ صوتها يزداد غضباً مع مرور الوقت.

"اللعنة يا قمب. لن أدع ذلك النذل يفعل ما يريد ويبريني صورته المقرزة.

سأبلغه أن يذهب بها إلى الجحيم!"

التفتت صوبي ووضعت يدها على يدي.

"أنا آسفة لأنني أوقعتك في هذه الورطة هذه الليلة. لا شك أنني أتصرف بطريقة مجنونة! هل ستسامحيني؟"

حدقتُ بها بصمت. أدهشني هذا التحوّل السريع في مزاجها. كيف أمكنها التحوّل من حالة الرعب، إلى التحليل، فالغضب، ثم إلى الاعتذار أخيراً، وأن يجري كل ذلك في غضون ثلاثين دقيقة؟ كنتُ متعباً جداً، بالإضافة إلى أنّ الوقت أصبح متأخراً جداً، لذلك لم أتمكن من فهم السبب الصحيح.

"غايي. أصبح الوقت متأخراً جداً الآن. دعينا نؤجل الحديث في هذا الموضوع إلى الغد. لستُ غاضبة بالطبع. إنني مسرورة لأنك بخير. إن دعوتي إليك للمكوث عندي هي دعوة من القلب. أرحب بك في منزلي على الدوام".
انحنى وعانقتني: "شكراً لك. سأكون بخير. سأكلمك هاتفياً. أعدك بذلك".

راقبتُها وهي تصعد السلم الحديديّ. شاهدتُ تنورتها تتطاير، فبدت مثل غمامة تحيط بها. اختفت في غضون لحظة من خلال باهما الأرجواني اللون. تباعدت المسافة في ما بيننا، ولم يعد يفصلني عنها سوى الفراغ والسكون. جلست وحيدة وسط الظلمة، ووسط رائحة خشب الصندل. اختفت من أمامي مثل ظل ظهر لبرهة قصيرة ثم مضى.

بقي تفكيري مشتتاً أثناء توجهي إلى منزلي. هل تقوم غايي بالتحضير لميلودراما جديدة؟ أم أنها في خطر حقيقي؟ هل أخفت عني بعض الحقائق؟ وهل يمثل هذا الرجل خطراً حقيقياً عليها؟ أم أنها تغذي بذور الذعر التي زرعها في مخيلتها حديثي عن الجرائم؟ هل يجدر بي إبلاغ الشرطة؟

رفضتُ أن أدع قلقي على سلامة غايي يسيطر عليّ. لجأتُ عند رجوعي إلى منزلي، إلى طريقة كنتُ أستخدمها في طفولتي في أوقات التوتر والإرهاق: أخذتُ حماماً ساخناً ومألتُ المغطس بالأملح العشبية. وضعتُ أسطوانةً مدججةً لكريس ري، ورفعتُ مستوى الصوت إلى الحد الأقصى. انساب صوته الذي تحدث عن الطريق إلى جهنم أثناء استماعي بالمياه التي تغمرني. أعتقد أنّ جيراني يفضلون البقاء على قيد الحياة. حاولتُ الاتصال بكاتي، لكنّ آلتها المحيية ردّت عليّ

مجدداً. تشاركتُ مع بيرودي تناول بعض الطعام والبسكويت، لكنه فضّل تناول الحليب. تركتُ الأطباق على الطاولة، ثم تسلّلتُ إلى سريري. لم يتبدّد قلقي كلياً. لم أستطع الاستسلام للنوم بسهولة، لذلك بقيتُ مستقيظةً في السرير مدةً من الوقت، وتسلّيتُ بمراقبة الظلال المرتسمة على السقف. قاومتُ بشدة فكرة الاتصال ببيتي. كرهتُ نفسي بسبب شعوري بالحاجة إليه من وقت إلى آخر، ولأنني أردتُه أن يتواجد بقربي عندما أشعر بالاضطراب. إنه الشيء الوحيد الذي أقسمت على قهره. غلبني سلطان النوم أخيراً وكان دوامةً جذبتني، فأزاحت من طريقها كل أفكارٍ عن بيتي، وكاتي، وغايي، بالإضافة إلى كل الجرائم التي تشغل ضميري. كان ذلك في صالحني، لأنه نقلني معه إلى اليوم التالي.

8

تمتعتُ بنوم عميق حتى التاسعة وخمس عشرة دقيقة من صباح اليوم التالي. لستُ من النوع الذي يتأخر بالنهوض عادةً، لكن اليوم هو يوم الجمعة، 24 حزيران، أي يوم ذكرى وطنية في كيبك. اعتدتُ ألا أعبأ بالتعب الذي تحمله معها مثل هذه الأيام. إذ تقفل كل المؤسسات التجارية تقريباً في هذا التاريخ، الذي يُعتبر ذكرى رئيسية في كامل أنحاء المقاطعة. لن أجد عدد *الغازيت* عند الباب، وهكذا اكتفيتُ بتحضير القهوة، ثم نزلتُ إلى زاوية الشارع كي أبحث عن جريدة بديلة.

كان النهار مشرقاً ومليناً بالحركة، وبدا العالم مثل منظومة حية نشطة. ظهرت كل الأشياء مع ظلالها بوضوح تام. وبرزت ألوان القرميد، والخشب، والمعادن، والأعشاب، والأزهار، صارخةً في أماكنها المنفصلة في تلك التشكيلة الواسعة. تألقت السماء بروعتها، ولم تحتمل وجود الغيوم فيها. ذكرني هذا المنظر بزرقه بيضة أبي الحن المرسومة على إحدى البطاقات التي أحتفظ بها منذ أيام طفولتي. كان اللون الأزرق الصارخ ذاته.

بعث فيّ هواء الصباح شعوراً بالنعومة والدفء، وترافق ذلك مع الرائحة التي تنبعث من صناديق أزهار البيتونيا. ارتفعت الحرارة تدريجياً، لكن بإصرار، على مدى الأسبوع المنصرم، وازداد الدفء يوماً بعد يوم. وضعت تقديرات طقس اليوم الحرارة عند اثنتين وثلاثين درجة مئوية. حولتُ هذا الرقم ذهنياً إلى مقياس فهرنهايت فبلغ حوالى تسع وثمانين درجة فهرنهايت. تقع مدينة مونتريال وسط

خندق مائي هو نهر سان لوران الذي يؤمن لها رطوبة ثابتة. ياهو! يشبه هذا اليوم أيام كاليفورنيا الحارة والرطبة. أحببتُ هذا اليوم لأنني نشأتُ في الجنوب الدافئ. اشتريتُ نسخةً من جريدة *لو جورنال دو مونتريال*، وهي الجريدة اليومية الأولى الناطقة بالفرنسية في أمريكا. يسهل عليّ تمضية اليوم مع هذه الجريدة أكثر من *الغازيت* الناطقة باللغة الإنكليزية. نظرتُ إلى صفحة الغلاف أثناء سيرتي تلك المسافة القصيرة إلى شقتي. برز في هذه الصفحة عنوانها الذي كُتب بأحرف من قياس سبعة سنتمترات، وباللون الأزرق السماوي: **ذكرى سعيدة يا كيبك!**

أخذتني أفكارني إلى الاستعراض وكل الحفلات الموسيقية التي تتبعه في بارك مايزويف. تذكرتُ الشراب الذي سيهرق. فكّرتُ أيضاً في الانقسام السياسي الموجود بين سكان كيبك. تأججت العواطف في هذه المنطقة مع اقتراب الانتخابات العامة في الخريف، وتصاعدت آمال الذين يناصرون الانفصال بحماسة بأن يحصل ذلك هذا العام. انتشرت القمصان والإعلانات التي حملت شعار: **العام القادم هو عام بلدي!** تمنيتُ ألا يرافق العنف هذا اليوم.

وصلتُ إلى البيت، فملأتُ كوب قهوة، وحضرتُ وعاءً من ميوسلي، ثم نشرتُ الصحيفة على طاولة غرفة الطعام. إنني مدمنة على قراءة الأخبار. صحيح أنني أستطيع تمضية أيام عديدة من دون قراءة صحيفة، وأنتي أستطيع الاكتفاء بمشاهدة البرامج الإخبارية الثابتة على شاشة التلفاز عند الساعة الحادية عشرة، لكنني سرعان ما أشعر بالحاجة إلى الكلمة المكتوبة. اعتدتُ في أوقات سفري أن أبحث عن محطة CNN قبل أن أفرغ ثيابي من الحقيبة. أقرأ الأخبار أيضاً أثناء أيام عملي المحمومة، أي عندما أكون مشغولة بمتطلبات التدريس، أو أثناء عملي على قضية ما. وأجد راحة كبيرة عندما أستمع إلى أصوات المذيعين المعتادة في برنامجي *الحلقة الصباحية*، ونظرة على كل شيء، لأنني أعرف أنني سأعوض في عطلة نهاية الأسبوع.

إنني لا أتناول الشراب، وأكره دخان السجائر، كما أنني خططتُ لتمضية عام خالٍ من الجنس، لذلك أستمع كثيراً في صباحات أيام السبت، عندما أنشغل في قراءة كل الأخبار الصحفية الغريبة، وأسمح لنفسي بأن أستمع بأدق التفاصيل. لا يعني هذا أن الأخبار تحمل أشياء جديدة بالضرورة، إذ لا تحمل الأخبار شيئاً

جديداً. أعرف ذلك. إنها مثل كرات البينغو. تصرّ الأحداث ذاتها على الظهور مرة بعد مرة؛ الهزات الأرضية، والانقلابات، والحروب التجارية، واختطاف الرهائن. طوّرت هوايةً خاصةً بي تقتصر على معرفة أي كرات ستظهر في يومٍ معين.

أتبعت صحيفة *لو جورنال* طريقة عرض الأخبار القصيرة مع نشر صورٍ كثيرة. إنها تكفيني رغم أنها لا تصل إلى مستوى *كريستيان ساينس مونيتور*. تعود *بيردي* على هذا البرنامج، لذلك جلس على المقعد المجاور. لا أستطيع أن أتأكد أبداً إذا ما كان يستريح لرفقتي، أم أن رائحة فضلات الميوسلي هي التي تجتذبه. قوّس ظهره، واستقرّ في جلسته بعد أن وضع قوائمه الأربع تحت بطنه، ثم ركّز عينيه الدائريتين الصفراوين نحوي، وكأنه يريد الحصول مني على حلٍّ لغزٍ من ألغازه المعقدة. انشغلتُ بالقراءة، لكنني أحسستُ بنظرته تُحترق حذّي.

وجدتُ المقالة في الصفحة الثانية. كانت محشورة ما بين المقالة التي روت قصة رجل الدين المخنوق، وبين مقالة كأس العالم لكرة القدم.

العشور على ضحية مقتولة ومشوهة. وُجدت امرأة تبلغ الرابعة والعشرين من عمرها مقتولةً ومشوهةً بوحشية. حدثت الجريمة في منزلها الكائن في الضاحية الشرقية. تدعى الضحية، وهي مدبرة منزل مارغريت أدكينز، وهي والدة صبي يبلغ السادسة من عمره. شوهدت السيدة أدكينز آخر مرة على قيد الحياة في العاشرة من صباح ذلك اليوم، أي عندما تحدّثت مع زوجها هاتفياً. اكتشفت شقيقتها جنتها، التي أشبعت ضرباً وحشياً، وأصابها الكثير من التشويه، قرابة الظهر.

تقول مصادر شرطة مونتريال إنها لم تلاحظ علامات تدل على دخول المنزل بالقوة، وأضافت أنه لم يتضح لها كيفية دخول المجرم إلى المنزل. أجرى الدكتور بيار لامانش عملية التشريح في مختبرات الطب الشرعي. وتقوم الدكتورة تمبرنس برينان، وهي عالمة أنثروبولوجية أميركية، ومختصة بإصابات هياكل العظام، بفحص عظام الضحية بحثاً عن آثار سكاكين...

تتابع المقالة بمقطعٍ مليءٍ بالشائعات عن آخر نشاطات الضحية، وبنبذة عن حياتها، وبرواية حزينة وصفت رد فعل عائلتها عندما علمت بالخبر، وبالوعود التي قطعها رجال الشرطة بأنهم سيفعلون ما بوسعهم لاعتقال القاتل.

رافقت المقالة صوراً عديدةً أظهرت تلك الدراما الحزينة وشخصياتها. ظهرت - بالألوان الرمادية - الشقة والدرج الحديدي، ورجال الشرطة، وموظفو المشرحة وهم يدفعون النقالة المدولبة التي تحمل كيس الجثة المقفل. ظهر في الصورة أيضاً حشدٌ من الجيران الذين يصطفون على الرصيف وراء الأشرطة التي وضعها فريق مسرح الجريمة. بان الفضول الذي يشعرون به في الصورة المبرغلة. تعرفتُ على كلوديل واقفاً بين الأشخاص الموجودين وراء الشريط الفاصل. رأيتُ ذراعه اليميني مرفوعةً مثلما يفعل قائد فرقة موسيقية مدرسية. وظهرت في إحدى الصور القريبة للضحية دائرة تظهر مارغريت آدكينز. بدا وجه الضحية أسعد حالاً في هذه الصورة غير الواضحة تماماً، من الوجه الذي رأيته على طاولة التشريح.

رأيتُ صورةً أخرى أظهرت امرأةً أكبر سناً ذات شعر قصير أحاط برأسها، كما ظهر صبيٌ صغير يرتدي سروالاً قصيراً وبلوزة إكسبو. ظهر في الصورة أيضاً رجلٌ ملتجٍ ويضع نظارة ذات إطار سلكي معدني. وضع هذا الرجل يديه حول كتفي المرأة والصبي، وكأنه يفعل ذلك كي يحميها. ظهر حزن الثلاثة ودهشتهم من خلال الصورة، كما ظهرت التعابير نفسها على ملامح الذين وجدوا أنفسهم وسط هذه الجريمة النكراء. اعتدت على رؤية هذا التعبير في سياق عملي. عرّف التعليق عن الذين ظهروا في الصورة على أنهم والدته، وابن، وزوج الضحية الذي تزوجته مديناً.

شعرتُ بالاستياء لدى رؤيتي للصورة الثالثة. كانت صورتي أنا، وهي الصورة التي التقطت لي أثناء إحدى عمليات النيش. شاهدتُ هذه الصورة كثيراً، وهي التي التقطت لي في العام 1992، واحتفظت بها الصحف في أرشيفاتها. أكثر الصحف من نيش هذه الصورة ونشرها. تعرّف الصحف عني باعتباري "عاملة أنثروبولوجية أميركية".

"اللعنة!"

حرّك بيردي ذيله وتطلع ساخطاً. لم أكثرث. بدا أنني لم أستطع أن أفي طويلاً بقسَمي في طرد الجرائم من ذهني طيلة هذه العطلة. كان يجدر بي أن أعرف أنّ القصة ستُنشر في صحف اليوم. تجرّعتُ آخر رشفة من قهوتي الباردة، وحاولتُ مهاتفة غايي. لا جواب. شعرتُ بالقلق، رغم إمكانية وجود مليون سبب لغيابها

عن المنزل. توجهتُ إلى غرفة النوم من أجل ارتداء الثياب المخصصة لممارسة رياضة تاي تشي. يتعدّد الصفّ عادةً في ليالي أيام الثلاثاء، لكنّ الأعضاء فضلوا عقد جلسة خاصة اليوم. لم أكن متأكّدةً من رغبتني بالذهاب، لكنّ المقالة التي قرأتها، والمكالمة التي لم تتم، حسماً أمر الذهاب عندي. سيتحرر ذهني من التفكير في الأمور التي تشغله لمدة ساعة، أو ساعتين، على الأقل.

أخطأتُ مجدداً. فلم تُفلح تسعون دقيقة من حركات مداعبة الطير، والتلويح باليدين مثل الغيوم، والوخز في قعر البحر، في وضعي في مزاج يوم العطلة. ظلّ ذهني مشغولاً بحيث شعرتُ بقلقٍ أكبر فاضطرت إلى مغادرة الصفّ في وقتٍ أبكر من المعتاد.

فتحتُ جهاز الراديو أثناء قيادتي للسيارة متوجهةً إلى منزلي، وصمّمتُ على توجيه أفكارني مثلما يوجّه الراعي قطيعه. أردتُ احتضان الأفكار اللطيفة واستبعاد الأفكار البشعة من أفكاري. وصمّمتُ على إنقاذ يوم عطلتي.

"... قُتلت يوم أمس في وقت ما حوالى الظهيرة. كانت شقيقة السيدة آدكينز في انتظارها، لكنها لم تصل في الموعد. اكتشفتُ الجثة في ديجاردان 1327. لم يستطع رجال الشرطة العثور على أي أدلة تشير إلى دخول المنزل بالقوة، وقالوا إنهم يظنون أنّ السيدة آدكينز قد تكون عرفت قاتلها".

أدركتُ أنه يجدر بي تغيير المحطة. ولكنني سمحتُ، بدلاً من ذلك، لصوت المذيع أن يملأ مسامعي. حرّك صوت المذيع الذكريات الكامنة في ذهني، فعاد شعوري بالإحباط ليطفو على السطح مدمراً بشكل نهائي عطلتي الأسبوعية.

"... لم تعلن نتائج التشريح بعد. تمسّط الشرطة الجهة الشرقية من مونتريال، وهي تقوم باستجواب كل شخص كان يعرف الضحية. إنها الجريمة السادسة والعشرين هذا العام في منطقة مدينة مونتريال. طلبت الشرطة من كل شخص يمتلك أي معلومات عن القاتل الاتصال بفرقة مكافحة الجريمة على الرقم 2052-555".

لم أستطع اتخاذ أي قرار صائب. غيّرتُ وجهة سيرني واتجهتُ نحو المختبرات. انشغلت يداي بالقيادة، بينما تكفّلت قدمايّ بالدواسات. وصلتُ بعد عشرين دقيقة، وصمّمتُ على إنجاز أمرٍ ما، لكنني لم أكن متأكّدة من طبيعة هذا الأمر.

خيم الهدوء على مبنى أمن كيبك، وهدأت الضوضاء المعتادة نتيجة مغادرة جميع الموظفين، في ما عدا القليلين الذين خافهم الحظ. نظر إليّ حراس المبنى ببعض الريبة، لكنهم لم يقولوا شيئاً. لعلهم نظروا إلى تسريحة شعري التي كانت اليوم على شكل ذيل حصان، أو إلى الثياب التي ارتديتها، أو لعلهم تأكدوا من أنّ ضرورات العمل نهار العطلة هي التي أتت بي إلى هذا المبنى. ولكنني لم آبه للسبب.

وجدت جناحي LML، وLSJ مهجورين تماماً. بدت المكاتب الفارغة والمختبرات في حالة رقود، أو إعادة تنظيم بعد عطلة نهاية أسبوع حارة. وجدت مكتبي على الحالة التي تركته فيها، فانتشرت الأقلام، وأقلام التأشير، على سطح طاولة مكنتي. نظرتُ من حولي عندما جمعتها فرأيتُ التقارير الناقصة، والشرائح غير المفهرسة، بالإضافة إلى مشروع لم ينته عن درزاتٍ فكية. حدثتُ بي بشرود محاجر العيون الفارغة للجمجمتين اللتين أعمل عليهما.

لم أكن متأكدة من السبب الذي دفعني للتواجد في هذا المكان، أو ماذا أردتُ أن أفعل. شعرتُ بالتوتر. فكّرتُ بالذكورة لينتز، وهي التي دفعتني للاعتراف بإدماني على الشراب، وحثّني على مواجهة نفوري من بيتي. ساعدتني كلماها على التركيز على الصخب الذي يغلف مشاعري. كانت تقول لي "قمب. لماذا تصرّين دائماً على أخذ كل المسؤوليات على عاتقك؟ ألا يمكنك الوثوق بأحد؟"

لعلها كانت على حق، ولعلي كنت أحاول أن أهرب من شعوري بالذنب، وهو الشعور الذي يسيطر عليّ عندما أعجز عن حلّ مشكلة ما. وربما كنتُ أتجنب حالة الكسل والشعور بعدم الأهلية اللذين يصاحبان عجزني هذا. أقنعتُ نفسي أن التحقيق بالجرائم ليس من مسؤوليتي بالفعل، لأنه يقع على عاتق رجال التحقيقات الجنائية، وأنّ مسؤوليتي تنحصر بمساعدتهم عن طريق تقديم الدعم التقني الدقيق. وبّختُ نفسي لوجودي في ذلك المكان، ولعلي جئتُ لأن أحداً لم يدعني إلى مكان آخر. لا فائدة.

انتهيتُ من جمع أقلام الرصاص، واستطعتُ فهم المنطق الذي يقف وراء حججتي، لكنني لم أستطع مع ذلك أن أهرب من شعوري بأنني بحاجة إلى عمل شيء ما. لازمتني هذه الفكرة مثلما يلازم حيوان قارض جزيرة حصل عليها. لم أستطع التخلص من الإحساس المزعج بأنني أفقدتُ عنصراً دقيقاً، لكنه شديد الأهمية بالنسبة إلى هذه القضايا، وبطريقة لم أفهمها بعد. شعرتُ بضرورة القيام بعملٍ ما.

تناولت مظروف ملف من الخزانة حيث أحتفظ بكل تقارير القضايا القديمة. تناولتُ مظروفاً آخر من كُدسة القضايا الجديدة، ثم وضعتُ المظروفين إلى جانب ملف آدكينز. نظرتُ إلى الملفات الصفراء الثلاثة. دَلَّت الملفات على ثلاث نساء انْتزَعن من محيطهنَّ وذُبجن بوحشية جنونية. تروتيه. غاغنون. آدكينز. عاشت الضحايا الثلاث على بعد أميال من بعضهنَّ بعضاً، وكنَّ مختلفات من حيث البيئات الاجتماعية اللواتي يعشن فيها، ومن حيث صفاهنَّ الجسدية، لكنني لم أستطع استبعاد القناعة بأنَّ اليد ذاتها قد ذبحت النساء الثلاث. لم ينظر كلوديل إلاَّ إلى الفروقات. لذا، بقيَ عليَّ أن أجد الرابط الذي يُقنعه بتغيير رأيه.

تناولتُ ورقةً مسطرةً ورسمتُ عليها مخططاً أولياً. قَسَمْتُ الأعمدة إلى فئات اعتبرتُها مهمة؛ العمر، العرق، لون الشعر وطوله، لون العينين، الطول، الوزن، الملابس التي ارتدتها الضحية عندما شوهدت حية لآخر مرة، الوضع العائلي، اللغة، الفئسة العرقية والديّن، ومكان ونوع السكن، مكان ونوع العمل، سبب الوفاة، تاريخ وزمان الوفاة، معالجة الجثة بعد الوفاة ومكان إيجاد الجثة.

بدأتُ مع شانثال تروتيه، لكن سرعان ما تبين لي أنَّ ملفاتي لن تحتوي المعلومات التي أحتاجها. احتجتُ للاطلاع على تقارير الشرطة بكاملها، وصور مسارح الجريمة. نظرتُ إلى ساعتِي التي أشار عقرباها إلى 1:45 من بعد الظهر. اهتمتُ وحده أمن كيبك بقضية تروتيه، وهذا ما دفعني إلى النزول إلى الطابق الأول. لم أكن متأكدة من وجود حركة كثيرة في غرفة فرقة مكافحة الجريمة، وهو الوضع الذي يساعدي على طلب ما أريد.

كنتُ على حق. بدت تلك الغرفة الكبيرة فارغةً تقريباً، وكانت الطااولات المعدنية الرمادية مهجورة بمعظمها. تحلَّق ثلاثة رجال في زاوية بعيدة من الغرفة. جلس رجلان على طاولتين متجاورتين قبالة بعضهما من دون أن تفصل بينهما سوى كدسات من حافظات ملفات القضايا والمزيد من القضايا.

شاهدتُ رجلاً نحيفاً فارح الطول ذا خدَّين أجوفين، أما لون شعره فيميل إلى الرمادي الغامق. جلس هذا الرجل على كرسيِّه المائل إلى الخلف بينما مد رجله ورفعهما، واضعاً قدماً فوق أخرى. يدعى الرجل آندرو رايان، ويتحدث بلهجة فرنسية ثقيلة لكنها هادئة تشبه تلك التي يتحدث فيها الناطقون باللغة الإنكليزية

عندما يتكلمون بالفرنسية، ويؤشر بقلم يلوّح به في الهواء. علّق الرجل سترته على ظهر كرسيه، وقد تأرجحت ذراعها الفارغتان مع حركات القلم. ذكرني هذا المشهد برجال الإطفاء في مركزهم: فهم يستريحون لكنهم جاهزون للتحرك عند أقل إشارة.

أما زميل رايان فراقبه عبر الطاولة، وأمال رأسه إلى جانب واحد، فبدا مثل طائر كنار يراقب وجهاً ما خارج قفصه. كان الرجل قصيراً ومليئاً بالعضلات، مع أنّ انتفاخات منتصف العمر بدأت تظهر على جسمه. ظهرت على بشرة الرجل سمرة تشبه تلك التي يكتسبها المرء في مركز مخصص لهذه الغاية. بدا شعره الأسود الكثيف مسرّحاً وممشطاً بعناية، وظهر مثل ممثل مبتدئ يقوم بتنفيذ شريط إعلاني. تولدت عندي قناعة بأنه سرّح شاربيه بعناية على أيدٍ خبيرة. ظهرت أمامه على الطاولة لوحة حُفر اسمه عليها: جان بورتوان.

جلس الرجل الثالث على حافة طاولة بورتوان مكتفياً بالإصغاء إلى الحديث الدائر، وانشغل في تفحص شريطي حذائه الإيطالي الصنع. انخفضت معنوياتي وكأها هبطت في مصعد، ما إن رأيتُ وجهه. "... وكأها عنزةٌ في مرقدها".

ضحك الرجال كلُّ بدوره، وكأنهم يضحكون عند سماعهم نكتة تتعلق بالنساء. نظر كلوديل إلى ساعته.

فكرتُ في نفسي بأنني أصبحت مذعورةً. سيطرتُ على مشاعري. تنحنحتُ وبدأتُ بشق طريقي وسط متاهة الطاولات. التزم الرجال الثلاثة بالصمت والتفتوا نحوي. ضحك رجلا التحري وهضاً، بينما بقي كلوديل في مكانه. لم يبذل الرجل مجهوداً ليخفي انزعاجه، لكنه تملل في مكانه وأخفض قدميه، ثم استأنف تفحصه لحذائه، ولم يتوقف إلا عندما نظر إلى ساعته.

مدّ رايان يده باتجاهي، ثم تحوّل للحديث بالإنكليزية: "كيف حالك يا دكتورة بريان. هل زرتِ موطنك مؤخراً؟"

شعرتُ بجاذبيته الشديدة: "لم أذهب إلى هناك منذ عدة أشهر".

"قصدتُ أن أسألكِ إن كنتِ تأخذين مسدس AK-47 عندما تذهبين إلى

هناك؟"

"لا. إننا نحفظ هذه المسدسات جاهزة في المنزل".
سبق لي أن تعودت على دعاياته المتعلقة بالعنف الأميركي.
يجب بوتروان التحدث عن الجنوب. سألني: "هل جهزوا منازلهم بحماماتٍ داخلية؟"
أجبتُ: "فقط في بعض الفنادق الكبيرة".
بدا رايان المنزعج الوحيد من بين الرجال الثلاثة.

كان من المستبعد جداً أن يعمل آندرو رايان بصفته رجل تحرّ جنائياً في وحدة أمن كيبيك. وُلد آندرو في نونافسكووشيا من أبوين إيرلنديين. كان والداه طبيبين تلقيا تدريبهما في لندن، ووصلا إلى كندا وهما يتحدثان فقط بالإنكليزية، لغتهما الأم. أرادا أن يتخذ ولدهما مهنة الطب. ووجد الوالدان أنهما مقيدان بلغتهما الوحيدة، فأقسما أن يجعلا ولدهما يتكلم الفرنسية بطلاقة.

بدأ رايان يواجه صعوباته الدراسية أثناء سنته الأولى في سان فرانسيسو خافييه. خضع ذلك الشاب لإغراءات حياة المغامرات، لذلك وجد نفسه غارقاً بتناول الشراب، وتناول أنواع الحبوب الأخرى. وجد نفسه خارج الحرم الجامعي معظم الأوقات لأنه أصبح يفضل حياة الليل بين مدمني العقاقير غير القانونية والشراب. امتلك هذا الشاب سجلاً عند الشرطة المحلية، واستضافته غرف سجونها التي فاحت فيها روائح القيء والشراب. وجد نفسه ذات مساء في مستشفى سان مارتا عندما أقدم أحد المدمنين على العقاقير غير القانونية على جرحه في رقبته، وكاد أن يشق شريانه السباتي.

مرّ رايان بمراحل تغييرٍ كليّ وشامل. أعرف أنه ما زال متعلقاً بعالم الليل، لكنه غيّر جهة عمله. أنهى ذلك الشاب دراساته الجامعية في علم الجريمة، ثم قدّم طلباً للانضمام إلى وحدة أمن كيبيك. قبل طلبه وحصل على وظيفة في هذه الوحدة حتى ترقى ليصبح ملازماً أول في التحري.

استفاد رايان كثيراً من تلك الفترة من حياته التي قضاهها في الشوارع. يُعرف الرجل بأدبه في العادة، وبجديته اللطيف، لكنه اشتهر أيضاً بجذته في الشجار أحياناً، وأنه يستطيع التعامل مع المجرمين بلغتهم التي يفهمونها، وأن يجاريهم في حيلهم. لم يسبق لي أن عملتُ معه، بل حصلتُ على كل هذه المعلومات عن طريق الإشاعات الرائجة في غرفة الفرقة، لكنني لم أسمع تعليقاتٍ سلبية عن آندرو رايان.

سألني: "ماذا تفعلين هنا في هذا اليوم؟" مدّ ذراعه الطويلة باتجاه النافذة. "كان بإمكانك أن تخرجي وتستمتعي بالحفلة".
استطعتُ أن أرى آثار الجرح الذي يتلوى من مستوى ياقة قميصه، وصعوداً في جانب عنقه. بدا الأثر صقيلاً وملتصعاً مثل أفعى لينة الملمس.
"إنني هنا بسبب الحياة الاجتماعية البائسة، كما أنني لا أعرف ماذا أفعل عندما تكون المتاجر مغلقة".

رفعتُ حصصات شعري التي انسدلت على جبهتي. تذكرتُ أنني أرتدي ثيابي الرياضية. شعرتُ بالرهبة قليلاً لأن الرجال يرتدون ثيابهم المتناسقة والمفصلة على قياسهم. بدا الثلاثة وكأنهم يقدمون إعلاناً لصالح *GQ*.
تقدم برتران من وراء طاولته باسطاً يده. أوماً ثم ابتسم. صافحته. استمر كلوديل بعدم النظر إليّ. إنني أحتاجه هنا مثلما أحتاج إلى تأثير الخميرة.
"إنني أتساءل عما إذا كنتُ أستطيع إلقاء نظرة على ملف من العام الماضي. أريد ملف شانتال تروتييه. قُتل هذه المرأة في شهر تشرين الأول من العام 1993. ووجدت جثتها في سان جيروم".

رفع برتران أصابعه كي يشير نحوي.
"أجل، أتذكر تلك القضية. إنها الفتاة التي رُميت في مكبٍ للنفايات. لم نقبض بعد على ذلك النذل الذي ارتكب هذه الجريمة".
رأيت من طرف عيني أن عيني كلوديل توجهتا نحو رايان. لفتت هذه الحركة انتباهي رغم أنها عفوية. شككتُ في أنّ كلوديل موجود هنا مجرد زيارة اجتماعية، لذلك كنت واثقة من أنّ الرجال تحدثوا عن جريمة الأمس. لا أعتقد أنّهم ناقشوا قضيتي تروتييه وغانغون.

ابتسم رايان، لكن بتكلف: "بالتأكيد. تستطيعين الحصول على أي شيء تريدينه. أنتعقدين أنّ معلومات مهمة فاتتنا؟"
مدّ يده كي يتناول علبة السجائر، وسحب واحدة. وضع السيجارة في فمه، ثم قدّم العلبة لي. فهزرت رأسي رافضةً.

قلتُ: "لا، لا. ليس الأمر كذلك. أعمل على قضيتين في مكنتي. تذكرني القضيتان بقضية تروتييه. لست واثقة، في الواقع، من الأمور التي يجدر بي البحث

عنها. أود رؤية صور مسرح الجريمة، وربما التقرير الذي وضعته الشرطة عن الحادث".

نفث دخان سيجارته من إحدى زاويتي فمه: "أجل، أعرف هذا الشعور". لو أنه علم أن القضايا التي أعمل عليها تخص كلوديل أيضاً لما تابع حديثه. "يكفي أحياناً أن يتبع المرء حدسه. ماذا تظنين أنه يوجد لديك؟"

"تعتقد أن أحد المضطربين عقلياً هو المسؤول عن كل جريمة وقعت منذ جريمة كوك روبين".

جاء صوت كلوديل قاطعاً، ولاحظت أنه عاد ليركّز نظره على رباطي حذائه، وأن فمه بالكاد تحرك عندما تكلم. بدا لي أنه لا يحاول أن يخفي استهائه بي. أشحتُ ببصري وتجاهلته.

ابتسم رايان في وجه كلوديل: "هون عليك يا لوك! اهدأ، لا ضير من إلقاء نظرة ثانية. إننا لا نسعى لتسجيل أرقام قياسية للقبض على المجرم".

أصدر كلوديل صوت استهجان وهز رأسه. ونظر إلى ساعته مجدداً.

سألني: "ماذا لديك؟"

فُتح الباب قبل أن أتمكن من الإجابة، وما لبث شاربونيو أن اندفع من آخر الغرفة بسرعة قياسية. ركض باتجاهنا وسط الطاولات، ملوحاً بورقة حملها بيده اليسرى.

قال: "لننا منه. تعرفنا على ذلك النذل". احمر وجهه وراح يتنفس بصعوبة.

قال كلوديل: "حان الوقت للقبض عليه. دعنا نرى". توجه بالكلام إلى شاربونيو كما لو أنه يخاطب موظفاً لتوصيل البضائع، وبدا أن نفاد صبره قد تغلب على أي ادعاء باللياقة.

تغصن حاجب شاربونيو، لكنه سلّم الورقة إلى كلوديل. اقترب الرجال الثلاثة من بعضهم بعضاً، فاقتربت رؤوسهم من بعضها، وكأنهم أفراد فريق رياضي واحد يتشاورون ويرسمون خطط اللعبة. أخذ شاربونيو يتحدث إلى الرجال الذين استداروا نحوه.

"استخدم ذلك النذل بطاقتها المصرفية بعد أن قتلها بساعة واحدة. يظهر أنه لم يكتف بهذا القدر من المتعة، لذلك أراد الحصول على المزيد، فقصده المتجر الذي

يقع في زاوية الشارع. صودف أنّ هذا المتجر لا يهتم بالناس الذين يشترون الحلويات الرخيصة، لذلك وضع المتجر كاميرات فيديو مصوبة نحو آلة النقد. استطعنا الحصول على صورة كوداك".

أشار إلى نسخة الصورة.

"إنها رائعة، أليس كذلك؟ أخذتها إلى المتجر هذا الصباح، لكن الموظف الليلي لم يستطع معرفة اسم ذلك الرجل، لكنه يعتقد أنّ وجهه مألوف لديه. اقترح علينا أن نتحدث إلى الرجل الذي سيأتي للعمل بعد التاسعة. يبدو أنّ رجلنا زبون دائم".

قال برتران: "عجبا!".

اكتفى رايان بالتحديق في الصورة، وانحنى بقامته الطويلة والنحيلة فوق قامة زميله الأقصر منه.

دقق كلوديل بالصورة التي حملها بيديه: "إذاً هذا هو السافل. دعونا ننال منه".

"أود أن أذهب معكم".

نسي الرجال أمر وجودي بينهم. فاستدار الرجال الأربعة نحو، وبدأ رجلا التحريّ في أمن كيبك مستمتعين قليلاً، وكأفهما شعرا بالفضول لما سيحدث بعد قليل.

أصّر كلوديل وحده على التحدث بالفرنسية: "مستحيل". بدأ التوتر على عضلات فكّيه وباقي أجزاء وجهه. ولم تبدُ على عينيه ابتسامة ما.

هل بدأت المواجهة؟

بادلته الحديث بالفرنسية، لكنني اخترتُ كلماتي بعناية: "حضرة العريف في التحريّ كلوديل. أعتقد أنني ألاحظ نقاط تشابه مهمة تربط بين ضحايا عدة جرائم قتل طلب مني تفحصها. وإذا كانت استنتاجاتي صحيحة فذلك يعني احتمال وجود مضطرب عقلي، كما تسمّيه، ارتكب كل هذه الجرائم. يُحتمل أن أكون على صواب، ويُحتمل أن أكون مخطئة. هل تريد فعلاً أن تتحمل مسؤولية تجاهل هذه الاحتمالات، والمخاطرة بحياة المزيد من الضحايا البريئة؟"

حافظتُ على تهدّئي، لكنني لم أستسلم. شعرتُ، أنا الأخرى، ببعض القلق.

قال شاربونييو: "اسمع يا كلوديل. دعها تأتي. سنكتفي بإجراء بعض المقابلات".

قال رايان: "هيا بنا. سننال من هذا الرجل سواء اصطحبتها معك أم لا".
لم يعلّق كلوديل بشيء، بل تناول مفاتيحه، ودسّ الصورة في جيبه، ثم مرّ بجاني أثناء توجهه نحو الباب.

قال شاربونييو: "دعونا نبدأ الحفلة".
أنبأني حدسي بأنّ يوماً آخر سيطول.

9

لم يكن وصولنا إلى ذلك المكان بالمهمة السهلة. شقّ شاربونيو طريقه غرباً، لكن بصعوبة في شارع **دي مايزونيف**. جلسْتُ في المقعد الخلفي، واكتفيتُ بالتحديق من خلال زجاج نافذتي، متجاهلاً الخشخشة الصادرة عن جهاز الراديو. تصبّتُ عرقاً نتيجة الرطوبة، وشاهدتُ تصاعد موجات الأبخرة من الأرصفة نتيجة تزايد الحرارة.

انشغلت **موتريال** بالتفاخر بحماستها الوطنية. فانتشرت صورة زهرة السوسن في كل مكان، وتدلت من النوافذ والشرفات. ظهرت هذه الزهرة أيضاً على الكنزات، والقبعات، والسراويل القصيرة، كما ظهر رسمها على الوجوه، ولوح الناس بالأعلام التي تحمل رسمها، وظهرت أيضاً على لوحات الإعلانات. احتشد الناس المتعرقون ابتداءً من **وسط المدينة شرقاً حتى شارع ماين**، وسدّوا الشوارع متسببين بأزمة سير في الشوارع، أي كما تفعل اللويحات في الشرايين. ملأ ألوف الناس الشوارع، وتدفقوا بالاتجاهين، وظهروا مثل موجات من اللونين الأزرق والأبيض. بدا أنّ المتظاهرين لا يمتلكون نخط سير معيّن، لكن الحشد توجه عموماً باتجاه الشمال، أي باتجاه **شيربروك** والمعارض. سار المراهقون **البانكي** إلى جانب الأمهات والمشاة الآخرين. غادر المتظاهرون والعربات سان آربان عند الساعة الثانية من بعد الظهر، ثم استدار الموكب شرقاً على طول شارع **شيربروك**، أي أنه كان يسير فوقنا في هذه اللحظة.

استطعتُ أن أسمع الكثير من الضحكات، وبعض الأغاني التي يطلقها الحشد بين حين وآخر، رغم صوت مكيف الهواء في السيارة. شاهدتُ أحد الأغبياء وهو

يدفع صديقه على جدار. لاحظتُ أن لون شعره يماثل لون الأسنان التي تُركت من دون تنظيف، أما شعره فكان أجعداً من الأعلى، وأرسل على طوله فوق كتفيه. رأيتُ أيضاً بشرته البيضاء التي تميل إلى الشحوب قليلاً. ابتعدنا قبل أن يتلاشى منظر الحشد. رأيتُ وجهاً مرتعباً لفتاة صغيرة يتداخل مع صدر امرأة عارية. ظهرت عينا الفتاة تحديقان بشيء ما، كما رسمت حرف O بفمها. وضعت صورة الفتاة داخل إطار إعلانيٍّ لمعرضٍ تاملارا دي ليميكا، الذي يُقام في متحف الفنون الجميلة. وضع المعلنون عنواناً صارخاً لهذه الصورة: امرأة حرة. إنها مفارقة أخرى من مفارقات الحياة. شعرتُ بالارتياح لأن ذلك الأحقق لن يمضي ليلة هائتة، بل لعلها ستكون ليلته الأخيرة.

التفت شاربونييو نحو كلوديل: "دعني ألقى نظرة على الصورة".
سحبها كلوديل من جيبه. وأخذ شاربونييو يتفحصها، وتنقل بنظره ما بين السيارات والصورة التي بين يديه.

"ليس بذلك الرجل الضخم. أليس كذلك؟" لم يوجّه كلامه إلى شخصٍ معيّن. ناولني الصورة من خلف مقعدي من دون أن ينطق بكلمة واحدة.
حملت في يدي صورةً بالأبيض والأسود. التفتت الصورة من مكان عالٍ إلى يمين الرجل. بدت صورة غير واضحة لرجلٍ أشاح بوجهه، وركّز على مهمة إدخال وإخراج بطاقة في آلة النقد الآلية.
ظهر شعره قصيراً وناعماً، وشكّل إطاراً فوق جبهته. بدت منطقة أعلى رأسه صلعاء تقريباً، لكنه مشط بعض الخصلات الطويلة من اليسار إلى اليمين في محاولة منه لإخفاء صلعه. إنها التسريحة الرجالية المفضلة عندي. تحمل هذه التسريحة معها جاذبية تماثل تلك التي تتمتع بها بذلة سباحة سييلو.

حُجبت عينا الرجل بجانيبه الكثيفين، وتوهجت أذناه مثل تويجات زهرة الثالوث. ظهر جلده شاحباً جداً. ارتدى قميصاً مطرزاً، بالإضافة إلى ما بدا أنه سروالٌ مخصّصٌ للعمل. حجبت البرغلة الظاهرة في الصورة، وزاوية التقاط الصورة، أي تفاصيل أخرى. وجدتُ نفسي أوافق شاربونييو. لم يظهر أن الرجل ذو شأن. كان يُمكن أن يكون أي شخص. أعدت الصورة إلى شاربونييو.

تُعتبر الديانويورات متاجر واسعة الانتشار في كيبك. إذ يستطيع المرء إيجاد مثل هذه المتاجر في أنحاء المقاطعة، وفي كل مكان مسقوف يغطي رفوفاً وثلاجات. تستمر هذه المتاجر بتقديم مواد السماننة، ومشتقات الحليب، والشراب. تنتشر هذه المتاجر في كل الأحياء، ولذلك فهي تشكّل شبكة تموين تؤمن احتياجات السكان المحليين والمارة. يستطيع المرء أن يعتمد على هذه المتاجر للحصول على الحليب، والسجائر، وشراب الشعير، وأنواع الشراب الفرنسي الرخيص، أما الأصناف الأخرى فتحددها الاحتياجات الخاصة بكل حي. لا تقدّم هذه المتاجر موقفاً لسيارة، كما أنّها تخلو من مظاهر الديكورات. وتمتلك المتاجر الأكبر آلات نقد مصرفية. إننا نقصد الآن أحد هذه المتاجر.

سأل شاربونيو كلوديل: "هل نتوجّه إلى شارع بيرغر؟"

"أجل. يقع هذا الشارع إلى الجنوب من شارع سان كاثرين. تستطيع سلوك شارع رينيه لافيسك حتى شارع سان دومينيك، واتّجه شمالاً بعد ذلك. يوجد الكثير من الطرقات ذات الاتجاه الواحد هناك."

انعطف شاربونيو يساراً وبدأ بالاتجاه جنوباً. أظهر شاربونيو نفاذ صبره، فضغط على دواسة الوقود أكثر مما ضغط على دواسة الفرامل، وهو الأمر الذي تسبب بترنح سيارة الشيفي، مثلما ترنح مقاعد دولاب فيريس (الدولاب الدوار الكبير المستخدم في مدن ملاهي الأطفال). أُصبتُ بما يشبه دوار البحر، لذلك ركّزتُ انتباهي على حركة محلات الثياب، والمطاعم الصغيرة، إلى أن سرنا بمحاذاة مباني جامعة كيبك القرميدية والتي تنتشر على جانبي سان دينيز.

"يا الله!"

"اللعنة!" قالها شاربونيو عندما اعترضته سيارة تويوتا ستايشن ذات لون أخضر داكن.

داس على الفرامل فارتجّت السيارة: "أيها اللعين! انظروا إلى هذا المهوروس الصغير".

تجاهله كلوديل، ويبدو أنه تعود على طريقة زميله العصبية في القيادة. فكّرتُ في تناول حبوب درامامين، لكنني لم أقل شيئاً.

وصلنا أخيراً إلى شارع رينيه لافيسك ثم انعطفنا غرباً. اتجهنا شمالاً بعد ذلك كي ندخل شارع سان دومينيك. سرنا في اتجاه معاكس في شارع سان كاثرين، فوجدتُ نفسي مجدداً في شارع ماين، أي على بُعد أقل من مربع سكني واحد من أماكن تواجد الفتيات اللواتي تحاورهنّ غابي. يُعتبر بيرغر واحداً من المتاجر الصغيرة التي تحيط بجناحي الشارع الذي يصل ما بين سان لوران وسان دينيز. ظهر هذا الشارع أمامنا مباشرة.

وصل شاربونييو إلى الزاوية وتقدّم إلى المعطف الذي يقع أمام متجر ديبانيور بيرغر. ارتفعت لوحة وسنخة فوق باب المتجر كُتب عليها شراب شعير وشراب فرنسي. رأيتُ بعض إعلانات مولسون ولابات التي تغطي النوافذ وقد اصفرّت وتقرّشت بفعل الشمس ومرور الأعوام. تراكمت صفوفٌ من الذباب الميت فوق حواف النوافذ، وانتظمت بقاياها بحسب الفصول التي ماتت فيها. رأيتُ شبكةً حديديةً تحمي الزجاج. وجلس رجلان على كرسيين أمام الباب. قال شاربونييو بعد أن نظر إلى دفتر ملاحظاته: "يدعى الرجل هاليفي. أعتقد أنه ليس لديه الكثير ليقوله".

قال كلوديل بعد أن أغلق باب السيارة بشدة: "إنهم دائماً هكذا، لكنّ ذاكرته ستتحسن إذا جعلناه يتعرق قليلاً".
راقبنا الرجلان المستآن بصمت.

رأيتُ مجموعة من الأجراس النحاسية عند دخولنا المتجر. انتشرت في المكان الحرارة، وروائح الغبار، والتوابل، والكرتون القديم. امتد صفّان من الرفوف التي تتلاصق جهاتها الخلفية على طول المتجر، فشكّلت بذلك ممرين في منتصف المتجر وعلى جانبيه. اصطفّت مجموعة متنوعة من أصناف المأكولات المعلّبة القديمة على الرفوف التي كان الغبار يعلوها.

رأيتُ براداً أفقياً في أقصى اليمين يحتوي أوعية الجوز، والأطعمة الهندية، والبازيلاء المجففة، والطحين. ظهرت أيضاً مجموعة من الخضار الذابلة في أقصى البراد. بدا هذا الجهاز من حقبة ماضية، لأنه لم يعد يعمل.

ظهرت أيضاً برادات عمودية على الجدار الأيسر مليئة بالشراب الفرنسي وشراب الشعير. ظهر في الخلف صندوق مفتوح مليء بالمعلبات البلاستيكية التي

تُستخدم من أجل تبريد الحليب، والزيتون، وجبن الفيتا. رأيتُ إلى أقصى اليمين آلة النقد. بدا هذا المكان وكأنه لم يخضع للتجديد منذ أن قدّمت آلاسكا طلباً للانضمام إلى الولايات الأمريكية.

تقع طاولة المكتب إلى يسار الباب الأمامي. جلس وراءها السيد هاليفي، الذي كان يتحدث منفصلاً على الهاتف الخليوي. واضب الرجل على تمرير يده على رأسه الأضلع، وهي حركة تعودّ عليها منذ أن كان شعره أغزر مما هو عليه الآن. رأيتُ على صندوق النقد ورقةً جاء فيها: ابتسم. الله يحبك. لم يتقيّد هاليفي بنصيحتي التي يقدمها للآخرين. إذ ظهر وجهه أحمر اللون، جرّاء الغضب الشديد. تراجعْتُ قليلاً، واكتفيتُ بالمراقبة.

وقف كلوديل أمام طاولة المكتب مباشرةً وتنحنح. أبرز هاليفي راحة يده وأومأ برأسه، وكأنه يطلب منه الانتظار. أبرز كلوديل شارته وهزّ رأسه. بدا هاليفي مضطرباً للحظة، ثم تحدّث قليلاً بكلمات هندية سريعة، وبعدها قطع الاتصال. بدت عيناه واسعتين من وراء نظارته، وتحركتا ما بين كلوديل وشاربونيو مرة بعد أخرى.

قال: "نعم".

قال شاربونيو بالإنكليزية: "هل أنتَ بيبين هاليفي؟"

"أجل".

وضع شاربونيو الصورة على طاولة المكتب: "ألقي نظرة على هذه الصورة.

هل تعرف هذا الرجل؟"

غيّر هاليفي وضعية الورقة وانحنى فوقها، وأمسكت أصابعه المرتعشة بأطرافها. بدا الرجل عصبياً، وبذل جهداً كبيراً ليرضي الرجل الواقف أمامه، أو على الأقل كي يعطي الانطباع بأنه يتعاون. اعتاد العاملون في مثل هذه المتاجر على بيع السجائر المهربة، أو الأصناف التي تباع في السوق السوداء، ولذلك فقد اعتادوا على زيارات رجال الشرطة لهم بمثل ما اعتادوا على زيارات مراقبي الضرائب.

"لا يستطيع أي شخص أن يتعرف على الرجل من هذه الصورة. هل أخذت

من شريط فيديو؟ أتى رجال كثيرون إلى هنا من قبل. ماذا يعمل الرجل؟"

تحدّث الرجل بإيقاع أغاني شمال الهند.

تجاهل شاربونيو أسئلة الرجل: "ألديك فكرة عمن يكون؟"
هزّ هاليفي كتفيه: "أنا لا أطرح أسئلة على زبائني، وعدا ذلك، فالصورة ليست واضحة، كما أن الرجل ينظر إلى البعيد".
تحرك الرجل في مقعده. بدا أنه يرتاح قليلاً بعد معرفته أنه ليس الشخص المطلوب، وأن الأمر يتعلق بصور الفيديو الأمنية التي صادرتها الشرطة.
سأل كلوديل: "هل يسكن الرجل في هذه المنطقة؟"
"قلت لك لا أعرف".
"هل تذكر هذه الصورة بأي شخص يتردد إلى هنا؟"
حدّق هاليفي بالصورة مجدداً.
"ربما. ربما نعم. لكن هذه الصورة غير واضحة. أتمنى أن أساعدكم. أنا... ربما يكون رجلاً سبق لي أن رأيته".
رقمه شاربونيو بنظرة قاسية، وربما فكر بالأمر نفسه الذي فكرتُ أنا فيه. هل يحاول هاليفي أن يرضي الشرطة، أم أنه فعلاً رأى شيئاً مألوفاً لديه في الصورة؟
"من هو؟"
"أنا... أنا لا أعرفه. إنه مجرد زبون".
"ألديك فكرة عن عمل الرجل؟"
بدا وجه هاليفي خالياً من التعابير.
ازداد انزعاج كلوديل: "هل اعتاد الرجل على القdom في الوقت نفسه من كل يوم؟ هل يأتي من الاتجاه نفسه؟ هل يشتري الأصناف ذاتها؟ وهل يحمل شيئاً معيناً؟"
"سبق أن أخبرتك. أنا لا أطرح الأسئلة، ولا ألاحظ. إنني أبيع أصنافي، وأتوجه إلى منزلي ليلاً. يبدو لي هذا الوجه مثل الوجوه الأخرى. إنهم يأتون ويذهبون".
"متى يُقفل هذا المتجر؟"
"عند الثانية فجراً".
"هل يأتي في الليل؟"
"ربما".

انشغل شاربونيو بتدوين ملاحظاته على رزمة أوراق ذات غلاف جلدي. لم يكتب الكثير إلى الآن.

"هل عملت البارحة في فترة ما بعد الظهر؟"

أوما هاليقي: "كان المكان مزدحماً البارحة، لأنه اليوم الذي يسبق يوم العطلة، أليس كذلك؟ لعل الناس اعتقدت أنني لن أفتح هذا اليوم."

"هل رأيت هذا الرجل يدخل المتجر؟"

تفحص هاليقي الصورة مجدداً، ومرّر يديه الاثنتين على مؤخر رأسه، ثم أخذ يحكّ شعره بنشاط. تأفف قليلاً ورفع يديه دلالةً على العجز.
دسّ شاربونيو الصورة بين أوراق دفتر ملاحظاته وأغلقه، ثم وضع بطاقته على طاولة المكتب.

"إذا تذكرت أي شيء آخر يا سيد هاليقي اتصل بنا. نشكرك على وقتك."

"بالتأكيد. بالتأكيد". التمع وجهه للمرة الأولى منذ رؤيته للشارة. "سأتصل".

قال كلوديل ما إن أصبحنا في الخارج: "بالتأكيد. بالتأكيد. سيتصل بنا ذلك الضفدع عند حصول معجزة".

أجاب شاربونيو: "إنه يعمل في ذلك المتجر، لكن الرجل مغفل".

عبرنا الشارع باتجاه السيارة. نظرتُ خلفي. رأيت الرجلين المستنّين في مكانهما قرب الباب. بدا الرجلان جزءاً من الديكور الثابت للمكان، أو مثل الكلاب الحجرية التي تحرس مدخل معبد بوذي.

قلت لشاربونيو: "أعطني الصورة. أريدها لدقيقة".

فوجئ الرجل لكنه استخرجها. فتح كلوديل باب السيارة، فاندفع منها على الفور تيار ساخن يشبه ذلك الذي ينطلق من محرقة. وضع إحدى ذراعيه فوق الباب، ومدّ قدماً وضعها على هيكل السيارة، ثم راح يراقبني. أخبر شاربونيو شيئاً عندما عبرت الشارع، لكنني لم أسمع، لحسن الحظ.

مشيتُ صوب الرجل العجوز الجالس إلى اليمين. كان يرتدي سروالاً قصيراً أحمر اللون، وقميصاً واسعاً، وجارين سميكين، وانتعل حذاءً جلدياً. لاحظتُ دوالي شرابينه التي تغزو ساقيه النحيلتين، فبدا وكأن جلده الأبيض غير السليم

ينتشر فوق عُقَد من السباغيتي. اتخذ فمه ذلك الشكل البائس بسبب خلوه من الأسنان، وامتدت سيجارة متدلّية للأسفل من إحدى زاويتي فمه.

قلت له: "صباح الخير".

"مرحباً". قالها وانحنى إلى الأمام قليلاً كي يريح ظهره المتعرق بسبب التصاقه بالجلد الممزق للكرسي. إما أن يكون الرجل قد سمعنا نتحدث، وإما أنه لاحظ لهجتي.

"يا لهذا اليوم الحار".

"مرّت علينا أيام أشد حرارة منه". تراقصت السيجارة في فمه أثناء كلامه.

"هل تسكن في مكان قريب من هنا؟"

مدّ ذراعه الهزيلة باتجاه سان لوران.

"أيمكنني أن أطرح عليك سؤالاً؟"

عكسَ وضعية ساقيه ثم أوماً.

ناولته الصورة.

"هل سبق لك أن رأيتَ هذا الرجل؟"

أمسك الصورة بيده اليسرى، وأبعدها عنه قدر طول ذراعه، ثم رفع يده اليمنى كي يحجب الشمس عنها. طفا دخان سيجارته فوق وجهه. تفحص الصورة لوقت طويل إلى درجة ظننتُ معها أنه استغرق بالشروود. وراقبتُ هرة ذات لونين رماديّ وأبيض ومرقطة ببقع حمراء تندسّ خلف مقعده لتعاود الطواف حول البناية، ثم اختفت عند زاويتها.

وضع الرجل المسنّ الآخر يديه على ركبتيه، ثم نهض مصدراً همهمة خافتة. كانت بشرته فاتحة اللون في ما مضى، لكنه بدا الآن وكأنّ مئة وعشرين عاماً مضت على جلوسه على المقعد. عدّل الرجل وضعية حمّالتي سرواله، وانتقل إلى تعديل حزام سرواله، ثم اقترب منا. قرّب حافة قبعته المميز حتى أصبحت بمستوى كتف رفيقه، ثم حدّق بالصورة. ناولني الرجل ذو الساقين الهزليتين الصورة أخيراً.

"حتى والدة الرجل لن تعرفه من هذه الصورة التعيسة".

بدا الرجل الآخر أكثر ثقةً.

"يعيش الرجل في مكان ما هناك". قال وهو يشير بإصبعٍ مصفرةٍ باتجاه مجمع سكّنيٍّ متواضعٍ مؤلفٍ من ثلاثة طوابقٍ مسقوفةٍ بالقرميد، وتكلم بنبرةٍ مشددةٍ استطعتُ فهمها بصعوبةٍ. افتقد الرجل إلى الأسنان الطبيعية، أو الصناعية، وبدأ أن ذقنه تقترب من خدّه عندما يتكلم. أشرتُ، عندما توقف عن الكلام، إلى الصورة ثم إلى المبني، فأوماً برأسه.

سألته: "هل يتردد إلى هنا عادةً؟"

"أجل". أجابني رافعاً حاجبيه وكتفيه، ثم مدّ شفته السفلى إلى الأمام، ورفع راحته مرةً إلى الأعلى ومرةً إلى الأسفل في إشارةٍ تدل على عادةٍ، أو نوعاً ما. هزّ العجوز الآخر رأسه، وشخر باستهجان.

أشرتُ باتجاه شاربونيو وكلوديل كي يلحقا بي، ثم شرحتُ لهما ما قاله العجوز. نظر كلوديل إليّ كما لو أنه ينظر إلى زنبور يطن من حوله، أو كأن التعامل معي ليس إلا إزعاجاً لا مهرب منه. التقت عيناوي بعينه وكأنني أتحداه أن يقول شيئاً. عرف أنه كان يجدر به استجواب الرجلين.

أدار شاربونيو ظهره وراح يركّز على الرجلين من دون أن يعلّق بشيء. اكتفيتُ أنا وكلوديل بالوقوف والإصغاء. جرى الحديث بسرعةٍ إطلاق الرصاص، وخرجتُ أحرف العلة ممدودةً، بينما قُطعت نهايات الكلمات، لذلك لم أفهم إلا القليل من المحادثة. استطعتُ مع ذلك أن أفهم الخطوط العريضة بفضل الإشارات والإيماءات. قال ذو الحمالتين إن الرجل يعيش في ذلك المجمع السكني، بينما عارضه الرجل ذو الساقين الهزليتين.

استدار شاربونيو مجدداً نحونا في النهاية، ومدّ رأسه نحو السيارة، وأشار لي وكلوديل أن نتبعه. شعرتُ عند عبورنا الشارع بمجموعتين من العيون تنصبّ على رقبتي.

10

استند شاربونييو إلى سيارة الشيفي، وتناول سيجارة من علبته وأشعلها. بدا جسده متوتراً مثل مصيدة معدة للانطلاق. بقي هادئاً للحظة، وجهد في استيعاب ما قاله العجوز. تكلم أخيراً بضم يبدو مثل خطٍ مستقيمٍ، بينما تحركت شفتاه بصعوبة.

سأل: "ما رأيكم؟"

شعرتُ أن جدولاً صغيراً من العرق يتلوى تحت كنزتي وحتى أسفل ظهري، لكنني قلتُ مترعاً: "يبدو من كلامهما أنهما يمضيان الكثير من الوقت هنا".

قال كلوديل: "قد يكونان رجلين يعرفان عما يتكلمان".

علّق شاربونييو: "أو قد يكونان مغفلين". تنفس بعمق ونفض سيجارته بإصبعه الوسطى.

قال كلوديل: "لم يكونا الشاهدين المثاليين عند التفاصيل".

رد شاربونييو: "أجل، لكننا اتفقنا جميعاً على أنه يصعب تذكر الرجل، كما أن الأندال مثله لا يظهرون كثيراً بين الناس".

قلتُ: "بدا الجدل الثاني واثقاً جداً".

قال كلوديل مستهجنًا: "قد لا يعرف العجوزان غير حانة الشراب وبنك الدم. أظن أنهما المكانين الوحيدين اللذين يعرفاهما".

أخذ شاربونييو نفساً أخيراً من سيجارته، ثم رمى عقبها وسحقها بجذائه: "قد يكون الرجل هنا، وقد لا يكون. لا أريد من جهتي أن أحمّن بطريقة خاطئة. أقترح أن نلقي نظرة، وأن نقبض عليه إذا وجدناه".

شهدتُ هزة أخرى من كتفي **كلوديل**: "حسناً. لكنني لست مستعداً كي أحرق أصابعي. سأتصل كي أطلب قوة مساندة".
غمَز بعينه تجاهي، ثم نحو **شاربونيو**، ورفع حاجبيه.
هزَّ **كلوديل** رأسه، واستدار حول السيارة، ثم دخلها من الجانب الآخر. استطعتُ أن أراه من خلال الزجاج وهو يتناول جهاز اتصاله.
التفت **شاربونيو** نحوي وقال: "ابقِي منتبهة. انبطحي أرضاً إذا حدث شيء".
ارتحتُ كثيراً لأنه لم يطلب مني أن أمتنع عن لمس أي شيء.
ظهر رأس **كلوديل** مجدداً في غضون أقل من دقيقة من خلال إطار باب السيارة.

قال: "هيا بنا".

دخلتُ إلى السيارة وجلستُ على المقعد الخلفي، بينما ركب التحريان في المقدمة. أدار **شاربونيو** محرِّك السيارة وتحركَ بها في الشارع، والتفت **كلوديل** نحوي.

"لا تلمسي أي شيء هناك. إن كان هو الشخص الذي نبحت عنه، فأنا لا أريد أن يفسد الأمر".

جهدتُ كي أكبح السخرية من صوتي: "سأحاول. إنني من الجنس الذي يفتقد لهرمونات التيستوستيرون، لذلك أجد صعوبة في بعض الأحيان في تذكر أشياء كهذه".

أخرج الهواء من فمه، ثم عاد للاسترخاء في مقعده، وكنت متأكدة من أنه كان سيغمض عينيه ويتسمم بتكلف في ما لو تواجد أشخاص يقدرّونه.

قاد **شاربونيو** السيارة حتى الرصيف، وبدأنا جميعاً في تأمل المبنى الذي رُكنت السيارة قبالة. قبع هذا المبنى وحيداً وسط أراضٍ فارغة. نبت العشب فوق أكوام الحصى وقطع الإسمنت، والزجاجات المكسورة، والإطارات القديمة، وكل أنواع الأنقاض التي تتجمع في العادة في مساحات الأراضي المهجورة في المدن. رسم أحدهم رسماً جدارياً على الجدار المواجه للأرض. ظهر رسمٌ عنزة يتدلى من كل أذن من أذنيها سلاح آلي. حملت العنزة هيكلاً عظيماً بشرياً في فمها. شككتُ أن يكون أي شخص قد فهم معنى هذا الرسم غير الفنان الذي رسمه.

"لم يره ذلك الولد الكبير اليوم". قال شاربونييو ذلك وهو يقرع بأصابعه على عجلة القيادة.

سأل كلوديل: "متى انطلقوا المراقبة الحي؟"

أجاب شاربونييو: "عند العاشرة". نظر إلى ساعته، وفعل كلوديل مثله. سيكون بافلوف فخوراً. إنها 3:10 من بعد الظهر.

أضاف شاربونييو: "لعل الرجل يحب أن يتأخر بالنهوض، أو لعله تعب من جولته الميدانية البارحة".

"أو لعله ليس هناك بالمرّة، بينما يتهاى هؤلاء المهوسين لأذية أنفسهم وهم يضحكون".

"ربما".

شاهدت مجموعة من الفتيات يعبرن الأرض الخالية التي تحيط بالمبنى. شبكت الفتيات أيديهنّ، كما تفعل المراهقات، وارتدين سراويل قصيرة حملت رسومات العلم الكيبكي. بدت المراهقات مثل صف من زهور السوسن يتمايل بتناسق تام من خلال الحشائش البرية. جدّلت كل صبّية من الصبايا شعرها بصفائر رفيعة، وملونة باللون الأزرق الفاتح. راقبتُ الفتيات عندما استغرقت بالضحك واللهمو تحت حرارة فصل الصيف. تساءلتُ عن كيفية تمكّن رجل مجنون واحد من إطفاء الروح المعنوية العالية التي تتمتع بها فتيات صغيرات مثلهنّ. استطعتُ السيطرة على نوبة الغضب التي اجتاحتني. هل يُعقل أننا تواجدنا على بعد مسافة تقل عن عشر ياردات من ذلك الوحش؟

شاهدتُ خلفنا في تلك اللحظة دورية بالأزرق والأبيض وصلت بهدوء. خرج شاربونييو وتحدّث مع الضباط، وعاد في أقل من دقيقة.

قال لنا: "سيقومون بتغطية مؤخر السيارة". وأشار بعد ذلك إلى سيارة فرقة الشرطة. لاحظتُ حدّة في صوته هذه المرة بعد أن احتفت السخرية منه. "هيا بنا".

بدأ كلوديل بالكلام ما إن فتحتُ الباب، ثم غير رأيه، وسار نحو الشقة. لحقتُ بشاربونييو. لاحظتُ أنه فكّ أزرار سترته، وأن ذراعه اليمنى متوترة ومنحنية قليلاً. شعرتُ بحالة حذرٍ عفوية، لكنني لم أستطع إدراك سبب حذري؟ ورحتُ أتساءل عن السبب.

بدا المبنى القرميدي واقفاً وحده بعد أن غادر جميع الجيران منذ مدة بعيدة. تراكمت النفايات فوق مساحات الأراضي المجاورة، وتناثرت قطع كبيرة من الإسمنت بشكل عشوائي، وبدت مثل أحجار بقيت بعد انحسار الجليد، بينما امتد سياج من الحلقات الحديدية المتداعية والصدئة على طول الجهة الجنوبية. لاحظتُ أن العنزة تواجه جهة الشمال.

وقفت ثلاثة أبواب قديمة بيضاء اللون جنباً إلى جنب. وكانت جميعها تفتح على شارع بيرغور. امتدت أمام هذه الأبواب مساحة من الإسفلت حتى الرصيف. طُلِّي الرصيف ذات مرة باللون الأحمر، لكنه اتخذ الآن لون الدم الجاف. غُلِّقت على نافذة الباب الثالث لوحة صدئة، فشكَّلت زاوية مع الستارة المزركشة والمتداعية التي زالت عنها ألوانها الأصلية. تمكَّنتُ، بالكاد، من قراءة ما كُتِب على هذه اللوحة من خلال الزجاج الوسخ **غرف للإيجار #1**. وضع **كلوديل** قدمه على أول درجة، وضغط على الزر الأعلى من الزرَّين الموجودين قرب إطار الباب. لا جواب. ضغط مرة أخرى، وانتظر برهةً قبل أن يطرق على الباب.

"اللعنة!" صاح صوت في أذني مباشرة، وقد أجفَلتني هذه الشتيمة الكيببكية التي جعلت قلبي يقفز من مكانه.

استدرتُ ناحية الصوت الذي انطلق من نافذة في الطابق الأول، والتي لا تبعد عني أكثر من عشرين سنتمترًا إلى يساري. رأيتُ وجهًا عابسًا من خلال الستارة، مظهرًا الانزعاج الشديد.

"ماذا تظنون أنكم تفعلون؟ ستكسرون الباب، وستدفعون ثمنه."

تجاهل **كلوديل** ما قاله ذلك المغفل: "الشرطة".

"حقًا؟ أثبتوا لي أنكم من الشرطة."

قرب **كلوديل** شارته من ستارة النافذة، فانحنى الوجه أكثر إلى الأمام، فتبيَّن لي أنه وجه امرأة. كان وجهًا متورداً، ودميماً، يحيطه وشاحٌ شفافٌ معقودٌ بعناية كبيرة من جهة أعلى رأسها. اتجهت نهايات الوشاح إلى الأعلى، وتطايرت مثل منسوجة حريرية. حمل وجه هذه المرأة شبهاً ملحوظاً مع وجه العنزة، ما عدا غياب الأسلحة عن أذنيها، وتسعين باونداً إضافياً.

"ماذا تريدون؟" تطايرت أطراف الوشاح في الهواء عندما راحت المرأة تنقل أنظارها ما بين كلوديل وشاربونيو وبيني. قررت المرأة أنني الأقل تهديداً لها من بينهم فأشارت نحوي.

قلتُ: "نود أن نطرح عليك عدة أسئلة". شعرتُ على الفور بأني أقلد صوت جاك ويب. بدت الجملة مستهلكةً بالفرنسية، مثلما كانت ستبدو بالإنكليزية، لكنني على الأقل امتنعتُ عن إضافة كلمة مدام في نهايتها.

"هل ستسألونني عن جان مارك؟"

رحتُ أتساءل عمن يكون جان مارك هذا: "لا أعتقد أنه من المناسب أن نتكلم في الشارع".

ظهر التردد على وجهها ثم اختفى. سمعنا بعد لحظات أصوات الأقفال أثناء انفتاحها، ثم فُتح الباب ورأينا امرأة ضخمة ترتدي فستان عمل منزلياً أصفر اللون من البوليستر. لاحظنا أن العرق يغطي منطقتي أسفل إبطيها وجذعها، واستطعتُ أن أرى العرق الممتزج بالأوساخ في ثنايا عنقها. فتحت المرأة الباب لنا، ثم استدارت وتهدأت نزولاً نحو قاعة ضيقة، واختفت من خلال باب موجود إلى اليسار. تبعناها واحداً بعد الآخر، ومشى كلوديل في المقدمة، بينما بقيتُ في الخلف. فاحت رائحة الملفوف والشحوم القديمة في المكان، وبلغت درجة الحرارة في الداخل نحو خمسة وتسعين درجة فهرنهايت.

ملأت المكان رائحة فضلات الهرة الكريهة، واكتنظت شفتها الصغيرة بأنواع المفروشات الثقيلة والداكنة التي راجت في العشرينيات والثلاثينيات. شككتُ في أن يكون قماش المفروشات قد بقي كما كان في الأصل. ظهر ممر من الفينيل الشفاف فوق سجادة غرفة المعيشة. لاحظتُ أن السجادة ليست إلا تقليداً رثاً لسجادة فارسية أصلية. لم أجد في المكان شيئاً مرتباً.

مشت المرأة بتثاقل نحو مقعد إلى جانب النافذة، تتكدس فيه بعض الأغراض، فجلست عليه بتثاقل. ترنحتُ إلى يمينها طاولة حديدية مخصصة للتلفزيون، فتمايلت مع الهزة علبة بيبيسي دايت. جلستُ ونظرت بعصبية من خلال النافذة. تساءلتُ ما إذا كانت تنتظر أحداً، أو أنها لا تحب أن يقطع عليها أحد مراقبتها للشارع.

ناولتها الصورة. نظرت إليها، وأخذت عيناها شكل يرقّة تنقّب ما بين جفنيها المكتنّزين. رفعت بصرها نحونا وأدركت - وإن متأخرة - بأنها وضعت نفسها في موقع لا تُحسد عليه. استفدنا من وضعنا لأننا كنا واقفين. نظرت نحونا ونقلت بصرها من شخصٍ إلى آخر. وبدا أنّ مزاجها قد بدأ يتقلّب ما بين العدواني والخنزري.

بدأ كلوديل: "أنت...؟"

"ماري إيف روشون. لمّ كل هذه الجلبة؟ هل يعاني جان مارك من مشكلة؟"

"هل أنت حارسة المبنى؟"

أجابت: "إنني أجمع الإيجار لصالح مالك المبنى".

تحركت في مقعدها، رغم ضيق المجال فيه. كان احتجاجها ظاهراً.

أشار كلوديل إلى الصورة: "أعرفينه؟"

"أعرفه ولا أعرفه. إنه يسكن هنا، لكنني لا أعرفه".

"أين يقيم؟"

مدّت ذراعها فتمايلت كتل اللحم، وبدت مثل التايوكا: "الشقة رقم 6،

المدخل الأول في الطابق الأرضي".

"ما اسمه؟"

فكّرت قليلاً، وعبثت بشروذ بطرف وشاحها. راقبتُ نقطة عرق تصل إلى

آخر مداها، فتفكّكت وانسابت عبر وجهها. "سان جاك. إنهم لا يستخدمون

أسماءهم الحقيقية بالطبع".

انشغل شاربونيو بتدوين الملاحظات.

"منذ متى يسكن هنا؟"

"ربما منذ عام. مضت مدة طويلة على قدمه، كما أن معظم المقيمين هم من

المشردين. إنني لا أراهم كثيراً. أعتقد أنهم يأتون ويذهبون. إنني لا أعيرهم الكثير

من الانتباه". أغمضت عينيها، وزمّت شفيتها بسبب كذبتها. "إنني لا أطرح الكثير

من الأسئلة".

"أعرفين أحداً بإمكانه التعريف عنه؟"

زفرت الهواء بصوتٍ مسموع، وهزّت رأسها ببطء.

"هل يزوره أحد؟"

"قلتُ لك. لا أراه كثيراً". صمتت لبرهة. وهي تحرك شالها باتجاه اليمين بسبب تلاعبها به، فابتعدت أذناها عن وسط رأسها. "يبدو أنه يقضي معظم أوقاته وحيداً".

نظر شاربونيو حوله: "هل كل الشقق مثل هذه؟"

"شقتي هي الأكبر". زمّت زاويتي فمها، وتحرك ذقنها بشكل غير ملحوظ. وجدت المرأة وقتاً للكبرياء حتى في الظروف الضاغطة. "تبدو الشقق الأخرى محطّمة، وبعضها ليس إلا غرفاً تحتوي سخانات وحمامات".

"هل هو هنا الآن؟"

هزّت المرأة كتفيها.

أغلق شاربونيو دفتر ملاحظاته: "يتعيّن علينا أن نتحدث معه. هيا بنا".

بدأت مندهشة. "أنا؟"

"يُحتمل أن نضطر إلى دخول الشقة".

انحنى قليلاً إلى الأمام ثم مسّدت ساقها بيديها. اتسعت عيناها، وبدأ أن أنفها يتمدد. "لا أستطيع أن أفعل ذلك. سيُعتبر هذا خرقاً للخصوصية. تحتاجون إلى أمر تفتيش، أو إلى شيء من هذا القبيل".

رمقها شاربونيو بنظرة قاسية، لكنه لم ينطق بشيء. تنهّد كلوديل بصوت عالٍ، وكأنه ضجر من الحديث وخاب أمله فيه. شاهدتُ جدولاً صغيراً من المياه المكثّفة ينزل من علبة البيبسي ويلتحق بالحلقة الموجودة في أسفلها. لم يتحرك أحدٌ من الحاضرين أو ينطق بكلمة.

"حسناً، حسناً، لكنها فكرتك أنت".

تحركت من جانب إلى جانب، ثم اندفعت بمسار مائل إلى الأمام، مثلما يفعل قارب شراعي عندما تدفعه الرياح لمسافات قصيرة. تطاير فستانها المنزلي إلى الأعلى، فكشف مساحات كبيرة من لحمها المتعرق. وضعت يديها الاثنتين على طرف الكرسي عندما حرّكت مركز الجاذبية عندها، فرفعت جسمها عند ذلك.

مشّت نحو طاولة موجودة في الطرف البعيد من الغرفة. فتحت درجاً وراحت تبسّح فيه. لم يمض وقت طويل قبل أن تحمل مفتاحاً بيدها، وتتفحص بطاقته. ناولته إلى شاربونيو بعد أن تأكّدت من أنه المفتاح المطلوب.

"شكراً لك أيها السيدة. إننا مسرورون لأننا سنتفحص الشقق بحثاً عن أي شيء غير قانوني فيها".

غلبها الفضول عندما هَيأنا للمغادرة. "مهلاً. ماذا فعل هذا الرجل؟"
قال كلوديل: "سعيد لك المفتاح عندما نغادر". غادرنا، ومجدداً تركنا عينين مركّزتين على ظهورنا.

وجدنا أنّ الممر الموجود في المدخل الأول يماثل الممر الذي تركناه لتونا. شاهدنا أبواباً مفتوحةً على جانبي الممر، أما في الخلف فلاحظنا وجود درج شديد الانحدار يؤدي إلى الطابق العلوي. وجدنا أنّ الشقة رقم 6 هي الأولى إلى اليسار. حَيّم الصمت الخائق والهدوء المخيف على المكان.

وقف شاربونيو إلى اليسار، أما كلوديل وأنا فوقفنا إلى اليمين. لاحظتُ أنّ سترتي الرجلين واسعتان على أكتافهما، لكن كلوديل وضع راحة كفه على مقبض مسدس من عيار 357. دق الباب. لا جواب. دق الباب للمرة الثانية، لكن النتيجة بقيت هي ذاتها.

تبادل رجلا التحري النظرات. أوماً كلوديل وزمّ شفتيه بشدة، ثم مدّ رأسه إلى الأمام أكثر. أدخل شاربونيو المفتاح في القفل ثم فتح الباب. انتظرنا جميعاً، وجدنا في مكاننا، واكتفينا بمشاهدة ذرات الغبار وهي تعود إلى مكانها.
"سان جاك؟"

لا شيء إلا الصمت.

"مسيو سان جاك؟"

لا شيء إلا الصمت مجدداً.

رفع شاربونيو راحة يده نحوي. انتظرتُ أثناء دخول رجلي التحري، ثم تبعتهما. تسارعت ضربات قلبي في صدري.

لم تحتوِ الغرفة إلا القليل من قطع الأثاث. شاهدتُ في أقصى زاوية اليسار ستارة زهرية اللون معلقة بحلقات صدئة تتدلى من قضيب شبه دائري. أفسحت هذه الستارة المجال من أجل إنشاء حمام مؤقت. استطعتُ أن أرى تحت الستارة قاعدة خزانة، ومجموعة من الأنابيب ربما تكون موصولة مع مغسلة. بدت الأنابيب صدئةً جداً وحملت على أسطحها صبيغةً ما من مستعمرة ناعمة، خضراء، تعجّ

بالحياة. شاهدتُ إلى يمين الستارة طاولةً طويلةً ذات سطح مصنوع من الفورميكا قرب الجدار الخلفي. اشتملت هذه الطاولة على سخّانة، وعدة أكواب بلاستيكية، ومجموعة غير متناسقة من الأطباق والصحون.

امتدّ على طول الستارة سريرٌ غير مرتب على طول الجدار الأيسر. لاحظتُ أنّ طاولةً صنّعت من ألواح الخشب المعاكس قد وُضعت على طول الجدار الأيمن. صنّعت قاعدة هذه الطاولة من ألواح خشبية سميكة تُستخدم للنشر، وبدا واضحاً على كل لوح ختم مدينة مونتريال. وُضعت رزمات من الكتب والأوراق فوق سطح الطاولة. غطت الخرائط والصور ومقالات الجرائد مساحة الحائط فوق الطاولة. شكّلت هذه المجموعة مساحة متنوعة من الملصقات امتدت على طول الطاولة. رأيتُ تحتها كرسيّاً معدنياً مطويّاً. لاحظتُ أنّ النافذة الوحيدة الموجودة في الغرفة تقع إلى يمين الباب، وتتماثل مع النافذة التي أطلت منها مدام روشون. تدلى مصباحان كهربائيان من السقف.

قال شاربونييو: "يا للمكان الرائع!"

"أجل. إنه آية من الجمال أستطيع وضعها إلى جانب المهرييس، وشعر برت راينولدس المستعار".

تحرك كلوديل نحو الحمام، ثم تناول قلماً من جيبه، ثم جذب الستارة بخذر. "أعتقد أنه يجدر بوزارة الدفاع أن تأخذ بعض العينات، لأن هذه الستارة قد تحتوي مواداً تُستخدم في الحرب البيولوجية". ترك الستارة ثم تقدّم نحو الطاولة. رفع شاربونييو طرف حرام السرير مستخدماً مقدمة حذائه وقال: " ذلك النذل غير موجود هنا".

رحتُ أنأمّل الأواني المطبخية التي وُضعت على سطح طاولة الفورميكا. رأيت كوبي إكسيو يُستخدمان لشراب الشعير، وطبقاً قديماً يحتوي أشياء تشبه السباغيتي. رأيتُ كميةً من الجبن مغمسةً بالمادة الموجودة في وعاء الخزف الصيني الأزرق. رأيتُ أيضاً كوباً من البيرغر كينغ، بالإضافة إلى عدة رزم من البسكويت المملّح، مغلفة بورق السيلوفان.

استندت إلى السخّانة. فلسعتني حرارتها، فحوّلت دمي إلى كتلة من الجليد. استدرت نحو شاربونييو.

"إنه هنا!"

اخترقت كلماتي الهواء في اللحظة ذاتها التي انفتحت فيها الباب الموجود في الزاوية اليمنى من الغرفة. صدم الباب كلوديل فأفقدته توازنه، والتصقت ذراعه اليمنى، وكتفه الأيمن، بالجدار. اندفع شخص ما عبر الغرفة وانحنى، ثم دفع رجله باتجاه الباب الأمامي المفتوح. سمعتُ نَفْسَه في حنجرتَه.

رفع هذا الهارب رأسه بعد اندفاعه المتهور عبر الغرفة. التقت عينان داكنتان بعينيّ، وحدّقتا بي من تحت حافة قبعته ذات اللون البرتقالي. شاهدتُ في تلك اللحظة القصيرة نظرة حيوان مرتعبٍ أكثر من أي شيءٍ آخر. واختفى الرجل بمثل السرعة التي ظهر فيها.

استعاد كلوديل توازنه، وفتح مسدسه، ثم انطلق عبر الباب، واندفع شاربونيو ورائه. انضمتُ إلى المطاردة من دون أن أتردد.

11

كاد ضوء الشمس يعميني عندما اندفعتُ إلى الشارع. تطلعتُ صوب بيرغر في محاولة مني لإيجاد شاربونيو وكلوديل. انتهت المسيرة، فبدأت الحشود تتسلل من شيربروك. رأيتُ كلوديل وهو يشق طريقه عبر الحشد. رأيتُ وجهه الأحمر المتوتر عندما كان يحثّ الناس المتعرقين على إفساح مجال العبور أمامه. سار شاربونيو وراءه تماماً ومد ذراعه ممسكاً شارته في قبضته، مستخدماً إياها كأداة ليشقّ طريقه إلى الأمام.

استمر الحشد بالمسير غير عابئ بما يجري. رأيت فتاة شقراء غزيرة الشعر تتلوى فوق كتفي صديقها وقد أرجعت رأسها إلى الوراء، ورفعت ذراعيها ملوحةً بزجاجة من المولسون. رأيتُ أيضاً رجلاً منتشياً يرتدي عَلمَ كيبك فوق عمود الإنارة. رآح الرجل يشجع الحشد بصراخه "كيبك للكيبكين!" لاحظتُ حماسةً لدى الذين يرددون الهتافات لم تكن لديهم من قبل.

انحرفتُ نحو مكان خالٍ وتسلّقتُ كتلةً إسمنتيةً، ثم وقفتُ على أطراف أصابع قدمي كي أستطيع إلقاء نظرة عامة على الحشد. لم أستطع تحديد مكان سان جاك، هذا على افتراض أن هذا هو اسمه الحقيقي. تمتع الرجل بميزة تواجده في مكان سكنه، لذلك استخدم جغرافية المكان من أجل الإبقاء على أبعاد مسافة بينه وبيننا.

تمكنتُ من رؤية أحد أفراد فريق المساندة وهو يستبدل وحدة إرساله وينضم إلى المطاردة. طلب الرجل تعزيزات إضافية، لكنني شككتُ في أن تتمكن سيارة

جيب كروزر من اختراق الحشود. اندفع الرجل وزميله باتجاه بيرغر وسان كاثرين، وسرعان ما أصبحا وراء كلوديل وشاربونيو.

اكتشفتُ فجأةً مكان وجود صاحب قبعة كرة القاعدة البرتقالية اللون. رأيتُه أمام شاربونيو الذي انعطف شرقاً نحو شارع سان كاثرين، لكنه عجز عن رؤيته بسبب كثافة البشر المتواجدين. رأيتُ سان جاك يتجه غرباً، لكنه اختفى في اللحظة التي رأيتُه فيها. لوحتُ بذراعيّ كي ألفت الانتباه، لكنني لم أفلح. تاه كلوديل عن نظري، كما أنّ رجليّ الدورية لم يستطيعا رؤيتي.

قفزتُ، من دون تفكير، من فوق الكتلة الإسمتية التي كنت أقف عليها فأصبحتُ بين الحشد. فاحت روائح العرق، والمستحضرات الخاصة بالسمرة، وشراب الشعير الفاسد، من الأجساد المنتشرة من حولي، وامتزجت هذه الروائح كي تولف سحابة من الدخان الضبابي البشري. انخبتُ وشققتُ طريقي من خلال الناس مستخدمةً لطافةً أقل من المعتاد، وذلك في محاولة مني للوصول إلى سان جاك. لم أكن أحمل شارة الشرطة كي تقدم عذراً لخشونتي، وهكذا حرصت على أن لا تلتقي عيناي بعيني أحد أثناء تقدمي. تقبل معظم الناس اندفاعي هذا بروح طيبة، بينما توقف آخرون كي يكيلوا سيلاً من الشتائم لي، لكن معظمهم كانوا يعانون من حساسية تجاه الجنس الآخر.

حاولتُ أن أرى قبعة سان جاك البرتقالية اللون من بين مئات الرؤوس التي تحيط بي، لكن هذا كان أقرب إلى المستحيل. توجهتُ نحو النقطة التي رأيتُه فيها في البداية، وشققتُ طريقي من خلال الأجساد البشرية مثل كاسحة جليد تشق طريقها عبر نهر سان لوران.

كدتُ أنجح. أمسكتُ أحدهم من الخلف عندما اقتربتُ من سان كاثرين. وأمسكتني يديّ بحجم مضرب كرة المضرب، والتفت حول عنقي، وشعرتُ أنّ قوّة تجذب جديلة شعري إلى الأسفل. اندفع ذقني نحو الأعلى، وسرعان ما شعرتُ، أو سمعتُ، قرقعة في عنقي. جذبتني اليد إلى الخلف وضغطتني على صدر عامل بناء. شعرتُ بحرارة جسده ورائحة عرقه التي بللت شعري وظهري. اقترب وجهه من أذني، وسرعان ما وجدتُ نفسي غارقةً برائحة الشراب الفرنسي الفاسد، ورائحة دخان السجائر، ورائحة رقاقت البطاطا الفاسدة.

"أنت، من تلاحقين؟"

لم أتمكّن من الإجابة في وضعي هذا. وبدا أنّ ذلك قد زاد من غضبه، فأقدم على ترك شعري ورقبتي. وضع يديه على ظهري وما لبث أن دفعني بعنف. اندفع رأسي إلى الأمام مثل قاذف منجنيق. دفعتني قوة هذه الحركة نحو امرأة ترتدي سروالاً قصيراً، وتنتعل حذاءً ذا كعب عالٍ رفيع. صرخت المرأة، ففرّق الناس قليلاً من حولنا. رفعت يديّ في محاولة مني كي أستعيد توازني، لكنني تأخرت. فسقطتُ نزولاً واصطدمتُ بركبة أحدهم.

تزحلتُ عندما اصطدمتُ بالرصيف فخدشتُ خدي وجبهتي، ثم وضعتُ ذراعيّ فوق رأسي في حركة عفوية لحماية نفسي. ضجّ الدم في أذني، واستطعتُ أن أشعر بسطح الحصى الذي يضغط على خديّ الأيمن، وأدركتُ أن قسماً من جلدي قد انسلخ. حاولتُ أن أرفع جسدي عن الرصيف مستخدمةً يديّ اليمينتين، لكنّ حذاءً ضغط بقوة على أصابعي، فكادت أن تُطحن. لم أستطع رؤية أي شيء غير ركبتيّ، وساقيّ، وقدميّ، بينما كانت الحشود تمر من فوقي، ويبدو أنهم لم يروني إلا حين كانوا يدوسون من فوقي.

استدرتُ على جنبي، وحاولتُ مجدداً أن أستند على يديّ وركبتيّ. منعتني الضربات غير المقصودة من الأقدام والسيقان من الوقوف. لم يتوقف أحدٌ كي يحميني أو يساعدني على الوقوف.

سمعتُ صوتاً غاضباً، لكنني شعرتُ أنّ كثافة الحشد قد خفّت قليلاً. وجدتُ من حولي مساحة فراغ. وبرزت راحة يد فوق وجهي، وتحركت أصابعها بيأس. أمسكتُ باليد وجذبتُ نفسي للأعلى. لم أصدّق أنني وقفتُ مجدداً كي أواجه ضوء الشمس والأوكسجين.

نظرتُ لأرى كلوديل. أفسح لي مجال الوقوف على قدميّ بصعوبة وسط الحشد مستخدماً ذراعه الأخرى. رأيتُ شفتيه تتحركان، لكنني لم أفهم ما قاله. بدا منزعجاً كالعادة، لكنه، مع ذلك، لم يظهر بمثل هذه الطيبة من قبل. أنهى كلامه وتوقف قليلاً، ثم راح يحدّق بي. راح يتفحص جرح ركبتيّ اليميني، والخدوش التي انتشرت على مرفقيّ. رست عيناه على خديّ الأيمن الذي ملأته الخدوش والذي أخذ ينزف، بالإضافة إلى الورم الذي بدأ يظهر في منطقة عيني اليميني.

ترك يدي ليتناول منديلاً ورقياً من جيبه، ثم أشار إلى وجهي. مددتُ يدي، فلاحظتُ أنهما ترتعش. مسحتُ الدماء وبقايا الحصى عنها، وطويتها كي أحصل على جهة نظيفة منها، ثم وضعت المنديل على خدي.
انحنى كلوديل وصرخ بأذني: "ابقيّ معي!"
أومأت.

شقّ طريقه نحو الجهة الغربية من البيرغور، حيث خفّت كثافة الحشد. تبعته وأنا أجرجر ساقيّ المتعبتين. استدار، وبدأ يشق طريقه باتجاه السيارة. تقدمتُ نحوه وأمسكتُ بذراعه. توقف ونظر إليّ متسائلاً. هزرتُ رأسي بقوة فتغيّر شكل حاجبيه من شكل V حاد إلى ما يشبه ستان لوريل.
أشرتُ في الاتجاه المعاكس وصرختُ به: "إنه موجود هناك. رأيته بنفسي."
مرّ رجل يرتدي زيّ تويدلدي بقربي. انشغل الرجل بتناول الثلجات، بينما تساقطت الفطرات الذائبة، فارتسم خط أحمر على طول منطقة وسطه. بدا هذا الخط وكأنه ملوّث بالدماء.

رسم حاجبا كلوديل شكل الحرف V: "ستوجهين إلى السيارة."
ظننتُ أنه لم يسمعي، فكررتُ قولي: "رأيته في سان كاثرين. كان خارج كهربائيات لافونتين! اتجه الرجل نحو سان لوران!" بدا صوتي هستيرياً، حتى بالنسبة إليّ.

انتبه الآن، وتردد قليلاً عندما راح يتفحص الضرر الذي لحق بخدي وأطرافي.
"هل أنت بخير؟"
"أجل".

"هل ستوجهين إلى السيارة؟"

"أجل!" استدار لينصرف. "انتظر." رفعتُ ساقيّ المرتجفتين، الواحدة بعد الأخرى، فوق سلك معدني صدى يرتفع إلى مستوى ما فوق الركبة، ويحيط بمساحة الأرض. انتقلتُ إلى كتلة إسمنتية أخرى ووقفتُ فوقها. رحّتُ أتفحص بحر الرؤوس الذي يحيط بي، وبحثتُ عن صاحب قبعة كرة القاعدة البرتقالية اللون. لم أعر عليه. راقبني كلوديل بنفاد صبر أثناء بحثي بين الحشود، وراح ينقل بصره ما بيني وبين التقاطع، ثم عاد كي ينظر باتجاهي. ذكرني بكلب مزلجٍ ينتظر إشارة الانطلاق.

أخيراً، هزرتُ رأسي ورفعتُ يدي.
"اذهب. سأتابع البحث عنه".

عاد ليشق طريقه بين الجموع وسلك الاتجاه الذي حدّده له. كان الحشد أمام سان كاثرين كثيفاً. مضت دقائق قليلة قبل أن يختفي رأسه بين بقية الرؤوس. بدا أنّ الحشد ابتلعه، كما يتلعب جيشٌ من الأجسام المضادة بروتيناً غريباً عنه. رأيتُه فرداً قبل لحظة، لكنه تحوّل بعدها إلى مجرد نقطة في لوحة.

تابعتُ البحث حتى تعب نظري. جهدتُ كثيراً، لكن من دون جدوى، كي أستطيع تحديد مكان شاربونييو، أو سان جاك. رأيتُ سيارة دورية للشرطة وهي تحاول الدخول بين الحشد المتجمع خلف سان آريان، ورأيتُ أضواءها الحمراء والزرقاء تلمع من بعيد. تجاهل المتظاهرون صوتها. لمحتُ لوناً يرتالياً مرةً واحدة، لكن تبين لي فيما بعد أنها امرأة ترتدي ثياب نمر، وتضع ذيلًا، وتتعل حذاءً رياضياً عالي الساقين. مرّت من أمامي بعد عدة لحظات ورأيتها تحمل قناع رأس النمر وتشرب دكتور بيّر.

سقطت أشعة الشمس بقوة، وشعرتُ بألم في رأسي. أحسستُ أنّ قشرةً تتصلب على خدي المخدوش. تابعتُ البحث بين الحشود مرةً بعد مرة. رفضتُ فكرة التخلي عن البحث، وقررتُ الاستمرار حتى عودة شاربونييو وكلوديل. أدركتُ أنه لا جدوى من البحث. فلقد سخر سان جان من مطاردتنا له، واختفى بين ضجيج النهار.

بعد مرور ساعة من الوقت، اجتمعنا عند السيارة. خلع رجالا التحري سترتيهما وربطتي عنقيهما، وألقيا بهما على المقعد الخلفي. التمعت حبيبات العرق على وجهيهما وانسابت على ياقتيهما. ابتلت أيضاً مناطق ما تحت إبطيهما وظهريهما، أما وجه شاربونييو فتلون بلون فطيرة التوت البري، ووقف شعره في مقدمة رأسه، فذكّرني هذا المنظر بمنظر شعر أضحكني في ما مضى. أحسستُ أنّ كُنزتي وسروال العمل اللذين أرديتهما قد جاءا من الغسالة للتو. عادت حركة أنفاسنا إلى طبيعتها، وتفوهنا بكلمات الشثيمة أكثر من عشر مرات.

قال كلوديل: "اللجنة. أعتقد أنها بديل مقبول".

استند شاربونييو إلى السيارة، ثم تناول علبة سجائر بلايرز من جيب سترته. استند إلى دفاع السيارة وأشعل سيجارته، ثم أخرج الدخان من زاوية فمه. "يستطيع ذلك اللعين أن يشق طريقه عبر الحشد كما يفعل صرصور بين الأوساخ".

قاومتُ دافعاً عندي كي أتفحص الضرر الذي أصاب خدي، وقلت: "إنه يعرف طريقه جيداً في هذه المنطقة. وهذا الأمر يساعده كثيراً". انشغل لبرهة في تدخين سيجارته.

"أعتقدين أنه رجلنا الذي ظهر مع آلة النقد، وهو الرجل الذي نبحت عنه؟" قلت: "اللعنة، لا أعرف لأنني لم انظر إلى وجهه".

استهجن كلوديل كلامي، ثم تناول مندبلاً من جيبي، وبدأ بمسح العرق المتصبب من رقبته.

ركرتُ عيني التي لا تؤلمني عليه: "هل تمكنت من التعرف على هويته؟" استهجاناً آخر.

نظرتُ نحوه وهزرتُ رأسي. تبخّرت سريعاً كل خططي بعدم التعليق. "إنك تعاملني وكأنني لست بارعةً في عملي يا ميسيو كلوديل. ها قد بدأت تستبعدني مجدداً".

ابتسم ساخراً مرة أخرى.

سألني: "كيف هي حال وجهك؟"

أجبتُ وسط أسنان مطبقة: "بأفضل حال! أعتقد أن عملية تجميلية في مثل سني هي مكافأة".

"لا تتوقعي أن أنقذك إذا انطلقت مجدداً في عملية مطاردة للمجرمين".

"يتعين عليك تنظيم عملية القبض على المجرمين بطريقة أفضل في المرة القادمة، وعندنا لن أحتاج لمساعدتك". شعرتُ باندفاع الدماء في جبهتي، وشدتُ على قبضتي يدي بحيث إن أظافري تركت آثاراً على باطن راحتي.

قال شاربونييو بعد أن قذف بسيجارته بشكل قوس واسع: "حسناً. يكفي التحدث. يمثل هذه التفاهة. دعونا نقلب الشقة رأساً على عقب".

التفت صوب رجلتي الدورية اللذين كانا واقفين بهدوء.

"استدعيا فريق مسرح الجريمة".

تحرك الرجل الأطول بينهما نحو سيارة الدورية: "فعلنا ذلك".

سَرنا جميعاً وراء شاربونيو بصمت نحو البناية القرميدية، ودخلنا الممر ثانيةً.

انتظرنا رجل الدورية الآخر في الخارج.

أقفل أحدهم الباب الخارجي في فترة غيابنا، لكن الباب المؤدي إلى الشقة رقم

6 بقي مفتوحاً. دخلنا الغرفة وانتشرنا كما فعلنا من قبل، وكما يفعل ممثلون في

مسرحية يتبعون التعليمات.

تحركت نحو الخلف، ولاحظت أن السخانة قد بردت، لكن أشكال O من

السباغيتي لم تتغير. تراقصت ذبابة على طرف المقلاة. ذكّرتني هذه الذبابة بالذبابات

التعيسة الأخرى المتروكة وشأها. لم يتغير أي شيء آخر.

سرت نحو الباب الذي يقع في الزاوية اليمنى من الغرفة. تناثرت قطع صغيرة

من الجص فوق أرض الغرفة، وهي التي تساقطت نتيجة اصطدام مقبض الباب

بالجدار بقوة كبيرة. وجدت أن الباب نصف مفتوح. شاهدتُ سلماً خشبياً

يؤدي إلى الطابق السفلي. يؤدي هذا السلم إلى استراحة تنتهي بانعطاف يبلغ

تسعين درجة إلى اليمين قبل أن يختفي في الظلمة. اصطفت علب معدنية حول

الاستراحة ووصلت حتى الجدار الخلفي. برزت خطافات صدئة من الألواح الخشبية

على مستوى العيون. تمكنت من رؤية مفتاح كهربائي في الجهة اليسرى من

الجدار. افتقد المفتاح للغطاء، فبرزت منه الأسلاك الملتفة مثل ديدانٍ علقت في

كرتونة.

انضم إليّ شاربونيو ودفع الباب بقلمه إلى الخلف. أشرتُ إلى المفتاح

الكهربائي فأسرع إلى استخدام القلم ليضغط عليه. أضاء مصباحاً كهربائياً في

مكان ما في الأسفل، فانتشرت الظلال من حول درجات السلم الخشبي في

الأسفل. أصغينا وسط هذه الكآبة المخيمة. ساد الصمت. دخل كلوديل في إثرنا.

نزل شاربونيو إلى الاستراحة. توقف قليلاً، ثم نزل ببطء. تبعته وشعرتُ

أن كل درجة تعترض بنعومة على نزولي. ارتعشت رجلاي المتعبتان، وشعرتُ

كأنني فرغت لتوي من المشاركة بسباق الماراتون، لكنني قاومتُ دافعاً عندي كي

ألمس الجدران. لم أرَ أمامي سوى كتفي شاربونيو في ذلك الممر الضيق.

شعرنا في الأسفل بالهواء الرطب، وبرائحة العفونة. أحسستُ وكأن حمماً منصهرة أصابت خدي، لذلك اعتبرتُ أنّ البرودة تريحني جداً. نظرتُ من حولي. كانت غرفةً سفليةً عاديةً، وقدّرتُ أنّ مساحتها تصل إلى نصف مساحة المبنى. شُيّد الجدار الخلفي من أحجار إسمنتية غير مصقولة، لكنني قدّرتُ أنّها أُضيفت لاحقاً كي تقسّم المساحة الكبيرة. رأيتُ إلى اليمين حوض غسيل معدنياً، وطاولة خشبية طويلة. لاحظتُ أنّ الطلاء الزهري اللون بدأ يتقشّر من الطاولة. رأيتُ مجموعة من فراشي التنظيف التي اصفرّت شعيراتُها وغطتها خيوط العنكبوت. لاحظتُ وجود خرطوم مياه أصفر اللون وقد لُفّ بعناية على الجدار.

امتد فرناً كبير الحجم إلى اليمين وتفرعت قنواته مرتفعة مثل جذوع شجرة بلوط. انتشرت كومة من النفايات حول قاعدته. تمكّنتُ من رؤية إطارات صور مكسورة، وإطارات دراجات هوائية، ومقاعد ملتوية، وعلب طلاء فارغة، وخزانة صغيرة. بدت هذه المهملات مثل تقدمات في المعابد القديمة.

رأيتُ مصباحاً كهربائياً متدلياً في وسط الغرفة، لكنه لم يصدر إلا كمية ضئيلة من الضوء. أما ما تبقى من الغرفة فكان فارغاً تماماً.

حدّق شاربونيو في السلم الخشبي، ووضع يديه على وركيه، ثم قال: "لا بد أنّ ذلك اللعين كان ينتظر في الأعلى".

داس كلوديل كومة المهملات بطرف حدائه وقال: "كان على السيدة فاتاس أن تبلغنا أنّ الرجل يمتلك مثل هذا المخبأ الصغير".

تأثرتُ لهذه الإشارة الأدبية، لكنني لم أقل شيئاً التزاماً مني بخطة الحياض. بدأتُ أشعر بالألم في ساقي، وأنّ هناك شيئاً على غير ما يرام في رقبتي.

"كان باستطاعة الوغد أن يهاجمنا من وراء ذلك الباب".

لم أعط رداً، وكذلك فعل شاربونيو. فكّرتُ وإياه بالأمر ذاته.

حرّرتُ شاربونيو يديه، وتوجّه نحو السلم، وبدأ يتسلّقه. تبعته وأنا أشعر مثل توتنو قليلاً. واجهتني الحرارة عندما دخلتُ إلى الغرفة. تقدمتُ نحو الطاولة وبدأتُ بتفحص تلك المجموعة من الصور المعلقة فوقها.

لاحظتُ أنّ أهمّها كان خريطة منطقة مونتريال. أحاطت مجموعة من صور المجلات والجرائد المقطعة بهذه الخريطة. لاحظتُ أيضاً أنّ الصور التي تقع في الجهة

اليمنى ما هي إلا صورٌ جنسية اعتيادية مقتطعة من إحدى المجلات. ظهرت الفتيات في هذه الصور بأوضاعٍ مختلفة، إما من دون ثيابٍ بشكلٍ كلي، وإما أن الثياب لم تكن في أماكنها المناسبة. ظهرت وجوه بعض الفتيات عابسةً، بينما تظاهرت أخريات بالنشوة الكاملة. لم تبدُ أيُّ منهن مقنعة. بدا أن من قام بتجميع هذه الصور كان انتقائياً في ذوقه. لم يُظهر الرجل تفضيلاً خاصاً لنوع معين من الأجساد، أو الجنس، أو للون شعر. لاحظتُ أن أطراف الصور مقصوفةٌ بعناية، وقد وُضعت الصور على أبعادٍ متساويةٍ من بعضها البعض، وقد تُبِتت جيداً في مكائها.

احتلت مجموعة من مقالات الصحف المساحة الموجودة إلى يسار الخريطة. لاحظتُ أن مقالات قليلة منها مكتوبةٌ باللغة الإنكليزية، لكن معظمها كانت بالفرنسية. لاحظتُ أيضاً أن المقالات الإنكليزية مصحوبة بالصور. اقتربتُ أكثر، وقرأتُ بعض الجمل التي تحدثت عن أمرٍ مهمٍ في إحدى دور عبادة درموندفيل. انتقلتُ إلى مقالة بالفرنسية تحدثت عن حادثةٍ خطف في سينيفيل. انتقلتُ بيسري إلى إعلانٍ تحدث عن مؤسسة فيديودروم. ادعى الإعلان أن المؤسسة هي أكبر موزعٍ للأفلام الجنسية في كندا. لاحظتُ وجود مقالةٍ مقتطعة من *ألو بوليس* تحدثت عن حانة رقصٍ خلاعي. بدت في هذه المقالة "بابيتي" وهي ترتدي أربطةً جلديةً متصلةً بحلقات معدنية. رأيتُ مقالةً أخرى تحدثت عن حادثةٍ اقتحام دار عبادة سان بول دو نورد حيث صنع اللص لعبةً من ثياب ضحيته الليلية، وطعنها مراتٍ عديدة، ثم تركها على سريرها. اكتشفتُ بعد ذلك أمراً أحال الدماء إلى جليدٍ في داخلي.

جمع سان جاك ثلاث مقالاتٍ مقصوفةٍ ومثبتة بعناية تامة. تحدثتُ كل مقالةٍ منها عن قاتلٍ تسلسلي. لاحظتُ أن هذه المقالات هي نسخٌ مصورة، بخلاف المقالات الأصلية الأخرى. تحدثتُ المقالة الأولى عن ليوبولد ديون، وحش بون روج. اكتشفتُه الشرطة في منزله مع جثث أربعة شبان في ربيع العام 1963. أقدم هذا القاتل على قتل الشبان الأربعة خنقاً.

روت المقالة الثانية مآثر واين كليفوردي بودين الذي أقدم على خنق واغتصاب نساء في مونتريال وكالغاري بدءاً من العام 1969. بلغت حصيلة

ضحياه أربعاً عند اعتقاله في العام 1971. كتب أحدهم على هامش المقالة كلمتي
بيل الخائق.

تحدثت المقالة الثالثة عن مآثر ويليام دين كريستسون، الذي يحمل لقب بيل
السفّاح، وهو المعتصب الذي ظهر في منطقة مونتريال. قتل الرجل امرأتين في
أوائل الثمانينيات، وقطّع جثتيهنّ وشوههما.

قلتُ، ومن دون أن أوجّه كلامي إلى شخصٍ معيّن: "انظروا إلى هذه".
اجتاحني موجة برودة رغم الحرارة الشديدة في الغرفة.

اقرب شاربونيو ووقف خلفي، وأخذ يتفحص القصاصات الموجودة إلى يمين
الخريطة، وبدأ يقرأ: "أوه يا عزيزتي، عزيزتي... الحب من زاويته الواسعة".

أشرتُ إلى المقالات، وقلت: "هنا. انظر إلى هذه".

انضمّ كلوديل إلينا، وأخذ الرجلان يتفحصان المقالات بصمت. فاحت
منهما رائحة العرق، والقطن المغسول، وعطر ما بعد الحلاقة. استطعتُ أن أسمع
في الخارج امرأةً تنادي صوفي. تساءلتُ ما إذا كانت تنادي طفلاً، أم حيواناً
أليفاً.

قال شاربونيو بعد أن استوعب فحوى المقالات: "يا للفضاعة!"

علّق كلوديل ساخراً: "إنّ هذا لا يجعله شارلي مانسون".

"كلا، لكن لعل الرجل كان يحضّر لأطروحته النهائية".

لاحظتُ، للمرة الأولى، شيئاً من القلق في صوت شاربونيو.

مضى كلوديل بالقول: "لعل الرجل كان يعاني من أوهام العظمة، أو لعله

شاهد ما فعله الإخوة ميننديز، وظن أنهم جادّون. أم لعله يظن نفسه دودي

دورايت ويريد أن يحارب الشر، أو لعله يتمرّن على الفرنسية ووجد أنّ هذه أكثر

إثارة للاهتمام من تان تان. كيف لي أن أعلم بحق الجحيم؟ إنّ ذلك لا يجعله في

مصاف جاك السفّاح". التفت نحو الباب: "أين فريق استعادة مسرح الجريمة بحق

الجحيم؟"

رحتُ أفكّر في نفسي أيها النذل! لكنني لم أنطق بكلمة.

حوّلتُ انتباهي، أنا وشاربونيو، نحو الطاولة. رأينا رزمةً من الجرائد من جهة

الحائط. استخدم قلمه ليتفحص هذه الرزمة، وأخذ يرفع أطراف الجرائد واحدةً بعد

الأخرى ويتركها. احتوت الرزمة على إعلانات عن وظائف مطلوبة، وردت معظمها في جريدتي لا برس وغازيت.

قال كلوديل ساخراً: "لعل ذلك الضفدع كان يبحث عن وظيفة، وأراد أن يكون بودين مرجعه".

لاحظتُ وجود شيء ملون بالأصفر في الأسفل عندما رفع الجريدة لبرهة قصيرة: "ما هو ذلك الشيء في الأسفل؟"

دفع شاربونيو بالقلم داخل الرزمة ثم رفعها نحو الأعلى، فاقتربت من الجدار. شاهدتُ رزمة صفراء في الأسفل. رحّتُ أتساءل ما إذا كانت الحسابات جزءاً من التمرينات المطلوبة من رجال التحري. ترك رزمة الجرائد تسقط إلى مكانها على سطح الطاولة، ثم دس القلم إلى خلف الرزمة، ثم دفع الرزمة الصفراء إلى الأمام فأصبحت ظاهرةً للعيان.

كانت رزمة أوراق صفراء ومسطرة، وهو النوع الذي يفضله المحامون. لاحظنا أنّ الورقة العليا مليئةً بالكتابات. حملها شاربونيو بظاهر يده ثم دفع الرزمة الصفراء إلى مجال الرؤية الكاملة.

لا يعدّ تأثير قصص القتلة التسلسليين شيئاً بالنسبة لما شعرتُ به عندما قرأتُ ما كُتِب على تلك الورقة. لم أستطع كتمان الخوف الذي شعرتُ به في أعماقي، فسيطر عليّ بالكامل.

إيزابيل غاغنون. مارغريت أدكينز. لم أستطع أن أنسى اسميهما. كانتا جزءاً من لائحة تضم سبعة أسماء كُتبت على هامش الورقة الصفراء. رأيتُ صفناً من الأعمدة بعد الأسماء الواردة في الصفحة تفصل في ما بينها خطوط عمودية. بدت الصفحة مثل مسودة جدولٍ تحتوي معلومات شخصية عن كل شخص ورد اسمه في اللائحة. لم يحمل هذا الجدول فترات كبيرة عن جدولي الذي أعددته، ما عدا أنني لم أستطع تمييز الأسماء الخمسة الأخرى.

احتوى العمود الأول العناوين، أما العمود الثاني فاحتوى أرقام الهواتف، بينما احتوى العمود الثالث ملاحظات مختصرة عن أماكن السكن: المنزل ورقم المدخل الخارجي. الشقة، الطابق الأول. البيت والباحة. احتوى العمود التالي بمجموعاتٍ من الأحرف كُتبت وراء بعض الأسماء، بينما تُركت الأسطر المقابلة

لأسماء أخرى فارغة. تطلعتُ إلى السطر الذي يضمّ اسم آدكينز. وردت كلمتا هوّ وسو بعده. بدت هذه المجموعة مألوفة بالنسبة إليّ. أغمضتُ عينيّ وأجريتُ مسحاً في ذاكرتي بحثاً عن هذه الكلمات في قوائم القرابة.

قلتُ: "إنهم الأشخاص الذين عاشت الضحايا معهم. خذ آدكينز على سبيل المثال. يشير الاختصاران إلى الزوج والابن".

قال شاربونيو: "أجل. عاشت غاغنون مع شقيقها وعشيقها".

أضف كلوديل: "حقاً؟ ماذا تعني كلمة دو؟" أشار كلوديل إلى العمود الأخير. كتب سان جاك كلمات مقابل بعض الأسماء، بينما لم يكتب شيئاً مقابل أسماء أخرى. لم يمتلك أحدٌ منا إجابة جاهزة.

قلب شاربونيو الصفحة الأولى، فاستغرق الجميع في قراءة مجموعة الملاحظات التالية. قسّمت هذه الصفحة إلى نصفين، وحملت اسماً في أعلاها، وآخر في منتصفها. ظهرت تحت كل اسم مجموعة أخرى من الأعمدة. حملت الأعمدة إلى اليسار عناوين التاريخ، الداخِل، والخارج. ملئت الأماكن الفارغة بالتواريخ والأوقات.

صاح شاربونيو: "يا الله! لقد طاردهنّ، بعد أن انتقاهنّ ولاحقهنّ مثل طائرٍ مفترس".

لم يقل كلوديل شيئاً.

كرّر شاربونيو كلامه، وكأنه يعيد صياغة العبارات بحيث تصبح أكثر، أو أقلّ، قبولاً: "لاحق ذلك اللعين المريض النساء".

قلتُ مهدوء: "لعله مشروع بحث، ولم ينهه بعد".

سأل كلوديل: "ماذا؟"

"ماتت آدكينز وغاغنون. إنّ هذه التواريخ حديثة. من هنّ الأخريات؟"

"اللجنة!"

صاح كلوديل قبل أن يختفي في الرواق: "أين فريق استعادة مسرح الجريمة بحق الجحيم؟" سمعتُ شائمه في وجه رجل الدورية.

عدتُ بنظري إلى الجدار. لم أعد راغبة بالتفكير في اللائحة لما تبقى من هذا اليوم. شعرتُ بالحرارة، والتعب، والألم. لم أجد راحة في إدراكي أنني ربما على حق، وأنه يُحتمل أن أعمل أنا وكلوديل على هذه القضية.

نظرتُ إلى الخريطة، وبحثتُ فيها عن أي شيء يسليني. كانت خريطة كبيرة تظهر تفاصيل الجزيرة، والنهر، وخليط الجاليات التي تؤلف مدينة مونتريال، والمناطق المحيطة بها، بألوان قوس القزح. بدت مناطق الجاليات باللون الزهري تقطعها الشوارع الملونة باللون الأبيض، والتي تتصل بعدة طرقات ملونة باللون الأحمر، وطرقات واسعة باللون الأزرق. انتشرت على الخريطة المتنزعات الخضراء، وميادين الغولف، والمقابر. لُوتت المؤسسات باللون البرتقالي، أما مراكز التسوق فكانت باللون الأرجواني، أما المناطق الصناعية فأشير إليها باللون الرمادي. عيّنتُ مكان وسط المدينة واقتربتُ أكثر في محاولة مني لتعيين الشارع الصغير الذي أسكن فيه. إنَّ الجمّع السكني الذي أقطنه ليس كبيراً، لذلك بحثتُ عنه لبعض الوقت. بدأتُ أفهم لماذا تجد سيارات الأجرة صعوبة في إيجادها عندما أحْتَاج إليها. عزمتُ على أن أكون أكثر صبراً في المستقبل، أو على الأقل أكثر تحديداً. حددتُ مكان تقاطع غرب شيربروك مع شارع غاي، لكنني اكتشفتُ أنني ذهبت بعيداً جداً. أصابني الصدمة الثالثة لهذا المساء.

وضعتُ إصبعي فوق آتواتر، وهو المكان الذي يقع مباشرة خارج المضلع البرتقالي الذي يحدّد لا غواند سيمينايير. لفت نظري رمز صغير رُسم بقلم في زاويتها الجنوبية الغربية. يتضمن الرمز دائرة مع علامة X في داخلها. لاحظتُ أن هذا الرمز يشير إلى مكان قريب من المكان الذي وجدتُ فيه جثة إيزابيل غاغنون. شعرتُ بتزايد ضربات قلبي، ثم انتقلتُ كي أفتش في الطرف الشرقي من المنطقة، وحاولتُ إيجاد الملعب الأولمبي.

قلتُ بصوت متوتر ومرتجف: "مسيو شاربونيو، انظر إلى هذه".

اقترب مني أكثر.

"أين هو الملعب؟"

لمس موقعه بالقلم ثم نظر نحوي.

"أين تقع شقة مارغريت أدكينز؟"

تردد للحظة، ثم اقترب أكثر، وبدأ بتعيين الشارع الذي ينطلق جنوباً من بارك مايزونيف. جُمّد قلمه في الهواء ما إن حملقنا سوياً في ذلك الشكل الصغير. كانت علامة X مرسومة داخل دائرة.

"أين عاشت شاننتال تروتية؟"

"عاشت في سانت آندي بيلفيو. يبعد كثيراً عن هذا المكان."

حدّقنا في الخريطة سوياً.

قلتُ مقترحة: "دعنا نبحث بطريقة منظمة. سأبدأ بالزاوية العليا إلى اليسار ثم سأنتقل جنوباً. ابدأ أنتَ بالناحية اليمنى السفلية ثم اتّجه إلى الأعلى".

وجدها قبلي. علامة X الثالثة. كانت العلامة عند الشاطئ الجنوبي، قرب سان لامبيرت. لم يعرف شاربونيو عن جرائم قتل وقعت في تلك المنطقة، وكذلك كان الحال مع كلوديل. بحثنا عن علامة أخرى لمدة عشر دقائق أخرى، لكننا لم نجد إشارات X أخرى.

كنا على وشك البدء بالبحث مجدداً عن علامات أخرى، عندما ظهرت أمامنا عربة فريق مسرح الجرائم.

دخل الرجال من خلال الباب حاملين صناديقهم المعدنية. بادرهم كلوديل بالسؤال: "أين كنتم بحق الجحيم؟"

قال بيار جليبر: "يشبه الأمر القيادة في منطقة وودستوك، لكن مع وجود وحلٍ أقل". أحاطت وجهه لحيةٌ مجمدة، وشعرٌ أكثر تجعداً، ذكّرني بإله روماني. لم أستطع تحديد اسمه بالضبط. "ماذا لدينا هنا؟"

قال كلوديل: "لربما لدينا قاتل فتيات أوقعهنّ سوء حظهنّ في هذا المنزل أو ربما الوكر الصغير".

أشار إلى الغرفة بحركة سريعة من ذراعه: "كرّس نفسه للعمل بالكامل في هذا المكان".

قال جليبر مبتسماً: "سنعرف كيف سنخرجه منه". التصقت خصلات شعره الدائرية بجهته الرطبة. "سنبدأ العمل على الفور".

"يوجد طابق سفلي أيضاً".

"وي (نعم)". خرجت الكلمة بلهجة سؤال واعي؟ صاعدةً ومنخفضةً رغم التغيّر الذي طرأ على نغمة هذه الكلمة.

"لماذا لا تبدأ من الأسفل يا كلود؟ وأنتَ يا مارسي ابدأ بالطاولة الموجودة هناك".

تحرك مارسسي إلى أقصى الغرفة. تناول علبةً من حقيبة معدنية وبدأ برشّ مسحوق أسود اللون على طاولة الفورميكا. توجه التقني الآخر إلى الطابق السفلي. ارتدى بيار قفازيه المطاطيين وبدأ بنزع قصاصات الجرائد عن سطح الطاولة ووضعها في كيس بلاستيكي كبير. تلقيتُ في تلك اللحظة بالذات آخر صدمة لي لهذا اليوم.

رُفع كيساً صغيراً مربع الشكل وقال: "ماذا تعرفين عن هذا؟" مرّت فترة طويلة وهو يتفحصه ثم قال: "هل يَخَصُّك؟" فوجئتُ عندما رأيته ينظر إليّ.

مشيتُ نحوه بصمت، ونظرتُ إلى الكيس الذي يحمله. شعرتُ بتوتر كبير عندما رأيتُ سروال الجينز الذي ارتديه، وبالتأكيد كسرتي الإيرلندية، ونظارتي التي تحمل ماركة باوش ولومب. أمسك بيده المغطاة بالقفاز الصورة التي ظهرت في صحيفة *لوجورنال* في ذلك الصباح.

وجدتُ نفسي، للمرة الثانية في ذلك اليوم، حبيسة ذكريات عامين مضيا. قُطعت الصورة بالدقة ذاتها التي قُطعت بها باقي الصور المعلقة على الجدار، لكن مع وجود فرق واحد. رُسمت دائرة حول صورتي، وأُحيطت ثانية بخط القلم، بالإضافة إلى وجود علامة X كبيرة فوق صدري.

12

نمتُ كثيراً في عطلة نهاية الأسبوع تلك. حاولتُ النهوض صبيحة السبت، لكن ذلك لم يستمر طويلاً. شعرتُ أنّ ساقَيّ ترتعشان، وعندما حاولتُ أن أستدير برأسي كانت وخزات الألم تخترق رقبتي، وتمسك بأسفل جمجمتي. شعرتُ بتصلبٍ في وجهي مثلما هي الحالة التي يسببها مرهم برولي، وبدأت عيني اليمنى مثل إحصاةٍ فاسدة. كانت عطلةٌ حفلةً بتناول الحساء، وحبوب الأسبرين، واستخدام المطهرات. أمضيتُ أياماً وأنا غافية على أريكتي. شاهدتُ الكثير من أو. جي. سيمبسون المسلية على جهاز التلفزيون. وأويتُ إلى فراشي عند الساعة التاسعة.

يوم الإثنين، هدأت كسارة الأحجار في رأسي، واستطعتُ المشي، لكن بصعوبة، وكذلك واجهتني صعوبة في إدارة رأسي بمنةٍ ويسرةً. نهضتُ باكراً في ذلك اليوم، واستحممتُ، ووجدتُ نفسي في مكنتي عند الساعة الثامنة والنصف. وجدتُ ثلاثة طلبات على طاولتي. تجاهلتها، وطلبتُ رقم غابي. ردّت عليّ آلتها المجيبة. حضّرتُ لنفسني كوباً من القهوة السريعة التحضير، وبدأتُ بفتح الرسائل الهاتفية التي وجدتها في صندوقي الخاص. جاءت الرسالة الأولى من فردان، أما الرسالة الثانية فكانت من آندرو رايان، وجاءت الرسالة الثالثة من مراسلٍ صحفي. رميتُ الرسالة الأخيرة، ووضعتُ الرسالتين الأخريين قرب جهاز الهاتف.

لم أتلقَ اتصالاً من شاربونييو أو كلوديل، ولا حتى من غابي.

اتصلتُ بغرفة فرقة شرطة مونتريال وطلبتُ التحدث مع شاربونييو. قالوا لي بعد فترة إنه ليس موجوداً هناك. لم يكن كلوديل موجوداً هو الآخر. تركتُ

رسالةً لهما، وتساءلتُ عما إذا كانا قد انطلقا في عملهما في شوارع المدينة باكراً، أو أهما تأخرًا في الوصول.

اتصلتُ بآنسدر ورايان لكن خطّه كان مشغولاً. لم أفلح بالاتصال بأي شخصٍ هاتفياً، لذلك قررتُ أن أتوجه شخصياً إلى هناك. توقعتُ أن يجدني رايان عن تروتييه.

استقلّيتُ المصعد حتى الطابق الأول، ثم توجهتُ نحو غرفة الفرقة. لاحظتُ أن الجو فيها أكثر حيويةً مما كان عليه في زيارتي الأخيرة. شعرتُ أن عينيّن تحدقان بي عندما سرت نحو طاولة رايان. أحسستُ بشعور غامضٍ من عدم الارتياح. لا شك في أن صاحبهما قد علم بما جرى لي يوم الجمعة.

مدّ رايان يده لمصافحتي، ونهض من مقعده. ظهرت ابتسامة على وجهه الذي يميل إلى الاستطالة، وذلك عندما رأى أثر الخدوش على خدي الأيمن، وقال بالإنكليزية: "دكتورة برينان، هل تجرّبين ظلاً جديداً من مساحيق التجميل؟"

"هذا صحيح. إنني أجرب اللون القرمزي الإسمعني. تلقيتُ رسالة منك. هل اتصلتَ بي؟"

بقي وجهه خالياً من كل تعبير للحظة من الزمن. "أوه، أجل. استخرجتُ الملف الخاص بتروتييه. تستطيعين إلقاء نظرةٍ إذا أردتَ".

أنحني إلى الأمام وقَلّب بعض الملفات الموجودة على طاولته، ثم نشرها أمامه بشكلٍ مروحة. انتقى ملفاً وناولني إياه في اللحظة التي دخل فيها زميله إلى الغرفة. تقدّم برتران نحونا. لاحظنا أنه يرتدي سترةً رياضيةً بلون رماديّ فاتح، وارتدى معها سروالاً يتناسب معها، لكن بلون رماديّ أغمق قليلاً، وقميصاً أسود اللون، وربطة عنق ذات ألوان سوداء وبيضاء. بدا مثل الشخصيات التي كانت تظهر على شاشات أجهزة تلفزة أيام الخمسينيات.

"كيف تجري الأمور يا دكتوراة برينان؟"
"عظيمة جداً".

"واو، يا للمساحيق الجميلة!"

بحثُ من حولي عن مكان أستطيع أن أنشر الملف عليه. قلتُ: "لا تعطي الأرصفة مسحة من الجمال. هل أستطيع..." أشرتُ إلى طاولة فارغة.
"بالتأكيد، لقد خرج الباقون".

جلستُ، وبدأتُ بترتيب محتويات الملف، وقَلبتُ أوراق تقارير الحادث، والمقابلات المثيرة، والصور. إنها صور شانتال تروتييه. بدا الأمر بالنسبة إليّ مثل المشي عارية القدمين فوق إسفلت ساخن. عاودني الشعور بالألم، وكأن الحادث قد وقع بالأمس، وهكذا داومتُ على النظر بعيداً، كي أعطي عقلي فترات استراحة من الألم الذي سيطر عليّ.

لمضت ابنة الستة عشر عاماً بتردد من نومها في 16 تشرين الأول عام 1993. انشغلت بكَيّ كنزتها، وأمضت ساعة في التأنق، وتزيين شعرها. رفضت أن تتناول الفطور الذي قدّمته لها والدتها، ثم غادرت منزلها الذي يقع في ضاحية المدينة. أرادت الانضمام إلى أصدقائها وركوب القطار في طريقهم إلى المدرسة. ارتدت زياً مدرسياً مطرزاً، وجارين يصلان إلى ركبتيها، ثم حملت حقيبة كتبها. تبادلت الفتاة الدردشة والفهقهات مع أصدقائها، ثم تناولت غداءها بعد انتهاء حصة الرياضيات. اختفت الفتاة مساء ذلك اليوم. ووجدت جثتها المقطّعة بعد ثلاثين ساعة في أكياس نفايات مصنوعة من النايلون، على بعد أربعين ميلاً من منزلها.

وقع ظلُّ على الطاولة، فنظرتُ إلى الأعلى. وجدتُ بوتران حاملاً كوبين من القهوة. كُتب على الكوب الذي قدّمه لي هذه الجملة الإثنيين أبدأ الحمية. تناولتُ الكوب بامتنان.

"هل وجدت شيئاً مهماً؟"

أخذتُ رشفة قهوة: "ليس الكثير. كانت في السادسة عشرة من عمرها. ووجدت جثتها في سان جيروم".
"أجل".

رحتُ أفكّر بصوت عالٍ: "كانت غاغنون في الثالثة والعشرين من عمرها. ووجدت في ستترفيل، ووجدت جثتها أيضاً في أكياس مصنوعة من النايلون".
أحني رأسه.

"كانت آدكينز في الرابعة والعشرين من عمرها، ووجدت في الملعب الرياضي في بلدتها".

"لم تتعرض جثتها للتشويه".
"لا، لكنها قُطعت ومُرقت. يُحتمل أن يكون شخصاً ما قد فاجأ القاتل، لذلك لم يتوافر لديه وقتٌ كثير".

ارتشف قهوته، وشرها بصوتٍ مسموع. رأيتُ أثراً من قطرات الحليب البنية اللون على شاربيه.

"وضع سان جاك اسمي غاغنون وآدكينز على لائحته". افترضتُ أن القصة قد انتشرت في هذا الوقت، وكنتُ محقة.

"أجل، لكن وسائل الإعلام قد تعامت مع هاتين القضيتين، لذلك عمد القاتل إلى ضم المقاتلين الواردين بشأهما في ألو بوليس وفوتو بوليس. بدا لي أنه دودة تتغذى على هذا النوع من الأشياء".

"يُحتمل ذلك". ارتشفتُ جرعةً أخرى، لكنني وجدتُ صعوبة في تصديق ما أسمع.

"ألا يمتلك كدسة كبيرة من هذه المواد؟"

جاء صوت رايان من ورائنا: "أجل. جمع ذلك المغفل قصاصات عن شتى أنواع التفاهات. ألم تجمع يا فرانكوير قصاصات قضايا مثل هذه عندما كنتَ تعمل في قطاع الأراضي؟" وجّه كلامه هذا إلى رجلٍ قصيرٍ وسمين، ذي رأسٍ لامعٍ شديد السمرة، والذي أخذ يتناول قطعة من شوكولاته سنيكرز، وكان يجلسُ على بُعد أربع طاوولات منا.

وضع فرانكوير قطعة الشوكولاته جانباً وأخذ يلعق أصابعه وأوماً. ومضت نظارته كلما حرك رأسه إلى الأعلى وإلى الأسفل.

أخذ يلعق: "هم. هم. جمعتُ قصاصات عن قضيتين منها". تابع اللعق.
"إنها أسوأ الأمور. يتسلل هذا السنجاب إلى مكانٍ ضحيته، وينهب غرفة نومها، ثم يشكّل لنفسه لعبةً كبيرةً من ثياب نومها، أو من ملابس سيدة المنزل الرياضية. يخشو الرجل هذه اللعبة، ويلبسها ملابسها الداخلية، ثم يمددها على السرير ويأخذ بطعنها. يجعل الرجل هذا العمل أصعباً من الامتحان النهائي

للرياضيات". تابع اللعق أكثر فأكثر. "يغادر بعدها من دون أن يأخذ أي شيء".

"هل يلجأ إلى أمور شاذة؟"

"لا. أعتقد أنه يؤمن بالقيام بما يحلو له بطريقة آمنة".

"ما هي الأدوات التي يستخدمها".

"أعتقد أنه يستخدم سكيناً، لكننا لم نتمكن من العثور عليها. يتحتم عليه أن يجلبها معه".

أزال فرانكوير المزيد من غلاف قطعة شوكولاته سنيكرز، وتناول كدسة أخرى منها.

"كيف دخل إلى المنزل؟"

"دخل من نافذة غرفة النوم؟" خرجت الكلمات مترافقةً مع قطع الكاراميل والفسق.

"متى يفعل ذلك؟"

"في الليل عادةً".

"وأين يضع عروضه الصغيرة الشاذة؟"

تابع فرانكوير مضغه البطيء لبرهة من الزمن، لكنه سرعان ما انتزع شذرةً من الفستق من أحد أضراسه مستخدماً ظفره. تأملها قليلاً قبل أن يقذف بها بعيداً.

"وجدنا واحدةً منها في سان كاليست، وأعتقد أنّ الأخرى كانت في سان هوير. أما قصابة هذه القضية فوضعها منذ أسابيع عديدة في سان بول دو نورد". انتفخت شفته العليا عندما مرّ لسانه فوق إحدى أسنانه القاطعة. "وأعتقد أنّ إحداها وقعت بين أيدي شرطة مدينة مونتريال. أظن أنني تذكرتُ مكانة هاتفةٍ منذ ما يقارب العام من شخص يسكن هناك".

مرّت فترة صمت.

"سيقبضون عليه في النهاية، لكن هذا السنجاب لا يُعتبر أولوية قصوى في الوقت الحاضر. إنه لا يؤدي أحداً ولا يسرق شيئاً. كوّن الرجل فكرة خاطئة عن مواعيد الغرام الرخيصة".

كسور فرانكوير غلاف قطعة الشوكولاته وقذفها في سلة المهملات الموجودة قرب طاولة مكتبه.

"سمعتُ أنّ المواطن المعني في سان بول دو نورد رفض أن يرفع شكوى".
قال رايبان: "أجل. تنجح هذه القضايا. يمثل نجاح جراحة فصل الفصوص الجبهوية بواسطة سكين كشاف".

"لعل بطلنا هذا أقدم على اقتطاع هذه المقالة لأنه يستصعب القراءة عن مواضيع متخصصة تتعلق بكيفية دخول غرف النوم. اقتطع قصة تلك الفتاة في سينيفيل، ونحن نعرف أنه ليس الشخص الذي أمسكها. تبين بعد ذلك أنّ والد الفتاة هو الذي كان يخفيها طيلة الوقت". استرخى فرانكوير في مقعده قبل أن يتابع: "لعل ذلك يتوافق مع أوصاف الأقرباء المنحرفين".

أصغيتُ للمحادثة من دون أن أنظر فعلاً إلى المشاركين بها. انشغلت عيناى في تفحص خريطة كبيرة للمدينة، وهي الخريطة التي جلس فرانكوير أمامها. لاحظتُ أنّ هذه الخريطة تشبه تلك التي شاهدتها في تلك الشقة الموجودة في بيرغر، لكنها كانت بمقياس أصغر منها. امتدت هذه الخريطة كي تشمل الضاحيتين الشرقية والغربية لجزيرة مونتريال.

دار النقاش في غرفة الشرطة، وشمل حوادث بيبينغ طومز الجنسية بالإضافة إلى حوادث أخرى مماثلة. نهضتُ مهدوء بينما كان النقاش يمتد من طاولة إلى أخرى، ومشيتُ نحو مكان الخريطة كي أحصل على نظرة أكثر قرباً، وتمنيتُ ألا يلاحظ أحد ما أقوم به. تفحصتُ الخريطة، وأعدتُ التمرين ذاته الذي قمتُ به مع شاربونيو يوم الجمعة، وعيّنتُ في ذهني مواقع أحرف X. أحفلي صوت رايبان.

سألني: "بماذا تفكرين؟"

تساولتُ علبه دبابيس موجودة على حافة تحت الخريطة. تشكلت رؤوس الدبابيس من كرات ملونة ولامعة. انتقيتُ دبوساً ذا رأس أحمر اللون وثبته فوق الزاوية الجنوبية الغربية من لا غراندي سيمينايير.

قلتُ: "غاغنون".

وضعتُ دبوساً بعد ذلك تحت موقع الملعب الأولمبي.
"آدكينز".

وضعتُ الدبوس الثالث إلى الزاوية اليسرى العليا، أي قرب فسحة كبيرة لنهرٍ يُعرف باسم **لاك دي ديز مونتان**.

"تروتييه".

تأخذ جزيرة **مونتريال** شكل قدمٍ يبرز كاحلها من الشمال الغربي، أما كعب هذه القدم فيتجه إلى الجنوب، بينما تشير أصابعها إلى الجهة الشمالية الغربية. حدّد دبوسان القدم، فوق النعل تماماً. وتواجد أحدهما في كعب سنترفيل، بينما وُضع الآخر في جهة الشرق قرب أصابع القدمين. قبع الدبوس الثالث فوق منطقة الكاحل، أي في أقصى الطرف الغربي للجزيرة. لم تشكّل هذه الدبابيس نمطاً محددًا.

أشرتُ إلى أحد الدبابيس الموجودة في وسط المدينة، ثم إلى الدبوس الموجود في الطرف الشرقي، وقلتُ: "حدّد سان جاك بقلمه هذا الدبوس وذلك الدبوس".

تفحصتُ الشاطئ الجنوبي متبعةً **جسر فكتوريا** مروراً **بسان لامبرت**، ثم نزلتُ جنوباً. بحثتُ عن أسماء الشوارع التي سبق أن رأيتها يوم الجمعة. تناولتُ عندها دبوساً رابعاً وغرزته في الجهة البعيدة من النهر، أي تحت قوس القدم مباشرة. لم يعطيني هذا الانتشار أي معنى. نظر **رايان** إليّ متسائلاً.

"إنها علامة X الثالثة له".

"وماذا يوجد هناك؟"

سألته: "وماذا تظن؟"

"لا أعلم مطلقاً، لعل كلبه سبايك موجود هناك". نظر إلى ساعته: "انظروا

ماذا لدينا هنا..."

"أتظن أن معرفتنا بذلك الشيء هو فكرة سديدة؟"

حدّقتُ بي لوقتٍ طويلٍ قبل أن يجيبني. بدت عيناه بلون النيون الأزرق.

دهشتُ قليلاً لأنني لم ألحظ لونهما من قبل. هزّ رأسه.

"لستُ مطمئناً. إن ما تملكينه ليس كافياً. تمتلك نظريتك عن القاتل

التسلسلي، في الوقت الحاضر، ثغرات أكثر من تلك التي تمتلكها ترانس كندا.

حاولي أن تسدّي هذه الثغرات، أعطيني شيئاً آخر، أو دعي **كلوديل** يطلب إجراء

بحثٍ خاصٍ بأمن كيبيك. إن هذه القضية لا تخصنا حتى الآن".

وكان بروتيران يومئ له، ويشير إلى ساعته، وما لبث أن أشار بإيمانه نحو الباب. نظر رايمان نحو زميله. أوماً، ثم حوّل عينيه الزرقاوين باتجاهي.
لم أقل شيئاً. طاف بصري فوق وجهه بحثاً عن إشارة تشجيع. ولم ألاحظ أي علامة تشجيع، حتى ولو كانت موجودة.
"يتعين عليّ أن أذهب. اتركي الملفّ على طاولتي عندما تنتهين منه".
"حسناً".

"و... آه... حافظي على رأسك مرفوعاً فوق كتفيك".
"ماذا؟"

"سمعتُ ما وجدته هناك، لأن ذلك النذل قد يكون أخطر من مجرد سافل عادي". راح يبحث في جيبيه، وما لبث أن تناول بطاقةً وكتب شيئاً ما عليها.
"تستطيعين إيجادي على هذا الرقم في أي وقتٍ تقريباً. اتصلي بي إن احتجتِ إلى مساعدة".

مرّت عشر دقائق قبل أن أجلس على طاولتي. تملّكني شعور بالإحباط والتوتر. حاولتُ أن أركّز على أمورٍ أخرى، لكنني لم أُنجح إلا قليلاً. كنتُ أتمنى أن يكون كلوديل أو شاربونيو هو المتصل في كل مرة يدق فيها الهاتف في مكتب ما من المكاتب الموجودة على طول الرواق. اتصلتُ مجدداً عند العاشرة وخمس عشرة دقيقة.

سمعتُ صوتاً يقول: "لحظة من فضلك". سمعتُ صوتاً آخر بعد قليل.
"كلوديل".

قلتُ: "أنا الدكتورة برينان".

ساد صمت عميق.

"وي".

"هل تلقيتَ رسائلي؟"

"نعم".

تأكدتُ من أنه سيكون يمثل صراحة متهرب من الضرائب عندما يقف أمام مدققي الضرائب.

"أتساءل عما اكتشفته حتى الآن عن سان جاك".

شخر مستهجنًا: "أجل. سان جاك. حسنًا".

شعرتُ برغبة شديدة بالوصول إلى الطرف الآخر من الخط كي أسحب له لسانه، لكنني قررتُ أنَّ الحالة تستدعي بعض الكياسة، وهي القاعدة رقم واحد في طريقة التصرف مع رجال التحري.

"أعتقدُ أنَّ هذا هو اسمه الحقيقي؟"

"إن كان هذا هو اسمه الحقيقي فعندها سأكون مارغريت تاتشر".

"إذا أين أنت؟"

مرتُ فترة صمت أخرى استطعتُ خلالها أن أتصوره خلالها ينظر نحو السقف مفكرًا بأفضل طريقة للتخلص مني.

"سأقول لك أين نحن، لم نصل إلى أي مكان، ولم نحقق شيئًا. لم نرَ أسلحة متدلية، ولم نجد أشرطة سينمائية منزلية. لم نعثر على مذكرات اعتراف مفصلة، ولا أشلاء بشرية تذكارية".

"هل عثرتم على بصمات؟"

"لم نجد بصمات واضحة".

"هل من أمتعة شخصية؟"

"يقع ذوق الرجل ما بين المتطرف والقوي. لا يحب لمسات الزخارف. لم نجد أمتعة شخصية، ولا ثياب. آه، نعم. وجدنا كنزاً وقفازين مطاطيين قديمين، وبطانية وسخة. هذا كل شيء".

"ولماذا القفازان؟"

"لعله كان قلقاً على أظافره".

"وماذا لديك أنت؟"

"رأيتُ كل شيء. رأيتُ مجموعة صور الآنسة، والخريطة، والصحف، والقصاصات، والقائمة. أوه نسيتُ أن أذكر بعض السباغيتي الفرنسية الأميركية".

"أليس من شيء آخر؟"

"لا شيء".

"ألم تجدوا مساحيق تجميل؟ أو مواد طبية؟"

"اللعة!"

فكّرتُ في ما سمعته قليلاً.

"لا يبدو لي أنه يعيش هناك فعلاً".

"إن كان يعيش هناك فستعرفين أنه أكثر الأشقياء الذين التقيت بهم في حياتك وساخة. إنه لا يَنظّف أسنانه، ولا يخلق ذقنه. إنه لا يستخدم الصابون، ولا الشامبو، ولا خيطان تنظيف الأسنان".

فكّرتُ قليلاً بما سمعته للتو.

"وماذا استنتجت؟"

"لعل ذلك المهووس التافه يستخدم المكان وكرراً يستفيد منه في تنفيذ جرائمه الحقيقية، وممارسة مجونه، ولعل والدته لا تسمح له بممارسة هواياته في المنزل. كيف لي أن أعرف؟"

"وماذا بشأن اللائحة".

"إننا ندقق بالأسماء والعناوين".

"هل يقع أحدها في سان لامبرت؟"

مرّت فترة صمتٍ أخرى.

"لا".

"هل حصلتُم على معلومات جديدة عن كيفية استخدامه لبطاقة مارغريت آدكينز المصرفية؟"

كانت فترة الصمت أطول هذه المرة، وتنضح بعدائية أكثر وضوحاً.

"دكتورة برينان، لماذا لا تلتزمين بعملك، وتدعيننا لنلقي القبض على

القتلة؟"

لم أستطع الامتناع عن طرح السؤال: "وهل هو قاتل؟"

"ماذا؟"

"هل هو قاتل؟"

وجدتُ نفسي وأنا أستمع إلى نغمة خط الهاتف.

أمضيتُ ما تبقى من الصباح في تقدير عمر، وجنس، وطول شخص، وكل ذلك من عظمة زند واحدة. وجد أطفالاً هذه العظمة عندما كانوا يحفرون قرب بوان أو ترمبلز، وربما كان المكان مقبرة قديمة.

غادرتُ مكتبي عند الساعة الثانية عشرة والرّبع متوجهة إلى الطابق الأعلى كي أشترى زجاجة دايت كوك وأحضرُها إلى مكتبي. أغلقتُ الباب وتناولتُ شطيرتي، وبعض ثمار الدراق. استدرتُ كي أواجه النهر، وشجعتُ أفكارِي على الانطلاق. لم تنطلق هذه الأفكار لأما حطّت على كلوديل، مثل صاروخ باتريوت.

يستمر الرجل في رفض فكرة القاتل التسلسلي. أيعقل أن يكون محقّقاً؟ أيعقل أن تكون نقاط التشابه مجرد مصادفة؟ وهل يُحتمل أنني أتوهم وجود روابط غير موجودة في الواقع؟ أيحتمل أن يكون سان جاك مجرد هاوٍ للأشكال القبيحة للعنف؟ أعرّف تماماً أنّ منتجي الأفلام، ودور النشر، يجنون الملايين من هذا الموضوع ذاته. يُحتمل أن لا يكون قاتلاً تسلسلياً، أو أنه اكتفى بجمع قصاصات مقالات عن الجرائم، أو أنه كان يلعب لعبة مطاردة مثيرة. أيحتمل أنه عثر على بطاقة مارغريت أدكينز؟ وهل يُعقل أنه سرقها قبل موتها وأنها لم تفتقدّها؟ ربما. ربما. ربما.

لا. لا تتطابق كل هذه المعلومات، لأنه إذا لم يكن سان جاك هو المجرم فلا بد من وجود شخصٍ ما تقع عليه مسؤولية كل هذه الوفيات. إنني واثقة من وجود روابط بين بعض هذه الجرائم على الأقل، لذلك شعرتُ أنني غير مضطّرة كي أنتظر اكتشاف جثة مقطّعة أخرى كي أبرهن أنني محقّقة.

ماذا يلزمي كي أقنع كلوديل بأنني لست مجرد امرأة بلهاء تتمتع بمخيلة نشطة؟ امتعض الرجل من دخولي مجال منطقة صلاحياته، واعتبر أنني أتخطي حدودي. طلب مني أن ألتمز بمتطلبات عملي. ورايان؟ ماذا قال لي؟ تحدث عن وجود ثغرات، وأنّ معطياتي لا تكفي، وطلب مني البحث عن دليلٍ أقوى يدل على وجود رابط بين هذه الجرائم.

"حسناً يا كلوديل، أيها النذل سأجلب لك هذا الدليل".

قلّتها بصوتٍ عالٍ، ودفعْتُ مقعدي بقوة، ثم رميتُ نواة ثمرة الدراق في سلة النفايات.

هكذا إذاً.

ما هي طبيعة عملي؟

إنني أنبش الجثث، وأفحص العظام.

13

طلبتُ من دينيز، الذي يعمل في مختبر الأنسجة، أن يستخرج لي ملفّي القضيّتين اللتين تحمّلان رقمي 93-25906 و94-26704. ربّبتُ جهة الطاولة إلى يمين المجهر، ثم وضعتُ لوح كتابتي وقلمي. تناولتُ أنبوبين مصنوعين من البوليسيلوكسامين ووضعتُهما في المكان الصحيح، ووضعتُ ملعقةً صغيرةً قريهما، بالإضافة إلى رزمة من الأوراق المطلية، ومسماك (لقياس السماكة) تصل دقته إلى جزء من عشرة آلاف من البوصة.

وضع دينيز صندوقين من الكرتون عند كل طرف من طرفي الطاولة: صندوق كبير وصندوق صغير، وكلاهما محتومان ومصنّفان بعناية. أزحتُ الغطاء عن الصندوق الكبير، واخترتُ أجزاءً من عظام إيزابيل غاغنون، ووضعتُها على النصف الأيمن من سطح الطاولة.

فتحتُ الصندوق الأصغر بعد ذلك. سبق لعائلة شانثال تروتيه أن استلمت جثتها ودفنتها، لكننا أبقينا أجزاءً صغيرةً من عظامها لتكون دليلاً. يُعتبر ذلك إجراءً روتينياً بالنسبة لحالات القتل التي تتضمن إصابات العظام، أو التشويه.

تناولتُ ستة عشر كيساً من أكياس زيبيلوك ووضعتُها في الجهة اليسرى من الطاولة. حمل كل كيس منها إشارة إلى ذلك القسم من العظام الذي يحتويه وجهتها: المعصم الأيمن، المعصم الأيسر، الركبة اليمنى، الفقرات العنقية، الفقرات الصدرية والقطنية (أسفل الظهر). أفرغتُ محتويات كل كيس ورتبتها في وضعها التشريحي الصحيح. وضعتُ جزأي عظمتي الفخذ إلى جانب الأجزاء المقابلة لها من

عظام قصبة الساق، وعظام الشظية، فشكّلت بذلك مفاصل الركبة. تمثّل كل معصمٍ بخمسة عشر ستمتراً من عظام الكعبرة والزند. لاحظتُ أنّ أطراف العظام التي جرى تشریحها كانت محززةً بوضوح. أدركتُ أنه يستحيل أن أخطئ في تمييز هذه الحزوز عن تلك التي أحدثها القاتل.

قرّبتُ العلبة التي تضمّ أنابيب المزج وفتحتُ أحدها، ثم استخرجتُ منها شريطاً أزرق اللون يحتوي مادةً تحمل آثار الأسنان، ووضعتهُ على أعلى الورقة. استخرجتُ شريطاً أبيض اللون من الأنبوب الثاني. انتقيتُ إحدى عظام ذراع تروتييه ووضعتهُ أمامي، ثم تناولتُ الملعقة. عملتُ بسرعة على مزج وسيط كيميائيّ أزرق اللون مع القاعدة البيضاء، ثم انصرفتُ إلى عجن وقشط المادتين إلى أن أصبحتا مادةً لزجةً متجانسة. وضعتُ المزيج في حقنة بلاستيكية، ثم ضغطتهُ بمثل الطريقة التي تزيّن فيها الكعكة (الكاتو)، وغطيتُ بها سطح المفصل بعناية شديدة.

وضعتُ العظمة الأولى على الطاولة، ثم نظفتُ الملعقة والحقنة. نزعْتُ بعد ذلك الصفيحة التي استخدمتها، ثم بدأتُ العملية من جديد مع عظمة أخرى. نزعْتُ كل قالب فور تجمّده، وعرّفتُ رقم الحالة، والموقع التشريحي، والجهة، والتاريخ، ووضعتهُ إلى جانب العظمة التي يماثلها. كرّرتُ هذا الإجراء حتى تكوّن أمامي قالب مطاطي أزرق إزاء كل عظمة من العظام الموجودة أمامي. استغرقتني العملية بأكملها حوالي الساعتين من الزمن.

انتقلتُ بعدها إلى المجهر، وحددتُ درجة التكبير ثم عدّلتُ الضوء الليفي - البصري كي يؤلف زاوية على لوحة المشاهدة. بدأتُ فحصاً مدقّقاً لكل الحزوز والخدوش الصغيرة مع عظمة فخذ إيزابيل غاغنون اليمنى التي صنعت قالباً لها لتوي.

بدأت لي علامات الحزوز على نوعين. تميّزت كل عظمة من عظام الساعدين بوجود مجموعة من المنخفضات التي تشبه الخنادق، والتي تتوازي مع أسطح المفاصل. لاحظتُ أنّ جدران المنخفضات كانت مستقيمة، وتنحدر لتلتقي مع أرضيتها، بالإضافة إلى أنّها تشكل زاوية بمقدار تسعين درجة معها. بلغت معظم هذه الحزوز التي تشبه الخنادق أقل من ربع البوصة طولاً، أما عرضها فبلغ خمسة

من أصل مئة من البوصة في المعدل. لاحظتُ أيضاً أنّ عظام الساقين كانت محاطةً بأخاديد دائرية ذات طبيعة مشابهة.

شاهدتُ أنّ هذه العلامات تأخذ شكل V، لكنها أضيّق، وافتقدت الأخاديد التي تشبه الخنادق تلك الجدران والأرضيات العامودية. لاحظتُ أنّ هذه الشقوق، التي تشبه الحرف V، تتوازي مع الأخاديد الموجودة على أطراف العظام الطويلة، لكنها كانت مفردة في محاجر الوركين وفي الفقرات.

وضعتُ مخططاً لكل علامة، وسجّلتُ طولها، وعرضها، وعمقها في حالة وجود الأخاديد. لاحظتُ كل خندق بعد ذلك وقارنته مع القالب الذي صنّعه له، وذلك من الجهة العليا والمقاطع. مكّنتني القوالب من رؤية ميزات دقيقة لم أستطع رؤيتها عندما نظرتُ إلى الأخاديد مباشرة. ظهرت تنوعات صغيرة جداً، وأخاديد، وخدوش تركت علامات على الجدران والأرضيات، والتي ظهرت كلها مثل صورٍ سلبية ثلاثية الأبعاد. بدا الأمر وكأنني انظر إلى خريطة إغاثة بكل جزرها، ومسطحاتها الزراعية، وتضاريسها الصخرية، وقد امتلك كل خندق قالباً بلاستيكياً أزرق اللون يمثله.

فُصلت الأطراف عند المفاصل، وهكذا بقيت العظام الطويلة سليمة. بقي هناك استثناء واحد. قُطعت عظام الذراعين السفلى فوق المعصمين مباشرة. انتقلتُ كي أتفحص النهايات المقطوعة لعظمتي الكعبرة والزند. لاحظتُ وجود عظام المهماز المنفصلة وموقعها، وحلّلتُ السطح المقطعي لكل شقّ. انتهيتُ من العمل مع غاغنون، فكرّرتُ العملية ذاتها مع تروتيهيه.

سألني دينيز أثناء عملي ما إذا كان يستطيع أن يضع شيئاً ما ويقفل عليه. وافقتُ على طلبه لكنني لم أنتبه تماماً لما قاله. ولم أنتبه إلى الهدوء المخيم.

"ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت؟"

كادت فقرة العظام التي تناولتها من تحت المجهر أن تقع من يدي.

"يا إلهي. رايان! لا تفعل ذلك!"

"لا تجزعي، رأيتُ المكتب مضاعاً ففكرتُ أن أمرّ لأرى إن كان دينيز يعمل وقتاً إضافياً."

"كم الساعة الآن؟" جمعتُ ما تبقى من فقرات ووضعتها في كيسها.

نظر آندرو رايان إلى ساعته: "الخامسة والأربعين دقيقة". راقبني عندما رفعتُ الأكياس ووضعتُها في صندوق كرتوني أصغر، ثم وضعتُ الغطاء فوقه.
"هل وجدت شيئاً مفيداً؟"
"نعم".

أحكمتُ وضع الغطاء في مكانه، ثم تناولتُ العظام العائدة لإيزابيل غاغنون.

"لا يعطي كلوديل أهمية كبيرة لعملك على تتبع آثار المناشير".
كان بالتأكيد قولاً غير مناسب بالمرّة. وضعتُ العظام في صندوق أكبر.
وضعتُ لوحِي الكتف في الصندوق وتقدمتُ كي أتناول عظام الساعدين.
"ما رأيك؟"
"اللعة! لا أعرف".

تابعتُ وضع العظام في الصندوق: "لديك خبرة بالنجارة وشؤون الجص، لكن ماذا تعرف عن المناشير؟"
"إنها تقطع الأشياء".
"حسناً، لكن أي نوع من الأشياء؟"
"إنها تقطع الخشب، والأشجار المعرشة، والمعادن". توقف قليلاً. "والعظام".
"كيف؟"
"كيف؟"
"كيف".

استغرق بالتفكير لدقيقة من الزمن. "تستخدم المناشير أسناناً تندفع وتنسحب، ثم تقطع طريقها في المادة التي تنشرها".
"ماذا بشأن المناشير الدائرية؟"
"آه حسناً، إنها تدور".
"هل تقطع الشيء الذي تنشره، أم أنها تحفر من خلاله؟"
"ماذا تقصدين؟"
"هل أسنانها حادة عند الطرف أم أنها مسطحة؟ هل تقطع المادة قطعاً أم أنها تنشرها؟"

"أوه".

"وهل تقطع هذه المناشير أثناء حركة الأسنان ذهاباً أم أثناء حركتها رجوعاً؟"

"ماذا تقصدين؟"

"قُلْتِ إِنَّ الأسنانَ تندفع وتنسحب، فهل تقطع أثناء حركة الدفع أم أثناء

حركة السحب؟"

"أوه".

"هل هذه المناشير مصممة لتقطع من فوق السطح أم من خلاله؟"

"وهل يشكل ذلك فرقاً؟"

"كم تبعد أسنان المناشير عن بعضها؟ وهل تتواجد على بعد مسافات

متماثلة؟ وكم سناً يوجد في الشفرة الواحدة؟ وما هو شكلها؟ وما هي زاويتها من

الأمام وحتى الورا؟ وهل أطرافها حادة أم مسطحة؟ وما هو موقعها بالنسبة إلى

سطح الشفرة؟ وما هو نوع..."

"حسناً، حسناً، فهمت. إذاً عن المناشير".

أكملتُ وضع آخر عظام إيزابيل غاغنون أثناء حديثي، وأحكمتُ إغلاق

الغطاء.

"توجد مئات الأنواع من المناشير المختلفة: المناشير المقطعية. مناشير الشق.

مناشير التقليم. مناشير الحديد. المناشير الثاقبة. مناشير المطبخ واللحم. مناشير

ريوبا. مناشير جيغلي. مناشير العصي. مناشير العظام والأمشاط. إن كل المناشير

التي ذكرتها هي مناشير يدوية فقط. تعمل بعض المناشير بقوة العضلات، بينما

يعمل بعضها الآخر بالطاقة الكهربائية، أو بواسطة الوقود. يتحرك بعضها بفعل

التردد، بينما يستخدم بعضها الآخر الحركة المستمرة. وبعضها يتحرك جيئة

وذهاباً، وبعضها يستخدم شفرة دوارة. صُممت المناشير كي تقطع أنواعاً مختلفة

من المواد، ولتقوم بأعمال متنوعة أثناء عملية القطع. وإذا حصرنا تفكيرنا بالمناشير

اليدوية، وهي المستخدمة هنا، فإنها تتنوع كثيراً بحسب أبعاد شفراتها، وحجم

أسنانها وتباعدها عن بعضها، ومواقعها".

نظرتُ كي أتأكد مما إذا كان ما يزال يصغي إليّ. كان يصغي، وبدت عيناه

الزرقاوان مثل شعلة غاز زرقاء.

"إن كل ما قلته يعني أن المناشير تترك علامات مميزة على مواد مثل العظام. تتفاوت الأحاديث التي تتركها في عرضها، وتؤلف أنماطاً مختلفة في جدرانها وأرضياتها".

"وهكذا إذا كانت لديك عظمة، هل تستطيعين تحديد نوع المنشار الذي استخدم في قطعها؟"

"لا. لكنك تستطيع معرفة أقرب الاحتمالات لنوع المنشار الذي أحدث الحزوز".

استوعب ما قلته له، وقال: "وكيف عرفت أنه منشار يدوي؟"
"لا تعتمد المناشير الآلية على قوة العضلات، ولهذا تترك شقوقاً أكثر ثباتاً. ونلاحظ أن الخدوش الموجودة في الشقوق، والحزوز الدقيقة، تتخذ أنماطاً أكثر انتظاماً. يُلاحظ أيضاً أن اتجاه الشق يتميز بانتظام أكثر، لأنك لا ترى الكثير من التغيير في الاتجاهات مثلما يُلاحظ مع المناشير اليدوية". فكّرتُ لمدة دقيقة. "ولأن الأمر لا يستدعي الكثير من الطاقة البشرية فإن الأشخاص الذين يستخدمون المناشير الآلية يتركون الكثير من بدايات النشر الزائفة. تتميز هذه البدايات بأنها أعمق، وبالإضافة إلى ذلك فإن مناشير هؤلاء تترك شذرات منفصلة أكبر عند انفصال العظمة أخيراً، بسبب ضغطهم بشدة على المادة التي ينشرونها، أو بسبب ثقل المنشار".

"وماذا يحدث عندما يستخدم شخص قوي بالفعل منشاراً يدوياً؟"
"إنه افتراضٌ سليمٌ، تُعتبر المهارة والقوة الفردية من العوامل المهمة، لكن المناشير الآلية تترك خدوشاً في بداية عملية القطع، لأن الشفرة تبدأ بالدوران قبل حصول الاحتكاك مع المادة التي تقطعها. يحدث الأمر ذاته في المناشير الآلية عند نهاية عملية القطع". توقفتُ قليلاً، لكنه انتظرني هذه المرة. "يحدث التحول الكبير في الطاقة عند المناشير الآلية نوعاً من الصقل على السطح المقطوع، لكن المناشير اليدوية لا تفعل ذلك".

أحدثتُ نفساً عميقاً، وأنا أنتظر كي يتأكد من أنني انتهيتُ فعلاً من كلامي.
"في بداية دخول الشفرة في العظمة فإنها تُحدث أهدوداً، أو شقاً، مع زوايا في السطح الذي بدأت فيه عملية القطع. وعندما يتحرك المنشار بعمق أكثر في

العظمة، فإن الزوايا الأولية تصبح جدراناً ويُحدث الشق أرضية متميزة. إنه يشبه الخندق في هذه الحالة. وإذا ما ابتعدت الشفرة عنه، أو سُحبت قبل إكمال طريقها في العظمة، فإن الشق المتبقي يُعرف ببداية نشرٍ مزيفة. تحتوي بداية النشر المزيفة على كل أنواع المعطيات. يحدد عرض شفرة المنشار ومجموعة أسنانها عرض هذه البداية المزيفة. تأخذ البداية المزيفة أيضاً الشكل المميز في مقطعها العرضي، كما أن أسنان الشفرة قد تترك علامات على جدرانها".

"ماذا يحدث حين يتجه المنشار بشكل مستقيم خلال العظمة؟"

"إذا تقدمت عملية القطع من خلال العظمة فإن أرضية الشق تبقى مرئية جزئياً في النتوءات المنفصلة. تبقى هذه النتوءات على حافة العظمة عند نقطة انفصالها في النهاية. ونستطيع أن نرى بالإضافة إلى ذلك آثار الأسنان على السطح المقطوع".

تناولت عظمة الكعبرة العائدة إلى غاغنون، وبحثت فيها عن بداية نشرٍ جزئية زائفة، ثم قمتُ بتسليط زاوية ضوء الألياف البصرية عليها.

"انظر إلى هذه، هنا".

انحنى وركز بصره على العدسة، وعدّل درجة التركيز.

"أجل. إنني أراها".

"انظر إلى أرضية الشق. ماذا ترى؟"

"إنها تبدو متكتلة".

"صحيح. إن تلك الكُتل هي بمثابة جزرٍ عظمية، ووجودها يعني أن أسنان المنشار موجودة بزوايا متناوبة مع شفرة المنشار. يتسبب نوع هذه المجموعة في إحداث ظاهرة تدعى انجراف الشفرة".

رفع رأسه عن عدسة المجهر ونظر إليّ بشرود. ترك إطار العدسة آثار حلقتين مزدوجة على وجهه، وبدت كأنها حزوؤٌ ظهرت على وجه سباح يضع نظارة ضيقة على وجهه.

"عندما يبدأ السنّ الأول بالقطع في العظمة فإنها تحاول أن تتوازى مع سطح الشفرة. يبحث هذا السنّ عن خط المنتصف، وتماشى الشفرة مع هذه المحاولة. تحاول العظمة أن تفعل الشيء ذاته عندما تدخل السنّ الثانية، لكن هذه السنّ تميل

إلى الجهة المعاكسة، وتكثيف الشفرة مع هذا الوضع. تحدث العملية ذاتها مع دخول كل سنّ، وهكذا تتغيّر القوى الفاعلة على الشفرة بشكل مستمر. تقوم الشفرة نتيجةً لذلك بالتحرك إلى الخلف وإلى الأمام في الشقّ. وتنحرف مجموعة الأسنان المصفوفة بشكل واسع، إلى درجة أنّ المادة نفسها تُترك في حط منتصف الشق. تبقى هذه المادة على شكل جزر عظمية، وكتل".
"أي أنّ ذلك يدلّ على أنّ الأسنان مائلة".

"تدلّ على أكثر من ذلك في الواقع. إنّ كلّ تغيّر في اتجاه السن ينتج عن قدوم سن جديد، أما المسافة ما بين هذه التغيّرات في الاتجاه فتدلّ على المسافة الموجودة بين الأسنان. تمثّل الجزر العظمية أوسع نقاط الانحراف، ولذلك فإنّ المسافة ما بين كل جزيرة وجزيرة تساوي المسافة الفاصلة بين سنّ وسنّ. دعني أريك شيئاً آخر".
سحبتُ عظمة الكعبرة، ثم وضعتُ عظمة الزند بحيثُ أضيء سطح القطع في نهايته عند الرسغ، ثم تراجعْتُ من أمام المجهر.

"أستطيع رؤية تلك الخطوط المتموجة على سطح القطع؟"

"أجل. تبدو نوعاً ما كلوحة غسل، لكنها كثيرة الانحناءات".

"تدعى توافقيات. يترك انحراف الشفرة هذه القمم والوديان على جدار القطع أثناء مغادرتها الجزر العظمية على الأرضيات. تتوافق القمم والجزر مع النقاط الواسعة في الانحراف، أي تتوافق الوديان والمسطحات الضيقة للأرضية مع نقاط الانحراف عندما تكون الشفرة أقرب ما يكون إلى حط الوسط".

"وهل تستطيعين قياس هذه القمم والوديان مثلما تفعلين مع الجزر؟"

"بالضبط".

"إذاً لماذا لا أستطيع رؤية أي شيء أسفل الشق؟"

"يحدث الانحراف غالباً في بداية عملية القطع أو في نهايتها، أي عندما تنحرف الشفرة وتخرج من العظمة".

"يبدو هذا معقولاً". رفع رأسه. ارتسم منظر النظارة الضيقة على وجهه مجدداً.

"هل يمكنك قول أي شيء عن الاتجاه؟"

"أتعني حركة الشفرة، أو تقدم الشفرة؟"

"وما هو الفرق؟"

"يعتمد اتجاه الحركة على ما إذا كانت الشفرة تقطع أثناء الدفع أو السحب. صُممت معظم المناشير الغربية كي تقطع أثناء مرحلة الدفع، لكن بعض المناشير اليابانية تقطع أثناء عملية السحب. تستطيع بعض هذه المناشير أن تنشر بالاتجاهين. أما تقدّم الشفرة فيعتمد على اتجاه تحرك الشفرة خلال العظمة".

"هل تستطيعين تحديد الفرق بينهما؟"

"أجل".

فرك عينيه، وحاول أن ينظر إليّ في الوقت ذاته، وسألني: "إذاً، ماذا لديك؟" تأخرتُ بالإجابة، وبدأت أفرك منطقة أسفل ظهري، ثم تناولتُ لوح كتابتي وبدأتُ أقلب بين أوراق ملاحظاتي، واخترتُ النقاط التي تهمني.

"تمتلك عظام إيزابيل غاغنون بدايات نشرٍ قليلة جداً. يبلغ قياس عرض الشقوق حوالي 0.05 بوصة وتتميز بوجود أرضيات عميقة في بعض الأحيان. تتواجد التوافقيات أيضاً، بالإضافة إلى جزر العظام. نستطيع قياس النوعين". قلبتُ صفحة. "توجد أيضاً بعض الكسرات التي تدل على انتهاء عملية القطع".

انتظرني حتى أتابع حديثي. لم أتابع، فقال: "ماذا يعني كل ذلك؟" "أعتقد أننا أمام منشار يدوي يتميّز بأسنان متناوبة، ولعله من نوع عشرة TPI".

"أتقولين TPI؟"

"إنها تعني الأسنان في البوصة الواحدة؟ أي أنّ المسافة بين السنّ والسنّ تبلغ عُشر بوصة. ويبدو أنّ الأسنان هي من نوع الإزميل، أما المنشار فيقطع أثناء حركة الدفع".

"آه، فهمت".

"أما انحراف الشفرة فهو في حدّه الأقصى، بالإضافة إلى وجود الكثير من الشذرات عند انتهاء عملية القطع. يبدو لي أنّ الشفرة تستطيع أن تقطع بكفاءة عن طريق حفر المادة وإزالتها كلياً. أعتقد أنّ المنشار مصمّم على شاكلة منشار حديديّ كبير جداً. وتدّل الجزر العظمية على أنّ مجموعة الأسنان متباعدة، وذلك من أجل تجنب الالتواء".

"وإلى أين يوصلنا ذلك؟"

كنتُ متأكدة جداً من الأداة التي سببت هذه الشقوق، لكنني لم أكن مستعدةً لإعطاء هذه المعلومات لأحد.

"أرغبُ بالتحدث مع شخصٍ آخر قبل أن أتوصل إلى استنتاجٍ نهائي".
"هل من شيءٍ آخر؟"

فتحتُ الورقة الأولى من أوراق ملاحظاتي، ولخصتُ الملاحظات التي توصلتُ إليها.

"تتواجد البدايات الزائفة على الأسطح الأمامية من العظام الطويلة. وتتواجد الشذرات المنفصلة على الأسطح الخلفية. يُحتمل أن يعني ذلك أنَّ الجثة كانت تستلقي على ظهرها أثناء عملية تقطيعها. قُطِع الذراعان عند الكتفين، كما قُطعت اليدان. فُصلت الساقان عند منطقة الوركين، وقُطعت مفاصل الركبتين. قُطع الرأس عند مستوى الفقرة العنقية الخامسة. فُتح القسم الأعلى من الجذع عن طريق جرحٍ عامودي شقَّ طريقه إلى العمود الفقري".

هزَّ رأسه: "يبدو أنَّ الرجل ماهرٌ فعلاً باستخدام المنشار".

"لكن الأمر أكثر تعقيداً من هذا".

"ماذا تعنين بأنه أكثر تعقيداً؟"

"استخدم السكين أيضاً".

عدلتُ موضع عظمة الزند، وغيّرتُ درجة التركيز: "ألقي نظرةً أخرى".

انحسني فوق المجهر. لم أغفل عن ملاحظة مؤخرته الرائعة المشدودة. يا إلهي،

برينان...

"لست مضطراً أن تضغط بهذه القوة على العدسة".

استرخت كتفاه قليلاً، وغيّرت وقفته.

"أترى الحزوز التي كنا نتحدث عنها؟"

"آه - ها".

"انظر الآن إلى ناحية اليسار. هل ترى ذلك الجرح الضيق؟"

بقِيَ صامتاً للحظة وعدلتُ درجة التركيز: "يبدو أقرب إلى شكل الإسفين،

كما أنه ليس مربعاً، وليس عريضاً".

"أنتِ على حق. نتج هذا الجرح عن سكين".
انتصب واقفاً. ارتسمت آثار دائرتين مجدداً على وجهه.
"تتخذ علامات السكين نمطاً محدداً. تتوازي معظم هذه العلامات مع بدايات
النشر الزائفة، وتتقاطع مع بعضها. إنه النوع الوحيد الذي ألاحظه في مفاصل
الوركين، وفي الفقرات".
"وماذا يعني ذلك؟"

"تتواجد بعض آثار السكين فوق آثار المنشار، وبعضها يتواجد من تحتها،
ويدلنا ذلك على أن القطع جاء قبل عملية النشر وبعدها. أعتقد أنه قطع اللحم
بالسكين، ثم عمد إلى فصل المفاصل بالمنشار، ثم أنهى عمله بالسكين، وربما
استخدمها لفصل أي عضلات أو أوتار قد تكون بقيت تربط العظام مع بعضها.
بدأ الرجل عمله بالمفاصل، ما عدا منطقتي الرسغين. عمد الرجل، لسبب ما، إلى
نشر اليدين فوق الرسغين، ثم كان يُنهي عمله في نشر عظام الذراعين السفلي".
أوماً.

"قطع الجرح رأس إيزابيل غاغنون، وفتح صدرها مستخدماً السكين فقط. لم
أشاهد أي آثار منشار على أي فقرة من الفقرات".
حيم الصمت للحظات قليلة، وتأملنا قليلاً في هذه النقطة. أردته أن يستوعبها
قبل أن أفجر قنبلتي.

"أجريتُ فحصاً على عظام تروتييه أيضاً".
التقت العينان الزرقاوان بعيني. بدا وجهه النحيل متوتراً، وممطوطاً، أثناء
تحضره لتلقي ما عليّ قوله.
"جاءت النتائج متطابقة".

بلع ريقه وأخذ نفساً عميقاً. تكلمم بهدوء عميق: "لا بد أن الفريون هو الذي
يجري في شرايين هذا الرجل".

ابتعد رايان عن الطاولة في اللحظة ذاتها التي أطل فيها البواب برأسه من خلال
السياب. استدار كلانا كي ننظر إليه، لكنه ما لبث أن انصرف بسرعة، ما إن رأى
تعايير وجهينا التعيسة. التقت عينا رايان بعيني مجدداً. لاحظتُ أن عضلات فكّه قد
توترت.

"اعرضي هذه المعطيات على كلوديل. أعتقد أنك ستقنعينه".
"يتعين عليّ أن أتأكد من بعض الأمور أولاً. سأقصد كايبتان كولوجينال
(النقيب اللطيف) بعد ذلك".

غادر من دون أن يقول وداعاً. أُنهِتُ إعادة وضع العظام في صناديقها،
وتركتُ الصناديق على الطاولة، ثم أفلتُ باب المختبر ورائي. لاحظتُ، عندما
عبرتُ قاعة الاستقبال الرئيسية، أنّ عقارب الساعة الموجودة فوق أبواب المصاعد
تشير إلى 6:30 مساءً. وجدتُ نفسي مجدداً مع فريق التنظيف. أدركتُ أنّ الوقت
قد تأخر لتنفيذ الأمرين الأخيرين اللذين عزمْتُ على إلهائهما، لكنني قرّرتُ أن
أحاول على أي حال.

مررتُ من أمام مكنتي، ثم نزلتُ كي أعبر الممر الأخير الموجود على جهة
اليمين. شاهدتُ لوحةً كُتِبَ عليها المعلوماتية، وكُتِبَ تحتها الاسم لوسي دومون
بكل وضوح.

تأخرت المعلوماتية بالوصول إلى مختبرات الطب الشرعي ومختبرات العلوم
القضائية، إلى أن اتصلتُ بشبكة الإنترنت. بلغت المعلوماتية أقصى حدّها في
خريف العام 1993، وبدأت المعطيات بالتدفق إلى نظام الكمبيوتر. نستطيع الآن أن
نتبع القضايا الجديدة التي يتم تنسيقها مع الملفات الرئيسية. أما قضايا الأعمام
الماضية فيتم إدخالها تدريجياً في قاعدة البيانات. بلغت مؤسسة الاستشارات
القضائية عصر الكمبيوتر بقيادة لوسي دومون.

وجدتُ بابها مغلقاً. طرقتُ الباب مع معرفتي أنني لن ألقى جواباً. غادر
الجميع مكاتبهم بحلول الساعة 6:30 مساءً، حتى لوسي دومون.

مشيتُ بتثاقل نحو مكنتي. تناولتُ دليل عضويتي في الأكاديمية الأميركية
للعلوم العُدلية. وجدتُ الاسم الذي كنتُ أبحثُ عنه. نظرتُ إلى ساعتني، وبدأتُ
بالحساب بسرعة. لا بد أنّ الساعة هناك تشير إلى الرابعة والأربعين دقيقة فقط. أو
لعلها الخامسة والأربعين دقيقة. هل تتبع أو كلاهما التوقيت الجبلي، أم توقيت
المنطقة الوسطى؟

"اللعة!" قلتُ وأنا أنقر رمز المنطقة ورقمها. أجابني صوت شخص، فطلبتُ
التحدث مع آرون كالفرت. قيل لي بطريقةٍ وديةٍ، وبصوتٍ خارجٍ من الأنف،

إنني أتحدث مع الخدمة الليلية، لكنهم مستعدون لنقل رسالة. تركتُ اسمي ورقمي، ثم أنهيتُ المكالمة من دون أن أعرف منطقة التوقيت التي أتحدث معها. لم تعجبني طريقة سير الأمور. توقفتُ للحظة، وأسفتُ لأنني لم أحزم أمري في وقت أبكر من اليوم. توجهتُ بحماس نحو جهاز الهاتف مجدداً. طلبتُ رقم غايي، لكنني لم ألقَ جواباً، وحتى الآلة المحيية كانت مفصولة. حاولتُ الاتصال بمكتبها في الجامعة، بدأ الخط بعد أربع رثات بإعطاء إشارة مشغول. كنتُ على وشك قطع الاتصال عندما سمعتُ صوت شخص قال إنه من مكتب الإدارة. أفادني بأنهم لم يروها. أضاف أنها لم تأخذ رسائلها البريدية خلال الأيام القليلة الماضية، وأن هذا ليس مستغرباً في فصل الصيف. شكرتُ الرجل ثم أنهيتُ المكالمة.

"يا للمصادفة!" لم أوجه كلامي إلى شخص معين. لم أوفق بالاتصال بلوسي، ولا آرون ولا غايي. يا الله، أين أنت يا غايي؟ لا أريد أن أفكر بالمكان الذي يُمكن أن تتواجد فيه.

نقرتُ النشافة بقلم.

"بعيدة وعالية".

نقرتُ أكثر.

أضفتُ متجاهلةً الاستعارة: "رابعة وطويلة". نقرتُ مجدداً، وكررتُ ذلك مرةً أخرى.

"D.Q".

تراجعتُ إلى الخلف وقذفتُ بالقلم في الهواء.

"غلطة مزدوجة".

أمسكتُ بالقلم وقذفتُ به في الهواء مجدداً.

"يا للخطأ الشخصي!"

انطلق القلم مجدداً في الهواء.

"حان الوقت للتحوّل إلى لعبة جديدة".

أمسكي بالقلم. اقدفيه.

"حان الوقت للانطلاق والإصرار".

أمسكتُ بالقلم واحتفظتُ به. بدأتُ مجدداً. نظرتُ إلى القلم. انطلقني. هذا كل شيء.

"حسناً". قلتُها وأرجعتُ مقعدي إلى الوراء قبل أن أتناول محفظتي.

"جرّبي الإرسال من الجهة الأخرى".

علّقتُ محفظتي على كتفي وأطفأتُ النور.

"سأقذفها في وجهك يا كلوديل!"

14

حاولتُ استئناف مناجاتي مع نفسي عندما ركبتُ سيارتي المازدا. لم ينجح الأمر. جعلتني حالة ترقبي للخطط التي أعدتها للمساء متوترةً جداً، بشكلٍ معني من التفكير المجدي. قدتُ سيارتي نحو شقتي، ولم أتوقف إلا عند كوجاكس كي أتناول طبق السوفلاكي.

تجاهلتُ تحية بيردي المعاتبية عندما وصلتُ إلى منزلي. توجهتُ مباشرةً إلى الثلاجة وتناولتُ زجاجة كولا دايت. وضعتها على الطاولة إلى جانب الكيس الملوّث بالدهن الذي يحتوي عشائي، ثم ألقيتُ نظرةً على الآلة المحيية. حدّقت الآلة بي بدورها صامتةً، ومن دون ضوءٍ وامض. لم تتصل بي غايي. خيم من حولي إحساسٌ بالقلق، وانطلق قلبي في أداء معزوفة سريعة مثل قائد فرقة موسيقية.

توجهتُ إلى غرفة نومي ورحتُ أفتش في خزانتي الموجودة قرب سريري. كان الشيء الذي أبحث عنه قابعاً في الدرّج الثالث. نقلته إلى غرفة الطعام، ونشرته فوق الطاولة، ثم فتحتُ زجاجة الكولا وطبق السوفلاكي. لم ينجح الأمر. دفع منظر الأرزّ المغطى بالدهن، واللحم المطبوخ كثيراً، معدتي إلى الانسحاب مثلما يفعل سرطان بحري. فتناولتُ شريحة من الخبز العربي.

حدّدتُ الشارع الذي أسكنه على الخريطة، وعيّنتُ طريقاً يؤدي إلى خارج منطقة وسط المدينة سنتر فيل، ويمر عبر النهر حتى الشاطئ الجنوبي. طويتُ الخريطة التي تُظهر مدينتي سان لامبرت ولانغويل، بعد أن وجدتُ الحي الذي أريده.

جرّبتُ قزمة أخرى من **السوفلاكي** أثناء تعرّفي على معالم المدينة، لكن معدتي رفضت التخلي عن سلبيتها، لذلك لم تقبل أي دفعة جديدة من الطعام. اقترب **بيردى** مني لمسافة سبعة سنتمترات. دفعتُ وعاء الألومينيوم في اتجاهه وقلتُ له: "استمتع كما يحلو لك". بدا مندهشاً. تردّد قليلاً، ثم تحرك تجاهه. لم يتأخر في البدء بالخرخرة.

وجدتُ مصباحاً يعمل على البطارية، وزوجاً من قفازات الحديقة، وعلبة من طارد الحشرات، في الخزانة الموجودة في القاعة. وضعتُ كل هذه الأغراض، بالإضافة إلى الخريطة، ورزمة من الأوراق، ولوح كتابة، في حقيبة ظهري. بدلتُ ملابسني، وارتديتُ بلوزةً، وسروال من الجينز، وانتعلتُ حذاءً رياضياً، ثم جمعتُ شعري في جديلة، وأحكمتُ ربطها. تناولتُ، بعد فترة تفكير قصيرة، قميصاً من الجينز ذات كَمَين طويلين وحشرتها في الحقيبة. أمسكتُ رزمة الأوراق الموجودة قرب الهاتف وكتبتُ: "ذهبتُ كي أتحمق من علامة X الثالثة؛ سان لامبرت". نظرتُ إلى ساعتني وكانت تشير إلى 7:45 مساءً. أضفتُ التاريخ والساعة، ثم وضعتُ رزمة الأوراق على طاولة غرفة الطعام. لعل ما فعلته لم يكن ضرورياً، لكنني بهذا أكون قد تركتُ أثراً على الأقل يدل على مكان تواجدي في حال وقوعي في المتاعب.

وضعتُ الحقيبة على كتفي، ثم نقرتُ مفتاح نظام الأمان في شقتي، لكن في غمرة حماسي نقرتُ الأرقام غير الصحيحة، فنقرتها من جديد. أخطأتُ في نقر الأرقام للمرة الثانية. توقفتُ قليلاً، وأغمضتُ عيني، ثم ردّدتُ كل كلمة من عبارة **أتساءل عما سيفعله الملك هذه الليلة**. اعتدتُ للجوء إلى هذا التمرين الذهني كي أتسلّى. تعلّمتُ هذه الحيلة عندما كنت في المدرسة الثانوية، ونجح الأمر معي كالعادة. ساعدني هذا التمرين، الذي كنت أمارسه في أوقات الاستراحة في مدرسة **كاميلوت**، على استعادة سيطرتي على الوضع. نقرتُ المفتاح من دون خطأ هذه المرة، ثم غادرتُ الشقة.

خرجتُ من المرآب، وقدتُ السيارة حول المجمع السكني، ثم سلكتُ طريق سانت كاثرين الذي يقع إلى الشرق من **دي لامونتان**، ثم انعطفتُ بسيارتي جنوباً نحو **جسر فيكتوريا**، وهو واحد من ثلاثة جسور تصل ما بين جزيرة **مونتريال** وبين الشاطئ الجنوبي لنهر سان لوران. لاحظتُ أنّ الغيوم التي كانت ترحف في

سماء المساء تتجمع الآن للقيام بعمل جدّي ربما. ملأت هذه الغيوم الآفاق، وبدت داكنة ومنذرةً بالسوء، فبدأ النهر عدائياً بمياهه الرمادية.

تمكّنتُ من رؤية جزيرة نوتردام، وجزيرة سانتا هيلينا الموجودتين أعلى النهر. شاهدتُ أيضاً جسراً جاك كارتيه مقوساً فوقهما. ربضت الجزيرتان الصغيرتان في حالة تجهّم وظلمة حالكة. لا بد من أن الجزيرتين نبضتا بالحركة والحياة خلال معرض إكسبو 67، لكنهما ركنتا للهدوء الآن، وخيم الصمت عليهما، واستكانتا للخموم، فبدتا مثل أطلال حضارة قديمة.

تقع جزيرة دي سويروس وجزيرة ناذرات العفة أسفل النهر. كانت الجزيرتان ملكاً لدار العبادة ذات يوم، لكن جزيرة ناذرات العفة هي الآن ملك المواطنين الأصليين (السيوي)، وهي عبارة عن تجمعات من الشقق، وملاعب الغولف، وملاعب كرة المضرب، وبرك السباحة، ويبرز فيها جسر شامبلين، وهو شريان الجزيرة الحيوي الذي يصلها مع المدينة. ومضت أضواء الأبراج السكنية العالية، وكأنها تتنافس مع الأضواء المتألّثة في البعيد.

وصلتُ إلى الشاطئ الجنوبي، وسرتُ في بولفار السير ويلفريد لورييه. تغيّرت ألوان السماء المسائية أثناء عبوري النهر، فعكست اللون الأخضر المخيف. أوقفتُ السيارة كي أتفحص الخريطة. حدّدتُ موقعي مستخدمةً الأشكال الزمردية الصغيرة التي تمثل المتنزه وميدان سان لامبرت للغولف. وضعتُ الخريطة إلى جانبي على المقعد. أضاءت ومضة من البرق سماء الليل في الوقت الذي أطلقتُ فيه عنان محرّك سيارتي. ازدادت سرعة الرياح، وبدأت أولى قطرات المطر بالتناثر على زجاج سيارتي الأمامي.

شققتُ طريقي عبر الظلمة المخيفة التي أُنذرت بقدوم العاصفة، فأبطأت سير السيارة عند كل تقاطع كي أتفحص علامات الشوارع. تبعْتُ الطريق الذي رسمته في ذهني، وانعطفتُ إلى اليسار من مكاني هنا، وإلى اليمين هناك، ثم انعطفتُ يساراً مرتين...

ركنتُ سيارتي إلى جانب الطريق بعد مرور عشر دقائق. بدت ضربات قلبي مثل ضربات كرة الطاولة أثناء مباراة محتدمة. فركتُ راحتيّ يديّ الرطبتين على سروالي الجينز، ونظرتُ من حولي.

اكتسبت السماء لوناً أكثر قتامةً، وأصبحت الظلمة أكثر شمولية. مررتُ من أمام أحياء سكنية تتألف من منازل صغيرة، وشوارع تصطف الأشجار على جانبيها، وقد وصلتُ إلى حافة مجمعٍ صناعي مهجور. سبق لي أن لاحظتُ أنه موجود على الخريطة بشكل هلال رمادي صغير. وجدتُ نفسي وحيدةً بالكامل. شاهدتُ صفّاً من المستودعات المهجورة التي تقع إلى يمين الشارع، والتي أضاء مصباح الشارع الوحيد غير المعطل أشكالها الخالية من الحياة. شاهدتُ معالم البناية الأقرب لمصباح الشارع هذا بوضوح تام، وقد بدت مثل دعامة في مسرحٍ تنيره أنوار الأستديو، بينما بقيت البنايات المحاورة تحت الظلال الحالكة، أما البنايات البعيدة فوَقعت في قبضة الظلمة الكاملة. حملت بعض البنايات لوحات تعرضها للبيع أو للإيجار، بينما لم تحمل بنايات أخرى أي لوحات، وكأن المالكين قد فقدوا الأمل في تأجيرها. لاحظتُ أنّ زجاج بعض النوافذ مكسور، وأنّ مواقف السيارات هي في وضعٍ سيئٍ وتنتشر فيها الأنقاض والمهملات. بدا المكان بأكمله مثل صورة بالأبيض والأسود عن لندن أثناء تعرضها للقصف في الحرب العالمية الثانية.

لم يكن المنظر الذي شاهدته إلى يساري أقل قتامةً. لم أشاهد شيئاً غير الظلمة التامة. وتطابق هذا الفراغ مع المساحة الملونة باللون الأخضر، والتي لم تحمل اسماً في الخريطة، أي في المكان الذي وضع فيه سان جاك علامة X الثالثة. توقعتُ أن أجد مقبرةً في هذا المكان، أو حتى متنزهاً صغيراً.

اللعنة.

وضعتُ يديّ على عجلة القيادة، وحدثتُ في الظلمة.

والآن ماذا؟

في الواقع، لم أخطط لهذه المرحلة.

السمع البرق، وأضياء الشارع بأكمله للحظة من الزمن. طار شيء ما من عتمة الشارع واصطدم بزجاج سيارتي الأمامي. قفزتُ من مقعدي، وأطلقتُ صرخةً مكتومةً. علق ذلك المخلوق على الزجاج لبرهة من الزمن، وراح يرسم بضرباته اليائسة آثاراً على الزجاج، ثم طار ذلك الراكب العصبي في عتمة الليل.

هدّئي من روعك يا بربنان. خذي نفساً عميقاً. تصاعد مستوى قلقي حتى

بلغ ما بعد السحاب.

مددتُ يدي إلى حقيبتِي. ارتديتُ قميصي الكتانية السميكَة، ووضعتُ القفازين في جيبي الخلفي، ودسستُ المصباح الذي يعمل على البطارية في حزام حصري، ولم أترك في الحقيبة سوى دفتر ملاحظاتي وقلمي.

أبلغتُ نفسي بأنني لن أكون مضطرة لتدوين الملاحظات.

فاحت رائحة المطر الممتزج مع رائحة الإسمنت الحار في هواء الليل، وانهمكت الرياح بملاحقة بعض الأنقاض والمهملات على طول الشارع، وبعثت أوراق الأشجار في الهواء على شكل إعصار قبل أن تلقيها أرضاً في أكوامٍ وتعيد بعثرتها من جديد. عبثت الرياح بشعري وتمسكت بثيابي، وطيرت أطراف قميصي، فبدت وكأنها معلقة على حبل غسيل. أصلحتُ وضع قميصي وحملتُ المصباح بيدي. لاحظتُ أن يدي أخذت ترتعش.

وجّهتُ ضوء المصباح كي ينير الشارع من أمامي. عبرته، ثم تجاوزتُ الرصيف إلى ممر عشبي ضيق. اكتشفتُ بأنني محقة حين شاهدتُ أمامي سياجاً حديدياً صديئاً بعلو مترٍ وثمانين سنتيمتراً تقريباً، ويحيط بكامل قطعة الأرض. لاحظتُ على الجهة البعيدة من السياج وجود أشجارٍ وشجيراتٍ متشابكة، وهي التي شكّلت غابةً بريةً أوقف امتدادها السياج الحديدي. وجّهتُ ضوء المصباح كي ينير المساحة من أمامي، وحاولتُ النظر من خلال الأشجار لكنني لم أستطع تحديد مدى امتدادها، أو ماذا يتواجد من بعدها.

سرتُ مع السياج الذي تداخلت من خلاله الأغصان التي تكفلت الرياح برفعها، وتراقصت الظلال عبر حزمة الضوء الدائرية الصفراء المنطلقة من مصباحي. تصادمت قطرات المطر مع أوراق الأشجار من فوق رأسي، لكن قطرات قليلةً نجحت في التسلّل لتصدم وجهي. أدركتُ أنّ انهمار المطر لم يعد بعيداً. اجتاحتني موجة ارتعاش نتيجة توقعي انخفاضاً في درجة الحرارة، والبيئة المخيفة التي تحيط بي. توقعتُ المزيد من الأمرين، ولعنتُ نفسي لأنني جلبتُ علبة الرذاذ الطارد للحشرات معي، بدلاً من جلب سترةٍ تقيني من البرد والمطر.

عبرتُ ثلاثة أرباع قطعة الأرض قبل أن أصل إلى منخفض. سلّطتُ نور المصباح على ما بدا لي أنه طريق، أو ممر خدمات. لاحظتُ أنّ هذا الممر يُفضي إلى

مساحة خالية من الأشجار على بُعد عدة أمتار. شاهدتُ مجموعةً من البوابات المغلقة بسلسلة حديدية وقفلٍ يعمل بحسب الأرقام.

بدا أن هذا الطريق لم يُستخدم حديثاً. نمت الحشائش البرية من خلال الحصى، وامتدّ حزام النفايات من دون انقطاع إلى ما بعد البوابة. وجّهتُ ضوء المصباح من خلال الفتحة، لكن الضوء لم يخترق العتمة إلا لمسافة قصيرة. بدا الأمر مثل استخدام مصباح بيغ من أجل إضاءة قبة السماء.

تقدمتُ ببطء لمسافة ثلاثين ياردة أخرى أو نحوها، أي حتى وصلتُ إلى طرف قطعة الأرض. خلّتُ أن الأمر استغرقني عقداً من الزمن. نظرتُ حولي عندما وصلتُ إلى الزاوية. انتهى الشارع الذي سرّرتُ فيه عند تقاطعٍ بشكل حرف T. نظرتُ من خلال الظلمة إلى الجهة البعيدة من التقاطع، والتي كانت شارعاً مظلماً ومهجوراً مثل الشارع الذي أسير فيه.

تمكّنتُ من رؤية مساحة واسعة معبّدة بالإسفلت، ولاحظتُ السياج الذي يحيط بها ويأخذ شكل حلقات معدنية. توقعتُ أن تكون موقفاً للسيارات العائدة لموظفي مصنع، أو مستودع. بدا هذا المجمع المهمل مضاعفاً بمصباح كهربائي واحد معلق في قوس مهمل فوق عمود هاتف. ارتفع غطاء معدني فوق المصباح الذي يرسل أضواءه عليّ مسافة ستة أمتار تقريباً. شاهدتُ الأنقاض المنتشرة فوق الرصيف الخالي، ورأيتُ ظلالاً تنتشر هنا وهناك لمنازل صغيرة، أو لأكواخ تُستخدم كمستودعات.

أصغيتُ لبرهة. سمعتُ صوتاً غريباً. هل أسمع صوت الرياح؟ تساقطت قطرات المطر، ومن بعيد تنهى إلى أسماعي قصف الرعد، وكذلك سمعتُ دقات قلبي القوية. لم يتسرّب من ضوء مصباح الشارع إلا القدر الذي بدّد من الظلمة ما يكفي لإظهار يدي المرتعشتين.

وبّختُ نفسي قائلة: "حسناً يا برينان، تغلّبي على خوفك، فلا مكاسب من دون ألم".

قلتُ بصوت عال هذه المرة: "همم. انطلاقة جيدة". بدا صوتي غريباً حتى بالنسبة لي. كان مكتوماً، وكأن الليل يتلعّع كلماتي قبل وصولها إلى أذني.

رجعتُ إلى السياج الذي استدار مع زاوية قطعة الأرض بزاوية حادة إلى اليسار، فتوازى بذلك مع الشارع الذي وصلتُ إليه للتو. استدرتُ معه لأكتشف

أنّ السياج ينتهي بجدار حجريّ على بعد ثلاثة سنتمترات. تراجعْتُ قليلاً، ثمّ سلّطْتُ الضوء على الجدار. قدّرتُ علوَّ الجدار الرمادي اللون بحوالى المترين والنصف، ولاحظتُ أنه ينتهي بصف من الأحجار الصخرية التي تبعد عن مسطح الجدار مسافة خمسة عشر سنتمترًا. امتد هذا الصف على طول الجدار الموازي للشارع، ولاحظتُ وجود فتحةٍ في منتصف المسافة، وبدا لي أنّها مدخل قطعة الأرض.

تبعْتُ مسار الجدار، ولاحظتُ وجود أوراق مبتلة، وقطع الزجاج المنكسر، وعلب الألومنيوم التي تجمعت عند قاعدته. شاهدتُ أنواعاً كثيرة من الأشياء التي لم أكثر بتحديد نوعها.

توقفتُ الجدار بعد أن سرتُ حوالى ثمانية عشر متراً، وابتدأت عندها الشبكة الحديدية الصدئة مجدداً. شاهدتُ المزيد من البوابات ولاحظتُ أنّها مقفلة مثلما كانت المجموعة الموجودة على المدخل الجانبي. قرّبتُ ضوء المصباح كي أتمكّن من رؤية السلاسل والقفل، فالتمعت أمامي السلسلة المعدنية. بدت هذه السلسلة جديدة.

أعدتُ المصباح إلى حزام خصري، وجذبتُ السلسلة بقوة، لكنها بقيت صامدة. حاولتُ مجدداً ولقيتُ النتيجة ذاتها. تراجعْتُ قليلاً، وتناولتُ المصباح، ثمّ بدأتُ بتمرير حزمة الضوء ببطء إلى أعلى القضبان الحديدية وأسفلها.

تعلّق شيء ما بساقيّ في تلك اللحظة بالذات. أمسكتُ بكاحلي، لكن المصباح سقط مني. جعلني عقلي أرى عيوناً حمراء، وأسناناً صفراء، لكنني لم أشعر إلا بكيس بلاستيكيّ في يدي.

"اللّعنة!" خرجت الكلمة من فمي الجاف، في حين تزايدت الرعشة في يديّ عما كانت عليه من قبل، لكنني تمكّنتُ من التخلص من الكيس. هجوم واعتداء من قبل كيس فارمابري. قذفتُ بالكيس بعيداً فراح يتقلّب في الهواء. سمعتُ صوت تقلّب الكيس في الهواء أثناء بحثي عن المصباح الذي ضاع عندما اصطدم بالأرض. وجدتُ المصباح لكنه رفض العمل. لم تنجح محاولاتي لجعله يعمل في البداية، لذلك رحّتُ أضربه براحة يدي، ثمّ أضاء فجأة، لكنه ما لبث أن انطفأ. طرقتُ المصباح مرةً أخرى فأضاء، لكن النور بدا مرتعشاً ومتذبذباً. فقدتُ ثقتي بإمكانية عمل المصباح لمدة طويلة.

سرتُ لبرهة في الظلام، وفكرتُ بخطوتي التالية. هل أريد فعلاً أن أمضي قدماً بمشروعي هذا؟ وماذا أمل، بحق الله، أن أحقق من وراءه؟ بدا لي أن الذهاب إلى المنزل، وأخذ حمامٍ ساخن، هو أفضل ما يمكنني عمله.

أغمضتُ عينيّ وركّزتُ على الأصوات التي أسمعها، وجهدتُ كي أتبيّن علاماتٍ تنم عن وجود بشريّ من بين الجلبة التي أسمعها. أعدتُ في ما بعد تذكّر هذا المشهد في ذهني وتساءلتُ عما إذا كنت قد غفلتُ عن ملاحظة أي شيء. هل فعلاً لم أنتبه إلى انسحاق الدواليب على الحصى، أو صرير مفصّلة باب، أو هدير محرّك سيارة. هل تكاسلتُ عن سماع كل هذه الأصوات؟ أم لعل العاصفة كانت جزءاً من المؤامرة. كل ما أعرفه هو أنني لم ألحظ شيئاً.

أخذتُ نفساً عميقاً ورفعتُ كتفيّ، ثم حدّقتُ في الظلمة حتى إلى ما وراء الجدار. ذكّرني هذا بزيارتي ذات مرة إلى مصر. زرتُ مقبرة قديمة في وادي الملوك وحدث أن انطفأت الأنوار. أذكر أنني وقفتُ في ذلك الحيز الصغير. أحسستُ أنّ الظلمة أحاطت بي، ولم يكن هناك من وجود لأي مصدر من مصادر النور. شعرتُ أنّ العالم بأكمله قد انطفأ من حولي. عاودتُ هذا الشعور في الوقت الذي رحّتُ فيه أعبتُ بشيء ما وراء السياج. رحّتُ أتساءل عن من يحمل أسراراً أكثر غموضاً من الآخر؟ هل هي مقبرة الفرعون، أم الظلمة الموجودة داخل هذا الجدار؟

إنه شيء يتعلّق بعلامات X. إنه هناك. هيا.

رجعتُ إلى الورا، أي نحو الزاوية، وتقدمتُ مع السياج نحو البوابة الجانبية. كيف يمكنني فتح القفل؟ أضاء البرق المكان مثل وميض فلاش آلة التصوير. رحّتُ أحرّك الضوء فوق القضبان المعدنية وأنا أبحث عن الحل جاهدة. شممتُ رائحة الأوزون في الهواء، وشعرتُ بوخزٍ في رأسي وفي يديّ. ورأيتُ في لحظة الوميض هذه علامة إلى يمين البوابات.

سلّطتُ ضوء المصباح على هذه اللوحة المعدنية الصغيرة، فبدا لي أنّها مثبتة على القضبان المعدنية. لاحظتُ أنّ الكلمات صدئة وغامضة، لكن فحواها كان واضحاً. ممنوع الدخول. ابتعدوا. أبقيتُ ضوء المصباح مسلطاً على اللوحة، وحاولتُ قراءة الكلمات ذات الأحرف الأصغر الموجودة تحتها. ظهرت كلمة غير

واضحة قبل كلمة مونتريال. بدت وكأنها كلمة أرشيدوق. هل هي أرشيدوق مونتريال؟ لا أظن بأنه يوجد شخص اسمه أرشيدوق مونتريال.

حدقتُ في الدائرة الصغيرة المرسومة تحت الكتابة. مسحتُ بعض الصدأ بظفر إهامي. بدأت ملامح ما يشبه الشعار بالظهور، وكان أقرب ما يكون إلى رمز معين لم يكن غريباً عني تماماً. تذكرتُ كل شيء. تذكرتُ أرشيدوقية. أرشيدوقية مونتريال. إن ملكية هذه الأرض تعود لدار العبادة، ولعها ملكية مهجورة من تلك الملكيات التي كانت منتشرة ذات يوم في مونتريال.

حسناً يا برينان، أنت تتواجدان الآن ضمن حماية أرضٍ تعود لدار العبادة أي في ملكية جماعية. كيف خطرت في بالي هذه الشعارات؟ خطرت في بالي مع تصاعد دفعات الأدرينالين في دمي والتي أعقت إدراكي مكان تواجدي، وهو الأمر الذي بعث الرهبة في أعماقي.

أعدتُ مصباحي إلى مكانه في سروالي الجينز، ثم أمسكتُ السلسلة بيدي اليمنى، وأمسكتُ معدناً صديئاً بيدي اليسرى. كنتُ على وشك أن أبدأ السحب، لكنني لاحظتُ عدم وجود مقاومة من جهة السلسلة التي بدأت بالانزلاق حلقةً فحلقة من خلال القضبان. التفتُ السلسلة حول رسغي، وبدت مثل أفعى التفتُ حول غصن شجرة. تركتُ البوابة وأخذتُ ألف السلسلة بيديّ الاثنتين. لم تحرر السلسلة بالكامل فتوقفتُ عندما علقت بين القضبان. نظرتُ غير مصدقة إلى السلسلة التي علقت بآخر حلقة، لذلك بقيت مقفلة.

فتحتُ القفل ثم سحبتُ بقية السلسلة من خلال القضبان، ورحتُ أهدق فيها. توقف هبوب الرياح أثناء عملي هذا، فخيم الصمت المقلق على المكان، وضج الهدوء في أذني.

لفتُ السلسلة حول البوابة اليمنى، وسحبتُ البوابة اليسرى باتجاهي. بدا لي أن مفصلات هذه البوابة أخذت بالزعيق وسط السكون الذي خلفته العاصفة. لم يقطع هذا السكون المخيم أي صوت آخر. لم أسمع أصوات ضفادع، ولا صراصير. غابت عن الأسماع أيضاً أصوات صفارات القطارات البعيدة. بدا لي في تلك اللحظة وكأن العالم كله يمسك أنفاسه في انتظار الخطوة التالية للعاصفة.

تحركت البوابة ببطء شديد لكنني دخلتُ أخيراً بعد أن أفلتها ورائتي. تبعْتُ
مراً غير ممهّد بالكامل. أصدرُ حدائتي أصواتاً نتيجة احتكاكه بالحصى. أبقىْتُ ضوء
المصباح متّنعلاً ما بين الطريق والأشجار على جانبيه. توقفتُ بعد مسيرة ثلاثة
أمتار، ووجهتُ الضوء نحو الأعلى. رأيتُ أغصاناً متشابكة تشكّل قوساً فوق
رأسي. رأيتُ أغصان القوس ساكنةً بشكلٍ مخيف.

تتواجد دار العبادة هنا في هذا المكان، وهنا برجها. عظيم. تحوّل عقلي
نحو أغاني الأطفال. وجدتُ نفسي أرتعش من التوتر، وتجمّعت عندي طاقة
تكفيني كي أعيد طلاء مبنى البنتاغون. رحتُ أحذر نفسي أنتِ نحاسرة يا
برينان! فكّري بكلوديل. لا. اتجهي بأفكارك نحو غاغنون وتروتييه
وآدكينز، بدلاً من ذلك.

انعظفتُ إلى اليمين، وسلطتُ الضوء إلى أبعد مسافة يمكن أن يبلغها الضوء.
أبقىْتُ الضوء مسلطاً لفترة قصيرة على كل شجرة من الأشجار التي تحيط بالطريق،
والتي بدا أنها تمتد في صفٍّ لا نهاية له. كرّرتُ الأمر ذاته في صف الأشجار إلى
يساري. ظننتُ أنني أشاهد أمامي فسحة ضيقة على بعد تسعة أمتار. أبقىْتُ حزمة
الضوء مركزةً على تلك البقعة وتابعتُ المسير. اكتشفتُ أن ما بدا لي ثغرةً في
البداية لم يكن كذلك. لم يكن هناك انقطاعٌ في صف الأشجار، لكن المكان بدا
مع ذلك مختلفاً بطريقة ما، أو أن شخصاً ما قد عبث به. خطر في بالي عندها أمرٌ
آخر. لم تكن الأشجار هي الغريبة، لكن الحشائش الكثيفة الموجودة تحتها.
لاحظتُ أن غطاء الحشائش كان متناثراً في بقع متفرقة، وبدت العرائش والنباتات
الزاحفة الأخرى وكأن أحداً قد عبث بها، وهو الأمر الذي لا ينطبق على تلك
الحشائش المجاورة لها. ظهرت هذه البقعة وكأنها نمت جزيئاً من جديد بعد إزالة
الحشائش منها.

بدت لي حشائش تلك البقعة أصغر من تلك المجاورة لها، أي أنها كانت
أحدث نمواً. سلطتُ الضوء في كل الجهات. ظهرت بقعة الحشائش النابتة حديثاً
ضيقة، ولاحظتُ أنها تشق طريقها تحت الأشجار مثلما يفعل مجرى مياه، أو طريق.
تمسكتُ بالمصباح بشدة أكبر وتبعْتُ هذا المسار المنحرف. وبدأت العاصفة ضربتها
بعد أن خطوتُ الخطوة الأولى.

توقف المطر الخفيف كي يُفسح المجال للسيل المفاجئ، فاندفعت الأشجار بالحركة متفازةً وغائصةً، فبدت مثل منظر ألف طائرة ورقية. ومض البرق فتجاوب معه الرعد مرةً بعد أخرى. بدا ذلك مثل مخلوقات شيطانية تطارد بعضها بعضاً. يصدر الرعد قرقعةً هنا، فتبدأ المطاردة، أين أنت؟ ويُسمع دوي انفجار هناك. فتردّ الرياح بغضب تام مبعثرةً مياه المطر في كل الجهات.

بلّلت المياه ثيابي وألصقت شعري برأسي. تقاطرت المياه على وجهي فأعانت رؤيتي، وتسببت بألم في مكان الخدوش في خدي. أغمضت عيني وأرجعت شعري إلى ما وراء أذني، ومررت راحة يدي فوق عيني. أخرجت طرف قميصي ووضعته على المصباح في محاولة مني لإبعاد المياه عنه.

أحسيت كتفي حينما وصلت إلى نهاية الممر غافلةً عن كل شيء يقع وراء حدود ضوء مصباحي الأصفر الشاحب. حركت مصباحي جيئةً وذهاباً عبر الممر، وسمحت له باستكشاف الأشجار الموجودة على الجانبين مثلما يفعل كلب حين يشم طريقه ويتحسسه.

اكتشفتها على بعد خمسة عشر متراً. أدركت بعد أن فكرت ملياً أنّ لحظة الوعي قد حدثت، وأنّ دماغي قد ربط في جزء من مليون من الثانية المعطيات البصرية التي تلقاها في تلك اللحظة مع التجربة الماضية التي اخترناها حديثاً. عرفت في مستوى معين من الوعي المعطيات التي كنت أراها قبل أن يتمكن عقلي الواعي من تحويلها إلى صورة.

ما إن اقتربت، ودارت حزمة الضوء حول هدفها وحرّرت من الظلمة المسيطرة على المكان، حتى طفت الحقيقة على سطح إدراكي. تمكّنت من تذوق محتويات معدني بعد صعودها إلى حنجرتي.

رأيت ضمن حزمة الضوء التمايلة كيس نفايات من النايلون بني اللون. برز هذا الكيس من بين التراب وأوراق الأشجار. لاحظت أنّ نهاية الكيس ملتفة ومعقودة. وبرزت هذه العقدة من التراب فبدت مثل حيوان الفقمة البحري الذي يرفع رأسه طلباً للهواء.

راقبت المطر أثناء اهماره على الكيس والتربة المجاورة. واطبت مياه المطر على قرع أطراف الحفرة، وحوّلت التراب إلى وحل. بدأت أطراف الحفرة بالظهور

بسبطء، لكن بثبات. شعرتُ بضعفٍ في ركبتيّ أخذ يزداد كلما تكشف المزيد من محتويات الكيس.

انتشلتني وميض البرق من حلم يقظتي. تقدمتُ، بل قفزتُ، نحو الكيس وانخسيتُ إلى الأسفل كي أتفحصه. أرجعتُ المصباح إلى حزام سروالي الجينز، وأمسكتُ بالنهاية المعقودة للكيس وسحيتها. كان الكيس ما زال مدفوناً بحيث لم يتزحزح من مكانه. حاولتُ أن أفكّ العقدة، لكن أصابعي المبتلة لم تتمكن من الإمساك بالنايلون الرطب. لم أستسلم. قرّبتُ أنفي نحو الفتحة المغلقة واستنشقتُ. فاحت رائحة الوحل والنايلون، ولم أميز أي رائحة أخرى.

ثقتُ الكيس المصنوع من النايلون قليلاً بظفر إهامي واستنشقتُ ثانية. كانت الرائحة مميزة مع أنها خفيفة جداً. عرفتُ أنها رائحة اللحم المتعفن والعظام الرطبة. سمعتُ صوت غصن يتكسر وأحسستُ بحركة خلفي قبل أن أقرر الانسحاب أو المواجهة. وفجأني وميض البرق داخل رأسي في نفس اللحظة التي حاولتُ فيها أن أقفز جانباً، ولم أجد نفسي إلا وأنا أهبط مجدداً إلى ظلمات قبر ذلك الفرعون.

15

لم يسبق لي أن بقيتُ هذه المدة الطويلة في حالة من المعاناة. شعرتُ بألم كبير منعتني من التذكر كثيراً. شعرتُ بسهام الألم تغزو دماغي والتي أجبرتني على البقاء ساكنة. أدركتُ أنني سأتقيأ إذا فتحتُ عيني. توترت معدتي نتيجة التفكير بالحركة، ومع ذلك كنتُ مضطرة للنهوض. شعرتُ بالبرد أكثر من أي شيء آخر. تحكمتُ البرد بجسدي بشكلٍ كاملٍ. رحتُ أرتجف بشكلٍ لا إرادي، وأدركتُ أنني أحتاج إلى حرام صوفي أكثر من أي شيء آخر.

جلستُ وأغمضتُ عيني بشدة. كان الألم في رأسي من الشدة بحيث تقيأتُ كمية صغيرة من الصفراء (مادة يُفرزها الكبد). خفضتُ رأسي إلى أن أصبح على مستوى ركبتي وانتظرتُ انتهاء التقيؤ. عجزتُ مع ذلك عن فتح عيني. بصقتُ مادة الصفراء في يدي اليسرى، وحاولتُ التمسك بيدي اليمنى بشيء يعطيني بعض الدفء. بدأتُ أدرك أنني لست في سريري من خلال الارتجاف والارتعاش. أحسستُ بالأغصان والأوراق في راحة يدي. اضطرتُ إلى فتح عيني سواء كنتُ أشعر بالألم أم لا.

جلستُ بين الأشجار بثيابي المبتلة والوحل يغطيني. وتناثرت أوراق الأشجار وأغصانها على الأرض من حولي، وكان الهواء مثقلاً برائحة التراب والأشياء التي ستتحول إلى تراب في المستقبل. استطعتُ أن أرى من فوقي الأغصان المتشابكة، وبدت أصابعها العنكبوتية متداخلة أمام سماءٍ مخملية سوداء. تلالأت مليون نجمة خلف غطاء الأغصان.

بدأت ذاكرتي تعود إليّ تدريجياً. العاصفة، البوابات الحديدية، الطريق. لكن كيف ارتيمتُ في هذا المكان؟ لم تكن هذه ليلة شراب حقيقية، لكنها كانت ليلة حملت التأثير ذاته.

مررتُ يبدأً مستكشفةً فوق رأسي، واكتشفت وجود ورماً بحجم الليمونة تحت شعري. عظيم. ضُربتُ مرتين خلال أسبوعٍ واحدٍ. أعتقد أن معظم الملاكمين يُضربون بوتيرة أقل.

لكن، كيف ضُربتُ؟ هل تعثرتُ ووقعت؟ هل وقع عليّ جذع شجرة؟ أعرف أن العاصفة جرفت كل شيء في طريقها، لكنني لم أشاهد أغصاناً كبيرةً بقربي. لم أستطع التذكّر جيداً، لكنني لم أكرث لذلك. أردتُ مغادرة المكان فقط. قاومتُ الشعور بالغثيان، وبحثُ عن المصباح وأنا جائئة على يديّ وركبتيّ. وجدته مغموراً بالوحل بالكامل تقريباً. تناولته ونظفته من الوحل، وضغطتُ على الزر. أضاء المصباح وسط دهشتي الكاملة. حاولتُ السيطرة على ساقّي المرتجفتين. وقفتُ، فانفجرت سهام الألم داخل رأسي. أسرعتُ كي أستند على شجرة وتقيأتُ مجدداً.

ملأت الصفراء فمي وأحسستُ بطعمها. طرح وعيي المزيد من الأسئلة. متى أكلت آخر مرة؟ الليلة الماضية؟ هذه الليلة؟ كم الساعة الآن؟ كم من الوقت مضى عليّ في هذا المكان؟ انتهت العاصفة وظهرت النجوم. خيم الليل وما زلت أشعر بالتجمّد. هذا هو كل ما أعرفه.

توقفت التقلصات في بطني، وقفتُ ببطء وسلطتُ الضوء من حولي، وبحثُ عن الطريق. تراقصت حزمة الضوء فوق الغطاء العشبي فأيقظت في ذهني المزيد من الذكريات. الكيس المدفون. جلبت هذه الذكرى المفاجئة موجةً من الخوف معها. تمسكتُ أكثر بالمصباح، وأدرته دورةً كاملةً وتأكدتُ من عدم وجود أحد ورائي. عدتُ إلى مكان تواجد الكيس. أين هو المكان يا ترى؟ بدأت الذكريات تعود زاحفةً، لكنها عادت بشكلٍ صورٍ ساكنة. تمكنتُ من رؤية الكيس في ذهني، لكنني لم أستطع تحديد موقعه على الأرض.

بحثُ بين الأعشاب المجاورة عن المكان الذي دُفن الكيس فيه. عدتُ إلى سماع الدويّ في رأسي، وعاد الغثيان يغزو حنجرتي، لكن لم يتبقَ أي شيء في

معدني، وتسبب القيء الجاف بشعوري بالألم في خاصرتي، وملأت الدموع عيني. بقيت واقفةً ومستندةً إلى الشجرة، وانتظرتُ انتهاء نوبات التشنج. لاحظتُ وجود الصراصير التي انطلقت في معزوفة ما بعد العاصفة، أزعجتني موسيقاها وكأنها حصى تدخل أذني بقوة قبل أن تُكمل طريقها عبر دماغي.

وجدتُ الكيس على بعد أقل من ثلاثة أمتار من مكاني. ارتجفت يداي في محاولةٍ مني للتمسك بالمصباح بثبات. بدأتُ بالتذكر عندما رأيتُ الكيس ولاحظتُ أن مساحةً أكبر من النايلون قد انكشفت. أحاط خندق مائي بمحيط مكان الكيس، وتجمعت برك صغيرة في ثنايا الكيس المصنوع من النايلون.

لم أكن في حالة تسمح لي باستعادته فاكتفيتُ بالتحديق. أعرف أن مسرح الجريمة يجب أن يتم التعامل معه بطريقة صحيحة، لكنني خشيتُ أن يعيث أحد في هذا المكان، أو يعتمد على إزالة البقايا قبل وصول وحدة استعادة مسرح الجريمة إلى المكان. رغبتُ أن أبكي من الإحباط.

إليك فكرة جيدة يا برينان. ابكي، لعل أحدهم سيأتي لينقذك. وقفتُ، مرتجفةً من البرد، أو من أمورٍ أخرى. حاولتُ أن أفكر لكن خلايا دماغسي لم تتعاون معي، إذ أغلقت أبوابها من دوني ورفضت كل النداءات. لم يبق إلا أن أتصل بها هاتفيًا. نجحت هذه الفكرة.

تعرفتُ على حدود الممر العشبي، فشققنتُ طريقي من خلال الأشجار، أو هذا هو ما تمنيتُه على الأقل. لم أتذكر الطريق الذي سلكته عند الدخول، وهكذا لم يكن لدي سوى فكرة غير واضحة عن طريق الخروج. بقي إحساسي بالاتجاهات مع ذاكرتي للأحداث القريبة. توقف المصباح عن العمل من دون إنذار، فوجدتُ نفسي في شبه ظلمة كاملة إلا من أضواء النجوم المتسللة من خلال الغيوم. لم تجدِ طريقة تحريك المصباح، ولأشئائي.

"اللعة!" حاولتُ على الأقل.

أصغيتُ جيدًا لعلّي أسمع شيئاً يدلني إلى الاتجاه، لكنني لم أسمع سوى صوت الصراصير من كل الاتجاهات. أتتني أصوات النقنقة من حولي. لم أستطع تحديد اتجاه هذه الأصوات.

حاولتُ أن أُميّز الشجيرات الصغيرة من تلك الأكبر منها، وزحفتُ إلى الأمام في الاتجاه الذي كان يشير إليه وجهي. اكتشفتُ أنّ هذه الطريقة تعطي النتيجة ذاتها مثل غيرها. تمسّكت الأغصان غير المرئية بشعري وملابسي، أما العرائش والنباتات الزاحفة فتشبّثت بقدمي.

ضللت الطريق يا برينان. أخذت الشجيرات تزداد كثافةً.

ترددتُ في تقرير أي طريق أتبع عندما أحسستُ أنّ إحدى قدمي نزلت في الهواء، وحادت عن التراب. أكملتُ طريقي فوجدتُ نفسي أهوي على يديّ وركبتيّ. علقت قدماي، وشعرت بشيء يشبه التراب الناعم على ركبتي المتقدمة. طار المصباح من يدي وأضاء ما إن اصطدم بالأرض. تدحرج المصباح، وأخذ يرسل وهجاً شاحباً أصفر اللون باتجاهي. نظرتُ إلى الأسفل وشاهدتُ قدميّ تحتفيان في فراغ ضيقٍ ومعتمٍ.

شعرتُ أنّ قلبي يكاد يقفز قفزاً. تشبّثتُ بالتراب وحاولتُ الخروج، ثم تسلقتُ زاحفةً نحو الضوء، وتلويتُ على الجانبين مثلما يفعل سرطان بحري على شاطئ رملي. وجهتُ المصباح نحو المكان حيث سقطت. رأيتُ حفرةً صغيرةً. فغرت الثغرة التي حُفرت حديثاً فاهها فبدت مثل جرح غير ملتئم في الأرض. وأحاط التراب الناعم بالحفرة، وتجمّع في تلة صغيرة وراءها.

سلّطتُ الضوء تجاه الفتحة. لم تكن فجوةً كبيرةً، ولعل عرضها لم يتجاوز ستين سنتيمتراً، أما عرضها فقدّرتّه بتسعين سنتيمتراً. دستُ بقدمي على مكان قريب من الحافة أثناء تعثري، فتسبّبت بتساقط سيلٍ من التراب نحو أسفل الحفرة. بدا منظر حبيبات التراب مثل حبيبات العنب أثناء تساقطها من صندوق. انضمت حبيبات التراب هذه إلى كومة التراب في أسفل الحفرة التي تجمّعت أثناء سقوطي. حدّقتُ بتلة التراب هذه أثناء تجمعها أسفل الحفرة. لاحظتُ أمراً غريباً بشأن التراب، ثم تأكدتُ مما لاحظته. كان جافاً بالفعل. بدا الاستنتاج واضحاً حتى بالنسبة إلى عقلٍ مشوشٍ: إما أن تكون هذه الحفرة قد غطّيت، وإما أن تكون قد حُفرت بعد سقوط المطر.

اجتاحني رعشة عفوية، وأسرعتُ إلى وضع ذراعيّ فوق صدري طلباً للدفع. كنتُ ما أزال مبتلة، أما العاصفة فقد خلّفت وراءها هواءً بارداً. لم أشعر

بالدفع بعد تحريك ذراعي. أبعثت الضوء عن الحفرة، وأسدت ذراعي، وعدتُ اتجاه حزمة الضوء. رحتُ أتساءل عن السبب الذي يدفع بشخص ما... أصاب السؤال الفعلي هدفه، وجعل معدتي ترتد مثلما يفعل مسدس من عيار 0.45. أي شخص فعل ذلك؟ ومن أتى إلى هذا المكان كي يحفر، أو يُفرغ هذه الحفرة من محتوياتها؟ وهل الفاعل، سواء كان رجلاً أو امرأة، موجود هنا الآن؟ دفعتني هذه الفكرة بالذات إلى القيام برد فعل. أسرعتُ بالاستدارة 360 درجة. وشعرتُ بلهيب الألم يحتدم في رأسي، وتضاعفت دقات قلبي ثلاث مرات. لم أتمكن من تحديد الأمور التي كنتُ أتوقع رؤيتها. هل ينتظرنني كلب مخيف من نوع دوبرمان؟ أم أنّ نورمان بايتس هو من ينتظرنني مع أمه؟ هل سيكون هنيئيل ليكنتر؟ وهل يكون جورج برنيز معتمراً قبعة كرة القاعدة؟ لم أشاهد أيّاً منهم. وجدتُ نفسي وحيدة مع الأشجار والنباتات الزاحفة، وظلمة الليل التي تخرقها أضواء النجوم.

رأيتُ شيئاً وحيداً بفضل حزمة الضوء الدوارة، ولم يكن سوى الممر. تركتُ تلك الحفرة التي حُفرت حديثاً، وعدتُ مترنحةً باتجاه الكيس المدفون جزئياً في التراب. وضعتُ عليه غطاءً من أوراق الأشجار. أدركتُ أنّ هذا التموه المرتجل لن يخدع الشخص الذي أحضره إلى هناك، لكنه قد يخفيه عن عيون الآخرين. تناولتُ علبة طارد الحشرات من جيبي، ووضعتها في فرع شجرة مجاورة لتكون علامة، وذلك عندما فرغتُ من وضع غطاء الأرض هذا. سرتُ في الممر ودستُ على الحشائش والجذور، وبالكاد نجحتُ في عدم التعثر. شعرتُ وكأنّ ساقَيّ مشلولتان بفعل العقاقير، لذلك تحركتُ بسرعة بطيئة.

علقتُ قفازي على فرع شجرة تقع على تقاطع الممر مع الطريق الترابي، ثم اندفعتُ نحو البوابة. أحسستُ بأنني مريضة ومرهقة، كما أنني خشيتُ أن يُغمى عليّ، وأن يزول مفعول الأدرينالين، وعندها سأهتار كلياً. أردتُ أن أكون في مكان آخر إذا حدث هذا.

وجدتُ سيارتي المازدا العزيزة بانتظاري في المكان ذاته حيث تركتها. لم انظر يميناً أو يساراً. تعثرتُ في سيري عبر الشارع، ولم أكرث ما إذا كان أحدهم ينتظرنني. بحثتُ من جيبٍ إلى جيب عن مفتاح سيارتي. وجدتُ حلقة المفاتيح،

ولعنتُ نفسي لأنني أحمل هذا العدد الكبير من المفاتيح في الحلقة ذاتها. رحْتُ أرتعش، وانسابت الشتائم من فمي بصورة عفوية، فأوقعتُ المفاتيح مرتين. سحبتُ مفتاح السيارة أخيراً وفتحتُ بإهما، ثم حشرتُ نفسي وراء عجلة القيادة.

أقفلتُ الباب، وأحطتُ عجلة القيادة بذراعيّ، ثم أسندتُ رأسي عليها. شعرتُ برغبة شديدة في النوم والهروب من كل ما يحيط بي، وتجاوز كل الأمور. أدركتُ أنه ينبغي عليّ مقاومة هذا الدافع. ألا يُحتمل أن يكون شخصاً ما ينتظرني، ويراقبني، كي يقرر تنفيذ شيء ما؟

ذكّرتُ نفسي أنّ لجوئي إلى الراحة في هذا المكان، أو إغماض عينيّ ولو للحظة واحدة، سيشكل غلطة كبيرة.

أجرى عقلي مسحاً عشوائياً. ظهر جورج برنيز أمامي مجدداً وقال: "أنا أهتم بالمستقبل على الدوام، وأخطط لتمضية بقية حياتي في هذا المكان".

جلستُ بالوضعية المناسبة وأخفضتُ ذراعيّ حتى مستوى حضني. ساعدتني وخزة الألم على استعادة صفائي الذهني. لم أتقياً، فاعتبرتُ ذلك تقدماً كبيراً. "إذا أردت متابعة حياتك يا برينان، فعليك أن تغادري هذا المكان بأسرع وقت ممكن".

بدا صوتي ثقيلاً في هذا الحيز المغلق، لكن هذا ساعدني بدوره على توجيه انتباهي إلى الواقع الراهن. أدرتُ محرك السيارة، ولاحظتُ أنّ الساعة تومض بالأرقام الخضراء تشير إلى الثانية والرابع فجراً. تساءلتُ متى غادرتُ هذه السيارة يا ترى؟

لم تتوقف حالة الارتعاش عندي، ولهذا رفعتُ درجة الحرارة إلى حدودها القصوى، رغم أنني لم أكن متأكدة من أنّ ذلك سيساعدني. تسببت الرياح، وهواء الليل، جزئياً بحالة البرد التي أشعر بها. شعرت ببرودة أكبر تمس روحي، وهي البرودة التي لن يخفف منها هذا السخّان الآلي. انطلقتُ بالسيارة من دون أن انظر ورائي.

تركتُ الصابون ينساب على نهدّي، وأحطتهما بالصابون مرة بعد مرة، وأنعشتني رائحة الرغوة المحببة وساعدتني على إزالة آثار أحداث الليلة الماضية. رفعتُ رأسي كي أواجه الرذاذ الذي أخذ يصدم وجهي قبل أن ينساب حول

جسدي. ستبرد المياه بعد وقت قريب. مضت عشرون دقيقةً على بداية حمامي هذا، وحاولتُ إبعاد أحاسيس البرودة، وإسكات الأصوات التي تضحج في رأسي. أفادت الحرارة، والبخار، ورائحة الياسمين في هُدُنِي، وتخفيض درجة التوتر في عضلاتي، وأبعدت عني الشعور بالمرارة. لم ينجح كل هذا تماماً. إذ بقيتُ طيلة الوقت أصغى إلى صوت يقع خارج منطقة البخار التي تغلفني. انتظرتُ رنين الهاتف، وخشيتُ أن تفوتني مكالمة رايان، ولذلك أحضرتُ الهاتف إلى الحمام. سبق لي أن اتصلتُ بالمركز فور وصولي إلى المنزل. فعلتُ ذلك حتى قبل أن أخلع ثيابي المبتلة. بدت موظفة تحويل الاتصالات الهاتفية متشككة، وحتى إنها أظهرت ترددًا في إزعاج رجل التحري في منتصف الليل. أصرتُ على رفضها إعطائي رقم رايان. طلبتُ منها إعطائي رقمه لأنني نسيتُ بطاقته في مكان عملي. وقفتُ في غرفة المعيشة مرتجفة. لم تفارق الأصوات رأسي، أما معدتي فكانت تستعد لنوبة أخرى، لذلك لم أكن في مزاج يسمح لي بالجدال. أقنعتها كلماتي، وكذلك نبرتي. عزمْتُ على الاعتذار منها في الغد.

حدث ذلك منذ نصف ساعة. شعرتُ بالألم في مؤخر رأسي. بقيتُ كتلة الورم في مكانها. أحسستُ بوجودها تحت شعري المبتل، وبدت مثل بيضة مسلوقة إلى ما بعد حدها، لكنها ناعمة الملمس. نفذتُ كل التعليمات التي تلقيتها، وتفحصتُ كل أماكن الضربات في رأسي. تفحصتُ حدقتي عيني، وأدرتُ رأسي بقوة ذات اليمين وذات اليسار، كما وخزت يديّ وقدمي كي أختبر قوة الإحساس فيها. بدت كل الأعضاء في مكانها الصحيح، وتقوم بعملها بشكل سليم. إنَّ الارتجاج الذي تعرضتُ له كان خفيفاً.

أوقفتُ المياه، وخرجت من دائرة الدوش. بقي الهاتف حيث تركته. ظل صامتاً وغير مكترث بي.

اللجنة! أين هو يا ترى؟

جففتُ جسدي، وارتديتُ عباقي ولففتُ منشفة حول شعري، ثم ألقيتُ نظرةً على الآلة الجيبية كي أتأكد من عدم وصول أي مخابرة. لم أشاهد ضوءاً أحمر اللون. اللجنة! تناولتُ سماعه الهاتف ونقرتُ عليها. سمعتُ الإشارة التي تدل على أنَّ الهاتف يعمل، لكن بالتأكيد لم يكن الهاتف معطلاً. شعرتُ بالتوتر، وهذا كل ما في الأمر.

استلقيتُ على الأريكة ووضعتُ الهاتفُ على الطاولة الصغيرة. لا بد من أنه سيتصل قريباً، لذلك كانت محاولة استسلامي للنوم أمراً لا طائل منه. أغمضتُ عيني، وخططتُ كي أرتاح دقائق قليلة قبل أن أبدأ في تحضير شيء أتناوله. تجمعت عوامل البرد، والإرهاق، والضربة التي تعرضت لها على رأسي، لتتحول إلى موجة من التعب خيمت عليّ، ودفعني إلى نوم عميقٍ لكنه مضطرب. شعرتُ وكأنني في حالة إغماء أكثر من كوني في حالة إغفاء.

وجدتُ نفسي خارج السياج وأنا أراقب أحد الأشخاص يحفر برفش ضخيم. رأيتُ الفئران تملأ الرفش في كل مرة يرتفع فيها عن الأرض. رأيتُ الفئران تنتشر في كل مكان عندما تطلعتُ نزولاً. اضطررتُ إلى ركل الفئران كي أبعدها عن قدمي. بدا الشخص الذي يلوّح بالرفش نحياً، لكنه عندما التفتَ عرفت أنه بيبي. أشار نحوي وقال شيئاً، لكنني لم أستطع فهم الكلمات التي نطق بها. بدأ الرجل بالصراخ، وبالإشارة نحوي. رأيتُ فمه المستدير، وتلك الدائرة السوداء التي أخذت تكبر وتكبر حتى أحاطت بوجهه، وحوّلته إلى قناع قبيح من أفتحة المهرجين.

تراكضت الفئران فوق قدمي. رأيتُ أحدها يجزّ معه رأس إيزابيل غاغنون وقد غرز أسنانه بشعرها، واستمر بسحب الرأس فوق العشب.

حاولتُ أن أركض، لكن ساقِي لم تتحركا. غرقتُ في مكاني لأكتشف أنني كنتُ أقف وسط مقبرة، وأخذت حبيبات التراب تتساقط من حولي. رأيتُ شاربونيو وكلوديل يحدقان بي. حاولتُ أن أتكلّم، لكن الكلمات عجزت عن الخروج من فمي. أردتُهما أن يقوما برفعي إلى حيث يقفان. مددتُ يدي نحوهما، لكنهما تجاهلاني.

انضم شخص ثالث إليهما فيما بعد. كان رجلاً يرتدي عباءةً طويلةً ويعتمر قبعةً غريبة الشكل. نظر إليّ وسألني إذا ما كنتُ أملكُ إذناً بالتواجد حيث أنا. لم أستطع الإجابة. أخبرني أنني أقف على أرض تملكها دار العبادة، وأنه يجدر بي المغادرة. قال إنه لا يُسمح لأحد بالدخول إلا إذا كان يعمل لصالح دار العبادة. رفرفت عباءته مع الرياح، وخشيتُ أن تسقط قبعته في القبر. حاول الرجل أن يُمسك عباءته بإحدى يديه، بينما نقر على هاتفه المحمول باليد الثانية. بدأ هاتفه بالرنين، لكنه تجاهله. واستمر الهاتف بالرنين.

بدأ هاتفني الموجود على الطاولة الصغيرة قربي بالرنين أيضاً، وتمكنتُ في نهاية الأمر من تمييز رناته هذه عن تلك التي سمعتها في حلمي. استيقظتُ أخيراً رغماً عني، ومددتُ يدي إلى سماعة الهاتف.

قلتُ بصوتٍ مترنحٍ: "همم. همم".

"برينان؟"

تكلم الرجل بلغة إنكليزية، وبصوتٍ حشنٍ. جهدتُ كثيراً كي أصحو جيداً. "نعم؟" نظرتُ إلى معصمي لكن ساعة يدي لم تكن في مكانها.

"أنا رايان. هل هو أمرٌ هام؟"

"كم الساعة الآن؟" لم أعرف ما إذا كنتُ قد استسلمتُ للنوم لمدة خمس دقائق، أم خمس ساعات. أحسستُ أن وقتاً طويلاً قد مرَّ.

"إنها الرابعة وخمس عشرة دقيقة فحراً".

"أعطني دقيقة من فضلك".

وضعتُ سماعة الهاتف على الطاولة، وتوجهتُ، متعثراً بخطواتي، نحو الحمام. سكبتُ الماء البارد على وجهي، وغنيتُ مقطعاً من أغنية البحار السكير أثناء هرولي في مكاني. أعدتُ لفَّ المنشفة حول رأسي، وأسرعتُ بالعودة لمكالمات رايان. لم أرغب بزيادة انزعاجه إذا طالت فترة انتظاره لي، بل أكثر من ذلك، لم أرغب أن يبدو صوتي مترنحاً، أو شارداً. كان من الأفضل لي أن آخذ دقيقة من الزمن كي أبدو طبيعية. "حسناً، أنا معك مجدداً. آسفة".

"من كان يعني؟"

"همم. خرجتُ إلى سان لامبرت هذه الليلة". بدأتُ حديثي معه، وأردتُ أن أخبره بما يكفي، لكنني لم أرغب أن أعطيه كل التفاصيل عند الساعة الرابعة والربع فحراً. "وجدتُ البقعة التي علّمها سان جاك بحرف X. يبدو أن الأرض ملك لدار العبادة".

"هل تتصلين بي عند الرابعة فحراً لتخبريني هذه المعلومة".

"وجدتُ جثةً. كانت متحللة جداً، واستنتجتُ من الرائحة أنها أصبحت مجرد هيكل عظمي. يتعيّن علينا التواجد هناك على الفور، أي قبل أن يعثر أحد عليها، أو قبل أن تشرع كلاب الحي في تنظيم غداء احتفالي لها".

أخذتُ نفساً طويلاً وانتظرت.

"هل أنت مجنونة بالكامل؟"

لم أعرف إن كان يشير إلى ما اكتشفته، أو لأنني ذهبتُ إلى ذلك المكان بمفردي. أدركتُ أنه محق بالنسبة للشق الثاني، وهكذا فضلتُ التحدث عن الشق الأول.

"أعرف الجثة بمجرد اكتشافها".

مرّت فترة صمتٍ طويلة، سألتني بعدها: "هل كانت مدفونة، أم فوق الأرض؟"

"كانت مدفونة، لكن على عمقٍ بسيطٍ جداً. الجزء الذي رأيته كان مكشوفاً، لكن المطر جعله يبدو بحالةٍ أسوأ".

"هل أنت متأكدة من أنها ليست مجرد مقبرة تتعرض للخراب؟"

"وجدتُ هذه الجثة في كيسٍ من النايلون". الأمر واضح: وُجدت هذه الجثة بمثل الحالة التي وُجدت بها غاغنون وتروتييه.

"اللعة!" تمكنتُ من سماع إشعال عود ثقاب، ثم سمعتُ صوت إخراج نفسٍ، وهذا يعني أن سيجارةً قد أشعلت.

"أتعتقد أنه يجب أن نتحرك الآن؟"

"مستحيل". سمعته يسحب نفساً آخر من سيجارة. "وماذا تعنين بنحن؟ تمتلكين سمعةً بالتحرك كما يحلو لك يا برينان، وهي السمعة التي لا تعجبني بشكلٍ خاص. يُحتمل أن يكون موقفك الذي يقول اذهب إلى الجحيم! ناجحاً مع كلوديل، لكنه غير ناجح معي. وإذا أردت في مرةٍ قادمة أن تعبثي بمسرح جريمة، فيتعيّن عليك أن تسألني ما إذا كان أحد ما في فريق مكافحة الجنايات يرغب بمشاركتك. إننا ما زلنا نُدرج ذلك في برامج أعمالنا".

لم أتوقع منه أن يشكرني، لكنني لم أكن متحضرةً لسماع رد فعله العنيف. بدأ الشعور بالغضب يتزايد في صدري، وتصاعدت قوة الضربات التي أشعر بها في رأسي. انتظرتُ قليلاً، لكنه لم يتابع كلامه.

"أشكرك على اتصالك بي بهذه السرعة".

"همم".

"أين أنت؟" لو كان تفكيري طبيعياً لكنتُ أحجمتُ عن طرح هذا السؤال الذي ندمتُ فوراً على طرحه.

قال بعد فترة من الصمت: "مع صديقة".

يا للخطوة الجيدة يا برينان. لا عجب إن كان قد تضايق من الاتصال.

"أعتقد أنّ شخصاً ما كان هناك هذه الليلة".

"ماذا؟"

"ظننتُ أنني سمعتُ شيئاً ما عندما كنتُ أفحص البقايا المدفونة. تلقيتُ بعد ذلك ضربةً على رأسي أفقدتني الوعي. كانت العاصفة في أوجها عندها، لذلك لم أستطع التأكد مما حدث".

"هل تعرضت للأذى؟"

"لا".

مرّت فترة صمتٍ أخرى وكدتُ أسمعُه يشيع الأمور تفكيراً في رأسه.

"سوف أرسل فرقةً من أجل الحفاظ على مكان الجريمة كما هو. سأرسل بعد

ذلك فريق استعادة مسرح الجريمة إلى هناك. أعتقدين أننا سنحتاج إلى الكلاب؟"

. "رأيتُ كيساً واحداً فقط، لكن لا بد من وجود المزيد. يبدو لي أنّ هناك المزيد من الحُفَر في المكان. أعتقد أنّها فكرة صائبة".

انتظرتُ سماع رد فعل، ولم أتلَق شيئاً.

سألته: "متى ستأتي كي تصطحبني؟"

"لن آتي لأصطحبك يا دكتور برينان. إنها جريمة قتلٍ في عالم الواقع، وهي تقع ضمن صلاحيات فرقة مكافحة الجنايات، وليست إحدى حلقات الجريمة التي كتبها".

شعرتُ بالغضب الشديد عند هذا الحد، كما أحسستُ بالألم في منطقة

جبهتي، وكأنّ غمامةً من الحرارة تخيم فوقها وتؤثر في أعماق دماغي.

"يملكك منطلقك هذا ثغرات أكثر مما هو موجود في توانس كندا". شعرتُ

بحق شديد إزاءه. "قل لي شيئاً آخر. إنها كلماتك يا رايان. حسناً، فهمت كل

شيء. أستطيع أن آخذك إلى الموقع مباشرة. يتعلق الأمر أيضاً ببقايا عظمية. أي

بالعظام، التي هي حقل اختصاصي أنا، هذا إن لم أكن مخطئة".

بقي خط الهاتف صامتاً لفترةٍ طويلةٍ بحيث اعتقدتُ أنه قد قطع المكالمة.
اكتفيتُ بالانتظار.

"سأمرّ عند الثامنة".

"سأكون جاهزة".

"برينان؟"

"نعم؟"

"أنصحك أن تستثمري بعض المال في شراء خوذة واقية".
هنا، انقطع الخط فعلاً.

16

وفي رايمان بوعده. أوقفنا السيارة وراء عربة استعادة مسرح الجريمة، وكانت الساعة تشير إلى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة. لم تبعد النقطة التي أوقفنا فيها السيارة سوى ثلاثة أمتار عن المكان الذي أوقفتُ فيه سيارتي الليلة السابقة. كان عالماً مختلفاً عن ذلك الذي تواجده في قبل ساعات قليلة فقط. تألقت الشمس بأشعتها وضجّ الشارع بالحركة والنشاط. اصطفت السيارات، وعربات الكروزر التابعة للشرطة، على جانبي الرصيف، كما وقف ما لا يقل عن عشرين شخصاً يرتدون أزياءً عاديةً ورسميةً، بشكل مجموعات، يتحدثون في ما بينهم.

رأيتُ أفراداً تابعين للشرطة القضائية وأمن كيبك، وأفراد شرطة آخرين من سان لامبرت، مبعثرين هنا وهناك، وارتدى كل واحد منهم زياً مختلفاً، ووضع الجميع إشارات متنوعة على صدورهم. ذكّرتني هذه التجمعات بأسراب الطيور ذات الأنواع المختلفة التي تتشكل أحياناً قبل أن تنطلق بمهرجانات عفوية وتصفق بأجنحتها، ويروح كل طائر يعلن عن فصيلته عن طريق عرض ألوان ريشه، والخطوط البارزة على أجنحته.

رأيتُ امرأةً تحمل حقيبة كتف كبيرة، وإلى جانبها شاب محمّل بكاميرات التصوير. انشغل الاثنان بالتدخين، واستندا إلى سطح سيارة شيفي بيضاء. إنه تجمع من فصيلة أخرى: الصحافة. رأيتُ بعيداً كلباً ألمانياً، من نوع شفرد، فوق مساحة عشبية يشب قرب رجل يرتدي بذلة رياضية، وأخذ يشم المكان الذي يقف فيه الرجل. واظب الكلب على الاستكشاف وصوّب أنفه باتجاه الأرض، ليعود ثانية

إلى مدرّبه، وأخذ يهزّ ذيله وأبقى رأسه مرفوعاً. بدا الكلب متحمساً للانطلاق، لكنه تحيّر بسبب التأخير في انطلاقته في مهمته.

قال رايان، بعد أن ركن السيارة، وفكّ حزام الأمان في مقعده: "يتواجد الفريق بأكمله هنا".

لم يعتذر مني على لهجته الخشنة على الهاتف، كما أنني لم أتوقع أن يقدم لي اعتذاراً كهذا. لا أتوقع أن يتصرف أي شخص على طبيعته الحقيقية عند الساعة الرابعة فجراً. كان ودوداً جداً أثناء قيادته السيارة، وحتى إنه كاد أن يكون مرحاً، حين أخذ يدلّني على المواقع التي وقعت فيها بعض الحوادث. كما روى لي بعض الأحداث التي تعرّض فيها للأخطاء والإحراج. أخبرني عن أحداث عنف وقعت في هذه الأماكن التي مررنا من أمامها. جرت إحدى هذه القصص في تلك البناية المؤلفة من ثلاثة طوابق، حيث هاجمت امرأة زوجها بمقلاة، ثم تحولت نحو رجال الشرطة. أخبرني أيضاً أنهم وجدوا رجلاً عارياً في مطعم دجاج كنتكي المشوي (بوليت كنتكي فريتس). علق الرجل في أحد أنابيب التهوية. انحصر حديثه معي في الإطار الذي يتبادل أفراد الشرطة في ما بينهم. رحّت أسئال ما إذا كانت خرائطهم الذهنية تستند إلى المواقع التي جرت فيها الحوادث المسجلة الواردة في تقارير الشرطة، بدلاً من أسماء الأضر، والشوارع، وأرقام البنائيات، التي نستخدمها نحن.

رأى رايان بوتران فتوجّه نحوه. وكان الرجل يقف ضمن مجموعة تتألف من بيار لامانش، الضابط في أمن كيبك، ورجل أشقر الشعر، نحيل البنية، ويضع نظارة طيار داكنة على عينيه. تبعته عبر الشارع، وبجئت عن كلوديل، أو شاربونيو، بين الحشد. اعتقدت أنهما قد يكونان حاضرين، رغم كون القضية تخص أمن كيبك. رأيت أفراد هذه المجموعة هنا، لكنني لم ألتح أياً منهما.

لاحظت بعد اقترابنا من المكان، أن الرجل الذي يضع النظارة متوتر جداً. فلقد بقيت يده في حركة دائمة، كما دأب على تحريك شاربه الرفيع فوق شفته العليا، وتلاعبت أصابعه بشعيرات شاربه القليلة، وأعادها إلى مكانها. لاحظت أيضاً جلده الباهت الذي لا تشوبه البثور. ارتدى الرجل سترة واسعة، وانتعل حذاءً عالياً أسود اللون. قدّرت أن يكون عمره خمسة وخمسين، أو خمسة وستين عاماً.

أحسستُ أنّ عينيّ لامانش تنظران نحوي بعد أن انضمنا إلى المجموعة. أوّماً باتجاهي، لكنه لم يقل شيئاً. بدأت الشكوك تتجمع في رأسي. فأنا وحدي تسببت بهذا العرض، وبقدوم كل هؤلاء الأشخاص إلى هذا المكان. ماذا لو لم يجدوا شيئاً؟ وماذا لو أقدم أحد الأشخاص على إزالة الكيس؟ وماذا سيحدث لو تبين أنّ المكان هو مجرد مقبرة لعامة الناس؟ كانت الليلة الماضية شديدة الظلمة، وقد تعرضتُ أثناءها للاعتداء. هل تخيلتُ الكثير من الأمور؟ شعرتُ بتوتر في معدتي.

حيّانا بوتران. وبدا، كعادته، نسخة أقصر قليلاً عن عارض أزياء. اختار الرجل الألوان الأرضية الداكنة التي تصلح للنيش، وهي الألوان التي تتناسب مع بيئة الأرض، أي الظلال واللون البني، لكنها صُنعت بالتأكيد من أصباغ كيميائية. ألقيتُ أنا ورايان التحية على الأشخاص الذين نعرفهم، ثم تقدّمنا من الرجل الذي يضع النظارة. قام بوتران بتقديمنا إليه.

"آندي. دكتورة. هذا هو بوارييه. إنه يمثّل الدوقية".
"الأرشيدوقية".

"اعذريني. الأرشيدوقية، لأن هذه الأرض هي ملكٌ لدار العبادة". حرّك بوتران إبهامه باتجاه السياج وراءه.

"تقب برينان". تبرعت بالتعريف عن نفسي، ومددت يدي للمصافحة.

ركّز بوارييه نظارته تجاهنا، وأمسك راحة يدي بقبضته الضعيفة التي تخلو من الحيوية. لو صنّفنا الناس بحسب قوة مصافحتهم، لكان حصل على درجة D سلباً. كانت أصابعه باردة وهزيلة، وبدت مثل جزرات بقيت في الثلاجة لمدة طويلة. قاومتُ دافعاً تولّد عندي كي أفرك أصابعي بسروالي الجينز.

كرّر الإجراء ذاته مع رايان، الذي لم تكشف ملامح وجهه عن أي تعبير. لاحظتُ أنّ البشاشة التي أظهرها هذا الصباح قد اختفت، لتحل الجدية مكانها. تحوّل الرجل إلى وضعية الشرطي. بدا بوارييه وكأنه يريد أن يقول شيئاً، لكنه غيّر رأيه عندما رأى وجه رايان، وزمّ شفثيه حتى أصبحنا خطأ مستقيماً. أدرك الرجل بطريقة ما، وبعد أن ساد الصمت، أنّ رايان هو الذي يمسك الآن بزمام الأمور.

سأل رايان: "هل دخل أحد حتى الآن؟"

أشار بورتوان إلى ضابط يرتدي زياً رسمياً يقف إلى يمينه. "لم يدخل أحد بعد. جاء كامبرون عند الخامسة صباحاً. لم يدخل أي شخص إلى المكان، وكذلك لم يخرج أحد. يقول بواريه إن شخصين فقط يمتلكان حق الدخول إلى الأرض: هو والمشرف على الأرض. وصل الرجل إلى الثمانينيات من عمره، واستمر يعمل في الأرض منذ أن جعلت مامي أيزنهاور خصلات الشعر المنسدلة على الجبهة أمراً محبوباً". لفظ الرجل كلمة أيزنهاور بالفرنسية، فأعطت انطباعاً كوميدياً.

أعاد بواريه توجيه نظارته باتجاهي وقال: "من غير الممكن أن تكون البوابة مفتوحة. إنني أتأكد من إقفالها في كل مرة أحضر فيها إلى هنا".

سأل رايان: "ومتى تحضر إلى هذا المكان؟"

تحولت النظارة عني لتركز على رايان. بقيت في مكانها ذاك ثلاث ثوانٍ كاملة قبل أن يجيب.

"مرة في الأسبوع على الأقل. تشعر دار العبادة بمسؤوليتها عن كل ممتلكاتها. إننا، ببساطة، لا..."

"ما هي طبيعة هذا المكان؟"

خيمت فترة من الصمت مجدداً: "يدعى موناستير سان برنار. وقد أغلق أبوابه في العام 1983. شعرت دار العبادة أن أعداد رجال الدين فيه لا تبرر استمراريته".

استغربتُ الطريقة التي تحدّث فيها عن دار العبادة باعتبارها كائناً حياً يمتلك الشاعر والإرادة. وجدتُ أن لغته الفرنسية غريبة بعض الشيء، وحتى إنها تختلف عن اللهجة الهادئة التي نشأتُ على سماعها. لم يكن الرجل كيببكيًا، لكنني لم أستطع تحديد مكان سكنه من لهجته. لم تكن تلك اللهجة الفرنسية الأصيلة التي تخرج من الخنجر، أو تلك التي يسميها سكان أمريكا الشمالية اللهجة الباريسية. شككتُ أن يكون الرجل بلجيكيًا، أو سويسريًا.

استأنف رايان الحديث: "وماذا يجري هنا؟"

مرت فترة صمت أخرى، وبدا لي أن الموجات الصوتية تقطع مسافة طويلة قبل أن تصل إلى متلقيها.

"لا شيء هذه الأيام".

توقف رجل الدين عن الكلام وتأوّه. لعله تذكر أياماً ماضيةً عرفت فيها دار العبادة ازدهاراً أكبر، أو أياماً شهدت فيها حركةً كثيفةً. ولربما أراد الرجل أن يجمّع أفكاره، وأن يكون دقيقاً في تصريحاته لرجال الشرطة. لاحظتُ أن نظارة الطيارين تحبّي عينيه. أعتقد أن الرجل غير مؤهل بما يكفي كي يكون رجل دين، فهو يمتلك جلدًا سليماً من البثور، ويرتدي سترةً جلديةً، ويتعلّ حذاءً رياضياً كالذي ينتعله سائقو الدراجات الهوائية.

تابع حديثه أخيراً: "إنني آتي هذه الأيام كي أتفقد الأرض، ويقوم المشرف على الأرض بالعناية بكل شيء".

انشغل رايان بتدوين ملاحظاته في دفتر صغير: "كل شيء؟"
"أعني الفرن، والأنابيب، وجرف الثلوج. إننا نعيش في مكان بارد جداً".
أشار بواتييه بإحدى ذراعيه وكأنه يريد أن يشمل المقاطعة بكاملها. "والنوافذ، كما أنّ الاولاد يحبون أحياناً إلقاء الأحجار". نظر إليّ: "بالإضافة إلى الأبواب والبوابات". إنه يتأكد من بقائها مغلقة.

"متى تفقدت الأقفال آخر مرة؟"

"تفقدتها نهار الأحد، عند الساعة السادسة مساءً. كانت كلها مغلقة".
فاجأني جوابه الواثق. لم يتوقف الرجل كي يفكر في هذا السؤال. يُحتمل أن يكون برتران قد سبقنا إلى طرح السؤال، أو لعل بواتييه توقع طرحه، لكن السرعة التي أجاب فيها جعلت جوابه يبدو متعجلاً.

"هل لاحظتَ أمراً خارجاً عن المؤلف؟"

"لا شيء".

"متى يأتي هذا المشرف، ما اسمه؟"

"مسيو روي".

"ومتى يأتي إلى هنا؟"

"إنه يأتي أيام الجمعة، إلا إذا كان لديه عملٌ خاصٌ يمنعه من المجيء إلى هنا".

لم يردّ رايان، لكنه تابع النظر إليه.

"... كي يقوم بأعمالٍ مثل جرف الثلج، أو إصلاح نافذة".

"أعتقد أنّ التحري برتران قد استجوبك بشأن احتمال قيام أحدهم بدفن جثث في هذه الأرض؟"

مرّت فترة صمت. "لا. لا. لم يُدفن أحد في هذه الأرض". هزّ رأسه من جانب إلى آخر، ولاحظتُ أنّ نظارته الشمسية تحركت فوق أنفه. تحرك أحد قوسيّ النظارة من مكانه، أما إطارها فاستقر على زاوية عشرين درجة. بدا الرجل مثل إحدى سفن النقل تنتظر أن ترسو في المرفأ.

"لطالما كان هذا المكان موناستير تابعاً لدار العبادة على الدوام، ولذلك لم يُدفن أي شخص في هذه الأرض. سبق لي أن استدعيتُ موظفة الأرشيف وطلبتُ منها أن تراجع السجلات كي نكون متأكدين". مرّ الرجل يديه الاثنتين فوق جبهته خلال حديثه، وعدّل وضع نظارته، فأصبحت في وضعها الصحيح.

"أنتَ تعرف سبب وجودنا هنا، أليس كذلك؟"

أوماً بواربييه فتحرّكت النظارة ثانيةً. بدأ في الكلام، لكنه غيّر رأيه، ولم يقل شيئاً.

أغلق رايان دفتر ملاحظاته الصغير ودسّه في جيبه. "هل تقترحين شيئاً كي ننجز المهمة؟" وجّه ذلك السؤال لي أنا.

"دعني آخذك إلى الداخل وأدلك على ما اكتشفته بنفسي. أريدك أن تحضر كلبك كي نعرف ما إذا كان هناك المزيد من البقايا المدفونة". تمنيتُ أن يوحى صوتي بثقة أكبر مما شعرتُ به. اللعنة! ماذا لو لم يكن هناك المزيد؟ "حسنًا".

مشى رايان نحو الرجل الذي يرتدي بذلة عمل. وقفز كلب الشفرد نحوه، ومرّغ أنفه على يده كي يلفت انتباهه. مرّ الرجل يده على رأس الكلب أثناء حديثه إلى صاحب الكلب. عاد الرجل للانضمام إلينا، وتقدم بمجموعتنا حتى وصلنا إلى البوابة. تفحصتُ المنطقة المحيطة بنا بكل عناية بحثاً عن أي علامات تدل على أنني تواجدتُ فيها الليلة الماضية، ولم أجد شيئاً.

انتظرنا عند البوابة ونظرنا إلى بواربييه أثناء تناوله مجموعة كبيرة من المفاتيح من جيبه كي يختار واحداً منها. أمسك بالقفل وسحبه، وكأنه يمتحن قوة عضلاته مع القضبان. أحدث القفل صوتاً ناعماً وسط هواء الصباح، وتطاير رذاذ من

الصدأ قبل أن يستقر على الأرض. هل أقلت بنفسي قبل ساعات؟ لم أستطع التذكر.

حرر بواريه السلسلة الحديدية، وحرر القفل، ثم فتح البوابة على مصراعها. أصدرت البوابة صريراً ناعماً. لم يشبه هذا الصرير ذلك الصوت المعدني الحاد الذي أذكره. تراجع قليلاً كي يُخلي الطريق لي، بينما اكتفى الجميع بالانتظار. لم يقل لا مانس أي كلمة حتى الآن.

رفعتُ قهقبي قليلاً فوق كتفي، ومررتُ من أمام رجل الدين، ثم سرتُ في الطريق غير المعبّد. بدت الأشجار ودودة في ضوء الصباح المنعش، واختفت العدائية منها. أرسلت الشمس أشعتها الدافئة من خلال أوراق الأشجار العريضة وأوراق الصنوبر، كما أنّ الهواء كان مثقلاً برائحة الصنوبر. ولدت الروائح المترجحة خيالات من المنازل المشيدة قرب البحيرات، والمخيمات الصيفية. خلّت كل هذه الصور من خيالات الجثث والظلال الليلية. تحركتُ ببطء، وتفحصتُ كل شجرة وكل بوصة من الأرض بحثاً عن الأغصان المتكسرة، أو عن نباتات في غير مكانها، أو حتى عن ترابٍ محفور حديثاً، أو حتى عن شيء يدل على وجود بشري في الأرض، ووجودي أنا بشكل خاص.

تصاعدت درجة قلقي مع كل خطوة، وازدادت وتيرة نبضات قلبي. ماذا لو كنتُ أنا التي أقلتُ البوابة؟ هل تواجد أحدٌ في هذا المكان بعدي؟ وماذا حصل بعد انصرافي؟

بدا المكان وكأنني لم أزره مطلقاً من قبل، لكنه كان مألوفاً بالنسبة إليّ، وكأنني قرأتُ عنه، أو رأيته في الصور. حاولتُ أن أجد موقع ذلك الطريق الضيق عن طريق تقدير المسافة والزمن. تولدت لدي شكوكي الخاصة، وبدت الصور في ذهني مشوشة وغير منتظمة. بدا الأمر كله وكأنه حلمٌ لم أتذكره سوى بشكلٍ جزئي، أي أنني أتذكر الأحداث المهمة جيداً، لكن بقية التفاصيل مثل ترتيب الأحداث ومدتها فكانت غير واضحة. أردتُ أن أرى شيئاً يساعدني على التذكر، ورحتُ أصلي.

استجاب الله لدعائي عن طريق رؤيتي للقفازين. نسيتُ أمر القفازين تماماً. شاهدتهما هناك على الجهة اليسرى من الطريق غير المعبّد، وظهرت أشكال

ثلاث أصابع بيضاء اللون على مستوى العيون في مكانها فوق فرع شجرة. بحثت في الأشجار المجاورة، فظهر القفاز الآخر عالقاً على غصن صغير من شجرة قيقب صغيرة تعلو حوالى متر وعشرين سنتمتراً عن الأرض. التمتعت صورةً في ذهني وهي صورتي عندما رحْتُ أتحسّس بيدي في العتمة عن مكان مناسب كي أدرس قفازي فيه. هنا تُنسى على ميزة التخطيط للمستقبل التي أمتلكها، لكنني وبّخت نفسي من جهة التذكر. ظننتُ أنني وضعتُ القفازين في مكان أعلى. هل مررتُ في هذه الغابة بتجربة تغيير الأحجام التي مرّت بها أليس في بلاد العجائب.

تنقلتُ ببصري ما بين الشجرتين اللتين تحملان القفازين، والمتواجدين بين ممر غير واضح المعالم. بدت أهمية هاتين الشجرتين كبيرة جداً في هذه الأجمة، بحيثُ إنني لم أكن أستطيع تمييز هذا الممر من دون هذه الدلائل التي وضعتها. أظهر الممر في ضوء النهار تغييراً بسيطاً في تشكيل مكونات الشجيرات، وبدت هذه النباتات أقل كثافةً، وأكثر تباعداً، على طول جانبيه. لاحظتُ أنّ الغطاء النباتي لا يتداخل مع بعضه على طول خط ضيق في هذا الممر. بدت الحشائش والشجيرات الصغيرة وحيدة ومعزولة عما يحيط بها من حشائش، وهذا ما أظهر التراب تحت الأوراق اليابسة التي تواجدتُ عليها. كانت هذه كل الفروقات التي تميّز الممر.

فكرتُ ملياً في هذه الأحجية أثناء عملي بطريقة الأطفال. ركزتُ أنا وغران على كل عناصر الأحجية، وبحثنا عن الموقع الصحيح، وانشغلت عيوننا وأذهاننا برصد أقل الفروقات في الكثافة والظلال. اعتمد نجاحنا على قدرتنا في رصد أدق التفصيلات في الألوان ونوعية الأوراق. تساءلتُ عن كيفية تمكّني من رصد هذا الممر في الظلمة.

تمكنتُ من سماع حفيف الأوراق، وتكسّر الأغصان ورائي. لم أتحدث عن القفازين، وتركتُ الموجودين يدهشون بمهاراتي الملاحية، حتى إنهم اعتبروني بريئاً المستكشفة. رأيتُ علبة طارد الحشرات على بعد أذرع قليلة. لم يكن مكان هذه العلبة مناسباً لأن غطاءها البرتقالي الفاقع التمتع مثل منارة وسط اللون الأخضر المنتشر حولنا.

بقيت تلّي الموهمة. ظهر انتفاخٌ في الأرض تحت شجرة السنديان، لكنه كان مغطى بالأوراق المحاطة بالتراب. تمكنتُ من رؤية بعض الآثار التي تركتها أصابعي عندما حاولت تغطية الكيس المصنوع من النايلون. تبين لي أن محاولة التمويه التي قمتُ بها قد كشفت من المكان أكثر مما أخفته، لكن ذلك كان أفضل ما استطعتُ القيام به حينها.

سبق لي أن كشفتُ عدة جثث. تم الكشف عن هذه الجثث المحبأة نتيجة إخبار، أو عن طريق الصدفة. عمد المخبرون أحياناً إلى الوشاية بشركائهم. ويعمد الأولاد المندهبشون أحياناً إلى الإبلاغ عن مكتشفاتهم. كانوا يقولون: *اشتممنا رائحة كريهة، وهكذا بدأنا بالبحث، وهذا ما وجدناه!* بدا شعوري غريباً وأنا أتصرف مثلما يتصرف الأولاد.

أشرتُ إلى التلة المغطاة بأوراق الأشجار: "هناك".

سأل رايان: "هل أنت متأكدة؟"

اكتفيتُ بالنظر إليه في حين صمت الآخرون. وضعتُ حقيبتي أرضاً وتناولتُ منها زوجاً جديداً من القفازات التي تُستخدم في الحديقة. سرتُ نحو تلة التراب وركّزتُ قدميَّ جيداً كي أخففَ من الارتجاج. بدا تصرفي هذا سخيفاً بالنظر إلى مغامرتي الليلة الفاتئة، لكنني فضّلتُ الالتزام بالتقنيات المفترضة عند إنجاز هذا العمل.

جلستُ القرفصاء وبدأتُ في إزالة ما يكفي من الأوراق كي يظهر قسم صغير من الكيس المصنوع من النايلون. بقيت محتويات الكيس مدفونة في الأرض، ودلّ شكلها غير المنتظم على أنّ محتوياته بقيت سليمة. بدا أنّ أحداً لم يعثب بها. رأيتُ بواربيبه عندما استدرتُ وهو يرسم إشارة الصليب على وجهه.

تحدث رايان مع كامبرون: "دعنا نأخذ بعض اللقطات كي نضعها في دليلنا

السياحي".

عدتُ إلى حيث يقف الآخرون وانتظرتُ بصمت كي ينهي كامبرون عمله. أفرغ عدة عمله، وملاً لوحة استمارات، كما التقط صوراً للتلة الترابية والكيس من مسافات واتجاهات متعددة. أنزل الرجل آلة تصويره وتراجع إلى الوراء.

التفت رايان نحو لامانش: "دكتور؟"

نطق لامانش كلمته الأولى منذ وصولي: "تقبرنس؟"

تناولتُ مالجاً من الحقيبة، وعدتُ إلى التلة. أزلتُ الأوراق المتبقية وبدأتُ بكشف ما استطعتُ من الكيس. شعرتُ بأنني تذكرت شيئاً، حتى أنني استطعتُ رؤية الثقب الذي أحدثته بظفري.

استخدمتُ المالج وأزلتُ التراب من فوق الكيس وحوله، وبدأتُ بكشف المزيد من محتويات الكيس. فاحت رائحة التراب المتعفن الذي أزيل حديثاً وكان رائحة جزء صغيرٍ من كل شيء كانت محتجزةً منذ دهورٍ سحيقة، ثم أطلقها الجليد فحاةً من قبضته المتجمدة.

سمعتُ أصواتاً انسابت من مهرجان تطبيق القانون الذي يدور في الشارع، لكن الأصوات الوحيدة التي كانت تُسمع في المكان الذي أعمل فيه أتت من الطيور، والحشرات، ومن أصوات المالج المتتابعة. تطايرت الأغصان في الهواء ثم سقطت وسط النسيمات. تميّزت حركتها هذه بأنها نسخة أكثر هدوءاً من التراقص الذي نفذته في الليلة السابقة. إذ انشغل الناشطون في مسرح الليل في حركات تشبه حركات محاربي الماساي (في شرق أفريقيا) وتقافزوا، واندفعوا وكأنهم مُنهمكون في معركة وهمية. أما العرض الصباحي، في المقابل، فكان رقصة فالز تذكارية. تحركت الظلال على الكيس، وعلى وجوه المجموعة الرزينة التي تراقب ظهوره. شاهدتُ أشكالاً كثيرة تتحرك، فبدت مثل مسرحية للدمى المتحركة.

تحولت تلة التراب إلى حفرة في غضون خمس عشرة دقيقة فبرز أكثر من نصف الكيس. شككتُ أن تكون محتويات الكيس قد أعادت ترتيب نفسها أثناء استمرار عملية التحلل وتحرر العظام من مسؤولياتها التشريحية، هذا إذا كان هناك من عظام.

ظننت أنني قمت بإزالة ما يكفي من التراب كي أتمكّن من انتزاع الكيس. وضعتُ مالجي جانباً، أمسكتُ به وجذبتُه ببطء. لم يتزحزح. عاد إليّ الشعور الذي سيطر عليّ الليلة الماضية. هل أن أحداً أسفل الحفرة يُمسك الطرف الآخر من الكيس، ويتحداني في لعبة شدّ الحبال الكريهة؟

تولى كامبرون التصوير أثناء قيامي بالحفر. اقترب مني حتى أصبح ورائي كي يتحصّر من أجل التقاط صورة كوداكروم لحظة تحرّر الكيس. خطرت عبارة في ذهني: تخليد لحظات حياتنا، وموتنا أيضاً. رحت أفكر بهذه العبارة.

فركتُ قفازيَّ في سروالي الجينز، وأمسكتُ بالكيس في أقصى نقطة أستطيع الوصول إليها، ثم جذبته بشدة لفترة قصيرة. حاولتُ تحريك الكيس مرة أخرى، ورفضت الحفرة التخلي عما تحبّه بسهولة، لكنني نجحتُ في التخفيف من شدة تمسكها بالكيس. شعرتُ أنّ الكيس قد تحرك، وأنّ محتوياته قد غيّرت أماكنها قليلاً. أخذتُ نفساً عميقاً، وجذبتُ الكيس نحوّي ثانية، لكن بقوة أكبر. أردتُ انتزاع الكيس من مكانه، لكنني خشيتُ تمزّقه. تحرّر الكيس قليلاً قبل أن يحتل مكانه الجديد.

ركّزتُ، قدميَّ وانطلقتُ أجذب من جديد، لكن خصمي الذي كان يرقد تحت الأرض تخلى عن هذه المباراة. بدأ الكيس يتحرر من مكانه وينزلق. أعدتُ تركيز أصابعي حول الكيس الملتف. تراجعتُ ببطءٍ إلى الوراء خطوة خطوة إلى أن أخرجتُ الكيس من الحفرة.

أرحتُ قبضتي عن الكيس ما إن خرج من حافة الحفرة، وتراجعتُ إلى السوراء. رحتُ أتساءل عما إذا كان هذا ليس سوى كيس نفايات عادي من النوع الذي يوجد في كل مطبخ، ومرآب، في أمريكا الشمالية. بدا الكيس سليماً ومنفتحاً بمحتوياته، لكنه لم يكن ثقيلاً. لم تكن هذه بالعلامة المبشرة بالخير، أم هل إنّ العكس صحيح؟ هل سأكتشفُ وجود بقايا كلبٍ يعود لأحد الأشخاص فأشعرُ عندها بالمهانة، أم أنني سأجد بقايا جثةٍ بشريةٍ، فتظهر حينها صحة وجهة نظري؟

بدأ كامبرون عمله على الفور. وضع الرجل بطاقته، والتقط سلسلة من الصور. نزعْتُ أحد قفازيَّ، ثم تناولتُ سكينِي (من النوع الذي يستخدمه الجيش السويسري) من جيبي.

ركعتُ إلى جانب كيسي، بعد أن انتهى كامبرون من عمله. ارتجفتُ يداي قليلاً، لكنني استطعتُ أخيراً أن أمدّ ظفري إلى داخل الهلال الصغير الذي أحدثته نصل السكين ووسّعته. التمع الفولاذ الذي لا يصدأ عندما انعكست أشعة الشمس

عليه. اخترتُ بقعةً في طرف الشق. أحسستُ أن خمسة أزواج من العيون تنصبّ عليّ.

نظرتُ صوب لامانش. لاحظتُ تغيراً في تعابير وجهه عندما تحركت الظلال. تساءلتُ لبرهة قصيرة كيف يبدو وجهي الملطّخ في الضوء. أوماً لامانش، وما لبثتُ أن ضغطتُ على النصل.

توقفتُ يدي عن عملها قبل أن أمزق الكيس. حدث ذلك بفعل صوت امتلك مفعول حبل غير مرئي. سمع الجميع هذا الصوت على الفور، لكن بورتوان عبّر عما نفكر به: "اللّعة!"

17

بدا هذا الصوت المفاجئ مجموعةً غير متناسقة من الأصوات. تداخل صوت نباح كلب مسعور مع أصوات بشرية شديدة الاحتياج. تصاعدت الصرخات المتسارعة والمتوترة في اتجاهات متعاكسة. تبين لي أن هذا الضجيج يتصاعد من مكان ما داخل أراضي الموناستير، وإلى يسارنا. افترضتُ في البداية أن صائداً ليلياً قد عاد، وأن كل رجل شرطة في المقاطعة، وكلباً واحداً على الأقل من نوع شفرد، يطاردونه.

نظرتُ إلى رايان والآخريين. كانوا جامدين، مثلي، في أماكنهم. لفتني توقف بوارييه عن العبث بشاربه، لكنه وقف، وثبت إحدى يديه فوق شفته العليا. قطع هذا الصمت صوت رجل يشق طريقه وسط الأشجار الكثيفة. التفتت رؤوس الموجودين بالتتابع، وكأها تعمل عبر مفتاح تحكّم واحد. انطلق صوت ينادي من مكان ما بين الأشجار.

"رايان؟ هل أنت هناك؟"

"أنا هنا".

التفتنا جميعاً في اتجاه الصوت

"*Ciboire!*". تصاعدت أصوات وجلبة أكثر.

ظهر ضابط يعمل في أمن كيبيك وهو يشق طريقه وسط الأغصان ويتمتم بصوت مسموع. لاحظتُ أن وجهه السمين قد احمر، وأن تنفسه أصبح أكثر صخباً. بانّت على جبهة الرجل حبيبات من العرق التي تسببت في جعل كتلة

الشعر، التي تحيط برأسه الذي غلب الصلع عليه، أكثر تسطحاً. وضع الرجل فور رؤيته لنا يداً على كل ركبة من ركبتيه، وانحنى قليلاً كي يستطيع التنفس بسهولة أكبر. تمكنتُ من رؤية بعض الخدوش حيث احتكت الأغصان مع المنطقة المكشوفة من فروة رأسه.

نُفض الرجل بعد قليل وحرك إبهامه نحو الاتجاه الذي قدم منه، وقال لاهتاً بصوت أجش، يشبه صوت الهواء الذي يمرّ عبر مصفاة مسدودة: "أريدك أن تتوجه إلى هناك يا رايان. يتصرّف ذلك الكلب اللعين مثل رجلٍ تناول جرعة مفرطة من المخدرات".

تمكنتُ أن أرى بواربيه بطرف عيني، ولاحظتُ أن يده تحركت فوق جبهته قبل أن تنزلق نحو صدره. رسم الرجل إشارة الصليب مجدداً.
"ماذا؟" ارتفع حاجبا رايان من الدهشة.

"أخذه دي سالفو في جولة حول المكان بناءً على تعليماتك، فبدأ ذلك اللعين بالدوران حول تلك البقعة بالذات، وأخذ بالنباح وكأنه ظنّ أن أدولف هتلر، وجيشه الألماني بالكامل، مدفونون هناك". صمت قليلاً: "أصغ إليه!"
"ثم ماذا؟"

"ثم ماذا؟ أوشك ذلك اللعين الصغير أن يقطع حبلاً من حباله الصوتية. وإذا لم تصل إلى هناك بالسرعة المناسبة فسيؤذي نفسه".
كتمتُ ابتسامةً لأن الصورة كانت مضحكةً جداً.

"قم بإشغاله عدة دقائق إضافية. أعطه ميلك بون، أو قرص فاليوم إذا اضطرت. يتعيّن علينا إنهاء أمر هنا". نظر إلى ساعته: "عُد بعد عشر دقائق".
هزّ الضابط كتفيه، وأفلت الغصن الذي يمسكه بيده، ثم استدار كي ينصرف.
"آه، بيكو".

استدار صاحب الوجه السمين.

"وجدنا مرأً هنا".

أخذ بيكو يهسهس: "حسناً سأجرّب". أخذ يشق طريقه وسط الشجيرات نحو الممر الذي أشار إليه رايان، وتأكّدتُ من أنه سيضلّ طريقه بعد أن يقطع خمسة عشر ذراعاً منه.

أضاف رايان: "آه، بيكو..."

نظر صاحب الوجه السمين إلينا ثانيةً.

"لا تدع ران تان يخرّب أي شيء".

تحوّل رايان نحوي مجدداً: "هل تحضّرين لحفلة ذكرى ميلاد يا بولينان؟"

لم يكن بيكو قد ابتعد عنا كثيراً في سيره عندما شققتُ الكيس من طرفه إلى طرفه الآخر.

لم تتصاعد الرائحة بسرعة كما حدث في حالة إيزابيل غاغنون، بل تحررت الرائحة ببطء إلى خارج الكيس، لكنها فرضت نفسها أخيراً. تعرّف أنفي على رائحة التراب الرطب والنباتات المتعفنة بالإضافة إلى رائحة أخرى. لم تكن هذه رائحة العفونة النتنة، لكنها كانت رائحة أكثر بدائية، وأقرب إلى رائحة الموت والانقراض، وإعادة تدوير الحياة. سبق لي أن شممتُ هذه الرائحة، وعرفتُ من خلالها أنّ الكيس يحتوي شيئاً مات منذ زمن، وليس منذ مدة قريبة.

تمنيتُ، أثناء عملي على توسيع فتحة الكيس بيديّ اللتين غطيتهما بقفازين، ألا يحتوي الكيس على جثة كلب أو غزال. ارتجفت يدي مجدداً وارتعش النايلون الذي يغطيهما. أجل، لقد غيرتُ رأيي، أتمنى أن يحتوي الكيس على بقايا كلب أو غزال.

احتشد رايان، وبرتوان، ولامانش من حولي عندما رفعتُ البلاستيك الممزق. وقف بوارييه جامداً مثل شاهد قبر مسمر في مكانه.

رأيتُ أولاً عظمة لوحة الكتف. لم تكن العظمة ذات دلالة كبيرة، لكنها كانت كافية لأتأكد من أنها لا تعود لطريدة صياد، أو لحيوان أليف. نظرتُ إلى رايان ولاحظتُ وجود تغضنات في زاويتي عينيه، وتوتر في عضلات فكّيه. "إنها عظمة بشرية".

ارتفعت يد بوارييه إلى جبهته كي يبدأ جولة جديدة حول رأسه.

أسرع رايان كي يتناول دفتر ملاحظاته، وقلب ورقة منه. سألتني: "ماذا لدينا هنا؟" كان صوته حاداً، تماماً مثل نصل السكين التي استخدمتها لتوي.

نقلتُ العظام برفق وبدأتُ بالسرد: "أضلاع... عظام كتف... عظام

ترقوة... فقرات... يبدو أنها كلها من عظام الصدر".

وجدتُ عظمة من الصدر فأضفتُ: "وعظمة قص".

بدأتُ أبحثُ بين العظام، وفتشتُ عن المزيد من أجزاء الجثة. اكتفى الموجودون بالمراقبة صامتين. زحف عنكبوت كبير بني اللون فوق يدي ما إن وصلتُ في بحثي إلى أسفل الكيس، ثم أكمل سيره نحو ذراعي. تمكنتُ من رؤية عيون الصغيرة ترتفع، وتختلس النظر، كي تبحث عن سبب هذا التطفل. بدت قوائم المغطاة بالشعيرات خفيفةً ودقيقةً جداً. أحسستُ كأن منديلاً مطرزاً يحنك مع بشرتي. تراجعْتُ مرتجفةً إلى الوراء، ورميتُ العنكبوت في الهواء. انتصبتُ واقفةً وتراجعْتُ قليلاً، ثم قلتُ: "هذا كل شيء". أخذتُ ركبتيّ بالارتجاف احتجاجاً: "إنه القسم الأعلى من الجذع، ولا وجود للذراعين". شعرتُ بالتنميل في جلدي، لكن ليس بسبب العنكبوت.

أسدلتُ ذراعيّ على جانبيّ. لم أشعر بالحبور بسبب صوابية رأيي، لكنني أشعر بخدر شديد، وكأنني أصبتُ بصدمة. أصيب كياني المعنوي بصدمة كبيرة، وكأنه علّق لوحاً تقول بأنه في فرصة الغداء. رحّتُ أفكراً بأن الأمر حدث مجدداً. مات شخصٌ آخر، لأن وحشاً يسرح طليقاً.

بدأ رايان يكتب في دفتر ملاحظاته. لاحظتُ أن أوتار عضلات عنقه قد انتفخت.

جاء صوت بواريه أعلى بقليل من الصرير: "والآن ماذا؟"

قلتُ: "يتعيّن علينا الآن أن نجد البقية".

كان كامرون منهماكماً بالتحضير كي يلتقط صورته عندما سمعنا صوت بيكو عائداً. أتى مرةً أخرى وسط الشجيرات. انضمّ إلينا ونظر إلى العظام، ثم أطلق آهةً هامسةً.

التفت رايان نحو برتران: "هل تستطيع الإشراف على الأمور هنا كي نستطيع تفقد الكلب؟"

أوما برتران. بدا جسم رايان صلباً مثل أشجار الصنوبر التي تحيط بنا. "دعونا نُرجع هذه العظام إلى الكيس، يستطيع فريق الاستعادة تفتيش المنطقة بكاملها. سأرسل الرجال بنفسي".

تركنا برتران وكامرون وتبعنا بيكو نحو صوت النباح. بدا ذلك الحيوان مضطرباً.

جلستُ بعد مرور ثلاث ساعات على بقعة عشبية وانصرفتُ لتفحص محتويات أربعة أكياس تحتوي جثثاً. كانت الشمس عاليةً وسط السماء، وأرسلت أشعتها الحارة على كتفي، لكن حرارتها لم تكفٍ لتدفئة البرودة التي شعرتُ بها في أعماقي. ربض الكلب قرب صاحبه على بعد نصف متر من مكاني، وبسط رأسه فوق مخالبه البنية الضخمة بعد أن أهدى صباحاً مليئاً بالجهد.

تعودت الكلاب المدربة على نبش الجثث المخبأة مثلما تكشف الأنظمة التي تعمل بالأشعة تحت الحمراء الحرارة، وذلك لأنها تدربت على الاستجابة لرائحة أنسجة الجثث التي تحللت، أو تلك التي في طريقها للتحلل. تستطيع هذه الكلاب كشف المكان الأصلي لهذه الجثث المتحللة حتى بعد أن يتم نقلها إلى أماكن أخرى. إنها الكلاب البوليسية للأمم. أدى هذا الكلب وظيفته على أحسن وجه، واستطاع كشف ثلاثة مواقع دفن إضافية. أعلن بحماسة عن كل موقع استطاع كشفه، واندفع بالتباح المسعور، والنهش، والدوران حوله. تساءلتُ عما إذا كانت جميع هذه الكلاب البوليسية تقوم بعملها بحماسة كهذه.

احتاجت عملية نبش البقايا من العظام، وترتيبها، ووضعها في أكياس، ساعتين من الزمن. أنجزنا القيام بجردة أولية للعظام قبل نقلها ووضعها في أكياس، ثم أعدنا لائحة تضم تفاصيل أكثر سجلنا فيها كل شظية من شظايا العظام. اختلستُ نظرةً نحو الكلب الذي بدا متعباً، ولا بد من أنه يشعر بتعب مماثل للتعب الذي أشعر به أنا. لم يحرك الكلب سوى عينيه اللتين دارت حدقتاهما البتيتان مثلما تدور صحون الرادار. غير الكلب اتجاه نظراته من دون تحريك رأسه. يحق للكلب أن يشعر بالإرهاق كما يحق لي. رفع رأسه أخيراً، فتدلى لسانه الطويل المرتعش والرفيع. أبقيتُ لساني داخل فمي، ثم عدتُ إلى جردة العظام.

"كم واحدة؟"

لم أسمعها يتقدم نحوي، لكنني عرفته من الصوت. تحضرتُ للحديث مجدداً.

"بونجور، مسيو كلوديل، كيف حالك؟"

كرّر الرجل: "كم واحدة؟"

أجبتُ من دون أن أرفع بصري: "واحدة".

"هل من شيء مفقود؟"

أهيتُ الكتابة، واستدرتُ كي انظر إليه. رأيته واقفاً مباعداً ما بين قدميه، وحاملاً سترته فوق ذراعه، وقد انشغل بإزالة ورق السيلوفان عن شطيرةٍ حصل عليها من آلة بيع.

اختار **كلوديل**، مثل بورتوان، الأقمشة القطنية لقمصانه وسراويله، والكتان لستراته التي يرتديها. لاحظتُ أنه يفضل اللون الأخضر من بين كل الألوان لأنه لونٌ يوحي بالتفاؤل. أما اللون الآخر المناقض فظهر في ربطة عنقه، التي نثرت لمسة من اللون البرتقالي هنا وهناك.

قال مع تطاير أجزاء من الخبز واللحم من فمه: "هل تستطيعين تحديد طبيعة ما وجدناه؟"

"أجل".

"أجل؟"

رغبتُ، بعد مرور أقل من ثلاثين ثانية على وصوله، أن أنتزع شطيرته من يده وأرميها بعيداً. لم يستطع **كلوديل** أن يوحي لي بالارتياح في أوقات شعوري بالراحة والاسترخاء. افتقدتُ للأمرين معاً في هذا الوقت. شعرتُ بإرهاقٍ شديد، أي مثلما هي حال الكلب. فقدتُ الطاقة، أو الميل، للانخراط في أي لعبة. "لدينا هيكل عظمي شبه كامل. يفتقد هذا الهيكل لأي أنسجة لينة. كانت الجثة مقطّعة، كما أنها وُضعت في أكياس نفايات، ودُفنت في أربعة مواقع منفصلة في تلك الأرض". أشرتُ باتجاه الأراضي التي يملكها الموناستير التابع لدار العبادة. "وجدتُ كيساً الليلة الماضية، لكن الكلب اكتشف الأكياس الثلاثة الأخرى". تناول قضمةً أخرى، وحدّق في اتجاه الأشجار.

"هل من عظام مفقودة؟" ترافقت كلمة العظام مع قطع اللحم والجبن المتطايرة. حدّقتُ فيه من دون أن أردّ عليه، لكنني تساءلتُ عن سبب اعتباري هذا السؤال مزعجاً جداً. كانت هذه طريقة **كلوديل**، لكنني تصرّفتُ بحسب طريقة تصرّفه. تجاهلي السؤال يا برينان. هذا هو **كلوديل**. ينتمي هذا الرجل للزواحف، لذلك يتوقع المرء منه التنازل والغرور. يعرف أنك على حق، ولا بد من أنه سمع القصة في هذا الوقت. لن يقول مبروك، لأن هذه الكلمة تقضي عليه. سأمضي في التصرّف حسب طريقته هذه لأنها ناجحة تماماً.

عاد بانتباهه نحوي عندما لم أردّ عليه.

"هل تفتقد الجثة أي شيء؟"

"أجل".

وضعتُ الورقة التي تحتوي جردة العظام جانباً، ونظرتُ إليه بشكلٍ مباشر. نظر إليّ بدوره من دون أن يتوقف عن المضغ. تساءلتُ لبرهة عن سبب عدم وضعه للنظارة.

"الرأس".

توقف عن المضغ.

"ماذا؟"

"الرأس مفقود".

"وأين يكون؟"

"مسيو كلوديل، لو كنتُ أعرف مكانه لما اعتبرته مفقوداً".

شاهدتُ عضلات فكّه التي برزت قليلاً، ثم عادت كي تسترخي، لكن ليس نتيجة عملية المضغ.

"هل من شيء آخر؟"

"ماذا تقصد بشيء آخر؟"

"هل من جزء مفقود آخر؟"

"ما من شيء هام".

راح عقله يستوعب تلك الحقائق، بينما انشغلت أسنانه بقضم شطيرته. استمر بالمضغ، وأطبق على هاتفه الخلوي فأصبح كتلةً دائريةً صغيرةً. وضع الكرة في جيبه، ومسح كل زاوية من زوايا فمه بسبابته.

قال بصيغةٍ أقرب إلى التصريح مما هي للسؤال: "لا أعتقد أنك ستخبريني المزيد؟"

"عندما يتسنى لي الوقت كي أفحص..."

"أجل". قالها، واستدار، ثم انصرف.

رحتُ أصب اللعنات في سرّي، وأقفلتُ كيسَيّ الجثتين. رفع الكلب رأسه لدى سماعه صوت سحّابتي الكيسين. تبعني عيناه عندما دسستُ لوح الكتابة في

حقيبتى، وأثناء عبوري الشارع كى ألتقى المشرف على المشرحة النحيل الخصر. أبلغته بأننى أهيتُ عملي، وأنه يستطيع تحميل بقايا العظام، ثم طلبتُ منه الانتظار بعد ذلك.

رأيتُ رايان وبرتران يتحدثان مع كلوديل وشاربونيو. اجتمع أمن كيبك مع شرطة مونتريال. جعلني الذعر الذي شعرتُ به أتشكك بجديتهم. ماذا كان كلوديل يقول لهم؟ هل كان الرجل يذمى؟ أعرف أن معظم رجال الشرطة متعصبون لمنطقتهم، ويغارون على ميادين صلاحياتهم، ويحافظون على قضاياهم، كما أنهم يرغبون بالاحتفاظ بنقاط قوتهم. كان كلوديل أسوأ من الآخرين، لكنني تساءلتُ عن سبب كرهه لي بشكل خاص.

انسى كل شيء يا برينان. إنه مجرد نذل، وها أنت أخرجته في فئائه الخلفي، كما أنك لست المفضلة عنده. أوقفي قلقك بشأن المشاعر، وابدئي بالتفكير بمهمتك. لم تكوني، أنت الأخرى، يا برينان بريئة تماماً في أنانيتك في حقل العمل الجماعي.

توقف الحديث ما إن اقتربتُ منهم. خففت تعابير وجوههم من لهجتي التي خطّطتُ لها، لكنني نجحتُ مع ذلك في إخفاء انزعاجي.
قال شاربونيو: "مرحباً دكتورة".

أومأت، وابتسمتُ في وجهه.

سألته: "إذاً أين أصبحنا؟"

قال رايان: "غادر رئيسك منذ حوالى الساعة، وكذلك فعل ذلك الرجل الطيب. يقوم فريق الاستعادة بإنهاء العمل".

"هل حدث أمرٌ ما؟"

هزّ رأسه.

"هل علمت شيئاً من خلال آلة كشف المعادن؟"

بدا رايان متضيقاً: "كشفت الآلة كل شيء له علاقة بالمعادن. آه! ماذا

بشأنك؟"

"انتهيتُ من عملي. أبلغتُ العاملين في المشرحة بأنهم يستطيعون نقل العظام".

"يقول كلوديل إن الرأس مفقود".

"هذا صحيح. لم نجد الجمجمة، والفك، وفقرات الرقبة الأربع الأولى".

"وماذا يعني ذلك؟"

"يعني أن المجرم قطع رأس الضحية، ثم أخفاه في مكان ما. يُحتمل أن يكون قد دفنه هنا، لكن في مكان منفصل عن بقية أجزاء الجثة. تبدو هذه الأجزاء مبعثرة".

"إذاً، لدينا كيسٌ آخر هناك؟"

"يُحتمل ذلك، كما يُحتمل أن يكون القاتل قد تخلص منه في مكانٍ آخر".

"أين يكون ذلك المكان في رأيك؟"

"قد يكون النهر، أو في مرحاضٍ، أو في الفرن. كيف لي أن أعرف بحق

الجحيم؟"

سأل بورتوان: "ولماذا يفعل ذلك؟"

"لعله فعل ذلك كي لا تتعرف الشرطة على هوية الضحية".

"وهل بالإمكان التعرف على هويتها؟"

"إنه أمر ممكن، لكن من الأسهل بكثير التعرف على الجثة انطلاقاً من الأسنان وسجلاتها، عدا عن ذلك، ترك القاتل اليدين لنا".

"وإذاً؟"

"يجري التخلص من اليدين عادةً عندما تقطع الجثة منعاً للتعرف عليها".

نظر إليّ بشرود.

"يسهل أخذ البصمات من الجثث المتحللة كثيراً طالما يتبقى بعض الأجزاء من

الجلد سليمة. لديّ بصمات أخذت من مومياء يبلغ عمرها خمسة آلاف عام".

قال كلوديل بجديّة: "هل استطعت مقارنة البصمات؟"

أجبتُ بجديّة ماثلة: "بصمات القاتل ليست مدرجة في السجلات الرسمية".

قال بورتوان: "لكن هذه ليست سوى عظام".

"لن يعرف القاتل هذا، ولن يكون متأكداً متى ستُكتشف الجثة". رحّتُ أفكّر

أنّ الأمر يشبه ما جرى مع غاغنون، لكن الفرق يكمن في أنه قام بدفن الضحية هذه المرة.

توقفتُ لبرهة من الزمن، ورحّتُ أتخيل القاتل وهو يطوف في الغابات المظلمة

موزعاً الأكياس ومحتوياتها المريعة في أماكن مختلفة. هل قطع القاتل الضحية في أحد

الأمكنة، وقام بتعبئة أجزائها في أكياس، ونقلها بالسيارة إلى هذا المكان؟ هل ركن سيارته في المكان ذاته الذي ركنتُ فيه سيارتي، أم أنه استطاع الدخول إلى الأرض المملوكة للموناستير التابع لدار العبادة بطريقة ما؟ وهل قام بالحفر أولاً، وخطَّط موقع كل حفرة؟ أم أنه أقدم على نقل الأكياس التي تحتوي أجزاء الجثث على مدى أربع جولات بسيارته؟ وهل عملية تقطيع الأطراف ليست إلا محاولةً يائسةً بذلها من أجل إخفاء ولع طاغٍ بالإجرام، أم أنه نفذ الجريمة وقام بتشويه الجثة بدماء باردة؟ خطرت إمكانية مرعبة في ذهني. هل كان القاتل معي الليلة الفائتة؟ عدتُ إلى الحاضر.

"أو..."

نظر الجميع إليّ.

"أو أنّ الرأس ما زال بحوزته".

قال كلوديل ساخرًا: "ما زال بحوزته!"

علّق رايان: "اللعنة!"

سأل شاربونيو: "مثلما حدث مع دامر؟"

هزرتُ كتفي.

قال رايان: "أقترح أن نعيد فانغ كي يقوم بجولة أخرى. لم يحضروا الكلب

إلى موقع وجود الجذع".

قلتُ: "صحيح. سيكون مسروراً بذلك".

سأل شاربونيو: "أتمنّين إذا راقبناه". نظر كلوديل تجاهه نظرة استهجان.

قلتُ: "لا مانع طالما تفكرون بأمر سارة. سأحضر الكلب. انتظروني عند

البوابة".

بدأتُ بالابتعاد عن الرجال، لكنني سمعتُ كلمة "عاهرة" بصوت كلوديل

الذي يخرج من الأنف. أفتعتُ نفسي أنه يقصد الكلب، أو الكلبة، من دون شك.

انتصب الكلب واقفاً على قائمته الأماميتين عندما اقتربتُ منه، وراح يلوح

بذيله ببطء. نقلّ نظره بيني وبين الرجل الذي يرتدي بذلة العمل الزرقاء، وكأنه

يريد الحصول على إذن كي يقترب من ذلك الزائر الغريب. تمكّنتُ من رؤية كلمة

دي سالفو محتومة على البذلة.

"هل فايبدو مستعد لجولة أخرى؟" سألتُ وأنا أمدُّ يدي نزولاً باتجاه الكلب. أوماً دي سالفو قليلاً، وما لبث الكلب أن قفز إلى الأمام، وراح يبرِّغ أنفه بأصابعي.

"اسمها مارغوت". تكلم الرجل بلغة إنكليزية، لكنه لفظ اسمها بالفرنسية. جاء صوته خافتاً ومعتدلاً. تحرَّك الرجل ببطء ملحوظ يتميز به كل الذين يمضون أيامهم مع الحيوانات. كان وجهه داكناً وتخرقه التغضنات العميقة. لاحظتُ أنَّ مروحة من التشققات الصغيرة تنطلق من كل زاوية من زاويا عينيه. بدا الرجل أنه من النوع الذي يعيش خارج المنزل على الدوام.

"هل تفهم الكلبة الفرنسية أم الإنكليزية؟"

"إنها تفهم اللغتين معاً".

انخبتُ على إحدى ركبتيَّ كي أمسد منطقتيَّ ما خلف أذنيها: "مرحباً مارغوت. آسفة لأنني اعتبرتك كلباً في السابق. إنه يوم عظيم أليس كذلك؟"

استعاد ذيل مارغوت سرعته السابقة. تراجعت عندما نهضتُ، ودارت دورةً كاملة، ثم جمدت في مكانها، وراحت تتفحص وجهي بكل انتباه. حرَّكت رأسها من جهة إلى جهة، ولاحظتُ أنَّ التغضن الموجود ما بين عينيهما قد اتسع قبل أن يضيّق ثانية.

مددتُ يدي كي أصافح دي سالفو وقلتُ: "تمب برينان".

شبك الرجل أحد طرفي مقود مارغوت إلى خصره، وأمسك الطرف الآخر بيده، ومدَّ يده الأخرى نحوي. شعرتُ بقوة يده فبدت مثل معدن مطروقٍ بخشونتها. لم يسبق لي أن صافحتُ قبضةً بهذه القوة.

"دافيد دي سالفو".

"نعتقد أنه يوجد المزيد من العظام هناك يا دايف. أعتقد أنَّ مارغوت تستطيع كشفها في جولةٍ أخرى؟"

"انظري إليها".

رفعت مارغوت أذنيها ما إن سمعت اسمها، وأحنت رأسها إلى الأرض، وأخذت ترحف بعد أن رفعت وركيها، ثم نفذت سلسلة قفزات قصيرة في الهواء. أبقَت عينيهما في هذه الأثناء مركزةً على وجه دي سالفو.

"حسناً. ما هي المنطقة التي انتهيتَ من استكشافها حتى الآن؟"
"أهيننا استكشاف كامل مساحة الأرض ما عدا المنطقة التي كنتِ تعملين فيها".

"أيووجد احتمال بأنها فشلت في اكتشاف شيء ما؟"
هزَّ الرجل رأسه: "لا. ليس هذه المرة. إنَّ الأحوال الجوية مؤاتية، ودرجة الحرارة معتدلة بسبب الرطوبة الناتجة عن المطر. لدينا نسائم قوية، كما أنَّ مارغوت في أحسن حالاتها".

بدأت تمرغ أنفها على ركبته، فكافأها الرجل بأن مسدَّ ظهرها بيده.
"لا تترك مارغوت الكثير. لم تتدرَّب على أي شيء عدا تتبع روائح الجثث، وهكذا فوجود الأشياء الأخرى لا يجعلها تخطئ".

تعلم كلاب نبش الجثث تتبع روائح معينة، مثلما هي الحال مع كلاب اقتفاء الآثار. تعرف كلاب نبش الجثث رائحة الموت جيداً. تذكرتُ أحد الاجتماعات في الأكاديمية عندما قدَّم أحد العارضين زجاجات تحتوي نماذج من روائح الجثث، أو ما يسمى عطر التحلل. استخدم مدرب آخر من الذين أعرفهم سناً مقتنعاً ومخزناً في قارورة بلاستيكية حصل عليها من طبيب أسنانه.

"إنَّ مارغوت هي من بين أفضل الكلاب التي عملتُ معها. ستكتشف أي عظام إضافية قد تكون موجودة هناك".
نظرتُ نحو الكلبة. بدا الرجل محقاً.
"حسناً. دعنا نأخذها إلى الموقع الأول".

أطلق **دي سالفو** عنان **مارغوت**، وهكذا قادتنا إلى البوابة التي انتظرنا عندها رجال التحري الأربعة. سرنا بمحاذاة الطريق الذي أصبح مألوفاً في هذا الوقت، وبقيت **مارغوت** في المقدمة تشدّ مقودها. راحت تشتم طريقها أثناء تقدمها، وتستكشف كل الزوايا والشقوق بأنفها، أي بنفس الطريقة التي استخدمتُ فيها أنوار مصباحي. توقفت في بعض الأحيان كي تزيد من سرعة تنشقها، ثم راحت تُخرج الهواء في نفثات كبيرة تسببت في تطاير الأوراق اليابسة حول أنفها. تابعت سيرها بعد أن ارتاحت للنتيجة.

توقفت الكلبة عندما تشعبت الطريق إلى فرعين باتجاه الغابة.

"لا يبعد المكان الذي لم نستكشفه كثيراً عن هنا".
أشار **دي سالفو** إلى المكان الذي عثرت فيه على أول دفعة من العظام.
"سأخذها في جولة هنا قبل أن أوجهها نزولاً. تستطيع أن تشتم بطريقة أفضل
هكذا. تعتقد عندها أنها قد اكتشفت شيئاً. سأتركها تتصرف بحسب طريقتها".
سألته: "هل ستزعج الكلبة إذا ذهبنا إلى تلك المنطقة؟"
"لا. إن رائحتك لا تعني شيئاً بالنسبة إليها".

تابعت الكلبة ومدرها السير لمسافة عشرة أذرع قبل أن يختفيا معاً عن ناظريّ
في الغابة. سرتُ مع رجال التحري في الطريق الذي أصبح أكثر وضوحاً بسبب
كثرة السير عليه. لاحظتُ أيضاً أنّ المكان الذي دُفنت العظام فيه أصبح بقعة
صغيرة خالية من أوراق الأشجار بسبب كثرة الدوس فوقها، كما أنّ بعض
الأغصان المتدلية فوقها قد قُطعت.

فغرت الفجوة المتروكة فاهها، وبدت داكنةً وفارغةً، مثل قبر منهوب. بدت
لي أنها أكبر بكثير مما كانت عليه عندما تركناها، كما أنّ التراب من حولها كان
كثيفاً. لاحظتُ وجود تلة من التراب إلى جانب الحفرة، وظهرت مثل مخروط ترايبيّ
ذي جوانب منحدرّة ورأسٍ مقطوع. لاحظتُ أنّ حبيبات التراب كانت منتظمة
بشكل غير عادي. نتجت هذه التلة عن غريلة التراب.
سمعنا نباحاً بعد مرور فترة تقل عن الدقائق الخمس.

سأل **كلوديل**: "أهو ورائنا؟"

قلتُ مصححةً: "تقصد هي".

فتح فمه، ثم ما لبث أن أقفله ثانية. تمكنتُ من رؤية شريانٍ ينبض في جبهته.
وجّه رايمان نظرةً نحوي. حسناً، ربما كنتُ أستفزه قليلاً.

مشينا بصمتٍ نزولاً في الطريق. كانت **مارغوت ودي سالفو** إلى يسارنا
خارج الطريق يسيران وسط أوراق الأشجار. استطعنا رؤيتهما في غضون أقل من
خمس دقائق. بدا جسم **مارغوت** مشدوداً أكثر من وتر كمان، وبرزت عضلات
كتفّيهما، وضغط لجامها المصنوع من الجلد إلى صدرها. أبقت رأسها مرفوعاً إلى
الأعلى، لكنها حرّكته من جهة إلى جهة لتفحص الهواء الآتي من كل الجهات،
واحتلج منحراها بشدة.

توقفت فجأة وجمّدت في مكانها. مدّت أذنيها، وارتعشت أطرافها. سمعتُ ضجيجاً في مكان ما في أعماقها. بدا الصوت خافتاً في البداية، ثم بدأ يتصاعد، وما لبث أن تحوّل إلى ما يشبه زججراً ممتزجاً مع أنين، وسرعان ما أصبح يمثل حماسة الطقوس التي يمارسها النادبون في قبيلة بدائية. أحسستُ بشعيرات رقبتي ترتفع من مكانها، وبقشعريرة تخترق جسدي بكامله.

نزل **دي سالفو** وأرخى المقود. أصرتُ مارغوت على موقفها لبرهة من الزمن، وكأنها تؤكد صوابيته، وراحت تعدّل من اتجاهاتها. ثبتت في مكان واحد في النهاية.

قال **كلوديل**: "ماذا حدث بحق الجحيم؟"

قال **رايان**: "أين؟"

علّق **شاربونيو**: "اللعة!"

توقنا أن تشتمّ الرائحة في موقع دفن العظام. ولكنها انطلقت، بدلاً من ذلك، بخط مستقيم عبر الطريق، واندفعت بين الأشجار التي تقع أسفل المكان الذي نقف فيه. راقبناها بصمت.

تقدّمت **مارغوت** حوالي المترين ثم توقفت، وأخفضت أنفها، واستنشقت مرات عديدة. وزفرت الهواء بشدة بعد ذلك، ثم انتقلت إلى يسارها وكرّرت هذه المناورة. بقي جسمها مشدوداً، وكذلك كانت حال عضلاتها. بدأت الخيالات تتزاحم في مخيلتي أثناء مراقبتي إياها. الهرب في العتمة، والسقطة الشديدة، ومضة البرق والحفرة الفارغة.

نجحت **مارغوت** في جذب انتباهي إليها. توقفت في أسفل شجرة صنوبر، وركّزت كل انتباهها على الأرض أمامها. أخفضت أنفها واستنشقت. لاحظتُ فجأة أنّ الفراء يرتفع على طول عمودها الفقري، وأنّ عضلاتها ترتعش، وكأن ذلك حصل بفعل غريزتها البدائية. رفعت **مارغوت** أنفها عالياً في الهواء، وزفرت آخر كمية من الهواء، ثم اندفعت في حركة مسعورة. تحركت إلى الأمام، ثم رجعت إلى الوراء ووضعت ذيلها بين قائمتيها الخلفيتين. وأخذت بالزججرة والعض في الأرض أمامها.

قال **دي سالفو** أمراً: "**مارغوت**! تعالي إلى هنا". اندفع من خلال الأغصان

وأمسك بعناتها، ثم جرّها بعيداً عن مصدر هياجها.

لم أضطر إلى النظر، لأنني عرفتُ الأشياء التي وجدتها، والأشياء التي لم تجدها.
تذكرتُ أنني حدّقت في تلة ترابٍ جافٍ وحفرةٍ فارغةٍ. هل حُفرت بقصد دفن
شيء ما، أو بقصد نبش شيء ما؟ عرفتُ الآن.
اندفعت هارغوت بالنباح والزجرمة فوق الحفرة التي وقعتُ فيها الليلة الماضية.
كانت ما تزال فارغة، لكن أنف الكلبة أنبأني بما سبق واحتوته.

18

أنسا الآن على الشاطئ، انظر إلى الأمواج الهادرة. وتتهادى طيور الطيطوى على قوائمها النخيلة، وتنساب طيور البجع مثل الطائرات الورقية، وتأخذ بطوي أجنحتها لتنتقل إلى البحر. انتقلتُ بذهني إلى كارولاينا، واستطعتُ أن أشم رائحة المستنقعات الداخلية المالحة، ورذاذ المحيط المالح، والرمال الرطبة، والسماك الملقى على الشاطئ، والأعشاب البحرية الآخذة بالجفاف. رأيتُ في خيالي جزر هاتيرا، وأوكراكوك، وبالدهيد، في الشمال. أما إلى الجنوب فرأيت جزر باولي، وسوليفان، وكياوا. أردتُ العودة إلى موطني، ولا يهمني في أي جزيرة أكون. أردتُ أن أتواجد بين أشجار البلح وزوارق صيد الروبيان، وأن أبتعد عن النساء المذبوحات، وعن أجزاء الجثث.

فتحتُ عينيّ ورأيتُ الحمائم تقف على تمثال نورمان بيثيون. بدأت السماء تكتسب اللون الرمادي، وبدأت أشعة الشمس بالمغادرة، بلونيهما الزهري والأصفر، وبالاستسلام أمام جحافل الظلمة المتقدمة. أعلنت أضواء الشوارع ولافئات المحلات عن قدوم المساء بومضات من مصابيح النيون. تلاحقت أرتال السيارات، والعربات الرباعية الدفع، والتي تفرقت عند وصولها إلى مثلث أخضر يفصل ما بين شارعَي غاي ودي مايزونيف.

تشاركتُ جلوسي على مقعد مع رجل يرتدي كنزة على الطراز الكندي. استرسل شعره، الذي لم يكن أشقرًا أو أبيض اللون، على كتفيه. أضاءت مصابيح السيارات المارة ظهره، وبرزت هالة ضوء حول رأسه نتيجة لذلك، فبدا مثل

الزجاج المحفور. تماثل لون عيني الرجل مع لون سروال الجينز الذي غُسل ألف مرة. أحاط إطار أحمر عينيه اللتين تقاطرت من زاويتيها قشرة صفراء. راح يلتقط القشرة بأصابعه البيضاء التي تبدو وكأنها من العجين، وتدلى صليب معدني بحجم راحة يدي من رقبته.

ذلك المساء، وصلتُ إلى المنزل متأخرةً، وشغلتُ الآلة المحيية، ثم استسلمت للنوم. تداخلت خيالات أشخاص أعرفهم مع أشخاص لم أعرفهم، ساروا جميعاً في استعراض من دون شعارات. شاهدتُ رايان يلاحق غايي بعد أن دخلت إلى بناية مسكونة. رأيتُ بيتي وهو يتعاون مع كلوديل على حفر حفرة في باحة البناية التي أسكنها. شاهدتُ كاتي مستلقيةً على كيس بلاستيكي بيّ اللون ملقىً على شرفة منزلي البحري، وراحت تعرّض جسدها لأشعة الشمس الحارقة، ورفضت أن تستخدم المستحضر المخصص لوقاية الجلد. طاردني شخصٌ نحيفٌ على طول ضفة نهر سان لوران.

استيقظتُ مرات عديدة قبل أن أهدض أخيراً عند الساعة الثامنة مساءً. شعرتُ بألمٍ في رأسي، بالإضافة إلى الجوع. ومض ضوء أحمر اللون على الجدار القريب من جهاز الهاتف. ظل اللون الأحمر الخافت يومض، ويومض، ويومض. اقتربتُ من الجهاز فوجدتُ أنّ الآلة المحيية قد تلقت ثلاث رسائل. انخبتُ وضغطتُ على زر التشغيل.

أبلغني بيتي أنه يدرس عرضاً للعمل في مكتب محاماة في سان دييغو. يا للخير العظيم! قالت كاتي إنها تفكر في ترك المدرسة. رائع! أما المتصل الثالث فلم يترك رسالة. شعرتُ بالارتياح لأن اتصاله لم يحمل أخباراً سيئة. لم تصلني أي أخبار من غايي مع ذلك. عظيم!

لم تفلح محادثتي مع كاتي، التي استمرت عشرين دقيقة، في تهدئة مشاعري. كانت مؤدبة، لكنها لم تلتزم بأي وعد. قالت لي أخيراً، وبعد أن مرّت فترة صمت طويلة، "سأكلمك في ما بعد". سمعتُ نغمة الخط الهاتفية بعد ذلك. أغمضتُ عيني ووقفتُ ساكنةً تماماً. برزت في مخيلتي صورة كاتي عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها. اعتادت أن تقرب رأسها حينها من أبالوزا إلى درجة أن أذنها التصقت بأذنه، كما أنّ شعرها الأشقر اختلط مع شعر رقبته الداكن. كنتُ قد ذهبتُ في

ذلك النهار برفقة ببي كي نزورها في المعسكر. أضاء وجهها بالبشر عند رؤيتها لنا، وسارعت إلى ترك الحصان كي تغمري بذراعيها. كنا قريتين جداً من بعضنا بعضاً عندها. أين ذهبت كل تلك الحميمية التي جمعت بيننا ذات يوم؟ لماذا أصبحت تعيسة هكذا؟ ولماذا ترغب بترك المدرسة؟ وهل انفصالي عن ببي هو السبب؟ هل تقع الملامة علينا؟

آليني ذلك الشعور بعدم كفايتنا كوالدين، فحرّبت الاتصال بشقة غايي. لا جواب. تذكرت ذات مرة أما اختفت لمدة عشرة أيام. قلقتُ عليها كثيراً في ذلك الوقت. ولكن تبين لي أنها ذهبت في عزلة كي تكتشف ذاتها الداخلية. لعلها قطعت اتصالها بي نظراً لرغبتها بمعاودة الاتصال بذاتها الداخلية.

تناولتُ جبتي تيلينول كي أخفف الألم في رأسي، كما أسكتُ جوعي بوجبة #4 في مطعم سنغافورة، لكن لم ينجح أي شيء في القضاء على السخط الذي شعرتُ به. لم تُفلح حمامات التنزه، ولا الغرباء الذين يجلسون على المقاعد هناك، في إبعاد ذهني عن المواضيع التي تلح عليه على الدوام. تصادمت الأسئلة في رأسي كما تتصادم دفاعات السيارات. من كان هذا القاتل؟ وكيف يختار ضحاياه؟ وهل يعرفه يا ترى؟ وهل سبق له أن اكتسب ثقتهنّ، واستطاع بهذه الطريقة أن يتسلل إلى بيوتهنّ؟ قُلت أدكينز في منزلها، لكن ماذا بشأن تروتييه وغانغون؟ أين قُلتنا؟ هل حدث ذلك في مكان مخطط له سلفاً؟ وهل أنّ ذلك المكان مجهز بوسائل القتل والتشويه؟ وكيف شقّ القاتل طريقه؟ وهل كان سان جاك بذاته؟

حدّقتُ بالحمام من دون أن أراها. تصوّرتُ الضحايا، وتخيّلتُ رعبهنّ. لم تتعدّ شانثال تروتييه السادسة عشرة من عمرها. هل هدّدها بجد السكين؟ ومتى أدركت أنها ستموت؟ هل رجته أن لا يؤذيها؟ وهل توسّلت إليه الإبقاء على حياتها؟ برزت أمامي صورة كاتي، وبنات الآخرين اللواتي يشبهنها. شعرتُ بالتعاطف معهنّ إلى حدّ الألم.

عدت إلى التركيز على حاضري. أنهض صباحاً وأتوجه إلى مختبري، وأفحص العظام المكتشفة. وكلوديل، ذلك الشخص الذي أجدني مضطراً للتعامل معه. تذكرتُ الخدوش الموجودة على وجهي. تذكرتُ أيضاً أنّ طموح كاتي ينحصر في أن تصبح مشجعة لأحد فرق كرة السلة الأميركية، ولم تفلح محاولاتي المتكررة

لردعها عن ذلك. أعرف أن بيبى قد يتوجه نحو الساحل. شعرتُ برغبة شديدة في الارتباط عاطفياً، مثل مادونا، من دون أن يلوح أي شريك لي في الأفق. أين غايي بحق الجحيم؟

"وجدتها". قلّتها، وجفّلت الحمائم بسببها، وكذلك الرجل الجالس بجانبني. عرفتُ ما يتعيّن عليّ عمله.

سرتُ نحو منزلي، وتوجّهتُ نحو المرآب مباشرةً، ثم قدتُ سيارتي إلى كاري سان لوي. ركنتُ سيارتي في شارع هنري - جوليان، ثم سرتُ في المنعطف نحو شقة غايي. تجعّلي البناية التي تسكنها أفكر في بيت أحلام باري. عاد فكري الليلة نحو لويس كارول، وكدتُ أبتسم.

رأيتُ مصباحاً كهربائياً وحيداً ينبّر الشرفة المليئة بالخزّام، والتي انتشرت ظلال أزهار البيتونيا فيها. حدّقتُ بي مرآيا النوافذ، وكأنها تريد أن تقول لي: "إن أليس ليست في المنزل".

ضغطتُ على زرّ الشقة رقم 3. لا جواب. ضغطتُ ثانية. صمتٌ. جرّبتُ الشقة رقم 1، ثم رقم 2، وبعد ذلك رقم 4. لا جواب. يظهر أن وندرلاند (عالم الغرائب) قد أغلقت أبوابها هذه الليلة.

درتُ حول المرآب بحثاً عن سيارة غايي. لم أجدها في المكان. قدتُ سيارتي جنوباً من دون أن أخطط لوجهة سيرتي، ثم انعطفتُ شرقاً نحو ماين.

مرّت عشرون دقيقة محبّطة بحثتُ خلالها عن مكان أركن فيه سيارتي. تركتها أخيراً في ممر غير معبّد يؤدي إلى سان لوران. امتلأ هذا الممر بقناني شراب الشعير الفارغة، وبرائحة البول الكريهة. لاحظتُ كثرة أكوام النفايات، كما سمعتُ ضجيج أصوات الموسيقى من خلال قرميد أحد المنازل إلى يساري. يذكر هذا المكان بدعاية لأحد أنظمة أمن السيارات الشائعة، والمعروف باسم كلوب. لم أركب هذا النظام في سيارتي المازدا، التي عهدتُ بها إلى أحد مواقف السيارات، ثم انضممتُ إلى حشد الناس في الشارع.

تسكن جماعات متنافرة من الناس منطقة ماين حيث تتخذ كل جماعة فيها موقعاً خاصاً بها يجاور الجماعة الأخرى. تنشط بعض هذه الجماعات في النهار، بينما لا تنشط جماعات أخرى إلا في الليل فقط.

تشهد منطقة ماين نشاط العاملين في تسليم البضائع، وأصحاب المحلات، والطلاب، وسيدات البيوت، من ساعات الفجر وحتى الغسق. تُسمع في هذه الأوقات أصوات التجار واللاهين. تناهت روائح طيبة تدل على الأطعمة: السمك الطازج في والدمان، واللحم المدخن في شوارتز، التفاح والفريز في وارشو، والأطعمة المشوية في لا بولانجيري بولوناييز.

يخلي جمهور النهار الأرصفة لصالح نوع آخر من المخلوقات، وذلك عند استطلاعة الظلال وظهور أضواء الشوارع والحانات، وعندما تُقفل المتاجر والمطاعم وتفتح النوادي الليلية. بعض هؤلاء الأفراد غير خطرين من أمثال السواح، وطلاب الجامعات، الذين يأتون من أجل الحصول على شراب رخيص، ومغامرات رخيصة. يتألف بعض هؤلاء المارة من النوع الأخطر: القوادون، والتجار، وبنات الهوى، ومدمنو العقاقير غير القانونية. يجتمع في هذا الوقت المستغلون والمستغلون، المفترسون والمفترسون في حلقة الغذاء الدائرة في هذه المأساة الإنسانية.

امتلك أسياذ الليل زمام الأمور بالكامل عند الساعة الحادية عشرة وخمس عشرة دقيقة. امتلأت الشوارع، واكتظت الملاهي والحانات الرخيصة بروادها. سرتُ نحو سانت كاترين، ووقفتُ عند الزاوية، وأدرتُ ظهري لمقاطعة لايبيل. بدا لي أن مكاني هذا هو نقطة انطلاق مناسبة. دخلتُ، وسرتُ من أمام مركز الهاتف العمومي ذاته الذي أجزت منه غايي اتصالها اليائس معي.

فاحت رائحة محلول الصنوبر، والدهن، والبصل المقلي جيداً. كان الوقت متأخراً جداً على الغداء، وباكراً جداً على بدء النشاطات التي تعقب حفلات الشراب الصاخبة. لاحظتُ أن أربع حجرات فقط كانت مشغولة.

شاهدتُ شاين حلقا شعرهما على طريقة البانكي وهما يجذقان بيؤس في بعضهما بعضاً فوق طبقين نصف ممتلئين من الفلفل الحار. كان شعرهما الأسود الفاحم والشائك متماثلاً، وكأهما تقاسما تحمّل كلفة شامبو الكلايبرول. وضع الاثنان كمية من الجلد المرصع على رأسيهما تكفي متجراً متخصصاً في بيع لوازم الكلاب والدراجين.

رأيتُ امرأةً تميّز بذراعيها النحيلتين وشعرها المرفوع. انشغلت المرأة بالتدخين وشرب القهوة في حجرة موجودة في مؤخر القاعة. ارتدت كنزةً

واسعة حمراء اللون، بالإضافة إلى ما كانت تسميه والدتي سروال كابري. أعتقد أنها اتخذت هذا المظهر منذ أن تركت المدرسة كي تنضم إلى حملة المجهود الحربي. ارتشفت المرأة آخر جرعة قهوة في كوبها، وأخذت نفساً طويلاً من سيجارتها، ثم أطفأت عقب سيجارتها في صحن معدني صغير استخدم كمنفضة. راحت عينها المطليتان بالألوان تجول بتكاسل في أنحاء الغرفة. لم تتوقع المرأة بالفعل أن تجد شريكاً لها، لكنها كانت مستعدة للتحرك عند الحاجة. أظهر وجهها نظرة الغم التي تظهر على وجه شخص اعتاد التجوال في الشوارع منذ مدة طويلة. لم تعد هذه المرأة قادرة على التنافس مع الشابات الأصغر سناً منها، لكن لعلها تخصصت في مغامرات الممرات السريعة، ونشاطات المقاعد الخلفية. توفر هذه المرأة متعة في أوقات الليالي المتأخرة بأسعار تنافسية. رفعت الكنزة عن صدرها الهزيل، وتناولت فاتورتها، ثم مشت نحو المكتب. عادت روزي رايفتر للانطلاق في الشوارع مجدداً.

جلس ثلاثة شبان في حجرة تقع قرب المدخل. تمدد أحدهم على طاولة، وأحاط رأسه بإحدى ذراعيه، بينما اختفت الثانية في حضنه. ارتدى الشبان الثلاثة الكنزات، وسراويل الجينز القصيرة، واعتمروا قبعات كرة القاعدة. وجه اثنان منهم الجزء البارز من قبعتهما إلى جهة الخلف، بينما تحدى الثالث اتجاه الموضة فوضع الجزء البارز من قبعته من جهة جبهته. أهمل الشبان الجالسان إلى اليمين في الستهام شطيرتي جبن، وبدا أنهما لا يكثران برفيقهما. افترضت أنهما في السادسة عشرة من عمرهما.

لم يظهر أي مشرف آخر في المكان غير ناذرة عفة. لم تظهر غايي أبداً. تركت المطعم كي أبحث في طرفي شارع سانت كاثرين. بدأ سائقو الدراجات بالتوافد إلى هذا الشارع، وشاهدت أعداداً كبيرة من دراجات هارلي وياماها مركونة على جانبي الشارع الذي يمتد إلى جهة الشرق. تجمع مالكو هذه الدراجات بشكل جماعات متعددة، ولاحظت أنهم ارتدوا سترات جلدية، وانتعلوا أحذية عالية رغم المساء الدافئ.

جلست رفيقات هؤلاء وراء الشبان، أو تحلقن بشكل مجموعات لتبادل الأحاديث في ما بينهن. ذكرني منظرهن بأعوامي أثناء دراستي الثانوية. اختارت

النساء عالماً من العنف والسيطرة الذكورية. تُساق هذه الجماعة من النساء كما تُساق قطعان القردة. ويتعرضن لأشياء أسوأ من هذا، إذ يتم إجبار الشابات على الانغماس في عالم لا أخلاقي، وتوشم أجسادهن ويُحرقن، كما يتعرضن إلى الضرب والقتل. ومع ذلك، تتمسك الشابات بالبقاء في هذا العالم. يصعب علينا تصوّر ما الذي كانت عليه حياتهنّ السابقة، إذا ما اعتبرن أنّ هذا العالم يمثّل تحسناً في طريقة معيشتهمّ.

تفحصتُ المنطقة الواقعة إلى الغرب من سان لوران. رأيتُ ما كنتُ أبحث عنه. وقفت بنتا ليل تتسكعان وتدخانان وتلهوان مع الناس خارج الغراناذا. عرفتُ بواريت من بينهما، لكنني لم أتأكد من هوية الفتاة الأخرى.

قاومتُ دافعاً نشأ عندي كي أتخلّي عن مهمتيّ هذه، وأتوجه بدلاً من ذلك إلى منزلي مباشرة. هل يُحتمل أن أكون قد أخطأت في اختيار ملابسي؟ اخترتُ أن أرتدي كنزّة، وسروالاً من الجينز، وأن أنعل صندلاً، وتمنيتُ أن لا تُعتبر ملابسي هذه موحيةً، لكنني لم أكن متأكدة. لم يسبق لي أن قمتُ بهذا النوع من العمل الميداني.

كفّيتُ عن هذا التردد يا برينان لأنك تخدعين نفسك. اقتحمي المكان، فأسوأ ما يُمكن أن يحدث لك هو أن تتعرضي للهجوم، وعندها لن تكون المرة الأولى. تقدمتُ في سيرتي ووقفتُ أمام المرأتين.

"بونجور". بدا صوتي مرتعشاً، وخرج أشبه بصوت شريط تسجيل يتحرك بسرعة أكبر من معدّها الطبيعي. تضايقتُ من نفسي، وسعلتُ كي أغطي قلقي. توقفتُ المرأتان عن تبادل الحديث وحدقتا بي مطولاً كما لو أنهما تتفحصان حشرة غريبة، أو شيئاً دخل في أنفيهما. لم تتكلما، كما خلا وجهاهما من كل تعبير أو عاطفة.

غيّرتُ بواريت وقفتهما، وتحركت قليلاً إلى الأمام. ارتدت الكنزة القصيرة السوداء اللون ذاتها التي كانت ترتديها في المرة السابقة. أحاطت بحصرها بذراعها، وأسندت مرفق يدها الأخرى عليها. راقبتني من خلف عينيها المحجوبتين. سحبت نفساً كبيراً من سيجارتها، وأدخلت الدخان إلى أعماق رثتها، ثم قلبت شفقتها السفلى، ودفعت الدخان بقوة إلى الأعلى. بدا الدخان

مثل سحابة إزاء أضواء النيون المتوهجة الصادرة عن لافتة الفندق. نثرت أضواء اللوحة المضئية أنواراً وامضة من اللونين الأحمر والأزرق على جلدها الذي يشبه لون الكاكاو. أزاحت بصرها عني من دون أن تتلفظ بأي كلمة، وعادت لتنظر إلى المارة على الرصيف.

"ماذا تريدان يا عزيزتي؟"

جاء صوت ابنة الشارع هذه عميقاً وخشناً بعض الشيء، وكان الكلمات التي نطقت بها جاءت نتيجة جزئيات صوتية مليئة بفجوات تطفو من بينها. خاطبتي بالإنكليزية، وبإيقاعٍ ذكّرتني بسويقات السنابل، وتجمعات أشجار السرو، وبالفرق التي تعزف موسيقى الجاز. تذكرتُ أصوات الحشرات الطائرة التي تسرح في ليالي الصيف. بدت لي أنها أكبر سناً من بواريت.

"أنا صديقة غابرييل ماكولاي. أحاول أن أجدها."

هزّت رأسها. عجزت عن التمييز ما إذا كانت حركتها هذه تعني أنها لا تعرف غايي، أو أنها لا ترغب في إجابتي.

"إنها عالمة أنثروبولوجيا، وهي تعمل هنا."

"كلنا نعمل هنا يا عزيزتي."

أطلقت بواريت شجرة، وغيّرت وقفتها. نظرتُ إليها. كانت ترتدي سروالاً قصيراً، وحماله صدر مصنوعة من الفينيل الأسود اللامع. وثقت أنها تعرف غايي، لأنها كانت من ضمن النساء اللواتي رأيتهن في تلك الليلة، كما أنّ غايي دلّتن. بدت لي أصغر سناً عندما شاهدتها عن قرب، لكنني ركّزتُ أكثر على رفيقتها.

تابعتُ حديثي: "غايي امرأة سمينة نوعاً ما، وهي في مثل سنّي تقريباً، وجدائلها..." توقفتُ قليلاً هنا كي أتذكر اللون، "حمراء".

لقيتُ لامبالاة واضحة.

"كما أنها تضع حلقةً في أنفها."

لقيتُ صمتاً يماثل صمت جدار من أحجار القرميد.

"لم أستطع الاتصال بها منذ مدة. أعتقد أنّ هاتفها معطل، لذلك قلقتُ عليها قليلاً. تعرفانها بالتأكيد."

شدّدتُ على الضمير العائد لها ظناً مني أنني سألقى بعض التجاوب الناتج عن تشابه اللهجات. ولكنني لم ألقَ سوى وحدة الموقف التي تتميز بها فتيات الولايات الجنوبية.

هزّت لوزيانا كتفيها على طريقة سكان لوزيانا الفرنسية. حرّكت المرأة كتفيها أكثر مما حرّكت يديها.

لا يستغرب المرء تصرف فتيات الولايات الجنوبية. لم يعط هذا الموقف أي نتيجة، لذلك بدأتُ بفهم ما كانت تقوله غايي لي. لا ينبغي على المرء أن يطرح الأسئلة في هاين.

"إذا التقيتما هما، هل ستبلغانها أن قمب تبحث عنها؟"

"إنه اسم جنوبي يا عزيزتي، أليس كذلك؟"

دسّت ظفراً طويلاً مطلياً بالأحمر في شعرها، وراحت تمرّر طرفه فوق فروة رأسها. بدت كتلة شعرها متماسكة بحيث تستطيع الصمود في وجه إعصار. تحرك شعرها كتلة واحدة، مما أوجد لديّ الانطباع بأن شكل رأسها يتغيّر.

"ليس تماماً. هل تستطيعان أن تقترحا عليّ أي مكان أستطيع إيجادها فيه؟"

تلقيتُ هزة كتفٍ أخرى. سحبت ظفرها وتفحصته قليلاً.

تناولتُ بطاقةً من البطاقات التي أضعها عادةً في جيبي الخلفي.

"تستطيعان الاتصال بي على هذا الرقم إذا تذكّرتما شيئاً". رأيتُ بواريت وأنا

أبتعد عنهما وهي تتقدم كي تأخذ البطاقة.

فشلت عدة محاولات قمتُ بها مع بعض المارة في أرصفة شارع سانت كاثارين في إعطائي أي نتيجة. وتراوحت ردود أفعالهم ما بين عدم الاكتراث والازدراء الممزوج مع الشك وعدم الثقة. لم أحصل على معلومات. إذ لم يعترف أحدٌ بأنه رآها، حتى ولو سبق له أن شاهدها.

تنقلتُ ما بين حانة وحانة، وتحركتُ ما بين كل الأماكن الرخيصة التي يقصدها رواد الليل. لاحظتُ أنّ جميع هذه الأماكن هي من بنات أفكار مهندس داخلي مزيف. كانت الأسقف منخفضة، أما الجدران فمشيدة بأحجار ذات نوعية رديئة. طليت جميع هذه الجدران برسوم داي - غلو، أو غطيت بالقصب المزيف، أو بالخشب الرخيص. وجدتها كلها قائمة ورطبة تفوح منها رائحة شراب الشعير

المتعفة، والدخان، والعرق البشري. وجدتُ أرضيات الحانات الأفضل حالاً جافة، وكانت حماماتها نظيفة.

لاحظتُ منصات على شيء من الارتفاع في بعض الحانات. إذ تعاد الرقصات على التلوي والزحف فوق هذه المنصات. وتلتمع أسنانهنّ، وسروايلهن القصيرة، إزاء الأنوار السوداء، بينما يظهر الملل من وجوههنّ الجمادة. رأيت الرجال الذين يرتدون قمصاناً واسعة، والذين برزت شعيرات لحاهم قليلاً، يتناولون شراب الشعير من الزجاجات أثناء مشاهدتهم للراقصات. وأخذت سيدات المجتمع الزائفات بتناول الشراب الفرنسي الرخيص الثمن، أو المشروبات الغازية، كي يظهرن بمظهر النساء الثريات، وقد تصنّعن الابتسام للرجال الذين يعبرون من أمامهنّ أملاً في اجتذابهم. قصدت النساء الإغراء، لكن التعب هو الذي ظهر على وجوههنّ.

اكتشفتُ أنّ الأكثر تعاسةً بينهنّ هنّ النساء اللواتي يعبرن حدود عالم التجارة بالأجساد، أي اللواتي يقفن عند خط البداية، أو عند خط النهاية. رأيتُ بعضهنّ صغيرات في السن، وبعضهنّ الآخر بالكاد وصلن إلى سن البلوغ. خرجت بعض الفتيات بحثاً عن المرح والكسب السريع، وهربت أخريات من جحيم منازلهنّ. امتلكت قصصهنّ موضوعاً مشتركاً. يقول لسان حالهنّ: تحرّكي قدر ما تريدن كي تجمعي ثروة، ثم انطلقي في حياة محترمة. تصل المغامرات والهاريات بالباص من سانت تيريزا، وقال دي أور، أو من فالي فيلد وبوان دو لأك. أتين بشعرهنّ اللامع ووجوههنّ النظرة، وقد امتلأن ثقة بقوهنّ، ووثقن بقدرتهنّ على التحكم بالمستقبل. كانت العقاقير غير القانونية مجرد مغامرة مرحة بالنسبة إليهنّ. تعجز هؤلاء الفتيات عن إدراك أنّ هاتين الآفتين هما أول خطوتين من الخطوات المؤدية إلى اليأس، والذي يستمر بالتزايد حتى لا يتبقى أي حل أمام الفتاة إلا السقوط المريع.

بقيت الفتيات اللواتي أسعفهنّ الحظ وكبرن بالسن. لم تتمكن غير الفتيات الحذرات حقاً، والقويات بشكل استثنائي، من جني ثروة معقولة ومغادرة هذا العالم. أما المريضات والضعيفات منهنّ فأدركهنّ الموت. تمكنت الفتيات القويات الأجسام، لكن الضعيفات الإرادة من الصمود، ولقد عرفن مستقبلهنّ وقبلته.

ستموت هؤلاء الفتيات في الشوارع لأنهن لا يجدنَ أي شيءٍ آخر، أو لأنهنَّ أحبينَّ أحد الرجال، أو خشينَّه، إلى حدِّ يكفي لبيعه أجسادهنَّ، أو شراء ما يبيعه من عقاقير غير قانونية، أو بسبب احتياجهنَّ للطعام، أو مكان للمبيت.

توجهتُ إلى اللواتي دخلنَ حديثاً في هذا السلك، أو اللواتي على وشك تركه. وتجنبتُ الحديث مع الجيل المُسن، واللواتي اكتسبنَ صلابة وقوة من الشارع، واللواتي يستطعنَ الدفاع عن الأماكن التي يتواجدنَ بها، بنفس قوة خضوعهنَّ لقواديهنَّ. افترضتُ أن الفتيات الصغيرات في السن، والبسيطات، واللواتي يتمتحنَ بقدر من التحدي، هنَّ أكثر انفتاحاً. ولكن اكتشفتُ بأنني مخطئة. فلقد ابتعدنَ عني كلما دخلتُ حانةً بعد حانة، وتركنَ أسئلي تتلاشى في الهواء المليء بالدخان.

احترمت الفتيات قانون الصمت، وعدم السماح للغرباء بالدخول. شعرتُ بالإجهاد الشديد بحلول الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة. فاحت رائحة دخان السجائر والعقاقير غير القانونية من شعري وثيابي، أما حذائي فتشبع برائحة شراب الشعير. شربتُ ما يكفي من السبرايت الذي يمكنني من عبور صحراء كالاهاري، لكنَّ عينيَّ امتلأتا بالحصى الدقيق. استسلمتُ بعد أن تركتُ المزيد من المجانين الموزعين في الحانات، وغادرتُ المكان.

19

إمتلأ الهواء برطوبة تشبه الندى في تكوينها. وارتفع الضباب من النهر، والتمعت في الجو حبيبات دقيقة جداً مثلما تلتمع أضواء مصابيح الشوارع. شعرتُ بالراحة نسيجة برودة الجو ورطوبته التي تصدم بشرتي. ذكّرتني وخزة الألم التي شعرتُ بها ما بين رقبتي وكتفي بأنني أجهدتُ نفسي لساعات طويلة. أحسستُ برغبة في الهروب، ولعلني كنت أهرب فعلاً عن طريق البحث الذي قمتُ به عن غايي، ولعل هذا البحث هو الذي سبّب لي التوتر. تعودت الاقتراب من عالم بنات الهوى، وكذلك تعودت على رفضهن التحدث معي، مثلما اعتدن تجنب سيارات الشرطة، والمتطفلين بشكلي غريزي.

أجهدتني المعركة الدائرة في داخلي أكثر من أي شيء آخر. أمضيتُ أربع ساعات في محاولة إبعاد حبيب قلمي، وهو الحبيب الذي لم أستطع أبداً التخلص من حبه. حدقتُ طيلة الليل بإغراء الوهج الكستنائي اللون الذي يتميز به شراب السكوتش مع الثلج، وبشراب الشعير الكهرماني اللون، الذي ينساب من الزجاجات إلى الحناجر. تمكنتُ من تنشق رائحة حبيبي الذي يتألق وجهه مثل ضوء القمر، ورأيتُ وهجه في العيون المحيطة بي. أحببته ذات مرة. يا الله! ما زلتُ أحبه، لكن ذلك السحر الفتان قد يكون قاتلاً. إن العبث من جهتي، مهما كان قليلاً، من شأنه أن يجعل هذا العشق القديم يسيطر عليّ من جديد. ابتعدتُ عن العبث لهذا السبب، ببطء وتصميم. لا يمكننا أبداً أن نصبح صديقين، لأننا كنا حبيبين ذات مرة. التقينا هذه الليلة، وكدنا أن نتعانق.

أخذتُ نفساً عميقاً. كان الهواء مشبعاً برائحة زيوت المحركات، والإسمنت الرطب، والخميرة المتصاعدة من مصنع هولسون للشرايب. كان شارع سانت كاثارين خالياً تقريباً. مرّ رجلٌ مسنٌ يعتمر قبعةً صوفيةً على رأسه، ويرتدي معطفاً سميكاً أمام واجهة متجر، ومشى كلب هجين قذر إلى جانبه. رأيتُ كلباً آخر يفتش في كومة النفايات الموجودة في النهاية البعيدة من الشارع. أعتقد أنّ شارع ماين يمتلك فريقاً ثالثاً من الرواد.

شعرتُ بالإحباط والإجهاذ، فتوجهتُ نحو سان لوران. بذلتُ جهدي كي أجد غسابي، لكن هؤلاء الأشخاص لم يكونوا مستعدين لمساعدتي على الوصول إليها. تبين لي أنّ هذا الملهى مقفلٌ، تماماً مثل ملهى جونيور ليغ.

مررتُ من أمام ماي كينه. وضعتُ لوحة فوق النافذة تعلن عن مأكولات فييتنامية أعلنت أنها متوفرة طيلة الليل. نظرتُ من خلال الزجاج الوسخ بقليلٍ من الاهتمام، ثم توقفت. فلقد رأيتُ رقيقة بواريت جالسةً في حجرة خلفية. بقي شعرها المرفوع جامداً بشكل معبد بوذي. راقبتها فترةً من الزمن.

وضعتُ في طبقها قطعة أوملت في صلصة حمراء بلون الكرز، ثم رفعتها إلى فمها وبدأت بتذوقها. تفحصت أوملت بعد قليل، ثم أجهزت عليها بأسنانها الأمامية. وضعت بعد قليل قطعةً أخرى وكررت العملية ببطء. رحّت أتساءل عن عدد المرات التي فعلت فيها ذلك.

لا تدخلني. نعم ادخلي. تأخر الوقت. اللعنة! جرّبي مرةً أخيرة. دفعتُ الباب ودخلت.

"مرحباً".

ارتجفت يدها عندما سمعت صوتي. بدت منذهلة في البداية، ثم استرخت قليلاً عندما تذكرت أنها رأيتني من قبل.

"مرحباً عزيزتي. ألم تعودتي إلى المنزل بعد؟" عادت إلى وجبتها بعد ذلك.

"هل تسمحين لي بالجلوس؟"

"كما تشائين. أنت لا تعملين في منطقتي، يا حلوة. لا أملك أي شيء ضدك".

دخلت إلى الحجرة. تبين لي أنها أكبر سناً مما توقعت، وقد تكون في أواخر الثلاثينيات من عمرها، أو في أوائل الأربعينيات. لاحظتُ أنّ الجلد في منطقة عنقها

وجبهتها مشدودٌ، وأن لا وجود للترهل تحت عينيها، لكنني استطعتُ تحت أضواء الفلوريسنت القوية أن أرى تغضنات دقيقة تنطلق من شفثيها. لاحظتُ أن خط فكّها قد بدأ بالارتخاء.

أحضر النادل لائحة الأطعمة فطلبتُ حساء التونكينواز. لم أكن جائعة، لكنني أردتُ أن أخلق عذراً للبقاء.

"هل وجدتِ صديقتك يا عزيزتي؟" تناولت كوب قهوئها، فطقطقت الأساور البلاستيكية التي تحملها في معصمها. تمكنتُ من رؤية آثار ندوبٍ تحترق الجهة الداخلية من مرفقها.
"كلا".

انتظرنا قليلاً ريثما أحضر لنا صبيّ آسيويّ، في الخامسة عشرة من عمره تقريباً، المياه ومندياً ورقياً.
"أدعي تمب برينان".

"تذكرتك. أنا جويل تامبو، بنت الهوى". تناولت قزمة من طعامها ثانية.
"آنسة تامبو. أنا..."

"تستطيعين منادائي جويل، يا عزيزتي".

"جويل. أمضيتُ أربع ساعات كي أعرف ما إذا كانت صديقتي بخير. لم يعترف أحد بأنه سمع اسمها على الإطلاق. دأبت غايي على المجيء إلى هنا منذ أعوام، ولهذا أنا متأكدة من أنهم يعرفون عنم أتحدث".

"يُحتمل أنهم يعرفونها يا عزيزتي، لكنهم لا يعرفون سبب سؤالك عنها". وضعت الطبق على الطاولة، واحتست من كوب قهوئها، فأصدرت صوتاً خفيفاً.
"أعطيتك بطاقتي. أنا لا أخفي شخصيتي".

حدقت بي لبرهة. امتلأت الحجرة الصغيرة برائحة العطر، والدخان، والشعر غير المغسول. بدت المنطقة المحيطة بعنقها ملطخة بمساحيق التجميل.

"هل أنت الآنسة الشخص الذي تقول عنه البطاقة إنه يدعى تمب برينان؟ هل تطاردين أحداً؟ وهل تسعين لإثارة ضحيج من نوع آخر؟ أم أنك تمتلئين حقداً؟" رفعت أثناء كلامها شيئاً يشبه المخلب الطويل الأحمر اللون من كوبها، ووجهته نحوِي، وكأنها تشير إلى كافة الاحتمالات.

"هل أبدو وكأنني أمثل تهديداً ضد غايي؟"
"رآك الجميع يا عزيزي هنا مرتدياً كنبزة شارلوت هورنيت، ومنتعلاً
صندل يوبي، كما أنك تطرحين الكثير من الأسئلة، وتحاولين حمل فتاة ما كي
تعطيك ما لديها. لن تنجحي في مسعاك أبداً. لا يعرف الناس هنا كيفية التعامل
معك".

أحضر النادل حسائي. جلسنا بصمت، ووضعتُ مكعبات صغيرة من الليمون
الحامض في طبقسي، ثم أضفت بعض الفلفل الأحمر مستخدمةً ملعقة صغيرة من
الخزف الصيني. راقبتُ جويل أثناء تناولي لطعامي، وهي تلتهم ما تبقى لها من طبق
الأومليت، وعندما انتهت قرّبت كوب قهوتها ووضعتَه أمامها مباشرة.

"أنت محقة. ما كان يجدر بي استخدام هذه الطريقة الهجومية مع الناس وطرح
الأسئلة عليهم بهذه الطريقة. إنني قلقة على غايي، هذا كل شيء. اتصلتُ بها أولاً،
ثم قصدتُ منزلها. اتصلتُ بها في الجامعة. لا يبدو أن أحداً يعرف أين هي. لم
تعود الغياب لهذه المدة الطويلة".

تناولتُ ملعقة من الحساء. اكتشفتُ أن مذاقها أفضل مما توقعت.

"ماذا تعمل صديقتك غايي؟"

"إنها عالمة أنثروبولوجيا، وهي تقوم بأبحاث عن الناس، كما أنها تهتم بالناس
الذين يعيشون في هذا المكان بشكل خاص".
"تحدثين عن النضوج في ماين".

استرسلت بالضحك بينها وبين نفسها، وراحت تراقب رد فعلي على
اقتباسها من مارغريت ميد. لم أظهر أي رد فعل، لكنني بدأت أدرك أن جويل
تامبو ليست تلك الدمية. أحسستُ أنني أتعرض لاختبار.

"لعلها لا تريد أن يعرف أحد بمكانها في الوقت الحالي".

يمكنك أن تفتحي دفاتر امتحاناتك.

"يُحتمل ذلك".

"إذاً ما المشكلة في ذلك؟"

يمكنك الآن أن تحضري أقلامك.

"بدت مضطربة جداً في آخر مرة التقينا فيها. كانت خائفة تقريباً".

"مضطربة لأي سبب يا حلوتي؟"

هل تحضرت تماماً؟

"اعتقدت أنّ شخصاً ما يلاحقها. قالت إنه رجلٌ غريب الأطوار".

"يوجد كثير من الأشخاص الذين يتميزون بأطوارٍ غريبةٍ يا عزيزتي".

حسناً أيتها الحسنة، ابدئي الآن.

أخبرتها القصة بكاملها. حرّكت كوب قهوهها أثناء إصغائها للقصة، وراحت

تحّدق بالسائل البني المائل إلى الأسود وكأنها تنتظر إجابتي. أشارت بعد ذلك للنادل

بأنها تريد كوباً جديداً. جلست صامتةً منتظرةً درجة التقدير التي ستعطيني إياها.

"لا أعرف اسمه، لكنني أعتقد أنني أعرف عمن تتحدثين. إنه شخص نحيل

ومتأنق، ويشبه البرقة. إنه غريب الأطوار فعلاً، ولا أعتقد أنّ غرابه أطواره تعود إلى

سبب بسيط. أعتقد مع ذلك بأنه ليس خطراً. أشك في أنه يستطيع قراءة الملصقات

على زجاجة صلصة البندورة".

نُجحتُ في الامتحان.

"معظمنا يتجنبه".

"لماذا؟"

"أنا أنقل ما يتردد في الشارع لأنني لا أتعامل معه. يجعلني الرجل أشعر

بالقشعريرة، وكأنني أشاهد تمساحاً يزحف في الوحل". كشرت قليلاً وهزت

كتفها، "يقولون إنّ الرجل يمتلك رغبات غريبة".

"غريبة؟"

وضعت كوهها على الطاولة، ونظرت إليّ كي تقيّمني من جديد.

"لا يطلب الرجل منا سوى الرفقة، لكنه يدفع لقاء ذلك".

غرفت بعض المعكرونة وانتظرت.

"ترافقه فتاة تدعى جولي، لأن الأخريات يرفضن الخروج معه، لا تملك الفتاة

ذكاءً كبيراً، لكن ذلك أمرٌ آخر. أخبرتني أنّ العرض ذاته يتكرر في كلّ مرة.

يذهبان إلى الغرفة، فيشرع رجلنا هذا في إحضار كيس ورقّي يحتوي ثوب نوم. لا

يمتاز هذا الثوب بشيء غريب، لكنه مخزّم مثل بقية الأثواب. يراقبها الرجل وهي

ترتيبه، ثم يطلب منها الاستلقاء في السرير. إنه أمرٌ عادي حتى الآن. ينتقل الرجل

بعد ذلك إلى تمسيد الثوب بإحدى يديه، ويضع يده الأخرى على أماكن حساسة عنده. يشعر الرجل بإثارة شديدة، ويروح يئن ويتأوه، وكأنه في قمة إبداعه. يطلب منها بعد ذلك أن تخلع ثوب النوم، ويشكرها، ويدفع لها، ثم يغادر. تعتقد جولي أنها تحيي أموالاً سهلة بهذه الطريقة."

"ما الذي يجعلك تعتقدين أن الرجل نفسه هو الذي يزعم صديقتي؟"

"شاهدته جولي ذات يوم عندما كان يضع الثوب في الكيس. ولاحظت وجود قبضة سكين كبيرة فيه. أبلغته أنه إذا كان راعي البقر يرغب بالمزيد من المتعة فإن عليه التخلص من السكين. قال إنه سيف الحق الخاص به، أو شيئاً غريباً من هذا القبيل يتعلق بالسكين، وروح، وبالتوازن البيئي، وتفاهات مثل هذه. أخافها الرجل كثيراً."

"ثم ماذا؟"

هزت كتفها مجدداً.

"هل ما زال يتردد إلى هذه المنطقة؟"

"لم أره منذ مدة، لكن هذا لا يعني شيئاً بالضرورة. لم أكن أراه بشكل منتظم. يظهر الرجل تارةً ويختفي طوراً."

"هل سبق وتحدثت معه ذات مرة؟"

"تحدثنا كلنا معه أيتها الحلوة. يبدو الرجل مضجراً ومزعجاً عندما يأتي إلى هنا. استنتجت بأن شخصيته مثل البرقة بسبب ما لاحظته فيه."

غرفت المزيد من المعكرونة: "هل سبق أن رأيته مع ماغي؟"

استرخت في جلستها وضحكت: "سؤال رائع يا حلوتي."

"أين أستطيع أن أجده؟"

"لا أعرف مطلقاً. انتظري قليلاً، سيظهر ذات يوم."

"وماذا بشأن جولي؟"

"إنها منطقة تجارة حرة يا عزيزتي. تأتي الفتيات ويذهبن، لكنني لا أحتفظ بسجلات عنهن."

تفحصت قطع المعكرونة في أسفل الطبق، ثم نظرت إلى جويل. رفعت الغطاء قليلاً، فاختلست نظرة إلى الداخل. تساءلت إن كنت أستطيع رفع الغطاء أكثر. جازفت ورفعت الغطاء.

"هناك احتمال بوجود قاتل تسلسلي يسرح في هذا المكان يا جويل. هناك شخص يقتل النساء ويقطعهن".

لم تتغير تعابير وجهها مطلقاً. نظرت إليّ بوجه جامد كالصخر. إما أنها لم تفهمني، وإما أن أفكار العنف، والألم، وحتى الموت، قد أرعبتها. يُحتمل أيضاً أن تكون قد تظاهرت باللامبالاة، ووضعت قناعاً كي تُخفي الخوف الذي يصعب التعبير عنه بالكلام. افترضتُ أن الاحتمال الأخير هو الصحيح.

"هل صديقتي في خطر يا جويل؟"

حدّقنا في عيون بعضنا بعضاً لفترةٍ من الوقت.

"وهل هي أنني يا عزيزتي؟"

قادتُ سيارتي في طريقي إلى المنزل. وتركتُ أفكاري تسرح على هواها، وهكذا أعطيتُ انتباهاً قليلاً للقيادة. كان شارع دي مايزونيف مهجوراً. سلّطتُ مصابيح السيارات أنوارها على منزل فارغ. رأيتُ، فجأةً، زوجاً من أنوار السيارات ينعكس في مرآة سيارتي الخلفية. توجستُ شراً من هذه الأنوار على الفور.

عبرتُ شارع بيل، ثم انحرفتُ إلى اليمين كي أفسح المجال لمروور السيارة. بقيتُ الأنوار تتحرك ورائي، لذلك عدتُ للسير في الخط الداخلي. تبعتني السائق، لكنه شغل الضوء العالي.

"مغفل".

زدتُ السرعة، لكن السيارة بقيت تلاحقني.

شعرتُ بوخزة من الخوف، فلعل الرجل ليس مجرد سكير. حدقتُ في المرآة الخلفية وحاولتُ أن أعرف على هوية السائق. لم أستطع رؤية أي شيء عدا ظلٍ داكن، لكنه بدا كبيراً. هل هو رجل؟ لا أستطيع أن أتأكد. كانت الأضواء تُعمي الأبصار، أما السيارة فلم أتمكن من تحديد نوعها.

أمسكتُ عجلة القيادة بإحكام وعبرتُ شارع غاي، ثم انعطفتُ إلى اليسار. تجاهلتُ الأنوار الحمراء واندفعتُ بسيارتي في الشارع الذي أسكن فيه، ثم توجهتُ بها نحو مرآب البناية التي أسكنها.

انتظرتُ قليلاً حتى تنتهي عملية انغلاق الباب الكهربائي. أغلقته بالمزلاج، وجهزتُ المفاتيح. أصغيتُ جيداً كي أتأكد من سماعي وقع أقدام. لم يتبعني أحد،

لكن ما إن دخلتُ إلى رواق الطابق الأول من البناية، حتى اختلستُ نظرةً من خلال الستائر. رأيتُ سيارةً متوقفةً على رصيف الجهة البعيدة عني من الشارع، لكن أضواءها بقيت مشتعلة. رأيتُ ظلاً معتماً للسائق من زاوية جانبية. هل هي السيارة ذاتها؟ لست واثقةً مما إذا كنت قد فقدتُ أثرها.

وجدتُ نفسي مستلقيةً حتى بعد مرور ثلاثين دقيقة، وأنا أهدقُ بستائر الظلمة المخيِّمة خارج نافذتي أثناء تغيُّرها من اللون الأسود الفاحم إلى اللون الرمادي الحزين. أخذ بيردي يخرخر قرب الجهة الخلفية من ركبتي. شعرتُ بإجهاد كبير. خلعتُ ثيابي وخلدتُ للنوم متجاهلةً الروتين المعتاد، مع أن ذلك ليس من عادي. إنني التزم، عادةً، بنظامٍ صارمٍ في ما يتعلق بأسناني وزينتي، لكنني أهملته هذه الليلة.

20

إنَّ يومَ الأربعاء هو يوم جمع النفايات في منطقتي السكنية. استسلمتُ للنوم رغم صوت شاحنة جمع النفايات وتعقيمها. غفوتُ رغم وكزات بيردي المتكررة، ورغم رنين الهاتف ثلاث مرات.

استيقظتُ عند الساعة العاشرة وخمس عشرة دقيقة وأنا أشعر بكسلٍ كبيرٍ، وبألمٍ في الرأس. لم أعد ابنة الرابعة والعشرين. فرض السهر الطويل على مدى الأعوام آثاره عليّ، لكنني وجدتُ صعوبة كبيرة في الاعتراف بهذه الآثار.

فاحت رائحة الدخان من شعري، ومن جلدي، وحتى من وسادتي وأغطية سريري. جمعتُ كل البياضات، وثيابي، ووضعتها في غسّالة الثياب، أخذتُ حماماً طويلاً، واستمتعتُ برغوة الصابون وفقاقيعه. رنَّ الهاتف عندما شرعتُ في وضع زبدة الفستق فوق قطعة كرواسان.

انساب صوت لامانش عبر سماعة الهاتف: "تقميرنس؟"
"أجل".

"كنت أحاول الاتصال بك".
تطلعتُ نحو الآلة المجيبة في هاتفي. سجّلت الآلة وصول ثلاث رسائل.
"آسفة".

"ومي. هل سنراك هذا اليوم؟ اتصل بك المسير رايان".
"سأكون هناك في غضون ساعة".
"حسنًا".

شغلتُ الآلة كي أسمع الرسائل المسجلة.

أتت الرسالة الأولى من طالب جامعي يائس. وأتت الرسالة الثانية من لامانش. أما الثالثة فكانت اتصالاً مقطوعاً. لم أكن في مزاجٍ يسمح لي بالتفكير في مشاكل الطلبة، لذلك حاولتُ الاتصال بغايي. لا جواب. طلبتُ رقم كاتي، لكن الآلة المحيية هي التي ردّت.

"اترك رسالة قصيرة مثل هذه". جاء طلب الآلة مرحباً. تركتُ الرسالة، لكن من دون مرح.

وصلتُ إلى المختبر بعد مرور عشرين دقيقة. وضعتُ حقيبي الصغيرة في دُرج المكتب. تجاهلتُ الأوراق الزهرية اللون التي انتشرت على مكثي، ونزلتُ على الفور إلى الطابق السفلي حيث المشرحة.

يأتي الأموات إلى المشرحة أولاً. يُسجّلون أولاً ثم يُنقلون إلى مقصوراتٍ مبردة حتى تعيّن مختبرات الطب الشرعي طبيياً مختصاً بعلم الأمراض لمعاينة الجثث. تدلّ ألوان الأرضية على الهيئة التي لها صلاحية الإشراف على الجثة. تبدأ المشرحة بعرف التشريح. تتوقف الأرضية الحمراء لكل مشرحة عند عتبة قاعة التشريح. يُشرف ضابط تحقيق على المشرحة، أما مختبرات الطب الشرعي فتشرف على العاملين فيها. تسدل الأرضية الحمراء على مجال صلاحية ضابط التحقيق. وتدل الأرضية الرمادية على مجال صلاحية مختبرات الطب الشرعي. اعتدتُ أن أجري اختباراتي الأولية في إحدى غرف التشريح الأربع. تُرسل العظام بعد ذلك إلى مختبر الأنسجة للتنظيف النهائي.

كان لامانش منهمكاً بفتح شق على شكل حرف Y في صدر طفلة رضية. ظهرت كتفاها الصغيرتان على وسادة مطاطية، بينما أسدلت ذراعها على جانبيها فبدت وكأنها تقوم بدور ملاك الثلج. نظرتُ إلى لامانش.

قال لي بصوت مرتعشٍ: "Secouée".

رأيتُ ناتالي أيرز منحنية فوق جثة أخرى مجهزة للتشريح، بينما أهتمكت ليزا في رفع درعٍ صدريٍّ عن رجلٍ في مقتبل العمر. برزت عيناه المنتفختان بلون أرجواني من تحت شعره الكثيف الأحمر اللون. تمكنتُ من رؤية فجوة صغيرة وداكنة في جبهته اليمنى. إنها حالة انتحار. رأيتُ ناتالي التي بدأت العمل

حديثاً في مختبرات الطب الشرعي، لكنها لم تأخذ على عاتقها أي جريمة قتل حتى الآن.

وضع دانيال الموضع الذي كان يسته على الطاولة: "أتريدن عظام سان لامبرت؟"

"ضعها من فضلك على الطاولة رقم 4".

أوماً قبل أن يختفي في غرفة المشرحة.

استغرق تشريح العظام فترة أربع ساعات. تأكدت في نهايتها من صحة انطباعي الأولي بأن هذه البقايا تعود إلى الشخص ذاته، وبالتحديد إلى أنثى بيضاء في حوالى الثلاثين من عمرها. لاحظتُ أنّ العظام تمتلك القليل من الأنسجة اللينة، لكنها كانت في حالة سليمة، حتى أنّها احتوت القليل من الدهن. ماتت المرأة منذ فترة تتراوح ما بين العامين والخمسة أعوام. لاحظتُ أمراً غريباً تمثل في وجود قوسٍ ملتحم في فقرتها القطنية الخامسة. يصعب التعرف على هوية صاحب الجثة من دون وجود الرأس.

طلبتُ من دانيال أن ينقل العظام إلى مختبر تحليل الأنسجة، وأن يقوم بغسلها، ثم توجهتُ إلى الطابق العلوي. زادت سماكة الأوراق الزهرية اللون على طاولة مكيتي. اتصلتُ ببرايان وزودته بتلخيص عما اكتشفته. قال لي إنه يعالج تقارير قضايا الأشخاص المفقودين الآتية من مراكز شرطة سان لامبرت.

وصلتني إحدى المكالمات من آرون كالفرت الذي يعمل في نورمان، أو كلاهوما. أتت المكالمة يوم أمس. اتصلتُ به فتلقيتُ رداً من صوت عذب أبلغني أنه بعيد عن مكتبه. أكدت لي صاحبة الصوت بأنها آسفة جداً، وأضافت أنّها ستبلغه رسالتي. تأثرتُ بلطفها المهني. أجلتُ الرد على الرسائل الأخرى، وانصرفتُ كي أرى لوسي دومون.

امتلاً مكتب لوسي بأجهزة موصولة مع الكمبيوتر، والطابعات، وأجهزة متنوعة أخرى. تسلقتُ الأسلاك الجدران قبل أن تختفي في السقف، أو جمعت في حزمٍ تواجدت فوق الأرضية. رأيتُ أكداًس التقارير المطبوعة على الرفوف وعلى الخزائن، وانتشرت مثل تراب السيل الذي يبحث عن أكثر النقاط انخفاضاً.

تقع طاولة مكتب لوسي قبالة الباب مباشرة، وتتواجد مجموعة خزائن وتجهيزات بشكل حرف U ورائها. رأيتها تنتقل من موقع إلى موقع، وانشغل هذاؤها الرياضي الذي تنتعله في دفع كرسيها عبر الأرضية الرمادية. لم يسبق لي أن رأيت وجه لوسي، لأنني كنت أرى الجزء الخلفي من رأسها وراء شاشة تومض باللون الأخضر.

تضم الدائرة التي تقع وراء لوسي هذه الأيام خمسة يابانيين يرتدون بدلات عمل. شكّل هؤلاء حلقة حول لوسي. اعتاد هؤلاء على إسدال أيديهم على جوانبهم، والإيماء بجديّة، كلما أشارت إلى شيء ما على الشاشة قبل أن تشرح لهم أهميته. لعنتُ توقيت زيارتي، وتوجّهتُ إلى مختبر الأنسجة.

وصل هيكل سان لامبرت من المشرحة قبل وقت قصير. رحّتُ أحلّل الخرز بالطريقة ذاتها التي أتبعتها مع تروتييه وغانون. دوّنتُ أوصاف كل علامة وموقعها، حتى إنني رسمتُ شكلها بعد أن قمت بقياسها. رسمتُ أيضاً آثار بدايات النشر الزائفة. دلّت الجروح والأخاديد الدقيقة على استخدام السكاكين والمناشير، أي تماماً مثلما كانت عليه الحالتان السابقتان. ظهرت التفاصيل المجهرية بشكل مشابه، أما مواقع الخرز فكانت متطابقة تقريباً مع الحالات السابقة أيضاً.

نُشرت يدا المرأة في منطقة المعصم، وفُصلت الأطراف الباقية عند المفاصل. لاحظتُ أنّ بطنها قد جُرح في خط المنتصف تقريباً، وكان عميقاً بما يكفي كي يترك أثراً على العمود الفقري. كانت الجمجمة والقسم الأعلى من العنق مفقودين، لكن العلامات التي رأيتها على الفقرة العنقية السادسة دلّت على أنّها دُبحّت في خط منتصف الرقبة. بدا الرجل مصراً على اتباع الطريقة ذاتها.

أعدتُ وضع العظام في الصندوق، وجمعتُ أوراق ملاحظاتي، ثم عدتُ إلى مكثي. عرّجت على الرواق كي أتأكد ما إذا كانت لوسي قد فرغت من عملها. لم أجد أثراً لها، أو لليابانيين المتأقنين. تركتُ ورقة مراسلات على أحد أجهزتها. أردتها أن تشكرني على إعطائها فرصة للاستراحة.

اتصل بي كالفورت أثناء غيابي. لم يكن ذلك بالشيء الغريب. ظهرت لوسي على باب مكثي، وشبكت يديها أمامها بشدة، في الوقت الذي شرعتُ فيه بنقر أرقام هاتفه.

سألتني بالفرنسية بعد أن رسمت ابتسامةً سريعةً على شفتيها: "هل تركت رسالة في مكثبي يا برينان؟"

بدت نحيلةً جداً بشعرها الأجدد الذي أضاف سنتيمترات قليلة إلى حجمتها. ظهرت نظارتها كبيرة جداً بسبب قلة كثافة شعرها وجلدها الشاحب، فبدت أقرب إلى مانيكان في متاجر الثياب المخصصة للقياسات الكبيرة. نهضتُ وقدمتُ كرسيًا لها: "نعم يا لوسي، شكرًا على مجيئك". وضعت قدميها الواحدة خلف الأخرى وراء قائمة الكرسي الذي استرخت عليه. بدت لي مثل الهرة التي تندس في وسادة.

"هل اضطررت للقيام بمهمة سياحية؟"

انتزعت ابتسامة، ثم أصبح وجهها خاليًا من كل التعابير.

"هل انشغلت مع السادة اليابانيين".

"نعم. إنهم يعملون في مختبر كشف الجرائم في كوي. يختص معظمهم في الكيمياء، لكنني لم أتضايق منهم".

قلت لها: "لست متأكدة ما إذا كنتِ تستطيعين مساعدتي، لكنني أردت أن أسألك".

ركّزت عدستها على صفٍ من الجماجم التي احتفظتُ بها على الرف الموجود وراء طاولة مكثبي.

شرحتُ لها: "إنها للمقارنة".

"وهل هي جماجم حقيقية؟"

"نعم، إنها جماجم حقيقية".

نقلت بصرها واستطعتُ أن أرى نسخة مشوهة من صورتي في كل عدسة زهرية اللون. ارتعشت زاويتا شفتيها قبل أن تستقرًا ثانية. ظهرت ابتسامتها ثم اختفت مثل ضوء مصباح كهربائي يشكو من سوءٍ في التوصيل. ذكرني هذا المنظر بمصباحي الكهربائي في الغابة.

شرحتُ لها ما أريده. رفعت رأسها عندما انتهيت، وراحت تنظر نحو الأعلى، وكأن الجواب يكمن في السقف. أخذت وقتها، بينما رحّتُ أستمع إلى أزيز طابعة في مكانٍ ما من القاعة.

"لا تضمّ التقارير أي شيء قبل 1985، أعرف ذلك". لاحظتُ بعض الارتعاش في وجهها. بدا أنه يومض، ويومض.

"أعرف أنّ الأمر غريب بعض الشيء، لكن حاولي أن تفعلي شيئاً".

"هل تخصّ هذه كيبك سيقي، أيضاً".

"لا، حتى الآن، إنما قضايا مختبرات الطب الشرعي".

أومأت وابتسمت، ثم غادرت. رنّ الهاتف بعد مغادرتها مباشرة. جاء الاتصال من رايان هذه المرة.

"ما رأيك بشخص أصغر سنّاً؟"

"أتقصد أصغر بكثير؟"

"السابعة عشرة مثلاً".

"لا".

"لعله شخص يتميّز بنوع من..."

"لا".

مرّت فترة صمت.

"لديّ شخصٌ في السابعة والستين من العمر".

"رايان، لا تنتمي هذه المرأة إلى مجموعة كليراسيل، ولا إلى مجموعة غيريتول".

تابع كلامه بثبات يشبه إشارة مضاءة: "ماذا لو كانت تعاني من مشاكل في العظام، أو ما يشبه ذلك؟ قرأتُ ذات مرة عن..."

"رايان. كانت المرأة ما بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين من عمرها".

"صحيح".

"ويُحتمل أنّها فقدت ما بين العامين 1989 و1992".

"هذا ما قلته لي".

"آه. هناك أمرٌ آخر. يُحتمل أن تكون المرأة أمّاً لأولاد".

"ماذا؟"

"وجدتُ بعض التقرّوسات على سطح العظام العانية من الداخل. ابدأ بالبحث عن والدة".

"شكراً".

رنّ الهاتف مجدداً بعد وقتٍ أقصر من الوقت الذي يستغرقه نقر الرقم ثانية.
"رايان، أنا".

"هذه أنا يا أمي".

"مرحباً يا عزيزتي. كيف حالك؟"

"أنا بخير يا أمي". مرّت فترة صمت. "هل تضايقتِ من محادثتنا الليلة الماضية؟"
"بالطبع لا يا كاتي. إنني قلقة بشأنك".

مرّت فترة صمت طويلة.

"إذاً، ما الجديد لديك؟ لم نتحدث جدياً عن مشاريعك لهذا الصيف". أردتُ
أن أقول لها أشياء كثيرة، لكنني تركتُها متابعة الحديث.
"ليس لدي الكثير منها. إنّ شارلوت مملّة كما كانت دائماً، ولا يمكننا القيام
بأي شيء".

حسناً. إنّ موقفها هذا هو مظهر آخر من مظاهر سلبيات المراهقة. كان هذا
آخر ما أحتاجه. حاولتُ أن أسيطر على قلقي.

"كيف هي الحال في وظيفتك؟"

"إنّها على ما يرام. أتلقى بقشيشاً جيداً. حصلتُ على أربعة وتسعين دولاراً
الليلة الماضية".

"عظيم".

"إنني أحصل على ساعات عملٍ كثيرة".

"رائع".

"أريد أن أترك هذه الوظيفة".

فضّلتُ أن أنتظر.

انتظرت هي الأخرى.

"ستحتاجين للمال يا كاتي من أجل متابعة دراستك الجامعية". أرجوك يا
كاتي، لا تتلاعبي بحياتك.

"سبق لي أن أخبرتك، لا أريد العودة إلى الدراسة فوراً. أفكّر في ترك الجامعة
مدة عام كي أعمل".

عدنا مجدداً. أدركتُ ماذا سيحصل، لذلك بدأتُ هجومي.
"ناقشنا ذلك في الماضي يا عزيزتي. لماذا لا تجرّين جامعة ماك جيل، هذا إذا كنتِ لا تحبين جامعة فرجينيا؟ لماذا لا تأتين للإقامة عندي لأسابيع عديدة. لماذا لا تأتين وتجربين؟" هيا، تحدّثي بسرعة أيتها الوالدة. "نستطيع ترتيب إجازة. ما رأيك لو نذهب بالسيارة إلى ماريتايمز، ونتسكّع في نونفا سكوشيا لعدة أيام؟" يا الله! عما أتحدّث؟ كيف بإمكانني ترتيب كل ذلك؟ لا يهم، لأن الأولوية هي لابنتي.

لم تردّ عليّ.

"أنت لا تفعلين ذلك بسبب العلامات، أليس كذلك؟"

"لا، لا. كانت علاماتي على ما يرام."

"إذاً تستطيعين تحويل أرصدتك الدراسية. نستطيع..."

"أريد الذهاب إلى أوروبا."

"أوروبا؟"

"أعني إلى إيطاليا."

"إيطاليا؟"

لم يصعب عليّ معرفة السبب.

"هل هو المكان الذي سيلعب فيه ماكس؟"

ردّدت بلهجة دفاعية: "أجل، وإذا؟"

"وإذا؟"

"سيتقاضى مبلغاً من المال أكثر بكثير مما يدفع له فريق الهورنيت."

لم أقل شيئاً.

"وسيعطونه منزلاً."

لم أعلّق بشيء.

"وسيارة فيراري."

لم أقل شيئاً.

"هذا وسيعفى من الضرائب". أصبحت لهجتها أكثر هجومية.

"إنها أخبار رائعة عن ماكس يا كاتي. إنه يمارس الرياضة التي يحبها، ويحصل

على أجرٍ كبيرٍ مقابل ذلك. ماذا بشأنك أنت؟"

"يريدني ماكس أن آتي معه".
"يبلغ ماكس الرابعة والعشرين من العمر، ويحمل شهادة جامعية. أما أنت فتبلغين التاسعة عشرة، لم تنهي سوى عام جامعي واحد".
أحسست بالانزعاج في صوتي.
"تزوجت أنت عندما كنت في التاسعة عشرة من عمرك".
"تزوجت؟" أحسست بتوتر في معدتي.
"حسناً، لقد تزوجت فعلاً".
كانت محقة في كلامها هذا. توقفت عن الرد من شدة قلقي عليها، لكنني أدركت أنني عاجزة عن فعل أي شيء.
"سبق أن قلت لك إننا لن نتزوج".
جلسنا بصمت مطبق، هي في شارلوت وأنا في مونتريال، لمدة حسبتها دهرًا من الزمن.

"هل ستفكرين بالهجرة إلى هنا يا كاتي؟"

"حسناً".

"عديني أن لا تفعلي شيئاً قبل أن تتحدثي معي".
مرت فترة صمت أخرى.

"كاتي؟"

"نعم أمي".

"أنا أحبك يا عزيزتي".

"أحبك أنا أيضاً".

"بلغني سلامي إلى والدك".

"حسناً، سأفعل".

أهيت الاتصال بيد مرتجفة. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ أدركت أن فهم العظام أسهل بكثير من فهم الأولاد. حضرت كوباً من القهوة، ثم عدت إلى الهاتف.
"دكتور كالفرت من فضلك".

"هل لي أن أسأل من المتصل؟" أخبرتها. "انتظري دقيقة من فضلك". وضعتني

في حالة انتظار.

"كيف حالك يا تمب؟ أنت تمضين وقتاً على الهاتف وكأنك مندوبة مبيعات MCI. يصعب على المرء إيجادك في المكتب". تجاهل الرجل فترات عملي النهارية والمسائية.

صحتُ به: "أنا آسفة يا آرون. تعترم ابنتي ترك الدراسة، والهرب مع لاعب كرة سلة".

"هل يستطيع اللعب على يساره، أو تنفيذ تسديدة ثلاثية النقاط؟"

"أعتقد ذلك".

"إذاً دعها تذهب".

"يا للغرابة!"

"ليس الأمر مستغرباً بالنسبة إلى شخص يستطيع اللعب إلى يساره، أو التسديد من خارج القوس الدائري. إنه مثل المال الذي يودع في المصرف".

"لدي حالة تقطيع أطراف أخرى يا آرون". سبق لي أن اتصلت بآرون مرات عديدة من قبل كي أخبره عن القضايا التي أعمل عليها. اعتدنا على تبادل الأفكار في ما بيننا.

سمعتُه يقهقه: "لعلك لا تمتلكين بندق، لكنك تحبين التقطيع فعلاً".

"أجل. أعتقد أن هذا المريض عقلياً قد قطع عدة ضحايا. اختارهن جميعاً من النساء، وفي ما عدا ذلك ليس لدينا أي رابط بين هذه الجرائم عدا عن آثار التقطيع. أعتقد أن هذه الجرائم هامة".

"هل هي تسلسلية، أم جماعية؟"

"إنها تسلسلية".

فكّر في ما قلته لبرهة: "إذاً أخبريني".

وصفتُ له الحروز ونهايات التقطيع التي ظهرت على عظام الذراعين. قاطعتني آرون مرات عديدة كي يطرح أسئلته، أو ليجعلني أبطئ من سرعة سردي. تخيلته وهو يدوّن ملاحظاته، وتصورتُ جسده الطويل والنحيل منكباً على ورقة تافهة أو مرمية، وباحثاً عن أي فراغ فيها مهما كان صغيراً. يبدو الرجل في التسعين من عمره بسبب وجهه المتجهم والداكن، وعينيه اللتين تشبهان عيون المنود الحمر، رغم أنه لم يتجاوز الثانية والأربعين من العمر. ظل دائماً على هذه الحال، كما أن

إبداعه كان محدوداً كما هي حال صحراء غوبي، لكن حجم قلبه يقارب حجم هذه الصحراء.

سألني بكل جدية: "هل وجدت الكثير من بدايات النشر الزائفة؟"
"كلا. إنها بالغة السطحية".

"هل الخطوط المتوافقة واضحة؟"
"إنها واضحة جداً".

"هل وجدت انحرافاً للنصل في الحزوز؟"
"آه. ها. نعم".

"هل أنت واثقة من قياسات المسافة بين الأسنان؟"
"أجل. إن الخدوش متمايضة في أماكن عديدة، وكذلك وجدتُ بعض الأماكن المنعزلة".

"ولولاها لكانت المسطحات مستوية جداً".
"نعم. يتضح هذا كثيراً في البصمات".

تمتم، وكأنه يتحدث مع نفسه أكثر مما يتحدث معي: "هل من نهاياتٍ لعمليات القطع".
"وجدتُ الكثير منها".

مرّت فترة صمتٍ طويلة استغلها الرجل كي يستوعب المعلومات التي أعطيتها إياها لتوي ويرتب الاحتمالات في ذهنه. راقبتُ بعض الأشخاص الذين مرّوا من أمام باب مكنتي، وسمعتُ رنين أجهزة الهاتف، كما عادت الحيوية إلى الطابعات لفترةٍ قبل أن تستكين ثانية. استدرتُ في مقعدي وحدّقتُ في المنظر خارج مكنتي. سارتُ صفوف السيارات عبر جسر جاك - كارتيه، وشاهدتُ من بينها سيارات التويوتا والفورد الصغيرة الحجم. بدأتُ الدقائق تمرّ في النهاية.

"أشعر وكأنني آخر من يعلم هنا يا قمب. لا أعرف كيف تحمّليني على فعل هذا، لكن ها أنا هنا".

استدرتُ ثانيةً، وأسندتُ مرفقيّ على طاولة مكنتي.
"أراهن أنه ليس منشاراً آلياً. يبدو أنه منشار يدوي متخصص، ولعله منشار مطبخ من نوع ما".

أجل! صفعتُ يدي على سطح الطاولة، ورفعتُ قبضةً مطبقةً، ثم أنزلتها بحدةٍ مثلما يفعل مهندس يستخدم صفارته. تابعت الأوراق الزهرية اللون ارتفاعها، ثم ما لبثت أن بدأت بالانسياب إلى الأسفل.

تابع آرون حديثه رغم رد فعلي: "تبدو الحزوز كبيرةً جداً لتكون ناتجة عن منشار قوسيّ ذي أسنان دقيقة، أو سكين مسننة. يبدو أنّ هناك الكثير من آثار الأسنان. أشكُّ، مع وجود كلِّ أشكال المنخفضات هذه، في أنك تتحدثين عن أي نوعٍ من المقاطع العرضية. إذاً لا بد من أنّ إزميلاً قد استُخدم. أعتقد انطلاقاً مما شاهدته أنّ الأداة المستخدمة هي سكين مطبخ، أو منشارٌ يُستخدم من أجل تقطيع اللحم".

"وكيف تبدو هذه الأداة؟"

"إنها نوع من مناشير الحديد الكبيرة، ذات الأسنان المتباعدة كي لا تعلق أثناء عملية النشر. هذا هو سبب وجود الكثير من الأماكن المنعزلة التي يمكن وصفها ببدايات نشر زائفة. تتواجد عادةً الكثير من الانحرافات، لكن النصل يحفر خلال العظم بسهولة، وتكون الحزوز نظيفة وواضحة تماماً. إنها مناشير صغيرة وفعالة. إنها تقطع من خلال العظام، والغضاريف، والأربطة، وأي شيء آخر".

"هل هناك أمورٌ تتوافق مع هذا النمط؟"

"حسناً. هناك دائماً احتمال بوجود أمور لا تتناسب مع النمط المعتاد. لا تستطيع هذه المناشير قراءة الكتب كما تعرفين، لكنني لا أستطيع التفكير الآن، وبشكل مرتجل، بشيء يتطابق مع كل ما أخبرتني إياه".

"أنت رائع! وهذا هو بالضبط ما كنت أفكر فيه، لكنني أردتُ سماعه منك. آرون، لا أستطيع أن أعبر لك عن مقدار تقديري لك في تقديمك هذه الخدمة لي".

"آه".

"هل تريد رؤية الصور والآثار؟"

"بالتأكيد".

"سأرسلها لك غداً".

تمثّل المناشير الولع الثاني في الأهمية عند آرون. أقدم الرجل على تصنيف كل الأوصاف المكتوبة والمصورة للميزات التي تتركها المناشير المعروفة على العظام،

كما أنه أمضى ساعاتٍ طويلةً منكباً على دراسة الحالات التي تُرسل إلى مختبره من كل أنحاء العالم.

استنتجتُ من حركة تنفسه أنه يمتلك المزيد ليقوله. جمعتُ بعض الأوراق الزهرية اللون أثناء انتظاري له كي يُكمل حديثه.

"هل قلتِ إنَّ العظام الوحيدة والمقطوعة بالكامل هي عظام الأذرع السفلية؟"
"أجل".

"ووصلت عملية القطع إلى العظام في الأطراف الأخرى؟"
"أجل".

"وهل كانت مفصولة بشكلٍ دقيقٍ؟"
"كانت في غاية الدقة".

"همم".

توقفتُ عن جمع المزيد من الأوراق الزهرية اللون: "ماذا؟"
قال ببراءة: "ماذا؟"

"عندما تقول همم بهذه الطريقة فإنها تعني شيئاً ما".
"لعله ترابطٌ مثير للاهتمام".

"والذي هو؟"

"يستخدم الرجل منشار طهارة، وهو يشرع بتقطيع الجثة كما لو أنه يعرف ماذا يفعل. إنه يعرف أماكن تواجد العظام وكيفية الوصول إليها، ويقوم بهذا العمل بنفس الطريقة في كل مرة".

"أجل. لقد فكّرتُ في هذا".

مرّت عدة ثوانٍ.

"إنه ينزع الأيدي نزعاً. ماذا تقول في ذلك؟"

"يوجّه هذا السؤال يا دكتورة برينان إلى عالم نفسي، وليس إلى رجلٍ يختص بالمناشير".

وافقتهُ رأيه، لذلك غيرتُ الموضوع: "كيف هي حال الفتيات؟"

بقي آرون من دون زواج، ولم يسبق لي أن رأيتُه مع فتاة على مدى الأعوام العشرين التي عرفته خلالها. تُعتبر الخيل أولى اهتماماته. إذ يُتابع الرجل سباقات

الخبيل أينما كانت، سواء في تولسا، أو في شيكاغو، أو لوزيفيل، أو أو كلاهما
سيقي.

"إنها مثيرةٌ جداً. حصلت على حصان في الخريف الماضي. تتصرف السيدات
(المهور) وكأنها في سنتها الأولى منذ ذلك الحين".

تبادلنا أخبارنا الحياتية، وأخبار أصدقائنا المشتركين. اتفقنا على اللقاء في
اجتماع الأكاديمية الذي يُعقد في شباط المقبل.

"حسناً، لعل حسن الحظ هو الذي سيوقع بهذا الرجل يا قنب".
"شكراً".

أشارت عقارب ساعتي إلى الرابعة والدقيقة الأربعين. سكنت المكاتب
والأروقة من حولي مجدداً، ولهذا أجفَلتُ عند سماعي رنين الهاتف.

هل حدث ذلك نتيجة إفراطي في شرب القهوة؟
لاحظتُ، عندما أجبت، أن السَّماعة ما تزال دافئة إزاء أذني.
"رأيتك الليلة الماضية".

"غاي؟"

"لا تفعلني ذلك مجدداً يا قنب".

"أين أنت يا غاي؟"

"إنك تزيد الأمور سوءاً".

"اللعنة، لا تعبثي معي هكذا يا غاي! أين أنت؟ وماذا يجري؟"

"لا تهتمي لذلك. لا أستطيع رؤيتك في هذا الوقت".

لم أستطع التصديق بأنها تفعل هذا مجدداً. شعرتُ بالغضب الشديد يتصاعد في

صدري.

"ابقِي بعيدةً عني يا قنب. ابقِي بعيدةً عن..."

أعدت وقاحة غاي الأنانية إشعال غضبي الذي لم يكد يهدأ. انطلق غضبي
هذا مع الغرور الذي يميّز به كلوديل، والوحشية التي يميّز بها ذلك القاتل المريض
نفسياً، بالإضافة إلى مغامرات المراهقة عند كاتي. انفجرت نيران غضبي فغمرت
غاي في طريقها.

أمسكتُ بسماعة الهاتف بشدةٍ كادت تكسر المادة البلاستيكية التي تحويها،

وصرختُ فيها: "من تظنين نفسك بحق الجحيم؟"
"حسناً، سأتركك وشأنك! سأتركك وشأنك! لا أدري ما هي لعبتك القدرة
الستافهة التي تلعبينها يا غايي؟ لكنني سأتركك! سأتركك! انتهت اللعبة، وانتهى
معها كل شيء! لا أستطيع احتمال ازدواجية شخصيتك بعد الآن! ولا أحتمل
ذعرك! ولن ألعب، وأكرّر لن ألعب، لعبة المنتقم المقنع لفتياتك وسط كل هذه
الكآبة!"

توتر كل عصبون في جسمي، كما يحدث عندما تضع جهازاً كهربائياً يتحمّل
110 فولت في مقبس يحمل قوة 220 فولت. راح صدري يعلو ويهبط، كما
تمكنتُ من الإحساس بالدموع وراء عينيّ. إنه المزاج الذي تشعرين به يا تمب.
قطعتُ غايي الاتصال، فتناهت إلى مسامعي نغمة الخط الهاتفني.
جلستُ فترةً من الزمن، ومن دون أن أفكر بشيء. شعرتُ بدوخة في رأسي.
وضعتُ، ببطء، سماعة الهاتف. أغمضتُ عينيّ، وسمعتُ حفيف الأوراق، ثم
اتخذتُ قراراً. أخذتُ أذندن بصوتٍ مبحوح نغمة:
هوجمت بقوة في باتون روج...

21

راحت قطرات المطر تنقر على زجاج نوافذ شقتي بثبات عند الساعة السادسة صباحاً. وأحدثت السيارات التي انطلقت في جولانها الصباحية الباكورة أصواتاً ناعمةً. تمكّنتُ من رؤية انبلاج فجر يوم جديد للمرة الثالثة خلال أيامٍ معدوداتٍ، وهي مناسبةٌ أحتفل بها بالحماسة ذاتها التي يعتنم بها جو هونتانا فرصة هجوميّ كاسحٍ. لا أستطيع الزعم أنني من النوع الذي ينام أثناء النهار، لكنني لست من بين الذين ينهضون باكراً. تمكّنتُ من رؤية شروق الشمس ثلاث مرات هذا الأسبوع. حدث ذلك لمرتين وأنا أوشك على الاستسلام للنوم، أما المرة الثالثة فحدثت اليوم عندما نهضتُ بعد أن أمضيتُ إحدى عشرة ساعةً في السرير. لم أشعر بالنعاس، ولا بالراحة أيضاً.

توجهتُ إلى المنزل بعد أن تلقيتُ مكالمة غايي، ثم خرجتُ كي أتناول العشاء. تألفت عشايتي هذه المرة من دجاجة مشوية، وبطاطا مهروسة أعيد تشبييعها بالمياه، وبعض المرق المصنّع، وحساء مع كوز الذرة، بالإضافة إلى فطيرة تفاح منقوعة. شكراً، أيها الكولونيل. أتبعُ العشاء بحمامٍ ساخن، كما انشغلتُ بتنظيف الخدوش في نخدي الأيمن. لم تفدني هذه الجراحة التجميلية البسيطة التي أجريتها، لأنني ما زلت أبدو وكأن أحداً أقدم على جرّي. شاهدتُ عند الساعة السابعة الألعاب الدولية، ثم غفوتُ أثناء مشاهدتي المباريات.

شغلتُ جهاز الكمبيوتر. لا فرق إن كانت الساعة السادسة صباحاً، أم السادسة من بعد الظهر، فهذا الجهاز يبقى مستعداً للعمل على الدوام. بعثتُ

برسالة إلى كاتي عبر نظام البريد الإلكتروني في ماك جيل تصل إلى عنواني في جامعة كارولينا الشمالية - شارلوت. تستطيع كاتي الوصول إلى هذه الرسالة بواسطة جهاز الكمبيوتر المحمول والمودم، ولذلك فهي تستطيع الرد من غرفة نومها. ياهوو! لماذا لا يستفيد الجميع من الإنترنت؟

ومض المؤشر في وجهي، وأصرّ على عدم وجود شيء في الملف الذي أنشأته. كان على حق، لأن الجدول الذي بدأته على الورق اشتمل على عناوين الأعمدة فقط، ولم يشتمل على أي محتويات. متى بدأت في تكوين هذا الجدول؟ حدث ذلك في يوم التظاهرة، أي قبل أسبوع واحد فقط، لكن هذا الأسبوع بدا وكأنه أعوام عديدة. مضى ثلاثون يوماً، أي أربعة أسابيع، منذ اليوم الذي اكتشفت فيه جثة إيزابيل غاغنون، كما مرّ أسبوع واحد على جريمة قتل مارغريت أدكينز. ماذا أنجزنا منذ ذلك الوقت في ما عدا اكتشاف جثة أخرى؟ أسفرت حملة تفتيش قامت بها الشرطة في شقة تقع في شارع برغر عن التأكد من أن شاغلتها لم تُعدّ إليها. يا للمفاجأة الكبيرة! لم تُسفر الحملة عن الكشف عن أي أمر مفيد، كما لم تتوفر لدينا أي أدلة عن هوية رجال سان جاك الكثيرين، بالإضافة إلى عدم تمكننا من تحديد هوية آخر جثة مكتشفة. ولم يتوصل كلوديل بعد إلى ملاحظة الترابط الموجود بين هذه القضايا. واعتبرني رايان مجرد هاوية. يا ليومي السعيد!

عدتُ إلى الجدول. وسّعتُ المساحة المخصصة للأعمدة. اشتملت العناوين على الصفات الجسدية. الموقع. ترتيبات السكن. الوظائف. الأصدقاء. أفراد العائلة. تواريخ الولادة. تواريخ الاكتشاف. الأوقات. الأماكن. أدخلتُ كل المعطيات التي فكّرت فيها، والتي يُحتمل أن تشكّل رابطاً. أدخلت في أقصى اليسار أربعة عناوين أفقية: أدكينز، غاغنون، تروتييه، ومجهول. ساستبدل تسمية مجهول بالاسم الذي سأتوصل إليه بعد انتهائي من العظام التي اكتشفت في سان لامبرت. أقتلّتُ الملف عند الساعة والنصف، ووضعت الكمبيوتر المحمول في حقيبته، ثم تحضّرتُ للانطلاق إلى العمل.

تميّزت حركة السير بالازدحام لذلك فضّلت المرور عبر نفق فيل - ماري. احتلت الغيوم صفحة السماء فأصبح جو المدينة داكناً مع أن الصباح أعلن عن

قدومه. لاحظتُ أن الشوارع مغطاة بلمعان جراء الرطوبة، لذلك عكست أنوار فرامل السيارات في ساعة الازدحام الصباحية هذه.

أحدثت مسّاحتا الزجاج الأمامي إيقاعاً رتيباً، ورسمتا عليه رقعتين من المياه بشكل مروحتين. انخبتُ إلى الأمام ورحتُ أحرّك رأسي مثل سلحفاة مخدرة كي أبحث عن بقعة صافية بين المياه المنهمرة على الزجاج الأمامي. أقتعتُ نفسي أن الوقت قد حان كي أشتري مسّاحتين جديدتين، مع أنني لن أنفذ هذه الخطوة. استغرقني الأمر نصف ساعة كي أصل إلى المختبرات.

أردتُ الحصول على الملفات المناسبة، واستخراج دقائق التفاصيل، كي أدخلها في الجدول الذي أعدده على جهاز الكمبيوتر، لكنني وجدتُ طلبين على طاولتي. وُجد طفل صغير في متنزه بلدي، وكانت جثته الصغيرة محشورة بين الصخور المحيطة بمجرى نهر. تقول ورقة ملاحظات لامانش إن أنسجة الجثة كانت جافة، كما أن الأعضاء الداخلية كانت مشوهة ولا يمكن التعرف عليها، لكن في ما عدا ذلك كانت الجثة محفوظة جيداً. أراد الحصول على رأبي في ما يتعلق بعمر ذلك الرضيع. لن يستغرقني هذا وقتاً طويلاً.

ألقيتُ نظرة على تقرير الشرطة المرفق بالنموذج الآخر. **عظامٌ وُجدت في الغابات**. إنها أكثر القضايا التي أعمل عليها. تحمل هذه القضايا أن تكون أي شيء: من جريمة قتل باستخدام فؤوس متعددة، أو أن تكون هرة ميته.

اتصلتُ بدينيز وطلبتُ منه إحضار صور الأشعة للرضيع، ثم نزلتُ إلى الطابق السفلي كي ألقى نظرة على العظام. أحضرت ليذا صندوقاً كرتونياً من المشرحة ووضعتُه على الطاولة.

"هل هي كل العظام؟"

"هذه هي كل العظام."

ناولتني قفّازين، ثم أحضرت كميةً من الطين الصلب من الصندوق. برزت العظام من هذه الكتلة. حاولتُ أن أجسّ التراب، لكنه كان قاسياً مثل الإسمنت. "دعونا نلقي نظرة على الصور وصور الأشعة، ثم نضع هذه الأخيرة فوق الشاشة ونغطسها بعد ذلك. استخدمني قواطع كي تبقى كل أجزاء العظام منفصلة. سأعود بعد نهاية الاجتماع."

يُجتمع الأطباء الأربعة الأخصائيون بالأمراض، الذين يعملون في مختبرات الطب الشرعي، مع لامانش كل صباح من أجل مراجعة الحالات، وتسلم مهمات التشريح. اعتدتُ على المشاركة في هذه الاجتماعات عندما أكون موجودة. وجدتُ، عند صعودي إلى الطابق العلوي، لامانش، وناتالي آيرز، وجان بيليتيه، ومارك بيرغرون، متحلقين حول طاولة الاجتماعات الصغيرة الموجودة في مكتب لامانش. عرفتُ من لوحة النشاطات الموجودة في الرواق أن مارسيل مورين موجودة في المحكمة، وأن إميلي سانتانجيلو قد أخذت يوم عطلة شخصية لها. تحرك الجميع في مقاعدكم كي يفسحوا المجال لي، ثم قدموا لي كرسيًا. تبادلنا تحيات الصباح المعتادة.

سألتُ: "مارك، لماذا أنت هنا، واليوم هو يوم خميس؟"

"إنّ يوم غد هو يوم عطلة".

نسيّتُ تمامًا أمر ذكرى كندا.

سألني بيليتيه من دون أن تظهر أي تعابير على ملامح وجهه: "هل ستشاركين في الاستعراض؟" تحمل لغته الفرنسية لهجة ريف كيبيك، وهو الأمر الذي صعب عليّ كثيراً فهم كلماته. بقيتُ أشهراً عديدة من دون أن أفهم كلماته بالمرّة، ولذلك لم أنتبه لتعليقاته الساخرة. تمكنتُ بعد مرور أربعة أعوام من فهم معظم ما يقوله. ولم أجد صعوبةً هذا الصباح في فهم مغزى تعليقه.

"أعتقد أنني لن أشارك في هذا الاستعراض".

"تستطيعين طلاء وجهك في إحدى المقصورات. سيكون الأمر أسهل بكثير".

ترددتُ الفقهات من حولي.

"أو لعلك ستضعين وشمًا، لأنه قد يكون أسهل بكثير".

"إنه أمرٌ مسهلٌ جداً".

تظاهرتُ بالبراءة، ورفعتُ حاجبيّ، وكتفيّ، وراحتي يديّ. ماذا يحدث؟ استرخى الرجل في مقعده، وأمسكتُ أصابعه الصفراء بشدة بسيجارته الخالية من المرشح، والتي لم يتبقَ منها سوى خمسة سنتمترات، ثم استنشقتُ بعمق. سبق لأحدهم أن أخبرني ذات يوم أنّ بيليتيه لم يرتحل خارج مقاطعة كيبيك أبداً، وهو الذي بلغ الرابعة والستين من عمره.

بدأ **لامانش** الحديث أثناء توزيعه لائحة الحالات لذلك اليوم: "لدينا ثلاث حالات فقط تستدعي التشريح".

مدّ **بيليتيه** يده كي يتناول ورقته، وراحت أسنانه الصناعية تطقطق عندما تكلم: "إنه الهدوء الذي يسبق يوم العطلة. سنكون أكثر انشغالاً بعدها".
أمسك **لامانش** قلمه المؤشّر: "أجل، وعلى الأقل هناك برودة الطقس التي أظن أنها أمرٌ مساعدٌ لنا".

بدأ **بسر** برنامج ذلك اليوم المحزن، وزوّدنا بتفاصيل إضافية عن كل حالة. تحدث عن حالة انتحار بغاز أول أكسيد الكربون، وعن رجلٍ عجوزٍ وُجد ميتاً في سريره، وأخيراً عن طفلٍ رضيعٍ ألقى به في متنزهه.
قلّب **لامانش** أوراق تقرير الشرطة: "تبدو حالة الانتحار واضحة. إنه ذكر أبيض... يبلغ السابعة والعشرين من عمره... وُجد في سيارته المركونة في مرآبه... كان خزّان الوقود خالياً، ومفتاح المحرك في مكانه، وفي وضع **شغل**".

وضع الرجل عدة صور فورية على الطاولة. أظهرت الصور سيارة **فورد** بلونها الأزرق. ظهرت السيارة وسط مرآب يتسع لسيارة واحدة. ظهر أيضاً أنبوب متحرك ومرن، ومن النوع الذي يُستخدم في نشافات الثياب، معلقاً في أنبوب العادم ويصل حتى نافذة السيارة الخلفية اليمنى. تابع **لامانش** قراءته للتقرير.

نظر إلى **ناتالي**: "يمتلك الرجل سجلاً من الاكتئاب... وُجدت معه رسالة وداع". نظر إلى **ناتالي**: "دكتورة **آيرز**؟"

أومأت، ثم تناولت الأوراق. أشار **لامانش** بكلمة **آيرز** بالحبر الأحمر على اللائحة الأساسية، ثم تناول المجموعة التالية من النماذج.

"الحالة رقم 26742 هو ذكر أبيض... العمر سبعة وثمانون عاماً... داء السكري تحت السيطرة". قرأ خلاصة التقرير بعينه قارئاً المعطيات ذات الصلة. "لم يُشاهد لأيام عديدة... وجدته شقيقته... لا توجد علامات تدل على تعرضه لضربة ما". تابع القراءة لنفسه لثوان قليلة. "الأمر المستغرب هو وجود فترة تأخير ما بين الوقت الذي وجدته فيه شقيقته، وبين وقت طلبها المساعدة. يبدو أن السيدة قد أهت بعض أعمال التنظيف المنزلية في هذا الوقت". رفع رأسه قليلاً: "دكتور **بيليتيه**؟"

هزّ بيليتيه كتفيه، ومدّ يده. وضع لامانش كلمة بيليتيه مختصرة على لائحته، ثم ناوله النماذج. أرفقت النماذج بكيس مليء بوصفات طبية، وأدوية أخرى لا تحتاج إلى وصفات. تناول بيليتيه هذه الأغراض، وردّ بلباقة، لكنني لم أفهم ما قاله.

تحولّ انتباهي نحو كدسة الصور الفورية التي أرفقت مع أوراق حالة الطفل. أخذت الصور من زوايا متعددة أظهرت جدولاً ضحلاً. استلقت جثة صغيرة بين الصخور، وبدت العضلات الصغيرة منكمشة، أما جلده فبدا شاحباً مثل قطعة جلد قديمة. طافت خصلة شعر صغيرة حول رأسه، بينما أحاطت خصلة أخرى بجفنيه الزرقاوين الشاحيين. ظهرت أصابع الطفل مبسوطة ومنفرجة، وكأنه يطلب السنجدة، أو كأنه يبحث عن شيء كي يتعلّق به. كان عارياً، وظهر نصفه داخل الكيس من النايلون الأخضر الداكن، ونصفه خارج الكيس. بدا الطفل وكأنه فرعونٌ مصعّر، لكنه مكشوفٌ ومتروك. يا الله، كم أصبحتُ أكره الأكياس بشدة! عدتُ كي أتفحص الصور المنشورة على الطاولة. وأصغيتُ جيداً إلى لامانش. فرغ الرجل لتوّه من سرد ملخصه، وبدأ بكتابة كلمة لامانش مختصرة على الجدول الأساسي. سيُجري الرجل هذا التشريح بنفسه، وسأقوم أنا بمحاولة تضييق مجال العمر عن طريق إجراء تقييمٍ لتطوّر نمو العظام. سيحاول بيرغرون بدوره إجراء تقييمٍ للأسنان. أوماً جميع الجالسين. انتهى الاجتماع بعد ان انتهت مواضيع النقاش.

أحضرتُ كوب قهوة لنفسي، وعدتُ إلى مكتبي. وجدتُ على طاولتي مظروفاً بنياً كبير الحجم. فتحته، وتناولتُ أولى صور الأشعة التي أخذت للطفل، ووضعتها أمام لوحة الضوء. سحبتُ نموذجاً من الدُرّج وبدأتُ فحصي. وجدتُ رسغين فقط في كل يد. لم أجد أي أعظية في نهايات عظام الأصابع. نظرتُ إلى أسفل الذراعين. لم أجد أي غطاء على عظمتي الكعبرة. انتهيتُ من فحص القسم الأعلى من الجثة. وضعتُ لائحةً على جدول جردة العناصر العظمية الموجودة، ودوّنتُ ملاحظات حول تلك التي لم تتكوّن بعد. فعلتُ الشيء ذاته للجزء السفلي من الجثة. وتنقلتُ ما بين فيلم وفيلم كي أتأكد من دقة ملاحظاتي. بردت قهوتي.

وُلد ذلك الطفل بهيكلٍ عظميٍّ غير مكتمل. لاحظتُ أنّ بعض العظام، مثل رسغي السيدين كانت غير متكونة منذ الولادة، وكان من المفترض أن تظهر بعد أشهر، أو حتى أعوام. افتقدت بعض العظام الأخرى إلى المقابض والحواف التي من شأنها أن تعطي هذه العظام شكلها النهائي. تظهر الأجزاء المفقودة في تتابع متوقع، وهو الأمر الذي يسمح بإعطاء تقديرات دقيقة بالنسبة للأطفال حديثي الولادة. لم يعيش هذا الطفل الرضيع أكثر من سبعة أشهر.

دوّنتُ ملخصاً لكل استنتاجاتي على نموذجٍ آخر، ووضعتُ كل الأوراق في مظروف ملفات أصفر اللون، ثم وضعته فوق كدسة الأوراق المنتهية الأخرى. ستعود هذه الأوراق إلى مرفقة بتقرير مطبوع بحسب الطريقة التي أفضلها، ومرفقة بكل الرسومات ووسائل الإيضاح. تُطبع هذه الأوراق على نسختين وترتب جيداً. ستفيدي هذه الأوراق في صقل لغتي الفرنسية. قدّمتُ تقريراً شفهياً إلى لامانش ثم انتقلتُ إلى أوراقي الأخرى.

لم تغير صلابة التراب كثيراً، لكنه لأنّ بما يسمح لي بتفحص محتوياته. مرّت خمس عشرة دقيقة على هذه الأحجية: ثماني فقرات، وسبع شظايا عظمية طويلة، بالإضافة إلى ثلاث شظايا من الحوض. أظهرت كلها دلائل على وجود عملية تقطيع. أمضيتُ ثلاثين دقيقة في غسل هذه الفوضى وتنظيمها، ثم نظفتُ المكان ودوّنتُ عدة ملاحظات. طلبتُ من ليزا، عندما توجهت إلى الطابق العلوي، أن تصوّر أجزاء العظام للضحايا الثلاث: غزالان من ذوي الذيل الأبيض، وكلبٌ متوسط الحجم. ملأتُ نموذج تقريرٍ آخر، ووضعتُ مظروفه فوق التقارير السابقة. إنها حالة غريبة، لكنها ليست مشكّلةً جنائيةً.

تركت لوسي رسالةً على طاولتي، لذلك قصدتها في مكتبها. وجدتها وقد أدارت ظهرها للباب، وراحت تنقل نظرها ما بين شاشة الكمبيوتر، والملف. أخذت تطبع بيد، بينما وضعت اليد الثانية في الملف كي تحافظ على المكان الذي وصلت إليه، وراحت سبابتها تتحرك ببطء بين سطر وسطر. قلت: "استلمتُ مذكرتك".

رفعت إصبعها، وطبعت عدة أحرفٍ أخرى، ثم وضعت مسطرةً فوق الملف. استدارت، واندفعت بحركةٍ واحدةٍ ثم تقدمت نحو طاولتها.

"تمكنتُ من الحصول على ما طلبته مني. تقريباً".
فَتَشَّتْ في كدسة من الورق، ثم انتقلت إلى كدسة أخرى، ثم ما لبثت أن
عادت إلى الأولى. سَحَبَتْ أخيراً رزمةً صغيرةً من الأوراق مدبسةً من طرفها،
وقَلَّبَتْ عدة صفحات، ثم أعطتني المجموعة.
"لم أجد شيئاً قبل عام 1988".

قَلَّبْتُ الأوراق، وشعرتُ بالإحباط. لماذا كل هذه الحالات؟
"حاولتُ أولاً الحصول على الحالات التي تحمل كلمتها المفتاح **تقطيع**. تألفت
اللائحة الأولى من هذه الحالات، وهي اللائحة الأكبر. حصلتُ على أسماء كل
الأشخاص الذين ألقوا بأنفسهم أمام القطارات، أو سقطوا على ماكينات كبيرة،
أي الذين قُطعت أطرافهم. لا أعتقد أنك تريد هذه اللائحة".
كانت على حق. بدا أن هذه اللائحة تضم كل الحالات التي قُطعت فيها
ذراعٌ، أو ساقٌ، أو إصبعٌ، عند الوفاة، أو في وقت قريب منها.
"جربْتُ بعد ذلك إضافة كلمة **عمداً**، وذلك من أجل حصر الخيارات
بالحالات التي تم التقطيع فيها عمداً".

نظرتُ إليها.

"لم أحصل على شيء".

"لا شيء بتاتا؟"

"لكن ذلك لا يعني أنه لا وجود لمثل هذه الحالات".

"وكيف ذلك؟"

"إنني لا أدخل هذه المعطيات. عمدنا في العامين الماضيين إلى تخصيص ميزانية
خاصة من أجل استئجار عمال بدوام جزئي من أجل إدخال المعطيات الماضية في
الإنترنت، وفي أسرع وقت ممكن". صدرت عنها آهة ساخطة، وهزّت رأسها:
"تلكأت الوزارة في مكننة معلوماها، لكنها الآن تريد تحديث معلوماها في أسرع
وقت ممكن. يمتلك المولجون بإدخال المعطيات قواعدهم المعيارية بالنسبة للمعلومات
الأساسية: **تاريخ الولادة**، **تاريخ الوفاة**، **سبب الوفاة**، وهكذا دواليك. إنهم
يستصعبون أموراً غريبة، وأي أشياء لا تحدث إلا نادراً فقط، ولذلك فهم يعملون
وحدهم، ويضعون قواعدهم الخاصة بهم".

"كما في حالة تقطيع الأطراف".

"صحيح، لأن أحدهم قد يسميها بترأ، ثم يأتي شخص آخر ويستخدم عبارة فصل الأعضاء، لكنهم عادةً ما يستخدمون الكلمة ذاتها التي يستخدمها الأطباء في تقاريرهم. ويُحتمل أن يستخدموا عبارةً مثل **قطع**، أو **نشر**".

عدتُ كي أتفحص اللوائح، لكنني شعرتُ بالإحباط.

"جربْتُ كل هذه التعابير، بالإضافة إلى بعض التعابير الأخرى. ولكن، لم أحصل على شيء".

فعلنا كل ما بوسعنا في ما يتعلق بهذه الفكرة.

"نجحت كلمة تشويه في تكوين لائحة طويلة". انتظرتني وأنا أتفحص الصفحة الثانية. "بدت الكلمة أسوأ من كلمة **فصل الأعضاء**".

"جربْتُ بعد ذلك **فصل الأعضاء** مترافقة مع تحديد كلمة ما بعد الوفاة، وذلك كي أختار الحالات التي..." رفعت هنا راحتي يديها نحو الأعلى، ورسمت حركة تشبه الخدش مستخدمة أصابعها، وكأنها تريد أن ترسم الكلمة في الهواء، "حدثت فيها الحالة بعد الموت".

نظرتُ إليها بأمل.

"لم أحصل إلا على اسم رجل يُتر عضوه التناسلي".

"أخذ الكمبيوتر عبارتك حرفياً".

"هاه؟"

"لا هتمي". لم أستطع، مجدداً، تمرير نكتة.

"جربْتُ بعد ذلك كلمة تشويه، مترافقة مع تحديد كلمة ما بعد الوفاة، و..." انحنيت فوق الطاولة كي تعرض أمامي آخر الأوراق المطبوعة. "بانغو! هل هذه هي الكلمة التي تستخدمونها؟"

"إنها كلمة بانغو في الواقع".

"بانغو! قد تكون هذه هي القائمة التي تبحثين عنها. تستطيعين تجاهل بعضها، من أمثال الذين يتعاطون العقاقير غير القانونية ويستخدمون الحوامض". أشارت بيدها إلى عدة أسطر وضعت خطوطاً تحتها. "لعلك لا تريدينها".

أوماتُ بشروء، بينما استغرقتُ بتأمل الصفحة الثالثة. وردت اثنتا عشرة حالة في هذه الصفحة، ولاحظتُ أنها وضعت خطوطاً اخترقت ثلاثة أسطر منها.

"لكنني أعتقد أنّ بعضاً من الحالات الأخرى قد يهملك".

بالكاد سمعتها. تنقلت عيناى بين أسطر هذه اللائحة، لكنهما تسمرتتا الآن على الاسم السادس الموجود أسفل الصفحة. اخترقتني وخزة من عدم الارتياح. أردتُ أن أعود إلى مكتبي على الفور.

قلتُ: "لوسي، هذا رائع، إنه حتى أفضل مما نظرتُ إليه".

"هل وجدت شيئاً تستفيدين منه؟"

أجبتها محاولةً أن أبدو بحالتي العادية: "أجل. أجل. أعتقد ذلك".

"أتريدين أن أحصل على تفاصيل هذه الحالات؟"

"لا. شكراً لك. سأفحص هذه الحالات بنفسى. أظن أنني سأدرس الملفات الكاملة لهذه الحالات". صليتُ في داخلي كي أكون مخطئة في ظني.

نزعنا نظارتنا، وبدأت بتنظيف عدستها بطرف بلوزتها. بدا منظرها ناقصاً، وغير ملائم بطريقة ما، من دونها، فظهرت مثل جون دنفر بعد أن تحول إلى استخدام العدسات اللاصقة.

عادت إلى وضع نظارتها ذات الإطار الزهري فوق أرنية أنفها.

"سأخبرك، بالطبع، إذا ما استجدتُ شيء".

سمعتُ أثناء انصرافي صوت دواليب كرسىها وهي تنزلق فوق البلاط.

وضعتُ اللائحة المطبوعة فوق طاولتي، وتفحصتها ملياً. خلتُ أن اسماً واحداً في هذه الورقة يحدّق بي. فرانسيس موريسيت - شامبو. فرانسيس موريسيت - شامبو. كنت قد نسيت كل شيء عن هذه الفتاة. نصحتُ نفسي أن أبقى هادئة. لا تتسرعي باستنتاجاتك.

أجبرتُ نفسي على تفحص ملخص الحالات الأخرى. وجدتُ اسمي غاغني وفالنسيا في تلك اللائحة، وهما من مروّجي العقاقير غير القانونية، ويتميزان بمشع مادّي بشديد، أي مثلما كانت شانتال تروتييه. لاحظتُ أيضاً وجود اسم طالبة هندوراسية تُدرس بموجب منحة دراسية. أقدم زوجها على تصويب بندقية إلى وجهها، ثم ضغط على الزناد. وضّعتها الرجل في السيارة بعد ذلك، ونقلها من

أوهايو إلى كيبك، ثم قطع يديها، ثم ألقى جسدها الذي كاد يفتقد إلى الرأس في متنزه عمومي. حفر الرجل الأحرف الأولى لاسمه على ثديها، في خطوة وداعية على ما يبدو. لم أتذكر الحالات الأربع الأخرى، لأنها جرت قبل أن أبدأ العمل في العام 1990. توجهتُ إلى حيث توجد الملفات الأساسية وسحبتهَا، وسحبتُ أيضاً ملف حالة موريسيت - شامبو.

وضعتُ كل الملفات بحسب الأرقام التي أُعطيت لها في مختبرات العلوم الشرعية، أي بحسب ترتيبها الزمني. اعتزمتُ أن أدرس هذه الحالات بطريقة منهجية، أي بحسب ترتيبها الزمني. خرقتُ هذا القرار ما إن اتخذته، وانتقيتُ ملف موريسيت - شامبو. تضاعف قلقي كثيراً بعد أن قرأتُ التفاصيل.

22

ضُربت فرانسيس مورييسيت - شامبو وتعرضت إلى إطلاق رصاصٍ حتى الموت في شهر كانون الثاني من عام 1993. شاهدها أحد جيرانها ذات صباح تقوم بنزهة مع كلبها عند الساعة العاشرة. واكتشف زوجها جثتها في مطبخ منزلها. وُجد كلبها في غرفة المعيشة، لكن لم يُعثر على رأسها.

تذكرتُ تلك الحالة مع العلم بأنني لم أشارك في التحقيقات التي جرت بشأنها. اعتدتُ أن أحضر إلى المختبرات في ذلك الشتاء عن طريق الجو، وأقضي أسبوعاً فيها كل ستة أسابيع. تخاصمتُ حينها كثيراً، وباستمرار، مع بيتي، ولهذا وافقتُ على تمضية صيف عام 1993 بأكمله في كيبك، على أمل أن تساهم فترة ثلاثة أشهر من البعد في إعادة الحيوية إلى زواجنا. حسناً، ما تزال وحشية ذلك الاعتداء الذي وقع على مورييسيت - شامبو تصدمني الآن كما صدمتني وقت حدوثها. أعادت صور مسرح الجريمة هذه المشاعر إلى ذهني.

رأيت نصف جثتها مستلقيةً تحت طاولة خشبية صغيرة، ولاحظتُ أن ذراعها وساقها في وضعية متباعدة. شاهدتُ ثوباً الداخلي ممدوداً بين ركبتيها. وأحاط بحر من الدماء بجثتها، وظهر نمط الأرضية المشمعة تحت منطقة جريانه. انتشرت البقع الداكنة على الجدران وأسطح الطاولات، وبدا أن قوائم كرسي مقلوب تشير إليها، وكأنها تريد أن تقول أنت هنا.

بدأت جثتها البيضاء وكأنها شبح إزاء الخلفية القرمزية. أحاط خط رفيع ملتوي فوق بطن الضحية. لاحظتُ وجود ما يشبه ضحكة وجه سعيدٍ فوق منطقة

عانتها. شُقَّت الضحية بدءاً من هذا الجرح وصعوداً حتى عظمة القص، أما أحشاؤها فبرزت من تلك الفتحة. لاحظتُ أن مقبض سكين مطبخ كان بالكاد مرئياً في قمة المثلث الذي تألّف عند ساقها. استقرت يدها اليمنى على بعد متر ونصف منها، وبالتحديد ما بين طاولة عملها وحوض غسل الأطباق. كانت في السابعة والأربعين من عمرها.

همستُ بصوت خافت: "يا الله!"

أهمكتُ بتقليب أوراق تقرير التشريح عندما ظهر شاربونيو عند الباب. حمّنتُ أن مزاجه لم يكن على ما يرام. بدت عيناه محمّرتين، ولم يكثرث باللقاء التحية. دخل الرجل من دون طلب إذن، واتخذ كرسيّاً له مقابل طاولتي. شعرتُ وقتياً، وأنا أراقبه، بإحساسٍ غامر بالخسارة. مشيته المتثاقلة، وحركاته التي تفتقد إلى التركيز، لكن ضخامته، وحدها، لمست وترّاً حساساً عندي لطالما ظننتُ أنني تخلّصتُ منه؛ أو أنه تخلّص مني، لا فرق.

رأيتُ بيتي قبالي لبرهة قصيرة، وراح ذهني يرجع، مسرعاً، بالزمن إلى الوراء. تذكرتُ جسده الرائع الذي كان يمتلكه. لست واثقةً مما إذا كان حجمه هو السبب، أم الطريقة المسترخية التي كان يحرك جسده فيها. أم لعل السبب يرجع إلى افتتاحه بي. بدا لي وقتها أن هذا الافتتان حقيقي، لم أستطع أن أشعر بالاكْتفاء منه. امتلكتُ الكثير من الخيالات في ذلك الوقت، وكانت خيالات رائعة بالفعل، لكن خيالاتي هذه شملت بيتي منذ تلك اللحظة التي رأيته فيها واقفاً، تحت المطر، خارج مكتبة كلية القانون. أعتقد أنني أشعر الآن بلذة خيالات مثل هذه. يا الله يا برينان! لماذا لا تستطيعين استعادة السيطرة على ذاتك. عدتُ إلى الحاضر.

انتظرتُ شاربونيو كي يبدأ حديثه، لكنه كان منشغلاً بالنظر إلى يديه. تكلمم بالإنكليزية هذه المرة: "يبدو زميلي وغداً في بعض الأحيان، لكنه ليس رجلاً سيئاً".

لم أردّ عليه، لكنني لاحظتُ أن عرض حواشي سرواله يبلغ عشرة سنتمترات، كما لاحظتُ أنها مخاطة باليد، ورحتُ أتساءل عما إذا كان قد قام بالمهمة بنفسه. "إنه... فريد في طريقة تصرفه، لكنه لا يجب التغيير". "أجل".

لم ينظر إليّ مباشرة، لكنني شعرتُ بالقلق.
قلتُ كي أحثه على متابعة الحديث: "ثمّ..."
جلس مسترخياً على كرسيه، وما لبث أن دسّ ظفره في فمه، لكنه استمر
بتفادي النظر إلى عينيّ. انسأب صوت روك فواسين الناعم من أحد أجهزة الراديو
في مكان ما من القاعة، وهو يتغنى بهيلين.
"يقولُ إنه بصدد التقدّم بشكوى". أسدل يديه على جانبيه، وتحوّل بنظره نحو
النافذة.

حاولتُ الإبقاء على الهدوء في صوتي: "شكوى؟"
"سيقدمها ضد الوزير، والمدير، ولا مانش. وصل به الأمر إلى حدّ دراسة
سجلك المهني".
"وما هي الأشياء التي تجعل المسيو كلوديل غير سعيد هكذا". نصحتُ نفسي
أن أبقى هادئة.

"يقولُ إنك تتعدين حدودك، وتدخلين في شؤون لا علاقة لك بها، وهكذا
فإنك تعيقين التحقيقات التي يقوم بها". راح يحدّق في ضوء الشمس الساطع.
شعرتُ بتوتر عضلات معدتي، وبالحرقة تتحرّك صعوداً.
قلتُ بصوت بارد: "تابع".
"إنه يعتقد أنك..." ارتبك الرجل في بحثه عن الكلمة المناسبة، ولا شك في أنه
كان يبحث عن كلمة بديلة عن الكلمة التي استخدمها كلوديل بالفعل. "...
تبالغين".

"وماذا تعني هذه الكلمة بالضبط؟"
استمر الرجل في تجنّب النظر إلى عينيّ مباشرة.
"يقولُ إنك تحاولين جعل قضية غاغنون تبدو أكبر من حقيقتها، وتوهمين
وجود أشياء غير موجودة. يقول أيضاً إنك تحاولين تحويل جريمة بسيطة إلى عراضة
نفسية".

قلتُ بصوت مرتعش: "ولماذا أفعل كل هذه الأمور".
"اللجنة يا برونان! لم أقل هذا الكلام بنفسني. لا أعرف". التقت عيناه بعينيّ
للمرة الأولى. بدا الرجل تعيساً. أدركتُ أنه لا يريد التواجد في هذا المكان.

حدّقتُ فيه بدوري من دون أن أراه بالفعل، لكنني استغلّيتُ هذه الفترة من أجل إخماد النداء الذي تصاعد في داخلي طلباً للأدرينالين. تكوّنت عندي فكرة عن نوع التحقيق الذي تتسبب فيه رسالة مثل هذه، وأعرف أن هذا التحقيق لن ينتج عنه خيرٌ. تابعتُ بنفسني التحقيق برسائل كهذه عندما كنت أشارك في لجان التحقيق التأديبية. لم ترق لي هذه التحقيقات مطلقاً. لم ينس أحدنا بينت شفة. راح جهاز الراديو يدندن: "أجنّ بك عندما تفعّلين هذا يا هيلين".

قلتُ في نفسي، لا تقتلي الرسول يا برينان. تحولتُ ببصري نحو الملف الموجود فوق طاولتي. رأيتُ هناك دزينة صور لامعة لجثة بلون الحليب. تأملتُ الصور، ثم نظرتُ إلى شاربونييو. لم أرغب أن أبدأ بتفحص الصور في ذلك الوقت، ولم أشعر أنني مستعدة لرؤيتها بعد، لكن **كلوديل** كان يضغط عليّ. ما الفرق على أي حال، فالأمور لا يمكن أن تكون أسوأ.

"هل تتذكر يا مسيو شاربونييو امرأة تدعى فرانسين موريسيت - شامبو؟"
"موريسيت - شامبو". كرّر الاسم مرّات عديدة باحثاً عنه في ذاكرته:
"كان ذلك منذ أعوام عديدة، أليس كذلك؟"
ناولته الصور: "حدث ذلك منذ عامين تقريباً، أي في شهر كانون الثاني من عام 1993".

بدأ يقلّب الصور، وراح يومئ علامة تذكّره إياها: "أجل، تذكرها. ماذا إذا؟"
"فكّر يا شاربونييو. ماذا تتذكر عن هذه القضية؟"
"لم نقبض أبداً على ذلك النذل الذي نفّذ تلك الجريمة."
"وماذا أيضاً؟"
"قولي، يا برينان، بأنك لا تحاولين إدخال هذه الجريمة أيضاً في لائحتك".
تأمل الصور مجدداً، لكن إيماءاته تحولّت إلى حركة النفي.
"مستحيل. أطلقت النار على هذه الضحية، لذلك فإنها لا تتوافق مع نمط الجرائم الأخرى".

"كانت مسنّة قليلاً. أظن أنها كانت في السابعة والأربعين من عمرها".
حدّقتُ فيه ببرودة ظاهرة.
راح يتمتم بعد أن احمرّ خداه: "أعني أنها كانت أكبر من الأخريات".

"غرز قاتل موريسيت - شامبو سكيناً في مهبلها، وجاء في تقرير الشرطة أنها
نزفت بشدة".

أعطيته وقتاً كي يستوعب هذه المعلومات.

"كانت ما تزال حيّة عندما طعنها".

أوماً. لم أكن بحاجة كي أشرح له أنّ الجرح الذي يحدث بعد الوفاة يتسبب
بنزف أقل بكثير، وذلك بسبب توقف القلب عن الضخ، وغياب ضغط الدم،
لكن فرانسين موريسيت - شامبو نزفت بغزارة.

"استُخدم تمثال معدني في حالة مارغريت أدكينز، وكانت ما تزال حيّة أيضاً".

استدرتُ إلى الخلف بصمت، وسحبتُ ملفّ غاغنون. تناولتُ صور مسرح
الجريمة ونشرتها أمامه. ظهر الجذع مستلقياً فوق كيس من النايلون وانتشرت فوقه
ظلال شمس الرابعة من بعد الظهر. لم يجرّك أحد شيئاً غير أوراق الأشجار. ظهر
الغطّاس (المطبة) في مكانه، واحتضن الجزء المطاطي منها عظام العانة، وبدا مقبضها
غارزاً باتجاه رقبة الجثة المقطوعة الرأس.

"أعتقد أنّ قاتل غاغنون قد دفع ذلك الغطّاس داخلها بقوة تكفي كي يشق
المقبض طريقه من خلال بطنها، ويُكمل نحو حجائها الحاجز".

تأمل الصور لمدة طويلة.

تابعتُ الموضوع: "هناك نمط واحد يجمع الضحايا الثلاث: عملية إدخال أداة
غريبة بالقوة بينما تكون الضحية ما تزال على قيد الحياة، وكذلك تشويه الجثة بعد
حصول الوفاة. هل ذلك هو مجرد مصادفة يا سيّد شاربونيو؟ وكم هو عدد
السادين الذين يسرحون ويمرحون هنا يا سيّد شاربونيو؟"

مرّر أصابعه من خلال الخصلة المنسدلة على جبهته، ثم راح ينقر على ذراع
الكرسي الذي يجلس عليه.

"لماذا لم تخبرينا من قبل؟"

"لاحظتُ لتوي التشابه الذي تحمله قضية موريسيت - شامبو مع القضايا
الأخرى. لم تشكل قضيتي أدكينز وغانغون وحدهما دليلاً كافياً على وجود
ذلك النمط من الجريمة".

"وماذا قال لك رايان؟"

"لم أخبره بعد".

مررتُ إصبعي عفوياً على خدّي. واكتشفت أنني ما زلت أبدو وكأنني
تلقيتُ لكمةً فنيةً قاضيةً من جورج فورمان.

قال بصوتٍ متوترٍ: "اللعة!"

"ماذا؟"

"أظن أنني أميل إلى الموافقة على ما تقولينه. سيكرهني كلوديل كثيراً من أجل
ذلك". تابع النقر على ذراع الكرسي: "ماذا لديك بعد؟"

"تشابه آثار المنشار مع نمط التقطيع، بشكل كلي تقريباً، في حالتني غاغنون

وتروتيه".

"أجل. أخبرنا رايان بذلك".

"وماذا بشأن الضحية المجهولة الهوية في سان لامبرت؟"

قال بعفوية: "أوجد ضحية خامسة؟ هذا يكفي".

"إنك سريع جداً".

عاود النقر: "شكراً. هل تمكنت من التعرف على هويتها؟"

هزرتُ رأسي بالنفي: "يعمل رايان على تحديد هويتها".

مررتُ يده الثخينة فوق رأسه. لاحظتُ أنّ مفاصل يده مغطاة ببقع من الشعر

الأبيض، وهي نسخ مصغرة من شعره الغزير الموجود فوق رأسه.

"إذاً ماذا تقولين عن اختيار الضحايا؟"

رفعتُ راحة يدي: "إنّ كل الضحايا هنّ من الإناث".

"عظيم. ماذا بشأن الأعمار؟"

"تتراوح أعمار الضحايا ما بين السادسة عشرة والسابعة والأربعين".

"وماذا بشأن بنيتها الجسدية".

"تتفاوت هذه كثيراً".

"وماذا عن أماكن السكن؟"

"إنها تتوزع على كل الأماكن".

"إذاً ماذا كان هدف ذلك النذل المجنون؟ وكيف كان مظهر الضحايا؟ وما

هي الأحذية التي كنّ يرتدونها؟ والأماكن التي كنّ يتسوقن فيها؟"

اكتفيتُ بالصمت.

"هل اكتشفت شيئاً مشتركاً بين الضحايا الخمس؟"

"ضربهنَّ أحد الأندال ضرباً مبرحاً، ثم أقدم على قتلهنَّ."

انحنى إلى الأمام ووضع يده على ركبتيه، ثم تأوه: "حسناً. سينفجر كلوديل غضباً من هذه الأخبار".

اتصلتُ برايان عندما غادر شاربونيو. لم أجده في المكتب، وكذلك الأمر مع برتران، وهكذا تركتُ رسالة لهما. تفحصتُ الملفات الأخرى، لكنني لم أجدها مهمة. تضمنت الملفات قضية تاجرٍ عقاقير غير قانونية قتلها أحد شركائهما السابقين، ثم قام بنشر جثتيهما. اشتملت الملفات أيضاً على قضية رجل قُتل على يد ابن شقيقه، الذي قطعهُ مستخدماً منشاراً آلياً، ثم خزّنه بعد ذلك في ثلاجة الطابق السفلي في منزله. أسفر انقطاع في التيار الكهربائي عن إثارة انتباه بقية أفراد العائلة. وردت قضية أخرى تحدثت عن اكتشاف جذع فتاة في كيس يُستخدم في لعبة الهوكي، أما الرأس والذراعان فوجدوا في أسفل مجرى النهر. أُدين الزوج في هذه الجريمة.

أغلقتُ آخر ملف، فأدركتُ فجأة أنني جائعة. نظرتُ إلى عقارب الساعة التي أشارت إلى الساعة 1:50. لم أستغرب شعوري بالجوع في هذه الساعة. اشتريتُ قطعة من اللحم، والجبن، وعلبة من مشروب الكولا المخصص للحمية، من المطعم الصغير الموجود في الطابق الثامن من المبنى. أمرتُ نفسي بأخذ فترة استراحة. تجاهلتُ هذا الأمر، وحاولتُ الاتصال برايان مجدداً، لكنه كان لا يزال خارج مكتبه. عدتُ إلى استراحتي، وبدأتُ بقضم شطيرتي، ثم سمحتُ لأفكاري بالانطلاق. فكّرتُ بالاتصال بغايي. لا. مستحيل. ماذا بشأن كلوديل؟ حرّمتُ على نفسي الاتصال به. أين سان جاك؟ وهل ما زال طليقاً؟

آه. كاتي. كيف سأتمكن من الاتصال بها؟ لا يمكنني ذلك في الوقت الحاضر. عدتُ بأفكاري - عفويًا - إلى ييتي، وما لبثتُ أن شعرت بارتباك معتاد في معدتي. هل ما زلتُ أتذكر ارتعاشة الجلد، والدماء المتدفقة في الشرايين، والدّفء الذي شعرت به إزاءه. أجل، كنت أشعر بالإثارة حينها، وأعتقد، يا برينان أنك تشعرين بالإثارة ليس إلا. تناولتُ قضمَةً أخرى من شطيرتي.

تذكّرت أيضاً بيّتي الآخر، وعادت إلى خاطري ذكرى الليالي الغاضبة، وتلك الأوقات التي تناولتُ فيها عشائتي وحيدةً. تذكّرتُ أيضاً ستار الاستياء الذي حَيَّم عليّ وقضى على كل أثرٍ للرغبة عندي. تناولتُ رشفةً أخرى من كولا الحمية. لماذا أستمّر بالتفكير في بيّتي هكذا؟ هل من فرصةٍ كي نلتقي ثانية... لا. شكراً آنسة سترايسند.

لم تفدني جرعة الاسترخاء في شيء. أعدتُ قراءة تقرير لوسي ثانية، وحرصتُ على ألا ألوّته بالخردل. راجعتُ الصفحة الثالثة من التقرير، وحاولتُ أن أقرأ الأسطر التي شطبتهَا لوسي، لكن خط قلم الرصاص منعني من ذلك. أقدمتُ، وبدافعٍ من الفضول، على محو الأسطر التي خطتها، ثم قرأتُ الأسطر. اشتملت حالتان منها على جثتين حُشرتا في برميلين ثم غمرتا بسائل حامضي. شكّلت هاتان القضيتان تطوراً هاماً في طريقة الحرق بالمواد غير القانونية التي تلاقي شعبيةً متزايدةً. حيرتني الحالة الثالثة. يدل رقم مختبرات العلوم القضائية الذي أُعطي لها على أنها حدثت في العام 1990، وأنّ بيلييتيه كان الطبيب الذي فحصها. لم يُعَيّن قاضٍ جنائي لهذه القضية. جاء في خانة الاسم: سينج. وُجدت الخانات المخصصة لتاريخ الولادة، وتاريخ التشريح، وسبب الوفاة، فارغةً كلها. لا بد أن عبارة تقطيع/ما بعد الوفاة، هي التي جعلت الحاسوب يُدخلها في لائحة لوسي.

أهَيْتُ الكرواسان، فأسرعتُ بالعودة إلى الملفات الأساسية، وسحبتُ المظروف الذي احتوى ثلاثة أشياء: تقرير الشرطة عن الحادث، رأي الطبيب المختص والمؤلف من صفحة واحدة، ومظروف يضمّ الصور. بدأتُ أقلب الصور، وقرأتُ التقارير، ثم مضيتُ كي أبحث عن بيلييتيه.

قلتُ للشخص الذي أدار ظهره إلى باب مكتبه: "أريد أن أتحدث معك لدقيقة واحدة. أسمع؟"

ترجع عن المجهر ممسكاً بنظارته بيدٍ، والقلم باليد الأخرى. وضع نظارته ثنائية البؤرة، وقال يَحْتِي: "ادخلي، ادخلي".

يمتلك مكنتي نافذةً واسعة، أما مكتبه فيتميز بالاتساع. مشى عبر مكتبه وأشار إلى كرسي من اثنتين يحيطان بطاولة صغيرة تحاذي طاولة مكتبه. اتّجه نحو معطفٍ مختره، وتناول علبة من سجائر دو هوربيه ثم قدّمها لي. هزرتُ رأسي.

تكرّر هذا الأمر ألف مرة. يعرف الرجل أنني لا أدنّ، لكنه يصبر على تقديم السجائر لي. يمتلك الرجل أسلوبه الخاص، مثل كلوديل تماماً.

قال لي وهو يُشعل سيجارته: "ماذا أفعل كي أساعدك؟"

"إنني مهتمة بشأن قضية من قضاياك القديمة. إنها تعود إلى العام 1990".

"آه، يا إلهي، هل أستطيع أن أتذكر قضية بهذا القدم؟ بالكاد أستطيع تذكر عنواني الخاص في بعض الأحيان". انحنى إلى الأمام ووضع راحة يده على فمه، لكن الدهاء بدا على محياه. "أكتبه أحياناً على علبة الكيريت، وذلك على سبيل الاحتياط".

ضحكنا سوياً: "دكتور بيليتيه. أعتقد أنك تتذكر كل شيء، تقريباً، ترغب بتذكره".

هزّ كتفيه ورأسه، وبدت البراعة التامة على محياه.

"أحضرتُ الملف معي على أي حال". رفعتُ الملف إلى الأعلى، ثم فتحتة. "يقول تقرير الشرطة إنّ البقايا وُجدت في كيس من أكياس النادي الرياضي. وُجد الكيس وراء محطة فوياجر للباصات. فتحه وينو ظناً منه أنه سيعثر على صاحب الكيس".

قال بيليتيه: "معك حق. إنّ عدد هؤلاء الأشخاص كبير جداً إلى درجة توهلهم لتشكيل منظماتهم الأخوية الخاصة بهم".

"لم تعجبه الرائحة على أي حال. قال...". تصفحتُ تقرير الحادث كي أجد العبارة المناسبة. "تصاعدت رائحة شيطانية من ذلك الكيس وأحاطت بي تماماً. انتهى الاقتباس".

قال بيليتيه: "إنه اقتباسٌ شعريٌّ أحبه كثيراً. أتساءل عما عساه يقول عن سروالي القصير".

تجاهلتُ كلماته وتابعتُ القراءة: "أخذ الكيس، وسلّمه إلى البواب، فأسرع هذا الأخير لاستدعاء الشرطة. وجدت الشرطة مجموعة من أجزاء الجثة، وكانت كلها ملفوفة بنوع من أنواع أقمشة الطاولات".

مدّ إحدى أصابعه الصفراء اللون وقال: "آه، وحي. أتذكر تلك الحالة. يا لفظاعتها ووحشيتها!" بدا عليه التأثير نتيجة الوصف الذي أعطاه للجريمة.

"دكتور بيليتيه؟"

"إنها قضية قرد المحطة".

"إذاً، هل قرأتُ تقريرك بشكل صحيح؟"

رفع حاجبيه متسائلاً.

"هل كان قرداً بالفعل؟"

أوماً بجدية: "إنه قرد كبوشي".

"ولماذا أحضروه إلى هنا".

"كان ميتاً".

يستطيع كل شخص أن يكون كوميدياً عندما يريد: "نعم، ولكن لماذا

اعتبرت قضية تستدعي محققاً جنائياً؟"

أظن أن النظرة التي ارتسمت على وجهي قد استدعت جواباً صريحاً: "كانت

محتويات الكيس صغيرة على أي حال، كما أن أحداً قد أقدم على انتزاع الجلد

منها ثم قطعها تقطيعاً. اللعنة! كان بإمكانها أن تكون أي شيء. ظننت الشرطة أنها

قد تكون جنيناً، أو مخلوقاً حديث الولادة، ولهذا أرسلوها لنا".

"هل لاحظت شيئاً غريباً في هذه القضية؟" سألته من دون أن أعرف الأشياء

التي أريد الوصول إليها.

"لا. كان مجرد قرد من القردة المقطعة". ارتعشت زاويتي فمه قليلاً.

"حسناً". يا لغباوة سؤالي. "هل لفت نظرك أي شيء غريب في طريقة تقطيع

القرد؟"

"لا، لأن طريقة تقطيع القردة تتشابه في معظم الأحيان؟"

لم أحصل على نتيجة من كل ذلك.

"هل عرفتم من هو صاحب القرد؟"

"عرفناه في الواقع. ظهرت أوصاف القرد في الجريدة، كما أن رجلاً اتصل بنا

من الجامعة".

"أتعني جامعة كيبك ومونتريال؟"

"أجل، أظن ذلك. قال إنه عالم أحياء، أو عالم حيوانات. إنه أنكلوفوني

(يتكلم الإنجليزية). آه. انتظري".

اتَّجِهْ بيلييتيه نحو دُرج طاولته، وبحث بين محتوياته، ثم سحب رزمةً من بطاقات التعريف المربوطة برباط مطاطي. نزع الرباط، وبدأ يقلِّب البطاقات، ثم ناولني إحداها.

"إنه هو. رأيته عندما جاء ليتعرف على الجنة".

جاء في البطاقة: باركري. بايلي، دكتوراة فلسفة، أستاذ مادة علم الأحياء. أعطانا الرجل عنوان بريده الإلكتروني، ورقم هاتفه، وأرقام الفاكس، بالإضافة إلى عنوانه.

سألته: "ما هي قصته؟"

"يحتفظ ذلك السيّد بالقردة في الجامعة ويُجري الأبحاث عليها. حضر في أحد الأيام ووجد أحد رعاياه مفقوداً".

"هل سُرق؟"

"سُرق، أم حُرِّر، أم هرب، من يدري؟ اعتُبر هذا القرد غائباً من دون إذن".
بدا ذلك التعبير غريباً بعض الشيء عندما لفظه بالفرنسية.

"هل قرأ الرجل عن ذلك القرد الميت في الصحف، ثم اتصل بك على الفور؟"

"هذا صحيح".

"وماذا حدث له؟"

"أتعنين ماذا حدث للقرد؟"

أومأت.

"سَلَّمناه إلى... نظر في البطاقة.

أكملتُ عنه: "الدكتور بايلي".

"وي. ما من أقارب للضحية، وعلى الأقل ليس في كيبك". قالها من دون أن يرتعش.

"نعم، فهمت".

نظرتُ إلى البطاقة مجدداً. قال لي الجزء الأيسر من دماغِي: لا أظنُّ أنها معلومات مهمة، لكنني سمعتُ نفسي وأنا أطرح السؤال: "أيمكنني الاحتفاظ بهذه؟"
"بالطبع".

وضعتُ مصيّدتي بنفسِي: "لدي سؤال آخر. من أين أتت تسمية قضية فرد المحطة؟"

بدأت المفاجأة على وجهه عندما أجابني: "حسناً، هكذا كانت."

"كانت ماذا؟"

"القرد. والمحطة."

"حسناً، فهمت."

"كان هناك بالذات."

"أين؟"

"في المحطة، أي محطة الباصات."

توجد بعض الأشياء التي تقبل الترجمة، مع الأسف.

أهمكتُ لبقية ذلك المساء في استخلاص التفاصيل من الملفات الأربعة الأساسية وأدخلتها في الملف الذي استحدثته في حاسوبي المحمول. أدخلتُ التفاصيل التالية: لون الشعر، العينان، لون البشرة، الطول، الدين، الأسماء، التواريخ، الأماكن، علامات البروج. أدخلتُ أي شيء، وكل شيء خطر في ذهني. شغلتُ الجهاز بحماسة كبيرة، وصممتُ على متابعة البحث عن أي روابط في ما بعد، ولعلي اعتقدتُ أنّ الأنماط ستظهر بنفسها، أو أنّ مكونات المعطيات المتداخلة سوف تنجذب إلى بعضها بعضاً، أي مثلما تفعل البيبتيدات العصبية في مواقع انتقالها الجديدة. ولعلي أحتاج إلى مهمة روتينية تشغل ذهني، أو إلى أحجية توهمني بأنني أحرز تقدماً ما.

حاولتُ الاتصال برايان مجدداً عند الساعة الرابعة وخمس عشرة دقيقة. لم يكن في مكتبه، لكن عاملة الهاتف قالت لي إنها ربما رأته، ولذلك بدأت البحث عنه، وإن بردد. انتظرتُ الرد، لكنّ عينيّ تعلقتا في ملفّ القرد. شعرتُ بالسأم، لذلك استخرجتُ مجموعة الصور. وجدتُ مجموعتين منها. كانت المجموعة الأولى صوراً فورية، أما المجموعة الثانية فتألفت من صور ملونة بقياس 12 × 17 ستمتراً. عادت موظفة الهاتف لتقول لي إن برايان ليس موجوداً في كل المكاتب التي اتصلت بها. قالت لي، بعد أن تأوهت، إنها ستحاول إيجادها في غرفة الاستراحة.

تفحصتُ الصور الفورية. اتضح لي أنها أُخذت عندما وصلت البقايا إلى المشرحة. رأيتُ صور كيس من النايلون بلون أرجواني وأسود. أظهرت إحدى الصور الكيس مقفلاً، بينما ظهر مفتوحاً في صورة أخرى مع حزمة في داخله. أما الصور القليلة التالية فأظهرت الحزمة فوق طاولة التشريح، قبل فكّها وبعده.

أظهرت الصور الست التالية أجزاء الجثة. أظهر مقياس بطاقة التعريف أنّ صاحب الجثة أصغر بكثير من جنين كامل، أو طفل حديث الولادة. بدا التشويه واضحاً في هذه الصور. أخذ اللحم يميل إلى اللون الأسود، كما بدا ملوثاً بشيء يشبه التابسيوكا الفاسدة. اعتقد أنني أستطيع التعرف على الرأس، والجذع، والأطراف، لكنني لم أستطع التعرف على أي أجزاء أخرى. لاحظتُ أنّ الصور مأخوذة من مسافة بعيدة، لذلك كانت التفاصيل غير واضحة. نظرت إلى الصور من زوايا عديدة، لكنّ من دون أن أعرف المزيد.

عادت موظفة الهاتف لتقول لي بلهجة قاطعة هذه المرة إنّ رايان ليس موجوداً، وإنه يتعيّن عليّ أن أحاول الاتصال به في اليوم التالي. تركتُ رسالة أخرى، وقطعتُ الاتصال، فحمرتها بذلك من المجادلة التي حضرتها.

التقطت الصور الملونة، التي هي بمقاس 12 × 17 سنتيمتراً، بعد انتهاء عملية التنظيف. ظهرت في هذه الصور التفاصيل التي عجزت صور البولارويد الفورية عن كشفها. بدت الجثة الصغيرة مسلوخة ومقطعة. ربّ المصوّر، ولعله كان دينيز، هذه الأجزاء في وضعها التشريحي الصحيح، ثم صوّر كلاً منها على حدة.

لاحظتُ أثناء تقليبي الصور أنّ تلك الأجزاء المقطعة بدت مثل الأرنب الذي اقترب من المرحلة الأخيرة في عملية طهوه، في ما عدا أمراً واحداً. أظهرت الصورة الخامسة ذراعاً صغيرة تنتهي بأربعة أصابع سليمة، وإبهامٍ ملتفٍ على راحة يد رقيقة.

ركّزت الصورتان الأخيرتان على الرأس. ومن دون الجلد والشعر اللذين يحيطان بالرأس، بدا الرأس بدايماً مثل الجنين الذي انثُرع من حبله السري، أي أنه كان عارياً وضعيفاً. كانت حجمته بحجم البرتقالة. لاحظتُ أنّ الرأس مفلطح، أما ملامحه فكانت شبيهة بالملامح البشرية، ولم يتطلب الأمر جاين غودال كي يعرف المرء أنه ليس مخلوقاً بشرياً. تضمن الفم الأسنان جميعها، بما فيها الأضراس. رحّت

أعدّها. وجدتُ ثلاثة أسنان ما قبل الطواحن في كل ربع دائرة. أتى قرد الحطة هذا من أمريكا الجنوبية.

أفنعتُ نفسي أهما مجرد قضية أخرى من قضايا حوادث الحيوانات، ثم أعدتُ الصور إلى مطروفيها. كنا نتفحص هذه الصور من وقت إلى آخر لأن هذه البقايا اعتُبرت بشرية. اشتملت بعض البقايا الأخرى على مخالب دب سلخها الصيادون وتركوها خلفهم، بالإضافة إلى بقايا الخنازير والماعز التي تُذبح، وتلك الأجزاء غير المرغوبة والتي رُميت على جوانب الطرقات، والكلاب والمهرة التي تُلقى في مجارى الأنهر بعد أن تعذب. دُهشت كثيراً للوحشية التي تُعامل بها الحيوانات الأليفة، ولم أعود عليها مطلقاً.

لماذا أهتم إذاً بهذه القضية؟ ألقى نظرة أخرى على صور 12×17 . حسناً. تعرّض القرد للتقطيع. وماذا في ذلك؟ مرّت معي حالات كثيرة من جثث الحيوانات المقطّعة. هل يعتمد أحد الأندال إلى تسليّة نفسه بتعذيب الحيوانات وقتلها؟ هل هو أحد الطلبة الذين صدمته علاماته المنخفضة؟ توقفتُ عند الصورة الخامسة، وتسمّرت عيناى على محتواها الباهت. توترت عضلات معدتي مجدداً. حدّقتُ بالصورة، ثم هرعتُ باتجاه الهاتف.

23

ليس هناك مكان أكثر وحشة من غرفة صف دراسي خال من الطلاب بعد أوقات الدوام الدراسي. يذكرني هذا بالمشهد الذي يجيم بعد إلقاء قبلة نيوترونية. تلتهم الأنوار، وتدافع مياه النوافير بحسب برمجتها، كما تتوهج شاشات أجهزة الكمبيوتر بشكل مخيف. لا يُشاهد عندها أحدٌ يطفى عطشه، ولا طلاب يُهرعون إلى صفوفهم، ولا أحد ينقر على لوحة مفاتيح.

جلستُ على أحد الكراسي القابلة للطي، والتي تتواجد خارج مكتب باركر بايلي، الذي يقع في جامعة كيبك ومونتريال. توجهتُ إلى النادي الرياضي بعد مغادرتي للمختبرات، واشتريتُ بعض البقالة من بروفيغو، ثم تناولتُ وجبة من المعكرونة من صلصة الأصداف. كانت وجبة لا بأس بها نظراً لضيق وقتي، والحالة التي كنت فيها. دُهب بيردي من سرعتي ونفاد صبري.

إن وصفي كلية علوم الأحياء بالهادئة يشبه القول إن الكوارك صغير. رأيتُ كل باب على طول الرواق وعرضه مغلقاً. تتبعتُ لوحات الإعلانات، وقرأتُ كتيبات المتخرجين في الكلية بالإضافة إلى بلاغات الأعمال الميدانية في الكلية، وعروض الطباعة أو التعليم، وإعلانات المحاضرين الضيوف. قرأتُ كل تلك المواد مرتين.

نظرتُ إلى ساعتني للمرة المليون؛ أشارت عقاربها إلى الساعة 9:12 مساءً. يُفترض به أن يكون قد وصل في هذا الوقت، لأن صفه ينتهي عند التاسعة، وهذا على الأقل هو ما أخبرتني به مساعدته. نهضتُ من مكاني وبدأتُ أذرع الرواق

ذهاباً وإياباً، لأن ذلك هو الخيار الوحيد المتاح أمام الذين يُفرض بهم الإنتظار.
9:14. اللعنة!

يُست من قدومه عند الساعة 9:30. ولكنني سمعتُ صوت باب يُفتح في مكان ما، في الوقت ذاته الذي علّقتُ فيه حقيبي الصغيرة على كتفي. لم تمر لحظة من الزمن قبل أن يظهر من زاوية الرواق رجلٌ يحمل كدسة ضخمة من دفاتر المختبرات. دأب الرجل على تعديل وضعيته كتفيه كي يمنع الدفاتر من السقوط. بدا منظر سترته التي يرتديها وكأنه وصل من إيرلندا قبل زمن مجاعة البطاطا. حنّنتُ أنه في بداية الأربعينيات من عمره.

توقف الرجل عندما رأي، لكن ملامح وجهه لم تتغير. بدأتُ بالتعريف عن نفسي في اللحظة ذاتها التي أوقع فيها دفتر ملاحظات على الأرض. اندفع كلانا نحو الدفتر، لكنها لم تكن خطوة موفقة من جانبه. فقد سقطت معظم دفاتر الكدسة، وتبعثرت فوق أرضية المكان، مثلما ينتشر نثار حفلة من حفلات رأس السنة. تعاوتنا على جمع الدفاتر لدقائق عديدة، عمد بعدها إلى فتح باب مكتبه، ثم وضع الدفاتر على طاولة مكتبه.

قال بلهجة فرنسية ثقيلة: "آسف. أنا..."

أجبتُه بالإنكليزية: "لا بأس، لا بد أنني أجفلتك".

"أجل. كلا. كان يجدر بي إحضار الدفاتر على دفعتين. يحدث هذا كثيراً".

لاحظتُ أن لغته الإنكليزية ليست أميركية.

"هل هذه دفاتر مختبر؟"

"أجل. أعطيتُ لتوي درساً في المنهجية السلوكية".

ظهرت على الرجل ظلال شمس أوتر بانكس الغاربة. رأيتُ جلده الذي

اكتسب اللون الزهري الشاحب، وخذّيه اللذين استعارا لون توت العليق، وشعره

الذي أخذ لون البسكويت المهش بالفانيليا. أما شاربه ورموش عينيه فاكتمبت لون

الكهرمان. بدا الرجل وكأنه تعرّض للاحتراق، وليس كرجلٍ اكتسب سمّته عن

طريق التعرض للشمس.

"يا للروعة!"

"أتمنى لو أن آخرين يعتبرونها كذلك. هل أستطيع..."

فتحتُ حقيبتِي الصغيرة، وتناولتُ بطاقةً منها، ثم أعطيتُها إياها: "أنا تمب
برينان. قالت لي مساعدتك إنني أستطيع أن ألتقيك في هذا الوقت".
شرحتُ له أهداف زيارتي أثناء انشغاله بقراءة البطاقة.
"أجل، تذكرت. أكره خسارة القردة. أزعجني الأمر كثيراً في ذلك الوقت".
أضاف فجأةً: "أتحين أن تجلسي".

لم ينتظر إجابتي، فأسرع بنقل كل الأشياء الموجودة فوق كرسي الفينيل
الأخضر، وجمعها على أرضية المكتب. اختلستُ نظرة من حولي. جعلني مكتبه
الصغير أعتبر مكنتي بمثابة ملعب اليانكي.

امتلاتُ الجدران بـصور الحيوانات: أسماك أبو شوكة، طيور الفري،
والسعادين، والخنازير، وحتى أكل النمل. لم تغب عن الجدران صور طيور التدرج.
ذكّرني هذا المنظر بمكتب أحد المعجيين الذي يعرض صور المشاهير الذين يعرفهم
مثلما يعرض الجوائز التي حصل عليها، لكن مع فرق واحد وهو أنها غير موقّعة.
جلس وراء طاولته ممدداً قدميه فوق درجٍ مفتوح، بينما جلستُ أنا على
كرسي أخلاه الرجل من الأشياء التي كانت موضوعة فوقه للتو.
"أجل. ضايقتني الأمر كثيراً". كرّر القول قبل أن يغيّر الموضوع على نحو
مفاجئ. "هل تعملين في حقل علوم الإنسان؟"
"آه. هم".

"هل تعملين في مجال الرئيسات؟"

"لا. عملت في هذا المجال في الماضي، لكن ليس الآن. أعمل هذه الأيام في
كلية الأنثروبولوجيا، في جامعة كارولينا الشمالية في شارلوت. أدرّس من وقت
إلى آخر مادة بيولوجيا الرئيسات وسلوكها، لكنني لست معنيةً في الواقع في ذلك
الحقل. إنني منشغلة كثيراً في مجال الأبحاث الجنائية، وتقدم الاستشارات".

لوّح بالبطاقة: "حسنًا. ما هي علاقتك إذاً بالرئيسات؟"

بدأتُ أتساءل عن يجرى المقابلة مع الآخر: "كنتُ منشغلة في مسألة ترقق
العظام، وعلى الأخص العلاقة القائمة ما بين السلوك الاجتماعي وعملية المرض. عملنا
مع أنواع عديدة من نماذج الحيوانات، وعلى الأخص قردة الرئيس، وعملنا على
المجموعات الاجتماعية، وكوّنا ظروف إجهاد لها، ثم راقبنا مقدار فقدان العظام".

"هل أجريت أي أبحاث في البرية؟"
"عملنا في بعض الجزر التي تُعتبر مستوطنات لهذه الحيوانات".
تقوَّس الحاجبان الكهربائيان من شدة الاهتمام: "آه؟"
"عملنا في كايبو سانتياغو في البرتغال، كما أعطيتُ صفوف دراسة ميدانية في جزيرة مورغان التي تقع قبالة ساحل كارولينا الجنوبية، وذلك على مدى أعوام عديدة".

"فردة الرئيس؟"
"أجل يا دكتور بايلي. إنني أتساءل عما إذا كانت لديك معلومات عن ذلك القرد الذي اختفى من مركزك".
تجاهل انتقالي الفج من موضوع إلى آخر: "وكيف انتقلت من دراسة عظام القردة إلى دراسة الجثث؟"
"يجمع بينهما علم الأحياء العظمي".
"أجل. صحيح".
وماذا بشأن القرد؟"

"آه، القرد. لا أملك الكثير من المعلومات عنه". فرك فردتي حذائه النايكو ببعضهما، وانحنى إلى الأمام ثم أمسك بشيء ما. "أتيت ذات يوم فوجدتُ القفص فارغاً. ظننتُ أنّ أحداً ما قد نسي إحكام إغلاق الباب بالقفل، وأنّ إلساء، أي القردة، قد سمحت لنفسها بمغادرة القفص. لا يُعتبر ذلك تصرفاً غريباً من قبل الحيوانات كما تعرفين. كانت في غاية الذكاء والدقة، وتمتلك مهارةً يدويةً عاليةً، وتتميّز بيدين صغيرتين ورائعتين. فتشنا المكان على أي حال، وأعلمنا فريق الأمن في حرم الكلية، وقفزنا فوق كل الأسيجة. رأيتُ المقالة في الصحيفة بعد ذلك. أما بقية التفاصيل فهي معروفة".

"وماذا كنتَ تفعل بما؟"
"لم تكن إلساء من ضمن مشروعي أنا في الواقع. كان أحد طلبة صفوف التخرج يعمل معها. أنا مهتم بأنظمة الاتصالات بين الحيوانات على وجه الخصوص، ولكن ليس بالتحديد. إنني أدرس الفيرومونات، والإشارات العائدة لحاسة الشم".

استنتجتُ من التغيّر الذي طرأ على لهجته، والسرعة التي طرأت على إيقاع كلماته، أنه قد أعطى هذا الملخّص من قبل. انطلق في هذه الثرثرة التي يسميها بحث، وهي الرمز الشفهي الجرد الذي يستخدمه العلماء للاستهلاك العام. يرتكز البحث على قاعدة خذ الأمور ببساطة أيها الغبي. ويتم تداول مثل هذه الأبحاث في حفلات الكوكتيل، ومع جامعي التبرعات، والاجتماعات، وفي المناسبات الاجتماعية. يمتلك كل واحد منا بحثه الخاص به. وجدتُ نفسي وأنا أستمع إلى بحثه. سئمتُ من الاستماع إليه: "ماذا كان المشروع إذًا؟"

نَدتُ عنه ابتسامة ساحرة وهزّ رأسه: "اللغة، وبالتحديد اكتساب اللغة عند رئيسات العالم الجديد. أخذت القردة اسمها من الأحرف الأولى للمشروع. اكتساب اللغة عند السعادين الأميركية. إلسا. كانت ماري - ليز ستكون مثيلة بيتي باترسون في كيبك، أما إلسا فكان مقدراً لها أن تكون مثيلة قردة كوكو الموجودة في أمريكا الجنوبية". وضع الرجل قلماً فوق رأسه، وأصدر صوت استهجان، ثم أسقط ذراعه بشدة. أصدرت ذراعه صوتاً شديداً عندما ارتطمت بالطاوله. تفحصتُ وجهه. بدا لي إما متعباً أو محبطاً. لم أستطع أن أتأكد بالضبط.

"ماري - ليز؟"

"إنها تلميذتي".

"وهل كانت تحرز نجاحاً؟"

"من يدري؟ لم يتوفر لها الوقت الكافي في الواقع. اختفت القردة بعد مضي خمسة أشهر على بداية المشروع". أبدى الرجل المزيد من السخرية. "وتبعها ماري - ليز بعد ذلك بوقت قصير".

"هل تركت الكلية؟"

أوماً.

"هل تعرف لماذا؟"

صمت لفترة طويلة قبل أن يبدأ بالإجابة: "كانت ماري - ليز طالبة ممتازة. تعيّن عليها، بالطبع، أن تبدأ مشروعها من جديد، لكنني لا أشك في أنها كانت قادرة على إنهاء دراسة الماجستير. كانت تحب موضوع عملها. أجل، تأثرت كثيراً عندما قُتلت القردة، لكن لا أظن أن هذا هو كل شيء".

"إذا ما هي الحقيقة؟"

أخذ يرسم مثلثات صغيرة على أحد دفاتر مختبره. تركته يأخذ وقته.
"كان عندها هذا الصديق. ضايقها الرجل بشأن وجودها في الكلية. ضغط عليها كي تترك الدراسة. تحدثت معي بهذا الموضوع مرة أو مرتين، لكنني أظن أن ضغط الرجل قد فعل فعله أخيراً. التقيته في عدة حفلات. أعتقد أن الرجل مخيف بعض الشيء."

"وكيف هذا؟"

"أنا... لا أعرف. ربما كان الرجل غير اجتماعي بالمرّة، أو ساخراً، أو عدائياً، أو فجاً. بدا لي وكأنه لم يستوعب المهارات البشرية... الغريزية. ذكّرني دائماً بقرد هارلو. أتعرّفين، بدا لي أنه نشأ في مكان معزول ولم يتعلّم كيفية التعاطي مع الآخرين. اعتاد الرجل أن يغمز بعينه كلما حدّثه الآخرون بشيء. أحسست أنني أكرهه حقاً."

"هل شككت به في يومٍ من الأيام؟ أعني احتمال أن يكون قد قتل إلسا كي يخرّب البحث الذي تقوم به ماري - ليز، وكي يحملها على ترك الكلية."

استنتجت من صمته أنه فعل هذا. قال لي فجأة: "كأن من المفترض به أن يكون في تورنتو في ذلك الوقت."

"وهل يستطيع إثبات غيابه هذا؟"

"صدّقته ماري - ليز عندها، أما نحن فلم نتابع هذا الموضوع. وما الفائدة في ذلك بعد أن ماتت إلسا؟"

لم أعرف كيف أطرح عليه سؤالي التالي: "هل سبق لك أن قرأت ما دوّنته ماري - ليز من ملاحظات حول مشروعها؟"

توقف عن التلهي برسم المثلثات، ونظر إليّ بحمّة: "ماذا تعنين؟"

"أيوّجد احتمال أنّها رغبت بالتستّر على شيء ما؟ وهل تكوّن عندها سبب ما للتخلص من مشروعها؟"

"لا. بالتأكيد لا". أحسستُ بنقطة كبيرة في صوته، لكن الحال لم تكن كذلك مع عينيه.

"هل تتصل بك من حينٍ إلى آخر؟"

"لا".

"وهل يحدث هذا كثيراً؟"

"بعضهم يتصل، وبعضهم لا يتصل". زادت سرعة انتشار المثلثات.

غيّرت أسلوبى معه: "من غيرها يستطيع الوصول إلى... هل هو مختبر؟"

"إنه مختبر صغير. إننا نحفظ فيه ببعض النزلاء من الحيوانات، لكننا لا نمتلك مساحةً كبيرةً لها. يتعيّن علينا إبقاء كل فصيلة في غرفة منفصلة كما تعرفين".

"أوه؟"

"أجل. يفرض CCAC تعليمات محددةً للتحكم بالحرارة، والمساحة، والوجبات الغذائية، والمؤشرات السلوكية إلى ما هنالك".

"CCAC؟"

"إنه المجلس الكندي للعناية بالحيوانات. ينشر المجلس دليلاً مخصصاً بالعناية بالحيوانات وإجراء التجارب عليها. إنه الدليل الذي يضطر كل من يجري أبحاثاً عن الحيوانات أن يلتزم به: العلماء، والمرّبون، والعاملون في هذه المهنة. يغطي هذا الدليل صحة العاملين مع الحيوانات وتعليمات الأمان المتعلقة بهم".

"وماذا بشأن الأمن؟"

"أوه نعم. إنّ التعليمات محددة جداً".

"ما هي إجراءات الأمن التي تتبعونها؟"

"إنني أعمل مع أبو شوكة في الوقت الحالي. إنها نوعٌ من الأسماك".

استدار في كرسيه، وأشار بقلمه إلى صورة الأسماك المعلقة على الجدار.

"إنها لا تتطلب الكثير من الاهتمام. يعتني بعض زملائي بفئران المختبرات،

لأنها لا تتطلب اهتماماً كبيراً هي الأخرى. لا تهتم جمعيات الرفق بالحيوانات بالأسماك والقوارض عادةً".

ارتسمت على وجهه تعابير تستحق نبيل كأس العالم في السخرية.

"كانت إلسا الوحيدة بين الحيوانات اللبونة الأخرى التي نحتفظ بها، وهكذا لم

تكن إجراءات الأمن صارمة كثيراً. امتلكت إلسا غرفةً صغيرةً خاصةً بها، والتي كانت محتجزة فيها على الدوام. داومنا على إقفال قفصها بالطبع، وكذلك كنا

نقفل باب المختبر الخارجي".

توقف عن الكلام.

"فكّرتُ كثيراً في هذا الموضوع. لم أستطع أن أتذكّر من هو آخر شخصٍ غادر المكان في تلك الليلة. لم يكن عندي صفٌّ ليلى عندها، لهذا لا أعتقد أنني تأخرتُ تلك الليلة. ربما قام أحد طلاب السنة النهائية بتفحص الأقفال، لأنّ مساعدتي لا تُقدم على تفحص تلك الأبواب إلا إذا طلبتُ منها ذلك تحديداً".
توقّف قليلاً ثم تابع:

"أفترض أنّ أحد الغرباء قد دخل، كما أنه ليس من المستحيل أن يترك أحدهم الأبواب غير مغلقة. وأعتقد أنّ بعض الطلاب يُعتمد عليهم أكثر من الآخرين".

"ماذا بشأن القفص؟"

"لم يكن القفص قوياً بما فيه الكفاية، لأنه مغلّق بقفلٍ واحدٍ فقط. لم نجد ذلك القفل مطلقاً. أفترض أنه ربما نُشر بمنشار".

حاولتُ أن أنتقل بالحديث إلى الموضوع التالي، ولكن بحذر: "أين وُجدت الأجزاء المفقودة؟"

"الأجزاء المفقودة؟"

"كانت إلسا". رحتُ أفكّر هنا بالكلمة المناسبة. حافظي على الهدوء أيتها الغبية. "مقطّعة". لم تكن بعض أجزائها في الحزمة التي اكتشفت. أتساءل إن كانت بعض هذه الأجزاء قد وُجدت هنا".

بدا وجهه الشاحب مذهولاً: "أجزاء مثل ماذا؟ ما هي الأجزاء التي فقدت؟"
"يدها اليميني يا دكتور بايلي. قُطعت يدها اليميني عند المعصم، ولم تكن موجودة".

لم أجد سبباً كي أخبره عن النساء اللواتي عانين من التعذيب ذاته، ولا عن السبب الحقيقي الذي حضرت من أجله إلى هذا المكان.

بقي صامتاً، وشبك أصابعه وراء رأسه، ثم ركّز نظره على شيء ما فوقني. اصططع خداه بلون توت العليق، وامتد هذا اللون نحو الروبارب. سمعت جهاز راديو صغير يدندن بهدوء في مكان ما في خزانته.

كسرتُ نطاق الصمت بعد فترةٍ خلقتها عقداً من الأعوام.

"فكّر بما حدث وقل لي ماذا تعتقد أنه حدث؟"

لم يردّ عليّ فوراً، لكنه نطق عندما خلتُ أنه لن يفعل ذلك أبداً: "أظن أن الفاعل هو أحد أشكال الحياة المتحوّلة المنتشرة في هذا الحرم".

ظننتُ أنه انتهى من كلامه. زاد تنفسه عمقاً في صدره، لكنه أضاف شيئاً بصوت يشبه الهمس، لكنني لم أفهمه.

قلتُ: "آسفة؟"

"تستحقّ ماري - ليز شيئاً أفضل".

أدركتُ أنه من المستغرب أن يقول شيئاً كهذا. رحّتُ أفكر أن إلسا أيضاً تستحقّ شيئاً أفضل، لكنني لم أقل شيئاً. كسر رنين الجرس الصمت على نحو مفاجئ، وسرى عبر جسدي تيار اخترق كل عصبٍ من أعصابي. نظرتُ إلى ساعتِي التي أشارت عقاربها إلى الساعة 10:00 مساءً.

تجاهلتُ سؤاله عن سبب اهتمامي بقضية قرده ماتت منذ أربعة أعوام. شكرته على استماعه لي وطلبتُ منه أن يتصل بي إذا وجد ذلك ضرورياً. تركته جالساً هناك وقد أعاد تركيزه على ذلك الشيء الذي كان يطير فوق رأسي. افترضتُ أنه يحدّق في الزمن، وليس في الفضاء.

لم تكن هذه المنطقة مألوفة بالنسبة لي، لكنني اكتشفتُ أنني ركنتُ سيارتي في الممر ذاته الذي استخدمته في تلك الليلة التي سرّتها في شارع ماين. أُنعتُ نفسي أن ألتزم بالأمر المفيدة، وبدأتُ أفكّر في تلك الفسحة وكأنها غاي غروب العظيمة. بدا الأمر وكأنه حدث منذ حقبة بعيدة، في حين أنه حدث منذ يومين فقط.

كان البرد أشد هذه المرة، كما تساقط مطر خفيف. أحكمتُ إغلاق سترتي، وسرّتُ عائدةً إلى سيارتي.

غادرتُ الجامعة، وقدتُ السيارة شمالاً في شارع سان دينيز. مررتُ من أمام مجموعة من محلات الثياب والمطاعم الرائعة. يبدو سان دينيز وكأنه يقع على بعد شاسع من شارع سان لوران، مع أنه لا يبعد سوى بلوكات قليلة عن سان لوران. يُعرف سان لوران بأنه المكان الذي تقصده الشابات الثريات اللواتي يبحثن عن فستانين رائعتين، أو أفراط فضية، أو عن شريك، أو حتى عن موقف سيارة لليلةٍ

واحدة. إنه شارع الأحلام الذي يتوافر في معظم المدن. تمتلك مونتريال اثنين منه: كريسنت للناطقين بالإنكليزية، وسان دينيز للناطقين بالفرنسية.

فكّرتُ بالساء أثناء انتظاري الضوء الأخضر في دي مايزونيف. أظن أن بايلي على حق. تقع محطة الباصات على يميني، أي أن القاتل، كائناً من كان، لم يتعد مسافة طويلة قبل التخلص من الجثة. يدل هذا الأمر على أن الفاعل هو من سكان المنطقة. شاهدتُ شخصين فتيين يخرجان من محطة مترو جامعة كيبيك ومونتريال. ركضا تحت المطر وهما متمسكان ببعضهما بعضاً مثل زوج من الجوارب خرج لتوه من النشّافة.

رحتُ أفكّر بأنّ الفاعل هو أحد الذين يترددون من وإلى أشغالهم. حسناً يا برونان، تناولي قرداً، واستقلي المترو في طريق عودتك إلى المنزل، وأشبعه ضرباً، ثم قطعيه، وعودي به بعد ذلك إلى المترو، واتركيه بعد ذلك في محطة الباصات. يا له من تخطيط عظيم!

أضاء اللون الأخضر. عبرتُ شارع سان دينيز، وسرت غرباً في شارع دي مايزونيف، وشغلتُ فكري بمحدثي مع بايلي. أزعجني شيء ما في هذا الرجل؟ هل أظهر عاطفة زائدة تجاه طالبته؟ هل أظهر القليل جداً من هذه العاطفة بالنسبة إلى القردة؟ ولماذا بدا شديد... ماذا؟ السلبية، تجاه مشروع إلساء؟ لماذا لا يعرف شيئاً عن احتفاء اليد؟ ألم يقل لي بيليتيه إن بايلي تفحص الجثة المشرّحة؟ أليس من المفترض أن يكون قد لاحظ اليد المفقودة؟ تسلّم هذا الرجل البقايا من المختبر.

"اللعة!" قلتها بصوت عال ورحت أثقل ذهني بالتساؤلات.

التفت إليّ رجل يرتدي ثياباً من قطعة واحدة، وبدا عليه التوجس. لم يلبس الرجل قميصاً، كما أنه لم ينتعل حذاءً، ولاحظتُ أنه يحمل معه كيس تسوق بيديه الاثنتين لأن مقبضه المتمزق شكّل زوايا غريبة. ابتسمتُ كي أطمئنه، لكنه مشى بتأقل، وراح يهز رأسه أسفاً على حال البشرية والعالم.

رحتُ أوبّخ نفسي وأقول إنني مثل كولومبو، لكنني فاشلة. لم أسأل بايلي ماذا فعل بالجثة. يا للمهمة الناجحة!

انتهيتُ من تأنيب نفسي، لكنني قررتُ استرضاءها بتقديم اقتراح تناول شطيرة نقانق.

قبلتُ بعد أن أدركتُ بأنني لن أكون قادرةً على النوم بأي حال. أستطيع
بهذه الطريقة إلقاء اللوم على الطعام. توجهتُ إلى شيان شود الذي يقع في سانت
دومينيك، وطلبتُ نقانق مع كافة التوابل، وبعض البطاطا المقلية، وكوك للحمية.
أبلغني نادلٌ يشبه جون بيلوشي بشعره الكثيف ولهجته المشددة: "لا يوجد كوك.
لدينا بييسي". أدركتُ أن الحياة تقلد الفن فعلاً.

تناولتُ طعامي في حجرة بلاستيكية مطلية باللونين الأحمر والأبيض، ورحتُ أتأمل
إعلانات السفرات التي تكاد تتقشر عن الجدران. فكّرتُ في أن هذه المناظر رائعة،
ورحتُ أهدقُ بالسماء الشديدة الزرقة، وبالأنبية المطلية بالكلس الذي يُبهر بياضه العيون
في جزر باروس، سانتوريني، وميكonos اليونانية. أجل، إنها مناظر رائعة. بدأتُ
السيارات باحتلال الأرصفة المبتلة في الخارج. وعاد شارع ماين ليعج بالحياة ثانية.

وصل رجلٌ وأخذ بالتحدث إلى بيلوشي بصوت عالٍ، وافترضتُ أنهما يتحدثان
باليونانية. لاحظتُ أن ثيابه مبتلة، كما أن رائحة الدخان، والدهن، وتوابل لم أعرف
ما هي، قد فاحت منها. انتشرت قطرات المياه على شعره الكثيف. ابتسم الرجل لي
عندما نظرتُ إليه، ورفع حاجبه الكثيف، ثم مرّر لسانه ببطء على طول شفته العليا.
أظن أن الرجل كان مستعداً كي يريني أنحاء أخرى من جسمه. جاريتُ مستوى
نضوج الرجل قبل أن أحول انتباهي إلى المنظر خارج النافذة.

تمكنتُ من رؤية صفين من المحلات عبر الشارع من خلال زجاج النافذة
المخطط بمياه المطر. بدت المحلات داكنة وصامتة عشية يوم العطلة. جاء في اللافتة
فوق أحد هذه المحلات لا كوردونيري لا فلاير، وتساءلتُ عن السبب الذي يدعو
صانع أحمية إلى إطلاق تسمية الزهرة على متجره.

رأيتُ لافتة المتجر الآخر: لا بولانجيري نان. تساءلتُ ما إذا كان هذا هو
اسم الفرن، أو اسم المالك، أم أنه مجرد إعلان للخبز الهندي. استطعتُ أن أرى عبر
السوافذ رفوفاً فارغة تستعد لاستقبال حمولتها الصباحية. هل يستمر الخبازون في
عملهم أيام الأعياد؟

لا بوشيري سان دومينيك. بدت نوافذ هذا المتجر مغطاة بأخبار الجرائد
الأسبوعية: لا بين فرايز، بويف، أغنيو، بوليت، سوكيس، أي: الأرنب الطازج،
لحم البقر، لحم الضأن، الدجاج، النقانق، والقرود.

هكذا إذاً. دعنا ننطلق من هنا. وضعتُ الأوراق في صينية الورق التي احتوت
النقائق. إننا نقضي على الأشجار من أجل صنع هذه الأشياء. أضفتُ علبة
البيبيسي، وألقيتُ كل هذه البقايا في سلة النفايات، ثم غادرتُ المكان.
وجدتُ السيارة في المكان الذي تركتها فيه، وفي الحالة التي كانت عليها
حينها. شرعتُ في قيادة السيارة، بينما عاد ذهني للتفكير بالجرائم.

تغيّرت الصور في ذهني مع كل طريقة من طرق مساحي الزجاج. تخيلتُ
ذراع إلسا المقطوعة. طريقة. تخيلتُ يد موريسيت - شامبو المستلقية على أرضية
مطبخها. طريقة ثانية. بدت أمامي أربطة عضلات شانتال تروتييه. طريقة ثالثة.
ظهرت لي عظام أذرع ذات نهايات مقطوعة بدقة. طريقة رابعة.

هل هي اليد ذاتها في كل مرة؟ لا أستطيع أن أتذكر، لذلك ينبغي عليّ أن
أتحقق من ذلك. لم يبلغ عن اختفاء أي يد بشرية. هل هي مجرد مصادفة؟ هل كان
كلوديل على حق؟ أم هل أصابني حالة من الذعر؟ هل يُحتمل أن يكون خاطف
إلسا قد اعتاد على جمع مخالب الحيوانات. وهل كان أحد معجبي بو المتحمسين؟
طريقة خامسة. أو أهما...؟

وصلتُ إلى مرآب سيارتي عند الساعة الحادية عشرة وخمس عشرة دقيقة.
شعرتُ أنني متعبة، لأنه مضت أكثر من ثماني عشرة ساعة على خروجي من
المنزل. لن تستطيع النقائق أن تبقي مستيقظة هذه الليلة.

لم ينتظرن بيرودي. بل تكوّر على نفسه فوق كرسي خشبي هزاز قرب الموقد،
حسب عادته عندما يكون وحيداً. تطلع إلى الأعلى عندما دخلت، وراح يغمز
بعينه الصفراوين في اتجاهي.

"مرحبا يا بيرو. كيف كان الهر هذا اليوم؟" رحتُ أقلد قرقرته، وأمستد
المنطقة الموجودة تحت ذقنه: "هل أقلقك شيء ما؟"

أغمض عينيه، ومدّ رقبته. إما أنه كان يتجاهل تمسيداتي، أو أنه يحثني على
متابعتها. تتأعب بشدة عندما سحبتُ يدي، وعاد إلى وضع ذقنه بين مخالبه، وراح
يتأملني من تحت جفنيه الثقيلين بالنعاس. توجهتُ إلى غرفة النوم وأنا أعلم أنه
سيتبعني في النهاية. فككْتُ مشابك شعري، وكوّمْتُ ثيابي على الأرض، ثم رفعتُ
أغطية السرير.

استسلمتُ لنوم عميقٍ خالٍ من الأحلام على الفور. لم تظهر لي أي أشباح، ولا مسرحيات مخيفة. أحسستُ بثقلٍ دافئٍ يضغط على ساقيّ. فعلمتُ أنّ بيردي قد انضمَّ إليّ، لكنني تابعتُ النوم وسط الظلمة الخالكة.

تسارعت نبضات قلبي على نحو مفاجئٍ وانفتحت عيناوي. وجدتُ نفسي مستيقظةً بالكامل، وأحسستُ بالذعر من دون أن أعرف السبب. جاء التغيير مفاجئاً، وتعيّن عليّ أن أتكيّف.

خيّمت الظلمة الخالكة على الغرفة. أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة وسبع وعشرين دقيقة. لم يكن بيردي موجوداً. جلستُ في الظلمة وأمسكتُ أنفاسي. رحّت أصغي السمع إلى أي حركة. لماذا أعلن جسدي حالة الطوارئ القصوى؟ هل سمعتُ شيئاً ما؟ ما هي النقطة المضيئة التي كشفها راداري الشخصي؟ وهل أرسلت مستقبلاتي الحسية إشارةً ما؟ أم أنّ بيردي سمع شيئاً؟ وأين هو قبل كل شيء؟ أعرف أنه ليس من عادته أن يتجول ليلاً.

استرخيتُ، وأصغيت السمع أكثر. لم أسمع غير صوت دقات قلبي وهي تضج في صدري. بدا المنزل صامتاً بشكلٍ مخيف.

سمعتُ الصوت بعد ذلك. كانت طرقةً خفيفةً، تبعثها خشخشة معدنيةٌ خافتة. انتظرتُ جامدةً في مكاني، وأمسكتُ أنفاسي. مرّت عشر لحظات، وخمس عشرة، ثم عشرين. تغيّر الرقم الوامض على شاشة الساعة. رحّت أفكّر بأنني تخيلتُ سماع الصوت، وفي هذه اللحظة بالذات سمعته ثانيةً. سمعتُ تلك الطرقة. سمعتُ خشخشة. أطبقت أضراسي الطاحنة على بعضها مثلما تفعل ملزمة من صنع بلاك آند ديكر، أما أصابعي فالتفتت على بعضها، وشكّلت قبضةً في كل يد.

هل يتواجد شخص ما في شقتي؟ تعودت على سماع الأصوات الروتينية في هذا المكان، لكن هذا الصوت بدا مختلفاً، وغريباً عن بقية الأصوات، وتأكدتُ من أنه خارج مجموعة الأصوات المعتادة.

رفعتُ أغطية السرير عني بصمت، ودفعتُ بساقيّ إلى خارج السرير. تذكّرتُ الهدوء الذي تميّزت به الليلة الماضية، وأسرعّتُ إلى ارتداء بلوزتي وسروال الجينز. مشيتُ فوق سجادة الغرفة بهدوء.

توقفتُ عند باب غرفة النوم كي انظر خلفي بحثاً عن سلاحٍ محتملٍ. لم أجد شيئاً. احتفى حتى ضوء القمر، لكن الضوء الصادر من مصابيح الشوارع تسلل عبر نافذة غرفة النوم الأخرى، فأضاء الرواق جزئياً بوميض شاحب. تقدّمتُ إلى الأمام ومررتُ أمام الحمام ثم اتجهتُ نحو الرواق الذي ينتهي بأبواب تطل على فناء شقتي. مشيتُ قليلاً ثم توقفتُ كي أصغي، وأمسكتُ أنفاسي، وفتحتُ عيني جيداً. سمعتُ الصوت مجدداً عند مدخل المطبخ. جاء صوت الطرقة أولاً، ثم تبتعها أصوات الخشخشة. أتت هذه الأصوات من مكان ما قرب الأبواب الزجاجية.

استدرتُ يميناً نحو المطبخ، ونظرتُ باتجاه الأبواب الزجاجية التي تقع على جهة باحة شقتي. لم أشاهد أي شيء متحرك. لعنتُ، بصمت، كرهني للمسدسات، وتفحصتُ المطبخ بكامله بحثاً عن سلاح ما. لا أستطيع القول إن مطبخي ترسانة سلاح. مررتُ يدي المرتعشة على الجدار وتحسستُ مقبض السكين. اخترتُ سكيناً تُستخدم لتقطيع الخبز، ولففتُ أصابعي حول المقبض. وجّهتُ النصل إلى الخلف، ثم أسدلتُ ذراعيّ على طول امتدادهما.

تقدمتُ بقدمين حافيتين إلى مسافةٍ تكفيني كي أتطلع نحو غرفة الجلوس. وجدتها مظلمة مثل غرفة النوم والمطبخ.

تمكنت من رؤية بيرودي وسط هذه الظلمة. رأيته جالساً على بعد أقدام قليلة من الأبواب. ركّز المرّ عينيه على شيء ما خارج الزجاج. لاحظتُ أنه يحرّك طرف ذيله جيئةً وذهاباً بحركة دائرية مدعورة مشكلاً أقواساً صغيرة. بدا متوتراً مثل سهم يتهيأ للانطلاق.

تسبّب صوت الطرقة والخشخشة بهبوط في نبض قلبي، وجمود في حركة أنفاسي. جاء الصوت من الخارج، وما لبثتُ أذنا بيرودي أن أصبحتا في وضع أفقي.

وضعتني خطواتٌ مرتعبةٌ خمسٌ قرب بيرودي. مددتُ يدي بشكلٍ عفوي كي أمسد رأسه. فأجفل نتيجة هذه اللمسة التي لم يتوقعها، ثم انطلق عبر الغرفة بقوة جعلت محالبه تترك آثارها على السجادة. بدت هذه الآثار مثل فواصل سوداء في وسط هذا الجو الكئيب. أعرف أنه لو كانت القطط تستطيع أن تصرخ، فإن بيرودي كان سيفعل هذا.

وثررت انطلاقته أعصابي بالكامل. أحسستُ بأنني مشلولة للحظة، وتسمّرتُ في مكاني مثل التمثال الموجود في جزيرة إيستر.

راح صوت الذعر يحنّني: افعلي مثل ذلك الهر واخرجي من هنا! رجعتُ خطوةً إلى الخلف. سمعتُ طرقاً، ثم خشخشةً. توقفتُ، وتمسّكتُ بالسكين وكأنا حبل نجاتي. مرّت فترة صمت وسط هذه الظلمة المخيّمّة. دا - دوم. دا - دوم. أصغيتُ إلى دقات قلبي، وبحثتُ في أنحاء دماغي عن مساحةٍ فيه تستطيع التفكير بشكل سليم.

أبلغني ذلك الجزء من تفكيري أنه إذا كان هناك من شخص في الشقة فلا بد أنه موجود خلفي. إنّ طريق هروبك هو إلى الأمام، وليس إلى الخلف. أما إذا كان هناك من شخص في الخارج تماماً فيجب عليك ألا تمنحيه طريقاً للدخول. دا - دوم. دا - دوم.

أقنعت نفسي أنّ الضجيج أتى من الخارج، وأنّ الصوت الذي سمعه بيردي أتى من الخارج أيضاً.

انظري. أسندي نفسك إلى الجدار الذي يقع إلى جوار الأبواب المشرفة على الباحة، ثم افتحي الستائر قليلاً بما يكفي لتنظري إلى الخارج، فلعلك تستطيعين رؤية شكل ما في الظلمة المخيّمّة. إنه منطوقٌ معقول.

تسلحتُ بسكيني التي صنعتها شركة شيكاغو كتلري، ثم رفعتُ قدمي المسمرّة من فوق السجادة، وتقدمتُ قليلاً إلى الأمام، ثم وصلتُ إلى الجدار. تنفستُ بعمق، وأزحت الستارة بوصات قليلة. بدت الأشكال في الباحة الخارجية غير محددة تماماً، لكن المرء يستطيع تمييزها. ميّزتُ الشجرة، والمقعد، وبعض الشجيرات. لم ألمح أي شيء يتحرك، ما عدا الأغصان التي تحركها نسيمات الهواء. بقيتُ في موقعي برهةً طويلةً. لم يتغيّر شيء. تقدمتُ إلى وسط الستائر واختبرتُ مقبض الباب. ووجدته ما زال مقفلاً.

بقيت السكين جاهزةً في يدي. مشيتُ بمحاذاة الجدار نحو الباب الرئيسي للشقة. توجهتُ نحو نظام الأمان. ومضّ ضوء الإنذار بصورة طبيعية، وهو الأمر الذي يدلّ على عدم حدوث عملية اختراق. وجدتُ نفسي ألس زر الاختبار عفوياً.

قطع ضجيجٌ ما حبل الصمت، ورغم أنني توقعتُ حدوث صوت كهذا، إلا أنني قفزتُ من مكاني. تحركت يدي مرتعشةً إلى الأعلى، وهكذا أصبحتُ السكّين في جهوزية كاملة.

صاح بي ذلك الجزء المنطقي من دماغي: أيتها الغبية! إنّ جهاز الأمان يعمل بصورة سليمة، ولم يخترقه أحد! والأبواب لم تُفتح! ولم يدخل أحدٌ إلى الشقة. إذًا فالقُتحم ما زال في الخارج! أقنعتُ نفسي بهذا، لكنني كنتُ ما أزال أرتجف.

قال لي دماغي، نعم يُحتمل ذلك، لكن ذلك ليس بالأمر السيئ. أضيئي بعض الأنوار، ثم أحدثي بعض الحركة، وعندها سيعمد أي متطفل إلى الهرب. حاولتُ أن أبلع ريقمي، لكنّ فمي كان جافاً. أظهرتُ دليلاً على شجاعي عندما أضأتُ مصباح الرواق، ثم أتبعْتُ ذلك بإضاءة كل الأنوار الموجودة ما بين الرواق وغرفة نومي. لم أجد أثراً لدخيل في أي مكان من شقتي. وما إن جلستُ على حافة سريري وأنا ممسكة بالسكّين حتى سمعتُ الصوت ثانية. كانت طرقةً مكبوتةً، ثم تبعتها خشخشة. قفزتُ، وكدتُ أجرح نفسي.

رحتُ أفكّر بعد أن تشجعتُ بقناعتي أنه ما من دخيل في هذه الشقة. حسناً أيها النذل، دعني أمحك لمرة واحدة، وعندها سأتصل بالشرطة. عدتُ إلى الأبواب الزجاجية المحاذية للباحة الجانبية، لكنني عدتُ مسرعةً هذه المرة. كانت الغرفة لا تزال مظلمة، أزحتُ طرف الستارة مجدداً ونظرتُ من خلالها، لكنني شعرت بشجاعة أكبر هذه المرة.

بقيَ المشهد كما هو. كانت الأشكال مألوفةً لدي وإن لم تكن واضحة، ولاحظتُ أنّ بعضها يتحرك مع الهواء. عادت أصوات الطرقات والخشخشة ثانية! أصغيتُ مجدداً ورحتُ أفكّر في أنّ الضجيج عاد من الأبواب، وليس من خارجها.

تذكرتُ وجود الضوء الكاشف في الباحة، وتحركتُ كي أجد المفتاح. لم يكن الوقت مناسباً للقلق بشأن إزعاج الجيران. انطلق الضوء الكاشف ينشر نوره في الباحة. عدتُ إلى طرف الستارة. لم يكن الضوء قوياً بما يكفي، لكن ظهرت ملامح الأشكال الموجودة في الباحة بشكلٍ كافٍ.

توقف المطر عن الهطول، لكن الهواء تحرك. تراقصت غلالة من الضباب حول حزمة الضوء الكاشف. أصغيتُ لبرهة. لم يحدث شيء. تفحصتُ مجال الرؤية المتاح لدي مرات عديدة. لم أجد شيئاً. عطلتُ عمل جهاز الأمان من دون أن أفكر بالأمر، وفتحتُ الباب الزجاجي، ثم مددتُ رأسي إلى الخارج.

شاهدتُ إلى يساري شجرة التنوب بمحاذاة الجدار. لم يتداخل أي شكلٍ آخر مع أعصانها. هبَّت الرياح قليلاً، فتحرّكت الأغصان. سمعتُ طرقاً، ثم جاء صوت الخشخشة. اخترقتني موجة جديدة من الرعب.

تطلعتُ ناحية البوابة. إنها الناحية التي تصدر الأصوات من جهتها. تحركتُ ببطءٍ ناحية البوابة في الوقت المناسب كي ألمح حركة صغيرة قبل أن تستقر في مكانها. تسمّرتُ في مكاني كي أراقب ما يجري. هبَّت الرياح ثانية فتحرّكت البوابة قليلاً في النطاق الذي يسمح مزلاجها بذلك. سمعتُ طرقاً، ثم خشخشة.

شعرتُ بالكدر، لكنني خرجتُ إلى الباحة وتوجهتُ مباشرةً نحو البوابة. لماذا لم أنتبه لهذا الصوت من قبل؟ أحفلتُ ثانية. لم أشاهد أي أثر للقفل. إن القفل الذي يمنع حركة المزلاج لم يكن موجوداً. هل أهمل ونستون إعادته إلى مكانه بعد أن فرغ من جزّ العشب؟ لا بد أن ذلك هو الذي حدث.

دفعتُ البوابة بقوة من أجل إعادة المزلاج الذي يضغط على البوابة ويمنع تحركها من مكانها، ثم استدرتُ نحو الباب. سمعتُ عندها صوتاً آخر، لكنه كان أكثر دقةً، وكتباً.

نظرتُ نحو مصدر الصوت فرأيتُ شيئاً غريباً في حديقة أعشابي. بدا ذلك الشيء مثل ثمرة قرع بارزة من الأرض، ومرفوعة على عصا. عرفتُ عندها أنّ الخشخشة الخفيفة تصدر عن الغطاء البلاستيكي عندما يحركه الهواء.

تملّكتُ يدك مخيفاً لما يجري. أحسستُ بوجود شيء ما تحت الغطاء البلاستيكي، ومن دون أن أدرك سبب معرفتي. أخذتُ ساقاي بالارتعاش وأنا أمشي فوق العشب، وعندما رفعتُ الغطاء البلاستيكي إلى الأعلى.

اجتاحني موجة من الغشيان لدى رؤية الشيء الموجود تحت الغطاء البلاستيكي. استدرتُ كي أتقيأ. وضعتُ يدي فوق فمي، وعُدتُ مسرعةً إلى داخل الشقة. أغلقتُ الباب وأقفلته جيداً، ثم أعدتُ تشغيل جهاز الأمان.

اندفعتُ مسرعةً كي أطلب رقم هاتف، وأجبرت نفسي على نقر الأزرار
الصحيحة. تلقيتُ رداً على المكالمة بعد الرنة الرابعة.
"تعالَ إلى هنا، رجاءً. تعالَ الآن وفوراً!"
أجابني صوتٌ مترنح: "برينان؟ ما هذا..."
"تعالَ إلى هنا في هذه الدقيقة بالذات يا رايان! الآن!"

24

شربتُ مقدارَ غالونٍ من الشاي، وأنا جالسة على الكرسي الهزاز الذي يجلس عليه **بيردي**، ورحتُ أراقب **رايان** بتكاسل. كان يجري مكالمته الثالثة، لكنها كانت مكالمَةً شخصيةً هذه المرة، وراح يؤكد للشخص الآخر إنه سيبقى هنا لبعض الوقت. استنتجتُ من رد فعله أنّ المتلقي لم يكن سعيداً. يبدو أن الأمور ليست على ما يرام بينهما.

تمتلكُ المستيريا بعض الفوائد. وصل **رايان** في غضون عشرين دقيقة، وأسرع إلى تفتيش الشقة والباحة، ثم اتصل بوحدة شرطة **مونتريال** من أجل تأمين وحدة دورية تقوم بالإشراف على البناية. وضع **رايان** الكيس ومحتوياته المرعبة في كيس أكبر حجماً، وأقفلهُ تماماً. وضع **رايان** الكيس بعد ذلك في زاوية من زوايا غرفة الطعام. قال لي إنه سينقله إلى المشرحة هذه الليلة، وأضاف أن فريق الاستعادة سيأتي في الصباح. جلسنا في غرفة المعيشة نرتشف الشاي، لكنه أخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً ويتكلم في هذه الأثناء.

لم أستطع التأكد من العنصر الذي ساهم في تهدئي أكثر من غيره، **رايان** أم الشاي. لا أعتقد أنه الشاي. إنّ ما أردته فعلاً كان شرباً قوياً. لكن كلمة **أردت** ليست بالوصف المناسب في الحقيقة. **الاشتهاء** هي الكلمة التي تعطي المعنى الأوفى. **أردتُ**، في الواقع، أن أتناول عدة أنواع من المشروبات. غابت عني تلك الزجاجاة التي أستطيع أن أصبّ مشروبي منها. انسى الأمر يا **برينان**، لأن الزجاجاة مقللة بإحكام وستبقى كذلك.

ارتشفتُ الشاي وراقبتُ رايان في الوقت نفسه. ارتدى سروالاً من الجينز وقميصاً من الدينيم الشاحب. يا له من خيار جيد. ملأ لونٌ أزرق عينيه، مثل ذلك الذي كان يلوّن الأفلام القديمة. أنهى مكالماته، ثم جلس.

رمى جهاز الهاتف على الأريكة، ومرّ يداً فوق وجهه: "هذا يكفي". بدا متعباً بشعره الأشعث، لكنني، أنا الأخرى، لم يكن مظهري مثل كلوديا شيفر. رحّت أتساءل عما كان يقصده بكلمته هذه.

قلتُ له: "أقدّر مجيئك، وأنا آسفة على إفراطي بالذعر". سبق لي أن قلتُ

هذا، لكنني كررتُه.

"كلا لم تفرطي".

"عادةً أنا لا...".

"لا بأس. سنلقي القبض على هذا المعتوه".

"كان بإمكانني...".

انحنى إلى الأمام، وأسند مرفقيه على ركبتيه. أمسكت زرقة عينيه عينيّ، وأوقعتهما في الأسر. علقت كتلة كتانية صغيرة بأحد رموشه، فبدت مثل حبيبة طلع تتعلق بالمدقة.

"الوضع خطيرٌ يا برينان. لدينا رجلٌ طليقٌ معتوهٌ عقلياً. إنه منحرفٌ من الناحية النفسية. يشبه هذا الرجل الفئران التي تحفر أنفاقاً تحت أكوام النفايات، وتتسلل من خلال أنابيب الصرف الصحي في هذه المدينة. إنه حيوانٌ مفترسٌ، ولا شك في أنّ وصلاته العصبية ليست في وضعها الطبيعي، ولذلك وضعك في هذا الكابوس الذي يتخبّط فيه. ارتكب الرجل خطأً كبيراً، ولذلك سنجره على الخروج إلى دائرة الضوء ونقبض عليه. إنّ هذا هو ما تفعلينه مع كل أنواع الحشرات".

أدهشني رد فعله القوي، لذلك لم أستطع التفكير بأي شيء أقوله. بدا لي أنّ الإشارة إلى استعاراته المتداخلة هي عمل غير حكيم.

اعتبر صمّي بمثابة تشكيك بما قاله.

"إنني أعني كل ما قلته يا برينان. إنّ هذا النذل لا يمتلك ذرةً من التفكير

السليم، لذلك لا أنضحك أبداً أن تجازي معه".

جعلني تعليقه أميل إلى الفظاظَة، وهو ميلٌ لا يحتاج إلى الكثير من الجهد كي يظهر عندي. شعرتُ بالضعف وبال الحاجة إلى الاعتماد على الآخرين إلى درجة أنني كرهتُ نفسي، ولهذا حوَّلتُ الإحباط الذي شعرتُ به تجاهه.

صرختُ في وجهه: "أجازف؟"

"اللعنة يا برينان، أنا لا أعني ما حدث هذه الليلة!"

عرف كلانا ما يقصده تماماً. كان محقاً، وهو الأمر الذي زاد من شعوري بالانزعاج، وميلني إلى المشاكسة. حرَّكتُ الشاي الذي بردَ في هذا الوقت، وحافظتُ على صمتي.

تابع رايان العزف على الوتر ذاته: "من الواضح أن هذا الحيوان كان يطاردك. إنه يعرف أين تسكنين، ويعرف كذلك كيفية الدخول إلى شقتك."

"في الواقع، لم يدخل إلى الشقة."

"خبّاً الرجل رأساً بشرياً في حديقتك الخلفية!"

شعرتُ أن الهدوء الذي كنت أشعر به قد تصدّع. صرختُ في وجهه:

"أعرف ذلك!"

اتجهت عيناى إلى زاوية غرفة الطعام. تواجد في تلك الزاوية ذلك الشيء الذي وجدناه في الحديقة. حافظ على صمته، ولم يتحرك. إنه التحفة التي تنتظر متابعة العمل بها. كان يُمكن أن تكون أي شيء، كرة طائرة على سبيل المثال، أو أي كرة أخرى، أو رأس من الشَّمَام ربما. بدا ذلك الشيء المستدير بريئاً في كيسه الأسود اللامع الذي وضعه رايان في كيس بلاستيكي شفاف.

حلَّقتُ فيه، فتراقصت في ذهني صور محتوياته المرعبة. رأيتُ الجمجمة المزروعة في الأرض فوق رقبة هزيلة. رأيتُ محجرين فارغين يحدقان إلى الأمام، وذلك الوميض الزهري اللون الذي ينعكس على أسنان بيضاء ملأت الفم المفتوح. تحيَّلتُ ذلك الدخيل وهو ينشر القفل، ثم يعبر الباحة بكل جرأة كي يجنّب تحفته التذكارية المرعبة.

كررتُ القول: "أعرف ذلك. أنت على حق. يتعيّن عليّ أن أكون أكثر حذراً".

حرَّكتُ الشاي في كوبي مجدداً، وبحثتُ في أوراقه عن الأجوبة التي أحتاج إليها.

"أتريد كوباً من الشاي؟"

"لا. أنا على ما يرام هكذا. سأتحقق من وصول وحدة الدورية".

توجّه إلى آخر الشقة، فانصرفتُ إلى إعداد كوبٍ آخر من الشاي لنفسي. كنتُ ما أزال في المطبخ عندما عاد.

"رأيتُ وحدة دورية متوقفة في الجهة المقابلة من الشارع. ستعود وحدةٌ أخرى بعد قليل. سأحدث معهم قبل انصرافي. يتعيّن أن لا يقترب أحد من هذه البناية من دون معرفة الشرطة".

ارتشفتُ جرعة من الشاي، ثم استندتُ إلى الطاولة: "شكراً".

تناول رايان علبة سجائر دو مورييه، ورفع حاجبه في اتجاهي.
"بالتأكيد".

لا أحب أن يدخن أحد في شقتي، لكن لعل الرجل متضايقٌ من وجوده في شقتي. إنّ الحياة هي فن التسوية. فكّرتُ في البحث عن منفضة السجائر الوحيدة الموجودة في شقتي، لكنني لم أفعل ذلك. تابع التدخين، وتابعتُ أنا ارتشاف الشاي بصمت. استندتُ إلى الطاولة، واستغرق كلانا في التفكير. لم يُسمع في الشقة غير همهمة البرّاد.

"أتعرف، لم ترعيني الجمجمة، لأنني تعودت على رؤيتها. كانت هذه خارج... السياق".

"أجل".

"إنّهما أمرٌ معتاد. أعرف ذلك، لكنني أشعر بالإهانة. أشعر وكأن مخلوقاً غريباً قد اخترق فضائي الشخصي، ثم انصرف بعد ذلك عندما فقد اهتمامه بكل شيء".
أمسكتُ بالكوب بشدة، وامتلكني شعور بالضعف، لكنني كرهتُ هذا الشعور. شعرتُ بالغباء أيضاً. لا بد أن يكون قد سمع شيئاً من هذا الحديث مرات عديدة، لكنه لم يقل إنّ ذلك قد حدث.

"أعتقد أنه سان جاك؟"

نظر إليّ، ثم نفّض رماد سيجارته في حوض غسيل الأطباق.

عاد كي يستند إلى الطاولة، وأخذ نفساً عميقاً من سيجارته. مدّ رجله حتى كادت تلامسان البرّاد.

"لا أعرف. إننا لا نستطيع حتى أن نحدد هوية الرجل الذي قمنا بملاحقته، لأن سان جاك هو اسم مستعار ربما. لا أعتقد أن النذل الذي يستخدم هذا الاسم، كائناً من كان، يعيش في هذه المنطقة. تبين لنا أن صاحبة الشقة لم تره سوى مرتين، كما أننا راقبنا المكان لمدة أسبوع كامل، ولم نشاهد أحداً يدخل الشقة أو يخرج منها.

همم. اسحب الدخان يا رايان، ثم أخرجه، وشاهد دوّاماته.

"احتفظ الرجل بصورتي بين مجموعته. اقتطعها وعلمها".
"أجل".

"كن صريحاً معي".

صمت لدقيقة، قال لي بعد ذلك: "سيكون الرجل فريسي، وهذه المصادفات غير محتملة أبداً".

أعرف ذلك، لكنني لا أريد أن أسمعها منه، حتى إنني لا أرغب بالتفكير في المعنى الذي تحمله. أشرتُ نحو الجمجمة.

"أهي تابعة للحنة التي وجدناها في سان لامبرت؟"
"واو. إنها موطنك".

أخذتُ نفساً أخيراً، ثم سكب مياهاً باردةً على عقب سيجارته، ثم نظر حوله كي يجد مكاناً كي يتخلص منها. أزحتُ الطاولة وفتحتُ خزانةً تحتوي كيس نفايات. وضعتُ يدي على ساعده ما إن نهض.

"رايان، أعتقد أنني مجنونة؟ أعتقد أن فكرة القاتل التسلسلي هي من بنات أفكارى؟"

انتصب واقفاً ثم ركز عينيه عليّ.

"لا أعرف. إنني فعلاً لا أعرف، لعلك مصيبة. قد تكونين على حق. لدينا أربع ضحايا من النساء على مدى عامين. تعرضن جميعاً لتقطيع الأطراف، أو التشويه، أو كلا الأمرين. يُحتمل وجود ضحية خامسة أيضاً، والتي تعرضت لتشويهات مماثلة. لاحظنا إدخال الأداة، لكن هذا هو كل شيء. إننا لا نمتلك أي رابط إضافي لغاية الآن، لكن يُحتمل وجود رابط يجمع بين هذه الجرائم، وقد لا يكون هذا الرابط موجوداً. ويُحتمل وجود الكثيرين من هؤلاء الساديين الذين

يعملون بشكل منفصل. يبقى احتمال أن يكون سان جاك هو من قام بكل هذه الجرائم، ولعله يحب جمع قصص عن تعذيب الآخرين. يُحتمل أن يكون شخصاً واحداً قد نفذها، لكنه مجرم غير سان جاك. ويُحتمل أن يكون ذلك الوغد يخطط لخطوته التالية في هذه الأثناء، وأن يزرع جمجمةً أخرى في حديقتك الخلفية، وربما الأمر ليس كذلك. لا أعرف، لكنني أعرف أن أحد المعتوهين قد أخفى جمجمة بين أزهار البيتونيا في حديقتك. اسمعي، لا أريدك أن تجازي بشيء. أريدك أن تعديني أن تكوني حذرة. لا تقومي بأي مغامرات".

عاد ليمارس دوره الأبوي. وعدته: "لا تقلق".

"ماذا؟" كان صوته حاداً بما يكفي كي أتوقف عن إبداء ملاحظات تافهة.

"ماذا تريدني أن أفعل بالضبط؟"

"لا تقدمي على مغامرات سرية في الوقت الحاضر". أشار بإبهامه إلى الكيس

الذي يحتوي الدليل. "أبلغيني عنمُ يكون هناك".

نظر إلى ساعته.

"يا الله! إنها الثالثة وخمس عشرة دقيقة. هل ستكونين بخير؟"

"أجل. شكراً لمجيئك".

"على الرحب والسعة".

تفحص الهاتف ونظام الأمان، للمرة الثانية، ثم تناول الكيس البلاستيكي.

رافقته إلى خارج الشقة. وقفتُ أراقب مغادرته، ولم يسعني إلا أن ألاحظ أن عينيه

ليستا الميزة الوحيدة حسبما يُظهر الجينز الذي يرتديه. ما هذا يا برينان! هل هذا

التفكير هو نتيجة الإفراط في شرب الشاي، أم نتيجة الإقلال من شيء آخر.

عاد الكابوس مجدداً عند الساعة الرابعة وسبع وعشرين دقيقة بالضبط. ظننتُ

في البداية أنني أحلم بالأحداث التي جرت في السابق. لكنني لم أستسلم للنوم في

الواقع. استلقيتُ هناك، وحثتُ نفسي على الاسترخاء، ثم سمحتُ لأفكاري أن

تتفرق وتتلاقى ثانية، أي مثلما تفعل الأشكال في جهاز المشكال. لاحظتُ أن

الصوت الذي أسمعه في هذه الأثناء كان حقيقياً بما يكفي. تمكنتُ من تمييز طبيعة

هذا الصوت، وماذا يعني. سمعتُ أزيز نظام الأمان، فاستنتجتُ أن باباً، أو نافذةً قد

فُتحت. عاد ذلك الدخيل، واقتحم شقتي.

تصاعدت ضربات قلبي إلى رقم قياسي، وشعرتُ بعودة الرعب وسيطرته عليّ. كان خانقاً في البداية، ثم أصبح مسيئاً للشلل، وما لبث أن تسبب بانسياب دفعة من الأدرينالين جعلتني يقظة، لكن متشككة. ما العمل؟ هل أواجه؟ هل أهرب؟ تمسكت أصابعي بطرف غطاء السرير، وتقاوت أفكارني في اتجاهات مختلفة. كيف استطاع هذا الرجل المرور عبر وحدات الشرطة؟ في أي غرفة يتواجد الرجل؟ أين السكين؟ بقيت على طاولة المطبخ! استلقيتُ هناك، جامدة، ورحتُ أفكر بالخيارات المتاحة أمامي. سبق لرايان أن تفحص أجهزة الهاتف، لكنني أردتُ أن لا يزعجني أحد في نومي، لذلك نزعْتُ قابس الهاتف الموجود في غرفة النوم. هل أستطيع أن أجد سلك الهاتف، وأن أكتشف مكان وجود القابس، وأن أجري مكالمة قبل أن يسيطر هذا الدخيل عليّ؟ أين حدّد رايان مكان وجود سيارات الشرطة؟ وهل يستطيع رجال الشرطة سماعي، والتحرك في الوقت المناسب، إذا فتحتُ نافذة غرفة النوم، وبدأتُ بالصراخ؟

أصغيتُ السمع كي أسمع كل حركة تجري في الظلمة التي تحيط بي. مهلاً! سمعتُ طرقة خفيفة. هل كانت في ردهة المدخل؟ أمسكتُ أنفاسي. انغرزت أسناني في شفتي السفلى.

سمعتُ صوت احتكاك شيء ما مع البلاط. هل كان هذا الصوت قرب ردهة المدخل. هل يبردي؟ لا، لأن الصوت نتج عن شيء ثقيل. هل عدنا مجدداً؟ سمعتُ صوت احتكاك خفيف، وبدا أنه صوت احتكاك مع الجدار، وليس مع أرضية المنزل. أدركتُ أن مصدر الصوت هو أعلى من الارتفاع الذي يستطيع الهر الوصول إليه.

قفزت إلى ذهني صورة من تلك الصور التي يختزنها من أفريقيا. كانت جولة ليلية في أمبوشيلي. شاهدتُ نمرأً وقد جمّد أمام أنوار الجيب الساطعة. جثمت، وتوترت عضلاته، وراح أنفه يعب هواء الليل، ثم اقترب، بصمت، من غزاة تجهل ما ينتظرها. هل إن ذلك الرجل الذي يلاحقني يسيطر على الظلمة مثل أنوار ذلك الجيب؟ وهل يخطط لأفضل طريق له كي يصل إلى غرفة نومي؟ هل ينشغل الرجل بقطع الطرقات المحتملة لهروبي؟ وماذا يفعل في شفتي؟ ولماذا عاد؟ ماذا يتعين عليّ أن أفعل؟ هل ينبغي عليّ فعل أي شيء؟ لا تستلقي هنا مكثفة بالانتظار. افعلني شيئاً!

الهاتف! سأحاول الوصول إلى الهاتف. يتواجد أفراد الشرطة خارج شقتي مباشرة، ولا بد أن رسالة الاستغاثة ستصلهم. هل أستطيع إرسالها من دون كشف موقعي؟ وهل يمتلك هذا الأمر أهمية؟

رفعتُ الأغطية ببطء وزحفتُ على ظهري بهدوء. بدا حفيف الأغطية بمثابة صوت الرعد في أذني.

سمعتُ حفيفاً على الجدار للمرة الثانية. جاء أقوى هذه المرة، وأقرب. بدا الأمر وكأن ذلك الدخيل قد أصبح أكثر ثقةً بنفسه، وأقل ميلاً نحو الحذر.

توترت كل عضلة في جسدي، وكل وتر من أوتار هذه العضلات، لكنني تابعتُ الزحف نحو الجهة اليسرى من السرير. منعتني الظلمة الحالكة من تحديد اتجاهاتي. تساءلتُ لماذا أسدلتُ الستائر؟ لماذا نزعْتُ قابس الهاتف؟ كي أستطيع النوم لفترة أطول؟ غبية! غبية! غبية! جدي السلك، وجدي القابس، ثم اطلبي الرقم 911 في الظلمة. أحرقتُ جردةً في ذهني لكل الأشياء الموجودة على الطاولة قرب سريري، ورسمتُ المسار الذي ستأخذه يدي. لا بد أن أنزلق إلى الأرض كي أصل إلى قابس الهاتف.

استندتُ على مرفقيّ كي أرفع جسدي إلى جهة اليسار من السرير. راحت عيناي تبحثان في الظلمة، لكن الظلمة كانت شديدة بحيث يصعب تمييز كل معالم الغرفة ما عدا بابها. كان الباب مضاءً بنورٍ خافتٍ صادرٍ عن جهازٍ يحتوي شاشة وامضة. لم أشاهد ظلالاً على الباب.

تشجعتُ قليلاً ورفعتُ ساقي اليسرى عن السرير، ورحتُ أتحمس الأرضية ببطء، ومن دون أن أرى شيئاً عليها. رأيتُ ظلاً يعبر الباب. جمّدت رجلي في الهواء، وأصببت عضلاتي بشلل تام.

رحتُ أفكّر في أنّ هذه هي النهاية. أنا هنا في سريري، وحيدة، مع أنّ أربعة من رجال الشرطة يتواجدون في الخارج، لكنهم غافلون عما يجري. تحيّلتُ النساء الأخرى، عظامهنّ، وجوههنّ، وأجسادهن التي أفرغت من أحشائهن. تحيّلتُ الغطّاس (المطبة)، والتمثال. لا! صرخ صوت داخل رأسي. ليس أنا، رجاء. ليس أنا. كم من الصرخات أستطيع أن أطلق قبل أن يصل القاتل إليّ؟ هل سيُسكت هذه الصرخات بضربة واحدة من نصل سكينه يوجهها إلى رقبتي؟ هل ستكفي هذه الضربة كي تثير انتباه رجال الشرطة؟

راحت عيناى تجولان فى الغرفة جيئةً وذهاباً. ارتعبت هاتان العينان مثل عيني حيوان علق فى مصيدة. رأيتُ كتلة مظلمة تملأ مدخل الغرفة. كان شكلاً بشرياً. جُمِدْتُ فى مكاني صامتةً، وغير قادرةٍ على الحراك، وعاجزةٌ حتى عن إطلاق صرخاتي الأخيرة.

تردد ذلك الشخص، وبدا غير واثق من خطواته التالية. لم أتمكن من رؤية ملامح وجهه، لأن كل ما شاهدته كان خيالاً ملاً مدخل الغرفة، مدخلها الوحيد، ومخرجها الوحيد. يا الله! لماذا لا أحتفظ بمسدس فى غرفتي؟ مرّت الثواني. أَيْحتمل أن لا يرى ذلك الشخص شكلي الممدد على حافة السرير؟ أَيْحتمل أن الغرفة بدت، من مدخلها، فارغة؟ هل يحتفظ الرجل بمصباح؟ هل سيقترّب من مفتاح النور فى الغرفة؟

تخلّص دماغي من الشلل الذي أصابه. ماذا يعلمون فى صفوف فن الدفاع عن النفس؟ اهرب إذا استطعت. لا أقدر. واجه قدر المستطاع إذا وجدت نفسك فى الزاوية. الجأ إلى العض. افقأ عين خصمك. ارفض. أنزل الأذى بخصمك! القاعدة الأولى: لا تدع خصمك يسيطر عليك! القاعدة الثانية: لا تدعه يطرحك أرضاً! أجل. عليك أن تفاجئه. هل سيتمكن رجال الشرطة من إنقاذي إذا ما استطعتُ أن أصل إلى الباب الخارجى؟

وجدت ساقى اليسرى مكائها على أرض الغرفة. ما زلتُ مستلقيةً على ظهري. حرّكتُ ساقى اليمنى نحو حافة السرير، لكن ببطء شديد، أي مسافة ميليمتر وراء آخر، وارتكزتُ على رديّ فى حركتي هذه. كانت قدماي قد وصلتا إلى الأرض عندما أقدم ذلك الشخص على حركة مفاجئة. أعمت عينيّ موجة من الضوء.

انتقلت يداى بسرعة البرق إلى عينيّ. اندفعتُ إلى الأمام فى جهد يائسٍ مني كسي أصدم ذلك الشخص وأدفعه جانباً، وهو الأمر الذي يسمح لي بالهرب من غرفة النوم. اصطدمت قدمي اليمنى بغطاء السرير ووجدتُ نفسي أسقط على السجادة. تدحرجتُ بسرعة ناحية اليسار، ثم هضتُ مستندةً على ركبتيّ، واستدرتُ كي أواجه الشخص الذي يهاجمني. القاعدة الثالثة: لا تدر ظهرك مطلقاً للشخص الذي يهاجمك. بقي ذلك الشخص فى الجهة البعيدة من الغرفة. وضع يده

على مفتاح النور. لم أُمَيِّز وجهه إلا الآن. أعتقد أن اضطراباً داخلياً ما، لم أستطع فهم حقيقته، تسبب بتشوش ملامح هذا الوجه عندي. إنه وجهٌ أعرفه جيداً. أما وجهي فتقلبت تعابيره كثيراً: الرعب، الإدراك، والتشوش. التقت عيوننا لفترة من الزمن. لم يتحرك أحدٌ منا. لم يكلم أحدنا الآخر. حدّق كل واحدٍ منا بالآخر عبر فضاء غرفة نومي.

صرختُ.

"سحقتُ لك يا غايي! أيتها الساقطة الغبية! ماذا تفعلين هنا؟ ماذا فعلتُ لك؟ أيتها الساقطة! أيتها الساقطة اللعينة!"

جلستُ، ووضعتُ يديّ على فخذيّ، ولم أبذل أي جهدٍ للتحكم بدموعي التي أغرقت وجهي، أو بالتنهدات التي أمهكت جسدي.

25

راح كياني يهتز بكامله، وانطلقتُ بالنشيج والصراخ. لم يكن لكلماتي الكثير من المعاني، لكنها أصبحت متفككة عندما تداخلت مع تنهداتي. أدركتُ أنّ الصوت هو صوتي، لكنني لم أمتلك القدرة على التحكم فيه. انفلتت من فمي الكلمات التي تخلو من المعاني، بينما استمر جسدي بالصراخ والنشيج. تغلّب النشيج على الصراخ، وتراجع ليتحول إلى أصوات مكتومة. انطلقت مني آخر ارتعاشة، فتوقفتُ عن الاهتزاز وركزتُ على غايي، ووجدتها تبكي هي الأخرى.

وقفت في الغرفة ممسكةً بمفتاح النور بإحدى يديها، بينما ضغطت يدها الأخرى على صدرها. ارتعشت أصابعها فانفجرت، ثم انقبضت ثانية. راح صدرها يعلو ويهبط مع كل نفسٍ أخذته، وانسابت دموعها على وجهها. بكت بصمت، وبدت جامدةً في مكانها، ولم يتحرك فيها سوى يدها الضاغطة على صدرها.

"غايي؟" خانني صوتي للحظة ثم عاد. "... لماذا؟"

أومأت بشدة بينما راحت جدائل شعرها تتمايل حول وجهها الشاحب. أخذت تُصدر أصواتٍ نحيبٍ قصيرة، وكأنها تحاول أن تعيد دموعها إلى أماكنها. بدا لي أنها عاجزة عن الكلام.

رحستُ أ همس بانضباط: "يا إلهي. غايي! هل جنت؟ ماذا تفعلين هنا؟ لماذا لم تتصلي بي؟"

بدا لي أنها تفكّر بسؤال الثاني، لكنها حاولت الإجابة عن سؤال الأول.

"شعرتُ أنني بحاجة... للتحدث معك".
حدّقتُ فيها. بحثتُ عن هذه المرأة للأسابيع الثلاثة الماضية، لكنها تجنّبتني.
اقتحمت منزلي عند الرابعة والنصف صباحاً، وجعلتني أشعر أنني كبرتُ عقداً من
الزمن على الأقل.

"كيف دخلت إلى شقتي؟"
"أحتفظ بمفتاح". أصدرتُ المزيد من الأصوات، لكنها أصبحت أهدأ وأبطأ
الآن. "من الصيف الماضي".

أزاحت يدها المرتعشة عن مفتاح النور، وأبرزت لي مفتاحاً معلقاً بسلسلة.
شعرتُ بغضبٍ شديدٍ يتصاعد من أعماقي، لكن الإجهاد الذي شعرت به
جعلني أسيطر عليه.

"ليس الليلة يا غايي".

"تعب، أنا...".

رمقتها بنظرة قصدتُ منها أن أبقياها جامدةً في مكانها مجدداً. حدّقتُ بي
بحزن، من دون أن تفهم ما يجري.

"تعب، لا أستطيع أن أذهب إلى منزلي".

بدت عيناها داكنتين ومستديرتين، أما جسمها فكان جامداً. وقفت مثل ظبية
فصلت عن قطيعها وحُشرت في الزاوية. بدت لي ظبيةً كبيرةً جداً، لكنها مرتعبةً
مع ذلك.

وقفتُ من دون أن أنطق بكلمة، وتوجهتُ إلى الخزانة، وتناولتُ منها بعض
المناشف والبياضات، ثم وضعتها في غرفة نوم الضيوف.

"ستتحدث في الصباح يا غايي".

"تعب، أنا...".

"قلتُ لك إننا سنتحدث في الصباح".

بدا لي أنني سمعتها تطلب رقماً على الهاتف بينما كنت أستعد للاستسلام
للنوم. لا يهم، سنتحدث غداً.

تحدّثنا بالفعل. تحدّثنا لساعات وساعات. تحدّثنا ونحن نتناول رقائق الذرة،
والسباغيتي. ارتشفنا أكواباً لا حصر لها من الكابوتشينو. تحدّثنا ونحن مستقلقتان

على الأريكة، وخلال جولات طويلة في شارع سانت كاثرين. انطلقت الكلمات كالسيل، لكن معظمها جاء من غايي. اقتنعتُ في البداية بأنها جاءت غير مترابطة، لكنني لم أعد متأكدة من ذلك مساء الأحد.

وصل فريق استعادة الأدلة في وقت متأخر من مساء الجمعة. أبدى الفريق احتراماً كبيراً لي لأنه اتصل قبل وصول أفرادهِ. وصلوا من دون مظاهر استعراضية، وعملوا بطريقة سريعة وفعالة. تقبل هؤلاء وجود غايي باعتباره تطوراً طبيعياً. واعتبروها صديقتي التي تقوم بتسليتي بعد ليلة رعب. أبلغتُ غايي أن رجلاً اقتحم حديقتي وأبقى فيها رأساً بمثابة تذكّار. قالت لي إنها تمتلك ما يكفي من أمور تشغل تفكيرها. غادر الفريق بعد أن شجّعنا بكلماته: "لا تقلقي يا دكتوراة برينان. سنلقي القبض على ذلك النذل. تستطيعين البقاء هنا".

كانت حالة غايي فظيعة مثل حالتي. تحوّل الرجل الذي كان مخبراً لها إلى رجل يلاحقها. لاحقها في كل مكان. رآته أكثر من مرة على مقعد في المنتزه. لاحقها بعد ذلك مرات أخرى في الشارع. جال الرجل ليلاً في شارع سان لوران، وتواجد في كل الأماكن رغم أنها ترفض التحدث إليه. بقي الرجل على مسافة معقولة منها، لكن عينيه استمرت بمراقبتها على الدوام. ظننت مرتين أنه موجود في شقتها.

قلت لها: "غايي، هل أنت متأكدة؟" عنيت أن أقول هل فقدت عقلك يا غايي؟

"هل أخذ أي شيء؟"

"لا، على الأقل لا أظن ذلك. لم ألاحظ فقدان أي شيء، لكنني أعلم أنه قُتس في أغراضِي. تعرفين كيف تجري الأمور. لم يُفقد أي شيء، لكن الأشياء لم تكن في مكانها تماماً، ولعل أحداً قد حرّكها من أماكنها"

"لماذا لم تردّي على مكالماتي؟"

"توقفتُ عن الردّ على الهاتف. رنّ عشرات المرات في اليوم، ولم يردّ عليّ أحدٌ في الطرف الآخر من الخط. حصل الأمر ذاته مع الآلة المحيية، وسمعتُ صوت المكالمات المقطوعة. توقفتُ عن استخدام الهاتف لهذا السبب."

"لماذا لم تتصلي بي؟"

"أتصل لأقول ماذا؟ هل أقول لك إنني أتعرض للملاحقة؟ أم أنني جعلتُ من نفسي ضحية؟ أم أنني لا أمتلك زمام السيطرة على حياتي؟ ظننتُ أنني إذا عاملته وكأنه الدودة التي يشبهها، فإنه سيتوقف عن ملاحقتي. تمنيتُ أن يزحف بعيداً ويتحوّل مزاجه إلى مكان آخر".
بدت عيناها معذبتيّن.

"أعرف ما ستقولينه. ستخبريني بأنك فقدت السيطرة على نفسك يا غايي. سمحتُ لذعرك أن يتحكّم بك يا غايي. أنت تحتاجين للمساعدة!"
شعرتُ بالذنب عندما تذكرتُ أنني قطعْتُ مكالمتي معها آخر مرة. كانت محقّة.

"كان بإمكانك الاتصال بالشرطة التي ستوفر الحماية لك". لم أصدّق كلماتي هذه، حتى وأنا أقولها.

"أنت محقّة". أخبرتني بعد ذلك عما حدث ليلة الخميس.
"وصلتُ إلى المنزل عند الساعة 3:30 فجراً. لاحظتُ فوراً أنّ شخصاً ما قد اقتحم شقتي. سبق لي أن استخدمتُ تلك الحيلة القديمة، أي وضع خيط فوق القفل. حسناً، شعرتُ بالتوتر الشديد عندما لاحظتُ أنه اختفى كلياً. كان مزاجي قد تحسّن كثيراً لأنني لم أرَ ذلك السافل طيلة الليل. أقدمتُ أيضاً على تغيير الأقفال، وهو الأمر الذي أعطاني شعوراً بالأمان في شقتي، ولربما للمرة الأولى منذ أشهر عديدة. شعرتُ أنني محطمةٌ بالفعل عندما رأيتُ الخيط ملقى على الأرض. ولم أرغبُ أن أصدّق بأنه دخل شقتي مجدداً. لم أعرف عندها ما إذا كان ما زال داخل الشقة، ولم أرغبُ بالتحقق من هذا الأمر. أقلتُ الباب وأتيتُ فوراً إلى هنا".

أخبرتني شيئاً فشيئاً عن الأسابيع الثلاثة الماضية، وعددتُ لي الأحداث كما خطرت في بالها. بدأ عقلي بإعادة ترتيب الأحداث بحسب تسلسلها الزمني، وذلك عندما كشفت روايتها عما حدث في عطلة نهاية الأسبوع. لاحظتُ وجود نمط من الوقاحة المتزايدة عند ذلك الرجل رغم عدم إظهاره عدوانية مفرطة من جانبه. بدأتُ أتفاسم مخاوفي وإياها مع حلول صباح الأحد.

قررنا أن تسكن غايي معي في الوقت الحاضر، مع عدم تأكدي من كفاية منزلي بالنسبة للأمان. سبق أن اتصل رايان بي في وقت متأخرٍ من مساء

الجمعة وأخبرني أنّ وحدةً من دورية لرجال الشرطة ستلازم شقتي حتى يوم الاثنين. تبادلنا التحيات مع الرجال كلما كنا ننطلق في جولاتنا. ظنّت غايي أنهم يرابطون هنا بسبب ذلك الرجل الذي اقتحم حديقتي. لم أحاول أن أعير معلوماً. أردتُ أن أعطيها المزيد من الإحساس بالأمان، لا أن أقضي على هذا الإحساس.

اقترحتُ عليها أن تُعلم الشرطة عن ذلك الشخص الذي يلاحقها، لكنها رفضت الفكرة بإصرار. قالت إنها تخشى أن يؤثر تدخّل رجال الشرطة على الفتيات اللواتي تجري بحثها عليهنّ. قالت لي أيضاً إنها تخشى أن تخسر ثقتهم بها، وأن لا تعود قادرة على التحدّث معهنّ. وافقتُ على كلامها هذا، وإن بتردد.

تركتُها صبيحة يوم الاثنين وتوجّهتُ إلى عملي. سبق أن أخبرتني أنها تريد إحضار بعض الأغراض من شقتها. قبلت الابتعاد عن شارع هاين مؤقتاً، وأبلغتني أنها تريد قضاء بعض الوقت في الكتابة، ولهذا فإنها تحتاج إلى جهاز حاسوبها المحمول، وإلى ملفاتها.

وصلتُ إلى مكّتي بعد أن تعدت عقارب الساعة التاسعة صباحاً. سبقني اتصال رايمان. وقد جاء في رسالته المكتوبة: "حصلتُ على الاسم. آي آر". لم يكن في مكّته عندما اتصلتُ به، ثم توجّهتُ إلى مختبر الأنسجة كي أعرف ما استجد بالتحفة التذكارية التي وُجدت في حديقتي.

وجدتها موضوعةً على الطاولة بعد انتهاء عملية تنظيفها والتأشير عليها. علمتُ أنّ غليها لم يكن ضرورياً بسبب عدم وجود الأنسجة اللينة فيها. بدت مثل آلاف الجماجم الأخرى مع محجّري عينيها الفارغين، ورقم مختبرات LMI المكتوب بوضوحٍ عليها. حدّقتُ فيها وتذكرتُ الرعب الذي سببته لي قبل ليالٍ ثلاث.

صحّتُ في المختبر الفارغ: "الموقع. الموقع. الموقع."
"عذراً؟"

لم أسمع وقع خطوات دينيز عند دخوله.
"أخبرني عن أهميته أحد سماسرة الأراضي ذات مرة".

"وي؟"
"إنَّ ما يحدّد ردّ فعلنا على الأشياء هو مكانها أكثر من طبيعتها."
بدت ملامح وجهه خالية من التعابير.
"لا تكثرت بما قلته الآن. أعتقد أنك أخذت نماذج للتربة قبل أن تغسل
هذه؟"

رفع قارورتين من البلاستيك وقال: "وي".
"دعنا نتفحصهما".
أوماً.
"هل أجريتم صور الأشعة السينية؟"
"وي. أعطيتُ الدكتور بيرغبيرون الصور التي تُظهر الجمجمة من زوايا
مختلفة".

"هل يُعقل أن يتواجد هنا يوم الإثنين؟"
"قال إنه يريد أخذ إجازة لمدة أسبوعين، لذلك حضر كي يُنهي بعض
التقارير".
"إنه يوم حظنا". وضعتُ الجمجمة في حوضٍ بلاستيكيّ. "يعتقد رايان أنه
عثر على اسم".
تقوّس حاجباه: "آه، وي؟"
"لا بد أنه مُض مع العصافير هذا اليوم. تلقى موظف الخدمة الليلية
رسالته".
"هل حصل على اسم لصاحب هيكل عظام سان لامبرت، أو لصاحب
هذه؟"

أشار إلى الجمجمة. لا بد أنّ القصة قد انتشرت الآن.
"لعله حصل على الاسمين معاً. سأعلمك بذلك".
توجهتُ إلى مكنتي، لكنني مررتُ بمكتب بيرغبيرون في طريقي. قال لي إنه
تكلم مع رايان. تمكّن رجل التحري من العثور على اسم رجلٍ مفقودٍ يحمل من
المعطيات ما يكفي لطلب إجراء تفويض من قاضي التحقيق يسمح بتفحص
سجلات ما قبل الوفاة. وأضاف إنه في طريقه إلى هنا.

"هل عرفت أي شيء عنها؟"
"لا أعرف شيئاً".

"سأنتهي من الجمجمة قبل حلول فترة الغداء. تعال إلى هنا إذا اضطرت".

أمضيتُ الساعتين التاليتين في إجراء تقييم لجنس صاحب الجمجمة وعرقه. تفحصتُ ملامح الوجه، وقحف الدماغ، وأخذتُ بعض القياسات، وأدخلتُ بعض السدالات التمييزية في حاسوبي. توافقت حساباتنا. تعود الجمجمة لأنثى بيضاء، مثلما هي الحال مع صاحبة هيكل سان لامبرت.

بقيت مسألة العمر محيرة. تعيّن عليّ إغلاق الدرزات الدماغية، وهو إجراء عام، لكنه غير موثوق به يهدف إلى تقييم العمر. لا يستطيع الحاسوب المساعدة في هذا الأمر. قدّرتُ أن تكون هذه الفتاة في أواخر العشرينيات، أو أواسط الثلاثينيات من عمرها عندما ماتت. أو لعلها وصلت إلى سن الأربعين. تتوافق هذه التقديرات، مجدداً، مع العظام التي وجدناها في سان لامبرت.

تفحصتُ نقاط التطابق الأخرى: الحجم الإجمالي، متانة الأربطة العضلية، درجة التغيّر في المفاصل، حالة العظام وحالة الحفظ. تطابقت كل المعطيات. اقتنعتُ الآن أنه الرأس المفقود في الهيكل العظمي الذي وُجد في موناستير سان برنارد، لكنني احتجتُ المزيد من القرائن. قلبتُ الجمجمة بعد ذلك وأخذتُ في تفحص قاعدة الجمجمة.

تفحصت العظمة القذالية، واقتربتُ من النقطة التي ترتكز الجمجمة عليها في العمود الفقري. لاحظتُ وجود سلسلة من الحروز. بدت هذه بشكل الحرف V في مقطعها العرضي، وظهرت من الأعلى إلى الأسفل بحسب تضاريس شكل العظمة. وبدت هذه الحروز تحت الضوء الكاشف مشابهة للعلامات التي لاحظتها في العظام الطويلة. أردتُ أن أتأكد أكثر.

عدتُ بالجمجمة إلى مختبر الأنسجة، ووضعتها قرب الجهر، ثم جلبتُ الهيكل الذي يخلو من الرأس. أحضرتُ الفقرة العنقية السادسة، ووضعتها تحت الجهر، ثم أعدتُ فحص الشقوق التي دونتُ تفاصيلها في الأسبوع الماضي. تحوّلتُ بعد ذلك إلى الجمجمة، وركّزتُ على الشقوق الكبيرة، ثم دونتُ عرضها وقاعدتها. بدت لي

هذه العلامات متطابقة، أما التضاريس وأبعاد المقاطع العرضية فتطابقت بشكل كامل.

"غرايس داماس".

أطفأت ضوء الألياف البصرية، واستدرت ناحية الصوت.

"ماذا؟"

كرّر بيروغرون: "غرايس داماس. العمر اثنان وثلاثون عاماً. يقول رايان إنها فُقدت في شهر شباط من عام 1992".

بدأت بإجراء بعض الحسابات. مرّ عامان وأربعة أشهر: "تتوافق الأوقات. هل من أمر آخر؟"

"لم أسأل في الواقع. قال رايان إنه سيّمّر بنا بعد فترة الغداء. إنه منشغل بتتبع أمر آخر".

"هل يعرف أننا تأكدنا من هوية الضحية؟"

نظر إلى العظام: "ليس بعد، لأنني انتهيت لتوي. هل من أمر آخر؟"

"إنهما يتطابقان. أريد أن أعرف ماذا يقول العاملون في قسم الأدلة عن عينات الأثرية. هل نستطيع الحصول على توصيف لغبار الطلع؟ لكنني مقتنعة، لأنه حتى علامات الشقوق متشابهة. أتمنى لو كان بإمكانني أن أحصل على الفقرة العنقية العليا، لكن ذلك ليس بالأمر الهام".

غرايس داماس. ظل هذا الاسم يتردد في رأسي طيلة فترة الغداء. غرايس داماس. الضحية رقم خمسة. أو هل كانت فعلاً كذلك؟ كم ضحية جديدة سنكتشف؟ ترسخ كل اسم في رأسي مثلما توسم البقرات الصغيرات. موريسيت شامبو. تروتييه. غاغنون. أدكينز. أضيف الآن اسم آخر. داماس.

وصل رايان إلى مكثي عند الواحدة والنصف. قال لي إن بيروغرون أعطاه رايماً إيجابياً بشأن الجمجمة. أبلغته أنّ هذا ينطبق على بقية الهيكل العظمي أيضاً.

سألته: "ماذا تعرف عنها؟"

"كانت في الثانية والثلاثين من العمر، ولديها ثلاثة أولاد".

"يا الله!"

"كانت أمّاً صالحةً وزوجةً مخلصَةً، وناشطةً في دار العبادة". نظر في أوراقه:
"يقع منزلها في سان ديميتريوس، مقابل هتشييسون، وقرب أفنيو دو بارك
وفاييرمون. اصطحبت أولادها إلى المدرسة ذات يوم، ولم يرها أحد منذ ذلك
الحين".

"ألديها زوج؟"

"تبدو حرة".

"ألديها صديق؟"

هزّ كتفيه: "إنها عائلة يونانية محافظة جداً. لا يمكن أن تكون هذه الأمور
صحيحة إذا لم تتحدث عنها. كرّست تلك الفتاة الطيبة حياتها لزوجها. أقامت
العائلة مقاماً لها في غرفة المعيشة". هزّ كتفيه مرة أخرى. "لعلها كانت ورعة،
ولعلها لم تكن كذلك. لن تتمكن من معرفة ذلك من ماما أو حبي. يشبه الأمر
التحدث مع أصداف البحر. سبق لك أن ذكرت عمليات الاحتيال، إنهم يدخلون
فجأة ويضربون".

أخبرته عن آثار الخزوز.

"مثلما هي الحال مع تروتيه وغازغون".

"هم".

"قُطعت يداها الاثنتان، كما حدث مع غازغون، أما في حالة موريسيت -
شامبو، وتروتيه فلم تُقطع سوى يدٍ واحدةٍ لكلٍ منهما".

"هم".

شغلت الحاسوب عند مغادرته، وفتحت الجدول الذي بدأت بإعداده. محوت
كلمة مجهول من عمود الاسم وطبعت مكانه غرايس داماس، ثم أدخلت تلك
المعطيات القليلة التي أعطاني إياها رايان. أعددت ملفاً ثانياً لخصت فيه الأشياء التي
أعرفها عن كل امرأة، وربّتها بحسب تاريخ الوفاة.

اختفت غرايس داماس في شهر شباط من العام 1992. كانت في الثانية
والثلاثين من عمرها، متزوجة، وأمّاً لثلاثة أطفال. عاشت غرايس في الجزء
الشمالي الشرقي القريب من المدينة، وفي منطقة تُدعى بارك اكستنشن. وُجدت

جثتها مشوهة ومدفونة في قبر ضحل في موناستير سان برنار الذي يقع في سان لامبرت. وُجدت هذه الجثة في شهر حزيران من العام 1994. ظهر رأسها في حديقتي بعد أيام عديدة. لم يُعرف سبب وفاتها بعد.

تعرضت فرانسيس موريسيت شامبو للضرب، وأطلق الرصاص عليها في شهر كانون الثاني من العام 1993. كانت في السابعة والأربعين من عمرها حينها. وُجدت جثتها بعد مرور أقل من ساعتين في الجزء الجنوبي من وسط المدينة، وكانت في الشقة التي تعيش فيها مع زوجها. شقّ القاتل بطنها، وقطع يدها اليمنى، ثم أدخل سكيناً في مهبلها.

اختفت شانتال تروتييه في شهر تشرين الأول من العام 1993، وكانت في السادسة عشرة من عمرها. عاشت الفتاة مع والدتها في مكان ناء من الجزيرة، وبالتحديد في ناحية البحيرة من سانت - آن - دي بيليف. تعرضت الفتاة للضرب وخُنقت، ثم قُطعت أطرافها. وُجدت جثتها بعد مرور يومين في سان جيروم.

اختفت إيزابيل غاغنون في شهر نيسان من العام 1994. عاشت إيزابيل مع شقيقها في سان إدوارد. وُجدت جثتها المشوهة في أرضٍ تخص لا غراند سيميناري في وسط المدينة. لم تحدد أسباب الوفاة، لكن العلامات التي ظهرت على عظامها دلّت على أنها تعرضت للتشويه، وأنّ القاتل قد شقّ بطنها. قطع قاتلها يديها، وأدخل غطاساً في مهبلها. كانت الضحية في الثالثة والعشرين من عمرها.

قُتلت مارغريت أدكينز في 23 تموز، قبل نحو أسبوع. كانت المغدورة في الرابعة والعشرين من عمرها. سكنت مارغريت مع ابنها، وعاشت معه في منزل الرجل الذي تزوجته مدنياً. تعرضت الضحية للضرب حتى الموت، وشقّ القاتل بطنها، وقطع أحد تديها وحشره في فمها. أقدم القاتل بعد ذلك على إدخال تمثال معدني صغير في مهبلها.

كان كلوديل على حق، لأنني لم ألاحظ نمط MO. تعرضت كل الضحايا للضرب، لكن موريسيت - شامبو تعرضت لإطلاق الرصاص عليها أيضاً. تعرضت تروتييه للخنق، أما أدكينز فُضرت بشدة، لكننا لم نتمكن بعد من تحديد سبب وفاة داماس وغازنون.

راجعتُ مرةً بعد أخرى كل الأمور التي خضعت لها كل واحدة من الضحايا. لاحظتُ اختلافاً بينها، لكن كل واحدة منهن حملت مغزى معيناً. تلخص هذا المغزى بالوحشية السادية والتشويه. أعتقد أنّ كل هذه الأعمال تحمل بصمة الشخص ذاته، أو بالأحرى الوحش ذاته. تعرضت داماس، غاغنون، وتروتييه، للتقطيع والتشويه، ووضعت جثثهنّ في أكياس من النايلون. شقّت بطونهنّ. أما غاغنون وتروتييه فقد قطعت أيديهما، بينما طُعنَت موريسيت - شامبو وقُطعت يدٌ واحدةٌ من يديها، لكنها لم تتعرض للتشويه. عانت كل من آدكينز، وغازنون، وموريسيت - شامبو من حشر أدوات غريبة في أعضائهن التناسلية، لكن لم تتعرض الأخرى لهذا المصير. لاحظتُ أنّ أحد مُدَي آدكينز قد قُطع. لم تتعرض الضحايا الأخرى لتشويه من هذا النوع. أم هل شوّهن بهذه الطريقة؟ لم أجد كثيرات مثل داماس وغازنون كي نصل إلى هذا الاستنتاج.

تسمّر نظري على الشاشة. رحتُ أقنع نفسي أنه لا بد أن يكون الجواب هنا، لكن لماذا لا ألاحظه؟ ما هو هذا الرابط الذي يجمع بين الضحايا؟ ولماذا هؤلاء النساء بالذات؟ تتراوح أعمارهن صعوداً ونزولاً في الجدول البياني. إذاً، ليس العمر هو العنصر المشترك، وكل الضحايا من البيض. يا للمفارقة، فهذه هي كندا التي تضم الناطقين بالفرنسية، والإنكليزية، وكل الناطقين باللغات الأخرى. تضم كندا المتزوجين والعازبين، والذين ارتبطوا حسب القانون المدني. هل اختارُ فئاتٍ أخرى. لماذا لا أحاول التفكير بالمناطق الجغرافية؟

أحضرتُ خريطة، وعيّنتُ عليها أمكنة اكتشاف كل جثة من الجثث. لم أستنتج شيئاً، تماماً مثلما حدث معي عندما تحادثتُ مع رايان. تناثرتُ أمامي خمس نقاط على الخريطة. جرّبتُ تعيين أماكن سكن الضحايا. بدت الدبابيس الملونة التي استخدمتها مثل لوحة تجريدية. لم يظهر أي نمط عليها. ماذا توقعت يا بريان؟ هل توقعت رؤية سهم يشير باتجاه شيبروك؟ انسيّ أمر الأمكنة. حاولي التركيز على الأزمنة.

نظرتُ إلى التواريخ. داماس كانت الأولى، وهي التي ماتت في وقت مبكر من العام 1992. رحتُ أحسب في ذهني. فصل أحد عشر شهراً ما بين مقتل

داماس ومقتل موريسيت - شامبو. قُتلت تروتييه بعد ذلك بتسعة أشهر، وما لبثت غاغنون أن قُتلت بعد ستة أشهر. قُتلت آدكينز بعد مرور شهرين. لاحظتُ تقلص الفترات الفاصلة بين جريمة وأخرى، وهذا يدل على أمرين: إما أن القاتل أصبح أكثر وقاحةً، أو أن تعطشه للدماء قد ازداد كثيراً. أخذ قلبي يخفق بشدة أكبر داخل أضلعي عندما رحتُ أفكّر بمغزى ملاحظتي. مرّ أسبوع على مقتل مارغريت آدكينز.

26

شعرتُ أنني سَجينة جسدي، وملأني القلق والشعور بالإحباط. أفلقتني الخيالات التي ملأت رأسي، لكنني لم أستطع طردها. راقبت أحد أغلفة الحلوى الذي حملته هبات رياح متغيرة الاتجاهات إلى نافذتي.

رحتُ أوَبَّخ نفسي، ليست قطعة الورق تلك إلا أنت يا برينان. أنت لا تستطيعين التحكم بمصيرك، دعك من مصائر الآخرين. لم يظهر أي أمرٍ جديد بخصوص سان جاك، ولم تعرفي شيئاً عن الشخص الذي خبأ الجمجمة في فنائك الخلفي. ما تزال قضية غايي الغامضة كما هي، ويُحتمل أن يكون كلوديل يتهاياً لتقدم شكوى ضدك. وها هي ابنتك تستعد لترك المدرسة، كما أن خمساً من النساء القتيلات يتابعن الحياة داخل رأسك، ويُحتمل أن تنضم ضحية سادسة أو سابعة إليهنّ إذا ما استمر مسار تحقيقاتك على هذه الوتيرة.

نظرتُ إلى ساعتِي التي أشارت إلى 2:15 من بعد الظهر. لا أستطيع البقاء في مكثي دقيقةً أخرى. يتعين عليّ القيام بأمرٍ ما.

لكن، ما هو هذا الأمر؟

ألقيتُ نظرةً على التقرير الذي أعده رايان عن الحادث، وما لبثت أن تكونت فكرةً معينة في رأسي.

قلتُ في نفسي أنه سيجن جنوهم.

أجل.

تفحصتُ التقرير. كان العنوان موجوداً فيه. فتحتُ الجدول الذي أعددهُ في حاسوبي المحمول. ضمّ الجدول كل العناوين مع أرقام الهواتف. أليس من الأفضل لي أن أتوجه إلى النادي الرياضي كي أتخلص من كل مشاعر الإحباط عندي.

أجل.
لن تساعد أعمال التحري الفردية التي أقوم بها في تحسين وضعي مع كلوديل.
كلا.

ويُحتمل أنك تجازفين بخسارة دعم رايان لك.
هذا صحيح...
لكنه صعب جداً.

طبعتُ الجدول الموجود على شاشة الحاسوب، واخترتُ رقم هاتف، ثم اتصلتُ. أجبني رجل بعد الرنة الثالثة. فوجئ الرجل لكنه وافق على الاجتماع بي. تناولتُ حقيبي الصغيرة ثم انطلقتُ إلى أجواء ذلك اليوم الصيفي. كان الطقس حاراً، وتشبّع الهواء برطوبة عالية، بحيث تترك الأصابع آثارها فيه. عكست الرطوبة أشعة الشمس، فانتشرت أشعتها في كل الأنحاء، وشكّلت غطاءً على كل شيء. قدتُ سيارتي في اتجاه منزل فرانسيس موريسيت - شامبو وزوجها. اخترتُ أن أبدأ بقضيتها بسبب قرب منزلها من مكان سكني. عاشت تلك المرأة في المنطقة السفلى من وسط المدينة، أي أنّ منزلها لا يبعد أكثر من مسيرة عشر دقائق عن منزلي، لذلك سأكون قرب شقتي إذا ما فشلتُ في مساعي هذا.

عثرتُ على المنزل فأوقفتُ سيارتي. اصطفتُ في هذه المنطقة المنازل الريفية الطراز، والمشيدة بأحجار قرميدية حمراء، ولاحظتُ شرفاتها الحديدية، ومرائب السيارات المبنية تحت الأرض، والأبواب الحديدية الملونة لهذه المنازل.

لا يمتلك هذا الحي اسماً، بعكس بقية الأحياء في هونتريال. امتدت يد العمران المسدنيّ إلى الباحات الكندية الوطنية، فتحولت الطرقات والمستودعات إلى أماكن سكنية، وأماكن شبي اللحم، وظهرت شتلات البندورة فيها. أحاطت الأحياء النظيفة التي يسكنها أبناء الطبقة الوسطى بهذا الحي، لكنها عانت من أزمة هوية.

كانت هذه الأحياء قريبة جداً من مركز المدينة لذلك يصعب اعتبارها من الضواحي فعلياً، لكنها تتواجد خارج الدائرة التي تحدد وسط المدينة العصري. إنها ليست أحياء قديمة، وليست أحياء جديدة، لكنها عملية ومناسبة للسكن، رغم أنها تفتقد لوجود الأشجار.

قرعتُ الجرس وانتظرت. ملأت رائحة العشب الذي جُزّ حديثاً، والقمامة، الهواء الحار. رأيتُ على مسافة قريبة مني رشاشة مياه ترش المياه على مساحة عشبية صغيرة جداً. سمعتُ أيضاً صوتاً مضخة هواء مركزية، وهو الصوت الذي طغى على صوت رشاشة المياه الرتيبة.

ظننتُ أنّ طفل جبير قد كُبر حينما فُتح الباب. كان شعره الأشقر يتراجع، وقد التفت كتلة شعره الوسطى فوق جبهته. لاحظتُ أنّ خديه وذقنه مستديرة وأنها سمينة بعض الشيء، أما أنفه فكان قصيراً وبارزاً إلى الأعلى. كان جسمه ضخماً. لم يصبح سميناً بعد، إلا أنه أسرع حثيثاً في هذا الاتجاه. أما والده فقد ارتدى سروالاً من الجينز وكنزة، رغم أنّ درجة الحرارة بلغت تسعين درجة.

"مسيو شامبو، أنا..."

فتح الباب على مصراعيه ثم تراجع قليلاً. تجاهل الرجل البطاقة التي قدّمها له، والتي تسمح لي بالتفتيش. سرت وراءه عبر قاعة ضيقة، ثم وصلنا إلى غرفة معيشة ضيقة. رأيتُ أحواض سمك بمحاذاة أحد الجدران بينما انتصبت أكوامارين كثيفة وسط الغرفة. رأيتُ في الجهة الأخرى من الغرفة طاولةً طويلةً وُضعت عليها أصداقٌ صغيرة، وعلبٌ من الأطعمة، وبعض المعدات المخصصة للأسماك. انفتحت أبواب ذات فتحات كثيرة على المطبخ. نظرتُ بعيداً ما إن رأيتُ حوض جلبي الأطباق.

أزال المسيو شامبو الأغراض عن مساحةٍ من الكنية، وأشار لي بضرورة الجلوس. جلس الرجل على مقعد متحرك.

بدأتُ مجدداً: "مسيو شامبو. أنا الدكتورة برينان، وأعمل في مختبرات العلوم القضائية".

توقفتُ عند هذا الحد على أمل تجنب تقديم المزيد من التفسيرات بشأن دوري المحدد في التحقيقات، والواقع هو أنه لا دور لي إطلاقاً فيها.

"هل توصلتم إلى نتيجة؟ أنا... لقد مرّ وقتٌ طويلٌ بحيث لم أعد أسمع
لنفسي بالتفكير في الموضوع". وجّه نظره نحو الأرضية الخشبية قبل أن يتابع:
"مرّ عام ونصف على وفاة فرانسيس، لكن رجالكم لم يتصلوا بي منذ أكثر من
عام".

رحتُ أتساءل أين يضعني في قائمة رجالكم.

"سبق لي أن أجبتُ عن الكثير من الأسئلة، وتحدّثتُ مع كثيرين. المحقق
الجنائي. رجال الشرطة. الصحافة. استأجرتُ محققاً خاصاً بي. أردتُ فعلاً أن
أقبض على هذا الرجل، لكنني فشلت. لم ينجحوا في العثور على دليلٍ واحد.
استطعنا تحديد مجال الوقت الذي قُتل فيه حتى حدود الساعة كما تعرفين. قالَ
المحقق إنها ما تزال ساخنة. أقدم هذا المعتوه على قتل زوجتي، والهرب، ثم الاختفاء
من دون أن يترك أثراً". هزّ رأسه في حركةٍ تدل على عدم التصديق. "هل عثرتُم
على أي شيء جديد؟"

لحّت في عينيّه مزيجاً من الألم والأمل. فاخترقتني وخزةٌ من الشعور
بالذنب.

"لا، مسيو شامبو، لم نجد شيئاً في الواقع". ما عدا أربع نساء أخريات قتلهنّ
ذلك الحيوان ذاته. "أردتُ فقط أن أراجع بعض التفاصيل، وأن أتأكد من أننا لم
نهمل أي شيء".

تلاشى الأمل ليحل عدم الاكتراث مكانه. استرخى الرجل في مكانه، وعاد
إلى حالة الانتظار.

"هل كانت زوجتك أخصائية تغذية؟"

أوماً.

"أين كانت تعمل؟"

"عملت في أمكنة كثيرة في الواقع. كانت تتلقى راتبها من MAS، لكنها
كانت تستطيع الانتقال إلى أي مكان في أي وقتٍ من الأوقات".

"وما هي MAS؟"

"إنها وزارة الشؤون الاجتماعية".

"هل كانت تتنقل كثيراً أثناء عملها؟"

"كانت وظيفتها بالإجمال تركز على تقديم الاستشارات للتعاونيات الغذائية، وجماعات المهاجرين، وتقديم النصائح حول كيفية شراء المواد الغذائية. قدّمت النصائح لجماعات المهاجرين حول كيفية إنشاء المطابخ الجماعية، ثم علّمتهم تحضير المأكولات التي يحبونها، والتي تكون صحية ورخيصة في الوقت نفسه. كانت تساعدهم على إحضار الحبوب واللحوم وبقية اللوازم. اعتادت أن تشتريها لهم بكميات كبيرة. كانت تزور المطابخ على الدوام كي تتأكد أن هذه المطابخ تعمل على ما يرام".

"أين تقع هذه المطابخ المشتركة؟"

"إنها تنتشر في كل الأمانة: بارك إكستشن. كوت دي نايج. سان هنري.

ليتل بوروندي".

"منذ متى عملت في وزارة الشؤون الاجتماعية؟"

"عملت طيلة ستة أو سبعة أعوام، وعملت قبل ذلك في مونتريال جنرال.

كانت تعمل لساعات طوال".

"هل كانت تستمتع بعملها؟"

"أوه. أجل. كانت تحب عملها كثيراً". علقّت الكلمات في حنجرته.

"هل كانت ساعات عملها غير منتظمة؟"

"كلا. كانت تعمل على الدوام، أي في أوقات الصباح، والمساء، وعطلات

نهاية الأسبوع، وأينما وجدت مشكلة فإنّ فنانسين كانت جاهزة كي تحلّها".

توترت عضلات فكّه، ثم استرخت.

"هل كنت تتشاجر مع زوجتك بشأن أمور عملها؟"

صمت لبرهة ثم قال: "أردتُ أن أراها أكثر. يا ليتها بقيت في المستشفى!"

"ما هي مهنتك مسيو شامبو؟"

"أنا مهندس، وأبني المنازل، لكن يبدو أن أحداً لا يريد أن يبني منازل هذه

الأيام". ابتسم ابتسامة خالية من المرح. مال برأسه قليلاً: "تقلص عملي كثيراً".

استخدم هنا تعبيراً إنكليزياً.

"أنا آسفة. هل كنت تعلم بالوجهة التي قصدتها زوجتك يوم مقتلها؟"

هزّ رأسه: "لم نرَ بعضنا كثيراً في ذلك الأسبوع. احترق أحد مطابخها

فلازمت المكان نهاراً وليلاً. يُحتمل أنها عادت إلى هناك ذلك اليوم، كما يُحتمل

أفما توجهت إلى مطبخ آخر. لم تحتفظ بأي نوع من أنواع اليوميات أو السجلات على حدّ علمي. لم يجدوا مفكرةً في مكتبها، ولم أعثر على واحدة هنا أبداً. قالت إنها تريد أن تقصّ شعرها. اللعنة! قد تكون توجهت إلى أحد الصالونات".
نظر إليّ، فبدأ الألم في عينيه.
"أتعلمين ماذا يعني هذا؟ إنني لا أعلم ماذا كانت تخطط زوجتي للقيام به يوم مقتلها".

ههممت أصوات المياه الدائرة في الأحواض بصوت خافت قربنا.
"هل تحدثت أمامك عن أي شيء غريب؟ أو مكالمات هاتفية غريبة؟ أو عن أي شخص غريب قرع بابها؟" فكّرتُ في غايي. "أو عن شخصٍ ما في الشارع؟"
هزّ رأسه مجدداً.

"هل كانت لتحدثت أمامك عن هؤلاء؟"
"ربما كانت لتفعل ذلك لو أننا تبادلنا الحديث. لم يتسنَ لنا الوقت كي نتبادل الأحاديث في الأيام القليلة الماضية".
جرّبتُ طريقة جديدة.

"كنا في شهر كانون الثاني حينها، وكان الطقس بارداً، لذلك كانت الأبواب والنوافذ مقفلة. هل اعتادت زوجتك إقفالها بإحكام؟"
"نعم. لم تحب العيش أبداً في هذا المنزل، لأنها لا تحب السكن في مكان يطل على الشارع. حاولتُ أن أقنعها كي نشترى هذا المنزل، لكنها فضّلت السكن في البنايات العالية التي تمتلك أنظمتها الأمنية الخاصة بها، بالإضافة إلى الحرس. لدينا العديد من الأشخاص المتبدلين هنا، لذلك كانت تشعر بالتوتر على السدوم، وهذا هو السبب الذي دفعنا إلى التفكير بترك المنزل. أحببت المنازل الراحبة، والباحات الخلفية الملحقة فيها. لم تعتد أبداً على التواجد في هذا المكان. أخذها عملها إلى بعض المناطق الصعبة، وعندما كانت تعود إلى المنزل كانت تحب أن تشعر بالأمان. أحببت أكون وحيدة. هذا ما قالته لي. وحيدة ومنعزلة، كما تعلمين."
أجل. أوه. نعم.

"متى رأيت زوجتك لآخر مرة، مسيو شامبو؟"
تنفس بعمق، وزفر. "قُلت يوم الخميس. عملت لوقت متأخر في الليلة
السابقة بسبب النيران، ولهذا كنتُ في السرير عندما عادت".
أحنى رأسه، وأخذ يتحدث للأرضية الخشبية مجدداً. ظهرت بقعة من الأوعية
الدموية الدقيقة على كل خد من خديه.
"أوت إلى السرير مثقلةً بأخبار يوم عملها، وحاولت أن تخبرني أين كانت،
وماذا فعلت. لم أرغب بسماع قصصها".
لاحظتُ أن صدره يعلو ويهبط تحت كنزته.
"هُضت باكراً في اليوم التالي، وغادرت المنزل. لم أودعها حتى".
لبشنا صامتين لبرهة.

"هذا ما فعلته، وليس هناك من شيء يغيّر هذا الأمر. لم أحصل على فرصة
أخرى". رفع عينيه، وحدق في لون الأحواض الفيروزي. "استأتُ لأنها تعمل
في حين عجزتُ أنا عن العمل، ولهذا استبعدتها. وأنا أتعيش الآن مع ما
فعلته".

إلتفتَ نحوي قبل أن أستطيع التفكير برد مناسب. بدا وجهه متوتراً، وجاء
صوته أقسى مما كان.

"ذهبتُ كي أرى زوج شقيقتي. قال إنَّ بحوزته بعض عروض العمل لي.
بقيتُ معه طيلة فترة الصباح، وسكرتُ ورجعتُ إلى المنزل حوالى الظهرية.
وجدتها مقتولة. أجرت الشرطة تحقيقاتها حول هذا الموضوع".

"مسيو شامبو، أنا لا أقول إنك..."

"لا أرى أن حديثنا سيوصلنا إلى معلومات جديدة. إننا نقوم بإعادة صياغة
الكلمات القديمة فقط."

وقف. صرفني الرجل بكل بساطة.

"أسفة لأنني أثرتُ أمامك ذكريات مؤلمة".

تفحصني من دون أن يعلّق، ثم مشى تجاه الردهة. تبعته.

"شكراً على وقتك، مسيو شامبو". ناولته بطاقتي. "إذا تذكرت أي شيء

لاحقاً، فلا تردد بالاتصال بي".

أوماً. رأيت أمامي ملامح رجلٍ مرَّ بكارثة، وهو لا يستطيع نسيان أن آخر كلماته وأفعاله تجاه زوجته التي أحبها كانت قليلة، وأبعد ما تكون عن وداعٍ مناسب. هل هناك من وداعٍ مناسبٍ إطلاقاً؟
شعرتُ أن عينيهِ مسمرتان على ظهري عندما غادرت. شعرتُ ببرودةٍ تخترق جسدي، رغم حرارة الطقس. أسرعْتُ نحو سيارتي.
هزتني المقابلة مع شامبو. طرحتُ على نفسي آلاف الأسئلة في طريقي إلى المنزل.

هل أمتلك الحق في إثارة آلام هذا الرجل مجدداً؟ تحيلتُ عيني شامبو.
يا لذلك الألم! هل تسببت به أسئلتني التي فرضتها عليه؟
كلا. لم أكن أنا التي تسببت بشعوره بالندم. كان شامبو رجلاً يعيش مع تأنيب ضمير تسبب به شخصياً.

تأنيب ضمير على ماذا؟ على إنزاله الأذى بزوجه؟
كلا. إنه لا يبدو من هذا النوع من الرجال.

هل يؤنبه ضميره لأنه تجاهلها، ولأنه تركها تعتقد أنها غير مهمة؟ هل الأمر بهذه البساطة. رفض أن يتحدث معها عشية موثها، وأدار ظهره لها، ثم استغرق في النوم. لم يودعها في الصباح، أما الآن فلن تُسبح له هذه الفرصة مجدداً.
اتجهتُ شمالاً نحو سان مارك ودخلتُ في عتمة النفق. هل ستسفر تحقيقاتي عن شيء غير استعادة الذكريات التي تسبب الألم مجدداً؟
هل أستطيع المساعدة في هذه القضية حيث فشل جيشٌ من المختصين، أم أنني أنشغل في قضية مواجهة شخصية مع كلوديل؟
"لا!"

طرقتُ براحة يدي على عجلة القيادة.

رحت أفكر بيني وبين نفسي، اللعنة! لا. ليس هذا هو ما أهدف إليه! لم يفتنع أحدٌ غيري بوجود قاتل واحد، وأنه سيقتلُ ثانية. وإذا كنت أريد أن أمنع حدوث جريمة جديدة فيتعين عليّ إيجاد حقائق إضافية.

خرجتُ من العتمة إلى ضوء النهار، لكن بدلاً من أن أتجه شرقاً نحو منزلي توجهتُ نحو سانت كاثرين، وعدتُ كي أقود سيارتي في 20 غرباً. يطلق سكان

هذه المنطقة اسم 2 و20 عليها، لكنني لم أجد شخصاً إلى الآن يستطيع أن يشرح لي معنى 2، أو مكان وجودها.

غادرتُ حدود المدينة، ورحتُ أعبر عن نفاذ صبري بطرقي على عجلة القيادة. أشارت الساعة إلى الثالثة والنصف، وبدأت السيارات تزدهم حتى وصلت إلى تقاطع توركو. يا للتوقيت السيئ الذي اخترته.

وجدتُ جنيفياف تروتييه وهي منهكة بانتزاع الحشائش الضارة من بين شتلات البندورة بعد خمس وأربعين دقيقة. كانت في الحديقة الخلفية لمنزلها ذي اللون الأخضر الشاحب، والذي عاشت فيه مع ابنتها. تطلعت إلى الأعلى عندما قادتُ السيارة في الطريق الذي يؤدي إلى بيتها، ثم راحت تراقبني وأنا أعبر تلك المساحة العشبية.

"وي؟" قالتها بودية ظاهرة وانتصبت واقفة، ثم راحت تحدق بي. ارتدت المرأة سروراً قصيراً أصفر اللون وصديرة بدت كبيرة جداً على ثديها الصغيرين. التمتعت حبيبات العرق على جسدها، ولقت شعرها حول وجهها. كانت أصغر سنماً مما توقعت.

شرحتُ لها من أكون، وسبب وجودي في منزلها. تحولت الودّية إلى تجهّم في الوجه. ترددت قليلاً، لكنها سرعان ما تركت المالج الذي في يدها، ثم هضت، وفركت يديها كي تتخلص من التراب. فاحت رائحة البندورة الشديدة من حولنا. "من الأفضل أن نتوجه إلى الداخل". قالت لي بعد خفضت بصرها. لم تتساءل عن حقي في توجيه الأسئلة إليها، أي مثلما فعل شامبو تماماً.

بدأت بالسير عبر الباحة فتبعته، لكن سيطر عليّ شعوري أنني أكره الموضوع الذي أوشك أن أثيره. بدت ربطة تلك الجمالة واسعة جداً حول ظهرها، ولاحظتُ أن بعض الأعشاب تعلقت بالجهة الخلفية من ساقها وقدميها.

التمتع مطبخها في أضواء فترة ما بعد الظهر، وشهدت الأواني الخزفية والأسطح الخشبية على أعوام وأعوام من العناية. اصطفت الأحواض الصغيرة المزروعة بنبات الكالانشو على حواف النوافذ، لاحظتُ أنّ هذه الأحواض تحيط بها أقمشة قطنية صفراء اللون. لاحظتُ أيضاً أنّ المقابض ذات اللون الأصفر تزيّن الخزائن والأدراج.

"حضرتُ بعض الليموناضة". قالت ذلك وانصرفت إلى البدء بهذه المهمة. يبدو أنها تجد راحةً في قيامها بالأمر الروتينية. جلستُ إلى الطاولة الخشبية اللامعة وراقبتها عندما تناولت مكعبات الثلج من وعاء بلاستيكي، لتضعها في الأكواب قبل أن تضيف الليموناضة. أحضرت الشراب وجلست قبالي، لكنني لاحظتُ أنها تتجنب النظر في عيني. قالت وهي تتأمل كوبها الذي يحتوي الليموناضة: "يصعب عليّ التحدث عن شانتال".

"أفهم هذا، وأنا آسفة لخسارتك إياها. كيف حالك؟"
"أجد أن بعض الأيام أسهل عليّ من غيرها."
كتفت يديها، ورفعت كتفيها من تحت صدريتها.
"هل أتيت كي تخبريني شيئاً؟"
"أحشى أن لا تكون هذه الحال مدام تروتييه، كما أنني لا أحمل أي أسئلة محددة لك. ظننتُ أنك تذكّرت شيئاً، ولعله شيء ظننت أنه غير مهم في البداية".

بقيت عيناها مركبتين على الليموناضة. سمعتُ نباح كلب في الخارج.
"هل حدث شيء معك منذ أن تحدث إليك رجال التحري آخر مرة؟ وهل تذكّرت أي تفاصيل منذ اختفاء شانتال؟"
لم تجبني. كان الهواء في المطبخ حاراً وكثيفاً نتيجة الرطوبة الشديدة، وفاحت منه رائحة خفيفة لمطهر برائحة الليمون.
"أعلم أن هذا هو أمر مرعب بالنسبة إليك، لكن إذا كنت تمتلكين أي أمل بالعثور على قاتل ابنتك، فإننا ما نزال بحاجة إلى مساعدتك. هل يزعجك شيء؟ وهل فكّرت في شيء جديد؟"
"لقد تواجها".

وجدتُ الإحساس بالذنب مجدداً بسبب المسافة التي تفصل شخصاً عن آخر. لمستُ الرغبة باستعادة الكلمات التي قيلت، أو تغيير بعضها.
"رفضت أن تأكل. صرّحت لي أنها تزداد سمنةً".
سبق لي أن علمتُ بهذا من تقرير الشرطة حول الحادث.

"لم تكن سمينة أبداً. يا ليتك رأيتها. كانت جميلة، ولم تتعدَّ السادسة عشرة من عمرها". التقت عيناها بعينيَّ أخيراً. لاحظتُ أنّ دمعةً نزلت من كل جفنٍ من جفنيها، ثم انسابت على كل خدٍّ من خديها. "مثلما تقول الأغنية الإنكليزية". قلتُ بأقصى قدرٍ من الرقة: "أنا آسفة جداً". تسلَّلت عبر شبكة النافذة رائحة شتلات إبرة الراعي بعد أن تركزت عليها أشعة الشمس. "هل شعرت شانتال بالتعاسة لسبب من الأسباب؟"

شدت قبضتها على كوهما.

"هذا هو ما يصعب الأمور. كانت طفلة هادئة وسعيدة، ومليئةً بالحيوية على الدوام. كانت تخطط دائماً. لم يؤثر فيها حتى طلاقِي. تلقت النبأ بهدوء، ولم يؤثر فيها أبداً".

هل تقول الحقيقة، أم أنّها تتوهم؟ تذكرتُ أنّ الزوجين تروتيه انفصلا عندما كانت شانتال في التاسعة من عمرها، كما أعرف أنّ والدها يعيش في مكانٍ ما من المدينة.

"هلا تخبريني عن الأسابيع القليلة الأخيرة في حياتها؟ هل غيرت شانتال أي شيء في روتين حياتها؟ هل تلقت مكالمات هاتفية غريبة؟ وهل اكتسبت بعض الأصدقاء الجدد؟"

هزت رأسها ببطء دلالةً على النفي المستمر. "لا".

"هل كانت تجد صعوبةً في اكتساب أصدقاء جدد؟"
"لا".

"هل كنت متضايقة من أحد أصدقائها؟"
"لا".

"هل كان لديها صديقٌ معين؟"
"لا".

"هل واعدت أحد الشبان؟"
"لا".

"هل كانت تواجه صعوبات في المدرسة؟"
"لا".

يا لهذا التحقيق البائس بتقنيته! كان يجدر بي أن أحمل الشهادة على الكلام بدلاً مني.

"أخبريني عن ذلك اليوم. اليوم الذي اختفت فيه شانتال".

نظرت إليّ، لكنني لم أستطع فهم ما تقوله عيناها.

"أخبريني ماذا جرى في ذلك اليوم؟"

ارتشفت جرعةً من الليموناضة وبلعتها بسرعة، ثم وضعت كوبها على

الطاولة، وعن عمد.

"هضمنا عند حوالى السادسة، ثم حضرنا الفطور سوياً". أمسكت بالكوب

بشدة بحيث ظننت أنه سينكسر. "غادرت شانتال متوجهةً إلى المدرسة. ركبت

القطار مع أصدقائها لأن مدرستها تقع في وسط المدينة. قالوا لي إنها حضرت جميع

صفوفها، لكنها..."

تلاعبت نسائم الهواء بالقماش الذي يحيط بإطار النافذة.

"لم ترجع إلى المنزل أبداً".

"هل أعدت خططاً خاصةً لذلك اليوم؟"

"لا".

"هل اعتادت التوجه إلى المنزل بعد انتهائها من المدرسة؟"

"كانت تفعل ذلك عادةً".

"هل انتظرت قدومها إلى المنزل في ذلك اليوم؟"

"لا. كان من المفترض أن تذهب لزيارة والدها".

"هل كانت تفعل ذلك مراراً؟"

"أجل. لماذا يتحتم عليّ الإجابة عن هذه الأسئلة مرّة بعد مرّة؟ ما الفائدة؟"

أخبرت المحققين بكل هذه الأمور. لماذا يتحتم عليّ تكرار الأشياء ذاتها مرّة بعد

مرّة؟ إن تكرارها لا يفيد مطلقاً. لم تنفعنا حينها، ولن تفعل ذلك الآن".

تسمّرت عيناها على عينيّ، وبدا الألم فيهما بكل وضوح.

"أتعرفين؟ ملأت الكثير من نماذج البحث عن الأشخاص المفقودين، وأجبتُ

عن الكثير من الأسئلة، مع أنني أعرف أنّ شانتال قد ماتت. وجدوها أشلاءً

مقطعةً، ومرميةً في أحد الأمكنة. شيعت موتاً".

أحنت رأسها واهتزّت كتفاها النحيلتان. كانت محقة. فبينما بحثُ أنا عن معلومات جديدة، انصرفت هي للبحث عن طرائق كي تتخلص من حزنها عن طريق زرع شتلات البندورة والعيش. وأتيتُ أنا كي أجبرها على تذكر آلامها. كوني لطيفة يا بريتان وانصربي.

"لا بأس، مدام تروتبيه. إذا كنتِ لا تستطيعين تذكر تفاصيل إضافية فلعلها ليست مهمة".

تركتُ بطاقتي، بالإضافة إلى الطلب المعتاد: اتصلي بي إذا تذكرت شيئاً. وشككتُ أن تفعل ذلك.

وجدتُ باب غرفة غابي مغلقاً عندما عدتُ إلى المنزل. كانت الغرفة ساكنة جداً. فكّرتُ في اختلاس نظرة، لكنني قاومتُ هذا الدافع. كانت حساسة جداً بشأن احترام خصوصيتها. أويتُ إلى سريري وبدأتُ أقرأ، لكن كلمات جنيفياف تروتبيه بقيت عالقة في ذهني. شبعت موتاً. استخدمتُ شامبو العبارة ذاتها. أجل، إنها الخامسة. هذه هي الحقيقة القاسية. أملكُ أفكاراً أنا الأخرى التي لا تدعني أستريح، تماماً مثل شامبو وتروتبيه.

استيقظتُ على الأصوات المنبثقة من أخبار الصباح. إنه اليوم الخامس من تموز. تجاوزتُ ذكرى الاستقلال ولم أنتبه إليها. لم أحضّر فطيرةً بالتفاح، ولم أنشد فلتعش النجوم والأشرطة إلى الأبد، ولم أشعل المفرقات. شعرتُ بالحزن لهذه الفكرة. يتعيّن على كل أميركي، وفي كل مكان على الكرة الأرضية، أن يقف ويتباهى يوم الرابع من تموز. سمحتُ لنفسي أن أتحوّل إلى متفرجة كندية على التراث الأميركي. حضّرتُ خططاً للذهاب إلى الميدان الرياضي في أقرب فرصة كي أحسّ أي فريق أميركي يلعب في هذه المدينة.

استحممتُ، ثم حضّرتُ القهوة والحبز المحمّص. تفحصتُ مجلة الغازيت. وجدتُ فيها أخباراً لا تخصني عن حالات الانفصال. ماذا سيحدث للاقتصاد؟ أو للمواطنين الأصليين؟ وماذا سيحدث للناطقين بالإنكليزية؟ جسّدتُ إعلانات الوظائف المطلوبة مخاوفي هذه. يبدو أنّ الجميع يعرضون ما لديهم للبيع، ولا أحد منهم يريد أن يشتري. لعله يجدر بي أن أعود إلى موطني، فما هي الأشياء التي أقوم بإنجازها هنا؟

برينان. اهدئي يا برينان! أنت متوترة هكذا لأنك مضطرة إلى إدخال سيارتك إلى مرآب الصيانة.

هذا صحيح. إنني أكره القيام بمهمات، وأكره تفاصيل العيش في هذه الولاية - الأمة - التقنية، وفي هذه الأعوام الأخيرة من الألفية الثانية. جواز السفر، رخصة القيادة، رخصة العمل، ضريبة الدخل، جرعات التلقيح، التنظيف على الناشف،

مواعيد العناية بالأسنان، البقع الملطخة. يُختصر شعاري بالتالي: أجلي الأمور إلى أن تصلني إلى مرحلة تجديد نفسك فيها مجرةً على القيام بها. تحتاج سيارتي إلى عناية هذا اليوم.

إنني فتاةٌ أميركيةٌ في ما يتعلق بالسيارة. أشعر أنني غير كاملة، ومنعزلة عن العالم، وضعيفة، من دونها. ماذا أفعل إذا تحتم عليّ الهرب في حال حصول اجتياح؟ وماذا يحدث لو أنني اضطررتُ إلى مغادرة حفلة ما باكراً، أو إذا علقْتُ في محطة مترو؟ وماذا يحدث لو أنني قررتُ الذهاب إلى الريف؟ أو إذا اضطررتُ لنقل خزانة خشبية صغيرة؟ لا غنى لي عن السيارة. لكنني لست من النوع الذي يعشق سيارته عشقاً أعمى. أريد سيارة يعمل محركها عندما أدير مفتاح التشغيل فيها، وأن أستمِر في ذلك لمدة عقدٍ من الزمن على الأقل، ومن دون أن يتطلب الأمر الكثير من الصيانة.

لم أسمع بعد أي صوت من غرفة غايي، إذاً لا بد أنها تستمتع بنومها. جهّزتُ أغراضي وغادرتُ المنزل.

عند التاسعة أوصلتُ السيارة إلى المرآب، وأنا في محطة المترو. انتهت فترة الازدحام الصباحية، لذلك كانت عربة المترو شبه خالية. شعرتُ بالسأم. رحْتُ أتأمل الإعلانات الكبيرة. هل يجدر بي مشاهدة مسرحية في لا تياترو سان دينيز؟ هل يجدر بي تحسین مهاراتي المهنية في كلية أو سوليفان. أم يتعين عليّ شراء ثياب من الجينز من محلات غس، وعطر شانيل من محلات لا بايي، وبعض الحاجيات الملونة من بينيتون؟

رحْتُ أتفحص خريطة المترو. تقاطعت الخطوط الملونة فيها مثل توصيلات لوحة ذاكرة في جهاز حاسوب، في حين أشارت النقاط البيضاء إلى محطات التوقف.

تبعْتُ خط سيرني الذي يسير شرقاً على طول الخط الأخضر الذي ينطلق من غايي - كونكورديا حتى يصل إلى باينيويو. أما الخط البرتقالي اللون فيسير حول الجبل على محور شمالي - جنوبي على سفح الجبل الشرقي من الجبل، ثم يكمل على المحور الشرقي - الغربي تحت الخط الأخضر، وينطلق بعد ذلك على المحور الشمالي - الجنوبي في الجهة الغربية من المدينة. أما بالنسبة للخط الأصفر فيغور تحت النهر، ليعود ويظهر

فوق جزيرة سانت هيلانة، ويُكمل حتى لونغويل الموجودة في ساحلها الجنوبي. لاحظتُ أنّ الخطّين البرتقالي والأصفر يتقاطعان مع الخط الأخضر في بيري - أوكام. بدت نقطة كبيرة في مكان التقاطع مما يعني أنّها نقطة تحويل كبيرة. همهم القطار عندما دخل في نفق تحت الأرض. عددتُ المحطات التي توقف فيها القطار في خط سيري. عددتُ سبع نقاط منها. عجباً يا برينان. أتريدين أن تغسلي يديك؟ تحركت عيناى شمالاً مع الخط البرتقالي، ورحتُ أتخيّل المناظر الطبيعية المتغيرة للمدينة. بيري - أوكام، شيربروك، مون رويال، وأخيراً جان - تالون بالقرب من سان إدوارد. سكنت إيزابيل غاغنون في ذلك الحي. أوه؟

بحشتُ عن الحي الذي سكنت فيه مارغريت أدكينسز. يقع هذا الحي على الخط الأخضر، لكن في أي محطة؟ باي 11. رحّتُ أعد المحطات ابتداءً من بيري - أوكام. عددتُ ست محطات إلى الشرق منها. ماذا بشأن غاغنون؟ عدتُ إلى الخط البرتقالي. عددتُ ست محطات. دغدغتنى عدة شعيرات خلف رقبتى. جاء دور موريسيت - شامبو. عاشت على خط مترو جورج - فانييه، الخط البرتقالي، وعلى بُعد ست محطات إلى الغرب من بيري - أوكام. يا إلهي!

ماذا بشأن تروتييه؟ لا. لا يمر خط المترو بشارع سانت آن - بيليفيو. داماس؟ إنّها تعيش في بارك اكستنتشن، أي بالقرب من محطتي لورييه وروزمون. إنّهما المحطتان الثالثة والرابعة بعد بيري - أوكام. حدّقتُ بالخريطة. عاشت ثلاث ضحايا على بعد ست محطات بالضبط من محطة بيري - أوكام. هل هذه محض مصادفة؟ سمعتُ صوتاً ألياً يقول: "باينيو". حملتُ أغراضى، وأسرعتُ إلى المنصة. سمعتُ، بعد عشر دقائق، رنين الهاتف في الوقت نفسه الذي فتحتُ فيه باب مكتبي.

"دكتورة برينان".

"ماذا تفعلين يا برينان بحق الجحيم؟"

"صباح الخير يا رايان. هل أستطيع مساعدتك بشيء؟"

"يوشك كلوديل أن يهاجمي بسببك. قال إنك انطلقت في إزعاج عائلات الضحايا".

انتظرتني كي أقول شيئاً، لكنني لم أفعل.

"كنت أدافع عنك يا برينان لأنني أحترمك. لكنني لا أفهم ماذا يجري هنا. إنَّ

تدخلك بهذا الشكل يؤذيني كثيراً في هذه الحالة".

لم أقل شيئاً يبدد غضبه: "طرحتُ القليل من الأسئلة. إنَّ طرح الأسئلة ليس ممنوعاً".

"لم تخبري أحداً، ولم تنسقي مع أحد. خرجت من تلقاء نفسك لتطريقي

أبواب الناس". سمعتُ صوت أنفاسه المتوترة في منخريه.

"اتصلتُ أولاً". لا ينطبق هذا في حالة جنيفياف تروتييه.

"لست محققة يا برينان".

"لكنهم وافقوا على مقابلي، والتحدث معي".

"هل تقومين بدور مايكي سيلاين؟ إنَّ ما تقومين به ليس من اختصاصك".

"إنني محققة لديها قراء كثيرون".

"يا إلهي يا برينان، إنك تقومين بإلغاء دوري!"

سمعتُ ضحيجاً أحدثه رجالٌ على الطرف الآخر من الخط.

"اسمعي. لا تسيئي فهمي. أعتقد أنك قوية، لكن هذا لا يكفي. يستحق

هؤلاء الناس شيئاً أفضل". جاءت كلماته أقسى من الصوان.

"أجل".

"إنَّ تروتييه هي قضيتي أنا".

"ماذا حصل فعلاً في القضية التي تخصك؟"

"برينان..."

"ماذا بشأن الأخريات؟ ماذا حدث لهن؟"

رحتُ أفكّر.

"لا تحتل هذه التحقيقات الأولوية عند أحد في الوقت الحاضر، يا رايان. قُتلت فرانسيس موريسيت - شامبو منذ ما يزيد عن ثمانية عشر شهراً. ومضت ثمانية أشهر على مقتل تروتييه. أمتلكُ قناعة راسخة بأنه يتعين القبض على القاتل كائناً من يكون. إني أهتم بالموضوع من هذه الزاوية، ولذلك أطرح بعض الأسئلة. وماذا يحدث؟ يطلبون مني الانصراف، لكنني أعتقد أنّ الاهتمام سيتراجع بهذه القضايا شيئاً فشيئاً إلى أن ينساها الجميع، لأن السيد كلوديل يعتقد أنني لا أستطيع المساعدة في شيء. ليست المرة الأولى التي تحصل فيها هذه الأمور." "لم أطلب منك عدم التدخل".

"ماذا تقول يا رايان؟"

"أعرف أنّ كلوديل يريد تحجيمك، كما ترغبين أنت بتحجيمه. كنت سأفعل الشيء ذاته لو أنه هاجمني. إنّ كل ما أريده هو أن لا تفسدي قضيتي." "وماذا تقصد بذلك؟"

أخذ وقتاً كبيراً قبل أن يردّ.

"لا أقول إنني لا أريد المعلومات التي تستطيعين الحصول عليها. أريد فقط أن تكون الأولويات واضحة".

لم يتكلم أحدنا لوقت طويل. تنقلّ الغضب في الاتجاهين.

"أعتقد أنني توصلتُ إلى شيء".

"ماذا؟" لم يتوقع شيئاً من هذا القبيل.

"توصلتُ إلى تحديد رابط ما يجمع بين تلك الجرائم".

"ماذا تقصدين؟" فقدّ صوته مقداراً كبيراً من الحدة.

لم أكن متأكدة مما أقصده. ربما أردتُ أن أحول أنظاره قليلاً عما أقوم به.

"دعنا نلتقي على الغداء".

"الأفضل أن يكون لديك شيء مهم". سكت قليلاً. "سأراك في الظهرية في

مطعم أنطوان".

لم أجد قضايا جديدة على طاولة مكنتي، لحسن حظي، وهكذا تمكّنتُ من التركيز على عملي على الفور. لم تكتمل الصورة عندي بعد. هل يشكّل المترو الرابط الذي أبحث عنه.

شكّلتُ جهاز الحاسوب وفتحتُ الملف كي أتفحص العناوين. أجل، تمكنتُ من الحصول على محطات التوقف الصحيحة. تناولتُ خريطة وعيّنتُ المحطات مثلما فعلتُ أنا ورايان بالنسبة لمنازل الضحايا. شكّلتُ الدبابيس الثلاثة مثلاً، تشكلتُ محطة بيروي - أو كام مركزه. عاشت كلُّ من موريسيت - شامبو، وغانون، وآدكينز على بعد ست محطات من تلك المحطة، كما أن شقة سان جاك تقع على بعد مسافة قصيرة منها.

هل هذا هو الرابط الذي أبحث عنه؟ يستطيع القاتل أن يركب القطار في محطة بيروي - أو كام، ثم يختار ضحية تريد النزول بعد ست محطات توقف. ألم أقرأ مرةً عن هذا النوع من السلوك؟ يركّز المجرم على لون معين، أو على رقم، أو على سلسلة من التصرفات. يتبع الرجل نمطاً معيناً لا يجيد عنه، ويبقى مسيطراً على أدق التفاصيل. أليس التخطيط الدقيق ميزةً أساسيةً ترافق القتل التسلسليين؟ هل زاد رجلنا من هذه الدقة؟ أمكن أن يكون الرجل قاتلاً تسلسلياً يتميّز بنوعٍ من نمطٍ ما من أنماط السلوك الإجباري التي تنضوي تحته كل عمليات القتل؟

لكن ماذا بشأن تروتييه وداماس؟ لا يتفق قتلها مع ذلك النمط، لأنه من غير المعقول أن يكون الأمر بهذه البساطة. حدّقتُ في الخريطة وتمنيتُ أن يظهر أمامي حلٌّ ما. تزايد في أعماقي الشعور بأن شيئاً ما يكمن وراء جدار وعيي. أخذ هذا الإحساس يسيطر عليّ شيئاً فشيئاً. ماذا؟ كدتُ أن لا أسمع الطريقة.

"دكتورة برينان؟"

رأيتُ لوسي دومون واقفةً عند باب مكنتي. تستطيع لوسي أن تدخل إلى مكنتي ساعة نساء.

"إلسا!"

نسيْتُ كل ما يتعلّق بتلك القردة الصغيرة.

أجفّلت لوسي ميني، وراح جسدها يرتعش، فكادت أن تُسقط التقرير المكتوب من يدها.

"أتريدين أن أعود في وقتٍ لاحقٍ؟"

بدأتُ بالبحث عن التقارير التي سبق للوسي أن أعطتني إياها. أجل، طبعاً يتعيّن أن لا أنسى محطة الباصات. إنها لا تبعد كثيراً عن محطة بيروي - أو كام. عيّنتُ مكان إلسا. جاء مكانها في وسط المثلث تماماً.

هل هذا هو الحل الذي أبحث عنه؟ القردة؟ هل تتوافق معطياتها؟ وإذا كان الأمر كذلك، كيف؟ هل هي ضحية أخرى؟ هل كانت بمثابة تجربة؟ ماتت إلسا قبل عامين من مقتل غوايس داماس. ألم يسبق لي أن قرأتُ عن ذلك النمط أيضاً؟ هل تتحوّل أفكار المراهقة، وخيالاتها، إلى تعذيب الحيوانات قبل أن تأخذ شكل الاغتصاب والقتل؟ أليس هذا ما يدعى متوالية دامر المرعبة؟

تأوهتُ واسترخيتُ في جلستي. إذا كانت هذه هي المعلومات التي كان لا وعيي يحاول أن يبيّن لي، فلا بد من أنّ رايان لن يكون مسروراً بها.

خرجتُ من المكتب واتجهتُ نحو غرفة الملفات المركزية. اختفت لوسي. سأعترض منها لاحقاً. فعلتُ هذا كثيراً معها في الآونة الأخيرة. عدتُ إلى مكنتي.

لم يحتمل ملف داماس على الكثير من المعلومات في ما عدا التقرير. فتحتُ المغلف الذي يحمل اسم أدكينز، وبدأتُ أقلب بين الأوراق. وجدتُ أنّ الأوراق كانت توثيقية بطبيعتها، وهي الأوراق التي سبق لي أن اطلعتُ عليها مراراً. لم ألاحظ شيئاً جديداً. تحولتُ لتفحص ملفات كل من غاغنون، وموريسيت - شامبو، ثم ملف تروتييه.

أمضيتُ ساعة وأنا منكبّة على الملفات. وجدتُ أمامي أحجية غران مجدداً. وجدتُ شذرات منفصلة من المعلومات. يتعيّن عليّ استيعاب هذه المعلومات كي يتولى ذهني معالجتها وترتيبها. لم أُنجح في عملية ترتيب هذه المعلومات. حان وقت تناول القهوة.

أحضرتُ القهوة، وأحضرتُ معها نسخةً من عدد هذا الصباح من *جورنال*. ارتشفتُ القهوة وبدأتُ بالقراءة. أعدتُ ترتيب المعلومات في ذهني. تنوعت الأخبار قليلاً عن غازيت الناطقة باللغة الإنكليزية، أما المقالات فاختلفت كثيراً.

ماذا يسمى هوغ ماكلينان هذا الاختلاف؟ هل يدعوها العزلتين؟

استرخيتُ في جلستي. واجهتُ الوضع نفسه مجدداً. الحماسة اللاشعورية. أمتلكُ العناصر، لكن اللوحة لا تكتمل.

حسناً يا بريتان. كوني منهجية. بدأ شعورك هذا صبيحة هذا اليوم. ماذا كنتِ تفعلين؟ لم تفعلي الكثير. قرأتِ الصحيفة. أحضرتِ السيارة إلى المرآب. ركبتِ في المترو. راجعتِ الملفات.

إلسا؟ لم يكن عقلي راضياً. هناك المزيد من المعطيات.

هل هي السيارة؟

لا شيء.

هل هي الصحيفة؟

ربما.

قلّبتُ صفحاتها مجدداً. وجدتُ المواضيع ذاتها، والمقالات الافتتاحية ذاتها، والإعلانات الميوبة ذاتها.

توقفتُ بغتةً.

الإعلانات الميوبة. أين رأيتُ الإعلانات الميوبة؟ أين رأيتُ أكداً من هذه الإعلانات.

سبق لي أن رأيتها في غرفة سان جاك.

تفحصتُ هذه الإعلانات ببطء. الوظائف، الموجودات والمفقودات، مبيعات المرائب، الحيوانات الأليفة، العقارات.

العقارات؟ العقارات!

تناولتُ ملف آدكينز، وسحبتُ الصور الفوتوغرافية. أجل. إنها هناك. اللافتة المائلة الصدئة، والتي بالكاد تُرى في تلك الباحة المهملة. للبيع. يعرض أحدهم منزله للبيع، وهو المنزل الذي يقع في البناية التي تسكنها مارغريت آدكينز.

ماذا يعني هذا؟

فكري يا بريتان.

شامبو. ماذا قال الرجل؟ قال لي إن زوجته لا تحب العيش في تلك المنطقة، وهذا هو السبب الذي يدفعهم للمغادرة. أو لعله قال شيئاً من هذا القبيل.

هرعتُ إلى الهاتف. لم يجيني أحد.

ماذا بشأن غاغنون؟ ألا يستأجر شقيقها شقة؟ أم أنّ مالك البناية يعرضها للبيع.

تفحصتُ الصور. لم أجد لافتة. اللعنة!
حاولتُ الاتصال بشامبو مجدداً. ما من جواب.
اتصلتُ بجنييفياف تروتييه. تلقيتُ رداً بعد الرنة الثانية.
سمعتُ صوتاً مرحاً: "بوتجور".
"مدام تروتييه؟"

"وي". قالتها بلهجة تساؤل.
"أنا الدكتورة برينان. تحدثنا البارحة".
"وي". قالتها ببعض الخوف.
"أيمكنني أن أطرح سؤالاً واحداً عليك؟"
"وي". قالتها بلهجة عدم اكتراث.
"هل كان منزلكِ معروضاً للبيع عندما اختفتِ شانثال؟"
"عذراً؟"

"هل كنتِ تحاولين بيع منزلكِ في شهر تشرين الأول من العام الماضي؟"
"من أخبركِ بذلك؟"
"لم يخبرني أحد. كنت أتساءل فقط".

"لا. لا. عشتُ هنا منذ أن انفصلتُ عن زوجي. أنا لا أرغب بالمغادرة.
شانثال... أنا... كان بيتنا".

"شكراً لكِ يا مدام تروتييه. أنا آسفة لأنني أزعجتكِ". خرقتُ، للمرة الثانية،
السلام الذي عقدته تلك السيدة مع ذكرياتها.

لن يوصلني هذا إلى أي مكان، ولعلها كانت فكرة غبية قبل كل شيء.
حاولتُ الاتصال بشامبو. أجابني صوت رجل في وقتٍ كنت أفكر فيه بقطع
الاتصال.

"وي".

"مسيو شامبو؟"

"لحظة واحدة من فضلك".

"وي".

"مسيو شامبو؟"

"وي".

فسرتُ له من أكون وطرحتُ سؤالِي. أجابني إيجاباً، وأضاف أنهم حاولوا بيع ملكيتهم. وُضع الإعلان مع ري ماكس. قال لي إنه سحب الإعلان عندما قُتلت زوجته. قال إنه يعتقد أن الإعلان قد نُشر، لكنه ليس متأكداً. شكرته ثم قطعُ الاتصال.

اتصالان من أصل خمسة. هناك احتمال بأن يكون سان جاك قد استخدم الإعلانات المبوبة.

اتصلتُ بفريق استعادة الأدلة. قالوا لي إن الأدلة التي جُمعت من شارع بيرغر موجودة في قسم الملكية.

نظرتُ إلى ساعتي التي أشارت عقاربها إلى الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة. حان الوقت للالتقاء برايان. أعرف أنه لن يفعل شيئاً يُوذيني، لكنني أحتاج إلى المزيد من القرائن.

نشرتُ صور غاغنون مجدداً وتفحصتها واحدة تلو الأخرى. رأيتها هذه المرة. أحضرتُ عدسةً مكبرةً، ورحتُ أحركُ العدسة حتى توضحت الصورة. انخبتُ، ورحتُ أعدّل العدسة أكثر كي أتأكد.

"اللعة!"

وضعتُ الصور في مغلقاتها، وأدخلتُ المغلقات في حقيبتي، ثم هرعتُ نحو المطعم. يقع مطعم لا بارادي تروبيك قبالة مبنى أمن كيبك مباشرة. يقدم هذا المطعم مأكولات متدنية النوعية، والخدمة فيه بطيئة، لكنه يكون مكتظاً على الدوام في وقت الظهيرة. يعود السبب في ذلك إلى الحيوية التي يتمتع بها صاحبه، أنطوان جانفييه. بادرنى الرجل بتحية معتادة.

"آه مدام، تبدين منشرحة اليوم؟ أجل! أنا سعيد جداً لرؤيتك بعد هذا الوقت الطويل". ظهرت السخرية على وجهه العاجي.

"أجل يا أنطوان، كنتُ مشغولة جداً". هذا صحيح في حد ذاته، لكن المأكولات الكاربيية لن تكون أبداً طبقي اليومي المفضل.

"آه. أنتُ تجهدين نفسك في عملك كثيراً. لدي اليوم بعض أنواع السمك الشهية. إنها طازجة، بالكاد ماتت، وما تزال مياه المحيط تقطر منها. ستأكلينها

وستشعرين بأنك في حال أفضل. أحتفظ بطاولة رائعة لك. إنها الأفضل في هذا المكان، كما أن أصدقاءك موجودون هنا".

أصدقائي؟ ومن يكون غيره.

"تعالى. تعالى. تعالى".

امتلاً المطعم بما يزيد عن مئة شخص، وكلهم يتعرفون، ويأكلون تحت مظلات ملونة. تبعت أنطوان عبر متاهة من الطاولات، وصعدت معه إلى منصة مرتفعة تقع في زاوية بعيدة من المطعم. جلس رايان في ظلال ستائر معلقة أرجوانية اللون تدلت أمام نافذة زائفة، ظهر منها رسم لمغيب الشمس. دارت مروحة السقف ببطء فوقه. انشغل رايان بالتحدث إلى رجل يرتدي سترة رياضية من الكتان. تمكنت من معرفة الرجل، رغم أنه يدير ظهره إليّ، بفضل تسريحة شعره وتجعداته المألوفة لديّ.

هض رايان قليلاً عن كرسيه: "بريتان". نظر إليّ محذراً بعينه بعد أن لمح رد فعلي على وجود الرجل. أراد أن يقنعني بمساعدته.

"الملازم أول في التحري رايان". حسناً، من الأفضل أن يكون هذا الاجتماع مجدياً.

بقي كلوديل جالساً، لكنه أوماً.

جلست على الكرسي المجاور لرايان. ظهرت زوجة أنطوان، فتبادلنا وإياها التحيات المعتادة، وطلب بعدها رجلا التحري شراب الشعير، بينما طلبت زجاجة كوك للحمية.

"إذاً. ما هو الاختراق الذي تمكنت من تحقيقه؟" لا يستطيع أحد بمجاعة كلوديل في لهجته الساخرة مع الآخرين.

لعب رايان دور صانع السلام: "لماذا لا نطلب أطباقنا أولاً؟"

تبادلت مع رايان بعض الأفكار عن الطقس. اتفقنا على أنه دافئ. طلبت طبق السمك المميز عندما عادت جانين. بينما طلب رجلا التحري أطباقاً من جامايكا. بدأت أشعر بأنني دخيلة.

قال الوسيط رايان: "إذاً، ماذا لديك من جديد؟"

"المثرو".

"المترو؟"

"يضيق المترو أعداد المشتبه بهم إلى أربعة ملايين شخص، ومليونين إذا اعتبرنا الذكور فقط."

"دعها تتكلم يا لوك."

"ماذا بشأن المترو؟"

"سكنت فرانسيس موريسيت - شامبو على بُعد ست محطات توقف من محطة بيري - أوكام."

"بدأنا نحقق تقدماً الآن."

سدّد رايان باتجاهه نظرةً حادةً، وبقوة تكفي لقطع الزجاج.

"وينطبق الأمر ذاته بالنسبة إلى إيزابييل غاغنون ومارغريت أدكينز."
"همم."

لم يقل كلوديل شيئاً.

"أما تروتييه فسكنت بعيداً جداً عن المحطة."

"أجل، لكن داماس كانت قريبة جداً منها."

تقع شقة سان جاك على مسافة قريبة من المحطة.

تناولنا طعامنا بصمت لفترة من الوقت. كان السمك جافاً، أما الأرز والمقالي فكانت مشبعة بالدهون. يصعب أن تتألف كل هذه المكونات.

"قد يكون الأمر أكثر تعقيداً من مجرد محطات توقف المترو."

"أوه؟"

"وضعت فرانسيس موريسيت - شامبو وزوجها منزلهما في قائمة ري ماكس للمنازل المعروضة للبيع."

لم يعلق أحدهما بشيء.

"كانت هناك لافتة خارج البناية التي تسكن فيها مارغريت أدكينز،

وكانت لافتة ري ماكس."

انتظري الرجلان كي أكمل. لم أفعّل. فتحتُ حقيبتي الصغيرة وتناولتُ منها صورَ غاغنون، ثم نشرتها على الطاولة. تناول كلوديل شيئاً من الموز المقلّي

بشوكته.

أمسك رايان بصورة وتفحصها، ثم نظر نحوى متسائلاً. أعطيته عدسةً مكبرةً، وأشارتُ إلى شيءٍ تصعب رؤيته في أقصى يسار الصورة. تفحصها لوقتٍ طويلٍ، ثم وضع الصورة والعدسة المكبرة على سطح الطاولة من دون أن يقول شيئاً.

نظف كلوديل يديه، ورمى بالمنديل الورقي في صحنه. أمسك الصورة وكرّر ما فعله رايان. برزت عضلات فكّيه عندما تعرف إلى ذلك الشيء. حدّق وقتاً طويلاً بالصورة، لكنه لم يقل شيئاً.

سأل رايان: "هل تشير إلى شقة أحد الجيران؟"

"يبدو ذلك".

"ري ماكس؟"

"أعتقد هذا. يبدو هنا حرف R وقسماً من حرف E. يمكننا أن نكبّر هذه الصورة".

"أعتقد أنه من السهل أن نتبعها، ولا بد أن القائمة قد صدرت منذ أربعة أشهر. اللعنة، لا بد أنهما ما تزال صالحاً". انشغل رايان بتدوين الملاحظات.

"ماذا بشأن داماس؟"

"لا أعرف". لا أريد أن أزعج عائلة ضحيةٍ أخرى، لكنني لم أقل ذلك.

"وتروتييه؟"

"لا. سبق لي أن تحدثتُ مع والدة شانتال. لا تريد بيع منزلها، ولم تعرضه للبيع أبداً".

"قد يكون الوالد؟"

تطلعنا صوب كلوديل. كان ينظر إليّ، لكن صوته خلا هذه المرة من لهجة التنازل.

قال رايان: "ماذا؟"

"أمضت وقتاً كبيراً في منزل والدها. أيعقل أن يكون الوالد هو الذي يريد

البيع". هل بدأ كلوديل بالافتناع مثلنا؟

قلّب المزيد من أوراق الملاحظات: "سأتحقق من ذلك".

قلتُ: "كانت ذاهبة إلى هناك في اليوم الذي قُتل فيه".

"اعتادت أن تمكث عنده يومين في كل أسبوع". تغيّرت اللهجة من الازدراء إلى التعاون. هذا ما يسمى تقدماً.

"وأين يسكن؟"

"إنه يسكن في ويست هاونت. يمتلك الرجل منزلاً خاصاً به تقدّر قيمته بمليار دولار، في الجهة المقابلة من شيربروك".

حاولتُ أن أحدّد الموقع الذي يقع قرب منطقة وسط المدينة، وفي مكان لا يبعد كثيراً عن شقتي.

"هل يقع المنزل أعلى الفورم مباشرة؟"

"هذا صحيح".

"أي محطة مترو تقع قربه؟"

"لا بد أن تكون آت واطر التي تقع على مسافة قريبة من هناك".

نظر رايان إلى ساعته، ولوّح بيده كي يجذب انتباه جانين، ثم حرّك يده في الهواء وكأنه يوقّع. دفعنا ما يتوجب علينا، ثم أعطانا أنطوان قطع حلوى.

تناولتُ الخريطة ما إن وصلتُ إلى مكنتي، وحددتُ موقع محطة آت واطر عليها، ثم رحّتُ أعدّ محطات التوقف التي تفصلها عن محطة بيري - أوكام. محطة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس، ست. رنّ الهاتف في الوقت الذي عزمتم فيه على استخدامه.

28

بقي منزل روبرت تروتييه معروضاً ضمن قائمة المبيعات لمدة عام ونصف العام.

"أعتقد أن الأمور تجري ببطء في نطاق الأسعار هذا."

"لا أعرف يا رايان. لم أتوجه إلى هناك من قبل."

"رأيتُ إعلانات كهذه على شاشة التلفزيون."

"ري ماكس؟"

"أتعني الإعلانات؟"

"إنه يعتقد ذلك، ونحن نتفحص من جهتنا."

"هل اللافتة موجودة في الخارج؟"

"أجل."

سألتُ: "وماذا بشأن داماس؟"

عاشت داماس مع زوجها، وثلاثة أولاد، مع والديه. امتلك آل داماس

منزلهم منذ وقت طويل. قالوا إنهم يريدون تمضية حياتهم فيه.

فكرتُ في ذلك لبعض الوقت.

"بماذا تعمل غرايس داماس؟"

"رَبّت أولاداً. وحاكت المفارش لدار العبادة، كما أنها تنقّلت في وظائف

كثيرة بدوام جزئي. هل أنتِ مستعدة لسماع ما سأقوله تالياً؟ عملت ذات مرة في

ملحمة."

"رائع". من ذبح الجزّار إذا؟

"هل هو الزوج؟"

"إنه رجل أنيق، ويقود شاحنة". مرّت فترة صمت. "مثلما كان والده من قبله".

مرّت فترة صمت.

"أعتقد أنّ هذا يعني شيئاً".

"أتعنين المترو أم اللوائح؟"

"أحدهما".

"اللعنة، يا برينان، لا أعرف". مرّت فترة جديدة من الصمت. "أعطيني سيناريو".

جهدتُ كي أرسم هذا السيناريو.

"حسناً. يقرأ سان جاك إعلانات العقارات، يختار عنواناً. يمضي بعد ذلك في مراقبة المنزل إلى أن يشاهد ضحيته. يمضي الرجل في مراقبتها، ثم يقبع منتظراً ضحيته، وينصب مصيدته".

"وما هو دور المترو هنا؟"

فكرتُ يا برينان. "إنها لعبة مطاردة بالنسبة إليه، فهو يلعب دور الصياد الذي يبحث عن فريسة. اختار له محبباً في شارع بيرغور. ما إن تمر الضحية حتى يُبرز لها الإعلانات المربوبة، ويتبعها، ثم يتقدم نحو فريسته. يستخدم الرجل مناطق صيدٍ خاصة به".

"أي محطة التوقف السادسة".

"ألديك فكرة أفضل؟"

"لكن لماذا إعلانات العقارات؟"

"لماذا؟ لأنّها تقدّم أهدافاً سهلةً، مثل امرأة تقبع في منزلها وحدها. اعتقد الرجل أنّ الضحية تلازم المنزل الذي تريد بيعه، كي تُريه للشاري، أو لعله يتصل هاتفياً، وعلى أي حال فإنّ الإعلان سيعطيه إذناً بالدخول إلى بيوت ضحاياه".

"لكن لماذا وصل عدد الضحايا إلى ست؟"

"لا أعرف. يبدو الرجل مجنوناً".

يا للفكرة اللامعة يا برينان.

"لا بد أنه يعرف المدينة جيداً".

راح يفكر في ذلك.

"لعله عامل مترو؟"

"أم لعله سائق سيارة أجرة؟"

"أو لعله عامل مياه؟"

مرّت فترة من الصمت الذي يشوبه التوتر.

"برينان، أنا..."

"لا".

مرّت فترة صمت.

"وُجِدَت غاغنون في وسط المدينة سنتر فيل، أما داماس فوُجِدَت في سان لامبرت، بينما عُثِرَ على تروتييه في سان جيروم. كيف يستطيع صاحبنا فعل ذلك، إذا كان من الذين يستخدمون المترو كثيراً؟"

"لا أدري يا رايان، لكن معظم الاحتمالات تشير إلى الإعلانات ومحطات توقف المترو. فكّر في المخبأ الذي اختاره سان جاك، أو أي نذل آخر، وهو المكان الذي يقع في محطة بيروي - أو كام، وفي واقع جمعه للإعلانات الميوبة. يستأهل الأمر بعض المتابعة".

"أجل".

"لنبدأ بمجموعة سان جاك التي احتفظ بها".

"أجل".

خطرت فكرة أخرى في ذهني.

"ما رأيك لو نجمع بعض المعلومات عن حياته؟ لدينا بعض المعلومات التي نستطيع أن نبدأ بها".

"لكنها معلومات حديثة العهد كثيراً".

"ستساعدنا هذه المعلومات في مسعانا".

تمكنتُ من قراءة أفكاره عبر خط الهاتف.

"أستطيع إخفاء هذا الأمر عن كلوديل، وأن أتحرى بصورة غير رسمية، وهكذا أستطيع أن أكتشف ما إذا كنا سنحني فائدة من متابعة البحث. نمتلك مساح جرائم موريسيت - شامبو وآدكينز، كما نعرف طريقة القتل، وكيفية التخلص من الجثة بالنسبة للأخريات. أعتقد أنهم سيتمكنون من الاستفادة من هذه المعلومات".

"أتحدثين عن كوانتيكو؟"

"أجل".

أصدر رايان صوت استهجان: "لكنهم يتلقون دعماً يمكنهم من تأجيل الرد على مكالمتك حتى نهاية هذا القرن".
"أعرف شخصاً هناك".

"أنا متأكد من ذلك". تأوه. "لم لا، لكن ذلك يبقى مجرد استفهام عند هذا الحد. لا أريدك أن تفعلني أي شيء يلزمنا، لأن طلباً كهذا يتعين أن يأتي من كلوديل، أو مني".

وجدتُ نفسي بعد مرور دقيقة من الزمن وأنا أنقر أرقام مفتاح منطقة فيرجينيا. طلبتُ التحدث إلى جون صامويل دوبزانسكي. قالوا لي بعد قليل إن السيد دوبزانسكي ليس موجوداً، فتركتُ له رسالة.
حاولت الاتصال بباركر بايلي، فتلقيت رسالة من مساعدةٍ أخرى، فتركتُ رسالةً أخرى.

أردتُ معرفة المكان الذي ستتناول غايي غداها فيه. اتصلتُ بها فردّ عليّ صوتي أنا يطلب مني ترك رسالة.

اتصلتُ بكاتي. وتلقيتُ رداً بترك رسالة.

هل نسي الناس كيفية البقاء في مكان واحد؟

أمضيت بقية المساء في الردّ على الرسائل، وفي تقديم المشورة للطلاب، والاستماع إليهم. أردتُ التحدث إلى دوبزانسكي، كما أردتُ التحدث إلى بايلي. راحت ساعة ما تدق في رأسي. بدأ العد العكسي. كم سيمضي من الوقت قبل أن تسقط ضحية جديدة؟ يمستُ مع حلول الساعة الخامسة وتوجهتُ إلى المنزل.

وجدتُ أنّ الصمت المطبق يَحَيِّم على المنزل. لم يكن بيردي موجوداً، وكذلك كانت الحال مع غايي.

"غايي؟" هل تغط في النوم؟

وجدتُ باب غرفة الضيوف ما زال مغلقاً، وسرعان ما شاهدتُ بيردي نائماً في سريري.

رحتُ أمسّد رأسه: "لا بد أنكما متعبان. هووو. حان الوقت كي أنظّف طبقك". فاحت الرائحة القوية من طبقه.

"لدي الكثير من الأمور تشغل رأسي يا بيرد. أنا آسفة".

لم أتلقَ رداً.

"أين غايي؟"

تلقيتُ نظرةً شاردة تمدد الهر بعدها.

نظّفتُ طبق بيردي وملائته له، فأعرب عن امتنانه لي بأن شرع في استخدامه، لكن مخالبه تسببت بإهراق قسم من محتوياته على الأرض.

"هيا يا بيرد. حاول أن تتعلم إبقاء طعامك داخل الطبق. أعرف أنّ غايي ليست بالشريكة المثالية، لكن عليك أن تقوم بدورك". تطلعت إلى تلك الفوضى المؤلفة من مجموعة مستحضرات التنظيف والتجميل التي تخصها. "أعتقد أنّها لم تنظف سوى القليل".

تناولتُ علبة كوك للحمية، وارتديت سروالي القصير. لماذا لا أنوي أن أتناول الغداء في الخارج؟ أنا لا أمزح، سنخرج بالتأكيد.

ومضتُ الآلة المجيئة. وجدتُ رسالةً واحدة فقط. كانت رسالتي أنا عندما اتصلتُ عند حوالى الواحدة. ألم تسمع غايي رنين الهاتف؟ هل تجاهلته؟ أعلها أقتلته؟ لربما كانت مريضة، أو أنّها لم تكن هنا. توجهتُ نحو باب غرفتها.

"غاب؟"

طرقتُ الباب طرقاً خفيفةً.

"غايي؟"

طرقتُ الباب بقوة أكبر.

فتحتُ الباب وتطلّعتُ داخل الغرفة.

رأيتُ تلك الفوضى التي تميّز غايي في كل مكان. المجوهرات. الأوراق. الكتب. الثياب. شاهدتُ حمالة صدرٍ متدليةً خلف كرسي. تفحصتُ الخزانة. شاهدتُ الأحذية والصنادل مكومةً. لاحظتُ، وسط كل هذه الفوضى، أنّ أغطية السرير مرتبةٌ بالشكل الصحيح. صعقتني هذه المفاجأة.
"يا للسافلة!"

اختار بيردي المرور بين ساقَيّ.
"هل أمضت الليلة الماضية هنا أساساً؟"
تطلع الهر نحوي ثم قفز إلى السرير دار مرتين حوله ثم استقر. استلقيتُ قربه وما لبثت تلك الكتلة المعتادة أن ضغطت على بطني.
"هل فعلتُها مجدداً يا بيرد؟"
نشر مخالبه وبدأ يلحق.

"لم تكلف نفسها عناء كتابة رسالة قصيرة".
ركّز بيردي على الأمانة التي تفصل ما بين أصابع القدمين.
توجهتُ نحو غسّالة الأطباق كي أفرغها.
مرّت عشر دقائق قبل أن أهدأ بشكلٍ يمكّني من طلب رقمها. لا إجابة. لم أفاجأ بالطبع. حاولتُ الاتصال بالجامعة. لا جواب.

مشيتُ نحو المطبخ. فتحتُ الثلاجة. أغلقتها. ماذا بشأن طعام الغداء؟ فتحتُ الثلاجة مجدداً. تناولتُ علبة كوك للحمية. عدتُ كي أتحوّل في غرفة المعيشة. وضعتُ علبة الكوك الجديدة قرب العلبة التي جلبتها سابقاً، ثم شغلتُ جهاز التلفزيون وتقلتُ بين المحطات. اخترتُ مسرحيةً هزليةً مع علمي بأنني لن أشاهدها. تنقل عقلي بسرعة ما بين الجرائم وغايي، والجمجمة التي وُجدت في حديقتي، ليعود إلى الجرائم مجدداً. عجزتُ عن التركيز على موضوع معين. وقرّ التناغم القائم ما بين الحوار والضحكات المعبلة، خلفية الضحج المناسبة فيما كانت أفكارني مثل الجزئيات الذرية.

شعرت بالفضب تجاه غايي وبالاستياء لأنني سمحتُ لها باستغلالي. شعرتُ بأنني مجروحة لأنها ستفعل هذا بي، وبالخشية على سلامتها. خفتُ كذلك من ظهور ضحية جديدة، وشعرتُ بخيبة الأمل تجاه عجزني. أحسستُ بأنني مجروحة عاطفياً، لكنني لم أستطع التوقف عن لوم نفسي.

وقفتُ هناك لمدة طويلة عجزت عن تحديدها قبل أن ينطلق الهاتف بالرنين.
أطلق صوت الرنين هذا الأدرينالين في شراييني وحرّره من مكان تخزينه.

هل هي غايي؟

"مرحباً".

تناهى إلى مسامعي صوت رجل: "أريد التحدث مع قنب بورينان من فضلك".
كان الصوت مألوفاً جداً بالنسبة لي، أي كما هي ذكريات أيام طفولتي التي
قضيتها في الغرب الأوسط الأمريكي.

"جاي. أس! أنا مسرورة لسماع صوتك!"

كان المتصل جون صامويل دوبرانسكي. إنه حيّ الأول. عدتُ إلى أيام
كامب نورث وودس. استمر غرامنا طيلة ذلك الصيف، والصيف التالي، وظل
منتعشاً حتى سنتنا الجامعية الأولى في الكلية. توجهتُ جنوباً، بينما توجه جاي.
أس. شمالاً. اخترتُ أن أتخصص في مادة الأنثروبولوجيا. تعرفتُ إلى بيتي في
تلك الفترة. أما هو فتخصص في علم النفس، وتزوج ثم طلق. فعل هذا مرتين.
اجتمعنا بعد أعوام عديدة في الأكاديمية. تخصص جاي. أس بعد ذلك في
الجرائم الجنسية.

سأل: "هل يملكك إحساس كامب نورث وودس؟"

"إنه مملأ رأسي؟" أكملتُ ذلك الشطر من أغنية المخيم. ضحكنا سوياً.

"لم أكن متأكداً من أنك تريدني أن أتصل بك في المنزل، لكنك تركتِ
الرقم وتصورتُ أنني أستطيع المحاولة".

"أنا مسرورة لأنك اتصلت. شكراً لك. شكراً لك. شكراً لك." "أود

استشارتكِ بقضية نواجهها هنا. هل أستطيع أن أطلب هذه الخدمة منك؟"

تظاهر أنه شعر بالإهانة: "متى ستوقفين عن إثارة خيبة أمني فيك؟"

اعتدنا على تناول الطعام أثناء اجتماع الأكاديمية، وحيّمت علينا إمكانية
التقارب بيننا في البداية. هل يجدر بنا العبث بذكريات أعوام مراهقتنا؟ هل ما
زلنا نحمل معنا بقية من العواطف؟ لم نلتفط بأي كلمة في هذا الاتجاه، فأخذت
هذه الفكرة بالتلاشي عندنا شيئاً فشيئاً. أعتقد أنه من الأفضل أن نترك الماضي
كما هو.

"ماذا حدث مع علاقتك العاطفية الجديدة التي أخبرني عنها العام الماضي؟"
"لقد انتهت".

"آسفة يا جون صامويل، لدينا هنا بعض الجرائم التي نظن أنها مترابطة. هل تستطيع أن تعطيني رأياً حول إمكانية وجود قاتل تسلسلي، إذا ما أعطيتك خلاصة عن هذه الجرائم؟"

أسمعي عبارة اعتدنا تبادلها في الماضي: "أستطيع إعطاء رأيي في أي شيء".
وصفتُ له جريمتي آدكينز وموريسيت - شامبو، ولخصتُ له الأشياء التي حدثت للضحايا. وصفتُ له كيفية اكتشاف بقية الجثث، والأمكنة التي وُجدت فيها، وكذلك التشويهاات التي تعرضت لها. أضفتُ بعد ذلك نظرياتي الخاصة عن المترو، وإعلانات الصحف.

"أواجه صعوبة كبيرة في إقناع رجال الشرطة بوجود ترابط بين هذه القضايا. يقولون إنه لا وجود لنمط محدد، وأعتقد أنهم محقون إلى حد ما. تختلف حالة كل ضحية من الضحايا، فإحدهن تعرضت لطلق ناري، بينما الآخريات لم يتعرضن لإطلاق نار. سكنت الضحايا في أماكن متفرقة. لا تبدو الأمور مترابطة مع بعضها".

"واو. واو. رويدك قليلاً، لأنك تخطئين في النظرة إلى هذا الأمر. بدايةً، إنَّ معظم ما وصفته لي يتعلق بطريقة ارتكاب الجرائم".
"أجل".

"لا تسعي فهمي. إنَّ التشابه في طريقة ارتكاب الجرائم قد يكون مفيداً، لكن الاختلافات شائعة جداً. يستطيع المجرم أن يقيّد ضحيته ويشد وثاقها، ويفعل ذلك بواسطة سلك الهاتف في إحدى المرات، ثم يعتمد إلى إحضار حبله في المرة التالية. ويستطيع أن يطعن إحدى الضحايا ويجرحها، ثم يُطلق الرصاص على ضحيته التالية أو يخنقها. أو أنه يُقدم على السرقة من إحدى ضحاياه، ولا يفعل ذلك مع ضحية أخرى. أعطيتك لمحة عن أحد الرجال الذي استخدم نوعاً مختلفاً من السلاح مع كل ضحية. ألا زلتِ معي؟"
"أجل".

"إنَّ طريقة ارتكاب الجريمة عند أحد المجرمين ليست ثابتة. إنها تشبه أي أمرٍ آخر في وجود قوسٍ يتغيّر مع اكتسابه للخبرة. يتحسن أداء هؤلاء الرجال مع التدريب على ارتكاب المزيد من الجرائم. إنهم يتعلمون الأشياء التي تنجح معهم، وتلك التي لا تنجح، كما إنهم يحسّنون تقنياتهم أيضاً. يحدث هذا الأمر مع بعض هؤلاء أكثر من بعضهم الآخر بالطبع."

"يا للتحليل السليم!"

"توجد الكثير من الأحداث العشوائية التي تؤثر على ما يفعله هؤلاء المجرمون، وذلك بغض النظر عن الخطط التي يكونوا قد وضعوها بعناية. يُحتمل أن يرنّ الهاتف، أو أن يظهر أحد الجيران، أو لعل أحد الحبال ينقطع. يتعيّن على المجرم أن يربّط الحلول لهذه المفاجآت."

"فهمت."

"لا تسيئي فهمي. إنَّ أنماط ارتكاب الجرائم قد تكون مفيدة، ونستطيع الاستفادة منها في التحقيقات. إنَّ التنوع في طريقة ارتكاب الجرائم قد لا يعني الشيء الكثير."

"وأنت، ماذا تستخدم؟"

"إنني أستخدم النمط المحدد."

"النمط المحدد؟"

"يُطلق عليه بعض زملائي اسم التوقيع، أو بطاقة الزيارة، ولا تلاحظ إلا في بعض الجرائم. يطرّوّر معظم المجرمين طريقتهم الخاصة في ارتكاب الجرائم لأن إحدى خططهم قد نجحت مرات عديدة، لذلك فهم يرتاحون إليها، ثم يؤمنون أنها تقلّص من فرص القبض عليهم. يختلف الأمر مع بعض المجرمين الشرسين. يقود الغضب هؤلاء الأشخاص ويتركونه يصور لهم خيالات منوعة، ثم يلجؤون أخيراً إلى تنفيذ هذه الخيالات. لا يكتفي هؤلاء بالعنف، لكنهم يخترعون طقوساً من أجل التعبير عن الغضب. تؤدي هذه الطقوس إلى القبض عليهم أحياناً."

"أي نوع من الطقوس، أو الشعائر، التي تتحدث عنها؟"

"تشتمل هذه الطقوس أحياناً على التحكم بالضحية، أو حتى إذلالها. أترين، ليست الضحية بحدّ ذاتها هي المهم في الأمر، فقد لا يحمل العمر، أو المظهر، أي

أهمية. المهم هنا هو التعبير عن الغضب. مرّ معي رجلٌ تراوحت أعمار ضحاياه ما بين السابعة والواحد والثمانين".

"إذاً ما هي الأمور التي تبحث عنها؟"

"إنني أبحث عن كيفية مواجهته لضحيته. هل يهاجمها؟ هل يستخدم طريقة الإيذاء اللفظي؟ وكيف يسيطر على ضحيته فور لقائه بها؟ هل يؤذيها في حميميتها الأنوثية؟ وهل يفعل ذلك قبل أن يقدم على قتلها، أو بعد ذلك؟ هل يعذب ضحيته؟ وهل يقدم على تشويه جثتها؟ هل يترك شيئاً في مسرح الجريمة؟ أو هل يأخذ معه شيئاً؟"

"لكن ألا تؤثر بعض الأمور الطارئة وغير المتوقعة على هذه العوامل؟"

"إنها تؤثر بالطبع، لكن الأمر الهام هنا هو أنه يُنفذ هذه الأمور بصفتها جزءاً من تنفيذ خيالاته، أي أنها الطقوس التي يبدّد غضبه بها، ولا يقوم بها فقط من أجل حمايته".

"إذاً، ماذا تظن؟ هل ما وصفته لك يمثل توقعياً (تصرفات مميزة)؟"

"سأقول لك، لكن بشرط أن لا تعتري ما أقوله كلاماً رسمياً".

"بالطبع".

"نعم، بالطبع".

بدأتُ بتدوين الملاحظات: "حقاً؟"

"أراهن بكل شيء".

"قل، وبكل صراحة يا جاي أس. أعتقد أنّ الفاعل هو أحد الساديين

المهوسين جنسياً؟"

سمعت خشخشةً عندما غيّر من وضعية سماعة الهاتف: "يتأثر بعض الساديين

المهوسين جنسياً بالألم الذي تبديه الضحية، لأنهم لا يكتفون بالقتل، بل يريدون

تعذيب ضحاياهم. إنهم يشعرون بالإثارة الجنسية نتيجة لهذا الألم".

"ثم ماذا؟"

"يوحى النمط الذي تحدثت عنه بالإيجاب. يشيع إدخال أدوات في المهبل، أو

في المستقيم، بين هؤلاء الرجال. هل كانت ضحاياك على قيد الحياة عند حدوث

هذا الأمر؟"

"ضحية واحدة على الأقل كانت حية. يصعب أن أقرر ذلك بالنسبة لضحيتين أحرين بسبب تحلل جثتيهما".

"تبدو لي السادية الجنسية احتمالاً وارداً. يبقى السؤال الفعلي حول ما إذا كان القاتل يشعر بالإثارة الجنسية نتيجة أفعاله".

لم أستطع الإجابة عن هذا السؤال. "لكننا لم نعر على أي سائل منوي في أي ضحية".

"يبدو هذا الأمر هاماً، لكن ذلك لا يُلغي احتمال السادية الجنسية. مرّ معي رجل اعتاد الاستمناة في يد ضحيته التي يعمد إلى قطعها بعد ذلك، ثم يطحنها في الخلاط. لم تُكتشف أي حيوانات منوية في مساح جرائم مثل هذه".

"كيف أقيّم القبض عليه؟"

"لم ينجح في تحقيق هدفه في إحدى المرات".

"تعرضت عندنا ثلاث نساء للتشويه. إننا متأكدون من هذه المعلومات".
"لعل ذلك يشكّل نمطاً، لكنه لا يشكّل برهاناً على وجود السادية الجنسية، إلا إذا حدثت قبل موت الضحية. يتميز القتل التسلسليّون، سواء أكانوا ساديين أم لا، بالخداع الشديد. إنهم يخططون بعناية شديدة لجرائمهم. إن التشويه الذي يحدث بعد الوفاة لا يعنى بالضرورة وجود دافع جنسيّ، أو ساديّ. يعمد بعضهم إلى تقطيع الجثة كي يسهل إخفاؤها".

"وماذا بشأن التشويه؟ واليدين؟"

"إنها الحالة ذاتها، والنمط ذاته، ونوع من أنواع الإفراط في القتل، لكنه قد يكون بدافع جنسيّ، وقد لا يكون. يكون ذلك أحياناً بدافع جعل الضحية عاجزة. إنني ألاحظ بعض المؤشرات مع ذلك. تقولين إن القتلة لم يكونوا يعرفون ضحاياهنّ، اللواتي تعرضن للضرب بقسوة. عانت ثلاث من الضحايا من إدخال أدوات في أجسادهن، ولعل ذلك قد حدث قبل حصول الوفاة. إن هذه المصادفة مهمة جداً".
رحتُ أكتب بشغف.

"تحققي مما إذا كانت تلك الأدوات قد أُحضرت إلى مسرح الجريمة، أم أنها كانت هناك سلفاً. يُحتمل أن يكون ذلك جزءاً من توقيع هذا الرجل، مقابل القسوة الانتهازية".

دوّنتُ هذه الملاحظة ووضعتُ إشارةً عليها.

"هل هناك بعض المميزات الأخرى للسادية الجنسية؟"

"هناك نمط تنفيذ الجريمة، استخدام ذريعة لتحقيق اللقاء مع الضحية، والحاجة إلى التحكم بالضحية وإذلالها، بالإضافة إلى القسوة المفرطة، والإثارة الناتجة عن خوف الضحية وألمها، وكذلك الاحتفاظ بتذكريات من الضحية. إن..."

"ما هي آخر ميزةٍ ذكرتها؟" كنت أكتب بسرعة كبيرة بحيث إنّ يدي تشنجت.
"تذكريات".

"أي نوعٍ من التذكريات؟"

"أتحدّث عن أشياء من مسرح الجريمة، وبعض الأجزاء من ثياب الضحية، أو مجوهراتها، أو أشياء من هذا القبيل".

"هل تتضمن هذه قصاصات الصحف؟"

"يحب ساديو الجنس صحافتهم الخاصة".

"وهل يعمدون إلى تدوين السجلات؟"

"إنهم يحتفظون بالخرائط، واليوميات، والروزنامات، والرسومات، إلى ما هنالك. يستخدم بعضهم أشرطة التسجيل. إنهم لا يعتبرون أنّ القتل بحمدّ ذاته هو حلمهم. إنّ المطاردة قبل الإمساك بالضحية وما يحدث بعد تنفيذ الجريمة يُمكن أن يكونا جزءاً مهماً من الإثارة".

"إذا كانوا ماهرين في تجنب إلقاء القبض عليهم، فلماذا يحتفظون بتلك

الأشياء؟ ألا يشكل ذلك مخاطرة بالنسبة إليهم؟"

"يعتقد معظم المجرمين أنهم يتفوقون على رجال الشرطة، أي أنهم أذكى من أن يُلقى القبض عليهم".

"ماذا بشأن أجزاء الجثة المقطعة؟"

"وماذا بشأن أجزاء الجثة المقطعة؟"

"وهل يحتفظون بها؟"

مرّت فترة صمت. "لا يشيع الأمر كثيراً، لكنه يحدث أحياناً".

"إذاً ما رأيك بالمترو، والإعلانات المبوبة؟"

"تكون التخيلات التي ينفذها هؤلاء الرجال مليئة بالتفاصيل في بعض الأحيان، ومحددة جداً. يحتاج بعضهم إلى أمكنة معينة، وتسلسل معين للأحداث. يتطلع بعض الساديين الجنسيين إلى ردود فعل معينة من جانب الضحايا، وهكذا فهم يعمدون إلى تسجيل العملية بكاملها، ثم يُجبرون الضحية على قول أمور معينة، والقيام بأفعال محددة، وارتداء ملابس خاصة. تعرفين يا تمب إن هذه التصرفات ليست محصورة بالساديين الجنسيين. إنها تميز الكثير من الذين يعانون من اضطرابات شخصية. لا تحشري نفسك في زاوية الساديين الجنسيين. ينبغي عليك أن تبحتي عن التوقيع، وبطاقة الزيارة تلك التي تركها ذلك القاتل بالتحديد. إنها الطريقة التي تمسك به بما بغض النظر عن كيفية تصنيف علماء النفس له. إن استخدام المترو وإعلانات الصحف قد يكون من ضمن خيالات ذلك الرجل".

"وما هو رأيك يا جاي أس، انطلقاً مما أخبرتك إياه؟"

مرت فترة صمت طويلة سمعت بعدها صوت زفير.

"أعتقد أنك تواجهين أمراً قديراً للغاية يا تمب: الغضب الشديد والعنف المتطرف. إن كانت هذه هي شخصية سان جاك فإن استخدامه لبطاقات ضحاياه المصرفية يقلقني. إما أن يكون الرجل شديد الغباء، والأمر لا يبدو كذلك بالنسبة لي، وإما أنه أصبح شديد الإهمال لسبب ما. يُحتمل أنه تعرّض لضغوط مالية، أو أنه أصبح أكثر وقاحة. إن الجمجمة التي وجدت في حديقتك هي مؤشر، وأعتقد أنه يبعث برسالة، أو أنها طريقة للتأنيب. يُحتمل أيضاً أنه يرغب في إلقاء القبض عليه في مرحلة معينة. لم يعجبني ما قلته لي بشأن استهدافك في القضية، ويبدو لي أنك مستهدفة بالفعل بسبب وجود الصورة، والجمجمة. أعتقد، استناداً إلى ما قلته لي، أنه يعاقبك".

أخبرته عن الليلة التي قضيتها في الموناستير، والسيارة التي لاحقتني.

"أستحلفك بالله يا تمب ألا تعبثي مع هذا المجرم إذا عاد للتركيز عليك. إنه رجل خطرٌ للغاية!"

"جاي أس. إذا كان المجرم هو الرجل نفسه الذي كان في أرض الموناستير،

فلماذا لم يقتلني في ذلك الوقت؟"

"تذكري ما قلته لك من قبل. يُحتمل أنه فوجئ بوجودك هناك، لذلك لم يكن جاهزاً كي يقتلك بالطريقة التي يخبها. لم يكن الرجل في وضع تحكم، ولعله لم يكن يحمل معه أدواته التي تعود عليها. أو ربما لأن غيابك عن الوعي حرّمه من اللذة التي يشعر بها عندما يرى الخوف في عينيّ ضحيته".
"أي أنه لم يكن يستطيع أن يرى شعائر الموت".
"بالضبط".

تحدثنا لفترة، وتكلمنا عن أمكنة أخرى، وعن الأصدقاء القدامى، وعن الأوقات ما قبل احتلال الجريمة جزءاً من حياتنا. أهينا الاتصال بعد الثامنة بقليل.

استرخيتُ في مقعدي، وبسطتُ ذراعيّ وساقيّ، لكنني شعرتُ بالإرهاق. استلقيتُ في مكاني لبعض الوقت. شعرتُ أنني دميةٌ تتذكر ماضيها. تمكّن مني الجوع أخيراً فحملني على النهوض. توجهتُ إلى المطبخ، حيث قمتُ بتسخين صينية من اللزانيا وأجبرتُ نفسي على تناولها. أمضيتُ ساعةً من الوقت بعد ذلك في إعادة تجميع الملاحظات التي حصلتُ عليها من جاي أس. ظلت كلماته الأخيرة تتردد في ذهني.

"أخذت الفترات الزمنية تتقاصر".

أجل. عرفتُ هذا.

"إنه يرفع سقف الرهانات".

عرفتُ ذلك أيضاً.

"لعله وضعك نصب عينيه".

أويتُ إلى فراشي عند العاشرة. جلستُ في الظلمة وحدقتُ في السقف. شعرتُ أنني وحيدة، وأحسستُ بالتحسّر على نفسي. لماذا ألقى على نفسي تبعة موت الفتيات؟ هل يضعني أحدهم في بؤرة تركيز خيالاته المثيرة؟ لماذا لا يأخذ أحدٌ كلامي على محمل الجد؟ لماذا أتقدم في السن وأكتفي بتناول المأكولات الجمدة أمام برامج تلفزيونية لا أشاهدها بالفعل؟ عندما دسّ بيردي نفسه عند ركبتيّ شعرتُ بأن هذا الاحتكاك البسيط قد أطلق الدموع التي حبستها منذ حديثي مع جاي أس. انهمرت دموعي على الوسادة التي اشتريتها

عندما كنتُ مع بيتي في شارلوت، أو بالأحرى التي اشتريتها بنفسني بينما وقف جانباً بصبر نافد.

لماذا فسّل زواجي؟ لماذا أنام وحدي؟ ولماذا تبدو كاتي غير راضية؟ ولماذا تهملني أفضل صديقاتي مجدداً؟ أين هي يا ترى؟ لا. لن أفكر في هذا الاحتمال. لا أعرف كم لبثتُ على هذه الحال، وأنا أشعر بالفراغ الذي يملأ حياتي، قبل أن أسمع صوت مفتاح غايي.

29

اتصلتُ برايان في الصباح التالي ولخصتُ له محادثتي مع جاي أس. مرّ أسبوع، ولم يحدث خلاله شيء.

استمر الطقس حاراً، وعملتُ فحاراً على إجراء الاختبارات على العظام. تبين لي أنّ بقايا العظام التي وُجدت في خزانٍ وسخٍ في كانكون إنما تعود إلى سائحٍ فقد منذ تسعة أعوام. وتبين لي أيضاً أنّ العظام التي نبشتها الكلاب تعود إلى فتاة في عمر المراهقة قُتلت بواسطة آلة حادة. واستنتجتُ أنّ الجثة التي وُجدت في صندوقٍ مقطوعة السيدين، إنما تعود إلى ذكرٍ أبيض، وقدّرتُ عمر العظام ما بين خمسٍ وثلاثين وأربعين عاماً.

ترددتُ على مهرجانات الجاز في الليالي التالية، واختلطتُ بمشود الناس التي ملأت شارعِي سانت كاثرين وجان مانس. استمعتُ إلى فنانين من البيرو وإلى موسيقيهم التي تُعتبر مزيجاً من آلات النفخ، وموسيقى الغابات المطرية. تنقلتُ ما بين قصر الفنون ومجمع المدارس. استمعتُ بأصوات الساكسوفون، وآلات الغيتار، والليالي الصيفية. تحولتُ ما بين ديكسي لاند، وفيوجن، وآر آند بي، وكاليسو. صمّمتُ على عدم البحث عن غايي، ورفضتُ أن أشغل تفكيري بالنساء الضحايا. أصغيتُ إلى موسيقى السنغال، وكايب فيردى، وريو، ونيويورك. نجحتُ في نسيان الضحايا الخمس، وإن لفترة محددة.

جاءني اتصال يوم الخميس. كان من لامانش. قال لي إنّ اجتماعاً سيعقد يوم الثلاثاء. وأضاف أنه اجتماعٌ مهم، وطلب مني أن أحضره.

وصلتُ من دون أن أعرف ماذا ينتظرنِي، ولم أتوقع وجود الأشخاص الذين أَلقيتُ التحية عليهم. وجدتُ رايان، وبرتوان، وكلوديل، وشاربونيو، ورجلي تَحَرُّ من سان لامبرت، جالسِين قرب لامانش. أما مدير المختبرات، ويدي ستيفان باتينيُو، فجلس في الناحية البعيدة من الطاولة، وإلى يمينه جلس المدعي العام.

هُضوا جميعاً عندما وصلت، وهو الأمر الذي زاد من مستويات القلق الذي أشعر به. صافحتُ باتينيُو والمدعي العام. واكتفى الآخرون بإيماءاتهم، وبدت وجوههم خالية من أي تعابير. حاولتُ أن أفهم ما توحى به عينا رايان، لكنَّ عيوننا لم تلتق. جلستُ على الكرسي الوحيد الذي كان خالياً. أمسكتُ بالكرسي، فأحسستُ أنَّ راحتيَّ يديَّ مليئتان بالعرق، وسيطرت على كياي تلك العقدة المعهودة. هل عُقد الاجتماع من أجل بحث أمور تتعلق بي؟ وهل خصَّص الاجتماع، تحديداً، من أجل مناقشة الاتهامات التي وجهها كلوديل إليَّ؟

لم يَضِيع باتينيُو الوقت. قال لي إنه تم تأليف لجنة مهمتها النظر باحتمال وجود قاتلٍ تسلسليٍّ من كل النواحي، وسيتم بحث كل القضايا التي يُشبه فيها، كما سيتم التحقق من كل دليل. قال إنه سيتم استدعاء كل الأشخاص الذين عُرف عنهم القيام بإساءات جنسية كي يُحقَّق معهم. أضاف إن ستة من رجال التحري سوف يعملون بدوام كامل، وسيقوم رايان بالتنسيق في ما بينهم. قال أيضاً إنه يتعين عليَّ متابعة عمليَّ كالمعتاد، لكن يبقى عليَّ العمل بصفتي عضواً غير رسمي في الفريق. علمتُ أنَّ غرفة قد جهَّزت في الطابق السفلي، وستوضع فيها كل الملفات، والمواد المتعلقة بالقضية. سيتم تفحص سبع قضايا، وستعقد اللجنة اجتماعها الأول هذا المساء، كما أنَّ المسيو غافرو، ومكتب المدعي العام، سيبقيان على اطلاع بكل تقدم يتم إحرازه.

سارت الأمور هكذا، وبكل بساطة. عدتُ إلى مكنتي وأنا أشعر بالذهول أكثر مما أشعر بالارتياح. لماذا؟ ومن هو الذي دفع الأمور في هذا الاتجاه؟ جادلتُ كثيراً دفاعاً عن نظرية القاتل التسلسلي، ولمدة شهر تقريباً. ماذا حدث حتى اكتسبت هذه النظرية مصداقية؟ هل تحدث المجتمعون عن سبع قضايا؟ ما هي طبيعة القضيتين الأخيرين يا ترى؟

لماذا السؤال يا بربنان؟ ستجدين الجواب عما قريب.

وهذا ما حصل بالفعل. دخلتُ غرفةً كبيرةً تقع في الطابق الثاني عند الساعة السواحدة والنصف. شكّلت أربع طاولاتٍ جزيريةً في وسط الغرفة. اصطففت ألواح إعلّامٍ، مع ألواح الطباشير التابعة لها، على جوانب الجدران. تجمّع رجال التحري في آخر الغرفة، وبدا منظرهم وكأنهم مشترون أمام كشكٍ في معرضٍ تجاريٍّ. وقف الرجال أمام لوحة تحمل خرائط مونتريال والمترو المعتادة، وبرزت رؤوس الدبابيس الملونة من كل واحدة منها. ظهرت سبع لوحات إضافية، وبرز اسم امرأةٍ صورتها فوق كل لوحة. بدت خمسة أسماء مألوفةٍ لدي مثل أسماء أفراد عائلتي، أما الاسمان الباقيان فلا أعرفهما.

خصّني كلوديل بنصف لحظة من لقاء عيوننا، وألقى الآخرون التحية عليّ بكل مودة. تبادلنا التعليقات حول الطقس، ثم تقدمتُ نحو الطاولة. تناول رايان الأوراق الرسمية من رزمة في وسط الطاولة، ثم بدأ بالحديث مباشرة.

"نعرف جميعاً سبب وجودنا هنا، كما يعرف جميعكم كيفية القيام بمهماتكم. أريد التأكيد من بضعة أمور في هذه المرحلة".

نقل نظره من وجه إلى وجه، ثم أشار إلى رزمة من الملفات.

"أريد من كل واحد منكم أن يدرس هذه الملفات. تفحصوا كل ملف بعناية، واستوعبوا كل تفاصيل هذه الملفات. شرعنا في نقل المعلومات على جهاز الكمبيوتر، لكنها عملية بطيئة. سوف نستخدم الطريقة القديمة في الوقت الحاضر. وإذا وجدتم أي معلومات مهمة عن أي ضحية من الضحايا فاكتبوها على اللوحة العائدة لها".

أوماً الجميع.

"لدينا تقرير مطبوع ومحدث عن ذلك الاستعراض المنحرف الذي سيقام اليوم. قسّموا هذا التقرير، وتبعوا هؤلاء الشبان، وجربوا أن تعرفوا أين كانوا يعربدون".

قال شاربونيو: "عادة ما يفعلون ذلك وهم يرتدون سراويلهم القصيرة".

"يجوز أن يكون أحدهم قد تعدى حدوده".

نظر رايان إلى كل واحد منا بدوره.

"من المهم جداً أن نعمل كفريق واحد، وليس كأفراد منفصلين، أو أبطال. تحدثوا، وتبادلوا المعلومات، وتقاذفوا الأفكار في وجوه بعضكم بعضاً. هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكننا من القبض على ذلك النذل".

قال كلوديل: "هذا إذا كان هناك من وجود لذلك النذل".

"سنقوم بتنظيف المنطقة إذا لم يكن له من وجود، وستلقي القبض على حفنة من الأندال. لن نخسر شيئاً على أي حال".

زَمَّ كلوديل زاويتي فمه ورسم سلسلة من الخطوط القصيرة والسريعة على لوحته.

تابع رايمان حديثه: "من المهم أيضاً أن نهتم بالترتيبات الأمنية. لا أريد أن تحصل أي تسريبات".

قال شاربونيو: "هل سيقوم باتينيو بالإعلان عن مجموعتنا المدنية الصغيرة هذه؟"

"كلا. سنعمل بطريقة سرية نوعاً ما".

قال شاربونيو: "إذا عرف الناس بوجود القاتل التسلسلي فسيصابون بالهلع، وأنا مندهش لأنهم لم يشعروا هكذا من قبل".

"يبدو أن الصحافة لم تلاحظ الرابط ما بين هذه الجرائم، لكن لا تسألوني لماذا. يريد باتينيو أن يُبقي الأمر هكذا في الوقت الحاضر، لكن الأمور قد تتغير لاحقاً".

قال بورتواند: "تمتلك الصحافة ذاكرة مماثلة لذاكرة بعوضة".

"كلا. إنني أعني معدل الذكاء".

"لم يتمكن رجال الصحافة من تجاوز ذلك المعدل".

"حسناً. حسناً. دعونا نبدأ إذا بالمعلومات التي نمتلكها".

لخص رايمان كل قضية من القضايا. أصغيتُ بصمت وأنا أسمع أفكاره، وحتى كلماتي، تملأ المكان وتأخذ مكانها في الأوراق القانونية. حسناً، كانت هناك بعض أفكار دوبرانسكي التي قمتُ بنقلها.

ترددت كلمات مثل تشويه، وإدخال أدوات في الأعضاء التناسلية، وإعلانات العقارات في الصحف، ومحطات توقف المترو. تبين أن أحدهم كان يستمع، وأكثر

من ذلك، أحدهم كان يدقق. تبين لنا أيضاً أن الملحمة التي عملت فيها غوايس داماس ذات مرة كانت قريبة من سان لوران، أي أنها تقع بالقرب من شقة سان جاك، وقريبة جداً من محطة مترو بيري - أوكام. قمنا بتعيين مكانها على اللوحة فجاءت متطابقة. جاءت في الترتيب الرابع من أصل خمسة، وهي التي رجّحت كفة الميزان، بالإضافة إلى جاي أس.

نجح رايمان في إقناع باتينيو كي يقدم طلباً رسمياً إلى كوانتيكو، كما وافق جاي أس على إعطاء قضايا مونتريال أولوية قصوى. تلقى الرجل سبلاً من رسائل الفاكس زوّدتته بما يحتاجه، كما حصل باتينيو على ملخص سيرة عن الضحايا بعد ثلاثة أيام. أدى كل هذا النشاط إلى تحريك الأمور، لأن باتينيو قرر التحرك. بدأنا، هكذا، بعملنا كفريق.

شعرتُ بالارتياح، لكنني شعرتُ بالإهانة في نفس الوقت. استفاد هؤلاء الرجال من الجهود الذي قمت به، وتركوني كي أتابع جهدي هذا. خشيتُ عند انضمامي إلى هذا الاجتماع أن ألقى لوماً شخصياً، لكنني لم أتوقع أبداً هذا الاعتراف الضمني بالجهود المضني الذي بذلته. بذلتُ جهدي، مع ذلك، كي يتصف صوتي بالثبات من أجل إخفاء غضبي.

"إذاً، ما هي الأمور التي طلبت منا كوانتيكو أن نبحث عنها؟"
تناول رايمان مغلفاً ربيعاً من رزمة المغلفات، وفتحته ثم بدأ بالقراءة.
"ذكر. أبيض. ناطق بالفرنسية. يُحتمل أنه لم يتابع دراسته بعد المستوى الثانوي، كما يُحتمل ارتكابه بعض المخالفات الجنسية..."

قال برتران: "ماذا تعني بالمخالفات؟"
"إنها ممارسات غير مشروعة، مثل التلصّص، والمكالمات الهاتفية البديقة، أو الظهور بمظهر خليع."

قال كلوديل: "يا للألفاظ اللطيفة!"

ردّ برتران: "إنه شبه رجل."

أبدى كلوديل وشاربونيو استهجانهما.

قال كلوديل: "اللعنة!"

علّق شاربونيو: "إنه رجلي الذي أبحث عنه."

قال كيتلينغ، سان لامبرت: "من هو ذلك الرجل المزيف بحق الجحيم؟"
"إنه تلك الدودة الصغيرة، يتسلل إلى الشقق كي يسرق ثياب نوم إحدى السيدات، ويمزقها بعد ذلك. زاول الرجل هذه الممارسات لمدة خمسة أعوام".
انتقى رايان تلك العبارات من التقرير.

"إنه يخطط بعناية، ولعله يستخدم الخدع كي يقترب من ضحيته. ولربما يقترب من ضحيته من زاوية العقارات، ويُحتمل أنه متزوج..."

قال روسو، سان لامبرت: "وما هي دوافعه؟"
"إنه من النوع المتربص، لأنه لا يستطيع جلب الضحايا إلى المنزل حيث توجد الزوجة"

علق كلوديل: "أو الوالدة".

عاد رايان ليقرأ من التقرير.

"لعله يختار مكاناً منعزلاً ويجهزه مقدماً".

قال كيتلينغ، سان لامبرت: "أتعني طابقاً سفلياً؟"
قال شاربونيو: "اللجنة! أقدم جيلبير على رش ذلك المكان بمادة اللومينول.
كان المكان سيشتعل مثل تومورولاند (أرض الغد) لو أريقتم دماء هناك".
جاء في التقرير أيضاً: "يوحى العنف والقسوة المفرطان بوجود غضب شديد. يُحتمل وجود اتجاه نحو الانتقام. يُحتمل أيضاً وجود تخيلات سادية تشتمل على السيطرة، والإذلال، وإنزال الألم في الضحية، أو الاختباء وراء غطاء ديني".

قال روسو: "وكيف هذا؟"

"يوحى بذلك التمثال الصغير، والتخلص من الجثث. وُجدت تروتييه في مدرسة خصوصية للبنات، وكذلك الحال مع داماس".

لم يتفوه أحد بأي كلمة في اللحظات القليلة التالية، لكن ساعة الحائط بقيت تصدر طنينها الخافت. سمعنا أصوات كعيين عالين تقترب من غرفتنا. راح كلوديل يخط بقلمه خطوطاً قصيرةً تنم عن التوتر.

قال كلوديل: "محمتمل... ممكن".

أزعجتني إصراره على مقاومة نظرية القاتل الواحد.

قلت بسرعة: "من الممكن، والمحتمل أيضاً، أن تظهر أمامنا جريمة جديدة قريباً".

ظهر القناع القاسي المعتاد على وجه كلوديل، لكنه استمر بالتركيز على الورقة أمامه. توترت الخطوط الظاهرة على خديّه، لكنه لم يقل شيئاً. علت بعض الأصوات في الغرفة.

سألتُ بهدوء زائد: "هل يمتلك الدكتور دوجانسكي توقعات على المدى الطويل؟"

"إنَّ توقعاته تقتصر على المدى القصير". قال رايان وقد ظهرت علامات التحمُّم على محيَّاه، وقبل أن يعود إلى قراءة ملخصات سير حياة الضحايا: "هناك علامات على فقدان السيطرة، وعلى الوقاحة المفرطة، كما يلاحظ تقاصر الفترات الفاصلة بين جريمة وأخرى". أغلق المغلف، ثم دفعه إلى مركز الطاولة. "سيرتكب القاتل جريمة ثانية".
ساد الصمت مجدداً.

نظر رايان إلى ساعته أخيراً، فحذا الجميع حذوه وكأننا مجموعة من الرجال الآليين.

"إذا، دعونا نبدأ بدراسة هذه الملفات. تستطيعون زيادة أي معلومات ناقصة إلى هذه الملفات. عمل غوتيه مع شرطة مونتريال يا لوك وميشال، وهكذا بوسعكم الحصول على معلومات إضافية من هذه الناحية".
أوماً كلُّ من شاربونيو وكلوديل.

"تولى أمن كيبيك قضية بيتري. سأدقق في قضيتها شخصياً. أما القضايا الأخرى فهي أحدث، ولذلك أعتقد أنها غير ناقصة".

بدأتُ بقضيتي بيتري وغوتيه، لأنه سبق لي أن عملتُ بالقضايا الخمس الأخرى. بقيت هذه الملفات مفتوحة منذ العامين 1988 و1989، على التوالي.

كانت جثة كونستانس بيتري شبه عارية ومتحللة عندما اكتُشفت داخل منزل مهجور في خانوايك، التي تُعتبر محمية هندية تقع في الجهة العليا من النهر الذي يمر في مونتريال. واكتُشفت جثة ماري - كلود غوتيه في مكان يقع خلف محطة مترو فاندوم، وهي نقطة تحويل للقطارات المتجهة إلى الضواحي الجنوبية من

المدينة. تعرضت كلتا المرأتين للضرب المبرح والوحشي، كما جُرحتا في منطقة العنق. كانت غوتيه في الثامنة والعشرين من عمرها، أما بيتري فكانت في الثانية والثلاثين من العمر. لم تتزوج أي واحدة منهما، كما عاشتا وحيدتين. تم استجواب المشبه بهم كالعادة، وتم التحقق من الأدلة. وصل التحقيق إلى طريق مسدود في كلتا القضيتين. أمضيتُ ثلاث ساعات أدق في الملفات العائدة لهاتين القضيتين، ولاحظتُ أنّ المعلومات الواردة فيهما قليلة جداً مقارنةً بالقضايا الأخرى التي درستها في الأسابيع الستة الماضية. كانت المرأتان من بنات الهوى. هل كان هذا سبب عدم التوسع في التحقيقات؟ هل تعرضت المرأتان إلى الاستغلال في حياتيهما، وإلى التجاهل في موتهما؟ هل كانت هذه طريقة مناسبة للتخلص منهما؟ منعتُ نفسي من الاسترسال في التفكير بهذا الشكل.

تفحصتُ الصور العائلية لكل ضحية. لاحظتُ اختلافاً في الوجوه، لكن هذه الوجوه كانت متماثلة بطريقة ما. أحسستُ باللون الأبيض الشاحب، والإسراف في وضع مواد الزينة، والنظرة الباردة والشاردة. أعادتني التعابير التي ظهرت في وجهيهما إلى ذكريات ليلتي التي قضيتها في هاين، أي عندما نظرتُ عن قرب إلى الذين يملأون الشوارع. أحسستُ أنّ وجهي الضحيتين ينطقان باللامبالاة، وبالياس. رأيتُ هذين الإحساسين بطريقة حية ومباشرة، أما هنا فأراهما بطريقة جامدة.

نشرتُ أمامي صور مسرح الجريمة، لكنني علمتُ مقدماً تفاصيل القصة التي ستتطرق بها هذه الصور. شاهدتُ في صور بيتري: الباحة، وغرفة النوم، والجنّة. وشاهدتُ في صور غوتيه: المحطة، والغابة، والجنّة. ظهر رأس بيتري شبه مقطوع. جُرحت عنق غوتيه أيضاً، وبدت عينها اليمنى مثل العجين. أدت وحشية الاعتداء على هاتين الضحيتين إلى أن تشملهما تحقيقاتنا.

قرأتُ تفاصيل عملية التشريح، وفحص السموم، وتقارير الشرطة. جرّأتُ كل عناصر المقابلات وملخصات المحققين. استخرجتُ كل تفاصيل تحركات الضحيتين، وكل تفاصيل حياتهما وموتهما. نقلتُ كل معلومة مهما كانت دقيقة إلى الجدول الأولي الذي أعددتُه في جهاز حاسوبي. لم أحصل على الكثير منها. سمعتُ تحركات الرجال الآخرين يروحون ويجيئون، بالإضافة إلى أصوات تحريك الكراسي. سمعتُ أصوات مداعبهم أيضاً، لكنني لم أركز كثيراً على هذه

الأمور. أشارت عقارب الساعة إلى ما بعد الخامسة عندما أغلقت الملفات أخيراً. لم يبقَ من الرجال سوى رايان. رفعت رأسي فوجدته ينظر إليّ.

"أتريدين رؤية الفجر؟"

"عما تتحدث؟"

"سمعتُ أنك تحبين موسيقى الجاز."

"أجل، لكن المهرجان انتهى يا رايان". من أخيره يا ترى؟ وكيف؟ وهل كانت هذه طريقته في دعوتي إلى حضور مناسبة اجتماعية؟

"انتهى المهرجان حقاً، لكن لم تفرغ جعبة المدينة. سيقوم فريق الفجر بالعزف في المرفأ القديم. إنه فريق رائع."

"لا أظن أنني أستطيع الذهاب يا رايان". لكنني فكّرتُ بالذهاب حقاً. سبق لي أن فكّرتُ بالأمر في الواقع. رفضتُ الذهاب لهذا السبب. لا أستطيع الذهاب الآن، أو ليس قبل أن تنتهي التحقيقات، أو على الأقل ليس قبل أن يتم إلقاء القبض على ذلك الحيوان.

نظرت تلك العينان الساحرتان إليّ: "حسناً اقتنعتُ، لكن عليك أن تأكلي". أصابَ في قوله هذا. لم تجتذبي فكرة تناول وجبة من طعامٍ محمدٍ، ووحدي. كلا. لا أنوي أن أبدو أمام كلوديل بمظهر غير لائق.

"أعتقد أنه يُحتمل..."

"نستطيع استعراض بعض أفكارك هذه أثناء تناولنا وجبة من البيتزا."

"إذاً فهو اجتماع عمل."

"بالتأكيد."

سمعتُ بعض الضجيج.

هل حقاً أريد مناقشة القضايا؟ بالطبع. لكنني شككتُ في بعض تفاصيل القضيتين الإضافيتين. تساءلتُ عن مغزى تشكيل فريق العمل. أعطانا رايان الرواية الرسمية، لكن ما هي خفايا الأمور؟ هل هناك خيوط يتعین عليّ معرفتها؟ أم يجدر بي أن أتجنب بعض هذه الخيوط؟

سمعتُ الضجيج مرة أخرى.

هل يُقدم الآخرون على التفكير مرتين؟ بالطبع لا.

"بالتأكيد يا رايان. أين تريدنا أن نذهب؟"

هزّ كتفه: "هل يناسبك مطعم أنجيلا؟"

يقع ذلك المطعم بالقرب من شقتي. تذكرتُ المكالمة التي أجريتها الشهر الماضي عند الرابعة صباحاً، والصديق الذي أردته أن يكون معي. ها أنت تصابين بالرعب يا برينان. يريد الرجل تناول وجبة بيتزا، وهو يعرف أنك تستطيعين أن تركني السيارة في منزلك.

"أيناسيك أنت؟"

"إنه على طريقي."

طريقه إلى ماذا؟ لم أسأله.

"رائع، إذا سأراك هناك بعد... نظرتُ إلى ساعتِي. ثلاثين دقيقة؟"

وصلتُ إلى شقتي، وملأتُ طبق بيردي، لكنني امتنعتُ عن الوقوف أمام المرأة. لم أمشط شعري، ولم أضع حمرةً على خدي، لأنه غداء عمل. احتسى رايان زجاجة من شراب الشعير البارد، بينما شربتُ أنا زجاجة كوك للحمية أثناء انتظارنا للوجبة الأساسية، وكانت الساعة تشير إلى السادسة وخمس عشرة دقيقة. لم يصف رايان جبن الماعز إلى طبقه.

"أخطأتُ في هذا."

"لا أحبه."

"أعتقد أنك متصلب قليلاً."

"إنني أعرف ماذا أريد."

تبادلنا بعض الأحاديث لفترة من الزمن، ثم غيّرتُ الموضوع: "حدّثني عن

تيتك القضيتين الأخيرتين. لماذا تحققون في قضيتي بيتري وغوتيه؟"

"طلب مني باتينيو أن أسترجع كل الجرائم العالقة في أمن كيبك، والتي تتميز بمواصفات معينة. رجعتُ إلى عام 1985. ويتلخص النمط الذي نركّز عليه في الأمور التالية: الإناث، الإفراط في القتل، والتشويه. بحث كلوديل في كل قضايا شرطة مونتريال. طلبنا من مراكز الشرطة المحلية أن تفعل الأمر ذاته. ظهرت أمامنا هاتان القضيتان حتى الآن."

"هل ركّزتم على المقاطعة فقط؟"

"ليس تماماً".

لبسنا صامتين عندما وصلت النادلة، وعند تقطيعنا للبيتزا ووضعها في طبقينا. طلب رايمان قطعةً أخرى من بيل غويل، في حين امتنعتُ عن طلب واحدةٍ لي. إنها غلظتك وحدك يا بريمان.

"لا تفكر أبداً بلمس قطعتي".

"لا أحبها". جرع كوبه. "أتعرفين ماذا يسري داخل الماعز؟"

عرفتُ، لكنني لم أقل.

"ماذا عنيتَ بعبارة ليس تماماً؟"

"طلب مني باتينيو في البداية أن أفتش في الجرائم التي حدثت داخل مونتريال وحوّلها. ما إن وصلت المعلومات حول الجرائم من كوانتيكو حتى أرسل إلى المدعي العام وصفاً تجميعياً مكوناً من معلوماتنا، والمعلومات التي لديه. أراد أن يعرف ما إذا كانت لدى شرطة مونتريال قضايا مماثلة".

"ثم ماذا حدث؟"

"كانت النتيجة سلبية. يبدو أن رجلنا هو من السكان المحليين".

تابعنا تناول الطعام بصمت لفترة من الوقت.

سألني أخيراً: "ماذا كانت حصتك من القضايا؟"

أخذتُ وقتي قبل إعطاء جوابي.

"أمضيتُ ثلاث ساعات فقط في دراسة الملفات الجديدة، لكن هذه الملفات لم تكن متوافقة بطريقة ما".

"أتعنين من وجهة نظر بنات الهوى؟"

"أجل، لكنني بالإضافة إلى أمرٍ آخر. نعرف أن عملية القتل قد اتسمت

بالعنف، ولا جدال في ذلك، إلا أنها شديدة..."

كنت أحاول استخدام كلمة تختصر الأحاسيس التي شعرت بها طيلة المساء، لكنني لم أوفق. وضعتُ قطعة بيتزا في طبقتي، وراقبتُ قطع البندورة والأرضي شوكي أثناء تسربها من العجين.

"... التعقيد".

"معقدة؟"

"نعم، معقدة".

"يا إلهي يا برينان، ماذا تريدان؟ هل رأيت شقة آل أدكينز؟ أو شقة موريسيت - شامبو؟ بدت الشقتان مثل الشجرة المجرّوحة".

"إنها الركبة".

"ماذا؟"

"الركبة. إنها الركبة المجرّوحة".

"أتعنين الهنود؟"

أومأتُ.

"أنا لا أتحدث عن الدماء. بدا مسرحا الجريمة عند بيتري وغوتيه، مثل... ماذا؟" بحثتُ، مجدداً عن كلمة مناسبة. "فوضى، ومن دون تخطيط. أما بالنسبة للجرائم الأخرى فإنك تحس أن ذلك الرجل كان يعرف ماذا يقوم به بالضبط. دخل إلى شققهنّ، وأحضر سلاحه الخاص، ثم أخذه معه. ولم يُعثر على سلاح في الأماكن الأخرى. هل هذا صحيح؟"

أوماً.

"وجدت سكّين مع غوتيه".

"لم يُعثر على بصمات مع ذلك. يوحي هذا بوجود تخطيط مسبق".

"حدث ذلك في فصل الشتاء، ولعل القاتل قد وضع قفازين في يديه".

تجرعتُ ما بقي لي من زجاجة الكوك.

"بدت الجثتان وكأنهما تركنا للتو، وبسرعة. كان وجه غوتيه موجهاً نحو الأرض، أما بيتري فكانت ملقاةً على جانبها، كما أن ثيابها كانت ممزقة، أما سروالها فتم جمع عند كاحليها. ألقى نظرةً أخرى على صور موريسيت - شامبو وأدكينز. بدت الجثتان وكأنهما وضعتا عمداً على الحالة التي وجدنا فيها. وُضعت الجثتان على ظهريهما، مع إبعاد سيقانهنّ، وإسبال أذرعهنّ، أي تماماً مثل لعبتين، أو مثل راقصتي باليه. يا إلهي. بدت أدكينز وكأنها كانت تدور حول نفسها. لم تكن ملبسهما ممزقة، بل كانت مفتوحة بعناية. بدا منظرهما وكأن القاتل تعمّد عرض ما فعله بهما".

لم يقل رايمان شيئاً. ظهرت النادلة، وقالت إنها تريد أن تتأكد من استمتاعنا بوجبتنا. سألتنا إن كنا نريد أي شيء آخر، ثم سلّمتنا الفاتورة.

"أمتلك شعوراً آخر مع هاتين القضيتين الأخيرتين، فقد أكون مخطئة تماماً".

"يُفترض بنا أن نحسم هذا الأمر".

أمسك رايان بالفاتورة، ورفع يده في حركة تعني لا تجادلي. "سأدفع أنا هذه المرة، وتدفعين أنت في المرة القادمة".

أسكت اعتراضاتي عندما لمس شفتي العليا. راح يمرر سبابته حول زاويتي فمي ببطء شديد، ثم رفعها أمام عيني.

قال: "الماعز".

كان الأمر أهون عليّ لو غزا النمل المفترس وجهي.

وصلتُ إلى شفتي لأجدها فارغة. لم أتفاجأ، لكن قلقي على غايي ازداد كثيراً. تمنيتُ أن تظهر فجأة، وحتى من أجل أن تأخذ أغراضها.

استلقيتُ على الأريكة، وفتحتُ جهاز التلفزيون كي أشاهد ألعاب إكسبو. نجح هارتينيز في تسجيل نقطة في لعبة كرة القاعدة. أخذ المذيع يصرخ بجنون، لأن الرجوع إلى الهدف كان في غاية الصعوبة.

تابعتُ المشاهدة حتى تلاشى صوت المذيع وأصبح خافتاً، عندها حلّ مكانه الضحيج الذي ملأ رأسي. ما هو دور بيتري وغوتيه بما يجري؟ ماذا تعني كلمة خاناواكي؟ كانت بيتري من الموهوك، أما بقية الضحايا فكُنّ من البيض. سبق للهنود أن تحصنوا في جسر مرسيه قبل أربعة أعوام، وجعلوا من حياة المارة على الجسر جحيماً مقيماً. وبقيت العلاقات ما بين المحمية الهندية وجيرانها فاترة أكثر مما هي ودية. هل لهذه الواقعة أهميتها؟

كانت غوتيه وبيتري من بنات الهوى. أوقفت بيتري مرات عديدة، لكن لم يكن لدى الضحايا الأخريات سجلات لدى الشرطة. هل يعني هذا شيئاً؟ لو أنّ اختيار الضحايا كان عشوائياً، فما هي هذه الصدفة التي جعلت ضحيتين من أصل سبع من بنات الهوى؟

هل أثبت مسرحا جريمتي موريسيت - شامبو وآدكينز وجود تعمد في التشويه؟ أم أنني أتوهم وجود هذا التعمد في عرض الجريمة؟ أم هل أنّ ذلك كان عَرَضياً؟

هل توجد زاوية دينية في الأمر؟ لم أتفحص هذه الناحية في الواقع، لكن إذا كان الأمر على هذا النحو، فما هو مغزى ذلك؟

استسلمتُ في نهاية الأمر إلى نوم مضطرب. رأيتُ نفسي في هامين، وشاهدتُ غايي توشر نحوي من نافذة غرفة تقع في الطابق العلوي لفندق مهمل. لاحظتُ أن غرفتها خافتة الأنوار، لكنني استطعتُ رؤية أشخاص يتحركون فيها. حاولتُ أن أعبّر الشارع كي أصل إليها، لكن عدداً من النساء تجتمعن خارج الفندق، وبدأن برشقي بالحجارة، وذلك ما إن بدأتُ بالتحرك. بدا الغضب على وجوههنّ. ظهر وجهٌ في الغرفة شبه المعتمة وراء غايي. عرفتُ صاحبتَه. إنها كونستانس بيتري. حاولت بيتري أن تضع شيئاً ما فوق رأس غايي، ولعله فستان أو ثوب نوم، أو ما شابه ذلك. قاومت غايي واستمرت تشير نحوي لكنها أصبحت يائسة أكثر.

أصابني حجر في بطني، فسحبني بقوة نحو الحاضر. وجدتُ بيردي واقفاً على بطني وقد نشر ذيله في حالة استرخاء، أما عيناه فتسمرتا على وجهي.
"شكراً لك".

أزحته من فوقي، ونهضتُ جالسةً.

"ماذا يعني ذلك بحق الجحيم يا بيرد؟"

اعتدتُ أن لا تكون أحلامي بلا معنى محدد لها. وتعود لواعبي أن ينتقي تجاربي التي مررتُ بها حديثاً ويلقيها في وجهي، لكنها عادةً ما كانت تأخذ شكل أحجية. ينتابني أحياناً شعور آرثر الذي يشعر بالإحباط نتيجة إجابات ميريلين الغامضة. أه لو تخبرني! فكّر يا آرثر. فكّر.

ماذا يعني الرشق بالحجارة؟ الأمر واضح: كرة مارتينيز الرأسية. ماذا بشأن غايي؟ الأمر واضح أيضاً. بدأت وخزة من الخوف بالتشكّل عندي.

بنات الهوى. كانت بيتري وغوتيه بنّي هوى، لكنهما ماتتا. تعمل غايي مع بنات الهوى، وقد تعرضت للملاحقة. اختفت غايي. أيعقل وجود رابط بين الأمرين؟ هل يُعقل أن تكون في ورطة؟

كلا. لقد استغلتك يا برونان. فعلت ذلك مراراً بك، وأنتِ تعين دائماً ضحية ألاعيبها.

رفض الخوف الذي يعتمل في داخلي أن يتقلص.

ماذا بشأن الرجل الذي يلاحقها كظلها؟ بدت حينها ألماً خائفة حقاً.
غادرت منزلي من دون أن تترك حتى رسالةً مختصرةً لي. يبدو أنها اضطرت
للمغادرة بسرعة من دون أن تقول لي شيئاً.
ألا يمثل ذلك ضغطاً كبيراً، حتى على امرأة قوية مثل غايي؟ ازداد الخوف
الذي أشعر به في أعماقي.
"حسناً، دعينا نرى يا دكتور ما كولاي".

توجهتُ نحو غرفة الضيوف وبحثت فيها. من أين أبدأ يا ترى؟ سبق لي أن
جمعتُ أغراضها وكومتها في أرضية الخزانة. لم أشعر برغبة في تفتيشها.
توجهتُ نحو كومة المهملات هذه. بدت هذه الكومة أقل إزعاجاً.
وجدتُ مناديل ورقية، ومغلفات قطع الحلوى، ورقائق معدنية، وورقة مبيعات
من متجر ليميته، ووصلاً من آلة الصراف الآلي. وأخيراً ثلاث كراتٍ من
الأوراق المجددة.
فتحتُ الكرة ذات اللون الأصفر. وجدت على ورقة مسطرة كتابةً بخط غايي
جاء فيها:

"آسفة. لا أستطيع الاستمرار بهذا. لن أغفر لنفسي إذا..."

انتهت الكتابة عند هذا الحد. هل هذه هي مذكرة موجهة لي؟

فتحتُ كرة الأوراق الصفراء الثانية:

"لن أستسلم لهذه المضايقات. أنت تسبب لي الضيق بحيث..."

توقفت مرة ثانية، أو أن أحداً أجبرها على التوقف. ماذا كانت تحاول أن

تقول؟ ولمن توجه كلماتها؟

كانت الكرة الأخرى بيضاء اللون، وأكبر حجماً. اخترقتني موجة من الخوف
عندما فتحتها، وسرعان ما تلاشت كل المشاعر العدائية التي كانت تعتمل في
ذهني. مسدتُ الورقة بيدين مرتعشتين وهدتُ فيها.

رأيتُ رسماً بقلم الرصاص. كان الشكل الذي توسط الورقة امرأةً بشكل
واضح. رُسم ثدياها وأعضاؤها التناسلية بتفصيلٍ دقيق. أما الجذع، والذراعان،
والساقان فقد رُسمت بشكلٍ غير دقيق، وبدا الوجه بيضاوياً، بينما ظهرت
الظلال بشكلٍ غير واضح. بدا بطن المرأة مفتوحاً، وبرزت أحشاؤها منه

لتشكل دائرة حول الشكل الأساسي. رأيتُ كتابةً بخط يد شخصٍ غريبٍ جاء فيها:

"مهـما كانت تحركاتك، ومهـما كانت خطواتك التي تخطوها. لا تقطعني".

30

شعرتُ بقشعريرة من البرد تجتاح جسدي. أوه، حماك الله يا غايي! بأي ورطة وقعت؟ أين أنت الآن؟ تطلعت إلى الفوضى المحيطة بي. هل هذه هي الفوضى التي اعتادتُ غايي أن تتركها وراءها، أم أنها نتيجة عملية فرار مفاجئة؟ أعدتُ قراءة المذكرات التي لم تجد من يكملها. إلى من كتبت؟ هل كتبت لي أنا؟ أم إلى الرجل الذي يلاحقها؟ لن أغفر لنفسى مطلقاً إذا ما حدث لها مكروه؟ من يكون ذلك الرجل الذي يضايقها؟ نظرتُ إلى الرسم، وأحسستُ بالشعور ذاته الذي تملكني عندما نظرتُ إلى صور مارغريت أدكينز السينية. شعرتُ بنذير السوء. لا، ليس غايي.

اهدئي يا برينان. فكّري!

أسرعتُ إلى الهاتف. حاولتُ الاتصال بشقة غايي، ثم بمكتبها بعد ذلك. ردّت عليّ الآلة المحيية، والبريد الصوتي. فليبارك الله العصر الإلكتروني! فكّري.

أين يعيش والداها؟ هل يسكنان في تروى ريفيه، 411؟ وجدتُ اسم ماكولاي، نبيل في الدليل. سمعتُ صوت امرأة عجوز. ردّت عليّ بالفرنسية. قالت إنها سعيدة لسماع صوتي بعد مرور كل هذه المدة الطويلة. سألتني عن أحوالي، وقالت لي إنها لم تتحدث مع غايي منذ أسابيع عديدة. أضافت أن هذا الانقطاع ليس مستغرباً. هكذا هم الشباب، فهم مشغولون على الدوام. سألتني إن كانت هناك مشكلة ما. أكدت لها أن كل شيء على ما يرام. ووعدتها بزيارة قريبة.

والآن ماذا؟ إنني لا أعرف أيًا من أصدقاء غايي الحاليين.

هل أتصل برايان؟

لا. إنه ليس وليّ أمرك. وماذا ستقولين له على أي حال؟

اهدئي قليلاً. فكّري. أحضرتُ لنفسِي علبه كوك للحمية. هل أفرطت في رد فعلي؟ عدتُ إلى غرفة الضيوف وتفحصتُ الرسم ثانية. هل أفرطت في رد فعلي؟ اللعنة، إنني أتصرف دون المستوى المطلوب! بحثتُ عن رقم معين، وأسرعتُ إلى الهاتف، ثم طلبتُ الرقم.

"مرحباً".

جهدتُ كي أحافظ على ثبات صوتي: "مرحباً يا جاي. أس. أنا تمب".

"يا إلهي! تتصلين مرتين في غضون أسبوعٍ واحدٍ. اعترفي، لا تستطيعين الابتعاد عني".

"مرّ أكثر من أسبوعٍ واحد".

"إنني أعتبر المدة التي هي دون الشهر بمثابة دليلٍ على الانحدابِ لا يقاوم. ما عندك؟"

"جاي. أس. أنا..."

لاحظ الرجل ارتعاشاً في صوتي، فتغيّرت لهجته، وأظهر قلقاً حقيقياً مكان المداعبة.

"هل أنت بخير يا تمب؟ ما الأمر؟"

"إنهما القضيتان اللتان حدّثتك عنهما في الأسبوع الماضي".

"ماذا حدث؟ حضّرتُ على الفور ملخصاً عن حياة الرجل. أتمنى أن يكونوا

قد أدركوا مدى نفوذك. هل تلقوا تقريرِي؟"

"أجل. لقد أحدثتُ فرقاً في الواقع. قرروا تشكيل فريق عمل. يسير عمل الفريق سيراً جيداً".

لم أعرف كيفية إخفاء قلقي على غايي، ولم أرغب في استغلال صداقتنا أكثر من ذلك.

"هل أستطيع أن أطرح عليك بضعة أسئلةٍ أخرى؟ هناك أمرٌ آخر يقلقني، وأنا

لا أعرف لماذا..."

"لماذا تترددان في طرح السؤال؟ اطرحيه على الفور".
من أين أبدأ؟ أما كان يجدر بي أن أحضّر لائحة بالأولويات. كانت حالة ذهني تشبه غرفة غايي، وتناثرت فيه الأفكار والصور عشوائياً.
"إنه أمرٌ آخر".
"أجل. قلت لي ذلك".
"أعتقد أنني مهتمة بمن تسميهم الذين يرتكبون مخالفات جنسية غير مشروعة".
"حسناً".
"هل يشتمل ذلك على ملاحقة امرأة ما، أو الاتصال بها، ولكن من دون القيام بأي شيء بشكلٍ فاضح؟"
"هذا أمرٌ محتمل".
هل أبدأ بالحديث عن الرسم؟
"أخبرتني في المرة الماضية أنّ الذين يرتكبون هذه المخالفات التي تتسم بالعنف يدوّنون سجلات خاصة بهم؟ سجلات على شكل أشرطة ورسومات؟"
"هذا صحيح".
"هل يحتفظ الذين يضايقون الآخرين بسجلاتهم هم أيضاً؟"
"يحتفظون بماذا؟"
"هل يرسمون رسومات معينة أو أشياء مثل ذلك".
"يحتمل هذا".
"أيمكن أن يوحى محتوى الرسومات بمستوى العنف الذي يستطيع ذلك الشخص أن يصل إليه".
"ليس بالضرورة. يُعتبر الرسم منفذاً للمشاعر بالنسبة لشخص ما، أو طريقةً للتحرك، لكن من دون الانغماس في العنف. وقد يكون الرسم بالنسبة لشخص آخر دافعاً للانطلاق، أو لإعادة تكوين ما فعله سابقاً".
رائع.
"وجدت رسماً يمثل امرأة شقّ بطنها، وانتشرت أحشاؤها من حولها. ماذا يوحى هذا الرسم؟"

"لم تمتلك فينوس دي ميلو أي أذرع. ولم يحمل رسم جاي. آي. جو عضوه. ماذا تعني هذه الأشياء؟ الفن؟ أم وجود رقابة؟ أو هل يدل ذلك على الانحراف الجنسي؟ يصعب تحديد ذلك عن بعد".

مرت فترة صمت. ماذا يجدر بي أن أخبره؟

سألني: "هل يعود هذا الرسم إلى مجموعة سان جاك؟"

"لا". سبق لي أن وجدتُ هذا الرسم في سلة مهملات غرفة الضيوف. "قلت لي سابقاً إن هؤلاء المنحرفين عادةً ما يصعدون من مستوى عنفهم في العادة، صحيح".

"أجل. إنهم يبدأون عادةً في التلصص، أو بالمكالمات الهاتفية البذيئة. يبقى بعضهم عند هذا المستوى، بينما يتحرك آخرون نحو مستويات أعلى: يكشف هؤلاء أنفسهم، ويأخذون بمطاردة ضحاياهم، وحتى إنهم يدخلون البيوت بالقوة. يختار الآخرون أن يتقدموا نحو الاغتصاب، وحتى الجريمة".

"هل يعني هذا أن بعض سادبي الجنس قد لا يلجأون إلى العنف بالفعل؟"

"ها قد عدنا للحديث عن قضية الساديين الجنسيين. سأعود إلى الإجابة عن سؤالك بنعم. يلجأ بعض الرجال إلى إظهار تخيلاتهم بطرائق أخرى. يستخدم بعضهم الأدوات الغريبة، أو الحيوانات، ومن غير المستغرب أن يجدوا شركاء متواطئين معهم".

"أتقول شركاء متواطئين؟"

"إنهم الشركاء الطائعون الذين يسمحون للآخر القيام بكل ما تستدعيه هذه الخيالات. يحدث ذلك على شكل خضوع، أو إذلال، أو حتى عبر التسبب بالألم. يُحتمل أن يكون ذلك الشريك زوجةً، أو صديقةً، أو إحدى النساء اللواتي يدفعن أموالاً".

"أتعني أنه من الممكن أن تكون الشريكة بنت هوى؟"

"بالتأكيد. لا تمناع بنات الهوى، أو معظمهنّ على الأقل من القيام بدورٍ ضمن حدود معينة".

"وهل يؤدي هذا إلى إحماد نزعات معينة نحو العنف؟"

"يُحتمل هذا ما دامت تلك الشريكة تستمر في تأدية دورها. ينطبق الأمر ذاته على الزوجة أو الصديقة. أما حين تملّ الشريكة الطائعة، أو الخاضعة، من دورها

هذا، فإن الأمور تسوء. تقوم الشريكة، بدور كيس الملاكمة، ثم تنسحب فجأة، وحتى أنها قد تهدد بفضح العملية كلها. عندها، يشعر المنحرف بالغضب الشديد، ويقوم بقتلها. يكتشف الرجل أنه استمتع بعملية القتل، وهكذا يمضى لتنفيذ جريمته التالية".

قال الرجل شيئاً ضايقني.

"دعنا نعود بمحدثنا قليلاً. ماذا قصدت بقولك أشياء غريبة؟"

"قصدت أشياءً مثل الصور، والألعاب، والملابس، أو أي شيء في الواقع. عالجتُ شخصاً اعتاد أن ينهال ضرباً على صورة مكبرة بحجم الإنسان الطبيعي تعود إلى فليب ويلسون".

"أكره طرح سؤال عن التفاصيل".

"قد يمتلك الرجل حقداً دفيناً ضد السود، والشاذين، والنساء. يحقق الرجل ثلاثة أهداف في كل مرة يتحرك فيها".
"بالطبع".

استطعتُ أن أسمع أنغام شبح الأوبرا تتسلل من مكان ما في الطرف الآخر من الخيط.

"إذا أقدم شخص ما على هذا يا جاي أس. أعني إذا رسم صورة، أو استخدم لعبة على سبيل المثال، فهل يعني ذلك وجود احتمال أن لا يلجأ إلى القتل أبداً؟"

"يُحتمل هذا، لكن مجدداً أقول لك أن أحداً لا يعلم كيف سيغيّر ذلك الشخص خطّه البياني، ويندفع في كسر ذلك الخط؟ يحدث أن تتمكن صورة عادية من إرضائه، لكن ذلك قد يتغيّر في أي لحظة".

"هل يستطيع ذلك الشخص أن يقوم بالأمرين معاً؟"

"أيّ أمرين؟"

"أعني أن يقلّب مزاجه فيقوم بقتل بعض الضحايا، بينما يكتفي بملاحظة ومضايقة أحيات؟"

"بالتأكيد. يعود أحد الأسباب إلى أن سلوك الضحية قد يغيّر المعادلة. يشعر ذلك الشخص بالإهانة، أو بالرفض من جانب شريكته. يُحتمل أن تقول هذه

الشريكة كلاماً غير مناسب، أو أن تتجه إلى اليسار بدل أن تتجه إلى اليمين، وليس من الضروري أن تعرف الضحية ما يفكر فيه. يتعين أن لا تنسى أن معظم القتلة التسلسليين لا يلتقون ضحاياهم في العادة. تنجح النساء في الإثارة عادة، لذلك فقد يعين دوراً معيناً لامرأة ما، ثم يختار دوراً مختلفاً لامرأة أخرى. يستطيع ذلك الشخص أن يحب زوجته، ثم يخرج كي يقتل. ويحتمل أن يعتبر شخصاً غريباً فريسته، بينما يعامل شخصاً آخر باعتباره صديقاً".

"وهكذا، هل يتمكن أحدهم من العودة إلى طرائقه التي تتسم بميل أقل إلى العنف، حتى ولو بدأ بالقتل في حالات معينة؟"
"يحتمل ذلك".

"إذاً، أليحتمل أن يُقدم أحد الأشخاص، الذي يُعتبر غريب الأطوار، على أمورٍ أشد خطورة؟"
"بالتأكيد".

"وهل يُحتمل أن يتصل أحدهم بضحيتته، ثم يبدأ بملاحقتها، ثم يرسل إليها رسومات غريبة ليست بريئة بالضرورة، حتى ولو بقي بعيداً عنها؟"
"أنت تتحدثين عن سان جاك، أليس كذلك؟"
هل حقاً كنتُ أتحدثُ عنه؟
"هل هو من النوع الذي يفعل هذا؟"
"لقد افترضتُ فقط أننا نتحدث عنه، أو عن أي شخصٍ آخر يحتفظ بشقة العرائس تلك".

تيقظي، ودعي التخيلات تفتح...
"أصبح الأمر... شخصياً يا جاي. أس".
"ماذا تعنين؟"

أخبرته كل شيء، وحدثته عن غايي، وخوفها، ومغادرتها المفاجئة، وعن غضبي الذي تحوّل الآن إلى خوف.

"اللعنة يا بربنان! كيف تفحمين نفسك في هذه الأمور؟ اسمعي، يبدو لي أن هذا الرجل نذير شؤم. قد لا يكون سان جاك مسؤولاً عن لغز غايي، وقد يكون، لكن ذلك يبقى احتمالاً وارداً. يلاحق ذلك المجرم المفترض النساء، وسان جاك

يلاحق النساء فعلاً. إنه يرسم صوراً تمثل نساءً منزوعة الأحشاء، وقد لا يكون متمتعاً بحياة جنسية طبيعية، لكنه يحمل سكيناً. يمضي سان جاك، أو كائناً من كان ذلك الوحش، في قتل النساء، ثم يقطعهن، أو يقوم بالتمثيل بهن. ما رأيك في ذلك".

حوّلي وجهك بعيداً عن ضوء النهار الساطع...

سألني جاي. أس: "متى انتهت لذلك الرجل لأول مرة؟"
"لا أعرف".

"هل بدأ بملاحقتها قبل انكشاف هذا الأمر كله، أم بعده؟"
"لا أعرف".

"ماذا تعرفين عنه؟"

"لا أعرف الكثير. إنه يلازم بنات الهوى، ويدفع مالا لقاء الحصول على متعته الجنسية، ثم يقوم بتمثيل الدور مع ثياب النوم الخاصة بضحيته. إنه يحمل سكيناً، ولذلك لا تستطيع معظم النسوة أن يفعلن أي شيء إزاءه".

"وهل هذا يسبب ارتياحاً بالنسبة إليك؟"
"كلا".

"أريدك أن تبغني هذا إلى الرجال الذين تعملين معهم. دعهم يتحروا عن هذا الأمر. تقولين إن غاي غريبة الأطوار، لذلك قد لا يكون اختفاؤها مقلقاً، وربما تكون قد غادرت من دون وجود سبب مهم. إنها صديقتك، كما أنك تلقيت تهديداً بدورك. الجمجمة، والرجل الذي لاحقك بالسيارة".
"يُحتمل ذلك".

"أقامت غاي معك، ثم اختفت فجأة. يستدعي ذلك تفحص الأمر".

"صحيح. سيقفز كلوديل على الفور ويقبض على الرجل الذي تعود سرقة ثياب النوم".

"الرجل الذي تعود سرقة ثياب النوم؟ لا بد أنك أمضيت وقتاً طويلاً جداً مع رجال الشرطة".

توقفْتُ عن الكلام قليلاً. كيف حصلتُ على هذه المعلومة؟ لعلني حصلتُ عليها من شبه الرجل ذاك.

"هناك رجل غريب الأطوار يقوم بدخول البيوت، ويسرق ثياب النوم ويطعنها، ثم يغادر المنزل. ثابر الرجل على هذه التصرفات أعوام عديدة. يطلقون عليه لقب شبه الرجل".

"إذا استمر بالقيام بتلك الأفعال لأعوام عديدة فلا يعني ذلك أنه معتوه إلى هذه الدرجة".

"كلا. كلا. إننا نطلق عليه هذا اللقب بسبب ما يفعله بثياب النوم، وكأنه يطعن دمية".

هل يدل هذا على أنّ الرجل مضطرب عصبياً، أم أنه شبه رجل، أو دمية.

تحسني، المسني...

قال جاي. أس شيئاً، لكن ذهني شرد بسرعة قياسية. تخيلتُ الدمية، وثوب النوم، والسكين. تذكرتُ أنّ بنت هوى تدعى جولي تعودت العبت بثوب النوم، والرسم الذي يمثل مجزرةً، والذي حمل كلمات لا تقطعي. وماذا بشأن أقصوصات مقالات الجرائد التي وجدت في تلك الغرفة الموجودة في شارع بيرغر؟ وعلى الأخص تلك المقالة التي تحدثت عن دمية بثياب النوم، بينما حملت مقالة أخرى صورتي المقتطعة التي حملت علامة X. تذكرتُ أيضاً تلك الجمجمة المسفّدة، والتي حدّقت بي من خلال شجيرات حديقتي، وكذلك وجه غايي الذي ينطق بالرعب عند الساعة الرابعة صباحاً، بالإضافة إلى الفوضى التي ظهرت في غرفة النوم.

ساعدني على عزف موسيقى الليل...

"يتعين عليّ إنهاء الاتصال يا جاي. أس".

"عديني يا تمب أنك ستفعلين ما سأقوله لك. يُحتمل أن يكون الأمر خطيراً، لكن قد يكون ذلك المعتوه هو الذي يدير ذلك الوكر الموجود في شارع بيرغر. قد يُسدم ذلك الرجل على قتلك. وإذا كان الأمر كذلك فأنت في خطر كبير، لأنك تقفين في طريقه، ولذلك يعتبرك تهديداً له. إنه يمتلك صورتك، وقد يكون هو الذي وضع جمجمة غوايس داماس في حديقتك. إنه يعرف من تكوينين، ويعرف كذلك أماكن تواجدك".

لم أكن أستمع إلى جاي. أس. بدأتُ بالتحرك ذهنياً سلفاً.

استغرقني عبور وسط المدينة ثلاثين دقيقة، ثم تابعتُ سيرتي نحو شارع ماين قبل أن أجد البقعة التي أبحث عنها. شاهدتُ أحد مدمني العقاقير غير القانونية جالساً ومستنداً إلى أحد الجدران، وكدتُ أن أدوس على رجليه الممدودتين، بينما انشغل بهز رأسه على أنغام موسيقى الغرب والريف الصاخبة، والتي تسللت عبر الجدار الحجري. ابتسم الرجل ورفع يده ملوحاً بإصبع واحد، ثم فتح راحة يده ومدّها باتجاهي.

فتشتُ في جيبي وأعطيته دولاراً كندياً واحداً. يُحتمل أن يعني الرجل بسيارتي مقابل هذا الدولار.

يُعتبر شارع ماين تجمعاً غريباً من الأشخاص الذين يجيئون التسكع في الليل، لكنني تمكنتُ من أن أشق طريقي من بينهم. شاهدتُ شحاذين، وبنات هوى، ومدمني عقاقير غير قانونية، وسواهاً. تجمع بعض المحاسين والباعة في مجموعات صغيرة، وبدا أنهم يستمتعون ويحتفلون. يبدو أن بعضهم اعتبر أن ما يجري هو مجردُ هو صاخب، بينما تصرف بعضهم الآخر وكأن ما يجري ليس سوى واقع يخلو من البهجة. رأيتُ لافتة جاء فيها: أهلاً بكم في فندق سان لوران.

جهزتُ خطتي هذه المرة، أي أنني أتحرّك الآن بشكلٍ يختلف عن زيارتي في المرة السابقة. سرتُ باتجاه سانت كاترين على أمل العثور على جويل تامبو. لم يكن الأمر بهذه السهولة. لم تكن جويل جزءاً من مجموعة المحلات الموجودة خارج فندق غرانادا.

عبرتُ الشارع وتأمّلتُ النساء اللواتي كنّ موجودات هناك. لم تسارع إحداهنّ إلى رشقي بالحجارة. اعتبرتُ ذلك مؤشراً جيداً. ما هي الخطوة التالية الآن؟ كوّنتُ لنفسني فكرة كافية عمّا يتعيّن عليّ الامتناع عن فعله، وذلك منذ زيارتي الماضية إلى هذا المكان. لم يساعدني هذا في معرفة ما يجدر بي القيام بي.

تعوّدتُ أن ألتزم بقاعدة لطالما أفادتني كثيراً في الحياة. تقول القاعدة لا تفعل شيئاً عندما تكون متشككاً. إذا لم تكن متأكداً فلا تقتنع، ولا تلتزم بشيء. الزم الهدوء. سبق لي أن ندمتُ كثيراً عندما خرقتُ هذا المبدأ. تذكرتُ ما حدث لي عندما ارتديتُ الفستان الأحمر بياقته المتجعدة. تذكرتُ أيضاً تلك الرسالة الغاضبة التي أرسلتها إلى نائب المستشار. قررتُ أن ألتزم بمبديتي هذه المرة.

وجدتُ حجراً إسمنتياً، لذا نظفته من قطع الزجاج المكسور، وجلست.
نظرتُ باتجاه غرانادا وانتظرت. انتظرتُ حتى طال انتظاري.

دهشتُ لفترة من الزمن عندما سمعتُ من حولي شيئاً يشبه موسيقى
المسلسلات التلفزيونية التي تماثل ماين تونز. حان وقت منتصف الليل، ومرّ وقتُ
تعداه. أشارت عقارب ساعتي إلى الواحدة صباحاً. نظرتُ إليها ثانية فإذا بها تشير
إلى الثانية. تحدّثت قصة المسلسل عن الإغراء والاستغلال. تذكرتُ مسلسلات
مثل: لماذا تسيين إلى أطفال، والشباب واليائسون. سلّيت نفسي بألعابٍ ذهنية،
وتصوّرت كل أنواع العناوين الرائعة.

حلّت الساعة الثالثة صباحاً، ففقدتُ الاهتمام بالقصة. شعرتُ بالتعب،
وبالإحباط، والضجر. عرفتُ سلفاً أنّ عملية المراقبة ليست شيقة، لكنني لم أكن
متحضرة للخدر الذي سببته لي. شربتُ كمية قهوة كافية كي تملأ حوض أسماك،
وحضرتُ قوائم لا حصر لها في ذهني، وحضرتُ رسائل عديدة عرفتُ أنني لن
أكتبها، ولعبتُ لعبة إحزر قصة حياة عدد كبير من الناس الذين يعيشون في
كيبك. مرّ من أمامي جيئةً وذهاباً عدد كبير من بنات الهوى والقوادين، لكن
جويل تامبو لم تظهر أبداً.

نهضتُ وانثيتُ إلى الورا، وفكّرتُ في تمسيد جسدي الذي كاد يقترب من
الخدر الكامل، لكنني قررتُ ألا أفعل. لن أجلس على حجرٍ إسمنتيّ في المرة القادمة،
ولن أبقى مستيقظة طيلة الليل في انتظار بنت هوى قد تكون ساسكاتون.

شاهدتُ، ما إن هيمأتُ للتوجه نحو سيارتي، سيارة بونتياك ستايشن بيضاء
اللون وهي تتقدم عند الناحية الثانية من الرصيف. خرجت سيدة ذات شعر
برتقالي، وتبعها وجه مألوف لامرأة ترتدي فستاناً ذا ظهر عار.

صفت جويل تامبو باب سيارة البونتياك، ثم انحنت نحو نافذة السائق كي
تقول له أمراً ما. بعد قليل، أسرعت السيارة مبتعدة، وانضمت جويل إلى امرأتين
جالستين على درج الفندق. بدت النساء مثل ثلاثيّ نسائيّ من سيّدات البيوت
اللواتي يتجاذبن أطراف الحديث على شرفة أمام منزل يقع في الضواحي،
وسرعان ما تسارعت ضحكاهن في هواء الصباح. وقفت جويل بعد برهة من
الزمن، ورفعت تنورها القصيرة، ثم تحركت مبتعدة.

بدأت الحركة تخف في شارع هاين، وبدأ الذين يبحثون عن مغامرات ليلية بالمغادرة، وظهر مكانهم عمال التنظيفات. مشيت جويل ببطء، وراحت تهزّ ردفها بحركات متناسقة. عبرت الشارع ومشيت خلفها مباشرة.

"جويل؟"

التفتت، ورأيته ترسم ابتسامة متسائلة على محياها. لم أتوقع رؤيتي أنا. تحركت عيناها لتفحص وجهي بكامله، وبدت مندهشة، وخائبة. انتظرته كي تذكرني.

"هل أنت مارغريت ميد؟"

قلت مبتسمة: "تمب برينان".

حركت يدها بطريقة أفقية، وكأنها ترسم عنواناً لكتاب، ثم تحدثت بلهجة إنكليزية جنوبية وبإيقاع هادئ: "هل تعدّين بحثاً كي تنشره في كتاب؟ هل عنوانه امرأة ضائعة، أو حياتي بين بنات الهوى؟"

ضحكت: "العلي سأبيع كتاباً من هذا النوع. هل أستطيع أن أمشي معك؟" هزت كتفها، وأخرجت نفساً عميقاً من رثتها، ثم التفتت لتتابع مشيتها المتهادية البطيئة. تبعته.

"أما زلت تبحثين عن صديقتك يا عزيزتي؟"

"كنت آمل أن أجدك أنت في الواقع. لكنني لم أتوقع أن تتأخري إلى هذا الوقت".

"ما تزال الدار مفتوحة يا عزيزتي. أنا مضطرة أن أعمل كي أبقى في المهنة".
"صحيح".

مشينا عدة خطوات من دون أن تبادل كلمة واحدة، لكن حذائي الرياضي أصدر أصواتاً تناغمت مع الأصوات المعدنية التي أصدرها حذاؤها.
"توقفت عن البحث عن غابي. لا أعتقد أنها ترغب أن يجدها أحد. جاءت لزيارتي منذ أسبوع، ثم غادرت مجدداً. أعتقد أنها ستظهر على نحو مفاجئ في الوقت الذي يناسبها".

نظرت إليها كي أتبيّن رد فعلها. هزت جويل كتفها، لكنها لم تقل شيئاً. تحرك شعرها اللامع مع الظلال أثناء سيرنا. شاهدنا بين الفينة والأخرى لوحات

نيون آخر المطاعم التي تقفل أبوابها، تُطفأ واحدة بعد أخرى. تحتفظ هذه المطاعم
برائحة شراب الشعير ودخان السجائر ليلة أخرى.

"أود، في الحقيقة أن أتحدث مع جويل".

توقفت جويل عن السير والتفتت نحوي. بدا وجهها متعباً، وكأن الليل قد
أفرغه من تعابيره، أو لعل الحياة هي التي فعلت ذلك. تناولت علبة من سجائر
بلايرز من أسفل شكل فتحة الفستان. أشعلت سيجارة، ونفخت دخانها نحو
الأعلى.

"يجدر بك أن تتوجهي إلى منزلك يا حلوة".

"لماذا تقولين هذا؟"

"أنت ما تزالين مصرة على ملاحقة القتلة، أليس كذلك يا عزيزتي؟"

لم تكن جويل تامبو غبية.

"أعتقد أنه لدينا قاتل هناك يا جويل".

"أعتقدين أن راعي البقر ذاك يعيث مع جويل؟"

"أنا واثقة من رغبتني بالتحدث إليه".

سحبت نفساً آخر من سيجارتها، ثم عصرتها بظفرها الطويل المطلي باللون

الأحمر، وراحت تراقب شرارتها تطفو فوق الرصيف.

"أحسرتك في المرة الماضية أنه يمتلك دماغاً صغيراً، وشخصية الضحية، لكنني

أشك في أنه قتل أحداً".

سألتها: "أتعرفين مكان تواجده؟"

"كلا. ينذر تواجده هؤلاء البلهاء. أعتقد أن ذكاهم محدود نوعاً ما؟"

"قلت إن هذا الرجل يُنذر بالسوء".

"لا تستطيعين سماع الكثير من الأخبار السارة هنا، يا عزيزتي".

"هل تواجده هنا في المدة الأخيرة؟"

راحت تتفحصني بتمعن، وحوّلت تركيزها إلى شيء آخر. بدا لي أنها

تستعرض صورة ما في ذهنها، أو أنها تذكّرت فكرة ما لم أستطع تحديدها. يبدو أن

المزيد من الأخبار السيئة تقبع في انتظاري.

"أجل، لقد رأيته".

انتظرت قليلاً. أخذت نفساً آخر من سيجارتها، وراحت تراقب سيارة
تتحرك ببطء في الشارع.
"لم أشاهد جويل".
سحبت نفساً آخر من سيجارتها، وأغمضت عينيها، واحتفظت بالدخان في
رئتيها، ثم نفخته إلى الأعلى.
"ولا صديقتك غايي".
لماذا لا أستغل الفرصة وأبذل المزيد من الضغط؟
"أعتقدين أنني سأتمكن من إيجادها؟"
"أقول لك بصراحة يا عزيزتي إنك لا تستطيعين إيجاد شيء من دون خريطة".
أليس رائعاً أن يشعر الإنسان بالاحترام؟
أخذت جويل آخر نفس لها من سيجارتها ورمّت بعقبها، ثم سحقتها بمخاطها.
"هيا يا مارغريت ميد. دعينا نتأكد من حصولنا على بعض الأهداف".

31

سارت جويل، لكن بتصميم هذه المرة. أحدث كعباً حذائها قرقعة على الرصيف. لم أكن واثقةً من المكان الذي تقودني إليه، لكن لا بد أنه أفضل من مقعدي الإسمنتي.

سرنا شرقاً وقطعنا شارعين، ثم غادرنا شارع سانت كاثرين، ومررنا وسط باحة كبيرة. مشت جويل بسرعة فبدت مثل تمثال من المشمش يتحرك وسط الظلمة، بينما تعثرت خلفها، وشققتُ طريقي وسط قطع الإسفلت، وعلب الألمنيوم، وقطع الزجاج المتناثرة، والخضار الفاسدة. كيف تستطيع أن تمشي بالكعب العالي؟

وصلنا إلى أقصى الشارع، وانعطفنا في ممر، ثم دخلنا إلى مبنى خشبي لا يحمل أي لافتة تشرح طبيعته. لاحظتُ أن النوافذ مطليّة باللون الأسود، وأن سلاسل من مصابيح أنوار الزينة توفر الإضاءة الوحيدة، وهي الأضواء التي أضفت وهجاً أحمر اللون يذكّر بالألوان الموجودة في أحد المعارض. تساءلت ما إذا كان هذا الأمر مقصوداً. هل قصد من ذلك إيقاظ سكان المبنى في وقت متأخر من الليل؟

رحتُ أتلفّت من حولي. احتاجت عيناوي إلى شيء من التأقلم، لأن كمية الضوء الموجودة في الداخل تختلف بعض الشيء عن الخارج. التزم مهندس الديكور بموضوع ذكرى الخامس والعشرين من كانون الأول فاختار وضع ألواح كرتون بلون الصنوبر على الجدران، واختار وضع الفينيل على المقاعد، ثم زينها بإعلانات شراب الشعير. رأيتُ حجرات خشبية داكنة الألوان مصفوفة على طول أحد

الجدران، بينما اصطفت على طول الجدار الآخر صناديق شراب الشعير. ملأ دخان السجائر أنفاس الملهي، مع أنه كان شبه فارغ، وكذلك كان الهواء مثقلاً برائحة المشروبات الرخيصة، والقيء، والعرق، ورائحة دخان السجائر غير القانونية. فضلتُ مقعدي الإسمتي على تواجدي في هذا المكان.

تبادلت جويل والنادل إيماءات التحية. لاحظتُ أن جلده كان بلون القهوة التي مضى يوم واحد على تحضيرها، وأن حاجبيه كثيفان. راقب الرجل تحركاتنا من تحتها.

سارت جويل على مهلٍ عبر الملهي، وتفحصت كل وجه من وجوه الموجودين بعدم اكتراثٍ ظاهرٍ. ناداها أحد الرجال الجالسين على مقعدٍ في زاوية الملهي. لَوَّح الرجل بكُوب شراب الشعير الذي يحمله في يده، وأشار إليها كي تنضم إليه. طَيرت جويل قِبله بإيماءة في الهواء، ثم لَوَّح لها ثانية.

ما إن مررنا أمام أول مقعد حتى امتدت يدي وأمسكت بمعصم جويل. استخدمت الفتاة يدها الأخرى كي تفك أصابع الرجل عن معصمها، وأعدت اليد إلى مكانها. "المكان مقفل يا عزيزي".

أدخلتُ يدي في جيبي، لكنني أبقيتُ نظري مركزاً على ظهر جويل. توقفت جويل عند ثالث مقعد، ووضعت ذراعها على شكل متصلب، وهزّت رأسها ببطء.

قالت: "يا إلهي!" قرقت لسانها على أسنانها العليا.

جلست الفتاة الوحيدة التي تشغل المقعد محدّقة بكوبٍ يحتوي سائلاً بني اللون، وأسندت مرفقيها إلى الطاولة، ثم أسندت خديها إلى قبضتي يديها. لم أستطع أن أرى سوى المنطقة العليا من رأسها. تدلى شعرها البني اللامع بصورة غير متساوية على طول مفرقها الذي انتشرت عليه بقعٌ بيضاء، واسترسل متراحياً على كل جهةٍ من جهتي وجهها.

قالت جويل: "جولي".

لم ترفع جولي وجهها.

طقطقت جويل بلسانها ثانية، ثم دخلت إلى الحجرة. تبعتها وشعرتُ بالارتياح لذلك الغطاء، حتى ولو كان ضيقاً. لاحظتُ أن سطح الطاولة يتمتع نتيجة شيء

لم أرغب بتجديده. أمدت جويل مرفقها على زاوية الطاولة، وتراحت، ثم راحت تمسح يدها. تناولت سيجارة وأشعلتها. ثم أخرجت الدخان إلى الأعلى بشكل ناعورة.

قالت بحدة أكبر: "جويل".

أسكت جويل أنفاسها ورفعت ذقنها.

"جويل؟" كررت الفتاة لفظ اسمها. بدت وكأنها هصت من نومها للتو.

أحسستُ ميوطاً في قلبي، بينما أظقتُ أساني على شفتي السفلى.

أوه، يا إلهي!

وجدتُ نفسي وأنا أنظر إلى وجه لم يأخذ نصيبه من الحياة لأكثر من خمسة عشر عاماً. يمكننا وصف لون هذا الوجه بتورعات مختلفة من اللون الرمادي. لاحظتُ الوجه الشاحب، والشفتين المفتوحتين، والعيير اللتين أترزقهما ألوان معتمة فدتا مثل عيني تحصر حُرْم من ضوء الشمس لمدة طويلة.

حدقتُ جويل با بشرود، وكأني صورتيًا تكوّناتاً بيضاء في دماغها، أو أنّ

عملية الإدراك هي عملية معقدة. وماذا بعد؟

قالت بالإنكليزية: "هل أستطيع أخذ واحدة يا جويل؟" مدتُ يداً مرتعشة

عبر الطاولة. بدت مطنّة مرفقها من الداخل بلونٍ أرحواني نتيجة انعكاس الوهج الخافت المنتشر في الغرفة. امتدتُ شرايين شاحبة ورفيعة في معصمها.

أشعلتُ جويل سيجارة بلاير وناولتها إياها. سحبت جويل دخان سيجارتهما

إلى عمق رئتيها، واحتفظتُ به قليلاً، ثم نفخته باتجاه جويل.

قالت: "أجل. أوه أجل". علقتُ سذرة صغيرة من ورق السجائر في شفتيها

السفلى.

أغمضتُ عينيها. وسحبتُ الدخان مجدداً، ثم انعمتُ كلياً في طقوس

التدخين. انتظرنا، وبدت جويل عاجزة تماماً عن القيام بعمل مزدوج.

نظرت جويل إليّ، لكنني لم أستطع فهم ما تقوله عيناها.

"هل كنت تعملين يا حبيبي جويل؟"

"قليلاً". سحبتُ نفساً آخر من سيجارتهما ونفثتُ سحابتين من الدخان من

أنفها. راقبتُ السحابتين الرماديتين أثناء تلاشيهما في الأضواء الحمراء.

بقيتُ أنا وجويل صامتتين أثناء انشغال جولي بتدخين سيجارتها. شككتُ أنها تتساءل عن أي شيء.

انتهت من التدخين بعد برهة من الزمن، وقذفت بعقبها بعيداً، ثم نظرت إلينا. أظن أنها بدأت تفكر في مغزى وجودنا في هذا المكان. قالت: "لم أتناول الطعام هذا اليوم". لاحظتُ أنّ صوتها كان شاردًا وفارغًا مثل عينيها تمامًا.

نظرتُ إلى جويل. هزّت كتفيها ومدت يدها كي تتناول سيجارةً أخرى. نظرتُ من حولي. لم أشاهد أي لوائح طعام ولا لوحات إعلانية في المكان. "يقدمون شرائح اللحم هنا".

"أتحبّين تناول واحدةٍ منها". قلتُ ذلك من دون أن أحسب النقود التي بحوزتي.

"يقوم بانكو بتحضيرها".
"حسنًا".

هضت من مقعدها ثم نادى النادل. "هل أستطيع الحصول على شريحة لحمٍ يا بانكو؟ مع الجبن، من فضلك". بدت مثل فتاة في السادسة من عمرها. "ألديك كبسولة يا جولي".

قلتُ: "سأحضر لك واحدة". مددتُ رأسي خارج الحجرة. شاهدت بانكو مستنداً إلى حوض غسيل الأطباق في الملهى وواضعاً ذراعيه في شكل متصالب فوق صدره. بدت ذراعه مثل أغصان شجرة البايابا.

سألني بطريقة استفزازية: "أتريدين واحدة فقط؟"
نظرتُ إلى جويل، فهزّت رأسها.
"أريد واحدة".

رجعتُ نحو الحجرة. شاهدتُ جولي بعد أن حشرت نفسها في الزاوية. أمسكت كورها بيديها الاثنتين. رأيتُ فكّها مرتخياً، فبدأ فمها مفتوحاً جزئياً، لكن شذرة الورق بقيت عالقةً بشفتها السفلى. أردت إزالة هذه الشذرة، لكنها بدت فاقدة الوعي. سمعتُ أزيز جهاز المايكرويف، ثم ارتفع الصوت قليلاً. وانشغلت جويل بالتدخين.

أطلق جهاز المايكرويف أزيزاً أربع مرات، ثم ظهر بانكو حاملاً شريحة اللحم وهي تطلق بخارها من خلال غلافها البلاستيكي. وضعها أمام جولي وراح ينقل بصره ما بين جويل وبينى. طلبتُ زجاجة صودا كلوب، لكن جويل هزت رأسها.

مزقتُ جولي الغلاف البلاستيكي، ثم رفعت الشطيرة كي تتفحص محتوياتها. تناولت قضمَةً منها بعد أن شعرت بالرضا عنها. أحضر بانكو الشراب الذي طلبته فاخترتُ نظرةً إلى ساعتى. أشارت عقاربها إلى الثالثة والعشرين دقيقة. بدأتُ بالاعتقاد أن جويل لن تقوى على الكلام ثانيةً.

"أين كنتِ تعملين يا حبيبتي؟"

قالت وسط تطاير اللحم والخبز من فمها: "أنا لا أعمل في مكانٍ محدد".

"لم أشاهدك منذ مدة".

"كنتُ مريضةً".

"هل تشعرين بتحسّن الآن؟"

"هم".

"هل تعملين في ماين؟"

"أحياناً".

قالت جويل بشيء من اللامبالاة: "هل ما تزالين تعبثين بشباب النوم؟"
"من تقصدين؟" مرّرت لسانها حول طرف شطيرتها، مثلما يفعل ولدٌ بمخروط من البوظة.

"أتكلم عن ذلك الشخص الذي يتسلح بالسكين".

قالت بشرود: "سكين؟"

"أتعرفين يا حبيبتي، يقوم ذلك الرجل الحقيقير بغرز سكينه عندما تعرضين ثياب نوم إحدى النساء؟"

تباطأ موضعها في البداية، وما لبث أن توقفت، لكنها لم تجبني. بدا وجهها جامداً ومصقولاً مثل علبه معجون، وشاحباً، ومن دون إظهار أي تعابير.

سمعتُ صوت أظافر جويل عند احتكاكها بسطح الطاولة. قلتُ لها: "هيا يا

حبيبتي، دعينا نسمي الأمور بأسمائها. أنتِ تعرفين عما أتكلم؟"

بلعت جولي ريقها، ورفعت رأسها، ثم أعادت انتباهها إلى شطيرتها.
"ماذا بشأنه؟" تناولت قضة أخرى.
"إنني أتساءل فقط إذا ما كان يتردد إلى هذا المكان."
قالت بشيء من الاضطراب: "ومن تكون؟"
"إنها تمب برينان، صديقة الدكتورة ماكولاي. أنت تعرفينها يا حبيبتي، أليس كذلك؟"
"هل حدث شيء ما لهذا الرجل يا جويل؟ هل أصابه مرض الآيدز، أو ما يشبه ذلك؟"
بدا الأمر وكأن أحداً يستنطق كرة الثمانية السحرية. يستنتج المرء إذا طفت الأجوبة أنها عشوائية، وليست مرتبطة بأسئلة محددة.
"لا يا حبيبتي. إنني أتساءل فقط ما إذا كان ما زال يتردد إلى هنا."
التقت عيناها بعيني جولي. بدت نظرات عينيها شاردة.
التمتع ذقتها بالزيت. سألتني: "أتعلمين معها؟"
أجابت جويل بالنيابة عني: "شيء من هذا القبيل. إنها ترغب بالتحدث مع هذا الرجل الذي يحب العبث بثياب النوم."
"وبشأن ماذا؟"
قالت جويل: "تريد التحدث عن المواضيع المعتادة."
"هل هي صماء، أو خرساء أو ما شابه ذلك؟ لماذا لا تتحدث بالنيابة عن نفسها؟"
بدأت بالتحدث، لكن جويل أشارت لي بالصمت.
لم تظهر جولي وكأنهما تتوقع الحصول على إجابة. أنهت آخر قطعة من شطيرتها، وما لبثت أن بدأت بلعق أصابعها الواحد بعد الآخر.
"وماذا بشأن ذلك الرجل؟ يا إلهي، لقد كان يتحدث عنها هو الآخر!"
اخترقتني موجة من الخوف.
اندفعتُ بالسؤال: "عمن كان يتحدث؟"
بدأت جولي بتفحصي ملياً بفكّها المرتخي، وفمها نصف المفتوح، أي مثلما كان من قبل. بدت غير قادرة - أو غير مستعدة - على إبقاء فمها مغلقاً عندما لا

تكون منشغلة في تناول الطعام أو التحدث مع الآخرين. تمكنت من رؤية بقايا الطعام في أسنانها السفلى.

سألتي: "لماذا تريدان التحقيق مع هذا الرجل؟"
"أحقق معه؟"

"إنه مصدر سعادتي الوحيد".

علقت جويل: "لا تعترزم الدكتورة التحقيق مع أي شخص، إنها تريد التحدث معه فقط".

ارتشفت جويل شراهما، فوجهتُ إليها السؤال ثانيةً.

"ماذا تعنين بقولك لقد كان يتحدث عنها هو الآخر، يا جولي؟" بانت نظرةٌ

تمّ عن الحيرة على وجهها. بدت وكأنها نسيت الكلمات التي تلفتت بها.

بدا التعب واضحاً في صوت جويل: "من هو ذلك الزبون الذي تتحدثين عنه يا جولي؟"

"أعرفين، كانت تلك السيدة التي تتردد إلى هنا. إنها تبدو مثل الرجال، كما أنها تضع حلقةً في أنفها، ويبدو شعرها غريب الشكل؟" رفعت خصلةً من شعرها، ووضعتها خلف أذنها. "إنها لطيفة مع ذلك. اشترت لي الكعك مرات عديدة. أليست تلك هي السيدة التي تتحدث عنها؟"
تجاهلتُ نظرة جويل الغاضبة نحوي.

"وماذا كان يقول ذلك الرجل عنها؟"

"أعتقد أنه زجرها، أو فعل شيئاً من هذا القبيل. لا أعرف. أنا لا أصغي إلى هذه الأمور، وأتجاهلها كلها، وأقفل على أذنيّ وفمي. هكذا أفضل."
"لكن هذا الرجل هو زبون دائم".

"إنه شبه زبون".

لم أستطع منع نفسي من طرح السؤال: "هل يأتي في أوقات محددة؟" نظرت جويل إليّ، وأومأت، كأنها تريد أن تقول لي "حسناً، افعلي ما يحلو لك".
"ما هذا يا جويل؟ لماذا تطرح عليّ كل هذه الأسئلة؟" بدت مثل طفلةٍ مجدداً.

"تريد قنب أن تتحدث إليه. هذا كل شيء".

"لا أرغب أن يصاب الرجل بأذى. إنه بغيضٌ بعض الشيء، لكنه يدفع بانتظام، وأنا في حاجة ماسة إليه".

"أعرف ذلك يا حبيبي".

ارتشفت جولي آخر كمية من مشروبها، ثم وضعت كوبها على الطاولة، لكنها تجنبت النظر إلي مباشرة.

"لن أمتنع عن الالتقاء به، ولا يهمني ما يقوله الآخرون عنه. أجل، إنه غريب بعض الشيء، وماذا في ذلك؟ لن يُقدم الرجل على قتلي إن لم أعطه أي شيء. اللعنة! لست مضطرةً إلى مطارحته الحب. ما عساي أفعل في أيام الخميس؟ هل أنتسبُ إلى صف تعليمي؟ أو هل أذهب إلى الأوبرا؟ هذا إذا لم أتصرف مثلما تفعل أي بنت هوى أخرى".

كانت تلك هي المرة الأولى التي تُظهر فيها انفعالها، كما أظهرت الحماسة التي يُظهرها المراهقون. بدا تصرفها هذا مناقضاً تماماً لحالة عدم الاكتراث التي أبدتها سابقاً. تأملت لأجلها، لكنني خشيتُ على مصير غايي، ولم أستطع التخفيف من هذا الشعور.

حاولتُ أن يأتي صوتي أكثر نعومةً: "هل رأيتِ غايي مؤخراً؟"
"ماذا؟"

"الدكتورة ماكولاي. هل رأيتها مؤخراً؟"

تعمّقت الخطوط الموجودة بين عينيها، فتذكرت مارغوت، مع أن ذلك الراعي يمتلك ذاكرة أقوى بالنسبة للماضي القريب.

قالت جويل بتركيز زاد خطوط العمر الظاهرة على وجهها عمقاً: "تلك المرأة المسنة التي تضع حلقةً في أنفها".

"أوه". أفضلت جولي فمها، ثم فتحته ثانية. "لا. كنت مريضة مؤخراً".

ابقي هادئة يا بريتان. هل تستطيعين تحمّل المزيد؟

سألتهَا: "هل تشعرين براحةٍ أكثر الآن؟"

هزّت كتفيها.

"هل ستكونين بخير؟"

أومأت.

"هل تحتاجين أي شيء آخر؟"

هزّت رأسها بالنفي.

لم أرغب بمضايقتها أكثر من ذلك، لكنني أردتُ معرفة المزيد: "هل تسكنين بالقرب من هنا؟"

قالت من دون أن تنظر إليّ: "أسكن في مارسيليا. أتعرفين المكان يا جويل، إنه في سان دومينيك؟ ينتهي معظمنا هناك".

أجل. حصلتُ على ما أريده، أو أنني كنت على وشك الحصول عليه. عانت جولي كثيراً من شريحة اللحم التي أكلتها، ومن الشراب الذي شربته، ومن كل شيء آخر قد تكون أفرغته في جوفها. تلاشى كل أثر للشجاعة التي أظهرتها سابقاً، وعادت حالة اللامبالاة لتسيطر عليها. فانزوت في زاوية الحجرة، وحدقت بعينيها اللتين أخذتا شكل دائرتين داكنتين ومرسومتين على وجه تمثال شاحب. أغلقتهما، وأخذت نفساً عميقاً، ثم حشرت صدرها الذي تبرز العظام منه في سترتها القطنية.

تلاشى وهج أضواء الزينة فجأة. وملاً الملهى وهج أضواء الفلوريسنت، وانصرف بانكو بالاستعداد لإقفال المكان. توجه الزبائن القلائل الذين كانوا لا يزالون في الملهى نحو الباب وهم يعربون عن تذمرهم. دسّت جويل علبه سجائر البلايسر في سترتها، وأشارت إلى أنها ستتبعهم. نظرتُ إلى ساعتي. أشارت عقاربها إلى الساعة الرابعة فجراً. نظرتُ إلى جولي، وسرعان ما اجتاح كياني، بقوة كبيرة، ذلك الشعور بالذنب الذي كنت أحاول كبتة طيلة الليل.

بدأت جولي وسط الأضواء أقرب ما تكون إلى جثة، أو مثل شخص يقترب ببطء من الموت. رغبتُ أن أتقدم منها وأضمّها بذراعيّ، وأن أحتضنها للحظة. رغبتُ حتى أن أصطحبها معي إلى منزلها في بايكونزفيلد، أو دورفال، أو شمالي هاتلي، أي حيث تعودت أن تتناول طعامها، أو أن تحضر الحفلات، وتشترى سراويلها المصنوعة من الجينز، مستعينةً بدليل لاندس إند. أدركتُ أن ذلك لن يحدث، وأكثر من ذلك، أيقنتُ أن اسمها سيأخذ طريقه إلى قوائم الإحصاء، أو إلى أقبية البارثينياس عاجلاً أم آجلاً.

دفعتُ الفاتورة، ثم غادرنا ذلك الملهى. امتلأ هواء الصباح البارد بالرطوبة حاملاً معه روائح النهر، ومصنع الشراب.

قالت جويل: "عمتما مساءً أيتها السيدتان. لا تبدأ بالرقص الآن".
حرّكت أصابعها، والتفتت، ثم سارت في الطريق محدثة أصواتاً بكعبي
حذاءها. غادرت جولي في الاتجاه المعاكس من دون أن تنطق بكلمة. جذبتني فكرة
التوجه إلى المنزل مثلما يفعل المغناطيس، لكن بقيّ عليّ الحصول على معلوماتٍ
أخرى.

توقفتُ قليلاً ونظرتُ إلى جولي. رأيْتُها تنطلق مسرعةً في الممر. افترضتُ أنه
يسهل عليّ اللحاق بها. كنتُ مخطئة، لأنها كانت قد اختفت في أحد المنعطفات
عندما تطلعتُ إلى نهاية الممر، فوجدتُ نفسي مضطرةً إلى الركض كي أُلحق بها.
اتّبعْتُ مساراً متعرجاً، وعبرتُ مسافات كبيرة، ثم سلكتُ طرقاً كثيرة كي
أصل إلى منزل متواضع يتألف من ثلاثة طوابق يقع في سان دومينيك. تسلّقت
الدرج، وبحث عن مفتاح شقتها، ثم اختفت من خلال باب أخضر اللون تقشّر
طلاؤه. شاهدتُ ستارة الباب البالية، وهي تحركُ قبل أن تستقر غير متأثرة
بالإغلاق العنيف للباب. أخذتُ رقم الشقة.

حسناً يا برينان. حان وقت النوم. وصلتُ إلى منزلي في غضون عشرين
دقيقة.

تدثرتُ بأغطية السرير، بينما فضّل بيروني أن يستقر على ركبتي. فكّرتُ في
وضع خطة في هذا الوقت. كان من السهل عليّ أن أفكّر بالأمر التي يجب أن
أمتنع عن فعلها. يجدر بي ألا أتصل برايان، وأن لا أخيف جولي، وأن لا أتبه ذلك
النذل الذي يتسلح بسكين، ويتلاعب بثياب نوم السيدات. لكن يجدر بي أن
أكتشف ما إذا كان ذلك الشخص هو سان جاك ذاته، وأن أعرف مكان سكنه،
أو على الأقل أين يتخذ مخبأه. يتعيّن عليّ أيضاً العثور على شيء مؤكد، ثم
الاتصال بالشرطة. ها أنتم هنا يا رجال، تعالوا، وداهّموا هذا المكان.
بدا الأمر، في البداية، في غاية البساطة.

مرّ يوم الأربعاء، وقد سيطر عليّ الشعور بالإفهام الشديد. لم أخطّط للذهاب إلى المختبرات، لكن لامانش اتصل بي قائلاً إنه يريد إعداد تقرير. قررتُ البقاء في المختبرات بعد وصولي إليها. بدأتُ بالبحث في الصناديق القديمة، وهي عملية بطيئة ومزعجة، ووضعتُ جانباً كل الصناديق الذي يريد دينيز التخلص منها. أكره القيام بهذه المهمة التي أجلتها منذ أشهر. بقيتُ هناك حتى الساعة الرابعة من بعد الظهر. وبعد وصولي إلى المنزل، تناولتُ عشاءً مبكراً، وأخذتُ حماماً طويلاً، ثم أويتُ إلى فراشي عند الثامنة مساءً.

تسلّلت أشعة الشمس عندما استيقظتُ من نومي صباح الخميس. أدركتُ أنّ الوقت قد تأخر. تمطيتُ، وتقلّبتُ في فراشي، ثم نظرتُ إلى الساعة التي أشارت عقاربها إلى العاشرة وخمس وعشرين دقيقة. تمكّنتُ بهذا من تعويض بعض ساعات النوم التي فاتتني. قضى الجزء الأول من الخطة التي رسمتها بعدم الذهاب إلى العمل.

نمضتُ من السرير ببطء، وراجعتُ في ذهني قائمة بالأعمال التي أنوي القيام بها. شعرتُ، ما إن فتحتُ عينيّ بأنني ممتلئة بالطاقة والحماسة مثل عداء يستعد للاشتراك في سباق الماراثون. أردتُ أن أسجّل رقماً قياسياً. اهدئي يا برينان. يتعيّن عليك أن تشتركي بذكاء في هذا السباق.

توجهتُ إلى المطبخ وحضرتُ قهوتي، ثم قرأتُ *الغازيت*. جاء في عدد ذلك النهار أنّ ألوف البشر قد فرّوا من مناطق القتال في رواندا. جاء في ذلك العدد

أيضاً أنّ الحزب الوطني الكيبيكي يتقدم بعشر نقاط على حزب الأحرار بزعامة رئيس الوزراء جونسون، كما أنّ فريق الإكسيو قد خرج من المركز الأول من بطولة الاتحاد الوطني. وجاء في الأخبار أيضاً أنّ العمال سوف يعملون في ذكرى البناء السنوي. إنّ الأمر في غاية الجدية هنا، وأنا لم أستطع أبداً أن أفهم مغزاه. نمتع في هذه البلاد بأربعة أشهر، أو خمسة، من الطقس الجميل تسمح لنا بالقيام بأعمال تشييد الأبنية، لكن البناء يتوقف لمدة أسبوعين في شهر تموز، وينصرف العمال لأخذ عطلة. يا للفكرة الرائعة!

تناولتُ كوب قهوتي الثاني، وانتهيتُ من قراءة الصحيفة. يبدو الأمر رائعاً حتى الآن. أستطيع الآن الانتقال إلى المرحلة الثانية، أي إلى نشاطات التسلية. ارتديتُ سروالاً قصيراً وكنزة، ثم توجهت إلى النادي الرياضي. أمضيتُ ثلاثين دقيقة فوق آلة ستاير ماستر، بالإضافة إلى جولة مع نواتيلوس. انتقلتُ بعد ذلك إلى بروفيغو، حيث اشتريتُ كميات من البقالة تكفي كليفلاند بأكملها. عدتُ إلى المنزل، وأمضيتُ فترة المساء بكاملها في تنظيف المنزل، وتلميع الأثاث، وإزالة الغبار، والكناسة. فكّرتُ مرةً في تنظيف الثلاجة، لكنني قررت عدم المضي في تنفيذ هذا القرار، لأنه كان سيُتعبني كثيراً.

هدأتُ فورة التنظيف عندي عند الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم. امتلأ المكان بعلب المنظفات البخّاحة، وعلب التلميع التي تفوح برائحة الليمون. أما طاولة غرفة الطعام فامتألت بثيابي وكنزاتي التي تكفيني مدة شهر كامل. بدا مذهري، مقابل مجهود التنظيف الذي بذلته، وكأنني قد حضرت من عطلة تخييم استمرت أسابيع عديدة. تحضرتُ للخروج.

تميّز ذلك النهار بارتفاع في درجة الرطوبة، ولم يكن المساء واعداً بالتحسن. انتقيتُ سروالاً قصيراً وكنزةً غير اللذين كنت ارتديهما أثناء عملي، كما انتعلتُ حذاءً رياضياً قديماً بعض الشيء. رائع! لم تكن الثياب المثالية كي يرتديها المرء أثناء سيره في الشارع، لكنها الثياب المناسبة لشخص يريد الطواف في هارينج بحذاءً عن مشروبات ترّوح عنه، أو عن رفيفٍ يؤنسه في ذلك المساء، أو عن كلا الأمرين. رحّتُ أستعرض الخطة في ذهني أثناء قيادتي السيارة في اتجاه سان لوران. كانت الخطوة التالية هي إيجاد جولي، وملاحقتها. أما الخطوة التي بعدها فكانت

إيجاد الرجل الذي يحب العيب بثياب النوم وملاحظته. قضت الخطة أن لا أَدع أحداً يراني، هكذا، بكل بساطة.

قَدْتُ سيارتي عبر شارع سانت كاثارين، وتفحصتُ رصيفي الشارع على الجانبين. رأيتُ عدداً قليلاً من النساء في أماكنهنَّ في غرانادا، لكنني لم ألمح جولي أبداً. لم أتوقع أن أتواجد في وقتٍ مبكرٍ مثل هذا. أعطيتُ نفسي متسعاً من الوقت كي أصل إلى المكان.

صادفتني المشكلة الأولى عندما انعطفتُ إلى الطريق الذي أقصده. فظهرت أمامي امرأة ضخمة، وكأنها جنيّ هرب من قممته. وضعت تلك المرأة مواد تجميل من ماركة تامي بايكر، لكنها تميّزت بعنق يشبه رقبة كلب كثيف الشعر. لم أستطع أن أفهم كل الكلمات التي تفوّهت بها، لكنني فهمتُ ما تريد أن تقوله. تراجعْتُ بسيارتي وقدّتها بحثاً عن مكان آخر كي أركن سيارتي فيه. عثرتُ على هذا المكان على بُعد ستة مجتمعات شمالاً. يقع هذا المكان في شارع فرعي ضيقٍ تنتشر على جانبيه البيوت التي تضمُّ ثلاث شقق. يا للمدينة الحارّة! وعلى الأخص صيفها. بدأت العيون المراقبة عملها في هذا الحيّ. لاحقتني عيون الرجال من إحدى الشرفات، بينما لاحقتني عيونٌ أخرى من أمام مداخل البيوت. توقف الرجال عن متابعة أحاديثهم، بينما وضعوا زجاجات شراب الشعير على ركبهم المتعركة. هل هم عدائيون يا ترى؟ هل هم فضوليون؟ أم يتميزون بعدم الاكتراث؟ أم أنهم يكثرثون كثيراً؟ لم أبقَ في المكان مدة تكفي للسماح لأي شخص بالاقتراب مني. أقفلتُ أبواب السيارة، ثم أسرعتُ بالابتعاد حتى نهاية المجمع. هل أفرطتُ بالعصبية؟ ربما، لكنني خشيتُ حدوث تعقيدات جديدة قد تعيق مهمتي.

شعرتُ بالارتياح عندما عبرتُ المنعطف واختلطتُ بمشرد الناس الذي يسير في شارع سان لوران. أعلنت الساعة الموجودة في لا بون ديلي عن الثامنة وخمس عشرة دقيقة. اللعنة! أردتُ أن أتواجد في المكان في هذا الوقت بالذات. هل يجدر بي أن أعدّل خطتي؟ ماذا لو لم أستطع الالتقاء بها؟

وصلتُ إلى سانت كاثارين، وعبرتُ سان لوران، وتفحصتُ الأشخاص المتواجدين أمام غرانادا مجدداً. لم أعثر على جويل أبداً. هل ستأتي إلى هنا في المقام

الأول؟ أي طريق ستسلك؟ اللعنة! لماذا لم أحضر في وقت أبكر؟ لا وقت لدي الآن للتردد.

أسرعتُ ناحية الشرق، ورحتُ أتفحص الوجوه التي تمرّ من أمامي على جهتي الشارع، لكن أعداد المارة زادت كثيراً، وهذا ما صعّب عليّ كثيراً مهمة التعرف عليها. توجهتُ شمالاً نحو باحة خالية، وتعمدتُ السير على الطريق ذاته الذي سارت عليه جويل قبل ليلتين من الآن. ترددتُ قليلاً لكنني مضيتُ، وراهنْتُ مجدداً على أن جولي لن تنصرف باكراً.

وجدتُ نفسي بعد مضي دقائق قليلة وأنا أقف خلف عمود في أقصى شارع سانت دومينيك. كان الشارع مهجوراً وساكناً. لم يصدر عن المبنى الذي تسكن فيه جولي أي إشارات تدل على الحياة، فالنوافذ مظلمة، ومصباح المدخل غير مضاء، وقد بدا الطلاء متقشراً في أضواء الغسق في هذا الجو الحار المشبع بالرطوبة. ذكّرني هذا المنظر بصور سبقت لي أن رأيتها في أبراج الصمت. تحتفظ بعض طوائف الهنود في هذه الأبراج بمنصات يضعون أمواتهم عليها، ثم يتركون الطيور الكاسرة تقوم بعملها في تجريد العظام من اللحم. وجدتُ نفسي أرتعش وسط الحرارة المخيِّمة.

مرّ الوقت متباطئاً، واكتفيتُ بالمراقبة لفترة. ظهرت امرأة مسنة على مسافة بعيدة مني. رأيتها تجرّ عربة مليئة بالأقمشة. جهدت المرأة كثيراً في جرّ حملها فوق الرصيف غير الممهّد قبل أن تختفي في زاوية الشارع. بدأ الطنين المعدني لدواليب العربة بالتلاشي قبل أن يختفي تماماً. لم تتردد في الشارع أصوات تخترق النظام الصوتي غير المنتظم فيه.

نظرتُ إلى ساعتي التي أشارت إلى الثامنة والأربعين دقيقة. خيَّمت الظلمة التامة على الشارع في هذا الوقت. كم من الوقت يجدر بي أن أنتظر؟ ماذا لو كانت قد غادرت بالفعل؟ هل يجدر بي أن أقرع الجرس؟ اللعنة! لماذا لم أحضر في الوقت المناسب؟ لماذا لم أحضر في وقت أبكر؟ يبدو أن خطتي بدأت تعاني من بعض العيوب.

مرّت فترة أخرى من الوقت، ولعلها دقيقة. كنتُ قد بدأت أفكّر بمغادرة المكان حينما أضاء مصباح في غرفة تقع في الطابق العلوي. ظهرت جولي بعد وقت

قليل. رأيتها ترتدي تنورة قصيرة، وبلوزة من دون أكمام، كما انتعلت حذاءً يصل إلى مستوى الركبة. بدت وجهها، ومنطقة وسط بطنها، وفخذاها، شديدة البياض حتى وسط ظل سقيفة المدخل. تراجعت قليلاً كي أقف وراء العمود.

ترددت قليلاً، ثم رفعت ذقتها، وغطت منطقة وسط بطنها بيديها. بدت لي وكأنها تختبر برودة الليل. نزلت الدرج بعد ذلك، ومشيت بسرعة كبيرة باتجاه سانت كاثرين. تبعتها، وحاولت أن أبقياها في مجال نظري، ومن دون أن تنتبه إلى وجودي.

فاجأتني عندما وصلت إلى المنعطف، أي عندما استدارت يساراً، فابتعدت بذلك عن ماين. لم تخطي بالحيء إلى غراناذا يا برينان، لكن إلى أين تتوجه هذه الفتاة الآن؟ شقت جولي طريقها بسرعة بين المارة، وراحت شرائط حذائها العالي تتأرجح مع سرعة سيرها، لكنها لم تكثرث للأصوات التي تشبه أصوات القطط والذئاب، بل توجهت نحوها. عرفت الفتاة طريقة السير الفضلى بين الحشود، لذلك بذلت جهداً كبيراً كي ألتحق بها.

قلت كثافة المارة كلما اتجهنا ناحية الشرق، حتى وصلنا أخيراً إلى مكان لم يبق فيه أحد. عمدتُ إلى جعل المسافة الفاصلة بيننا أطول كلما خفت أعداد المارة على الرصيف، لكنني أدركتُ أن هذا الإجراء لم يكن ضرورياً، لأن جولي ركزت على المكان الذي تقصده، ولم تكثرث أبداً بالناس الذين يمشون على الرصيف.

لم يكن خلو الشارع من المارة هو التغير الوحيد الذي لاحظته، لأن الحي الذي وصلنا إليه كان يتميز بطابعٍ آخر. رأيتُ في سانت كاثرين الكثير من المتأنقين الذين يخلقون شعر رؤوسهم بالكامل، وبعض المدمنين الذين يرتدون سترات فضفاضة وسراويل جينز بألوان مختلفة...

تبعْتُ جولي ومررتُ أمام عدد من المقاهي، ومحلات بيع الكتب، والمطاعم المتخصصة العائدة لجاليات معينة. اتجهتُ شمالاً آخر الأمر، ثم سارت شرقاً قبل أن تأخذ اتجاه الجنوب. وصلت إلى شارع مقفل يضم مجموعة من المستودعات، والأبنية الخشبية المهملة التي تغطي نوافذ بعضها الألواح المعدنية المضلعة. بدت بعض هذه الأبنية وكأنها جهزت لتكون محلات تجارية على مستوى الشارع، مع أنها تبدو وكأنها لم تستقبل زبوناً واحداً منذ أعوام عديدة. رأيتُ أكداساً من

الأوراق، والعلب الفارغة، والزجاجات، ملقاة على الرصيف في الجانبين. بدا المكان وكأنه مجهز للطيور، أو لأسماك القرش.

اتجهت جولي مباشرة نحو مدخل أحد أبنية هذه المجموعة. فتحت باباً زجاجياً قدرأً تغطيه شبكة معدنية مزخرفة. تكلمت قليلاً قبل أن تختفي في الداخل. تمكنت من رؤية وهج لافتة دعاية مضاءة لشراب الشعير من خلال نافذة موجودة إلى يميني. لاحظتُ أن النافذة محمية بشبكة حديدية. قرأتُ اللوحة المعدنية التي وُضعت فوق الباب والتي لم تزد عن كلمتين: شراب الشعير والشراب الفرنسي.

والآن ماذا أفعل؟ هل هذا المكان هو بيت للمواعدة، يشتمل على غرفة خاصة في الطابق العلوي أو في الخلف؟ أم أنه ملهى يتفق الشريكان على الالتقاء فيه، ويغادران منه؟ تمنيتُ أن يكون هذا المكان هو مكان مغادرتهما معاً. أما لو غادر كل واحد منهما بمفرده، فمعنى ذلك أنهما أنهما عملهما، وأن خطتي قد أُحبطت، وفي هذه الحالة لن أعرف من سألاحق.

عجزتُ عن الوقوف في الخارج والاكتفاء بالانتظار. هل أسير في ذلك الممر الضيق؟ سرتُ من أمام ملهى شراب الشعير الذي دخلته جولي، ثم انخرقتُ تجاه بقعة مظلمة. كان ممراً بين محل حلقة مهجور، وشركة تخزين. كان هذا الممر لا يتجاوز القدمين في العرض، لكنه مظلم مثل قبر.

تسارعت نبضات قلبي، لكنني حشرتُ نفسي مع الجدار في هذا الممر الضيق. اختبأتُ وراء لوحة متشققة وصفراء تابعة لمحل الحلقة وتمتدلية فوق الممر. مرّت دقائق عديدة. كان الهواء ساكناً ومثقلاً، ولم أسمع أي حركة غير صوت تنفسي. أجفلتني حركة مفاجئة. لم أكن وحدي، جهّزتُ نفسي للفرار، لكن في هذه اللحظة بالذات سقطت أمام أقدامي كتلة صغيرة من النفايات قبل أن تندرج في هذا الممر الضيق. شعرتُ بضيق في صدري، واخترقت جسدي قشعيرة بردٍ من جديد رغم الحرارة.

اهدئي قليلاً يا برينان. لعله أحد القوارض. هيا يا جولي!

كان جولي سمعتني، لأنها ظهرت مجدداً متبوعةً برجل يرتدي كسرةً داكنة اللون تحمل كلمات جامعة مونتريال على صدره المقوس. احتضن الرجل كيساً ورقياً فوق ذراعه اليسرى.

ازدادت سرعة نبضات قلبي أكثر فأكثر. هل هذا هو الرجل الذي أبحث عنه؟ هل هو صاحب الوجه الذي تظهر صورة وجهه في البطاقة المصرفية؟ هل هو الرجل الذي كان يركض في شارع بيرغور؟ جهدتُ كي أتعرف على ملامح الرجل، لكن الظلام الدامس منعي، كما أنه كان بعيداً عني. هل أستطيع التعرف على سان جاك، حتى ولو اقترب مني؟ أشك في ذلك. لم تكن معالم الصورة واضحة، كما أن الرجل الذي رأيته في الشقة كان سريعاً جداً.

نظر الرفيقان أمامهما مباشرة، لكنهما لم يتلامسا أو يتكلما. بدا الاثنان مثل حمامتين عائدتين إلى مكاهما الأصلي، وسارا في الطريق الذي سبق لي أن سرتُ عليه مع جولي، لكنهما انحرفا في سانت كاثارين، حيث تابعا سيرهما جنوباً بدلاً من التوجه غرباً. انعطفا مرات عديدة، ثم تعرجا مع الشوارع التي تنتشر على جانبيها الشقق والمكاتب المهجورة. كانت الشوارع مظلمة وغير وديّة.

تخلفتُ عنهما بعض الشيء، وجهدتُ كي أسمع كل خربشة وصوت مهما كان خافتاً، واحترستُ من أن يكشفتا وجودي خلفهما، لكن لم يكن هناك من شيء يخفيين عن أنظارهما. أدركتُ أنني لن أجد لنفسي عذراً يبرّر وجودي في ما لو التفتا وشاهداني، وكذلك لا توجد واجهات محلات كي أتطلع فيها، ولا أي مداخل يمكنني الدخول إليها، ولا حتى أي شيء يمكنني الاختباء خلفه، سواء أكان مادياً أم معنوياً. تمثل خيارَي الوحيد في أن أستمّر في المشي، مع الأمل أن أكتشف طريقاً فرعياً قبل أن تتمكن جولي من التعرف عليّ. لم يتلفتا خلفهما، لحسن حظي!

تابعنا المسير خلال شبكة الطرقات والأزقة، وقد بدت الطرقات خالية من الناس. مرّ رجلان في الاتجاه المعاكس في أحد الأماكن، وراحا يتجادلان بأصوات متوترة وقوية. دعوتُ في داخلي كي لا تتطلع جولي ورفيقها نحو الرجلين. لم يفعلا، بل بقيا يمشيان قبل أن يختفيا في أحد المنعطفات. أسرعتُ في سيري لأنني خشيتُ أن أفقد أثرهما في تلك الثواني التي يختفيان فيها عن أنظاري.

كانت ظنوني في محلها، لأنهما اختفيا ما إن دخلتُ في المنعطف. وجدت المكان هادئاً وخالياً.

اللعنة!

تفحصتُ الأبنية الموجودة على الجهتين، ورحتُ أنقلُ بصري إلى الأعلى وإلى الأسفل، وإلى كل السلاالم الحديدية، وتمنعتُ في كل مداخل البيوت. لم أجد شيئاً، ولا حتى أي علامةٍ على وجودهما.

اللعنة!

مشيتُ على الرصيف، وشعرتُ بالغضب من ذاتي لأنني فقدتُ أثرهما. كنت قد قطعْتُ بعض المسافة في اتجاه الزاوية التالية عندما فُتح بابٌ. نظرتُ لأرى رفيق جولي يظهر على إحدى الشرفات التي يحيط بها سياجٌ حديديٌّ علاه الصدأ، والتي لا تبعد عن يميني سوى عشرين قدماً إلى الأمام. وقف الرجل على مستوى الكتف وقد أدار ظهره إليّ، لكن كنزته بدت هي ذاتها. جُمدت في مكاني عاجزاً عن التفكير، أو القيام بأي حركة.

قذف الرجل شيئاً ما من فمه باتجاه الرصيف، ومسح فمه بظاهر يده، ثم عاد مجدداً إلى الداخل مغلقاً باب الشرفة ورائه، ومن دون أن ينتبه لوجودي.

وقفتُ حيث أنا شاعرةٌ بضعف شديد في ساقَيّ، وعاجزةٌ تماماً عن الحركة.

يا للخطوة الرائعة يا برينان! هل تشعرين بما يكفي من الرعب كي تسهمي في إنهاء هذه المسرحية؟ لم لا تضيئين شعلة وتطلقين صفارة الإنذار؟

كان المبنى الذي اختفى الرجل فيه يقع ضمن صف من الأبنية المتراسة، بشكل بدت معه وكأنها تدعم بعضها بعضاً، وبحيث أن المجموعة بكاملها ستتداعى لو أن أحدها قد أُزيل. لاحظتُ أن لافتةً علقت عرّفت المبنى باعتباره لو سان فيتوس، وعرضت شققاً للسواح. حسناً.

تُرى أيكون هذا المبنى منزله أم مجرد مكانٍ لغرامياته؟ أجبرتُ نفسي على الانتظار فترةً أكبر.

بحثت مجدداً عن مكانٍ أختبئ فيه. وجدتُ، مجدداً، مكاناً اعتبرته فجوةً تصلح كي أختبئ فيها في أقصى الشارع. عبرتُ الشارع ثانيةً وتأكدتُ أنه كذلك فعلاً. هل أسجّل تقدماً؟ لكن ربما كنت محظوظة فقط.

أخذتُ نفساً عميقاً، ودخلتُ إلى عتمة ذلك الممر الجديد. شعرتُ وكأنني أزحف إلى داخل مستوعب نفايات دهبستر. كان الهواء دافئاً ومثقلاً برائحة البول. تضايقتُ كثيراً من وجودي في هذا المكان.

وقفتُ في مساحة ضيقة، فاضطرت إلى نقل مركز ثقلِي من قدمٍ إلى قدم. منعتُ نفسي من الاستناد إلى الجدار بسبب العناكب، والصرصر، التي كانت محتجزة قرب محل الحلاقة، أما الجلوس فكان أمراً غير وارد أبداً. مرّ الوقت متباطئاً. لم تبرح عيناى سان فيتوس، لكن أفكارِي ارتحلت إلى أمكنة أبعد بكثير. فكّرتُ في كاتي، كما فكّرتُ في غايي، بالإضافة إلى سان فيتوس. ما هو موقفه بشأن وكر الجرذان هذا الموجود على الجانب الآخر الذي سمّي باسمه؟ ألا يُطلق اسم سان فيتوس على أحد الأمراض؟ أم أن ذلك كان سان ألمو؟

فكّرتُ في سان جاك. كانت الصورة المثبتة في البطاقة المصرفية الآلية غير واضحة بشكلٍ لا يُمكن معه تمييز الوجه. كانت تلك السيدة المسنة على حق عندما قالت إن والدته لن تعرفه من هذه الصورة. يستطيع الرجل أن يغيّر لون شعره، وأن يُطلق لحيته، كما أنه يستطيع وضع نظارة، كي لا يتعرّف عليه أحد. شيّد الإنكا شبكة طرقات، واستطاع هنيئيل عبور جبال الألب. استولى سبتي على العرش، لكن أحداً لم يدخل شارع سان فيتوس ولم يخرج منه. حاولتُ عدم التفكير في الأمور التي كانت تحدث في إحدى الغرف التي يضمها. تمنيتُ أن يكون دوام هذا الرجل قصيراً. اهدئي يا برينان، هناك دائماً مرة أولى لكل شيء. لم تكن هناك فرصة لهبوب نسمة هواء في هذه الفجوة الضيقة، كما أن الجدران الحجرية احتفظت بالحرارة التي تجمّعت طيلة هذا اليوم. ازدادت لزوجة قميصي، فالتصقت بصدري. تصبّب العرق من شعر رأسي فأصبح لزجاً هو الآخر، وانفلتت بين الحين والآخر حبيبات العرق لتنساب على وجهي، أو رقبتي.

عدلتُ وضعية وقفتي ورحتُ أفكّر. لم يكن الهواء صالحاً للتنفس. ومضت السماء ودمدمت قليلاً. هل السماء تتدمر هي الأخرى؟ مرّت السيارات بين الحين والآخر، فكانت تضيء الشارع وتمضي لتعيده إلى أحضان الظلمة من جديد. بدأت عوامل الحرارة والرائحة، والاحتجاز في هذا المكان الضيق، تُثقل عليّ. شعرتُ بأنّ لم بين عينيّ، أما حنجرتي فكانت تستعد للتقيؤ. فكّرتُ في تأجيله. جرّبتُ وضعية القرفصاء أيضاً.

فجأةً، ظهر جسمٌ ما فوقيّ! تفجّرت الأفكار في عقلي في أنحاء لا تحصى. هل
الممر الذي احتميتُ فيه مفتوحٌ من خلفي في الناحية الأخرى؟ يا لغبائي! لم أحاول
أن أبحثُ لنفسي عن طريقٍ للهروب!

أفحم الرجل نفسه في هذا الممر، وراح يتلمس شيئاً ما في خصره. نظرتُ نحو
آخر الممر من خلفي، لكن الظلمة كانت حالكةً جداً. أدركتُ أنني وقعت في
مصيدة!

بدا الأمر وكأنه مسألة فيزيائية تتواجد فيها قوى متعادلة ومتعاكسة. هُضتُ
بسرعة، لكنني تعثرتُ بسبب ضعف ساقيّ. تراجع الرجل إلى الخلف هو الآخر،
وبدت مسحة من الصدمة على محيّاها. أدركتُ أنه آسيوي، رغم أنني لم أشاهد،
بوضوح، سوى أسنانه وعينييه اللتين بدت الدهشة عليهما، وسط كل هذه الظلال
القائمة.

ضغطتُ على الجدار طلباً للدعم والتغطية. نظر الرجل إليّ بطريقة غريبة، وهزّ
رأسه وكأنه ارتبك، ثم ترنّح الرجل قليلاً قبل أن ينطلق في الحي منشغلاً بتسوية
قميصه، وإقفال زمام سترته.

تسمرتُ في مكاني لبرهةٍ قصيرةٍ، وحاولتُ تهدئة دقات قلبي التي تسارعت
بشكل خيالي.

هل كان الرجل مجرد مدمنٍ أراد أن يتبول فقط؟ اختفى الرجل عن أنظاري.
ماذا لو كان هو سان جاك بذاته؟
لم يكن الأمر كذلك.
لم تتركني لنفسك مخرجاً يا برينان، وهكذا تصرفتِ بغباوة، وقد يؤدي
تصرفك هذا إلى هلاكك.
كان الرجل مدمناً فقط.
اذهبي إلى المنزل يا برينان. أعتقد أن جاي. أس. على حق. اتركي الأمر
لرجال الشرطة.

لكنهم لن يقوموا بالعمل الذي أقوم به.
إنها ليست مشكلتك أنت.
لكن غاي هي مشكلتي أنا.

أَيَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ فِي سَانْتِ آدِيلِ؟

هل يجدر بي أن أتوجه إلى هناك؟

تابعتُ مراقبتي بعد أن هدأتُ قليلاً. فكّرتُ أكثر بسان فيتوس، وتحديدًا برقصة سان فيتوس. أجل، فقد لقيت هذه الرقصة انتشاراً واسعاً في القرن السادس عشر. شعر الناس عندها بالعصبية والتوتر، ثم بدأت أطرافهم بالارتعاش. ظنوا أنهم يعانون نوعاً من الهستيريا، لذلك قصدوا مكان سان فيتوس. لكن ماذا بشأن سان أنطوني؟ وماذا بشأن النيران؟ هل نتجت عن نوع من الفطريات في الحبوب. ألم تتسبب هذه في جعل الناس يتصرفون كالجائنين؟

فكّرتُ في المدين التي أحب أن أزورها. مدنٌ مثل آييلين، وبانكوك، وشيتاكونغ. أحببتُ ذلك الاسم على الدوام: شيتاكونغ. أم لعلني سأذهب إلى بنغلادش. كنتُ ما أزال أفكّر في المدين التي يبدأ اسمها بحرف D عندما خرجت جولي من سان فيتوس، وسارت بهدوء في الشارع. بقيتُ في مكاني. لم تعد هذه الفتاة دليلي.

لم أجد نفسي مضطرة للبقاء في مكاني لوقتٍ طويلٍ، لأن فريستي قد غادرت المكان بدورها.

أفسحتُ المجال للرجل كي يتعد عني قليلاً، ثم انطلقتُ في إثره. ذكّرتني حركاته بجرذ النفايات الذي سبق لي أن رأيته. انطلق الرجل بسرعة، وأحني كتفيه، ثم مال برأسه، ولاحظتُ أنه يتمسك بشدة بالكيس، ويضغط به على صدره. لحقتُ بالرجل، وبدأ عقلي يقوم بمقارنة من يسرع الخطو أمامي بذلك الشخص الذي رأيته مندفعاً من تلك الغرفة الموجودة في شارع بيرغر. لم تكن المقارنة مناسبة، لأنني كدتُ أنسى ملامح ذلك الرجل، لكن سان جاك كان سريعاً جداً، كما أن ظهوره كان مباغتاً. **يُحْتَمَلُ** أن يكون الرجل ذاته، لم أتمكن من النظر إليه جيداً في المرة الماضية. تأكّدتُ - مع ذلك - من أن هذا الرجل لا يتحرك بسرعة تحرك سان جاك.

شققتُ طريقي للمرة الثالثة خلال ثلاث ساعات وسط متاهة من الشوارع الفرعية غير المضاعة. لاحقتُ فريستي مقتربةً منها بقدر ما سمحت لي به شجاعتي. دعوت في سرّي كي لا يتوقف الرجل عند حانة أخرى كي يتناول كأساً من شراب الشعير. لم أعد قادرة على تمضية وقتٍ آخر في المراقبة.

اكتشفتُ أنّ قلقي لا أساس له، لأن الرجل انعطف مباشرةً في آخر الأمر نحو أحد المحلات المبنية بالحجر الرمادي اللون وذي مدخل مقوّس، وذلك بعد أن تعرّج خلال متاهة من الشوارع الفرعية، والممرات الجانبية. بدا المحل مشابهاً لمئات المحلات التي مررتُ من أمامها هذه الليلة، لكنه لا يعاين من درجة الإهمال ذاتها التي تعاني منها تلك المحلات. لاحظتُ أنّ الأحجار أقلّ وساحةً، أما الدرج الحديدي الصدئ الذي يتصل بالأبواب فكان لا يتطلب الكثير من الطلاب.

تسلّق الرجل الدرج بسرعة، وتصاعدت في الهواء الأصوات المعدنية لوقع قدميه، ثم اختفى من خلال باب منقوش ومزخرف. أضواء مصباحاً كهربائياً في الطابق الثاني في الوقت نفسه تقريباً. لاحظتُ أنّ النوافذ نصف مفتوحة، وأنّ الستائر معلقة بإهمال ومن دون حياة. تحرك خيال شخصٍ في أنحاء الغرفة، ولم يكن يحجب منظره عني سوى قماش الستائر المخرم والشاحب.

عبرتُ الشارع وانتظرت. لم أحشر نفسي في ممر ضيق هذه المرة. بقي الرجل يتحرك جيئةً وذهاباً في الغرفة لفترةٍ من الزمن قبل أن يختفي. انتظرت.

إنه هو يا برينان. إنه هنا أمامك.

يُحتمل أنه أتى كي يزور شخصاً ما، ويعطيه شيئاً ما.

لقد أمسكت به يا برينان. هيا انطلقني.

نظرتُ إلى ساعتي وقد أشارت إلى الحادية عشرة وعشرين دقيقة. ما زال الوقت مبكراً، وأستطيع الانتظار عشر دقائق أخرى.

استغرق الأمر وقتاً أقل. عاد الشخص ليظهر من جديد، وفتح النوافذ على مصراعها قبل أن يختفي ثانيةً. أظلمت الغرفة. هل حان وقت النوم؟

انتظرت خمس دقائق أخرى كي أتأكد أن أحداً لم يغادر المبنى، وعندها لن أحتاج إلى مزيد من الإقناع. يستطيع رايان ورجاله أن يكملوا العمل من هذه النقطة. دونتُ العنوان وبدأت أسلك طريقي عائداً إلى السيارة، وتمنيت أن لا أتأخر في إيجادها. ما زال الهواء مثقلاً بالرطوبة، وبقيت درجة الحرارة عالية، مثلما كانت في منتصف وقت الظهيرة. لم تحرك أوراق الأشجار وستائر النوافذ ساكناً، وكأنها تنتظر أن تحف بعد غسلها. توهجت أضواء النيون في شارع سان لوران عبر أسطح المباني

المظلمة، وأرسلت أضواءها إلى متاهة الشوارع التي سلكتها مسرعةً.
أشارت ساعة لوحة القيادة في سيارتي إلى منتصف الليل عندما وصلت إلى
المرآب. إنني أحرز تقدماً. وصلت إلى منزلي قبيل الفجر.
لم أتنبه إلى ذلك الصوت في البداية. كنتُ قد وصلت إلى آخر المرآب،
وبدأتُ بالبحث عن مفتاحي عندما انتبه عقلي الواعي أخيراً إلى ذلك الصوت.
جمدتُ في مكاني وأصغيتُ جيداً. كان صوتاً حاداً وعالياً يأتي من خلفي، وقرب
مدخل السيارات بالتحديد.

مشيتُ في ذلك الاتجاه في محاولة مني لتحديد مصدر الصوت. توصلتُ طبيعة
ذلك الصوت أكثر فأكثر، وأصبحتُ النغمة مثل قرع طبول متقطع. اقتربتُ أكثر
فأيقنتُ أنّ تلك الضجّة إنما تأتي من باب يقع إلى يمين منصة وقوف السيارات. بدا
الباب مغلقاً، لكن تبين لي أنّ القفل لم يكن في مكانه تماماً، أي أنّ ذلك كان سبب
تشغيل جهاز التنبيه.

دفعتُ الباب في البداية ثم سحبتُ مزلاج الأمان، ودفعتُ الباب فأقفل تماماً.
توقف الصوت على الفور، وهكذا بدا المرآب هادئاً تماماً. صممتُ على لفت
أنظار ونستون إلى هذا العطل الطارئ في ما بعد.

بدت شقوتي باردةً ومنعشةً، بعد أن قضيتُ تلك الساعات الطويلة في أماكن
ضيقة وقذرة. وقفتُ برهةً من الوقت في الردهة كي أسمح للهواء المبرد أن يمر فوق
جلدي الحار. أصّر بيودي على المرور جيئةً وذهاباً ملامساً ساقِي، ورافعاً ظهره،
بالإضافة إلى إسماعي خرخرته في ترحيبه المعتاد بي. تطلعتُ إلى الأسفل. رأيتُ بضع
شعرات بيضاء وناعمة تلتصق بساقي المتعرقتين. مسدتُ رأسه، ووضعتُ الطعام في
طبقه، ثم انصرفتُ كي أتفحص الرسائل التي تلقيتها. لم أجد في الجهاز سوى
اتصال مقطوع. توجهتُ كي آخذ حمامي المعتاد.

رحتُ أسترجع أحداث تلك الأمسية في ذهني بينما كنتُ أضع رغوة
الصابون على جسمي مرةً بعد أخرى. سألتُ نفسي عن الأمور التي أنجزتها.
أصبحتُ أعرف الآن أين يعيش ذلك المهووس بثياب نوم جولي. افترضتُ، على
الأقل، من يكون هذا الرجل، لأن اليوم هو يوم خميس. وماذا في ذلك؟ يُحتمل أن
لا تكون لديه علاقة بالجرائم.

لم أستطع أن أقنع نفسي تماماً. لماذا؟ لماذا افترضتُ أن هذا الرجل متورط بالجرائم؟ ولماذا افترضتُ أن مهمة القبض عليه تقع على عاتقي وحدي؟ لماذا أخشى على غايي إلى هذه الدرجة؟ تأكدتُ على الأقل أن جولي بخير.

بقيتُ مشغولة البال حتى بعد أن انتهيتُ من حمامي، وعرفتُ أنني لن أستطيع الاستسلام للنوم. توجهتُ إلى الثلاجة، وتناولتُ قطعةً من الجبن الطري، وجزءاً من **توم دي شيفر دي سافوي**، وسكبتُ بعض شراب الزنجبيل. لفتتُ جسمي بلحاف، وأسرعتُ كي أستلقي على الأريكة. قشرتُ برتقالةً وأكلتها مع الجبن. لم يستطع **لثرمان** الاستحواذ على انتباهي، لذلك عدتُ إلى التفكير في الأمور التي تشغل بالي.

لماذا قضيتُ الساعات الماضية محشورةً مع العناكب والجردان، لمجرد مراقبة أحد الأشخاص الذين يمتلكون هواية رؤية بنات الهوى في ثياب النوم؟ لماذا لم أترك هذه المهمة لرجال الشرطة؟

عدتُ مجدداً إلى التفكير في هذه الأمور. لماذا لا أكتفي بإعطاء رايان المعلومات التي عرفتها لتوي، وأطلب منه أن يتولى مهمة القبض على ذلك الرجل؟ يعود السبب إلى أنني أعتبر الأمر شخصياً بالنسبة لي، لكن ليس بالطريقة التي كنت أحاول إقناع نفسي بها. لا يقتصر الأمر على أنه تهديد تلقينه في حديقتي، أو أنه يهدد سلامتي أو سلامة غايي. يوجد سبب آخر يجعلني أتوجس من هذه القضايا، سببٌ أعمق وأكثر إثارةً للقلق. بدأتُ أعترف، شيئاً فشيئاً، بهذه الحقيقة، لنفسي، مع مرور الساعات.

تمثلت الحقيقة أمامي في أنني أصبحتُ أخيف نفسي في هذه المدة الأخيرة. كنتُ أشاهد الموت العنيف كل يوم، وكل يوم كنت أسمع أن امرأة قتلها رجلٌ، وألقاها في أحد الأنهار، أو في إحدى الغابات، أو في مكب للنفايات. كنت أتلقى أخباراً عن اكتشاف عظام مكسورة لأحد الأطفال في صندوق، أو في مجرى مياه، أو في كيس من النايلون. كنت أرفع هذه العظام، وأفحصها، وأرتبها. كتبتُ التقارير، وأدليت بشهاداتي أمام المحاكم. لم أشعر بشيء في بعض الأحيان، واعتبرتُ أن ذلك هو جزءٌ من العقلية المهنية، أو ربما إن هذا الشعور هو جزء من عدم الاكتراث السريري (العيادي). واجهتُ الموت مراراً، وعن قرب، وخشيتُ

أحياناً أن أفقد إحساسي بمعناه. أدركتُ أنني لا أستطيع أن أشعر بالحزن على كل إنسان وصلت جثته إليّ. إنّ من شأن ذلك بالتأكيد استفاد مخزون مشاعري. إنّ بعضاً من عدم الاكتراث المهني هو شيء ضروري من أجل القيام بالعمل، شرط أن لا يصل إلى درجة التخلي عن المشاعر بأكملها.

حرّك موت النساء شيئاً ما في داخلي. تألّمتُ لخوفهنّ، وألمهنّ، وعجزهنّ عن مواجهة جنون المجرمين. شعرتُ بالغضب والاستياء، وبال حاجة إلى استئصال كل حيوان مسؤول عن مذبحّة. شعرتُ مع هؤلاء الضحايا، أما رد فعلي على موتهنّ فكان بمثابة جبل الحياة لمشاعري، ولإنسانيّ واحتفائي بالحياة. تمكّنتُ من الشعور بهذه الأحاسيس، وشعرتُ بالرضا.

هذا هو الجانب الشخصي في الموضوع، وهذا هو السبب الذي يمنعني من التوقف عند هذا الحد. هذا هو السبب الذي دفعني إلى البحث في أراضي الموناستير، وفي الغابات، وفي الحانات، وفي الشوارع المتفرعة عن شارع هاين. نجحتُ في إقناع رايان بمتابعة هذه القضية. نجحتُ في إيجاد الرجل الذي تورطت جولي معه، وسأنجح في إيجاد غابي. يُحتمل أن يكون الأمران مرتبطين، ويُحتمل أن لا يكونا كذلك. لا يهم، لأنني سأنجح، بطريقة أو بأخرى، في القبض على ذلك النذل المسؤول عن إهراق الدماء الأنثوية. سأساعدُ أيضاً على سجنه، إلى الأبد.

تبين لي أن الشروع بالتحقيق كان أصعب مما ظننت. كان ذلك بسبي، وإن جزئياً. شعرتُ، عند الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم الجمعة، بألمٍ في رأسي ومعدني، نتيجة عدد لا يحصى من أكواب القهوة التي تناولتها. انشغلنا في مناقشة الملفات لساعات عديدة. ولم يتوصل أحد لشيء مهم، وهكذا بقينا نناقش الأمور ذاتها مرةً بعد أخرى، ورحنا نغربل الكميات الهائلة من المعلومات المتوفرة لدينا، وبحثنا بيأس عن شيء جديد، ولم نجد إلا القليل.

عمل بورتوان من زاوية وسيط العقارات. إذ وضعت كل من موريسيت - شامبو و آدكينز، منزليهما في إعلانات بيع ري ماكس. وفعل جار غاغنون الشيء ذاته. إنها مؤسسة كبيرة وتمتلك ثلاثة مكاتب منفصلة، ولديها ثلاثة وكلاء منفصلين. لم يتذكر أحد أياً من هؤلاء الضحايا، أو حتى أي شيء عن ممتلكاتهم. لجأ والد تروتييه إلى استخدام رويال ليباج.

تبين أن صديق بيتري السابق مدمنٌ على العقاقير غير القانونية، وسبق أن قتل بنات هوى في وينيسغ. يُحتمل أن تشكّل هذه المعلومة اختراقاً في التحقيق، ويُحتمل أن لا تشكّل. وقف كلوديل إلى جانب الاحتمال الأخير.

استمرّ التحقيق مع الرجال الذين يشته بقيامهم بانتهاكات لا أخلاقية، لكن لم يخرج التحقيق بنتيجة معهم. يا للمفاجأة الكبيرة!

وانطلقت فرقٌ من المحققين الرسميين تحقق في الأحياء المحيطة بمنزلي آدكينز وموريسيت - شامبو. ولم تسفر التحقيقات عن شيء.

لم نجد أحداً نلتجئ إليه غير أنفسنا. كان الجو العام كثيباً، وافتقد أفراد الفريق للصرير، وهكذا انتظرتُ دوري متحيّنة الفرصة المناسبة لي كي أبدأ الكلام. أصغوا إليّ بأدب عندما أخبرتهم عن وضع غايي، وعن ليلتي التي قضيتها في السيارة. وصفت لهم الرسم، ومحدثتي مع جاي. آس، ومراقبتي لجولي.

لم يستقدّم أحد للكلام عندما انتهيت، لكن سبع نساء راقبن بصمت من فوق لوحات الإعلانات. راح قلم كلوديل يرسم خطوطاً وشبكات على الورق. بقيَ الرجل صامتاً ومنعزلاً طيلة المساء كما لو أنه كان منفصلاً عنا جميعاً. زادته روايتي تجهماً، بينما سيطر صوت ساعة الحائط الكهربائية الكبيرة على الغرفة. باززز.

سأل بروتان: "أليس لديك فكرة ما إن كان هذا هو النذل ذاته الذي لاحقناه في برغور؟"

هزرتُ رأسي بالنفي.

باززز.

قال كيتريغ: "أقترح أن نلقي القبض على ذلك النذل".

سأل رايان: "وبأي همّة؟"

باززز.

أجاب شاربونيو: "نستطيع أن نتوجه إلى هناك سعياً وراء القبض عليه. سنرى كيف سيواجه الضغط الذي سيصدر عنا".

قال روسو: "سيرتعب الرجل إذا كان هو ذاته الذي نبحت عنه. إن آخر ما نريده هو أن يرتعب، وأن يدفعه هذا لتفجير المكان بكامله".

ردّ بوتران: "لا. إن آخر ما نتوقعه منه هو إدخال تمثال بلاستيكي في مكان حساس عند ضحية أخرى".

"ألا يُحتمل أن يكون الرجل مجرد تافه؟"

"أو يُحتمل أن يكون بوندي من نوع آخر".

باززز.

دارت المناقشات بهذه الطريقة، وتنقلت ما بين الفرنسية والإنكليزية. وانتهى جميع الحاضرين برسم خطوط تمثال تلك التي رسمها كلوديل.

بازررز.

وماذا بعد ذلك؟

سأل شاربونيو: "ما هو مدى موثوقية صاحبك غايي؟"

ترددت قليلاً. يمتلك ضوء النهار قدرةً على تلوين الأشياء بطريقة مختلفة. سبق لي أن أرسلت هؤلاء الرجال بمهمات ملاحقة من قبل، وما زلنا لا نعرف إن كانت مجرد مهمات فاشلة.

نظر كلوديل إليّ فبدت عيناه باردتين مثل عيون الزواحف. شعرتُ بتوتر في معدتي. أعرف أن هذا الرجل يحتقني، وكل ما يريد هو تدميري. ماذا كان يفعل من وراء ظهري يا ترى؟ ومن يعرف إلى أين وصلت شكواه ضدي؟ وماذا لو كنتُ مخطئة بتفكيري هذا؟

أقدمتُ في هذه اللحظة بالذات على شيء لن أتمكن من تغييره إلى الأبد. يُحتمل أنني لم أشعر في أعماقي بأن أمراً سيئاً قد يحدث لغايي، ولطالما استطاعت الوقوف على قدميها من جديد. هل اخترتُ المسار الآمن. من يدري؟ لم أقدم على تضخيم المخاطر المحدقة بسلامة صديقي إلى مستوى الخطورة. تراجعتُ في النهاية.

"سبق لها أن اختفت عن الأنظار من قبل."

بازررز.

بازررز.

بازررز.

كان رايان أول من قدّم تعليقاً.

"هل اختفت من قبل بهذه الطريقة؟ ومن دون أن تترك أي كلمة؟"
أومأتُ موافقةً.

بازررز.

بازررز.

بازررز.

بدا التجهم على ملامح وجه رايان. "حسناً يا رجال. دعونا نحصل على اسم محدد، ونبحث في أمره. أريد أن يحدث هذا من دون ضحيج في هذه الأثناء. لا

نستطيع الحصول على تفويض بالتفتيش في هذه المرحلة على أي حال". التفت إلى شاربونييو: "ميشال".

أوما شاربونييو. ناقشنا عدة نقاط أخرى، ثم جمعنا أوراقنا وأهينا الاجتماع. تساءلتُ دائماً، كلما تذكرتُ ذلك الاجتماع، إذا ما كان بمقدوري حينها تغيير مجرى الأحداث التي جرت لاحقاً. لماذا لم أعبّر عن قلقي على غايي؟ وهل مشاهدتي لكلوديل هي التي أجبرتني على اتخاذ هذا القرار؟ هل ضحيتُ بحماسي التي شعرتُ بها في الليلة السابقة على مذبح الحذر المهني؟ هل خاطرتُ بسلامة غايي، بدل أن أضحي بموقفي المهني؟ وهل كانت الأمور ستتغير لو أن تفتيشاً دقيقاً للمنطقة بكاملها قد أجري وقتها؟

توجهتُ إلى منزلي في تلك الليلة، وحضرتُ لِنفسي وجبةً نقلتها عن برامج التلفزيون، وكانت عبارةً عن شريحة لحم على الطريقة السويسرية، على ما أعتقد. سمعتُ بعد قليل أزيز المايكرويف، فأسرعتُ إلى رفع ورق الألومنيوم عن الشريحة. وقفتُ هناك لبرهة من الزمن، ورحتُ أراقب هذا المرق المحضّر بطرائق كيميائية، وهو يتخثر فوق البطاطا المهروسة بنفس الطريقة. شعرتُ بنغمات الوحدة والإحباط تتصاعد استعداداً لعزف مقدمتها. أستطيع أن أتناول ما حضرتُه، وأن أقضي ليلةً أخرى في طرد الشياطين، لكن برفقة هرّي والمسرحيات الهزلية، أو أن أقضي هذه الليلة في قيادة الأوركسترا التي تعزف لي هذه الليلة.

"اللعنة! هل أن قائد الأوركسترا...؟"

رमितُ غدائي هذا في سلة النفايات، وهرعتُ إلى مطعم شيز كاتسورا الذي يقع في شارع لو مونتان. طلبتُ هناك طبق سوشي، وتبادلتُ بعض الأحاديث مع بائع بطاقات من سودبوري. رفضتُ دعوته لي، وسرعان ما غادرتُ المكان كي أحضر عرضاً متأخراً في قاعة سينما لا فابورغ.

كانت الساعة العاشرة والأربعين دقيقة حينما غادرتُ القاعة. دخلتُ المصعد كي أنزل إلى الطابق الأرضي. لاحظتُ أن مركز التسوق الصغير شبه مهجور، وأن الباعة قد غادروا المكان بعد أن وضعوا سلعهم في عربات مغطاة. مررتُ أمام فرن الكعك، وكشك بيع اللبن الزبادي، وزاوية المأكولات اليابانية، ورأيتُ الرفوف والواجهات فارغةً ومصفوفةً خلف بوابات أمانٍ موصدةٍ

بإحكام. شاهدتُ صفوفاً مرتبةً من السكاكين والمناشير وراء علبٍ يستخدمها القصابون.

كان ذلك الفيلم هو الشيء الذي أحتاجه بالضبط. شاهدتُ ضباعاً تغني، وسمعتُ قرع طبول إفريقية، وحكاية شبلٍ، أبعدت ذهني عن التفكير في هذه الجرائم لساعات عديدة.

نجحت في تنسيق كل هذه الأمور يا برينان. هاكونا ماتانا.

عبرتُ شارع سانت كاثرين، ومشيتُ نحو منزلي. ظلّ الطقس حاراً وشديد الرطوبة. غلّف الضباب مصابيح الشوارع، وخيم فوق الرصيف مثل بخار يتصاعد من حوض مياه ساخنة في ليلة شتوية باردة.

ما إن تجاوزت ردهة الدخول متوجهة إلى غرفتي، حتى رأيتُ المظروف. كان المظروف مدسوساً ما بين المقبض النحاسي وبين الإطار الخشبي للباب. فكرتُ في البداية بونستون. هل يريد أن يصلح شيئاً، ولهذا يريد قطع التيار الكهربائي والمياه؟ لا، لم يكن الأمر كذلك، لأنه كان سيرسل مذكرة لي. هل هي شكوى ضد بيردي؟ هل هي رسالة من غايي؟

لم تكن كذلك. لم تكن رسالة على الإطلاق في واقع الأمر. تضمّن المغلف ورقتين استقرتا بصمت وفضاعة على سطح الطاولة. حدقتُ بهما، فتسارعت دقات قلبي، وارتعشت يداي. أدركتُ ماذا تعنيان، لكنني رفضتُ أن أصدّق.

تضمّن المظروف بطاقة تعريف بلاستيكية. ذكر في هذه البطاقة اسم غايي، وتاريخ مولدها، ورقم تأمينها الصحي بأحرف نافرة بيضاء اللون، بينما ظهر رسم مغيب الشمس على أعلى الجهة اليسرى للبطاقة. بدت صورتها على أعلى يمينها، كما ظهرت جدائل شعرها المتدلّية، وبدا شيء ما فضي اللون في كل أذنٍ من أذنيها.

أما الورقة الثانية فكانت عبارة عن أقصوصة مربعة بطول وعرض خمسة سنتيمترات مقطّعة من خريطة بقياس كبير للمدينة. كتبت الأسماء على الخريطة بالفرنسية وأظهرت الشوارع والحدائق الخضراء بلون معتاد. بحثتُ عن معالم، أو أسماء، قد تساعدني على تحديد الحي الذي تمثله الخريطة. وردت أسماء شارع سانت هيلين، وشارع بوشامب، وشارع شامبلين. لا أعرف هذه الشوارع في الحقيقة.

يُحتمل أن تكون هذه المنطقة جزءاً من **مونتريال**، أو من أي مدينة أخرى في كندا، مع العلم أنني لم أمكث في **كيبك** مدة كافية بعد تسمح لي بالتعرّف على هذه المدن العديدة. لم تشتمل الخريطة على أسماء طرقات سريعة، أو معالم، تسمح لي بالتعرف على مواقع هذه الأسماء. فيما عدا واحدة على ما يبدو. ظهرت علامة X كبيرة، ومرسومة باللون الأسود، في مركز الخريطة.

حدّقتُ، بينما أحسستُ بنوع من الخدر الذي سيطر عليّ، بعلامة X هذه. بدأتُ مشاهد فظيعة بالتكوّن في ذهني، لكنني حاولتُ طردها في محاولةٍ مني طرد التفسير المنطقي الوحيد المقبول الذي توحى به. كانت هذه عبارة عن خدعةٍ تماثل الجمجمة التي زُرعت في حديقيّ. يَصّر ذلك المعتوه على العبث معي، ولعله يريد أن يخبّر قدرته على إنزال الرعب في نفسي.

لا أعرف كم من الوقت أمضيته وأنا انظر إلى وجه **غابي**. رحّتُ أتذكر وجهها في الأماكن الأخرى التي رأيتها فيها، وفي أزمنةٍ أخرى. تذكّرتُها ذات مرة عندما ارتدت قبعةٍ مخرجٍ، وقناع وجهٍ مليءٍ بالحبور في ذكرى ميلاد **كاتي** الثالث. كان وجهها يسبح بالدموع حينما راحت تخبرني عن حادثة انتحار شقيقها. ساد الصمت الثقيل في المنزل من حولي، وبدا لي أنّ العالم بأسره ساكنٌ تماماً. سيطرت عليّ الحقيقة المرعبة.

لم تكن هذه خدعةً كما ظننتُ في البداية. يا إلهي، يا إلهي القدير، يا عزيزتي **غابي**! أنا آسفة جداً، آسفة جداً!
أجاب رايان بعد الرنة الثالثة.

همستُ له: "لقد نال من **غابي**". تحولت مفاصل أصابع يدي التي أمسكت بسماعة الهاتف إلى اللون الأبيض. استخدمتُ إراديّ كي أسيطر على صوتي. لم أستطع إخفاء الحقيقة عنه.

"من؟" سألتني، وهو يحسّ بالرعب الذي أحاول أن أخفيه، ثم انتقل إلى صلب الموضوع مباشرةً.

"لا أعرف."

"أين هما؟"

"أنا... أنا لا أعرف."

سمعتُ صوت يد تصفع وجهاً.
"ماذا لديك؟"

سمعي من دون مقاطعة.
"اللعة!"

مرّت فترة صمت.
"حسناً. سأخذ الخريطة وأدرسها كي أتمكّن من تحديد الموقع، وسأرسل فريقاً إلى ذلك الموقع."

قلتُ: "أستطيع أن أوصل الخريطة بنفسني."
"أعتقد أنه من الأفضل أن تبقي حيث أنت. أريد إعادة وضع وحدة مراقبة في المبنى الذي تسكنين فيه."

قلتُ بحدّة: "لستُ الشخص الذي تُحدق به الأخطار. لقد نال ذلك الوغد من غايي! ويُحتمل أنه قد انتهى من قتلها!"
بدأ قناع رباطة الجأش عندي بالتداعي. جهدتُ كثيراً كي أسيطر على الارتعاش في يديّ.

"إنني أشعر، يا برينان، بالحنق إزاء ما أصاب صديقتك. إنني على استعداد لمساعدتها قدر استطاعتي. صدّقي، لكن يبقى عليك استخدام ذكائك. لو أنّ ذلك المعتوه قد أخذ محفظتها فقط، فلربما تكون بخير أينما كانت. وإذا كان يحتجزها، ويريد منا أن نجدها فذلك يعني أنه تركها في أي ولاية يريدنا إيجادها فيها. لا نستطيع تغيير هذا الواقع. أقدم أحدهم في هذا الوقت على وضع رسالة على باب بيتك يا برينان. يعني هذا أنّ ذلك اللعين قد جاء إلى المبنى الذي تسكنين فيه. إنه يعرف سيارتك. وإذا كان الرجل هو القاتل بذاته فلن يتردد في إضافتك إلى لائحتة. لا يقع احترام الحياة ضمن ميزات شخصيته، ويبدو أنه يركّز عليك الآن."
كان على حق في هذه النقطة.

"سأكلف أحد الأشخاص بمراقبة الشخص الذي لحقت به."
تكلّمتُ ببطء ونعومة: "عندي أن يتصل بي فريق تحديد الموقع عندما ينتهون من عملهم."
"برينا..."

لم يكن صوتي يميّز بتلك النعومة عندما قاطعته: "هل هناك مشكلة؟"
كان سؤالاً غير منطقي بالمرّة، حتى باعترافي أنا، لكن رايان أصبح أكثر
حساسية إزاء خوفي المتزايد، أم أنه الخنق المتزايد؟ أم لعله لا يريد أن يتعامل
معي.
"لا".

حصل رايان على المظروف عند منتصف الليل تقريباً. تلقيتُ اتصالاً بعد ذلك
من فريق تحديد المواقع بعد ساعة من الزمن. أبلغوني أنهم نجحوا في رفع بصمة
واحدة من البطاقة. كانت بصمتي أنا. أضافوا إن علامة X تشير إلى قطعة أرض
مهجورة في سانت لامبرت. تلقيتُ اتصالاً ثانياً من رايان بعد ساعة من اتصال
فريق تحديد المواقع. أبلغني أن فرقة من رجال الشرطة تتحقق من قطعة الأرض،
وكل الأبنية المحيطة بها. لم يجدوا شيئاً. ورتّب رايان مسألة توجه فريق استعادة
الأدلة إلى المكان في الصباح. ورتّب أيضاً مسألة الاستعانة بالكلاب البوليسية.
سنعود مجدداً إلى الشاطئ الجنوبي.

قلتُ بصوت مرتجفٍ بينما تحوّل حزني على غايي إلى رعبٍ لا يُحتمل: "متي
نبدأ بالعمل في الصباح؟"

"سأحدّد الساعة موعداً للبدء بالعمل".

"دعنا نبدأ عند الساعة السادسة".

"لنكن السادسة إذاً".

"هل أمرّ لاصطحابك بالسيارة؟"

"شكراً لك".

تردّد قليلاً: "قد تكون بخير".

"أجل".

شرعتُ بالأعمال الروتينية التي اعتدتُ عليها قبل التوجه للنوم: تنظيف
الأسنان، غسل الوجه، وضع مستحضر اليدين، وارتداء ثوب النوم. رحّتُ أتجول
من غرفة إلى غرفة في محاولة مني عدم التفكير في النساء اللواتي علّقت صورهنّ في
لوحات الإعلانات، وصور مسارح الجريمة، واللواتي ترد أوصافهن في قائمات
التشريح. ماذا بشأن غايي؟

أعدتُ إحدى الصور إلى مكانها الصحيح، ونقلتُ مزهريّةً من مكانها، ثم رفعتُ كرة شعر عن السجادة. شعرتُ بالبرد، وحضرتُ كوب شاي لي، ثم أطفأتُ جهاز تكييف الهواء. عدتُ بعد دقائق قليلة لتشغيله مجدداً. انسحب بيردي إلى غرفة النوم، ولعله سأم من تحركاتي التي لا تحمل معنى، لكنني لم أستطع إجبار نفسي على الامتناع عنها. شعرتُ أنّ العجز في مواجهة هذا الرعب الوشيك هو إحساسٌ لا يُحتمل.

تمطيتُ عند حوالي الساعة الثانية على الأريكة، وأغلقتُ عينيّ، وحاولتُ أن أسترخي. ركزتُ على أصوات الليل المعتادة: مضخة تكييف الهواء، سيارات الإسعاف، قطرات المياه التي تتساقط على الأرض في الطابق الثاني. سمعتُ صوت المياه ينساب عبر الأنابيب، وصوت صرير الخشب في مكانٍ ما، سمعتُ حتى سكون الجدران.

سرح ذهني في جولة خيالية. انسابت صور الماضي، ودارت، ثم تشقّلت مثل أجزاء متتالية في حلمٍ من أفلام هوليوود. رأيتُ كنزة شانتال تروتيه المزخرفة، كما شاهدتُ بطن موريسيت - شامبو المشقوق. رأيتُ رأس إيزابيل غاغنون الذي أصابه التحلل، واليد المقطوعة، والنهد المقطوع والمحشور في شفتين اكتسبتا لون العظام البيضاء، وجثة القرد الهامدة، والتمثال الصغير، والغطاس، والسكين. لم يكن الأمر بيدي. أنتجتُ فيلماً سينمائياً يدور حول الموت، وعذّبتني فكرة أنّ غابي قد انضمتُ إلى قائمة شخصيات هذا الفيلم المرعب. استيقظتُ عندما بدأت الظلمة تتراجع أمام ضوء النهار، فأسرعتُ بارتداء ثيابي.

لم تكد الشمس تتسلق خط الأفق حتى اكتشفنا جثة غايي. انطلقت مارغوت مباشرة إلى الجثة، ولم تُظهر أي تردد عندما أُطلقت إلى داخل الأرض المسيجة بأخشاب البلاي وود (الخشب المعاكس). وقفت للحظة تشمّ، ثم أخذت تعدو عبر هذه الأرض المشجرة، بينما انعكست أضواء الفجر الزعفرانية كي تلون فراء مارغوت، وأضأت الغبار الذي يحيط بقوائمها.

اختار المجرم أن يدفنها قرب أساسات بيت متداع. كان مكان دفنها ضحلاً، ومحفوراً على عجل، ومملوءاً بسرعة. بدا الأمر معتاداً هكذا، لكن القاتل أضاف لمسة شخصية في هذه الحالة فأقدم، بأقصى قدرٍ من العناية، على وضع حجارة بوضعية على حدود القبر.

رأيتُ جثتها ملقاةً في الأرض، وموضوعةً داخل كيس الجثث. أفلنا المكان بالأعمدة الخشبية المخصصة لهذا الغرض، بالإضافة إلى الشريط الأصفر، لكن ذلك لم يكن ضرورياً.

وقر الوقت المبكر من الصباح، والسياح الخشبي الذي يحيط بالأرض، حمايةً كافيةً. لم يتقدم أحد ليتفرّج علينا عندما استخرجنا الجثة ومضينا في تنفيذ خطواتنا البشعة المعتادة في مثل هذه الأحوال.

جلستُ في سيارة الدورية، ورحتُ أرتشف القهوة الباردة من كوب بلاستيكي، بينما راح جهاز الراديو يُصدر أصواته المعتادة. رأيتُ الأشخاص الموجودين من حولي ينشغلون بتحركاتهم. جئتُ لتأدية مهمتي، وكبي أكون مهنية،

لكنني وجدتُ نفسي عاجزة عن القيام بواجباتي. يستطيع الآخرون تدبّر أمورهم. أعتقد أنّ عقلي سيتقبّل لاحقاً المعطيات التي يقوم برفضها الآن. وجدتُ نفسي مشلولة في الوقت الحاضر، وكذلك كان دماغي. لم أرغب برؤيتها في تلك الحفرة، وفي مشاهدة جثتها المنتفخة أثناء ظهورها بعد إزالة طبقات التراب والغبار عنها. تأكّدتُ أكثر عندما رأيتُ القرطين الفضيين اللذين يمثلان غانيش. تذكّرتُ غايي عندما شرحت لي قصة ذلك الفيل الصغير الذي يمثّل صفات الود والسعادة، لا الألم والموت. أين أنت يا غانيش؟ لماذا لم تقدّم الحماية لصديقتك؟ ولماذا لم يحميها أي صديق من أصدقائها؟ يا للمعاناة التي يتوجّب عليّ طردها من تفكيري!

أهّيتُ لتوي إجراء كشفٍ حسيّ يهدف إلى تحديد هوية الضحية. تولى رايان الإشراف على مسرح الجريمة. راقبته عندما راح يتشاور مع بيار جيلبير. تحدّث الرجلان لبرهة من الزمن، عاد رايان بعدها ليسيّر باتجاهي. رفع ساقَي سرواله، وجلس القرفصاء قرب باب السيارة المفتوح، ثم وضع إحدى يديه على المقعد. وصلت الحرارة في هذا الوقت إلى سبع وعشرين درجة مئوية، رغم أنّ الصباح لم يتجاوز منتصفه بعد. ظهرت حبيبات العرق على شعره، وتحت إبطيه.

قال لي: "أنا آسف للغاية!"

أومأت.

"أعرف كم أنّ الأمر صعبٌ عليك".

لا. أنت لا تعرف. "ليست حالة الجثة بذلك السوء. دُهشتُ لذلك بالنظر إلى

درجة الحرارة العالية".

"إننا لا نعلم كم من الوقت مضى على وجودها هنا".

"أجل".

اقترب مني، ووضع يده على يدي. تركت راحة يده أثراً صغيراً من العرق

على قماش المقعد المصنوع من الفينيل.

"لم يكن هناك من شيء..."

"ألم تجدوا شيئاً؟"

"لم نجد الكثير".

"لم نعثر على آثار أقدام، ولا آثار إطارات. لم نجد شيئاً في هذا الحقل الدامي".

هزّ رأسه.

"ألم تجدوا شيئاً تحت الأحجار؟" أدركت أنه سؤال غيبي، حتى وأنا أتلفظ به. ركّز بصره على عينيّ.

"ألم تجدوا شيئاً أسفل الحفرة؟"

"وجدنا شيئاً واحداً فقط يا تمب. كان ملقى على صدرها". تردد لبرهة قصيرة. "قفازاً طيباً".

"كان ذلك من سوء حظّه. لم يتعوّد ترك أي شيء وراءه. يُحتمل أن نجد بصمات في داخله". جهدتُ كي أسيطر على أعصابي. "هل من شيء آخر؟"
"لا أعتقد أنها قُتلت هنا يا تمب. يُحتمل أنها نُقلت إلى هنا من مكانٍ آخر".

"وأين يقع هذا المكان؟"

"هناك مطعم أقفل منذ أعوام عديدة. تم بيع هذا العقار ثم هُدم المبنى. أفلس الشاري بعد ذلك. أقفل المكان مدة ستة أعوام".

"ومن هو مالك المكان؟"

"أتريدين اسماً؟"

أجبتُ بسرعة: "أجل. أريد اسماً".

راح رايان يقلّب دفتر ملاحظاته: "إنه شخص يُدعى بايلي".

تمكنتُ من رؤية مساعدين يرفعان ما بقي من غايي على نقالة، ويسرعان بها نحو عربة المحقق الجنائي.

آه يا غايي! كم أنا آسفة!

"هل أجلب لك شيئاً؟" بقيت العينان الزرقاوان تتفحصان وجهي.

"ماذا؟"

"أتريدين أن تشربي أو تأكلي شيئاً؟ أو هل تفضّلين الذهاب إلى المنزل؟"

أجل أريد هذا، شرط ألا أعود أبداً إلى هذا المكان.

"لا. أنا بخير".

لاحظتُ، للمرة الأولى يده التي وضعها فوق يدي. رأيتُ أصابعه النحيلة، لكن اليد بحد ذاتها كانت عريضة وقاسية. رأيتُ نصف دائرة تحيط بمفصل إبهامه.

"ألم تتعرض للتشويه؟"

"لا".

"لماذا الأحجار؟"

"لم أستطع أبداً أن أفهم كيف يفكر هؤلاء المعتوهون".

"إن الأمر ليس بمزحة، أليس كذلك؟ أردنا الرجل أن نجدها، وأردنا أن نصرّح بشيء. لا أتوقع إيجاد أي بصمات داخل القفاز".

لم يقل شيئاً.

"إنه أمر مختلف، أليس كذلك يا رايان؟"

"أجل".

بدأت الحرارة داخل السيارة تضايقني، وشعرتُ أنّ كمية من قَطْر السكر قد انسكبت على جلدي. هُضتُ، ثم رفعتُ شعري كي أشعر بالنسيم على رقبتي. لم أشعر بمرور النسيم. راقبتُ الرجال عندما انشغلوا بوضع الجثة في كيسها الذي رُبط بأشرطة خيش سوداء اللون، ثم وهم يضعونها داخل العربة. شعرتُ أنني سأبدأ بالنشيج، لكنني قاومتُ هذا الدافع.

"هل كان بإمكانك أن أنقذها يا رايان؟"

"وهل كان بإمكان أحدنا إنقاذها؟ لا أعرف". أخرج نَفْساً عميقاً من صدره، وراح يحدّق بالشمس. "ربما كان بإمكاننا فعل شيء ما قبل أسابيع عديدة، لكن ليس البارحة أو اليوم الذي سبقه". تلفتُ إلى الورااء وثبتت نظره عليّ. "إنّ ما أعرفه هو أننا سنقبض على ذلك النذل. إنه رجل ميت بالنسبة لي".

لمحتُ كلوديل وهو يسير باتجاهنا حاملاً كيساً مخصصاً لجمع الأدلة. وعدتُ نفسي أنني سأقوم بمهاجمته إذا وجّه أي كلمة لي. وعزمت على ذلك حقاً.

تجنّب كلوديل النظر إلى عينيّ: "آسف جداً". تحوّل نحو رايان: "أوشكنا على

الانتهاء من عملنا هنا".

رفع رايان حاجبيه. أشار كلوديل إليه برأسه إشارة تعني هناك.

تسارعت نبضات قلبي: "ماذا؟ ماذا وجدت؟" وضع يديه الاثنتين على كتفيّ.

نظرتُ إلى الكيس الذي يحمله **كلوديل** بيده. تمكّنتُ من رؤية قفازٍ طي بلون أصفر يميل إلى الشحوب، ولاحظتُ وجود بقع بنية تلوّث الجهة الخارجية منه. برز شيءٌ مسطحٌ من حافته. كان شيئاً مستطيل الشكل ذا حواف بيضاء اللون مع خلفية داكنة. تأكّدتُ من أنّها صورة، لكن يَدَي رايان ضغطتا بقوة على كتفيّ. رميته بنظرة متسائلة، لكنني خشيتُ سلفاً من الإجابة.

"دعينا نؤجل هذا إلى وقت لاحق".

"دعني أراها". مددتُ يديين مرتعشتين.

تردّد **كلوديل** قليلاً، وقرّب الكيس نحوِي. أمسكتُ بالكيس، ثم دفعت بإحدى أصابع القفاز من خلال البلاستيك، ونقرتُ بلطف حتى انزلقت الصورة أخيراً. أعدتُ تعديل وضعية الكيس، ثم حدّقتُ من خلال البلاستيك.

ظهر شخصان متعانقان في الصورة، وبدت قطرات المياه وهي تتساقط من شعرهما، بينما بدت أمواج المحيط تتدحرج وراءهما. تملّكني الخوف. تسارعت أنفاسي. اهدئي يا برينان. ابقِي هادئة.

التقطت الصورة في **ميوتل بيتش** في عام 1992. ظهرتُ أنا و**كاتي**. أقدم ذلك اللعين على دفن صورة ابني مع صديقي القتيلة.

لم يتحدّث أحدٌ منا. شاهدتُ **شاربونيو** يتقدم من موقع القبر. انضم الرجل إلينا، ونظر إلى **رايان** الذي أوماً نحوه. وقف الرجال الثلاثة بصمت. تحيّر كل واحد منا كيف يتصرّف، وماذا يقول. لم أعرف كيف أساعدهم. كسر **شاربونيو** نطاق الصمت.

"هيا بنا كي نمسك بهذا النذل".

قال **رايان**: "هل حصلت على مذكرة توقيف من المحكمة؟"

"سيلاقينا **برتوان** إلى هنا. سَطّروا المذكرة فور عثورنا على... الجثة". نظر

إليّ، ثم أشاح بنظره بعيداً على الفور.

"هل ما زال رجلنا هنا؟"

"لم يدخل أحد إلى هذا المكان أو يخرج منه منذ أن أغلقناه. لا أظن أنه يجدر

بنا الانتظار".

"أجل".

التفت رايان نحوي: "شكّ القاضي تيسييه بوجود دافعٍ محتملٍ للقتل، وهكذا سطرَ مذكرة التوقيف. سنقبض على ذلك الرجل الذي لاحقته ليلة الخميس. سوف أفلّك..."

"مستحيل يا رايان. إنني معكم."
"بري..."

"أذكرك بأنني تعرفتُ للتو على أفضل صديقاتي. كانت تمسك بصورتني مع ابنتي. يُحتمل أن يكون هذا التافه هو الذي قتلها، أو أي معتوهٍ آخر. سأعرف الحقيقة، وسأقوم بكل ما يسعني كي أدمّر هذا النذل. سألاحقه وأقبض عليه من دونك، ومن دون مساعدة رجالك المرحين". أخذتُ أظعن الهواء بإصبعي، وكأنه مكبسٌ يعمل على الطاقة المائية. "سأكون هناك! وبدءاً من هذه اللحظة!"
شعرتُ بالحرقة في عينيّ، وبدأ صدري يعلو ويهبط. لا تبكي. إياك أن تجرؤي على البكاء. أجبرتُ نفسي على إظهار بعض الهدوء رغم الهستيريا التي أشعر بها. لم ينيس أحدٌ منا بكلمة، ولمدة طويلة.
قال كلوديل: "هيا بنا".

35

ارتفعت درجة الحرارة، ونسبة الرطوبة، في المدينة إلى مستوى كادت أن تصبح معه مدينة خالية. لم يتحرك شيء فيها، لا الأشجار، ولا الطيور، ولا الحشرات، ولا حتى البشر. شلت الحرارة حركة الجميع، وفضل معظمهم الابتعاد عن الأنظار.

انشغل الجميع بالاحتفال بذكرى سان بابتيست. حيم سكون متوتر. وانتشرت في الأجواء رائحة العرق الممتزج بهواء التكييف. ملأ الخوف أعماقي، إذ تخلى كلوديل عن ثقته العالية بنفسه، وعلمت أنه سيلاقينا مع شاربونيو إلى هناك. كانت حالة السير مختلفة هي الأخرى. وتعين علينا أثناء مرورنا بشارع بيرغر أن نشق طريقنا بصعوبة بين حشود الناس التي تحتفل بالذكرى. مررنا اليوم في شوارع فارغة، لذلك وصلنا إلى منزل المشتبه به في أقل من عشرين دقيقة. تمكنت من رؤية برتران، وشاربونيو، وكلوديل، وهم يستقلون سيارة خالية من أي علامات، بينما كانت سيارة وحدة برتران مركونة في الخلف. شاهدت عربة مسرح الجريمة في نهاية المجمع، ورأيت جيلبير وراء عجلة القيادة، بينما جلس أحد التقنيين في الجهة المقابلة.

خرج رجال التحري الثلاثة من السيارة أثناء تقدّمنا باتجاههم. لاحظت أن حركة الشارع بقيت كما أتذكرها، مع أنه بدا أكثر اتساعاً، وأقل ترتيباً، في ضوء النهار عما كان عليه في عتمة الليل. أحسست أن قميصي قد التصقت بجلدي الدبق.

سأل رايان أثناء إلقائه التحية على الرجال: "أين فريق المراقبة؟"

أجاب شاربونيو: "إنهم يجولون في الشارع الخلفي."

"هل يتواجد الرجل في الداخل؟"

"لم يلحظ الرجال أي تحرك منذ أن وصلوا إلى هنا عند منتصف الليل تقريباً. يُحتمل أنه نائم في الداخل."

"هل يوجد في المبنى مدخل خلفي؟"

أوماً شاربونيو: "أبقينا تحت المراقبة طيلة الليل. وضعنا وحدات عند جهتي المجمع السكني، بالإضافة إلى واحدة في المارتينيو." حرك إمامه باتجاه الجهة المقابلة من الشارع. "إذا كان صاحبنا في الداخل فلن يستطيع الذهاب إلى أي مكان."

التفت رايان نحو بورتوان: "هل قرأت الصحيفة؟"

أوماً بورتوان: "يسكن في سيغوين 1436، شقة رقم 201. انظر إلى الأسفل."

راح الرجل يشير بيده.

وقفنا للحظة، ورحنا نتأمل المبنى وكأننا نراقب خصماً لنا. تحضرتنا في نفس الوقت لعملية الاقتحام والقبض على المجرم. ظهر صبيان من السود في البعيد، وتناهدت إلى أسمعنا أصوات موسيقى الراب من جهاز ضخيم للموسيقى. ارتدى الصبيان ستريتين كتب عليهما آير جوردانز، وسروالين واسعين جداً. ارتدى كنيزتين كتبت عليهما شعارات العنف، بينما رسمت جمجمة تحمل مقلتي عينين متحللتين. حملت الكنيزة رسم ريبير، مع مظلة تُستخدم على الشواطئ. خجل إلي أنني انظر إلى رسم إجازة الموت. لاحظت أن الصبي الأطول قد حلق رأسه، ولم يترك فيه سوى منطقة بيضاوية الشكل من الشعر. أما الصبي الآخر فترك جدائل شعره تتدلى على جانبي وجهه.

رجعتُ بخيالي إلى جدائل غايي. شعرتُ بوخزة من الألم تحتاح جسدي بكامله.

أريد تأجيل هذه المشاعر إلى وقتٍ آخر، وليس الآن. لذا رجعتُ بتركيزي

إلى اللحظة الراهنة.

راقبنا الصبيان أثناء دخولهما مبنى مجاور، ولاحظتُ أن صوت موسيقى الراب

قد توقف على نحو مفاجئ فور انغلاق الباب وراءهما. نظر رايان في الاتجاهين، ثم عاد كي ينظر نحونا.

"هل نحن جاهزون؟"

قال كلوديل: "دعونا ننال من هذا السافل".

"أريدك يا لوك أن تغطي أنتَ وميشال الجهة الخلفية من المبنى. اسحقاه إذا أطلق الرصاص عليكما".

حدّق كلوديل بنا، وتقدّم قليلاً وكأنه يريد أن يتكلم، لكنه اكتفى بهزّ رأسه، وزفر بحمّة من خلال أنفه. تحرّك هو وشاربونيو، لكنهما رجعا عند سماعهما صوت رايان.

أرسل رايان نظرات حادة في اتجاههما: "سنقوم بعملنا حسب الأصول. لا أريد أي أخطاء".

عبر رجلا تحري شرطة مونتريال الشارع، واختفيا عبر المبنى ذي الأحجار الرمادية.

التفت رايان نحوي.

"هل أنت جاهزة؟"

أومأت.

"يُحتمل أن يكون هذا هو الرجل الذي نبحت عنه".

"أجل يا رايان. أعلم ذلك".

"هل أنت بخير؟"

"رايان. يا إلهي..."

"هيا بنا إذا".

شعرتُ بشيء من الخوف يتزايد في صدري أثناء تسلقنا السلم الحديدي. وجدنا الباب الخارجي مفتوحاً. دخلنا رواقاً صغيراً ذا أرضية مبلطة وداكنة. ملأت صناديق البريد الجدار على يميننا، بينما تكدست المنشورات على الأرض من تحتها. حاول بورتوان فتح الباب الداخلي. فوجده مفتوحاً هو الآخر.

قال بورتوان: "يا للإجراءات الأمنية العظيمة!"

عبرنا إلى ممر خافت الإضاءة وتخيّم عليه الحرارة ورائحة دهون الطبخ. شاهدتُ سجادة رثة تصل إلى خلف المبنى، وتُكمل صعوداً حتى الدرج الموجود إلى اليمين. بُسّت هذه السجادة بأشرطة معدنية رقيقة كل تسعين سنتراً. وضع

أحدهم بساطاً فوقها. كان شفافاً في البداية إلا أنه أصبح معتماً الآن مع مرور الزمن، والأوساخ التي تراكمت فوقه.

تابعنا الصعود حتى الطابق الثاني. أحدثت أقدامنا أصوات قرقرة خافتة على أرضية الفينيل. كانت الشقة رقم 201 هي الأولى إلى يميننا. وقف رايان وبرتران قبالة بعضهما بعضاً على جانبي الباب الخشبي، وأسندا ظهرهما إلى الجدار. فتح الرجلان سترتيهما، بينما وضعتا يديهما على سلاحيهما.

أشار لي رايان بالوقوف إلى جانبه. حشرت نفسي إزاء الجدار، لكنني شعرت بالتصاق الطين الخشن للجدار بشعري. أخذت نفساً عميقاً اختلطت معه رائحة العفن والغبار. شممت رائحة عرق رايان.

أوماً رايان باتجاه برتران. شعرت بأن مستوى القلق عندي يتعاظم حتى كاد يخنقني.

دقّ برتران الباب.

لا جواب.

دقّ الباب ثانية.

لا جواب.

توتّر رايان وبرتران. شعرت بأنفاسي تتسارع.

"الشرطة. افتحوا الباب".

سمعنا باباً يُفتح بهدوء في مكان ما من الشقة. رأينا بعد ذلك عينين تبرزان من خلال شق بمقدار ما تسمح به سلسلة الأمان.

دقّ برتران بقوة أكبر، وتردّدت في المكان خمس دقات حادة كسرت نطاق الصمت المخيم على المكان. استمرّ الصمت.

ماذا بعد؟ السيد تانغواي ليس هنا.

تحركت رؤوسنا نحو مصدر الصوت. كان الصوت الذي تناهى إلى أسماعنا من الرواق ناعماً وحاداً.

أوماً رايان باتجاه برتران بما معناه ابقى مكانك. تحركنا، لكن العينين بقيتا تراقبان فيما تضخمت الحدقتان من وراء نظارة سميقة. لم ترتفع هاتان العينان أكثر من مئة وعشرين سنتيمتراً عن الأرض، ثم ازداد ارتفاعهما مع اقترابنا منهما.

تقلت العينان ما بين رايان وبيبي ثم بالعكس، على أمل إيجاد مكان تستقران عليه. جلس رايان القرفصاء كي يستطيع النظر إليهما على المستوى ذاته.

قال رايان: "بونجور".

"مرحباً".

"كيف حالك؟"

"أنا بخير".

انتظر ذلك الطفل، لكنني لم أتمكن من التأكد ما إذا كان صبياً أم بنتاً.

"هل أمك موجودة في المنزل؟"

هزّ الولد رأسه.

"والدك؟"

"لا".

"هل يوجد أحد في المنزل؟"

"ومن أنت؟"

حسناً فعلتَ أيها الصبي. لا تُخبر الغرباء أي شيء.

"نحن من الشرطة". أبرز رايان شارته. توسّعت العينان أكثر.

"هل أستطيع أن أمسكها؟"

مرّر رايان الإشارة من خلال فتحة الباب. تفحصها الطفل بهدوء، ثم

أرجعها.

"هل تبحثون عن المسيو تانغواي؟"

"أجل، إننا نبحث عنه".

"لماذا؟"

"نريد أن نطرح عليه بعض الأسئلة. هل تعرف المسيو تانغواي؟"

أوماً الطفل، لكنه لم يقل شيئاً.

"ما اسمك؟"

"ماثيو". تأكد من أنه صبي.

"متى ستعود والدتك إلى المنزل يا ماثيو؟"

"إنني أعيش مع جدتي".

غَيَّرَ رايان من وضعية وقوفه، فسمعنا صوتاً مدوياً لمفصل. صدم الأرض
بركبته، بينما أسند مرفقه على الركبة الأخرى، وأسند ذقنه على مفاصل أصابع
يديه، ثم نظر باتجاه ماثيو.

"كم عمرك يا ماثيو؟"

"ستة أعوام".

"منذ متى وأنت تعيش هنا؟"

بدا الصبي مندهشاً، وكأن الاحتمالات الأخرى غير واردة بالنسبة إليه على
الإطلاق.

"عشت هنا على الدوام".

"هل تعرف المسيو تانغواي؟"

أوماً ماثيو.

"منذ متى وهو يعيش هنا؟"

هزّ كتفيه.

"متى ستعود جدتك إلى المنزل".

"تقوم جدتي بتنظيف منازل الناس". صمت قليلاً. "السبت". أغمض ماثيو
عينيه قليلاً، وعضّ شفته السفلى. "دقيقة واحدة من فضلكم". اختفى الطفل في
الشقة، ثم عاود الظهور في أقل من دقيقة. "الثالثة والنصف".

"تكلم". قال رايان وهو ينهض من وضعية القرفصاء. وجّه كلامه إليّ، وبدا
صوته متوترّاً، وأعلى بقليل من الهمس. "قد يكون ذلك النذل هناك، لكن لدينا
طفل متروكٌ وحده هنا".

ظل ماثيو يراقبنا، فبدا مثل هرة برية تراقب فأرة محاصرة، لكن عينيه بقيتا
مركّزتين على وجه رايان.

"المسيو تانغواي ليس هنا".

جلس رايان القرفصاء ثانية: "هل أنت متأكد؟"

"لقد رحل".

"إلى أين؟"

هزّ الطفل كتفيه ثانية، ومدّ إصبعاً سمينة كي يدفع نظارته فوق أنفه.

"كيف علمت أنه رجل؟"

"أنا أعني بأسمائه في غيابه". أضاءت وجهه ابتسامة عريضة. "يملك الرجل أسماءً استوائية ملونة، وأسماءً ملانكية، وأسماءً الغيوم البيضاء". استخدم الصبي أسماءً إنكليزيةً. "إنها رائعة!" رائعة! يا للكلمة النموذجية. لا ترقى الكلمة الإنكليزية المرادفة لها إلى مستوى قوتها.

"متى سيعود المسيو تانغواي؟"

هزّ كتفيه مجدداً.

سألته: "هل دوّنت الجدة موعد عودتها على الروزنامة؟"

راح الطفل يتفحصني مندهشاً، ثم اختفى كما فعل سابقاً.

نظر رايان إلى الأعلى وسألني: "أي روزنامة؟"

"لا بد أن لديهم واحدة. ذهب الطفل كي يتأكد من أمرٍ ما، لأنه لا يعرف

موعد عودة جدته إلى المنزل هذا اليوم".

عاد ماثيو ليقول: "لا".

وقف رايان: "والآن ماذا نفعل؟"

"إذا كان محقاً فسوف نحاصر المكان. حصلنا على الاسم، لذلك سنقبض على

المسيو تانغواي. يُحتمل أن تعرف الجدة المكان الذي توجه إليه، وإذا لم تكن

تعرف فسنقبض عليه ما إن يأتي إلى هنا".

تطلع رايان باتجاه بورتوان، ثم أشار إلى الباب.

دقّ بورتوان خمس مرات إضافية.

لا جواب.

سأل بورتوان: "هل نكسره؟"

"لن يوافق المسيو تانغواي على خلع الباب".

نظرنا جميعاً إلى الصبي.

انحنى رايان للمرة الثالثة.

قال ماثيو: "سيجنّ جنونه إذا فعلتم أمراً سيئاً مثل هذا".

شرح رايان الأمر للصبي: "يتعيّن علينا أن نبحث عن شيء ما في شقة المسيو

تانغواي".

جلستُ القرفصاء بالقرب من رايان.
"ماثيو، هل تتواجد أسماك المسيو تانغواي في شقتكم؟"
هزّ رأسه.
"هل لديك مفتاح لشقة المسيو تانغواي؟"
أوماً ماثيو.
"هل ستسمح لنا بدخول الشقة؟"
"لا".
"ولمّ لا؟"
"لا أستطيع الخروج في غياب جدتي".
"حسناً يا ماثيو. تريدك جدتك أن تبقى في الداخل لأنها تعتقد أنك ستكون
بأمان أكثر هكذا. إنها على حق، وأنت ولد مطيع تسمع كلامها".
اتسعت ضحكة الصبي مجدداً.
"هل ستسمح لنا باستخدام المفتاح يا ماثيو، ولو لدقائق قليلة؟ تريد الشرطة
التحقق من أمر مهم، كما أنك على حق في عدم سماحك لنا بخلع الباب".
قال الصبي: "أعتقد أنني سأسمح لكم لأنكم من الشرطة".
ابتعد ماثيو عن أنظارنا، ثم رجع والمفتاح في يده. زمّ شفّيته ونظر إليّ مباشرة
عندما أمسك بالمفتاح من خلال شقّ الباب.
"لا تدخلوا باب المسيو تانغواي".
"سنكون حريصين جداً".
"لا تدخلوا إلى المطبخ، لأن ذلك سيكون أمراً سيئاً. لا تستطيعون دخول
المطبخ".
"أفضل الباب وابقَ في الداخل يا ماثيو. سأدق على الباب بعد أن ننتهي من
عملنا. لا تفتح الباب قبل أن نقرعه".
أوماً ذلك الوجه الصغير بهدوء، ثم اختفى وراء الباب. مرّت فترة صمت
متوترة، أوماً رايان بعدها، بينما انصرفتُ إلى إدخال المفتاح في القفل.
فتحنا الباب لنجد أماناً مباشرة غرفة معيشة صغيرة تقترب ألوان أثاثها من
الأرجواني. امتدت الرفوف على الجانبيين، ومن الأرض حتى السقف. لاحظتُ أنّ

الجدران الأخرى مصنوعة من الخشب، في حين أصبحت أسطحها داكنة نتيجة تلميعها مرةً بعد مرةٍ عبر الأعوام. تدلت الستائر المخملية الحمراء المجددة، والأقمشة المحرمة والساحية، فوق النوافذ، ولذلك لم يرشح منها سوى القليل من ضوء الشمس. وقفنا جامدين تماماً، ورحنا نصغي وننظر في أرجاء الغرفة غير المضاءة. كان الصوت الوحيد الذي سمعته طنيناً خافتاً ومتوتراً مثل تيار كهربائي يتجاوز دائرة كهربائية مقطوعة.

بززت. بززززت. بزت. بزت. أتى هذا الصوت من وراء أبوابٍ مزدوجةٍ إلى يسارنا. كان المكان هادئاً بصورةٍ مميّنةٍ ما عدا هذا الصوت. يا للاستعمال غير الموفق لهذه الصفة يا برينان.

نظرتُ من حولي، فظهرت لي أشكال الأثاث وسط هذه الظلال. بدت قديمةً ومستهلكةً. احتلت طاولة خشبية منحوتة وسط الغرفة، واصطفت من حولها كراسٍ مناسبةٍ لها. تصدّرت الغرفة أريكةٌ مستهلكةٌ مغطاةٌ ببطانيةٍ مكسيكيةٍ. رأيتُ في الجهة المقابلة للأريكة صندوقاً خشبياً وُضع فوقه جهاز تلفزيون سوني ترينيترون.

تناثرت الطاولات والخزائن الخشبية الصغيرة في الغرفة. لاحظتُ أنّ بعض قطع الأثاث هذه كانت في غاية الروعة، ولا تختلف كثيراً عن تلك التي أجدها في أسواق التحف القديمة (البرغوت). شككتُ أنّ تكون هذه القطع مشتراه بسعر مناسب بهدف تنظيفها والعناية بها في ما بعد. بدت هذه القطع وكأنها بقيت في مكائهما منذ أعوام عديدة، وظهر الإهمال وعدم الاكتراث عليها رغم تعاقب المستأجرين على الشقة.

لاحظتُ أنّ الأرض مغطاةٌ بسجادة قطنية قديمة. رأينا أصص النبات تنتشر في كل مكان. أخذت هذه النباتات مكائهما في الزوايا، وامتدّت مع ألواح الأرضية الخشبية، وتدلّى بعضها من الجدران. حرص شاغل هذه الشقة على تعويض ما ينقصه من قطع الأثاث بالنباتات الخضراء. تدلّت هذه النباتات من على رفوف الجدران، بينما وُضع بعضها الآخر على حواف النوافذ السفلى، وأسطح الطاولات، وعلى الرفوف الجانبية، ورفوف الجدران.

قال بوتران: "يبدو هذا المكان اللعين مثل حديقة نباتية".

أكملتُ عنه في سرّي ومليئة بالروائح. ملأت الهواء رائحة عفنة هي مزيج من رائحة الفطر وأوراق الأشجار، والتراب الرطب.

لاحظنا بعد المدخل الرئيسي مباشرة وجود قاعة صغيرة، وباب موصل. أشار رايان نحوي بالتراجع بالطريقة ذاتها التي استخدمها في القاعة، ثم انزلق مع الجدار بعد أن أحنى كتفيه قليلاً، وأحنى ركبتيه، أما ظهره فكان يضغط على الجص. تحرك رايان نحو الباب ببطء، وتوقف قليلاً، ثم ركل الباب الخشبي بشدة.

تراجع الباب من مكانه، وصدّم الجدار، ثم ارتدّ نحو إطاره الخشبي ليستقر أخيراً نصف مفتوح. أصغيت السمع لعلّي أنتبه إلى حدوث أي حركة، وتسارعت نبضات قلبي، وتناغمت مع الطنين المتوتر الذي سبق لي أن سمعته. بزززززت. بزت. بزت. بزززت. دا دوم دوم دوم. دا دوم دوم.

تسرّب وهج مخيف من وراء الباب نصف المفتوح، وترافق الوهج مع صوت غرغرة هادئة.

تحرك رايان من خلال الباب قائلاً: "وجدنا الأسماك".

استخدم رايان قلمه كي يضغط على مفتاح كهربائي فامتلأت الغرفة بالأنوار. بدت غرفة نوم نموذجية: سرير مفرد، وغطاء سرير بزخارف هندية، وطاولة صغيرة، ومصباح، ومنبه، وبخاخ للأنف، وخزانة من دون مرآة، وحمّام صغير في طرف الغرفة، وشبّاك واحد. لاحظت وجود جدار حجري تغطيه ستائر ثقيلة.

بقيت الأحواض التي اصطفّت على طول الجدار الخلفي هي الأشياء الوحيدة التي يُمكننا اعتبارها غير مألوفة في الغرفة. كان ماثيو على حق، إنها رائعة. تراوحت ألوانها ما بين اللونين الأزرق الفاتح، والأصفر الفاتح، بالإضافة إلى الأشرطة السوداء والبيضاء التي تندفع صعوداً وهبوطاً من المرجان الأبيض والزهري، وكل التنوعات المختلفة من الظلال الخضراء التي يُمكن للمرء أن يتخيلها. كان كل نظام بيئي صغير من هذه الأنظمة مضاءً بالأنوار الفيروزية، ترافقه أصوات مقطوعة من الأوكسجين المنحدر.

راقبتُ مشدوهةً، وشعرتُ بفكرة على وشك التكوّن في ذهني. رحّتُ أستعرضها، لكن ماذا بقيَ منها؟ ها هي الأسماك أمامي. ماذا بشأنها؟ لا شيء.

تحرّك رايسان من حولي، واستخدم قلمه كي يجر ستارة الحمام إلى الخلف، وكذلك فتح خزانة الأدوية، ثم راح يتفحص علب الطعام والشباك المحيطة بالأحواض. استخدم منديلاً كي يفتح خزانة الأدرج، ثم عاد كي يستخدم القلم من أجل تقليب الثياب الداخلية، والجوارب، والقمصان، والكنزات. انسني كل شيء يتعلّق بالأسمك يا برينان. كانت الفكرة التي مرّت بذهني قصيرة الأجل، مثلما هي الفقاعات التي تتكوّن في الأحواض، والتي تتصاعد إلى السطح حيث تختفي.

"هل وجدت شيئاً؟"

هزّ رأسه بالنفي. "لم أجد أي شيء واضح. لا أرغب في إفساد عمل فريق استعادة الأدلة، لذلك أحرّيت مسحاً سريعاً. أريد إغلاق بقية الغرف قبل أن أعهد بها إلى جيلبير. يتضح من هذا أن تانغواي موجودٌ في مكان آخر. سنقبض عليه، لكن بإمكاننا أن نعرف ماذا يمتلك الرجل ما دمنا هنا".

انشغل بورتان في تفحص جهاز التلفزيون الموجود في غرفة المعيشة. علّق قائلاً: "إنه جهاز حديث ومتطور. يبدو أنّ الرجل يحب جهازه".

توتر جسد رايسان وراح يتفحص الوهج المحيط بنا، ثم قال بشروء: "يُحتمل أن يكون بحاجة إلى تصليح كوستو روتيني".

لم نفاجأ بأحد هذا اليوم. تحوّلتُ بنظري إلى الرفوف التي تحمل الكتب. لفت نظري التنوع المدهش لمواضيع الكتب التي بدت جديدة، أي مثلما هو جهاز التلفزيون. رحّت أتفحص عناوين الكتب التي تضمنت حقولاً مثل: علم البيئة، علم الأسماك، علم الطيور، علم النفس، الجنس. اشتملت الكتب على عناوين علمية، لكن ذوق الرجل كان انتقائياً: البوذية، العلموية، الآثار، الفن المساورى، نحت الأخشاب عند شعب كواكيوتل (الذي عاش في جزيرة فانكوفر)، محاربو الساموراي، وتذكارات من الحرب العالمية الثانية، وأكلة لحوم البشر.

احتوت الرفوف على مئات الكتب ذات الغلافات الورقية، والتي تضمنت الروايات الحديثة باللغتين الفرنسية والإنكليزية. لاحظتُ وجود بعض الكتب التي هممني، مثل مؤلفات فونغوت، إيرفينغ، ماك مورثري. كانت غالبية الكتب من

الروايات الخيالية، التي تتحدث عن المجرمين المتوحشين، والشاذين الذين يطاردون ضحاياهم. شعرتُ أنه باستطاعتي اقتباس تعريفات هذه الكتب من دون قراءتها. لاحظتُ أيضاً وجود رفّ بأكمله من الكتب غير القصصية التي تروي سير حياة القتلة التسلسليين والمغالين في إجرامهم. تضمنت هذه الكتب سير مانسون، بوندي، راميريز، وبودن.

قلتُ: "أعتقد أنّ تانغواي وسان جاك ينتميان إلى نادي الكتاب ذاته".

علّق بورتوان: "يحتمل أن يكون هذا النذل هو سان جاك".

ردّ رايان: "كلا، لأن هذا الرجل يقوم بتنظيف أسنانه".

"أجل، لكن عندما يكون في شخصية تانغواي".

قلتُ: "إذا كان الرجل يقرأ كل هذه الكتب فلا بد أن تكون اهتماماته متنوعة جداً. يجيد الرجل اللغتين معاً". نظرتُ إلى مجموعة الكتب مجدداً. "كما أنه مهووسٌ نفسياً".

سأل بورتوان: "وماذا لديك الآن يا دكتورة روث؟"

"انظروا إلى هذه".

انضمّاً إليّ فتابعت:

"تم ترتيب الكتب بحسب المواضيع، وبحسب الأحرف الأبجدية".

أشرتُ نحو عدة رفوف. "وكذلك بحسب أسماء المؤلفين المرتبة بالأحرف

الأبجدية ضمن كل فئة، وبحسب عام النشر لكل مؤلف".

"ألا يفعل الجميع ذلك؟"

نظرتُ أنا ورايان إليه. لم يكن بورتوان من النوع الذي يقرأ كثيراً.

"انظروا كيف أنّ كل كتاب يتسق مع حافة الرفّ تماماً".

قال رايان: "إنه يفعل الشيء ذاته مع سراويله القصيرة وجواربه. لا بد أنه

يستخدم زاوية مربع لترتيبها".

عبّر رايان عما فكّرتُ به تماماً.

"يتطابق هذا مع طريقة حياته".

قال بورتوان: "يحتمل أنه يحتفظ بالكتب لمجرد العرض. يرغب الرجل أن يحمل

أصدقاؤه على الاعتقاد بأنه مثقف".

قلتُ: "لا أعتقد ذلك، لأنني لم ألاحظ غباراً على الكتب. انظروا أيضاً إلى تلك الأوراق الصفراء الصغيرة. لا يكتفي الرجل بقراءة محتوى الكتب، لكنه يدون أموراً محددة كي يعود إليها لاحقاً. دعونا نطلب من جيلبير ورجاله أن لا يضيّعوا علامات الأوراق هذه. يُحتمل أن تكون مفيدة لنا".

"سأطلب منهم تغطية الكتب قبل أن يعلوها الغبار".

"هناك أمرٌ آخر يلفت الانتباه عند مسيو تانغواي".

نظر الجميع إلى الرفوف.

قال بورتوان: "إنه يقرأ بعض التفاهات الغريبة".

سألتُ: "ما هي المواضيع التي تثير اهتمامه عدا عن قصص الجريمة؟ انظروا إلى الرف الأعلى".

نظروا مجدداً إلى الرفوف.

قال رايان: "اللعنة! ها هي كتب التشريح، غراي. دليل كانيغهام للتشريح العملي. الأطلس الملون للتشريح البشري. دليل التشريح. الرسوم الإيضاحية الطبّية للجسم البشري. يا إلهي! انظروا إلى هذا. مبادئ سابستون في الجراحة. يمتلك الرجل كتباً في هذه المواضيع أكثر مما تملكه مكتبة معهد طبي. يبدو الرجل مصمماً على معرفة كل شيء داخل الجسم البشري".

"أجل، إنه يريد أن يعرف أموراً أكثر بكثير من الأنظمة. يريد الرجل معرفة الأجهزة والأعضاء الداخلية".

تناول رايان جهاز اتصاله: "أريد أن يحضر جيلبير ورجاله إلى هنا. سأطلب من الفرق الموجودة في الخارج أن يجولوا ويراقبوا الدكتور برك. لا أرغب في إخافته عندما يعاود الظهور في هذا المكان. يا إلهي! أحشى أن يكون كلوديل قد أفرغه".

تحدّث رايان في جهازه، بينما تابع بورتوان تفحص عناوين الكتب ورائي.

بزت. بزت. بزت. بزت. بزت.

"إنه نوع كتبك المفضّل". استخدم منديلاً كي يسحب شيئاً ما. "يبدو أنه

الوحيد هنا".

وضع نسخةً من الأنتروبولوجي الأميركي على الطاولة. لاحظتُ أنّ الكتاب صدر في تموز من العام 1993. لم أشعر بحاجةٍ إلى فتحه. أعرف عنوان أحد

الفصول في جدول المحتويات. أطلقت عليه المؤلفة صفة كتاب مهم من أجل الترويج للبلوغ الأستاذية الكاملة.

إنها مقالة غايي. صعقتني منظر كتاب الأنثروبولوجي الأميركي. شعرتُ فجأةً بالرغبة في الخروج من هذا المكان. أردتُ الذهاب كي أمضي يوم سبت مشمسٍ حيث أكون بأمان، حيث لا يموت أحد، وحيث تستطيع صديقتي دعوتي إلى الغداء.

المياه. اسكبي بعض المياه الباردة على وجهك يا بيرينان. أسرعتُ نحو الأبواب المزدوجة، ودفعتُ أحدها بقدمي، ورحتُ أبحث عن المطبخ.

بززززت. بززززت. بززززت. بززززت. بززززت.

لم تكن هناك نافذة في الغرفة. ومضت ساعة رقمية موجودة إلى يميني بألوان برتقالية. استطعتُ أن أرى شكلين أبيضين، وكذلك رأيتُ شيئاً شاحباً على مستوى الخصر. افترضتُ أنني رأيتُ ثلاجة، وموقداً، وحوض غسل أطباق. بحثتُ عن مفتاح كهربائي وسط هذه العتمة. فلتذهب التعليمات القانونية إلى الجحيم، ولا بأس إذا ما وجدوا بصماتي في هذا المكان.

وضعتُ ظاهر يدي على فمي، وسرتُ متعثرةً باتجاه الحوض حيث رششتُ بعض المياه على وجهي. رأيتُ رايان واقفاً عند الباب. "أنا بخير".

اندفع بعض الذباب وحام في الغرفة بعدما أزعجه هذا التدخل الذي لم تتوقعه.

بززت. بزززت. بزززت.

"أتريدون نعناعات؟" قدّم إليّ لفةً من لايف سايفر.

تناولتُ واحدة: "يا للحرارة الشديدة!"

"كأننا في إناء طبخ".

تقلّبتُ ذبابة على خدّه: "اللعنة... دفع يده في الهواء. "ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟"

رأيتُ تلك الأشياء أنا ورايان في الوقت ذاته. استلقى شيان على طاولة المطبخ، ظهرت بقع الدهن على المناديل الورقية التي وضعت لتجفيفها. تراقص

الذباب حول هذين الشئيين، وحطّ ثم طار بعصية مرات عديدة. رأيتُ قفازاً طبيياً إلى اليسار، وهو الجزء الآخر من القفاز الذي عثرنا عليه قبل قليل. تقدّمتنا قليلاً، وهو الأمر الذي أثار الذبابات ودفعها للطيران بعصية.

نظرتُ إلى هاتين الكتلتين المنكشيتين، ثم أخذتني تفكيري إلى الصراصير والعناكب التي شاهدتها في زاوية محل الحلاق. لاحظتُ أرجلها الجافة وعصبيتها بسبب ضيق مكان تواجدها. لاحظتُ، مع ذلك، أنه لا علاقة لهذين الشئيين بشمانيات الأرجل. عرفتُ طبيعتهما على الفور، مع أنني رأيتُ بقية الأشياء في الصور.

"إنها مخالب".

"ماذا؟"

"إنها مخالب تعود لنوعٍ معيّنٍ من الحيوانات".

"هل أنت متأكدة؟"

"يمكنك أن تقلب إحداها".

فعل ذلك مستخدماً قلمه.

"يمكنك أن ترى هناك نهايات عظام الأطراف السفلية".

"وماذا يفعل بها؟"

أخذتني تفكيري إلى إلسا: "وكيف لي أن أعرف بحق الجحيم، يا رايان؟"

"يا إلهي".

"يتعيّن علينا أن نفتش في الثلاجة".

"أوه. يا إلهي".

وجدنا الجثة الصغيرة هناك مسلوخةً وملفوفةً بقطع النايلون الشفاف. رأينا

أشياء أخرى أيضاً.

"ما هذه؟"

"كأنهما من أنواع الثدييات. لا أستطيع الجزم من دون رؤية جلودها، لكنني

أستطيع القول إنها ليست جياداً".

"شكراً يا برينان".

انضمّ برتوان إلينا: "ماذا لديكما؟"

كان صوت رايان مليئاً بالانزعاج عندما أجاب: "لدينا حيوانات ميتة، وقفاز آخر".

قال بوتران: "لعل الرجل يأكل الحيوانات التي تُقتل على الطرقات".
"يُحتمل ذلك. ويُحتمل أيضاً أنه يصنع مظلمات للمصابيح من جلود الناس.
هذا يكفي. أريد إقفال هذا المكان. أريد مصادرة كل شيء هنا. ضعوا كل
السكاكين، وذلك الخلاط، وكل شيء موجود في تلك الثلاثجة اللعينة، في أكياس.
أريد أيضاً قشط كل هذه المجموعة، وأن يُغسل المكان ببلورات الليومينول. أين
جيلبير بحق الجحيم؟"

تحرك رايان باتجاه هاتف معلق على الجدار إلى يسار الباب.

"توقف قليلاً. هل يوجد في هذا الهاتف زر إعادة طلب الرقم؟"

أوما رايان.

"اضغط عليه إذاً".

"لعله اتصل برجل الدين، أو بجذته".

ضغط رايان على الزر. استمعنا إلى نغمة من سبعة مقاطع تبعتها أربع رنات.
أجاب صوت، وعندها تصاعدت فقاعة الخوف، التي حبسها طيلة النهار في
أعمامي، إلى رأسي، وشعرتُ أنني سأصاب بالإغماء.
"اترك اسمك ورقمك من فضلك. سأتصل بك في أقرب وقتٍ ممكن. شكراً.
أنا تمب".

36

أصابني الصدمة عند سماع صوتي. شعرتُ وكأنني تلقيتُ ضربةً على رأسي. أحسستُ أنني لن أقوى على الوقوف، بينما تسارعت أنفاسي حتى بدأتُ ألهث.

ساعدني رايان في الوصول إلى كرسي، وأحضر لي كوباً من المياه، لكنه لم يطرح أي أسئلة. لا أذكر كم من الوقت جلستُ هناك، وأنا لا أشعر بشيء غير الفراغ. في النهاية، بدأتُ أستعيد رباطة جأشي فتمكنتُ من تقييم الواقع.

اتصل ذلك النذل بي. لماذا؟ ومتى؟

شاهدتُ جيلبير وهو يرتدي قفازين مطاطيين، ويمد يده إلى داخل المجموعة. تناول شيئاً وألقاه في حوض غسل الأطباق.

هل كان يحاول الاتصال بي؟ أو بغايي؟ ماذا كان يريد أن يقول؟ هل أراد أن يتكلم، أم أنه أراد أن يعرف إذا كنت موجودة في المنزل؟

تنقل أحد المصورين من غرفة إلى غرفة، وومض الفلاش مثل البراعات المنقلة في هذه الشقة الكئيبة.

تذكرتُ تلك الاتصالات المقطوعة. هل جاءت منه؟

أقدم أحد التقنيين، الذي ارتدى قفازين مطاطيين ورداءً واقياً، على وضع الكتب في أكياس بلاستيكية، وأحكم ربطها بأشرطة لاصقة باعتبارها أكياس أدلة، وعلم كل حزمة منها، ثم وقع فوق الختم. وعمد أحد رفاقه من التقنيين إلى رشّ بودرة بيضاء فوق الطلاء المصقول باللون الأحمر الداكن للرفوف. انهمك تعني

ثالث في إفراغ الثلاثجة من محتوياتها، ووضع الرزم داخل مغلفات سمراء عادية، ثم نقلها إلى جهاز تبريد خاص.

هل ماتت هنا، وبالتالي كانت هذه المناظر التي أراها الآن هي آخر المناظر التي رأيتها؟

تحدّث رايان مع شاربونييو. تناهى إليّ جزءٌ من الحديث عبر هذا الجو الخانق بجزرته. أين هو كلوديل؟ ماذا يفعل الآن؟ هل يقوم باستجواب القيم على المبنى؟ وهل يقوم بإلقاء نظرة على الطابق السفلي، ومناطق التخزين؟ هل حصل على المفاتيح؟ علمتُ أنّ شاربونييو قد غادر، ثمّ عاد بعد قليل برفقة امرأة في منتصف العمر ترتدي رداء عمل منزلياً وتنتعل خفّاً. اختفياً مجدداً برفقة الرجل الذي وضّب الكتب.

عرض عليّ رايان أكثر من مرة أن يأخذني إلى المنزل. قال لي، بلطف، إنه لا يمكنني فعل أي شيء هنا. أدركتُ ذلك، لكنني لم أستطع المغادرة.

وصلت الجدة عند الرابعة تقريباً. لم تكن عدائية ولا متعاونة في الوقت ذاته. أعطينا وصفاً لتانغواي، وإن كانت قد ترددت في البداية. قالت إنه ذكّر، وهادئ، وشعره بيّ اللون، وهو نحيل البنية، يميل إلى الوسطية في كل شيء. يتطابق هذا الوصف مع نصف الرجال الذين يعيشون في أميركا الشمالية. قالت إنّها لا تعرف المكان الذي يتواجد فيه الآن، ولا الوقت الذي غادر فيه. أضافت أنه غاب من قبل، لكنه لم يمكث طويلاً. قالت إنّها لاحظت غيابه لأن تانغواي طلب من ماثيو أن يُطعم أسماكهم. أبلغتنا أنه كان لطيفاً مع ماثيو، واعتاد أن يعطيه المال لقاء اعتنائه بأسماكهم. قالت إنّها لا تعرف أموراً عنه أكثر مما أخبرتنا به، وإنّها نادراً ما تراه. أطلعتنا على ظنونها بأنه كان يعمل، وأنه يمتلك سيارة، وإن كانت غير متأكدة. أضافت أنّها لا تكثرث بشأنه، ولا تريد أن تعرف عنه أي شيء.

أمضى فريق استعادة الأدلة المساء بطوله وبعض الليل، في تفتيش الشقة. لم أبقَ معهم، لأنني شعرتُ بالحاجة إلى مغادرة الشقة بحلول الساعة الخامسة، عندها قبلتُ عرض رايان بالمغادرة.

تكلمنا قليلاً في السيارة. كرّر رايان أمامي ما سبق أن قاله لي على الهاتف. يتعيّن عليّ البقاء في المنزل، وستتولى وحدة من الشرطة حراسة بنايتي على مدار الساعة. شدّد عليّ أن أمتنع عن القيام بأي مغامرات في أوقات متأخرة من الليل، وعن القيام بمهمات بمفردي.

أحسستُ أنّ صوتي قد وشى بمدى ضعفي العاطفي عندما قلتُ له: "لا أضمن لك ذلك".

أمضينا بقية الوقت في السيارة وسط صمت ثقيل. وعندما وصلنا إلى المبنى الذي أسكنه، أدخل رايان السيارة إلى المرآب ثم التفت نحوي. أحسستُ بنظرات عينيه على وجهي.

"اسمعي يا برينان. لن أحاول أن أصعب الأمور عليك. أوكد لك أننا سنقبض على هذا التافه. تستطيعين الاعتماد على قولي هذا، وكل ما في الأمر هو أنني أريدك أن تعيشي لترّي هذا بنفسك".

تأثرتُ لاهتمامه بي بصورة أكبر بكثير من التي أظهرتها.

أقفلت كل المعابر، وأرسلت النشرات إلى كل شرطيّ في كيبك، وإلى شرطة أونتاريو الإقليمية، وإلى سلاح الفرسان الملكي الكندي، وإلى شرطة ولاية نيويورك وولاية فيرمونت، غير أنّ حدود كيبك كانت دائماً سهلة العبور. إذ تتواجد أماكن كثيرة تصلح للاختباء، أو للهرب من خلالها على امتداد هذه الحدود.

عانيتُ في الأيام التي تلت من التفكير في الاحتمالات. يُحتمل أن يكون تانغسواي متوارياً عن الأنظار الآن مرهناً على مرور الوقت. يُحتمل أن يكون الرجل ميتاً الآن، أو لعله فرّ من البلاد، مثلما يفعل القتلة التسلسليون. إنهم يجزمون حقائقهم ويرحلون ما إن يحسّوا بالخطر. إذ يتفادى بعضهم إلقاء القبض عليه. كلا. رفضتُ قبول هذه الحقيقة.

لم أعادر منزلي نهار الأحد. لازمتُ المنزل أنا وبيرودي. لم أرتدّ ملابسني، وتجنبتُ الاستماع إلى جهاز الراديو والتلفزيون. لم أتحمّل رؤية صورة غايي، أو أن أستمع تكراراً إلى أوصاف الضحية والمشتبه به. أجريتُ ثلاث مكالمات. كانت الأولى إلى كاتي، أما المكالمة الثانية فأجريتها مع عمي في شيكاغو. اتصلتُ بالعمة

كسي أتمنى لها ذكرى ميلاد سعيد! باركتُ لها بذكرى ميلادها الرابع والثمانين.
أحسنَت صنعاً أيتها السيدة!

عرفتُ أن كاتي موجودة في شارلوت، لكنني أردتُ أن أطمئن نفسي. لم أتلَقَ جواباً، كما توقعتُ بالضبط. لعنتُ المسافات البعيدة، ثم عدتُ كي أباركها، لأنني أريد أن تكون ابنتي بعيدة عن المكان الذي احتفظ فيه هذا الوحش بصورتها. لن أخبرها أبداً بما اكتشفته.

أجريتُ المكالمة الأخيرة مع والددة غايي. أظن أنها كانت تحت تأثير المسكنات، لأنها لم تستطع أن ترد على مكالمتي الهاتفية. تحدثتُ مع السيد ماكولاي. أبلغني أن الجنازة ستُجرى يوم الخميس، إذا ما استلمت العائلة الجثة.

مكثتُ أبكي لفترة من الوقت، وراح جسدي يهتز على إيقاع منتظم. طالبت الشياطين التي تسكن في مجرى دمي بنصيبها من الكحول. وثابرت على مبدئها الثابت في الحصول على المتعة المترافقة مع الألم. راحت تصرخ مطالبة بالارتواء، وبالشعور بالخدر. ساعدينا على القضاء على ما نشعر به.

رفضتُ تلبية طلبها، وكان من السهل عليّ أن أفعل ذلك. شارفتُ على الأربعين، وأعرف أن الأمر ليس لعبة كرة مضرب. إذا استسلمتُ في هذه اللعبة، فسأخسر وظيفتي، وأصدقائي، واحترامي لنفسي. اللعنة، قد أسمح لسان جاك/تانغواي أن يقضي عليّ!

لن أستسلم، لا أمام زجاجة الشراب، ولا أمام المهوس. أدين بهذا لغايي. أدين بهذا لنفسي، ولابنتي. بقيتُ صاحبةً وانتظرتُ، وتمنيتُ، بيأس، أن تكون غايي هنا كي أتحدث معها. تأكدتُ مراتٍ عديدة من استمرار وجود وحدة الشرطة في المكان.

اتصل بي رايان يوم الإثنين عند الحادية عشرة تقريباً. أخبرني أن لامانش قد أنهى التشريح. استنتج لامانش أن سبب الوفاة هو الخنق بشريط طبي. كانت الجثة متحللة، ومع ذلك استطاع أن يكتشف شقاً موجوداً في مكان عميق في لحم رقبة غايي. لاحظ أن الجلد المشقوق يشكل سلسلة من الفجوات والخدوش. ظهرت مئات من أماكن النزيف في الأوعية الدموية الموجودة في أنسجة العنق.

تلاشى صوت رايان، وتَحَيَّلَتْ غايي وهي تكافح من أجل الحصول على هواء تنفسه، وكى تبقى على قيد الحياة. مهلاً. شكراً لله لأننا وجدناها بهذه السرعة. لا أستطيع أن أواجه الرعب الذي يمثله وجود جثة غايي على طاولة التشريح. كان الألم الناتج عن فقدانها أليماً لا يُحتمل أبداً.

"... هناك كسر في العظمة اللامية (عظمة تحت اللسان). تركت الأداة المستخدمة، بغض النظر عن نوعها، أثراً حلزونياً على الجلد".

"هل تعرضت للاغتصاب؟"

"تعذّر عليه الجرم بسبب تحلل الجثة. أتت النتيجة سلبية بالنسبة إلى الحيوانات المنوية".

"ماذا بشأن زمن الوفاة؟"

"يقول لامانش إنّ الوفاة حدثت منذ خمسة أيام كحدّ أدنى، أما الحد الأقصى

فهو عشرة أيام".

"إنه مجال واسع جداً".

"يعتقد لامانش أنّ الجثة يُفترض أن تكون في حالٍ أسوأ بالنظر إلى الحرارة

الشديدة، والمستوى الضحل الذي دُفنت فيه".

آه يا إلهي. يعني ذلك أنّها ربما لم تُمت في اليوم الذي اختفت فيه.

"هل فَتَشَّتْ شقتها؟"

"لم يرها أحد، لكنها كانت هناك".

"ماذا بشأن تانغواي؟"

"تحضّري جيداً لما سأقول. يعمل ذلك الرجل مدرّساً في مدرسة صغيرة تقع

في الجزيرة الغربية". سمعتُ حفيف أوراق. "سان إيزادور. تواجد الرجل هناك منذ

عام 1991. وهو يبلغ الثامنة والعشرين من عمره. عازب. وضع الرجل علامة لا

أحد أمام الخانة المخصصة للأقارب. إننا نبحث الآن عن أقارب محتملين له. سكن

الرجل في سانغوين منذ العام 1991. تعتقد مالكة شقته أنه كان في مكانٍ ما من

الولايات المتحدة قبل ذلك".

"هل وجدتم بصمات معينة؟"

"وجدنا بصمات كثيرة قمنا بإدخالها في النظام المعلوماتي، لكننا لم نحصل على

نتيجة. أرسلناها جنوباً هذا الصباح".

"هل وجدتم شيئاً داخل القفاز؟"
"وجدنا بصمتين واضحتين على الأقل، وراحة يد ملطخة".
نَحَيْتْ غايي، والكيس البلاستيكي، والقفاز الآخر. كتبت كلمة وحيدة على
الورقة: قفاز.

"هل يحمل الرجل درجةً جامعيّةً؟"
"إنه يحمل درجة أسقفية. توجّه برتران إلى لينوكس فيل في هذا الوقت.
يحاول كلوديل أن يقبض على شخص ما في سان إيزادور، لكنه لم يوفّق حتى
الآن. يقول إن حارس المبنى يكاد يبلغ المئة عام، ولا يوجد أي شخص آخر في
المكان المقفل هذا الصيف".

"هل عثرتم على أسماء في الشقة؟"
"لم نجد أيّاً منها. لم نجد صورة، ولا دفاتر عناوين. لم نجد رسائل، ولا بد أن
الرجل يعيش في فراغ اجتماعي".
مرّت فترة صمت طويل استغرقتنا فيها بالتفكير في هذه المعلومات، وبعدها
تكلّم رايان.

"هناك أمرٌ قد يفسّر هواياته الغريبة".
"أتعني الحيوانات؟"
"أجل، بالإضافة إلى مجموعة السكاكين التي يمتلكها".
"أتقول السكاكين؟"

"يملك ذلك النذل أنصلاً أكثر مما يمتلكه جراح عظام. يتكوّن معظمها من
أدوات جراحية: سكاكين، شفرات، مباحض. احتفظ بها الرجل تحت سريره إلى
جانب علية من القفازات الجراحية، وكلها أصلية".

"يا لهذا الرجل المنزّل الذي يملك ولعاً بالشفرات! عظيم!"
"يملك أيضاً مجموعة من الصور الجنسية، وكلها حسنة الترتيب".
"وماذا بعد؟"

سمعتُ مزيداً من حفيف الأوراق: "يملك الرجل سيارةً. إنها فورد بروب
موديل 1987. لم نجد السيارة في الحي. إنهم يبحثون عنها. حصلنا على صورة
رخصة قيادة الرجل، فأرسلناها هي الأخرى".

"وماذا بعد؟"

"سأتركك تحكمن بنفسك، لكنني أعتقد أن الجدة على حق. لا يستطيع الإنسان أن يتذكره بسهولة، أو لعل ماكينة فاكس زيروكس لا تنفيه حقه".

"أيمكن أن يكون هو سان جاك بذاته؟"

"إنه احتمال وارء. يُحتمل أن يكون جان كريتيان أيضاً، أو قد يكون هو الرجل ذاته الذي يبيع النقانق في شارع سان بول، أو قد يكون ريتشارد بيتي طليقاً. يمتلك الرجل شارباً".

"يا لك من رجل مشاغب يا رايان!"

"لا يمتلك الرجل حتى ضبط مخالفة لسيارته. كان رجلاً مستقيماً على الدوام".

"صحيح. إنه مواطن صالح ينشغل بجمع السكاكين، والصور الجنسية، ويشرح الثدييات الصغيرة".

مرّت فترة صمت.

"وما هي طبيعة كل هذه الأشياء؟"

"لسنا واثقين بعد. إنهم يستجوبون شخصاً في جامعة مونتريال".

نظرتُ إلى الكلمة التي كتبتها، وبلعت ريقِي بصعوبة.

وجدتُ صعوبةً في لفظ اسم صديقتي: "هل وجدتم بصمات داخل القفاز

الذي وجدناه مع غايي؟"

"لا".

"عرفنا أنه لن توجد بصمات".

"أجل".

سمعتُ ضجيج أفراد الفرقة عند الطرف الآخر من الخط.

"أريد أن أرسل لك نسخة عن صورته الموجودة على رخصة قيادته. أريدك

أن تكوّن فكرةً عن مظهره في حال التقيت به شخصياً، وعن قرب. أريدك أن تلازمي منزلك إلى أن نلقي القبض على ذلك النذل".

"سأوافيك إلى هناك. أريد أن أخضع أي معلومات تدل على هوية القاتل إلى

الفحص البيولوجي، هذا إذا استطعتم أن تتوصلوا إلى تحديد الهوية عن طريق

القفاز. يأتي دور لاكروا بعد ذلك".

"أعتقد أنه يتعين عليك..."

"وقر عليك هذا الكلام الذكوري يا رايان!"

سمعته يُخرج الهواء من رئتيه.

"هل تحاول إخفاء أي معلومات عني؟"

"إنّ ما نعرفه نحن تعرفينه كله."

"سأكون هناك في غضون ثلاثين دقيقة."

وصلتُ بعد مضي نصف ساعة إلى قسم تحديد الهوية في المختبرات. أُنهي هذا

القسم عمله على القفازين ثم أرسلهما إلى القسم البيولوجي.

نظرتُ إلى ساعتِي التي أشارت إلى الثانية عشرة والأربعين دقيقة، ثم اتصلتُ

بقسم تحديد الهوية في مركز شرطة مونتريال، كي أسأل إذا ما كنتُ أستطيع رؤية

الصور التي أُخذت في شقة سان جاك التي تقع في شارع بيرغر. قالت لي عاملة

الهاتف إنه وقت الغداء، وطلبت مني ترك رسالة.

مشيتُ عند الساعة الواحدة إلى قسم البيولوجيا (علم الأحياء). شاهدتُ

امرأة تميل إلى السمّنة ذات شعر جميل، ووجه ملائكي. رأيتها ترجّ قارورة

زجاجية. ولاحظتُ وجود قفازين مطّاطيين ملقّين على الطاولة خلفها.

"بونجور فرانسوا."

"آه. توقعت أن أراك اليوم". لاحظت نظرة قلقٍ في العينين الملائكيتين. "أنا

آسفة. لا أعرف ماذا أقول لك بالضبط."

"شكراً. لا بأس". أشارتُ إلى القفّازين. "ماذا لديك؟"

"إنه نظيف، ولا وجود للدماء فيه". أشارت إلى قفازي غايي. "بدأت لتوي

بالعمل على القفّاز الذي وُجد في المطبخ. هل تريد أن تلقي نظرة؟"

"شكراً لك."

"أخذت عينات من تلك البقع البنية، ثم جفّفت العينّة بمياه الملح."

تفحصتُ السائل، ثم وضعت القارورة في الصينية التي تحتوي أنابيب الاختبار.

تناولت أنبوباً زجاجياً ماصاً يتميز بعنق طويل فارغ، ثم أمسكته فوق نار خفيفة

كي تحكّم إغلاقه، ثم أدارت الغطاء.

"سأقوم بدايةً بفحص كي أتأكد من وجود الدماء."

تناولت قارورة زجاجية صغيرة من الثلاجة. كسرت الغطاء، ثم أدخلت من خلاله الأنبوب الزجاجي الماص. بدا المنظر مثل بعوضة تقوم بمصّ الدماء حينما تصاعد المصل الذي يحمل المضادات الحيوية في الأنبوب الرفيع. وأقفلت النهاية الأخرى بإهمامها.

أدخلت فرانسواز القسم الطويل والرفيع إلى الأنبوب الذي أحكم إغلاقه باستخدام النار، ثم أبعدت إهمامها فسمحت للمصل الذي يحمل المضادات الحيوية بالخروج. حدثتني أثناء عملها.

"يتعرف الدم على بروتيناته الخاصة به، أو المضادات. أما إذا تعرف على أجسام غريبة، أي مضادات التي لا تنتمي إليه، فعندها يسارع إلى تدميرها مستخدماً أجسامه المضادة الخاصة به. تقوم بعض الأجسام المضادة الأخرى بربط المضادات الغريبة معاً. تدعى عملية التجميع هذه تفاعل التفرية".

"يتشكل المصل الذي يحتوي على المضادات الحيوية في الحيوانات، وعادة ما يكون أرنباً أو دجاجة. يحدث ذلك عندما يُحقن بدماء من فصيلة أخرى. تتعرف دماء الحيوان على الدماء الغريبة فيسارع الجسم إلى إنتاج الأجسام المضادة كي يحمي نفسه. إن حقن الحيوان بالدم البشري يُنتج المصل البشري الذي يحتوي على المضادات الحيوية. أما إذا حقن الحيوان بدماء الماعز فعندها نحصل على مصل الماعز الذي يحتوي على المضادات الحيوية. يصحّ الأمر ذاته عندما نحقن الحيوان بدماء حصان، فعندها نحصل على مصل حصان يحتوي على مضادات حيوية".

"يتسبب المصل البشري الذي يحتوي على المضادات الحيوية في إطلاق تفاعل التفرية عندما يمتزج مع الدم البشري. راقبي ذلك. إذا كانت هذه دماء بشرية ستتشكل طبقة من الترسبات في أنبوب الاختبار، أي في المكان الذي يلتقي فيه محلول العينة مع المصل الذي يحتوي على المضادات الحيوية. سنقارنه بعد ذلك مع المصل كي نتأكد من النتيجة".

ألقت بالأنبوب الماص في صندوق للنفايات البيولوجية، ثم تناولت قارورة تحتوي عينة من المحلول الذي أخذ من تانغواي. استخدمت فرانسواز أنبوباً ماصاً جديداً، ثم سحبت العينة في الأنبوب، ونقلتها إلى المصل الذي يحتوي المضادات الحيوية، ثم وضعت الأنبوب في صندوق خاص.

سألتُ: "كم سيأخذ هذا من الوقت؟"
"يعتمد هذا على قوة المصل الذي يحتوي على المضادات الحيوية. تتراوح المدة ما بين ثلاث دقائق إلى خمس عشرة دقيقة. إنَّ هذا أمر مناسبٌ جداً. لن يستغرق الأمر أكثر من خمس، أو ست، دقائق".
ألقينا نظرة بعد خمس دقائق. حملت فرانسواز الأنايب تحت مصباح لو كسو لامب، ولاحظت وجود بطاقة سوداء استُخدمت كخلفية. وألقينا نظرة ثانية بعد مرور عشر دقائق، ثم ألقينا نظرة ثالثة بعد مرور خمس عشرة دقيقة. لم نحصل على شيء. لم تتشكل حلقة بيضاء ما بين المصل الذي يحتوي مضادات حيوية وبين محلول العينة. بقي المزيج صافياً مثل لون الملح الذي ينظّم العملية.
"هكذا إذاً. إنها ليست دماءً بشريةً. دعينا نتأكد ما إذا كانت دماء حيوان".

عادت إلى الثلاجة مجدداً، وتناولت صينية تحتوي على زجاجات صغيرة.
سألتها: "هل تستطيعين تحديد الفصائل بدقة؟"
"كلا. أستطيع عادةً تحديد العائلة التي ينتمي النموذج إليها، مثل بوفيد، سيرفيد، و كانيد".

نظرتُ إلى الصينية. وجدتُ اسم حيوان إلى جانب كل زجاجة: عنزة. فأرة. حصان. تذكرت المخالب التي وجدناها في مطبخ تانغواي.
"دعينا نجرب الكلاب".
لم نحصل على نتيجة.

"ماذا لو جربنا شيئاً، مثل سنجاب، أو أي من القوارض الأخرى؟"
فكرت لبرهة ثم أمسكت إحدى الزجاجات. "أو فأرة".
تشكّلت لدينا طبقة رقيقة في الأنبوب بغضون أقل من أربع دقائق. ظهر اللون الأصفر في أعلى الطبقة، بينما كانت الطبقة شفافة في الأسفل، وتشكّلت طبقة بيضاء غائمة في الوسط.

قالت فرانسواز: "هكذا إذاً. إنها دماء حيوان، ويبدو أنه حيوان صغير من الثدييات، مثل أحد القوارض أو خنزير الأرض، أو ما شابه ذلك. هذا هو كل ما أستطيع قوله الآن. لا أعرف ما إذا كانت هذه المعلومات ستساعدك".

قلتُ: "أجل.. تساعدني هذه المعلومات. هل أستطيع استخدام هاتفك؟"
"بالأكيد".

طلبتُ رقماً داخلياً خارج القاعة.
"لاكروا".

عرّفتُ عن نفسي وشرحتُ ما أردته.
"بالأكيد. أعطني عشرين دقيقة فقط. أنتظر الآن إحدى النتائج على جهاز الكمبيوتر".

وقعتُ بأبني استلمت القفازين، وعدتُ إلى مكنتي. أمضيتُ نصف الساعة التالية أدقّق في التقارير وأوقّعها. عدت بعد ذلك كي أسير في الرواق الذي تشغله دائرة البيولوجيا، ثم دخلتُ باباً كُتب عليه نيران ومتفجرات.

وقف رجلٌ يرتدي معطف مختبر أمام ماكينة ضخمة. حملت هذه الماكينة اسم **مطياف الأشعة السينية**. لم يقل الرجل شيئاً، وأنا لم أقل شيئاً بدوري حتى انتهى من نقل شريحة تحمل بقعةً صغيرةً بيضاء اللون، ووضعها على الصينية. نظر الرجل إليّ بعد ذلك نظرةً تحمل النعومة ذاتها التي يحملها ظي من طباء ديزني. تدلّى جفناه، والتفت رموشه إلى الخلف مثل تويجات الأقحوان.

"بونجور، مسيو لاكروا. كيف حالك؟"

"أنا بخير. أنا بخير. هل هما معك؟"

رفعتُ كيسين بلاستيكيين.

"هيا نبدأ العمل".

قادي إلى غرفة صغيرة مزودة بجهاز بحجم آلة تصوير، وشاشتين، وطابعة. شاهدتُ جدولاً دورياً للعناصر معلقاً على الحائط.

وضع **لاكروا** الكيسين اللذين يحتويان الأدلة على طاولة، ثم ارتدى قفازين جراحيين في يديه. تناول، بحذر شديد، القفازين المشتبه بهما الواحد بعد الآخر، ثم تفحصهما. أعادهما **لاكروا** إلى الكيس مجدداً. بدا القفازان المطوطان على يديه مشابهيْن لهذين القفازين الموضوعين على طاولة العمل.

"فلنتفحص في البداية الميزات العامة، وتفصيل الصنع. والوزن، والكثافة، واللون، وكيفية إهاء الحواف". قلب كل قفاز من القفازين رأساً على عقب أكثر

من مرة، وراح يتفحصهما متابعاً الحديث. "يبدو هذان الزوجان متشابهين تماماً. تتميز الحواف بالتقنية ذاتها. أترين؟"
نظرت. لاحظتُ أنَّ معصم كل كَفٍّ ينتهي بحافةٍ تلتف على نفسها من الخارج.

"ألا تنتهي كل القفازات بالطريقة ذاتها؟"

"لا. تنتهي بعض القفازات بلفّةٍ إلى الداخل، بينما تلتف قفازاتٌ أخرى إلى الخارج. يلتف هذان القفازان بلفّةٍ إلى الخارج. سننتقل الآن إلى تفحص محتوياتهما".

حمل الرجل قفّاز غايي إلى الماكينة، ورفع الغطاء، ثم وضعه على صينية داخلها.

أشار الرجل إلى صينية مليئة بالأنايب الصغيرة: "أستخدم هذه الأنايب مع العيّنات الصغيرة الحجم. أعمد عادةً إلى وضع قطعة مربعة من شريط بولي بروبيلين اللاصق، الذي يُستخدم على زجاج النوافذ، فوق الأنبوب، ثم أعمد إلى الضغط كي أجعل البقعة الدقيقة تمسك بالشظية. لكن هذه العملية ليست ضرورية مع ما لدينا هنا. سنكتفي بوضع القفّاز بكامله في الداخل".

ضغط لاكروا على زر فدّبت الحياة في الجهاز. أضاء صندوق صغير يرتكز على عمود في إحدى زوايا الجهاز. ظهرت كلمة أشعة X باللون الأبيض على خلفية حمراء. ومضت لوحة من المفاتيح التي تشير إلى حالة الماكينة. يشير الزر الأحمر إلى أشعة X، والزر الأبيض إلى التشغيل، أما الزر البرتقالي اللون فيشير إلى انفتاح المصاريع.

انشغل لاكروا بتعديل المفاتيح برهةً من الزمن، ثم أغلق الغطاء، وتوجّه إلى كرسيّ موجود أمام الشاشتين.

أشار إلى الكرسي الآخر: "اجلسي من فضلك".

ظهر أحد المناظر الصحراوية على الشاشة الأولى. بدت خلفية المنظر حبيبية، مظهرةً تشكيلات متنوعة من الصخور. تناثرت الظلال والصخور هنا وهناك على الشاشة. تداخلت مع هذا المنظر سلسلة من الدوائر ذات المركز الواحد، فيما أخذت أصغر دائرتين وأقربهما إلى المركز شكل كرة القدم. تقاطع

خطّان في زاوية عامودية، ورسمًا بذلك شكلاً متصالباً فوق الدائرتين اللتين تتوسطان الشاشة.

عدّل **لاكروا** الصورة عن طريق تحريك عصا قيادة. تحركت الصخور إلى داخل الدوائر وخارجها.

"ننظر الآن إلى القفاز بعد أن قمنا بتكبيره ثمانين مرة. إنني أبحث عن موقع محدد. تقوم كل عملية مسح بأخذ نموذج عن مساحة تبلغ ثلاثمئة ميكرون، وهي المساحة التي تماثل تقريباً الدائرة المنقطة. وهكذا تتمكنين من توجيه الأشعة السينية إلى معظم العينة".

نقل الخطوط المتصالبة قليلاً، ثم استقر على رقعة خالية من الحصى.

"هناك. لا بد أن ذلك هو المكان المناسب".

ضغظ على زرّ فبدأت الماكينة بالمهمة.

"سيستغرق ذلك عدة دقائق. تأتي عملية المسح بعد ذلك. إنها عملية سريعة جداً".

"وهل ستحدّد هذه العملية الأشياء الموجودة داخل القفاز؟"

"نعم. إنه نوعٌ من أنواع التحليل بالأشعة السينية. تستطيع الأشعة السينية الناتجة عن موجات متفلورة متناهية القصر أن تحدد طبيعة العناصر الموجودة في نموذج معين".

توقفت المهمة وبدأ نمط معين بالتشكّل على الشاشة الموجودة إلى اليمين. انتشرت سلسلة من التلال على طول الجهة السفلى من الشاشة، وازدادت عدداً على خلفية زرقاء لامعة، بينما ظهر شريط رفيع أصفر وسط كل واحدة من هذه التلال. ظهرت عند الزاوية السفلى واليسرى صورة لوحة مفاتيح. حمل كل مفتاح رمزاً مختصراً لعنصر من العناصر الموجودة في الطبيعة.

نقر **لاكروا** مجموعة أوامره، فظهرت أحرف معينة على الشاشة. بقيت بعض

التلال الصغيرة، بينما ظهرت تلال أخرى بشكل قمم عالية، تماثل شكل هذه التلال مع القلاع التي يبنها النمل الأبيض، والتي سبق لي أن رأيتها في أستراليا.

"هذه هي". أشار **لاكروا** إلى عمود إلى أقصى اليمين. ارتفع هذا العمود من

الأسفل إلى أعلى الشاشة حيث يظهر مبتوراً هناك. ظهرت قمة أصغر إلى اليمين والتي ارتفعت نحو ثلث ارتفاع القمة المجاورة. وظهر الرمز Zn.

"زنك. لا أستغرب وجوده، لأن هذا العنصر يتواجد في كل القفزات".
أشار إلى قمتين موجودتين إلى أقصى اليسار. بدت إحدهما منخفضة، بينما ارتفعت الأخرى إلى مسافة ثلاثة أرباع الشاشة. "تمثل القمة المنخفضة عنصر المغنيزيوم، أو Mg. أما القمة التي تحمل إشارة Si فهي عنصر السيليكون".
شاهدتُ في اتجاه اليمين قمة مزدوجة تحمل الحرف S.
"إنه عنصر الكبريت".

برزت قمة وصلت إلى منتصف الشاشة تحمل رمز Ca.
"هناك القليل جداً من الكالسيوم".
شاهدتُ ثغرة وراء الكالسيوم، برزت بعدها سلسلة من التلال تقارب القمة التي تمثل الزنك. تألفت هذه التلال من عنصر Fe.
"هناك القليل من الحديد".

استرخى في جلسته، وراح يلخص النتائج لي: "إنه كوكتيل مألوف جداً. هناك الكثير من الزنك المترافق مع مكونين رئيسيين آخرين هما السيليكون والكالسيوم. سأطبع هذه النتيجة، وسنعمد بعد ذلك إلى اختبار بقعة أخرى".
أجرينا عشرة اختبارات أخرى. أظهرت كل هذه النتائج التشكيلة ذاتها من العناصر.

"حسناً إذاً. لننتقل الآن إلى القفاز الآخر".
كرّرنا هذا الإجراء مع القفاز الذي وجدناه في مطبخ تانغواي.
بدت القمتان اللتان تمثلان الزنك والكبريت متشابهتين، لكننا لاحظنا أنهما تحتويان كمية كالسيوم أكثر، في حين يخلو هذا القفاز من الحديد، والسيليكون، والمغنيزيوم. لاحظنا وجود قمة صغيرة تدل على وجود البوتاسيوم. بقيت كمية هذا العنصر ثابتة مع كل عملية مسح.

سألته، علماً بأنني كنتُ متأكدة من الجواب: "وماذا يعني هذا؟"
"يستخدم كل صانع وصفة مختلفة قليلاً لصنع المطاط. يُلاحظ أيضاً وجود اختلافات بين القفزات المصنوعة في الشركة ذاتها، لكنها تبقى في حدود معقولة".
"نستنتج إذاً أن هذين القفازين ليسا زوجاً واحداً".
"تستطيعين القول إنهما لم يُصنعا في الشركة ذاتها".

نهض الرجل كي يُخرج القفاز من الجهاز. شعرتُ بالارتباك للمعلومات التي اكتشفناها.

"هل سنحصل على معلومات أكثر إذا أجرينا اختباراً بانحراف الأشعة السينية؟"

"تعطينا التجربة التي أجريناها، أي عملية فلورة الأشعة السينية القصيرة جداً، فكرةً عن العناصر الموجودة في منتج معين. بينما تستطيع عملية انحراف الأشعة السينية تحديد الخليط الحقيقي للعناصر، أي التركيب الكيميائي. وتمكننا عملية الأشعة المتفلورة من معرفة أن شيئاً ما يحتوي **الصدويوم والكلوريد**. في حين تمكننا عملية الانحراف من التأكد ما إذا كان شيء ما يتألف من **الصدويوم والكلوريد**. نستطيع التأكد ما إذا كان شيء ما مصنوعاً من بلورات **كلوريد الصدويوم** عن طريق انحراف الأشعة. أستطيع أن أبسط الأمور أكثر من ذلك. توضع العينة في جهاز انحراف الأشعة السينية المتفلورة وتُدار، ثم تُعرض إلى الأشعة السينية. تدفع الأشعة السينية البلورات للقفاز. يُظهر لنا نمط الانحراف طبيعة تركيب تلك البلورات.

نستطيع القول، تبعاً لذلك إن إحدى معوقات انحراف الأشعة تكمن في أنها تُجرى فقط على المواد ذات التركيبة البلورية. تشكّل هذه المواد ما نسبته ثمانين بالمئة تقريباً من كل الأشياء التي تردنا. إن المطاط، مع الأسف، ليس متبلوراً بطبيعته، لذلك لا تفيدنا عملية انحراف الأشعة بالشيء الكثير. أجزم أن هذين القفازين من صنع صانعين مختلفين".

"ماذا لو كانا من صندوقين مختلفين؟ أنا متأكدة من أن دفعات التصنيع تتنوع في طبيعتها".

حافظ الرجل على صمته لبرهة من الزمن، عاد بعدها للكلام.

"انتظري. دعيني أريك شيئاً".

توجّه على الفور إلى المختبر الرئيسي، حيث تمكنتُ من سماعه وهو يتحدث مع أحد التقنيين. عاود الظهور مع رزمة من أوراق نتائج الاختبارات المطبوعة، التي تتألف كل واحدة من سبع أو ثماني صفحات تُظهر الأنماط المألوفة للقمم والأبراج. فتح الرجل كل مجموعة. ورحنا ننظر في تنوعات الأنماط.

"تُظهر كل واحدة من هذه الأنماط سلسلة من الاختبارات التي أُجريت على القفزات الآتية من صانع واحد، مع العلم أن العينات أُخذت من صناديق مختلفة. وجدنا فروقات فيها لكنها ليست كبيرة، وعلى أي حال فإنها ليست كبيرة بدرجة تصل إلى الفروقات الموجودة في القفازين اللذين حللناهما للتو".

تفحصتُ مجموعات عديدة. تفاوت حجم القمم، لكن طبيعة المكونات أظهرت ثباتاً ملفتاً.
"والآن، انظري إلى هذه".

نشر أمامي مجموعةً أخرى من الأوراق المطبوعة. لاحظتُ، مجدداً، وجود بعض الفروقات، لكن طبيعة الخليط كانت ذاتها بالإجمال.
أمسكتُ أنفاسي فجأةً. بدت ترتيبات التراكيب مألوفة لدي. نظرتُ إلى رموز العناصر التي تشكلت من الزنك، الحديد، الكالسيوم، الكبريت، السيليكون، والكالسيوم. تواجدت آثار بعض العناصر الأخرى معها. وضعتُ التقرير المطبوع عن قفاز غايي فوق باقي المجموعة. لاحظتُ أن النمط متماثل تقريباً.

"مسيو لاكروا، هل أتى القفازان من صانع واحد؟"
"أجل، أجل. هذا ما أريد أن أقوله. يُحتمل أنهما أتيا من الصندوق ذاته. تذكرتُ هذه للتو".

تسارعت نبضات قلبي: "إلى أي قضية تعود هذه؟"
"أنت منذ أسابيع قليلة فقط". قلب الصفحات حتى وصل إلى الصفحة الأولى في المجموعة. رقم القضية: 327468. "أستطيع أن أظهرها على شاشة الكمبيوتر إن أردت".
"أفعل، من فضلك".

ظهرت المعطيات على الشاشة في غضون ثوان قليلة. رحنتُ أنفحصها.
رقم القضية: 327468. رقم مختبرات مونتريال القضائية: 29427. اسم المكتب طالب الاختبار: شرطة مونتريال. المحققون: ل. كلوديل، وم. شاربونيو.
مكان الاسترداد: 1422 شارع بيرغر. تاريخ الاسترداد: 24 حزيران 1994.

إنه قفاز مطاطي قديم. هل قلق الرجل على أظافره؟ وكلوديل! ظننت أنه كان يتحدث عن قفازٍ مخصصٍ لتنظيف الأدوات المنزلية! هل اقتنى سان جاك قفازاً جراحياً؟ توافق قفازه هذا مع القفاز الذي وُجد في قبر غايي!

شكرتُ المسيو لأكروا، وجمعتُ النتائج المطبوعة، ثم غادرتُ المكتب. أرجعتُ القفازين إلى قسم الموجودات، وراح عقلي يسابق الزمن في تحليل الأمور التي اكتشفتُها للتو. لم يتوافق القفاز الذي وُجد في مطبخ تانغواي مع القفاز الذي كان مدفوناً مع جثة غايي. وُجدت بصمات تانغواي على هذا القفاز، بينما كانت البقع الموجودة عليه من الخارج تعود لدماء حيوان، لكن القفاز الذي وُجد مع غايي كان نظيفاً. لم يحتوي دماً، ولا بصمات. امتلك سان جاك قفازاً جراحياً توافق مع ذلك الذي وُجد في قبر غايي. هل كان برتران على حق؟ هل إن تانغواي وسان جاك هما الشخص ذاته؟

وجدتُ على طاولتي قفاصة زهرية اللون. اتصل بي قسم تحديد الهوية في شرطة مونتريال. أبلغوني أنّ الصور التي التُقطت للشقة في شارع بيرغر قد تمت أرشفتها على أسطوانة مدمجة، وأني أستطيع تفحصها هناك، أو أن آخذها إن أردت. اتصلتُ بالمكتب كي أبلغهم أنني أريد أخذها، وأني سأحضر إلى مكتبهم بعد وقت قصير.

شققتُ طريقي بصعوبة نحو مركز شرطة مونتريال، ولعنتُ ساعة الازدحام هذه، والسواح الذين يملأون منطقة المرفأ القديم. تركتُ سيارتي مركونة بطريقة تأخذ مكان سيارتين، ثم أسرعتُ إلى الدّرج، وتوجهت مباشرة إلى المسؤول في الطابق الثالث. دُهشتُ لأن الأسطوانة المدمجة كانت بحوزته. وقّعتُ على استلامها، وأسرعْتُ عائدةً إلى سيارتي، حيث وضعتُ الأسطوانة في حقيبتي.

حافظتُ طيلة الطريق على حذري، ورحتُ أتطلع من وراء كنفِي، بحثاً عن تانغواي، وبحثاً عن سان جاك. لم أستطع منع نفسي من الاحتراس.

37

وصلتُ إلى البيت عند الساعة الخامسة والنصف تقريباً. جلستُ بصمتُ في شقتي، ورحتُ أستعرض الأمور التي يمكنني القيام بها. لم أعثر على شيء. كانَ رايان على حق، لأن تانغواي قد يكون في مكان ما متربصاً بي، ومتحِيناً فرصته المؤاتية للانقضاض عليّ. صمّمتُ ألا أسهّل الأمر عليه.

شعرتُ بالجوع وبضرورة الخروج، بالإضافة إلى البقاء منشغلةً على الدوام. ما إن خرجتُ من الباب الرئيسي حتى تفحصتُ حالة الشارع. كانا هناك، وبالتحديد في الممر الذي يقع إلى يسار مطعم البيتزا. أومأتُ باتجاه الشرطيين، ثم أشرتُ نحو سانت كاترين. شاهدتُهما يتشاوران، ثم ما لبث أحدهما أن ترك مكانه.

يتقاطع الشارع الذي أسكن فيه مع شارع سانت كاترين في مكان لا يبعد كثيراً عن لا فابورغ. سرتُ نحو السوق وما لبثتُ أن أحسستُ بانزعاج الشرطي الذي يتبعني. كان النهار رائعاً على أي حال. لم أنتبه إلى درجة الحرارة عندما كنتُ في المختبرات. تدنّت درجة الحرارة قليلاً، وتشكلت غيوم بيضاء هائلة في السماء الزرقاء الرائعة، ونشرت جزراً من الظلال فوق المدينة وكل المنشغلين فيها. شعرتُ بالسرور لأنني خرجتُ إلى صحب الشارع.

انطلقتُ كي أشتري بعض المواد الغذائية. عاينتُ في متجر لا بلانتايشن بعض فواكه الأفوكادو، ونظرتُ إلى ألوان ثمار الموز، واخترتُ بعض البروكولي (القنبيط الأخضر)، والكرنب المسوّق، والبطاطا، وفعلتُ كل ذلك بالعناية ذاتها التي يمارسها

جرّاح الأعصاب. حصلتُ على بعض الخبز الفرنسي من الفرن. واشتريتُ بعض
موسية الشوكولاته من متجر الحلويات. انتقيتُ بعض قطع اللحم، وقليلاً من
اللحم المطحون، وفطيرة لحم من متجر بيع اللحم.

"هل هذا كل ما تريدينه؟"

"لا، ولم العجلة؟ أعطني قطعة من عظمة T، على أن تكون سميكة فعلاً".
رفعتُ إهامي وسبابتي وأبعدتهما مسافة سنتمترين ونصف.

رأيتُ يتناول المنشار من خطّافه، فأحسستُ مجدداً بتلك الرعشة التي سبق أن
شعرتُ بها. حاولتُ أن أطور ما أحس به إلى فكرة كاملة عن الأحداث، لكن من
دون أن أحرز نجاحاً أكبر من ذلك الذي لاقيته في المرة الماضية. ماذا يعني هذا
المنشار؟ أليس الأمر بديهياً جداً؟ ألا يستطيع أيّ شخص شراء منشار الطهارة؟
تتبعتُ أمن كييك هذا الدليل، وأقدموا على الاتصال بكل محلات البيع في
المقاطعة. تبين أن آلاف المناشير قد بيعت.

ماذا إذا؟ تعلمتُ أن محاولة التمعن بفكرة ما نابعة من اللاوعي تتسبب في
تعميق هذه الفكرة. وإذا ما سمحتُ لهذه الفكرة بالانسياب، فإنها تطوف على
السطح. دفعتُ ثمن ما اشتريته من اللحم وتوجهتُ إلى منزلي، لكن بعد أن
عرّجتُ قليلاً على مطعم بيرغر كينغ الذي يقع في شارع سانت كاثرين.

استقبلتني مفاجأة كانت آخر ما توقعته وأردته. اتصل بي أحدهم. جلستُ
على حافة الأريكة لدقائق عديدة متمسكةً بمشتراتي، ورحتُ أهدق بالضوء
الصغير للمؤشر. تلقيتُ اتصالاً واحداً. هل كان من تانغواي؟ هل يريد أن يتحدث
معي، أم أنني سأسمع كيف سيصغي إليّ قليلاً قبل سماع نغمة الخط الهاتفي؟
"لماذا أنت عصبية هكذا يا بريتان؟ يُحتمل أن يكون رايان".

جففتُ راحة يدي، مددتها، ثم ضغطتُ على الزر. لم يكن الاتصال من
تانغواي، بل من مصدر أسوأ بكثير.

"مرحباً أمي. هل تستمتعين في الخارج؟ هل أنت في المنزل؟ سألتقي بك
قريباً". سمعتُ ما بدا أنه صوت السيارات، أي أنّها كانت تتكلم من هاتف
خارجي. "لا أعتقد ذلك. حسناً، لا أستطيع التحدث على أي حال. إني على
الطريق. إني على الطريق مجدداً..." قلّدتُ ويلي نيلسون. "هذا رائع، أليس

كذلك؟ على أي حال. سأزورك يا أمي. هل أنت بخير؟ تبين لي أنّ ماكس رجل تافه أستطيع الاستغناء عنه". سمعتُ صوتاً في الطرف الآخر من الخط. "حسناً، أعطيني دقيقةً واحدة فقط". قالت ذلك لشخص ما. "اسمعي، لديّ فرصة لزيارة نيويورك ضمن برنامج التفاحة الكبيرة. ضمنّتُ لنفسِي رحلة مجانية، وها أنا هنا. أستطيع السفر إلى مونتريال على أي حال، لذلك أنا آتية. أراك قريباً!"

سمعتُ القرقعة التي تدل على إقفال الخط.

"لا! لا تأتي إلى هنا يا كاتي. لا!" وجدت نفسي أتكلم مع الفراغ. سمعتُ صوت شريط آلة التسجيل وهو يعود إلى بدايته. يا إلهي، ما هذا الكابوس! ماتت غايي، كما أنّ أحد المعتوهين أقدم على وضع صورة تجمعني مع كاتي في قبرها. إنها في طريقها إلى هنا. شعرتُ بنبض عروق جبهيّ، وتسارعت أفكارِي. يتعيّن عليّ إيقافها. لكن كيف؟ لا أعرف أين تكون.

بيتي.

ومضت في ذهني فكرة عندما رنّ هاتفه. رأيت كاتي في المنتزه وهي في عمر الثالثة. كنت أتحدث وقتها مع إحدى الأمهات الأخريات، لكن عينيّ بقيتا تراقبان كاتي أثناء لهُوها بملء أوعية بلاستيكية بالرمل. تركت كاتي رفشها الصغير فجأة، وركضت باتجاه الأراجيح. ترددت قليلاً عندما رأت أرجوحة حصان حديديّ تتأرجح إلى السوراء. ركضت باتجاه ذلك الحصان بعد أن ملأت وجهها حماسة الربيع، ورأت منظر العرف الملون للحصان ولجامه يتحركان في الهواء. عرفتُ أنّهما سيصدمانها، لكنني لم أستطع أن أفعل شيئاً لمنع ذلك. هل سيكرر الأمر ثانيةً الآن.

لم يرد عليّ هاتف بيتي المباشر.

جربّت الاتصال بموظفة الهاتف في شركته. أبلغتني مساعدةً ما بأنه ليس موجوداً بسبب انشغاله باستلام وديعة. تركتُ، بالطبع، رسالةً له. حدّقتُ بالآلة المحيية. أغلقتُ عينيّ، وأخذتُ أنفاساً طويلة وعميقة، وتمنيتُ أن يُطسّق قلبي من دقاته. شعرتُ أنّ رقبتي مشدودة بملزمة، بالإضافة إلى سخونتها الشديدة.

"هذا لن يحدث أبداً".

فتحتُ عينيّ لأكتشف أنّ بيردي يحدّق بي عبر الغرفة.

كررتُ له: "هذا لن يحدث أبداً".

حدّق بي، وبدت عيناه مسمرتين.

"أستطيع القيام بأمر معيّن".

قوّس ظهره، ووضع مخالبه الأربعة كلها في مربع ضيق، ثم جلس من دون أن

تبرح عيناه وجهي.

"سأفعل شيئاً. لن أكتفي بالجلوس هنا، وانتظار الشيطان كي ينقضّ. لن أدعه

يُنزل الأذى بابنتي".

نقلتُ الأغراض التي اشتريتها إلى المطبخ، ثم وضعتها في الثلاجة. أحضرتُ

حاسوبي المحمول، وشغلته، ثم أظهرتُ الجدول الذي سبق لي أن بدأت به. منذ متى

بدأتُ بهذا الجدول؟ تمنعتُ في التواريخ التي أدخلتها. وُجدت جثة إيزابيل غاغنون

في 2 حزيران. مرّت سبعة أسابيع. بدت سبعة أعوام بالنسبة إليّ.

شرعتُ بدراسة القضايا بعد أن أحضرتُ الملفات. تمنيتُ أن لا يكون الوقت

الذي أمضيته في تصوير الأوراق قد ضاع هباءً.

تفحصتُ على مدى الساعتين التاليتين كل صورة، وكل اسم، وكل تاريخ،

وحتى كل كلمة وردت في المقابلات التي أجرتها الشرطة، وفي تقاريرها. أعدتُ

الكررة بعد ذلك وتمنيتُ أن أجد شيئاً كنتُ قد غفلتُ عنه في السابق. فعلتُ ذلك

للمرة الثالثة.

بدأتُ بقراءة مقابلة رايان مع والد غرايس داماس، وفجأة لاحظتها.

انفجرت الفقاعة أخيراً في عقلي الواعي مثل عطسة كانت تنهياً وتزداد قوة، بعد

أن استمرت بإزعاجها رافضة أن تنتهي.

الملحمة (محل جزارة). عملت غرايس داماس في ملحمة. استخدم القاتل

منشار طهارة، ولا بد أنه يعرف شيئاً حول التشريح. أعرف أنّ تانغواي سبق له أن

شرّح حيوانات من قبل. ألا يُحتمل وجود رابط بين الأمرين. بحثتُ عن اسم تلك

الملحمة، لكنني لم أستطع إيجادها.

طلبتُ رقماً كان موجوداً في الملف. أجباني رجل.

"السيد داماس؟"

أجابني بلهجة إنكليزية ثقيلة: "أجل".

"أنا الدكتور بربنان. إنني أعمل في التحقيقات المتعلقة بمقتل زوجتك. هل أستطيع أن أطرح عليك بعض الأسئلة".

"أجل".

"هل كانت زوجتك تعمل خارج المنزل عندما اختفت؟"

مرّت فترة صمت قال بعدها: "أجل".

سمعتُ صوت جهاز تلفزيون عند الطرف الآخر من الخط.

"هل يمكنني أن أسأل أين كانت تعمل، من فضلك؟"

"عملت في فرن في فايرمونت يدعى لو بون كرواسان. كان عملاً بدوام

جزئي، لأنها لم تعمل بدوام كامل أبداً بسبب وجود الأولاد، وأسباب أخرى".

فكرتُ ملياً في ما قاله لي، وبما يعنيه ذلك بالنسبة إلى الرابط الذي أبحث عنه.

أخفيتُ حبيبة أُملي: "كم من الوقت عملت هناك يا سيد داماس؟"

"عملت هناك أشهراً قليلة فقط، على ما أعتقد. لم تتعود غرايس على البقاء

فترة طويلة في وظيفة واحدة".

تابعتُ الموضوع: "وأين عملت قبل ذلك؟"

"عملت في ملحمة".

أمسكتُ أنفاسي: "في أي ملحمة عملت؟"

"تدعى ملحمة سان دومينيك، ويملكها رجل ينتمي إلى رعيّتنا. إنها في سان

دومينيك الواقعة قرب سان لوران، أتعرّفينها؟"

أجل. تخيلتُ هطول المطر على نوافذها.

حاولتُ إبقاء صوتي هادئاً: "متى عملت هناك؟"

"منذ عام تقريباً على ما أعتقد. يبدو أنها عملت معظم عام 1991. أستطيع

التحقق من ذلك. أعتقدين أنّ للأمر أهمية؟ لم يسبق لهم أن سألوني عن التواريخ

من قبل".

"لستُ متأكدة من ذلك يا سيد داماس، هل حدّثتُك زوجتك عن شخصٍ

يُدعى تانغواي؟"

قال بصوت قاسٍ: "مَن؟"

"تانغواي".

سمعتُ صوتَ مذياعٍ عند الطرف الآخر يعد بالعودة بعد استراحة الإعلانات.
بدأ رأسي يؤلمني، وكذلك حنجرتي.
"لا".

أدهشتني القسوة في صوته.

"شكراً لك، لقد ساعدتني كثيراً. سأعلمك إذا حدثت تطورات جديدة".
أنهيتُ المكالمة، واتصلتُ برايان على الفور. أبلغوني أنه غادر بعد أن أنهى عمله لهذا اليوم. حاولتُ الاتصال برقم منزله ولكنني لم أتلقَ جواباً. أدركتُ ما يتعيّن عليّ فعله. أجريتُ مكالمة أخرى، وتناولتُ مفتاحاً، وتوجهتُ إلى الخارج.
وجدتُ الملحمة أكثر انشغالاً مما كانت عليه في اليوم الذي انتهتُ فيه إليها. احتلت الإعلانات ذاتها نوافذها، لكنني لاحظتُ أنّ المتجر كان مضاءً ومفتوحاً للعمل. لم ألاحظ وجود الكثير من الزبائن. رأيتُ امرأة مسنة تتحرك ببطء على محاذة الواجهة الزجاجية، وبدا وجهها مترهلاً في وهج الفلوريسنت. شاهدتها تلتفت وتعود كي تشير إلى أرنب. ذكرني هيكله الصغير والجامد بمجموعة تانغواي الكئيبة، وكذلك بالسا.

انتظرتُ حتى غادرتُ المرأة، ثم اقتربتُ من الرجل الواقف وراء الواجهة الزجاجية. بدا وجهه مستطيلاً بعظامه الكبيرة، وملامحه الخشنة. أما ذراعه المتدليتان من كنزته فبدتا نحيلتين بشكل مدهش. وتناثرت لطخات داكنة على معزره الأبيض، فظهرت مثل تويجات مجففة تناثرت على غطاء طاولة كتابي.
"بونجور".

"بونجور".

"هل البيع بطيء هذه الليلة؟"

"يتباطأ البيع في كل ليلة". قالها بإنكليزية ثقيلة تشبه لهجة داماس.
سمعتُ شخصاً ما يحدث أصواتاً بأدوات مطبخية في إحدى الغرف الخلفية.
"إنني أشارك في التحقيقات الجارية بشأن جريمة قتل غرايس داماس". تناولتُ بطاقتي وأبرزتها. "أريد أن أطرح عليك أسئلة قليلة".

حدّق الرجل بي. سمعتُ في الخلف صوت حنفية تُفتح وتُغلق.

"هل أنت مالك المتجر؟"

أوماً.

"أنت السيد؟"

"بليفريتيس".

"سيّد بليفريتيس، عملت غرايس داماس في متحرك لفترة قصيرة، أليس

كذلك؟"

"مَن؟"

"غرايس داماس. أعتقد أنّها عضوة في أبرشية سان ديميتريوس".

وضع الرجل ذراعيه النحيلين في وضع متصلب فوق صدره وأوماً.

"ومتى عملت عندك؟"

"منذ ثلاثة أعوام، أو أربعة. لا أعرف بالضبط. إنهم يأتون ويرحلون كثيراً".

"هل تركت العمل؟"

"تركت من دون أن تخطرنى مسبقاً".

"ولماذا؟"

"لا أعلم إطلاقاً. فعل آخرون ذلك حينها".

"هل بدت غير سعيدة، أو متوترة، أو عصبية؟"

"هل أبدو لك مثل سيغموند فرويد؟"

"هل كانت على صداقة مع أشخاص معيّنين هنا، أو هل كانت مقربة جداً

من أي شخص؟"

شعّت عيناه باتجاهي، وبدا شبح ابتسامة على زاويتي فمه. "مقربة؟" سألني

بصوت زلقٍ مثل مادة الفالقولين. صوّبتُ باتجاهه نظرةً ماثلة، لكن من دون أن

أبتسم.

تلاشت ابتسامته، وحول نظره عني كي يجول بعينه في أنحاء الغرفة.

"لا يوجد هنا غيري وغير شقيقي، لذلك ما من أحد هنا كي تقرب إليه". لفظ

تلك الكلمة بالأسلوب ذاته الذي يستخدمه المراهقون عندما يروون نكتةً بذيئة.

"هل كان يزورها أشخاص معيّنون، أو أي شخص كي يضايقها؟"

"اسمعي، أعطيتها وظيفة، ثم أبلغتها ماذا يتعيّن عليها أن تقوم به، وهذا ما

فعلته. لم أتبع مجريات حياتها الاجتماعية".

"اعتقدتُ أنك لربما لاحظتَ..."

"كانت غرايس موظفة رائعة. فوجئتُ كثيراً عندما غادرت العمل. ترك الجميع العمل في الوقت ذاته، وتركوني في ورطة. أعترف بذلك، لكنني لا أحمل ضغينة تجاه أحد. سمعتُ بعدها، عندما كنت في دار العبادة، بأنها اختفت. ظننتُ في البداية بأنها هربت. لا أظن أن هذا من طباعها، لكن والدها كان يقسو عليها أحياناً. أشعر بالأسف لأنها قُتلت، لكنني بالكاد أتذكرها".

"ماذا تعني بأنه كان يقسو عليها؟"

ظهر الشرود على وجه الرجل على نحو مفاجئ. غضَّ الرجل بصره، وخذش بظفر إبهامه شيئاً موضوعاً على الواجهة. "يتعين عليك التحدث مع نيكوس بهذا الشأن. إنها أمور عائلية".

أدركتُ مغزى ما قاله رايان. والآن ماذا؟ المساعدات البصرية. فتشتُ في حقيبتي، وتناولتُ منها صورة سان جاك.

"هل سبق لك أن رأيتَ هذا الرجل؟"

مال بليفريتييس إلى الأمام كي يتناولها: "من هو هذا الشخص؟"
"إنه أحد جيرانك".

تفحصَّ وجهه ملياً: "لا أستطيع القول إنها صورة تستحق جائزة".
"أخذت الصورة بكاميرا فيديو".

"وكذلك الحال مع فيلم زابرودر، لكنك على الأقل تستطيعين رؤية شيء ما".
رحتُ أتساءل عن الفيلم الذي أشار إليه، لكنني لم أقل شيئاً. أفضل أن أتجنب دخان مؤامرة أخرى. رأيتُ بعد قليل شيئاً يعبر ملامح وجهه، شيئاً يشبه نظرة رقيقة غصَّنت جفنيه، في البداية، قبل أن يعودا إلى طبيعتهما.

"ماذا؟"

"حسناً... راح يحدِّق بالصورة.

"نعم؟"

"يحمل هذا الرجل شيئاً قليلاً مع رجل تافه آخر خذلني. يُحتمل أنني أقول ذلك بسبب الأسئلة التي طرحتها بشأنه. اللعنة! لا أعرف". ناولني الصورة عبر الواجهة الزجاجية. "لدي صورة أوضح له".

"من هو؟ من كان ذلك الرجل؟"

"اسمعي. إنها صورة رديئة، ويبدو فيها مثل الكثيرين من الشباب الذين يتميزون بشعر سيئ. إنهم لا يساؤون شيئاً."

"ماذا تقصد بقولك إن شخصاً آخر خذلك؟ ومتى؟"

"تضايقتُ من غوايس لهذا السبب. ترك الرجل الذي وظّفته قبلها العمل حتى من دون كلمة وداع. تركت غوايس عملها بعد ذلك، وبعد وقت قصير تركني هذا الرجل بالطريقة ذاتها. عمل هو وغوايس بدوام جزئي، لكنهما كانا الوحيدين اللذين يساعداني في العمل. كان شقيقي في الولايات المتحدة في ذلك الوقت، وعملتُ في إدارة هذا المكان بمفردي في ذلك العام."

"من كان ذلك الرجل؟"

"فورتية. دعيني أتذكّر. ليو. ليو فورتية. تذكرتُ اسمه لأن قريبي كان يحمل اسم ليو."

"هل عمل الرجل هنا في الوقت ذاته مع غوايس داماس؟"

"أجل. وظّفته كي يحل مكان الرجل الذي ترك العمل قبل أن تبدأ غوايس العمل. وظّفت عامليْن بدوام جزئي كي أقسّم الساعات بينهما، أعني في وقت عدم حضور أحدهما. كان هناك نقصٌ في الموظفين لنصف يوم فقط. ثم ترك كلاهما العمل. اللعنة! ترك غيابها حالة فوضى في العمل. اعتقد أنّ فورتية عمل قرابة العام، أو ربما عاماً ونصف، ثم توقف عن الحضور فجأة. لم يكلف نفسه حتى عناء تسليم مفاتيحه. اضطرت إلى البدء من الصفر. لا أريد متابعة الحديث عن هذا الموضوع مجدداً."

"ماذا بوسعك أن تخبرني عنه؟"

"إنه سؤال سهل. لا شيء. رأى لافتة المتجر، ودخل قائلاً إنه يريد العمل بدوام جزئي. عمل الرجل في الوقت الذي احتجته فيه، أي في الصباح الباكر وقت فتح المتجر، وفي المساء لإقفال وتنظيف المتجر، كما أظهر خبرته في تقطيع اللحم. تبين فعلاً أنه ماهرٌ في عمله. وظّفته على أي حال. قال لي إنه يعمل في وظيفة أخرى في مكان ما خلال النهار. بدا الرجل مناسباً. كان هادئاً بالفعل، واعتاد القيام بعمله من دون أن يفتح فمه. اللعنة! لم أعرف أبداً مكان سكنه."

"وكيف كانت علاقته مع غوايس؟"
"لا أعرف مطلقاً. اعتاد الرجل على مغادرة العمل عندما تحضر، ثم العودة بعد مغادرتها. لست متأكداً ما إذا كانا يعرفان بعضهما بعضاً."
"أتعتقد أن الرجل الذي يظهر في هذه الصورة يشبه فورتبييه؟"
"إنه يشبهه، ويشبه كل شخص آخر أشعث الشعر، ويميل إلى إبقائه كذلك."
"أتعرف أين يتواجد فورتبييه الآن؟"
هزّ رأسه.
"أتعرف شخصاً يدعى سان جاك؟"
"لا، أبداً."
"أو تانغواي؟"
"يبدو اسم مادة للسمرّة يستخدمها الشاذون".
بدأ رأسي يؤلمني، وشعرتُ بحرقّةٍ في حنجرتي. تركتُ بطاقتي وانصرفت.

38

استقبلني رايان عند وصولي إلى مدخل شقّي بحالةٍ من الهيجان. لم يتأخر في طرح أسئلته.

"لا أستطيع الاتصال بك، أليس هذا صحيحاً؟ لا أحد يقدر على ذلك، وكأنك إحدى الراقصات الهنديات. تضعين أثواباً فوق أثوابك، ولا تنتهين من الرقص، كما أنّ الرصاص لا يستطيع اختراقك".

تورد وجهه، واستطعت رؤية شريانٍ ينبض في جبهته. افترضت أنه من الأفضل لي ألا أعلق على الفور.

"لمن السيارة التي استخدمتها؟"

"إنها لجارتي".

"هل تجدين تسليّةً في هذه الأمور يا برينان؟"

لم أقل شيئاً. تنقلّ الألم من منطقة خلف رقبي حتى غطى كل أنحاء جمجمتي. استنتجتُ من عطسي الجافة أنّ جهازي المناعي بدأ يتعرض للغزو.

"هل يستطيع أحد ما في هذا الكوكب أن يسير أغوارك؟"

"هل تود الدخول لشرب فنجان قهوة؟"

"ما الذي يجعلك تظنين أنّك تستطيعين الخروج هكذا، وبكل بساطة، وتركين الجميع يقلقون عليك؟ هل خلقت هؤلاء الشبان لحمايتك فقط، يا برينان؟ لماذا، بحق الجحيم، لم تتصلي بي، أو تناديني عبر الجهاز؟"

"فعلتُ ذلك".

"لم تستطعي الانتظار عشر دقائق؟"

"لم أعرف مكان تواجدك، أو طول مدة غيابك، كما أنني لم أتصوّر بأني سأتعب كل هذا الوقت". اللعنة! لم أتأخر إلا قليلاً.
"كان بإمكانك ترك رسالة".

"كان من الأفضل لي ترك كتاب الحرب والسلام، لو كنت أعلم أنك ستبالغ في رد فعلك هكذا". أدركتُ أنّ كلامي هذا ليس صحيحاً تماماً.

"هل بالغتُ في رد فعلي؟" جاء صوته بارداً كالجليد. "دعيني أدرك بعض الأمور. تعرضت خمس نساء، أو سبع، للقتل والتشويه الوحشيّين في هذه المدينة. وقعت أحدث هذه الجرائم منذ أربعة أسابيع". بدأ يعدّ على أصابعه. "ظهر جزء من إحدى النساء في حديقة منزلك، كما أنّ أحد المعتوهين احتفظ بصورتك في مجموعته المتنوعة، وما لبث أن اختفى. اتصل بك في الشقة أحد المنعزلين الذين لديهم هواية جمع السكاكين والصور الجنسية، والذين يترددون على بنات الهوى، ويحبون تقطيع الحيوانات الصغيرة. لاحق الرجل أعزّ صديقاتك، التي أصبحت ميتة الآن. دُفنت وهي ممسكة بصورة تجمعك مع ابنتك. اختفى هذا المنعزل بدوره".

مرّ شاب وفتاة من أمامنا على الرصيف، لكنهما غضا الطرف، وأسرعنا بخطواتهما. بدا أنهما أحسّا ببعض الإحراج لأنهما شهدا شجاراً حياً.

"رايان، دعنا ندخل إلى الشقة. سأحضّر القهوة". خرج صوتي خشناً بعض الشيء لأنني بدأت أتضايق من حديثنا هذا.

رفع يده دلالةً على غضبه، ومدّ أصابعه، ثم أسبل يده على جانبه. أعدتُ المفتاح إلى جازتي، شكرتها لأنها سمحت لي باستخدام سيارتها، ثم دخلتُ أنا ورايان إلى الشقة.

"هل تفضلها منزوعة الكافيين، أم ثقيلة؟"

رنّ جهاز اتصاله، فقفزنا واقفين.

"أعتقد أنني سأشرب قهوتي من دون كافيين. تعرفين مكان جهاز الهاتف".

أصغيتُ ممسكةً بكوبي القهوة، لكنني تظاهرتُ أنني لا أعرف.

"رايان". صمتَ لبرهة. "أجل". صمتَ مرةً أخرى. مرّت فترة صمتٍ طويلة.

"متى؟" صمتَ لبرهةٍ أخرى. "حسناً. شكراً لك. سأكون هناك".

رأيتُه واقفاً قرب باب المطبخ. بدا وجهه متوتراً. بدأت حرارتي، وضغط دمي، ونبضات قلبي، بالتصاعد. اهدهني يا برينان! سكبتُ كوبين من القهوة، وأجبرتُ يدي على عدم الارتعاش. تريتُ حتى يبدأ الكلام.
"نالوا منه".

جمدت يدي في مكانها، وتوقف وعاء القهوة في الهواء.
"أتعني تانغواي؟"

أوماً. أعدتُ، بعناية، وعاء القهوة إلى سخّانه. أحضرتُ الحليب ثم وضعتُ القليل منه في كوبي. قدّمتُ بعض الحليب إلى رايان، بالعناية ذاتها. هزّ رأسه. أعدتُ علبة الحليب إلى الثلاثحة، بعناية أيضاً. ارتشفتُ القليل من القهوة. حسناً. تكلم يا رجل.
"أخبرني".
"دعينا نجلس".

انتقلنا إلى غرفة المعيشة.

"قبضوا عليه قبل ساعتين تقريباً. كان في الطريق 417، ويتجه شرقاً. انتبهت فرقة من أمن كيبك إلى لوحة سيارته، فأوقفوه على الفور".

"وهل كان تانغواي؟"

"كان تانغواي. تطابقت البصمات".

"هل كان متجهاً إلى مونتريال؟"

"يبدو الأمر كذلك".

"وما هي التهم التي وجهت إليه؟"

"وجهوا إليه، في الوقت الحالي، تهمة حيازة زجاجة شراب مفتوحة في عربة متحركة. أقدم ذلك المغفل على فتح زجاجة من جيم بيم، وتركها على المقعد الخلفي. صادروا من سيارته بعض المجلات الجنسية. يعتقد الرجل الآن أن هذه هي كل التهم الموجهة إليه. تركه الرجال كي يقلق من أجل هذه التهم".

"وأين كان؟"

"يدّعي الرجل أنه يمتلك حجرةً في غاتيناو. قال إنه ورثها عن والده. أصغني جيداً. كان الرجل يتصيد. أرسل فريق مسرح الجريمة عدة رجال ليفتشوا المكان تفتيشاً دقيقاً.

"أين هو الآن؟"

"إنه في بارثينياس".

"هل ستوجه إلى هناك؟"

"أجل". أخذ نفساً عميقاً، وتوقع شجاراً في ما يبدو. لم أرغب برؤية تانغواي شخصياً.

"حسناً". شعرتُ بجفاف في حلقي، وبإعياء ينتشر في أنحاء جسدي. هل أشعر بالهدوء؟ لم أشعر بهذا الإحساس منذ وقت طويل.

"ستأتي كافي لزيارتي". قلتُ ذلك مع ضحكة عصبية. "هذا هو سبب... سبب خروجي هذه الليلة".

"أقولين ابنتك؟"

أومأت.

"يا للتوقيت السيء!"

"ظننتُ أن بإمكانني إيجاد أمر ما. أنا... لا عليك".

لم يتكلم أحدنا في اللحظات القليلة التالية.

"أنا مسرور لأن الأمر قد انتهى". تلاشى غضب رايان كلياً. نهض وقال:

"أتريدين أن أمرّ بك بعد أن أتحدّث معه؟ قد يكون الوقت متأخراً عندها".

شعرتُ بأنه لا يمكنني الاستسلام للنوم قبل أن أعرف النتيجة، مهما كانت

سيئة. من هو تانغواي هذا؟ ماذا سيجدون في حجرته؟ وهل ماتت غايي هناك؟

وهل لقيت إيزابيل غاغنون مصرعها هناك أيضاً؟ وغرايس داماس؟ أو هل نُقلت

الضحايا إلى هناك بعد القتل من أجل ذبحهنّ وتقطيع جثتهنّ، ووضعها في أكياس؟

"نعم، تعال رجاءً".

تذكرت بعد مغادرته أنني لم أخبره عن القفازين. حاولت الإتصال بيبي

مجدداً. لم يفارقني الشعور بالقلق، رغم القبض على تانغواي. بقيتُ على موقفي من

عدم الرغبة بمجيء كافي إلى أي مكان في منطقة مونتريال، لذلك لعله يجدر بي أن

أتوجه جنوباً بنفسِي.

تمكنتُ من التحدّث إليه هذه المرة. قال لي إن كافي قد غادرت منذ أيام

عديدة. أخبرتُ والدها أنني أنا التي اقترحتُ عليها القيام بهذه الجولة. هذا صحيح،

لأنه سبق لي أن وافقتُ على خططها، لكن ليس بالكامل. قال إنه غير متأكد من المحطات التي ستوقف فيها كاتي. لم يجد بيتي شيئاً غريباً في برنامجها، لأنها ستسافر مع أصدقائها في الجامعة. سيذهبون بالسيارة إلى مقاطعة كولومبيا، حيث ستمكث مع إحدى العائلات. سأكمل جولتها إلى نيويورك بعد ذلك حيث ستزور عائلة صديقة أخرى. تعزم كاتي أن تتوجه بعد ذلك إلى مونتريال. قال لي إنه ليس قلقاً. أضاف أنه متأكد من أنها ستتصل بي.

بدأتُ بإخباره عن غابي، والتطورات التي حدثت في حياتي، لكنني لم أستطع أن أكمل. لم يكن الوقت بعد، وعلى أي حال فإن الأمر انتهى. قال، كعادته، إنه مضطر للإسراع لاستقبال وديعة جديدة في وقت مبكر من الصباح، وتأسف لعدم تمكنه من التحدث معي لوقت أطول. هل من جديد في هذا؟

شعرتُ بأنني غير قادرةً على أخذ حمام بسبب التعب والإرهاق الذي أشعر به. جلستُ في الساعات القليلة التالية وتغطيتُ بلحاف. أخذتُ جسدي بالارتعاش، بينما رحّتُ أحدّق في الموقد الفارغ، وتمنيتُ لو أنّ شخصاً ما يعيش معي كي يساعدني على تناول الحساء، وأخذ بتمسيد جبهي، ثم يخبرني بأنني سأتحسّن بعد قليل. غفوتُ قليلاً ثم استيقظتُ، وانجرفتُ مع أجزاء من حلم، فيما تكاثرت كائنات مجهرية في مجرى دمي.

دقّ رايان جرس الباب عند الساعة الواحدة وخمس عشرة دقيقة.

"يا إلهي! تبدين مريعةً يا برينان!"

"شكراً لاهتمامك". عدتُ كي أغطي باللحاف. "أعتقد بأنني مصابةٌ

برشح".

"لماذا لا نؤجل حديثنا إلى الغد؟"

"مستحيل".

نظر إليّ بغرابة ثم تبعني إلى الداخل. ألقى سترته على الأريكة، ثم جلس.

"يدعى الرجل جان بيار تانغواي. يبلغ الثامنة والعشرين من العمر، ومن السكان القدماء في المنطقة. نشأ في شاوينيغان. لم يتزوج مطلقاً، ولا أولاد لديه. تعيش شقيقته في أركنساس. توفيت أمه عندما كان في التاسعة من عمره. عانى مشاكل كثيرة هناك. عمل والده ورّاقاً (يطيّن الجدران والسقوف الداخلية)، ربّي

السوالد ولديه بصعوبة. توفي العجوز بحادث سيارة عندما كان **تانغواي** في الجامعة. يبدو أنه تأثر كثيراً لموته، لأنه ترك المدرسة، وسكن مع شقيقته لفترة من الزمن، ثم راح يجول في أنحاء الولايات المتحدة. هل أنت جاهزة لما ستسمعينه الآن؟ أراد أن يكون رجل دين، أو شيئاً من هذا القبيل، لكنه فشل في دعوته هذه. يبدو أنهم لم يعتقدوا أن شخصيته تتناسب مع رغبته هذه. ظهر الرجل في **كيبك** مجدداً في العام 1988، واستطاع بطريقة ما أن يتقرب من المتزمنين. استطاع أن ينال درجته في التعمق بدراسة الدين بعد مرور عام ونصف عام.

"إذاً، هل تواجد الرجل في المنطقة منذ العام 1988؟"
"أجل".

"توافق هذه الفترة من الزمن مع الفترة التي تمّ فيها قتل **بيتري** و**غوتيه**".
أوما **رايان**: "وبقي هنا منذ ذلك الوقت".

تعيّن عليّ أن أبلع ريقِي قبل أن أتمكّن من الكلام.
"وكيف يفسّر تعلقه بالحيوانات؟"

"يدّعي أنه يدرّس مادة **علوم الأحياء** (البيولوجيا). دققنا في هذه المعلومة. يقول إنه يُنشئ مجموعة مرجعية كي يعود إليها طلاب صفوفه. إنه يُزيل الرطوبة من الجثث، ويجمع الهياكل العظمية".

"يُحتمل أن يقدّم ذلك تفسيراً لوجود كتب التشريح في منزله".
"يُحتمل ذلك".

"ومن أين يحصل على الجثث؟"

"يحصل عليها من الحيوانات التي تُقتل على الطرقات".

"أوه، يا إلهي! كان **برتوان** على حق إذاً". تصورتُه متسللاً في الطرقات ليلاً، وملتقطاً الجثث قبل أن يجرّها إلى البيت بأكياس بلاستيكية.

"هل سبق له أن عمل في ملحمة؟"

"لم يقل ذلك. لماذا؟"

"ماذا استنتج **كلوديل** من الأشخاص الذين يعمل معهم؟"

"لم يستنتج شيئاً لا نعرفه. يُعرف الرجل بأنه منغلّق على نفسه، ويقوم بتدريس طلابه. لا أحد يعرفه حق المعرفة. يقولون إنهم لا يُدهشون لزياراته المسائية".

"يتوافق هذا مع ما قالته الجدة لنا".

"تقول شقيقته إن شقيقها لم يكن اجتماعياً أبداً في حياته. لا تستطيع أن تتذكر أي صديق له. تكبره شقيقته بتسعة أعوام، ولهذا فهي لا تتذكر الكثير عنه في فترة صباه. زوّدتنا المرأة بمعلومة مهمة عنه".
"وما هي".

ابتسم رايان: "يعاني تانغواي من العجز في رجولته".

"هل نطقت بهذه المعلومة من تلقاء نفسها؟"

"ظننت أن هذه المعلومة قد تحمل تفسيراً لنزعاته غير الاجتماعية. تعتقد الشقيقة بأنه غير مؤذ أبداً، لكنه يعاني من تدني في مستوى تقديره لذاته. تمتك المرأة معلومات واسعة عن وسائل تثقيف الذات، وتعرف كيفية التحدث عن هذه المعلومات".

لم أردد عليه. انشغلتُ بتذكر أسطرٍ وردت في تقارير التشريح.

"يبدو هذا الكلام منطقياً. أظهرت الاختبارات التي أجريت على موريسيت - شامبو نتيجة سلبية بالنسبة للحيوانات المنوية".
"صحيح".

"كيف أصبح عاجزاً؟"

"ساعدت الوراثة وبعض الصدمات على هذا. وُلد الرجل بخصية واحدة، ثم ما لبث أن أعطبها نتيجة حادث تعرّض له أثناء ممارسته للعبة كرة القدم. صوّف أن اللاعب الآخر كان يحمل قلماً. اصطدم اللاعب الآخر به في تلك المنطقة. توقفت بسبب ذلك عملية حيوية مهمة عند الرجل".

"هل دفعه هذا الواقع إلى الانغلاق على نفسه؟"

"مهلاً، لعل الشقيقة على حق".

تذكرت تعليقات جويل، وكذلك تعليقات جولي: "يُحتمل أن يفسّر هذا عدم حماسة الرجل تجاه الفتيات".

"يفسّر هذا عدم حماسه بالنسبة إلى الآخرين أيضاً".

أكمل رايان بالقول: "أليس من الغريب أن يختار مهنة التدريس؟ ولماذا يعمل في بيئة يضطر فيها إلى التفاعل مع أشخاص كثيرين؟ وإذا كان الرجل يشعر بأنه

عاجز، فلماذا لا يختار عملاً أقل خطورة بالنسبة إليه، والذي يضمن له خصوصية أكبر؟ مثل الكمبيوترات؟ أو المختبرات؟"

"لستُ محللةً نفسيةً، لكنني أعتقد أن التعليم أكثر مثالية بالنسبة إليه. لا يتفاعل الإنسان مع أنداده، كما تعرف. يتفاعل الكبار مع الأولاد. يختار الرجل أن يمتلك السلطة، وبهذا يصبح الصفّ مملكته الصغيرة، حيث يضطر الطلاب إلى تنفيذ ما يطلبه منهم. لا يستطيع هؤلاء أن يسخروا منه، أو يتوقعوا ما يُمكن أن يفعله".
"لن يفعلوا ذلك أمامه مباشرة، على الأقل".

"يُحتمل أن يؤمّن له ذلك التوازن الذي يبحث عنه. تلبّي له هذه الوظيفة حاجته إلى السلطة والتحكّم أثناء النهار، وتلبّي تحيّلاته الجنسية المثيرة في الليل".
قلتُ له: "أعتقد أنّ هذا هو السيناريو الأفضل. فكّر في فرص التلصّص التي لديه، أو حتى فرص الاحتكاك مع الفتيات".
"أجل".

جلسنا وسط صمتٍ لبرهة من الزمن، فيما راحت عينا رايان تجولان في الغرفة بالطريقة ذاتها التي لاحظتُها عندما كان في شقة تانغواي. بدا مرهقاً.
قلتُ: "أعتقد أنني لم أعد بحاجة إلى وحدة المراقبة".
نهض واقفاً: "أجل".
مشيتُ معه نحو الباب.
"ما رأيك به يا رايان؟"

لم يجبني على الفور. تكلم بعدها، لكن بحذر شديد.
"يدّعي الرجل أنه بريء مثل آبي اليتيمة الصغيرة. إنه يخفي شيئاً ما. سنعلم في الغد ماذا يدور في ذلك الوكر. سنستخدم ما نكتشفه فيه ونواجهه به. أعتقد أنّ الرجل سينهار".

أخذتُ بعد مغادرته جرعةً كبيرةً من دواء الرشح، واستسلمتُ لنوم عميقٍ للمرة الأولى منذ أسابيع. لم أتذكر شيئاً من أحلامي، هذا إذا كنتُ قد حلمتُ فعلاً.
تحسّنتُ مزاجي كثيراً في اليوم التالي، لكن ليس إلى الدرجة التي تسمح لي بالتوجه إلى المختبرات. تجنبتُ الخروج ومقابلة الناس من قبيل الحذر، لذلك بقيتُ في المنزل.

شغلتُ نفسي بقراءة أطروحة لأحد الطلاب، والرد على الرسائل التي تجاهلتها لأسابيع عديدة. اتصل بي رايمان عند الواحدة تقريباً، أي عندما كنتُ منشغلة بإخراج ثيابي المغسولة من آلة التجفيف. استنتجتُ من نبرة صوته أن الأمور لا تسير على ما يرام.

"فتش فريقي مسرح الجريمة الحجرة رأساً على عقب، لكنه لم يجد شيئاً. لم يجد الرجال شيئاً يشير إلى أن الرجل يعمد إلى الغش حتى في لعبة الورق. لم يجدوا أي أثر للسكاكين، أو المسدسات أو البنادق، أو الأفلام الجنسية، أو تذكارات دوجانسكي التي ينتزعها من ضحاياها. لم يجدوا مجوهرات، ولا ملابس، ولا جماجم، أو أجزاء من جثث. وجدوا سنجاباً ميتاً في الثلاجة. هذا كل ما وجدوه، ولم يجدوا شيئاً غير ذلك.

"هل وجدوا أدوات حفر؟"

"لا شيء."

"هل يمتلك الرجل كوخاً، أو حجرةً سفلية حيث يمكنه الاحتفاظ بمناشير، أو

بأنصال قديمة؟"

"أو بأمشاط، أو معزقة، أو بصناديق خشبية، ومنشار قديم، وعربة يد غير صالحة. إنها أدوات الحدائق المعتادة، وما يكفي من العناكب التي تملأ كوكباً صغيراً. يبدو أن جيلبير يحتاج إلى تحليل نفسي."

"هل توجد مساحة تتسع للزحف؟"

"أنت لا تصغين إلي يا برينان."

سألتُ بصوتٍ ينضح بالكآبة: "واللومينول؟"

"لا شيء."

"هل وجدوا قصاصات صحف؟"

"لا."

"هل وجدوا أي شيء يربط ذلك المكان مع الغرفة التي قمنا بتفتيشها في

بيرغر؟"

"لا."

"أو مع سان جاك؟"

"لا".

"أو مع غايي؟"

"لا".

"أو مع أي ضحية أخرى؟"

لم يردّ على سؤالي هذا.

"وماذا تعتقد أنه يفعل هناك؟"

"إنه يمارس هواية الصيد، ويفكر في خصيته المفقودة".

"وما العمل الآن؟"

"سأجري، أنا وبرتوان حديثاً مطولاً مع المسيو تانغواي. حان الوقت كي نواجهه ببعض الأسماء، وكي نقوم بزيادة الضغط عليه. أعتقد أنه سينهار في النهاية".

"وهل يعني هذا شيئاً بالنسبة إليك؟"

"يُحتمل ذلك، وأعتقد أنّ فكرة برتوان ليست سيئة بهذا القدر. يُحتمل أن يكون تانغواي شخصية من إحدى شخصياته المتعددة، ولعل إحدى جوانب شخصيته أستاذ البيولوجيا الذي يعيش حياةً نظيفةً، ويمارس هواية صيد السمك، والذي يجمع العينات لصالح طلابه. يتميّز الجانب الآخر من شخصيته بحقد لا محدود تجاه النساء، وبشعور بالعجز يحمله على ملاحقة النساء وضربهنّ حتى الموت. يُحتمل أنه يفصل ما بين جزأي شخصيته، حتى إلى الحد الذي يجعله يحتفظ بمكان منفصل كي يمارس فيه تخيلات، ويستمتع بتذكاراته. اللعنة، لعل تانغواي ذاته لا يعرف أنه معتوه!"

"رائع! يبدو الأمر مثل السيد بيبرز والسيد كريبرز".

"مَن؟"

"لا عليك. إنهما شخصيتان من مسرحية هزلية قديمة". أخبرته بما علمته من

لاكروا.

"لماذا لم تخبريني من قبل؟"

"يصعب على المرء أن يحدد مكانك يا رايان".

"إذا فأنت تظنين أنّ شارع بيرغور له علاقة بالجرائم".

"ما الذي يجعلك تظن أن لا وجود للبصمات هناك؟"
"اللعنة يا برينان! لا أعرف. أعتقد أن تانغواي بارد مثل الثلج الأسود. أذانه
كلوديل هذا الرجل. يمكنك أن ترتاحي لسماع هذا الخبر."
"لماذا؟"

"سأطلب منه أن يخبرك بنفسه. اسمعي، عليّ التوجّه إلى هناك."
"ابقِ عليّ اتصالٍ معي".

أنهيت الردّ عليّ الرسائل وقررتُ أخذها إلى مكتب البريد. فتحتُ الثلاثة.
لن تأكل كافي قطع اللحم المفروم. ابتسمتُ، وتذكّرتُ ذلك اليوم الذي أعلنت فيه
أمامي أنها ستوقف عن أكل اللحم. إنها ابنتي المتحمسة النباتية التي تبلغ الرابعة
عشرة من عمرها. ظننتُ عندها أن الأمر لن يستمر أكثر من ثلاثة أشهر، لكنه
استمر ما يزيد عن الخمسة أعوام.
حضرتُ قائمةً في ذهني. حمص، تبولة، جبن، عصائر الفواكه. لا تتناول كافي
الصودا. كيف أنجبتُ هذه الفتاة!

شعرتُ بألم في حنجرتي، وأحسستُ بالحرارة مجدداً، ولذلك قررتُ أن أتوقف
قليلاً في النادي. قرّرتُ أن أحارب تلك الكائنات المجهرية عن طريق التمارين
والبخار. وسيخرج أحدنا منتصراً في النهاية.
تبين لي في ما بعد أن فكرة التمارين غير موفقة أبداً. بدأت رجلاي بالارتعاش
بعدما أمضيت عشر دقائق على ستاير ماستر، وتصبّب العرق من وجهي.
اضطرت إلى التوقف عن التمارين.

أعطى البخار نتائج متناقضة. شعرتُ بارتياح في حنجرتي، وأراح تلك
الأربطة التي كانت تضغط على جبهيّ وعظام وجهي. جلستُ وسط البخار الذي
غمرنى، لكن عقلي بحث عن شيء يفكر به. وقع خياره على تانغواي. رحّت أفكّر
بما قاله رايمان لي عن نظرية بوتران، وعن توقعات جاي. أس. بالإضافة إلى
المعطيات التي أعرفها. ألقني أمرٌ ما يتعلّق بتانغواي. تسارعت أفكارني فشعرتُ
بتوتر أكبر. القفازان. لماذا أخفيت أمر القفازين؟

هل أن إعاقه تانغواي الجسدية قادته إلى تحيّلاته الجنسية، والتي انتهت
بالعنف؟ هل كان فعلاً رجلاً يتميز بحاجة ملحة لفرض سيطرته؟ هل كان القتل هو

أقصى فعل يمكنه من فرض هذه السيطرة؟ **أستطيع الاكتفاء بمراقبتك، وإلا سأُنزل الأذى بك، أو حتى سأقتلك!** هل يمارس تخيلاته المثيرة هذه مع الحيوانات؟ هل فعل ذلك مع جولي؟ إذا لماذا القتل؟ هل يستطيع منع نفسه من ممارسة العنف لفترة معينة، ثم يستسلم فجأة أمام حاجته؟ هل أن نزعات **تانغواي** ما هي إلا نتيجة منطقية للإهمال الذي تعرّض له من والدته؟ أم أنها نتيجة عاهته؟ وهل نتجت هذه العاهة عن كروموسوم سيئ؟ أم من أمرٍ آخر؟

لماذا **غايي** بالذات؟ إنها لا تتناسب مع الصورة العامة. عرفها الرجل، وكانت من الناس القلائل الذين كانوا يتحدثون معه. شعرتُ بموجة من الكَرَب.

أجل. إنها تتناسب مع الصورة العامة، هذه الصورة العامة التي تشملني أنا. وجدتُ **غرايس داماس** بنفسِي، وحددتُ هوية **إيزابيل غاغنون**. هل أقوم بالتدخل في شؤونه، وبالتالي أتحدى سلطته، ورجولته. هل نفستُ عملية قتل **غايي** غضبه الذي يشعر به تجاهي، وبالتالي أعادت إليه شعوره بالسيطرة والتحكّم. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ هل تحتم الصورة العامة عليه أن ينصرف لمطاردة ابنتي؟

إنه مدرّس، وقاتل، والرجل الذي يحب صيد الأسماك. إنه الرجل الذي يجب تشويهه الجثث. استمر عقلي بالشرود على هواه. أغمضتُ عينيّ، وشعرتُ بأنني مقيدة تماماً. تراقصتُ أمام عينيّ ألوان زاهية. غابت وعادت مثلما تفعل أسماك الزينة في أحواضها.

المدرّس. أستاذ علوم الأحياء.

عاودني الشعور بالضيق. أحسستُ بشعورٍ معيّن. هيا. هيا. ماذا. مدرّس. مدرّس. هذا ما كنت أبحث عنه. إنه مدرّس، ويعمل بالتدريس منذ العام 1991. **سان إيزادور**. نعم. نعم. نعرف ذلك. وماذا يعني الأمر؟ شعرتُ بثقلٍ في رأسي بحيث عجزتُ عن التفكير. والآن ماذا:

القرص المدمج. نسيته كلياً. تناولتُ منشفتي ومضيتُ في طريقي. يُحتمل أن يحتوي ذلك القرص على شيء ما.

39

تصبَّب العرق مني بشدة، وشعرتُ بالضعف في أنحاء جسمي، لكنني تمكنتُ من قيادة سيارتي. إنها مغامرةٌ غير موفقة يا برينان. رجحت الميكروبات هذه الجولة. أخفضني من سرعتك، لأن آخر شيءٍ ترغبتُ به هو أن توقفك الشرطة. توجهي إلى منزلك. اعثري عليها، لا بد أن تجدي شيئاً.

أسرعتُ عبر شيربروك، واستدرتُ على طول المجمع السكني، ثم انطلقتُ في الشارع مجدداً. صدر صوت طنين من باب المرآب مجدداً. اللعنة! لماذا لم يُقدم وينستون على إصلاحه بعد؟ ركنتُ السيارة وأسرعتُ نحو شقتي. توجهتُ كي أتأكد من التواريخ.

رأيتُ حقيقةً على الأرض أمام باب شقتي.
"اللعنة! ماذا يعني وجود هذه الحقيقة؟"

نظرتُ إلى الحقيقة. إنها من الجلد الأسود، ومن صنع كاوش. إنها غالية الثمن. كُتبتُ عليها بأنها هدية من ماكس فيرانتي قُدمتُ إلى كاتي. ربضت الهدية خارج بابي. جمد قلبي في صدري.

كاتي!

فتحتُ الباب وناديتُ اسمها. لا جواب. نقرتُ رمز الأمان وحاولتُ مجدداً.

صمت.

ركضتُ من غرفة إلى غرفة، وبحثتُ على علامات وجود ابنتي، لكنني كنتُ على ثقة بأنني لن أجد أحداً. هل تذكرتُ أن تجلب مفتاحها معها؟ لو أن المفتاح

معها لما تركت حقيبتها في الرواق. حضرت كاتي إلى هنا، لكنها لم تجدي في المنزل، فتركت حقيبتها وتوجهت إلى مكان ما. ووقفتُ، مرتعشة، في غرفة النوم. أدركتُ أنني وقعتُ ضحية الفيروسات والخوف. فكّري يا برينان. فكّري! حاولتُ، لكن الأمر لم يكن سهلاً. وصلت ابنتي إلى الشقة، لكنها لم تستطع دخولها. يُحتمل أن تكون قد خرجت من أجل إحضار كوب من القهوة، أو كي تشتري شيئاً من المحلات، أو حتى كي تبحث عن هاتف. لا بد أن تتصل بي في غضون دقائق قليلة. لا تمتلك كاتي مفتاحاً للشقة، إذاً كيف دخلت من الباب الخارجي إلى الرواق، وإلى الباب الذي يؤدي إلى الشقة؟ المرآب. لا بد من أنها دخلت من باب المشاة إلى المرآب، أي من الباب الذي لا ينغلق جيداً بعد إغلاقه. الهاتف!

ركضتُ باتجاه غرفة المعيشة. لم أجد أي رسائل آتية. هل يُحتمل أن يكون تانغواي هو السبب؟ هل نال منها؟ يستحيل هذا، لأنه في السجن. يقع المدرّس في السجن، لكنه ليس الشخص المسؤول. المدرّس ليس الشخص المسؤول. أو هل يُحتمل أن يكون هو؟ هل ما زال يحتفظ بالغرفة في شارع بيرغر؟ هل هو الشخص الذي دفن القفّاز مع صورة كاتي في القبر الذي أعدّه لغايي؟

تسبب الخوف الذي شعرتُ به بموجةٍ من الغثيان تتصاعد داخل صدري. بلعتُ ريتي فشعرتُ بألمٍ شديد في حنجرتي. راجعي الحقائق يا برينان. تحققي مما إذا كانت الأيام أيام عطلات. شغلتُ الحاسوب بيدينٍ مرتعشتين، لكن أصابعي بالكاد استطاعت تحريك المفتاح. ملأت الجداول مساحة الشاشة، فظهرت أمامي التواريخ والأوقات. قُتلت فرانسيس موريسيت - شامبو في شهر كانون الثاني. ماتت ما بين العاشرة صباحاً وظهيرة يوم الخميس. اختفت إيزابيل غاغنون في شهر نيسان ما بين الواحدة والرابعة من بعد ظهر يوم الجمعة.

اُختفت شانتال تروتييه في ظهيرة يوم من أيام تشرين الأول. شوهدت آخر مرة في مدرستها التي تقع في وسط المدينة، أي على بعد أميالٍ من الجزيرة الغربية.

اُختفت الضحايا خلال أيام الأسبوع، وأثناء النهار، وفي أيام الدراسة. يُحتمل أن تكون تروتييه قد خُطفت بعد ساعات الدراسة، بعكس ما حصل مع الضحيتين الأخريين.

أمسكتُ سماعة الهاتف.

لم يرد رايان عليّ.

أرجعتُ السَّماعة إلى مكانها. شعرتُ بثقلٍ شديدٍ في رأسي، لكن أفكارِي كانت تتحرك ببطء.

جرّبتُ رقماً آخر.

"كلوديل".

"مسيو كلوديل، أنا الدكتورة برينان".

لم يردّ.

"أين تقع سان إيزادور؟"

تردد قليلاً، ظننتُ أنه لن يجيبني.

"بايكونزفيلد".

"هل تبعد هذه مسافة ثلاثين دقيقة عن وسط المدينة؟"

"نعم، لكن من دون وجود زحمة سير".

"هل تعرف مواعيد ساعات الدراسة هناك؟"

"ولماذا تريدُ معرفتها؟"

"هل أستطيع الحصول على جواب من دون تقديم شرح؟" كنتُ أدفع بالأمر

إلى حافة الانفجار، ولا بد أنه استنتج ذلك من صوتي.

"أستطيع أن أسأل".

"أريد أن أعرف ما إذا كان تانغواي قد اعتاد التغيّب عن صفوفه، وإذا كان

قد اعتاد أن يتصل كسي يُبلغ بأنه مريض، أو ما إذا كان قد أخذ يوم إجازة

شخصية، وعلى الأخص في الأيام التي قُتلت فيها موريسيت - شامبو وغانون.

أعتقد أنهم يحتفظون بسجلات في المدرسة، التي كانت تضطر إلى إيجاد بديل عنه، إلا إذا كانت مقفلة لسبب ما".

"سأتوجه غداً إلى هناك..."

"الآن. أريد هذه المعلومات الآن!" أحسستُ أنني على وشك أن أصاب بالهستيريا، وتمسكت أصابعي بحافة السرير. تمنيتُ أن لا أضطر للقفز.

شعرتُ أنني أسمع أصوات عضلات وجهه أثناء توترها. هيا يا كلوديل. أفل الخبط، سأنال منك.

"سأنتصل بك لاحقاً".

جلستُ على حافة السرير، ورحتُ أهدقُ بشرود في الغبار أثناء تراقصه في ذلك الحيز من ضوء الشمس.

هيا تحركي.

توجهتُ إلى الحمام وغسلتُ وجهي بالمياه الباردة. استخرجتُ مربعاً بلاستيكيّاً من حقيبتي، ثم عدتُ إلى الحاسوب. حملتُ الحقيبة عنوان شارع بيرغر، بالإضافة إلى تاريخ 94/06/24. رفعتُ الغطاء، وتناولتُ القرص المدمج منها، ثم وضعته في محرّك الأقراص.

فتحتُ برنامجاً مخصصاً لمشاهدة الصور، فظهرت على الشاشة سلسلة من الأيقونات. نقرتُ على ألبوم، ثم افتتح. برز اسم اليوم واحد في المساحة المخصصة، بيرغر أي. بي. أم. Berger.abm. نقرتُ مرتين، فامتألت الشاشة بثلاثة صفوف من الصور. عرضت كل واحدة منها ست صور جامدة تمثل شقة سان جاك. ظهر سطر في الأسفل جاء فيه أن الألبوم يحتوي مئة وعشرين صورة.

نقرتُ كي أكبر الصورة الأولى التي تمثل شارع بيرغر. أظهرت صورتان الثانية والثالثة الشارع من زوايا مختلفة. مثلت الصورة الثانية بناية للشقق المفروشة من الواجهة والخلف. ظهر بعد ذلك الرواق الذي يؤدي إلى شقة سان جاك. بدأت مناظر الشقة الداخلية بالظهور بدءاً من الصورة الثانية عشرة.

شاهدتُ الصور واحدةً بعد أخرى، وتأملتُ كل التفاصيل التي أظهرتها. بدأت الدماء تضحج في رأسي. وتوترت عضلات كتفي وظهري وكأنها أسلاك طاقة

ذات توتر عالٍ. وجدتُ نفسي في تلك الشقة مجدداً وسط الحرارة الخانقة، والخوف، وروائح القذارة والعفونة.

فتشتُ صورة إثر صورة. أفتش عن ماذا؟ لم أكن واثقة. شاهدتُ كل شيء. صور هسلر، والصحف، وخريطة المدينة، ومبنى الدرج، والحمام القذر، وسطح الطاولة المليء بالزيوت، وكوب بيرغر كينغ، والإناء المليء بقطع السباغيتي المستديرة.

توقفتُ كي أتأمل مناظر الحياة الجامدة. إنه الملف رقم 102. رأيتُ إناءً بلاستيكيًا وسخاً، وحلقات دهنية بيضاء تجمعت في ترسبات حمراء. رأيتُ ذبابةً وقد ضمت يديها وكأنها تؤدي صلاة. لاحظتُ كتلةً يرتقالية اللون ترتفع من الصلصة وقطع المعكرونة.

حدقتُ جيداً، وانحنيتُ إلى الأمام. هل يُعقل أنني أرى ما اعتقدتُ أنني أراه؟ إنه هناك، ويعبر فوق تلك الكتلة البرتقالية اللون. تسارعت ضربات قلبي. لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. لا يمكن أن نكون محظوظين هكذا.

نقرتُ مرتين فظهر أمامي خط متقطع. حرّكتُ المؤشر وما لبث الخط أن تحوّل إلى مستطيلٍ تشكلت حدوده من سلسلة من النقاط الدوارة. وضعتُ المستطيل فوق تلك الكتلة البرتقالية مباشرة. نقرتُ زرّ تكبير الصورة مرةً بعد أخرى. كبرتُ الصورة ضعفين، ثم ثلاثة أضعاف. وصلتُ بالتكبير إلى ثمانية أضعاف الحجم الطبيعي للصورة. واطّبتُ على مراقبة ذلك القوس الشاحب الذي لاحظته في البداية حتى أصبح خطاً من النقاط والأشرطة. أعدتُ تصغير الصورة حتى وصلت إلى حجمها الطبيعي، ثم تفحصتُ القوس بكامله.

"أوه، يا إلهي!"

استخدمتُ محرّر الصورة كي أعدّل سطوع الصورة وتباينها، ثم عدلتُ الشكل والإشباع فيها. جرّبتُ أن أعكس الألوان، واستبدلتُ كل نقطة على الشاشة بما يكملها. استخدمتُ أمراً للتركيز على الأطراف، فأصبح ذلك الخط الدقيق أكثر بروزاً على الخلفية البرتقالية اللون.

تراجعتُ قليلاً وبدأتُ بالتحديق. تنفستُ بعمق. يا إلهي القدير! إنه هو بالذات.

أسرعتُ نحو الهاتف بيدٍ مرتعشة.

علمتُ من الرسالة المسجلة التي ردّت عليّ أن بيرغرون ما زال في إجازة.
يتعيّن عليّ إذاً أن أعمل بمفردي.
بحثتُ عن رقمٍ آخر وطلبته.
"مركز احتجاز بارثينياس".
"أنا قنب برينان. هل أندرو رايان موجود؟ يُفترض أن يكون الآن مع سجين
يدعى تانغواي".

"لحظة واحدة من فضلك. ابقِي على الخط".
سمعتُ أصواتاً عند الطرف الآخر. هيا. هيا.
"إنه غير موجود هنا".
"اللعنة! نظرتُ في ساعتي. هل جان برتران موجود؟"
"أجل. لحظة واحدة".
سمعتُ المزيد من الأصوات، والمزيد من الثرثرة.
"برتران".
عرفتُ عن نفسي، وشرحتُ له ما اكتشفته لتوي.
"اللعنة! لا. وماذا قال بيرغرون؟"
"إنه في إجازة حتى الإثنين المقبل".
"رائع، رائع جداً! أعتقد أنني أصبحتُ أميل إلى الترحيب بما تكتشفينه. ماذا
تريدني أن أفعل؟"
"ابحث عن قطعة ستايروفوم عادية، ودعه يعضّ عليها. لا تدخلها بعيداً جداً
في فمه. أريد الحصول على آثارٍ لأسنانه الست الأمامية. دعه يعضّ من الطرف إلى
الطرف كي تحصل على آثارٍ واضحة لأسنانه، أريد الحصول على قوسٍ من كل
جهة من جهتيّ القطعة. أريدك بعد ذلك أن تأخذ الستايروفوم إلى الطابق السفلي
وتعطيها إلى مارك دالايير، الذي يعمل في قسم التصوير. يقع مكتب الرجل في
الخلف، أي وراء قسم الأسلحة. هل استوعبتَ هذا؟"
"أجل. أجل، لكن كيف أقنع تانغواي أن يفعل ذلك؟"
"إنها مشكلتك أنت. يمكنك التفكير بشيء ما. لن يمانع الرجل إذا كان يدّعي
بأنه بريء".

"ومن أين أحصل على الستاير وفوم عند الرابعة والأربعين دقيقة مساءً؟"
"أذهب واشتر لنفسك بيغ ماك يا بوتراند. لا أعرف. أحصل عليها بأي
طريقة. يتعين عليّ أن أقابل دالايير قبل أن يغادر. هيا تحرك!"
كان دالايير ينتظر المصعد عندما اتصلتُ به. ردّ عليّ من مكتب الاستقبال.
"أريد خدمةً منك".

"نعم".

"سيأتي جان بوتران إلى مكتبك في غضون ساعة، وسيعطيك نماذج من آثار
عضة. أريد أن أنقل الصورة إلى ملفّ Tif. أريد أن يُرسل هذا الملفّ إليّ في أسرع
وقت ممكن. هل تستطيع أن تفعل هذا من أجلي؟"
مرّت فترة صمت طويلة. رأيته في ذهني وهو ينظر إلى ساعة المصعد.
"هل يتعلق هذا بتانغواي؟"

"نعم".

"إذا سأنتظر، بالتأكيد".

"أريدك أن تسلّط الضوء بشكلٍ مائل عبر الستاير وفوم، وابدل جهدك كي
تكون متوازية قدر الإمكان، وذلك كي تظهر العلامات. حاول أن تُدخل مقياساً
في الصورة مثل مسطرة، أو أي شيء آخر. أريد أن يكون مقياس الصورة متساوياً،
أي واحداً إلى واحد، من فضلك".

"لا مشكلة في ذلك. أعتقد أنني أملك مسطرة ABFO، في مكان ما في
مكتبي".

"رائع". أعطيته عنوان بريدي الإلكتروني، وطلبتُ منه أن يتصل بي هاتفياً
عندما ينتهي من إرسال الملف.

رحتُ أنتظر بعد ذلك. مرّت الثواني ببطء يماثل بطء مسيرة جبل جليدي. لم
يتصل بي أحد، حتى كاتي. ومضت أرقام الساعة باللون الأخضر. سمعتُ الأرقام
أثناء تغيرها. كليك، كليك، كليك.

أمسكتُ بسماعة الهاتف ما إن رنّ.

"دالايير".

"نعم". بلغتُ ريفي، لكن الألم كان لا يُطاق في حنجرتي.

"أرسلتُ الملف منذ خمس دقائق تقريباً. أسميته تانغ. تيف. Tang.tif. إنه ملف مضغوط، وهكذا يتعين عليك إزالة التشفير. سألقي هنا حتى تنتهي من التحميل، وذلك كي أتأكد من عدم وجود مشاكل في البرنامج. إنني أنتظر رداً منك. أتمنى لك حظاً طيباً".

شكرته وأنهيتُ المكالمة. أسرعْتُ نحو الحاسوب، ثم فتحتُ بريدي الإلكتروني في ماك جيل. ومضتُ أمامي الكلمات التالية البريد في حالة الانتظار!!! تجاهلتُ الرسائل الأخرى، وباشرتُ كي أحمل الملف الذي أرسله دالايير لي، ثم أرجعته إلى صيغته الأصلية. ظهرت أمامي صورة آثار الأسنان على طول الشاشة، وبدا كل سن بوضوح إزاء خلفية بيضاء. بدت العلامات عامودية إلى يسار الشاشة وأسفلها وشكلت مسطرة ABFO. أرسلتُ رداً إلى دالايير، ثم أقفلتُ البرنامج.

عدتُ إلى برنامج الصور، وأظهرتُ برنامج تانغ. تيف. Tang.tif على الشاشة، ثم نقرتُ مرتين كي يُفتح. ملأتُ علامات أسنان تانغواي الشاشة. استرجعتُ آثار العضة التي وجدتُ على قطعة الجبن في شارع بيرغر، ثم وضعتُ الصورتين جنباً إلى جنب.

حوّلتُ الصورتين بعد ذلك إلى مقياس أر. جي. بي. RGB، وذلك من أجل الحصول على أكبر كمية ممكنة من المعلومات الواردة في الصور. عدلتُ درجة اللون، والسطوع، والإشباع. استخدمتُ معدّل الصورة من أجل تحديد أكبر لأطراف العلامات على قطعة الستايروفوم، وفعلتُ الأمر ذاته بالنسبة إلى العلامات الموجودة على قطعة الجبن.

وجدتُ أنه من الضروري تواجد الصورتين بنفس المقياس، هذا إذا أردتُ إجراء ذلك النوع من المقارنة. أبرزتُ مسماكاً وتفحصتُ المسطرة الموجودة في صورة تانغواي، فلاحظتُ أنّ المسافة الفاصلة ما بين علامتي العَضّ تبلغ ميلميتراً واحداً بالضبط. حسناً. تأكدتُ أنّ المقياس هو واحد إلى واحد.

لم تظهر مسطرة في صورة بيرغر. ما العمل الآن؟

يتعين عليّ استخدام شيء آخر، مثل العودة إلى الصورة الكاملة، وذلك كي أحصل على معلومة معينة.

وجدت هذه المعلومة. لامس كوب بيرغر كينغ الوعاء المجاور للجب، وبدا شعاره الملون بالأحمر والأصفر واضحاً ومميزاً. رائع.

هرعتُ إلى المطبخ. تمنيت لو أنه ما زال هناك! فتحتُ أبواب الخزانة، ورحتُ أفتش في سلة المهملات الموجودة تحت حوض الأطباق.

أجل! غسلتُ بقايا تفل القهوة، ثم حملتُ الكوب إلى جانب الحاسوب. ارتعشت يداي عندما نشرتُ المقياس. تبين لي أن سماكة الذراع العامودية لحرف الباء B تبلغ أربعة ميليمترات بالضبط.

اخترتُ زرّ تعديل الحجم في تعديل الصورة، ونقرتُ على أحد طرفي حرف الباء B الموجود على كوب شارع بيرغر، وسحبتُ المؤشر حتى الطرف (الحد) الأقصى، ثم نقرتُ مجدداً. أمرتُ البرنامج بتغيير حجم الصورة بكاملها بعدما فرغتُ من اختيار نقاط المقياس. فعلتُ ذلك إلى أن أصبح قياس حرف الباء B في تلك الوضعية أربعة ميليمترات بالضبط. تغيرت أبعاد الصورة على الفور.

أصبحت الصورتان الآن بمقياس واحد إلى واحد. نظرتُ إليهما جنباً إلى جنب في شاشة الحاسوب. أظهرت آثار عضّة تانغواي قوس أسنان تاماً يمتلك ثمانية أسنان على كل من جانبي خط الوسط.

تواجدت علامات خمس أسنان فقط على قطعة الجبن. كان بورتان محقاً. بدا الأمر وكأنه بداية زائفة. عضتُ الأسنان، ثم انزلقت، أو تراجع، قبل أن تقضم قطعة خلف العلامة التي كنتُ انظر إليها.

حدقتُ في مسار العلامات. تأكدتُ من أنها تعود إلى القوس الأعلى من الأسنان. تمكنتُ من رؤية منخفضين طويلين على كل جانب من جانبي خط الوسط، ولعلهما يعودان إلى الأسنان القاطعة الوسطى. لاحظتُ وجود أخدودين أقصر قليلاً إلى جانب هذين المنخفضين. تواجد إلى أقصى يسار القوس منخفضٌ صغير ودائري، ولعله ناتج عن أحد الأنياب. لم أشاهد علامات لأسنان أخرى.

مررتُ راحتي يديّ المتعرقتين إلى أسفل جهتي قميصي، وقوست ظهري، ثم أخذتُ نفساً عميقاً.

حسناً، أستطيع الآن أن أنتقل إلى الموقع.

اخترتُ زر **المفعول**، ونقرتُ زر **تدوير**، ثم ناورتُ ببطء بين آثار أسنان **تانغواي**، وتمنيتُ أن أتوصّل إلى التوجيه ذاته الذي حصلتُ عليه للعلامة الموجودة على قطعة الجبن. أدرتُ القواطع الوسطى باتجاه عقارب الساعة نقرَةً فنقرَةً. قدّمتُ الصورة درجات قليلة في كل مرة إلى الأمام، وإلى الوراء، ثم إلى الأمام مرةً ثانية. ساهم القلق والشروود اللذان شعرتُ بهما في إطالة هذه العملية. استغرق الأمر جلسةً بأكملها، لكنني شعرتُ بالرضا في النهاية. تواجدت أسنان **تانغواي** الأمامية على الزاوية ذاتها، والموقع ذاته مثل مثيلاتها على قطعة الجبن.

عدتُ مجدداً إلى قائمة **تعديل**. نقرتُ على زرّ **وصل**. اخترتُ صورة الجبن لتكون الصورة الحية إلى جانب علامات أسنان **تانغواي**، الصورة الجانبية. عدلتُ مستوى الشفافية عند نسبة 30 بالمئة، وما لبثتُ عضّة **تانغواي** أن ظهرت معتمّة أكثر.

نقرتُ على البقعة الموجودة مباشرة ما بين أسنان **تانغواي** الأمامية، ونقرتُ مجدداً على الفجوة المقابلة في قوس قطعة الجبن، وهكذا حددتُ نقطة **وصل** في كل صورة. شعرتُ بالارتياح. شغلتُ زر **ضع**، وهكذا وضع زر **تعديل الصورة** علامات عضّة **تانغواي** فوق تلك الموجودة في قطعة الجبن. بدت الصورة الناتجة معتمّة جداً. وتلاشى المسار الموجود على قطعة الجبن كلياً.

رفعتُ مستوى الشفافية إلى 75 بالمئة وراقبتُ نقاط **الستايروفوم** وأشرطته وهي تتلاشى إلى أن أصبحت شفافةً كالأشباح. تكوّنت لديّ الآن رؤية واضحة للمنخفضات والفجوات الموجودة في قطعة الجبن من خلال الآثار التي أحدثتها أسنان **تانغواي**.

يا إلهي القدير!

عرفتُ على الفور أنّ العضتين لا تعودان للشخص ذاته. لم تفلح محاولات التلاعب اليدوية، أو التعديل الدقيق، في تغيير هذا الانطباع، وتأكدتُ أنّ الفم الذي أحدث العضّة على **الستايروفوم** ليس هو ذاته الذي ترك أثره على قطعة الجبن.

تبين لي أنّ قوس الأسنان لدى **تانغواي** ضيق جداً، وأنّ منحني الأسنان الأمامية عنده أضيق بكثير من ذلك الذي حفظ في قطعة الجبن. أظهرت الصورة المركبة شكل حدوة حصان فوق شكل نصف دائرة.

لاحظتُ أمراً أكثر إدهاشاً، وهو أنّ الشخص الذي كان يأكل الجبن في شارع بيرغر يمتلك انقطاعاً شاذاً إلى يمين فجوة خط الوسط الطبيعية، إلى جانب بروز السن المجاور بزواوية ثلاثين درجة، وهذا ما جعل صف الأسنان عنده يبدو مثل سياجٍ من الأوتاد. يمتلك آكل الجبن سناً قاطعة وسطية مكسورة بشدة، بالإضافة إلى سنٍ جانبية مائلة. بدت أسنان تانغواي منتظمة وغير منقطعة. لم تظهر عَضَّتَه أيّاً من هاتين الميزتين، لذلك فهو لم يقضم الجبن. إما أن يكون تانغواي استضاف ضيفاً في شارع بيرغر، أو أن شقة شارع بيرغر لا علاقة لها بتانغواي على الإطلاق.

40

أقدم الشخص الذي استخدم شارع بيرغر، كائناً من كان، على قتل غايي. تأكدتُ من تطابق القفازين، لكن ظهر احتمالٌ قويٌّ بأنَّ تانغواي لم يكن ذلك الشخص الذي ارتكب الجريمة. لم تقضم أسنان تانغواي قطعة الجبن، وهكذا تأكدتُ من أن سان جاك ليس تانغواي.

سألتُ بصوت أجش وسط سكون منزلي الفارغ: "من أنتَ بحق الجحيم؟" انطلقتُ مخاوفي على كاتي بكل قوتها. لماذا لم تتصل بعد؟ حاولتُ الاتصال بوايان في المنزل. لم يردَّ عليّ. حاولتُ الاتصال ببرتوان. قالوا لي إنه غادر المكان. اتصلتُ بغرفة اللجنة الخاصة المكلفة بالبحث عن إمكانية وجود قاتل تسلسلي. لم يجيني أحد.

توجهتُ نحو الباحة، ونظرتُ من خلال السياج إلى مطعم البيتزا الذي يقع في الناحية الأخرى من الشارع والذي بدا خالياً، حتى من فريق المراقبة الذي سُحب. أصبحتُ لوحدي الآن.

استعرضتُ الخيارات المتاحة أمامي. ماذا أفعل؟ ليس أمامي الكثير كي أقوم به. لا أستطيع ترك المكان لأن كاتي قد تعود في أي لحظة، في أي لحظة.

نظرتُ في الساعة - أشارت إلى 7:10 من بعد الظهر. تذكرتُ الملقات. ينبغي أن أعود إليها، وماذا أستطيع أن أفعل غير ذلك داخل هذه الجدران؟ ها قد أصبح ملجئي بمثابة السجن لي.

غيّرتُ ملابسي وتوجهتُ نحو المطبخ. شعرتُ بألم شديد في رأسي، لكنني لم أتناول أي دواء، لأنني شعرتُ بتبلد في ذهني من دون تحذير إضافي. قررتُ أن أقهر الجراثيم بواسطة فيتامين سي. أحضرتُ علبة من عصير الليمون المثلّج من الثلاجة، ثم بحثتُ عن فتّاحة العلب. اللعنة! أين هي؟ لم أجد في نفسي ما يكفي من الصبر كي أبحث طويلاً، لذلك تناولتُ سكين تقطيع اللحم، وبدأتُ في نشر الجهة العليا من علبة الكرتون من أجل إزالة غطائها المعدني. افتحي العلبة يا برينان، وقومي بإزالة الغطاء، ثم أضيفي المياه. تستطيعين أن تفعلي ذلك، وبإمكانك أن تنظفي المكان في ما بعد.

وجدتُ نفسي بعد لحظات قليلة مستلقيةً على الأريكة بعد أن تلحّفتُ جيداً. وضعتُ المناديل الورقية، وعلبة العصير على مسافة قريبةٍ مني. وضعتُ يديّ على حاجبيّ كي أحصل على بعض الهدوء.

داماس. فتحتُ الملف، وأعدتُ تفحصُ الأسماء، والأماكن، والتواريخ التي رأيتها من قبل. برزتُ أسماء موناستير سان برنار، ونيكوس داماس، ورجل الدين بوارييه.

أجرى برتران دراسةً عن بوارييه في جهاز الكمبيوتر. أعدتُ قراءتها، لكن عقلي رفض التركيز. تبين أنّ رجل الدين الطيب ذاك قد غادر. راجعتُ المقابلة الأساسية، وبحثتُ عن أسماء أخرى كي أتبعها، وأستخدمها مثل علامات الطريق في سباق المطاردة. راجعتُ التواريخ بعد ذلك.

من كان حارس الموناستير؟ روي. إميل روي. رحّتُ أفتش عن إفادته. لم أجدها. فتشتُ كل شيء في المطروف. لم أجد شيئاً. لا بد أنّ أحداً قد تحدّث إليه. لا أتذكر رؤية ذلك التقرير، لكن لم لا أجده هنا؟

جلستُ لبرهة من الزمن، ولم أسمع في عالمي سوى أصوات أنفاسي. عاودني الإحساس بأفكارٍ بديهية، مثل الإحساس الذي يُنذر بصداع الشقيقة (الصداع النصفي). تزايد الشعور بأنني أفتقد شيئاً ما أكثر من أي وقتٍ مضى، لكن الحقيقة رفضت أن تتبلور.

عدتُ إلى تصريح بوارييه. يعني روي بالبناء وبالأراضي. يقوم الرجل بإصلاح الفرن، ويجرف الثلوج.

يجرفُ الثلوج؟ هل يجرف الثلج رجلٌ يبلغ الثمانين من العمر؟ ولمَ لا؟ يستطيع جورج برونز أن يقوم بذلك. راح عقلي يستعرض صوراً من الماضي. فكّرتُ في ذلك الشبح الذي رأيته عندما كنتُ وحيدة في السيارة، ورأيتُ عظام غوايس داماس تقبع بجواري في تلك الغابة المبلّلة بمياه الأمطار.

رحتُ أفكّرُ بجلمي الآخر في تلك الليلة: الفئران، بيتي، رأس إيزابيل غاغنون، وقبرها، ورجل الدين. ماذا قال لي؟ يُمنع الدخول إلا لمن يعمل لصالح دار العبادة.

هل يُعقل هذا؟ هل تمكّن هذا الرجل من دخول أرض الموناستير، ولا غراند سيمينايور، بهذه الطريقة؟ هل يعمل القاتل الذي نبحت عنه لصالح دار العبادة.

روي!

حسناً يا بريتان، هل توصلت إلى قاتلٍ تسلسليٍّ يبلغ الثمانين من عمره. هل يجدر بي أن أنتظر اتصالاً من رايان. تناولتُ دفتر الهاتف بيدٍ مرتعشة. إذا تمكّنتُ من معرفة رقم هاتف الحارس فسوف أتصل.

وجدتُ اسم إي. روي ضمن عنوان سان لامبرت.

ردّ عليّ صوتٌ يتصف بالخشونة: "نعم".

كوبني حذرة، وتحركي بهدوء.

"مسيو إميل روي؟"

"نعم".

شرحتُ له من أكون وسبب اتصالي به. ها قد توصلتُ أخيراً إلى إميل روي الذي أبحث عنه. سألته عن مهامه في الموناستير. بقي فترةً طويلةً من دون أن يرد. سمعتُ صوت أنفاسه التي دخلت إلى رثتيه، وخرجت وكأها هواء يدخل في قصبه نفخ. تكلم الرجل أخيراً:

"لا أريد أن أحسر وظيفتي. إنني أعتني بالمكان جيداً."

"أجل. هل تقوم بمهامك وحذك؟"

سمعتُ صوت أنفاسه عند توقفها. بدا لي أن هذا الصوت يشبه صوت حصاة عند اصطدامها بقصبه نفخ.

قال لي بصوت يشبه الأنين: "أحتاج إلى قليل من المساعدة بين وقت وآخر. لا يكلفهم ذلك مبلغاً إضافياً. إنني أدفع هذه الكلفة الإضافية بنفسي، ومن أجوري أنا".

"ومن يساعدك يا هونسيور روي؟"

"يساعدني ابن شقيقي. إنه فتى رائع، وغالباً ما أكلّفه بجرف الثلج. كنت سأخبر المسؤول، لكن..."

"ما هو اسم ابن شقيقك؟"

"ليو. لم يتورط في أي مشكلة، أليس كذلك؟ إنه فتى رائع".
أحسست أنّ سماعه الهاتف تنزلق في راحة يدي.

"وما اسم عائلة ليو؟"

"فورتية. ليو فورتية. إنه حفيد شقيقي".

تلاشى صوته، بينما أحسست أنني أتصبب عرقاً. أنهيتُ المكالمة بالكلمات المعتادة، بينما راح عقلي يضرب أحساساً بأسداس، وتسارعت ضربات قلبي. هدّئي من روعك. أَيْحتمل أن تكون هذه مجرد مصادفة. إنّ كون المرء حارساً ومساعداً في ملحمة بدوام جزئي لا يجعل منه قاتلاً. فكّري قليلاً. نظرتُ إلى الساعة، ثمّ أسرعتُ نحو الهاتف. هيا، كوني هناك. رفعت السماعة بعد الرنة الرابعة.
"لوسي دومون".
أجل!

"لوسي، لا أصدق أنك لا تزالين في العمل".

"أعاني من مشكلة مع برنامج ملفات. كنت على وشك المغادرة".

"أحتاج شيئاً يا لوسي. إنه أمرٌ هام جداً. يُحتمل أن تكوني الوحيدة القادرة على تقديمه لي".

"وما هو؟"

"أريدك أن تستقصي لي عن أحد الأشخاص على الحاسوب. افعلي ما بوسعك كي تحصلني على كل شيء يتعلق بهذا الرجل. هل تستطيعين القيام بهذا؟"

"إنه وقت متأخر، كما أريد..."
"إنه أمرٌ هام يا لوسي. يُحتمل أن تكون ابنتي في خطر. أحتاج هذا فعلاً!"
لم أحاول أن أخفي درجة اليأس الذي شعرتُ به.
"أستطيع أن أصِل حاسوبي مع ملفات أمن كيبك كي أتأكد من وجود معلومات عنه. أمتلك الإذن لذلك. ماذا تريدان أن تعرفي؟"

"أريد معرفة كل شيء عنه."

"ماذا لديك من معطيات؟"

"سأعطيك اسماً فقط."

"أليس لديك شيء آخر."

"لا."

"ومن يكون هذا الشخص؟"

"فورتية. ليو فورتية."

"سأتصل بك لاحقاً. أين أنت الآن؟"

أعطيتها رقم هاتفي وأقفلت الخط.

رحتُ أذرع الشقة جيئةً وذهاباً، وكاد خوفي على كاتي أن يصيبني بالجنون.
هل هو فورتية؟ هل ركّز عليّ غيظه المهووس لأنني كدتُ أفشل مخططاته؟ هل قتل صديقتي كي ينقّس غيظه الذي يشعر به؟ وهل خطّط الأمر ذاته لي؟ وكذلك لابنتي؟ وكيف عرف من تكون ابنتي؟ هل سرق الصورة التي تجمعني مع كاتي من غايي؟

أحسستُ أنّ الخوف البارد الذي يبعث على الخدّر قد وصل إلى أعماق روحي. سيطرتُ على أسوأ أنواع الأفكار التي عرفتها على الإطلاق. تخيلتُ اللحظات الأخيرة في حياة غايي، كما تخيلتُ المشاعر التي لا بد أنها شعرت بها. كسر رنين الهاتف سلسلة أفكار.

"نعم!"

"أنا لوسي دومون."

"نعم". تسارعت دقات قلبي بشدة.

"هل تعرفين كم يبلغ ليو فورتية من العمر؟"

"آه... ثلاثين، أو أربعين عاماً".

"وجدتُ اسمين: وُلد الأول في التاسع من شباط 1962، ويكون بذلك في حوالى الثانية والثلاثين من عمره. أما تاريخ ميلاد الشخص الآخر فهو الحادي والعشرين من شهر نيسان، 1916، وهكذا فهو يبلغ... الثامنة والسبعين من عمره".

قلتُ: "إنه الشخص الذي يبلغ الثانية والثلاثين من العمر".
"ظننتُ هذا، ولهذا طلبت كل المعلومات المتوافرة عنه. يمتلك الرجل ملفاً كبيراً يرجع به إلى محكمة الأحداث. لا يتحدث ملفه عن جرائم، لكنه مليء بسلسلة من المشاكل المتعلقة بجنح مختلفة، والإحالات على الطبيب النفسي".

"ما نوع هذه المشاكل؟"

"ضُبط الفتى متلبساً بالتلصص عندما كان بعمر الثالثة عشرة". خيّل إليّ أنّ أصابعها تنقر على لوحة مفاتيح حاسوبها. "التخريب، والتغيّب من دون عذر. وقع حادثٌ عندما كان في الخامسة عشرة من عمره. خطفَ فتاةً ثمانية عشرة ساعة. لم توجه إليه أي تهمة. أتريدين الملف كله؟"
"ماذا بشأن أحدث المخالفات؟"

سمعتُ صوت قرقعة: كليك، كليكتي، كليك. تخيلتها منحنيةً على الشاشة وقد انعكس وميض الشاشة الأخضر على نظارتها الزهرية اللون.
"أدخلت آخر إضافة في عام 1988، حينما قبض عليه بتهمة الاعتداء على شخص آخر. يبدو أنّ الضحية قريبٌ له، لأنه يمتلك اسم العائلة ذاته. لا ذكر لمدة السجن، لكنه أمضى ستة أشهر في الباينل".

"ومتى خرج؟"

"هل تريدين تاريخ الخروج بالضبط؟"

"هل يتوفر لديك؟"

"يبدو أنه خرج في الثاني عشر من شهر تشرين الثاني، 1988".

ماتت كونستانس بيتري في كانون الأول من العام 1988. شعرتُ أنّ غرفتي حارة جداً، بينما كان جسمي لزجاً نتيجة العرق.

"هل يتضمن الملف اسم الطبيب النفسي الذي كان يعتني به عندما كان في
الباينل؟"

"هناك إشارة إلى اسم الدكتور أم. سي. لابيرييه، لكن لا إشارة إلى
هويته."

"هل رقم هاتفه مدون في الملف؟"

أعطتني إياه على الفور.

"أين يتواجد فورتبييه الآن؟"

"ينتهي الملف في العام 1988. هل تريد عنوان سكنه في ذلك العام؟"
"أجل."

شعرتُ بأنّ دموعي على وشك الانهمار عندما نقرت الرقم، واستمعتُ إلى
صوت الهاتف يرن في أقصى الطرف الشمالي من جزيرة مونتريال. حاولتُ أن
أفكر بما يجدر بي قوله، وأن أحافظ على رباطة جأشي.

رد عليّ صوت أنثوي: "مؤسسة فيليب باينل. كيف يمكنني مساعدتك؟"
"أريد التحدث مع الدكتور لابيرييه من فضلك". يا إلهي! أريده أن يكون
موجوداً في العمل.

"لحظة من فضلك".

رائع! إنه ما زال يعمل. انتظرتُ قليلاً على الهاتف، قبل أن يقودي صوت
أنثوي آخر إلى ما ينبغي عمله.

"مَن يتكلم؟"

"أنا الدكتورة برينان".

مرّت فترة لم يُسمع فيها سوى الهواء. سمعتُ صوتاً بعد ذلك.

أجابني صوت أنثوي، لكنه بدا متعباً وناقد الصبر: "دكتورة لابيرييه".

"أنا الدكتورة تمبرنس برينان". حاولتُ إخفاء ارتعاش صوتي. "أنا عالمة

الأثنروبولوجيا العدلية لدى مختبرات الطب القضائي. إنني منشغلة في التحقيق في
سلسلة من الجرائم التسلسلية التي حدثت على مدى أعوام عديدة في منطقة
مونتريال. أملك أسباباً تدفعني إلى الاعتقاد أنّ أحد مرضاك السابقين قد يكون
متورطاً في هذه الجرائم".

ردت بصوت متعب: "أجل".

شرحتُ لها عن اللجنة الخاصة بالتحقيقات، وطلبتُ منها تزويدي بما تعرفه

عن ليو فورتييه.

"يا دكتور... بريان، أليس كذلك؟ تعرفين يا دكتور بريان بأني لا أستطيع أن أطلعك على ملف مريض، وخاصة بناءً على مكالمات هاتفية. إذا فعلتُ ذلك من دون الحصول على تفويض من المحكمة فسيعتبر ذلك خرقاً لقانون السرية".

أبقي هادئة يا بريان. عرفتُ ماذا سيكون الجواب سلفاً.

"ستحصلين على تحويل المحكمة في ما بعد بالطبع، لكننا الآن في وضع مستعجل يا دكتور، ولا أستطيع التأخر في حديثي معك. أعتقد أن التحويل من المحكمة غير ضروري في هذه المرحلة. هناك نساء يلقين حتفهن يا دكتور لا برييه. أقدم المجرم على قتلهن، وتشويههن بعد ذلك، بكل وحشية. تعود ذلك الرجل الذي أقدم على هذه الجرائم على ارتكاب أعمال عنف فظيعة. تعود المجرم على تشويه ضحاياه. نعتقد أنه شخص يمتلك حقداً هائلاً ضد النساء، كما أنه يتمتع بما يكفي من الذكاء الذي يسمح له بالتخطيط لهذه الجرائم وتنفيذها. نعتقد أيضاً أنه سيُقدم على تنفيذ جريمة جديدة قريباً". بلغتُ ريقتي، لكنني شعرتُ بجفاف في حلقي نتيجة الخوف. "إن ليو فورتييه هو مشتبهٌ به في الوقت الحاضر. نريد أن نعرف ما إذا كان الرجل يمتلك، برأيك، سجلاً يخوله القيام بجرائم كهذه. إن المستندات الضرورية التي تترر الحصول على هذه المعلومات ستكون في طريقها إليك قريباً، لكننا نود الآن الحصول على أي معلومات قد تساعدنا على توقيف هذا القاتل قبل تنفيذ جريمته الجديدة، هذا إذا كنتِ تتذكرين شيئاً عن هذا المريض".

أحضرتُ لحافاً آخر ووضعتُه حولي. أفادني هذا اللحاف بحيث أدخل الهدوء

على صوتي. لا أريدها أن تعرف مدى الخوف الذي أشعر به.

"أنا، وببساطة، لا أستطيع..."

زلق اللحاف من حولي.

"لدي ابنة يا دكتور لا برييه. هل لديك أطفال؟"

جاء ردها مزيجاً من التحدي المزوج بالتعب: "ماذا؟"
"كانت شانتال تروتييه في السادسة عشرة من عمرها. ضربها ذلك الجرم حتى
الموت، وقطعها قبل أن يلقي بها في مكبٍ للمهمات."
"يا إلهي!"

لم ألتق بماري كلود لا برييه من قبل، لكن صوتها رسم لي مشهداً حياً أوحى
لي برسوم مؤلف من ثلاثة أجزاء، وتخلت ألوانه: الرمادي المائل إلى الرصاصي،
والأخضر الشاحب، والقرميدي الداكن.

تمكنت من تخيل تلك المرأة: إنها في منتصف عمرها بحيث نستطيع أن نتخيل
مدى الإحباط المحفور بعمق في وجهها. عملت هذه المرأة لصالح نظام فقدت ثقتها
به منذ زمنٍ طويل، ذلك النظام الذي يعجز عن التفهم، هذا إذا لم نقل يعجز عن
الكبح، وهو النظام الذي يعكس قساوة مجتمع وصل إلى أقصى حدود جنونه.
تصيد العصابات ضحاياها، تصيد المراهقات بعيونهنّ الشاردة، ومعاصمهنّ
الدامية، وتقوم بحرق جلود الأطفال وتشويهها بأعقاب السجائر. تلقي هذه
العصابات الأجنة في أحواض الحمامات، حيث تعوم بدمائها. يُترك الكبار فريسةً
للجوع، ويقيدون قرب الأقدار. وتعرض وجوه النساء إلى الضرب الشديد رغم
عيونهنّ المتوسلة. ظننت تلك الدكتورة ذات مرة بأنها تستطيع إحداث فرق، لكن
التجربة أفضعتها بعكس هذه الفرضية.

لكنها أقسمت. أقسمت على ماذا؟ ولصالح من؟ أصبح المازق مألوفاً لديها،
أي كما كانت مثاليّتها ذات مرة. سمعتها تأخذ نفساً عميقاً.
"حُكم ليو فورتية مدة ستة أشهر في العام 1988. بقيت طيلة هذه الفترة
طبيته النفسية المكلفة بعلاجه".

"هل تتذكرينه؟"

"أجل".

انتظرنا كي تكمل، وتسارعت دقات قلبي في هذه الفترة. سمعت قرقرة ولاعة
سجائرها فتحاً وإغلاقاً، ثم سمعتها تتنفس بعمق.

"وصل ليو فورتية إلى البايبل لأنه ضرب جدته بمصباح". استخدمت المرأة
جمالاً قصيرة، وتابعت حديثها بحذر. "احتاجت تلك المرأة المسنة إلى ما يزيد عن

المئة قطبة، لكنها رفضت تقدم شكوى على حفيدها. نصحتُ الرجل بمتابعة العلاج عندما انتهت المدة الإلزامية، لكنه رفض".

توقفت قليلاً كي تختار الكلمات المناسبة بعناية.

"وقف ليو فورتييه يتفرج على جدته أثناء احتضارها. ربته تلك الجدة، وغرست فيه صورة ذاتية شديدة السلبية، وهو الأمر الذي أدى إلى عجزه عن إنشاء علاقات اجتماعية مناسبة له.

اعتادت جدة ليو على معاقبته بشكلٍ مفرط، لكنها أقدمت على حمايته من عواقب أعماله خارج المنزل. توحى نشاطات ليو عندما كان في سنوات المراهقة بأنه كان يعاني من اضطراب إدراكي (معرفي) شديد، والذي ترافق مع حاجة طاغية عنده لفرض السيطرة، كما أظهرت هذه النشاطات غضباً نرجسياً شديداً عندما كان يتعرض للخذلان.

إن حاجة ليو لفرض سيطرته، بالإضافة إلى حبه وحقده المكبوتين تجاه جدته، وكذلك عزله الاجتماعية المتزايدة، دفعته إلى تمضية أوقات متزايدة مع عالم تخيلاته الذي نسجه بنفسه. طور الفتى أيضاً كل آليات الدفاع الكلاسيكية: الإنكار، والكبح، والإسقاط. يتميز الفتى بأنه غير ناضج إطلاقاً من الناحيتين العاطفية والاجتماعية".

"أتظنين بأنه قادر على التصرف بحسب السلوك الذي وصفته لك؟" دهشتُ من درجة ثبات صوتي، لكنني كنت أعلي من الداخل نتيجة الرعب الذي شعرتُ به على ابنتي.

صمتت قليلاً بحيث استطعت سماع أنفاس عميقة أخرى.

"أعتقد أن ليو فورتييه هو رجلٌ خطرٌ جداً".

سألته بصوت مرتعش هذه المرة: "أتعرفين أين يعيش الآن؟"

"لا أعرف عنه شيئاً منذ مغادرته مؤسستنا".

كنتُ على وشك توديعها عندما فكّرتُ في طرح سؤالٍ آخر عليها: "كيف

ماتت والدة ليو؟"

أجابت: "ماتت على يد أخصائي بالإجهاض".

تسارعت الأفكار في ذهني في الوقت الذي أهيتُ فيه المكالمة. أصبح عندي

الآن اسمٌ، كما أعرف أن ليو فورتييه سبق له أن عمل مع غرايس داماس. تمتع

الرجل بحق الدخول إلى أملاك دار العبادة، بالإضافة إلى أنه كان خطراً جداً. والآن ماذا؟

سمعتُ حفيف أوراق ناعمٍ، لكنني لاحظتُ أنّ الغرفة تحوّلت إلى اللون البنفسجي. فتحتُ الأبواب الزجاجية ونظرتُ إلى الخارج. رأيتُ الغيوم الكثيفة مقدسةً فوق سماء المدينة، فتحوّلت أضواء المساء إلى ظلمة قبل أوانها. تغيّر اتجاه الرياح، وبدأ الهواء مشبعاً برائحة المطر. لاحظتُ أنّ أشجار السرو كانت تمايل جيئةً وذهاباً، كما تراقصت أوراق الأشجار على الأرض.

تذكرتُ إحدى أولى القضايا التي عملتُ عليها. كانت قضية نيللي آدمز، تلك الفتاة التي اختفت بعمر الخامسة. كنتُ قد سمعتُ بأمرها في الأخبار. تذكرتُ أيضاً أنّ عاصفةً رعديّة عنيفة قد حدثت في يوم اختفائها. فكّرتُ فيها تلك الليلة وأنا أمتنع بالأمان الذي توفره لي غرفة نومي. هل كانت وحيدةً ومرتبعةً وسط العاصفة؟ تمكّنتُ من تحديد هويتها بعد ستة أسابيع عندما قمت بتحليل بقايا عظام جمجمتها وقصصها الصدري.

أرجوك يا كاتي! أرجوك عودي الآن!

توقفي عن هذا يا برينان! أتصلي برايان.

تراقصت أضواء السرق على جدران الغرفة. أحكمتُ إغلاق الأبواب، ومضيتُ كي أنير المصباح. لم يحدث شيء. تذكرني وجود المنبه يا برينان. جهّزته كي يرنّ عند الساعة الثامنة. ما زال الوقت مبكراً جداً.

مددتُ يدي من وراء الأريكة، وضغطتُ على زرّ الموقت. لم يحدث شيء. حاولتُ الضغط على المفتاح الكهربائي الموجود في الجدار. لم يحدث شيء. تحسّستُ طريقي على طول الجدار واستدرتُ نحو المطبخ. لم تستجب المصابيح الكهربائية. تزايد قلقي، لكنني أكملتُ باتجاه الردهة وغرفة النوم. بدت الساعة معتمة بسبب انقطاع الكهرباء. وقفتُ للحظة، لكن عقلي راح يبحث عن تفسيرات. هل حدثت صاعقة؟ أم أنّ الرياح قد أوقعت أغصان الأشجار على أسلاك الطاقة؟

أيقنتُ أنّ الشقة هادئة بشكل غير طبيعي، فأغلقتُ عينيّ كي أستطيع الإصغاء جيداً. ملأ خليط من الأصوات الفراغ الذي خلفه صمت الأجهزة

الكهربائية. تزايدت حدة العاصفة في الخارج. سمعتُ أصوات دقات قلبي، بالإضافة إلى شيء آخر. هل سمعتُ قرقرةً خفيفةً؟ هل هو صوت باب يُغلق؟ هل هو صوت بيردي؟ من أين أتى هذا الصوت يا ترى؟ هل أتى من غرفة النوم الأخرى؟

عبرتُ الغرفة باتجاه نافذة غرفة النوم. ومضت أضواء المصابيح التي شعت على طول الطريق، ومن الشقق المتواجدة في شارع دي مايزونيف. أسرعتُ عائدةً إلى الأبواب المؤدية إلى الباحة عبر الردهة. تمكّنتُ من رؤية أنوار منازل الحيّ المتسلّلة عبر مياه المطر. أيقنتُ أنّ الكهرباء مقطوعة عن منزلي، ومنزلي فقط! وفجأةً تذكرت: لم يرنّ جهاز الإنذار عندما فتحت الأبواب الزجاجية. إذاً، جهاز الأمان معطلٌ في شقتي!

هرعتُ نحو جهاز الهاتف.

اكتشفتُ أنّ الخط الهاتفي معطلٌ هو الآخر.

41

أهيتُ المكالمة، وغرقت عيناىَ بالظلمة الدامسة التي تلفني. لم تلقَ عيناىَ أي شكل من أشكال التهديد، لكنني استطعتُ أن أحس بشيءٍ آخر. رحّتُ أرتجف وشعرتُ بالتوتر. تراكضت الأفكار في رأسي، فاستعرضتُ الخيارات المتاحة أمامي وكأنها كدسةٌ من أوراق اللعب.

أمرتُ نفسي أن أحافظ على هدوئي، إذ يجب عليّ الخروج إلى الحديقة من خلال الأبواب الزجاجية.

تذكّرتُ أنّ بوابة الحديقة موصدةٌ وأنّ مفتاحها في المطبخ. تخيلتُ السياج، لكن هل أستطيع تخيل أبعاد الحديقة؟ وإذا لم أتمكن من ذلك فعلى الأقل سأكون خارج الشقة، ولعل أحدهم سيسمعني إذا ما صرختُ. هل سيسمعني أحد، مع تلك العاصفة الشديدة؟

أصغيتُ كي أسمع كل الأصوات مهما كانت خافتةً، وبدأ قلبي يضح بين أضلعي مثل حشرة مسجونة في حيز ضيق. راح ذهني يفكر في اتجاهات شتى. أخذني تفكيري إلى مارغريت أدكينسز، وبيتري والأخريات. فكّرتُ برقاهنّ المدبوحة، وبعيونهنّ المدوّقة التي لم ترَ شيئاً.

هيا تحركي يا برينان. تحركي! لا تنتظري حتى تقعي فريسةً له. صعبٌ عليّ التفكير بطريقة منطقية بسبب خوفي على كاتي. ماذا سيحدث لو أنني نجوتُ بنفسي، بينما يتربّص المجرم بها؟ لا. أقنعتُ نفسي أنه لن يتربّص بأحد، لأنه يحتاج إلى أن يشعر بالسيطرة. أعتقد أنه سيختفي كي يخطط لجريمته الجديدة.

بلعتُ ريقِي، وكدتُ أصرخ من شدة الألم، وأحسستُ بالجفاف الشديد في
حنجرتي نتيجة المرض والخوف. قررتُ أن أركض، وأن أفتح الأبواب الزجاجية،
ثم أندفع وسط المطر وحرية الحركة. أحسستُ بالتصلب في جسمي، وتوترت كل
عضلة ووتر فيه، لكنني تمكنتُ من الوثوب باتجاه الباب. استدرتُ حول الأريكة.
ووجدتُ نفسي بعد أن قطعتُ خمس خطوات وأنا أمسك بمقبض الباب بيد، بينما
أدرتُ مزلاج الباب باليد الثانية. شعرتُ بالمقبض النحاسي بارداً بالنسبة لأصابعي
المحمومة.

لظمت وجهي يداً متفتحة، وكأنا سوطٌ صنُع من اللحم، فاندفعتُ إلى الخلف
وارتطم رأسي بجسم صلد كالصخر. أحسستُ بشفتي تنسحقان، وبفكي يُلوي
ويتحرك من مكانه. غطتُ تلك الراحة القاسية فمي، فملأت أنفي رائحة مألوفة
عندي. كانت تلك اليد ناعمة وزلقة بشكل غير طبيعي. لحتُ وميضاً معدنياً من
زاوية عيني، وأحسست بشيء بارد على صدغي الأيمن. تعاضم خوفي وسيطر على
عقلي، فتلاشي كل شيء يقع وراء جسمي وجسمه.

"حسناً، يا دكتورة برينان. أعتقد أننا على موعد هذه الليلة". تكلم الرجل
بلغة إنكليزية، لكن بلكنة فرنسية. بدا بصوته المنخفض والناعم وكأنه يؤدي أغنية
حبٍ تمرن على أنغامها جيداً.

قاومته بجسدي الذي تحرك يمنة ويسرة، وبيديّ الاثنتين، لكن قبضته كانت
شديدة كالملزمة. اندفعتُ خارجاً ورحتُ أعبّ الهواء بيأس.

"لا. لا. لا تقاومي. ستكونين معي هذه الليلة، حيث لن يتواجد أحدٌ في هذا
العالم إلا أنا وأنت". شعرتُ بحرارته على رقبي عندما شدني نحوه. أحسستُ
بجسده الذي تميز بطراوة وتمام غريبيين، سبق لي أن أحسستُ بهما في راحة يده.
سيطر الرعب عليّ، وشعرتُ بالعجز التام.

عجزتُ عن التفكير، ولم أتمكن من الكلام. لم أعرف ما إذا كان يجدر بي أن
أتوسّل، أو أن أقاوم، أو أن أتحدث إليه بمنطق. أمسك الرجل برأسي وجمده،
وراحت يده تضغط شفتيّ على أسناني. تذوّقتُ طعم الدم في فمي.

"ألا تقولين شيئاً؟ حسناً، سنتحدث لاحقاً". أقدم على حركة غريبة بشفتيه
عندما تكلم. بلل شفتيه، ثم سحب السائل ثانية بين أسنانه.

"جلبتُ لك شيئاً". شعرتُ بجسده يتحرك يمنةً ويسرةً، ثم سحب يده عن فمي. "أحضرتُ لك هدية".

سمعت صوتاً معدنياً، ثم جذب رأسي إلى الأمام. مرَّ الرجل معدناً بارداً فوق وجهي، ثم نزلوا إلى رقبتي. تحركت ذراعه قبل أن أتمكن من فعل أي شيء. جذبني إلى مكان لا يستطيع فكري أن يتصوره. شعرتُ، وأنا مقيدة، بالاختناق في مكان أعماقي ضوءه. لم أستطع فعل أي شيء حتى هذه اللحظة غير تصنيف نوعية المي بحسب التحركات التي قام بها.

أرخصى قبضته بعض الشيء، ثم جذب السلسلة مجدداً حتى كاد يسحق حنجرتي. راح فكّي وعمودي الفقري يهتران بشدة، لكن الألم كان لا يطاق. حركتُ أصابعي بجنون، ورحتُ ألثت طلباً للهواء، لكنه أدارني بعد أن أمسك يدي، ثم أحاط معصميّ بسلسلة أخرى. جذب الرجل السلسلة بشدة وبحركة واحدة، ثم ربطها بالسلسلة التي قيّدت رقبتي، ثم جذب السلسلتين وأمسكهما فوق رأسي. اخترقت رثتي نيران حارقة، بينما توصل دماغي الحصول على الهواء. جاهدتُ كي أبقى واعية، بينما انهمرت الدموع على وجهي.

"أوه، هل ألمك ذلك؟ أنا آسف".

أرخصى السلسلة قليلاً، فاندفعت حنجرتي المعذبة تطلب نصيبها من الهواء.

"تبدين مثل سمكة كبيرة تعبّ الهواء عباً".

وقفتُ بمواجهته الآن، ولم تبعد عيناه عن عينيّ سوى سنتمترات قليلة. لم أستطع أن أميّز ملامحه إلا قليلاً، بسبب الألم الذي كان يعميني. كان وجهاً عادياً يصلح أن يكون وجه أي إنسان، أو وجه حيوان. ارتعشت زاويتي فمه، وكأنه سمع نكتة ما. أحاط الرجل شفتيّ بطرف سكين حاد.

أحسستُ بجفاف شديد في حلقي بحيث شعرتُ أن لساني قد التصق بحلقي عندما حاولتُ الكلام. بلعتُ ريقِي.

"أحبُّ أن..."

"أخرسي! أقتلي فمك اللعين! أعرف ما تحببنيه، وأعرف رأيك بي. أعرف رأيك بي جميعكّن. تعتقدن بأنني مجرد مهووس بالوراثة ينبغي التخلص منه. حسناً، إنني مثل أي شخصٍ آخر، لكنني أمتلك السيطرة هنا".

أمسك بالسكّين بقسوة جعلت يده ترتعش. بدت يده كيد شبح شاحبة تحت أضواء المشى، وبدت مفاصلها منتفخةً ومستديرةً بلونها الأبيض. إلهما قفازان جراحيان تمكنتُ من شمّ رائحتهما! أحسستُ أنّ نصل السكين قد شقّ خدّي قليلاً، كما شعرتُ بحرارةٍ تنساب نزولاً فوق ذقني. شعرتُ بأنني يائسة تماماً.

"ستمزقين ثيابك الداخلية قبل أن أنتهي منك، وسوف ترغيبين بي كثيراً. لكن هذا سيحدث في ما بعد، يا دكتورة برينان. أما الآن فلا تتكلمي إلا عندما أسمح لك".

كان يتنفس بصعوبة جعلت أنفه أبيض اللون. عبثت يده اليسرى بالسلسلة المعدّة لخنقي، وراح يلفّ حلقاتها حول راحة يده، ثم يتركها. "الآن، أخبريني". صمت مجدداً. "ماذا تفكرين؟" بدت عيناه باردتين وقاسيتين، مثلما كانت تديبات ما قبل التاريخ.

"هل تعتقدين بأنني مجنون؟"

لم أرد. راح المطر يضرب زجاج النافذة وراه.

جذب السلسلة مجدداً، وقرب بذلك وجهي من وجهه. مسحت أنفاسه العرق المتصبب على بشرتي.

"هل أنت قلقة على ابنتك؟"

قلتُ بصوتٍ محتقن: "ماذا تعرف عن ابنتي؟"

"إنني أعرف كل شيء عنك يا دكتورة برينان". بدا صوته خافتاً وحلواً مجدداً، كما بدت كلماته بذيفةً عندما خرقت أذني. بلعتُ ريقِي رغم ألمي. شعرتُ أنني بحاجة إلى أن أتكلّم، لكنني لم أرغب أن أستفزه. تغيّر مزاجي مثل أرجوحةٍ تتلاعب بها الأعاصير.

"هل تعرف أين هي؟"

"يُحتمل أن أعرف". رفع السلسلة مجدداً، لكن ببطء هذه المرة، وهكذا جذب ذقني إلى حدها الأقصى، ثم مرّ السكّين فوق رقبتِي بحركة ارتدادية بطيئة.

ومض البرق، فتحرّكت يده بعيداً عني. سألتني: "هل هي شديدة بما يكفي؟"

قلت بصوتٍ مختنقٍ: "أرجوك..."

أرخسي السلسلة قليلاً بحيث تمكنت من خفض ذقني. بلعت ريقِي، وأخذتُ نفساً عميقاً. شعرتُ بنيرانٍ تحرق حنجرتي، وأحسستُ بجروحٍ وانتفاخٍ في رقبتي. رفعتُ يديّ كي أمسح مكان الجروح، لكنه ما لبث أن دفعهما إلى الأسفل مستخدماً السلسلة التي قيّد معصميّ بها. وتحركَ فمه، مرةً أخرى، بما يشبه ارتعاشة أحد القوارض.

"أليس لسديك ما تقولينه؟" راح يحدّق بي بحدقتي عينيه السوداوين. ارتجف جفناه السفليان، مثلما فعلت شفتاه.

مرتعبة، رحتُ أفكّر بما فعلته الأخريات. تساءلتُ عما فعلته غايي.

رفع السلسلة إلى ما فوق مستوى رأسي وبدأ بزيادة الضغط. بدا المنظر مثل ولدٍ يعذب كلباً، لكن الولد مولعٌ بالإجرام. تذكّرتُ إلسا، كما فكّرتُ بالعلامات التي لاحظتها على جثة غايي. ماذا قال جاي. أس. وكيف يمكنني أن أستفيد من كلامه هذا؟

"أريد أن أتحدث إليك، أرجوك. لماذا لا نذهب إلى مكانٍ ما حيث يمكننا أن نتناول شراباً، وكذلك..."
"أيتها الساقطة!"

ارتفعت يده، وما لبثت السلسلة أن ضاقت حول عنقي. اخترقت رأسي ورقبتي سهام الألم. رفعتُ يديّ تلقائياً، لكنهما كانتا باردتين، وغير قادرتين على فعل أي شيء.
"أعرف أنّ الدكتوراة الكبيرة لا تتناول الشراب، أليس كذلك؟ يعرف الجميع هذه الحقيقة".

رأيتُ، من خلال دموعي، أجفانه تتقافز بجنون. وصل جنونه إلى حدّه الأقصى. ساعدني يا الله. ساعدني!

"أنت مثل الأخريات جميعهنّ. تظنين بأنني معتوه، أليس كذلك؟"

طلب دماغني تنفيذ أمرين: الهرب، والعثور على كاتي.

أمسكني وسط أنين الرياح وضربات المطر على زجاج النوافذ. سمعتُ من بعيد صوت بوقٍ. وتمازجت رائحة عرقه مع رائحة عرقِي أنا. تسمرت عيناه،

اللسان جمدهما الجنون حتى أصبحنا كالزجاج، على وجهي. انطلق قلبي ينبض
بوحشية.

كسر شيء ما جدار الصمت في غرفة النوم، فتصلبت أجنافه لبرهة، وتوقف
قليلًا، وأمسك عن فعل أي شيء. ظهر بيردي في مدخل الغرفة، وراح يُصدر
ضحيجًا تراوح ما بين العويل والأنين. تحوّلت عينا فورتييه نحو الظلال الفاتحة
اللون الموجودة في الغرفة، فاغتنمت هذه الفرصة.

حررتُ ساقِي، ودفعْتُها إلى الأعلى ما بين ساقيه. ركزتُ كل الخوف
والكراهية اللذين سيطرا عليّ في قوة هذه الضربة. واصطدمت ذقني بقوة في منطقة
الهدف. صرخ، وتراجع إلى الوراء. حررتُ هائيّ السلسلة من يديه، واستدرتُ، ثم
اندفعتُ راکضةً في أنحاء الغرفة. شعرتُ أنّ الخوف والألم يدفعاني، لكنني كنتُ
مثل شخص يسير بحركة بطيئة.

تعافى ذلك النذل من صدمته بسرعة، فتحولت صرخة ألمه إلى عويلٍ ناتج عن
الغضب.

"أيتها السافلة!"

سرتُ من خلال الرواق الضيق، وكدتُ أتعثّر بالسلسلة التي تلاحقني.

"سأقضي عليكِ أيتها السافلة!"

سمعتُهُ يجري ورائي، وترتحتُ وسط الظلمة، ورحتُ أنفسي مثل حيوانٍ
يائسٍ. أنت ملكي الآن! لن تستطيعي الإفلات مني!"

ترنحتُ حول زاوية الغرفة، ورحتُ أحرّك يديّ في محاولة يائسة مني كي
أتخلص من السلسلة التي تقيّد معصمي. تحوّلتُ في لحظةٍ إلى ريبوت (إنسان آلي)
حيث يتولى نظامي العصبي عصا القيادة.

"أيتها الساقطة!"

رأيتُهُ يقف ما بيني وبين المدخل الأمامي، فاضطرتُ إلى اختصار طريقي،
وتوجّهتُ نحو المطبخ! سيطرت عليّ فكرة واحدة: توجّهي نحو الأبواب
الزجاجية!

تحركت يدي اليمنى، وتحورتُ من السلسلة.

"أيتها الساقطة! أنت ملكي الآن!"

وجدتُ نفسي في المطبخ بعد خطوتين، واخترقني ألمٌ شديدٌ مجدداً اعتقدتُ معه بأن رقبتي قد انخلعت. فلقد اندفعت ذراعي اليسرى إلى الأعلى بينما ارتدَّ رأسي إلى الوراء. إذ كان قد وضع يده على السلسلة التي تقيّد رقبتي وجرتني. شعرتُ برغبةٍ شديدةٍ للتقيؤ، بينما انقطع الهواء مجدداً عن رئتيّ.

حاولتُ أن أحرّر عنقي بيدي غير المقيدة، لكن كلما جذبتُ السلسلة بعيداً عني، كلما جذب هو بقوةٍ أكبر كي يخنقني. تحركتُ يمنةً ويسرةً، لكن السلسلة أخذت تشق طريقها بعمق في رقبتي.

بدأ يجذب السلسلة ببطء، وهكذا وجدتُ نفسي أقرب منه أكثر فأكثر. أحسستُ بارتجاف جسده وارتعاشاته مع تذبذب السلسلة. أخذ يقصّر قيدي حلقةً فحلقة. بدأتُ أشعر بالدوخة، واعتقدتُ بأنني على وشك أن يُغمى عليّ.

جاء صوته كالفحيح: "سأحاسبك على ذلك أيتها العاهرة!"

بدأتُ أشعر بالوخز في وجهي وأطراف أصابعي نتيجة افتقادي إلى الأوكسجين، وأخذتُ أذناي بالطنين، مثل طبلٍ فارغٍ. أحسستُ بالغرفة تدور من حولي. تناثرت بقع كثيرة في منتصف حقل الرؤية عندي، وما لبثت أن تجمعت، ثم انتشرت خارجاً مثل الغيوم الركامية السوداء. رأيتُ من خلال الغيمة المتراكمة بلاطه خزفيةً تتجه صوبي ببطء. شاهدتُ يديّ تمتدان خارجاً أثناء اندفاعي إلى الأمام. حسبتُ نفسي مضيفاً عدم الحس يتعثّر براكبه الطفيلي.

اصطدم بطني بطاولة المطبخ أثناء تقدمنا البطيء، وارتطم رأسي بخزانةٍ معلقةٍ. أرخى الرجل قبضته على السلسلة، لكنه ظل يتقدم من خلفي.

وقف الرجل خلفي تماماً بعد أن باعد ما بين رجليه، فدفعني هكذا نحو طاولة المطبخ. اصطدمتُ بغسالة الأطباق من الوسط فألمتني كثيراً، لكنني تمكنتُ من التنفس.

بدأ صدره يعلو ويهبط، وأحسستُ بتوتر كل عضلة من عضلاته، فبدأ مثل وتر القوس الذي شدَّ كي يُطلق رمحاً. استعاد قبضته على السلسلة بحركة دائرية من معصمه، كما دفع برأسي إلى الخلف بحركة منحنية مرتدة إلى الوراء. مدَّ يديه بعد ذلك، ووضعهما حول رقبتي واضعاً طرف السكين تحت زاوية فكّي. أصبح شريانِي السباتي تحت رحمة الفولاذ البارد. شعرتُ بأنفاسه تضرب خدي الأيسر.

أمسكني لفترةٍ خلقتها دهرًا، بقيَ رأسي مشدوداً إلى الخلف، بينما تدلت يداي في حالةٍ عجزٍ عن القيام بأي شيء، وبدتاً مثل جثةٍ معلقةٍ بخطافٍ. خلعت أنفي أراقب نفسي من خليجٍ واسع، أي أنني كنتُ مثل متفرجةٍ مرتعبةٍ، لكنها عاجزة عن تقديم المساعدة.

وضعتُ يدي اليمنى على طاولة المطبخ، وحاولتُ أن أدفع باتجاهها كي أرفع جسمي، وأخفف من وطأة السلسلة. لمست شيئاً موضوعاً على سطح الطاولة. كانت علبة عصير البرتقال، بينما استلقى السكين إلى جانبها. بصمت، التفتُ أصابعي حول المقبض. حاولتُ أن أنشج، وتظاهرتُ بالأين. أردتُ تحويل انتباهه.

"اهدئي أيتها الساقطة! سنبدأ بلعبتنا الآن. أنت تحمين الألعاب، أليس كذلك؟"

أردتُ السكين بعنايةٍ شديدةٍ، ورحتُ أئنّ بصوتٍ عالٍ كي أخفي أي حفيفٍ قد يصدر.

أرتعشت يدي، فترددتُ قليلاً. فجأةً، رأيتُ النساء من جديد، وتخيّلتُ ماذا فعل بمنّ. شعرتُ بالرعب الذي أحسسن به، وعرفتُ ماذا يعني اليأس النهائي. افعليها!

تدفق الأدرينالين، وانتشر في أنحاء صدري وأطرافي، مثلما تتدفق الحمم فوق سفح الجبل. صممتُ ألا أموت كجرذٍ في حفرةٍ إذا ما كُتب الموت عليّ. سأموت وأنا أهاجم عدوي وسط دويّ البنادق. عاد عقلي للتركيز، فأصبحتُ مشاركةً فعالةً في صنع مصيري. تمسكتُ بالسكين بقوةٍ شديدة، ووجهتُ النصل إلى الأعلى، ثم قدّرتُ الزاوية. ودفعتُ بكل ما أوتيتُ من قوة، من فوق جسدي وكتفي اليسرى، وجمعتُ أشنات قوتي من الخوف، واليأس، والرغبة بالثأر.

اصطدم حد السكين بالعظم. انزلق قليلاً، ثم انغرز في طراوة هشّة. لم تكن صرخته السابقة شيئاً يُذكر إذا ما قورنت بالصرخة التي انطلقت من حنجرته الآن. اندفع إلى الخلف بينما نزلت يده اليسرى إلى الأسفل، وأحسستُ بيده اليمنى تمرّ من فوق عنقي. وتساقطت نهاية السلسلة على الأرض فأرخت قبضتها المميّنة.

شعرتُ بألمٍ في أنحاء عنقي، ثم أحسستُ بشيءٍ رطب. لم أهتم لذلك، لأن الشيء الوحيد الذي احتجته كان الحصول على الهواء. حصلتُ بيأس على جرعات منه، ومددتُ يدي كي أتحرر من حلقات السلسلة، وأحسستُ بما تأكدتُ من أنه دمي أنا. سمعتُ من خلفي صرخةً حادةً أخرى. كانت صرخةً غريزيةً، مثل صرخة الموت التي تصدر عن حيوانٍ مفترسٍ. تشبثُ بطاولة المطبخ، وأمسكتُ بها جيداً، ثم التفتُ كي أنظر.

رأيتُه مترنحاً إلى الخلف عبر المطبخ واضعاً يده فوق وجهه، بينما مدَّ يده الأخرى كي يحافظ على توازنه. انطلقت أصواتٌ مريعةٌ من فمه المفتوح أثناء ارتطامه بالجدار، وذلك قبل أن ينزلق ببطء نحو الأرض. تركت يده المدودة أثراً أسود اللون على الجدار. ظلَّ رأسه، لبرهة، يترنح إلى الخلف وإلى الأمام ثم تصاعدت أنة خافتة من حنجرته. انسدلت يده إلى الأسفل، واستقر رأسه، بينما تدلت ذقنه نحو الأسفل، أما عيناه فتركزتا على الأرض.

وقفتُ جامدةً في هذا السكون الذي حلَّ فجأة، ولم أسمع سوى أصوات أنفاسي اللاهثة، وأنيبه المتلاشي. بدأتُ بإدراك الأشياء المحيطة بي من خلال ألمي: حوض جلي الأطباق، الموقد، النلاجة. كانت كلها غارقةً في سكونٍ مميتٍ. شعرتُ بشيءٍ زلق ينساب من تحت قدمي.

حدقتُ في هذا الجسم الملقى بلا حراك على أرضية مطبخي، ورأيتُ ساقيه الممددتين إلى الأمام، بينما استقرت ذقنه على صدره، أما ظهره فكان مستنداً إلى الجدار. تمكّنتُ وسط العتمة من رؤية بقعة داكنة ممتدة على صدره تنجس نحو يده اليسرى.

ومض البرق مثل مشعل التلحيم، فأثار كل شيء في المطبخ. بدا جسده أملس ومصقولاً بفعل ذلك اللون الأزرق الذي غلّفه. امتد غشاه باللونين الأزرق والأحمر فوق رأسه، فبدا شعره ملبداً فتحوّل رأسه بذلك إلى شكل بيضاوي عديم الملامح.

برز مقبض سكين اللحم من عينه اليسرى، فظهرت السكين مثل عصا علم رفعت على مساحة للعبة الغولف. انسابت الدماء من وجهه ورقبته، فجعلت كنزته قائمة اللون. لاحظتُ أنه توقف عن الأنين.

أحسستُ بما يشبه الاحتناق، وعادت تلك البقع التي لا حصر لها إلى مجال بصري. شعرتُ بارتخاء في ركبتيّ، لذلك حاولتُ الاستناد إلى طاولة المطبخ. جهدتُ كفيّ أنفَسَ بعمقٍ أكبر، ورفعتُ يدي إلى عنقي كي أتخلّص من السلسلة. أحسستُ بلزوجةٍ حارّة. أنزلتُ إحدى يديّ وحدثتُ جيداً. أوه، نعم. أنا أنزف.

تحركتُ باتجاه الباب، وشغلتُ تفكيري بكاتي، وبالوصول على المساعدة، وفجأةً تسمرتُ في مكاني عند سماعي صوتاً مفاجئاً. سمعتُ انزلاق الحلقات الفولاذية! وومضتُ الغرفة باللونين الأبيض والأسود.

شعرتُ بالعجز عن الركض فالتفتُ خلفي. تحرك نحوِي، بصمت، ظلّ داكن. سمعتُ صوتي أنا، ثم رأيتُ آلاف البقع، بينما لفتُ غمامةً سوداء كل الأشياء المحيطة بي.

سمعتُ، من بعيد، عويل صفارات الإنذار، وتناهدت أصوات مختلفة إلى سمعي. شعرتُ بضغط فوق حنجرتي. فتحتُ عينيّ بسبب الضوء والحركة. انحنى فوقِي شكلٌ ما. شعرتُ بيدٍ تضغط على عنقي.

مَنْ هو هذا الشخص؟ وأين أنا؟ هل أنا موجودة في غرفة معيشتي؟ عادت إليّ بعض الذكريات، وشعرتُ بالهلع. بذلتُ مجهوداً كبيراً كي أجلس. "انتبهوا. انتبهوا. إنها على قيد الحياة".

شعرتُ بأيدٍ تضعني على الأرض. سمعتُ صوتاً مألوفاً لديّ. لم أتوقع سماع هذا الصوت لأنه كان من خارج دائرة صداقاتي.

"لا تحركي. خسرتِ كمية كبيرة من الدماء، لكن سيارة الإسعاف في طريقها إلى هنا".

إنه كلوديل.

"أين؟ أنا..."

"أنت بأمان بعد أن قبضنا عليه".

قال شاربونييو: "أو على ما تبقى منه".

"أين كاتي؟"

"استريحي الآن. هناك جرحٌ في حنجرتك، وفي الجهة اليمنى من رقبتك. ستنزفين إذا ما حرّكتِ رأسك. خسرتِ كمية كبيرة من الدماء. لا نريد أن نخسرك الآن."

"وماذا بشأن ابنتي؟"

طافت وجوه الحاضرين من فوقي. ومض البرق في تلك اللحظة، فظهرت وجوههم باللون الأبيض.

راح قلبي ينبض بشدة، وشعرتُ بالاختناق: "أين كاتي؟"

"إنها بخير، وتلهف كي تراك، لكنها الآن برفقة أصدقائها."

"اللجنة!" تحرك كلوديل بعيداً عن الأريكة. "أين أصبحت سيارة الإسعاف؟"

مشى نحو الغرفة وتطلع نحو شيء ملقى على أرض المطبخ، ثم عاد ونظر إليّ

وقد ظهرت ملامح غريبة على وجهه.

تصاعد صوت سيارة الإسعاف بحيث ملأ الشارع الصغير. مرّت لحظة قبل أن

أرى الوميض الأحمر والأزرق خارج الأبواب الفرنسية.

قال شاربونيو: "استريحي الآن. إنهم هنا. سنتأكد من أن ابنتك بخير. انتهى

الأمر."

ما زلتُ أعاني من ثغرة في ملفات ذاكرتي الرسمية. بقيَ اليومان التاليان في مكافئهما، لكنهما تميزا بالتشوش، لكنهما خارج موقعهما الزمني. يحتفظ هذان اليومان بمجموعة مفككة من الصور والمشاعر التي ترد على ذهني ثم تتلاشى من دون رابط منطقي.

تذكرتُ وجود الساعة وأرقامها التي لا تثبت على وضع واحد، والألم، والسيدتين اللتين تجرّاني، والفحص، ورفع جفوني، والأصوات، ونافذة مضاءة، وأخرى غير مضاءة.

تذكرتُ الوجوه: وجه كلوديل الصلب الذي بدا وسط الضوء، ووجه جويل تامبو الذي واجه أضواء الشمس اللاهبة، ووجه رايان الغارق في لون المصباح الأصفر أثناء انشغاله بتقليب الأوراق ببطء شديد، كما أنّ ألوان جهاز التلفزيون الزرقاء قد انعكست هي الأخرى على ملامح وجهه.

دخلت جسمي كمية من الأدوية تكفي لتخدير جيشٍ بكامله، وهكذا صعب عليّ أن أفصل ما بين فترات النوم بتأثير المهدئات، وبين حقائق اليقظة. تمازجت الأحلام والذكريات ودارت مثل إعصار يدور حول مركزه. لم تنفع محاولاتي المتكررة، التي هدفت إلى ترتيب تحركاتي في ذلك الوقت، في تصنيف صور هذين اليومين.

عاد الاتساق إلى ذاكرتي بحلول يوم الجمعة.

فتحتُ عينيّ على ضوء الشمس الساطع، ورأيتُ ممرضةً تعدّل انسياب الحقنة الوريدية. عرفتُ على الفور مكان تواجدي. أصدر شخصٌ ما يقف إلى يميني

أصوات قرقعة خافتة. أدتُ رأسي فشعرتُ بألمٍ شديدٍ. استنتجتُ من الألم المتقطع في عنقي أنه من الأفضل لي أن أمتنع عن الحركة.

جلس رايان على كرسي بلاستيكي، واهتمك بإدخال معلوماتٍ إلى حاسوب جيب (منظّم) يحمله في يده.

"هل سأعيش؟" بدت كلماتي هذه نوعاً من التمتمة.

قال مبتسماً: "يا إلهي!"

بلعتُ ريقِي وكررتُ سؤالِي. أحسستُ أنّ شفّيّ متصلبتان ومتورمتان.

تناولت الممرضة معصمي، ووضعت أطراف أصابعها فوقه، ثم حدّقت بساعة يدها.

"هكذا يقولون". وضع رايان حاسوبه الصغير في جيب قميصه ونهض، ثم اقترب من سريري. "تعانين من ارتجاج، وتمزّق في الجهة اليمنى من الرقبة والعنق، بالإضافة إلى خسارة كمية كبيرة من الدماء. سبع وثلاثون قطبة على يد أمهر الجراحين. توقعات ما بعد العلاج: ستعيشين."

نظرت إليه الممرضة بنظرة توبيخ، وقالت قبل أن تغادر: "عشر دقائق".

اخترق جزء من ذاكرتي حاجز الأدوية.

"أين كاتي؟"

"استريح الآن. ستكون هنا بعد قليل. سبق لها أن جاءت إلى هنا من قبل،

لكنك لم تكوني واعية".

نظرتُ نحوه متسائلة.

"حضرت إلى الشقة مع صديقي لها قبل مغادرتك بسيارة الإسعاف. قالت إنه فتح تعرفه من ماك جيل. كان قد سبق لها أن حضرت إلى شقتك في ذلك المساء، لكن من دون أن تُحضر المفتاح معها وتمكنت من الدخول من خلال الباب الخارجي. يبدو أنّ أحد جيرانك لا يهتم بإجراءات الأمن". شبك إمامه بحزام سرواله. "لكنها لم تتمكن من الدخول إلى شقتك. اتصلت بمكتبك من دون نتيجة، ولذلك تركت حقيبتها كي تعلمك بأنما وصلت إلى المدينة، ثم انضمت إلى صديقها، أيتها السيدة الوالدة!

أرادت أن تعود وقت الغداء، لكن هبوب العاصفة منعها، وهكذا بقي

الرقيقان في هيرلي، وتناولوا بعض المشروب. حاولت أن تتصل، لكنها لم تفلح.

كادت تنهار عندما وصلت إلى الشقة، لكنني استطعتُ أن أهدتها قليلاً. كلَّفتُ أحد أفراد الشرطة الموجين بمساعدة الضحايا كي يظل على اتصالٍ معها، وكي يُعلمها بالمستجدات. عرض عدة أشخاص استضافتها، لكنها فضَّلتُ البقاء برفقة صديقتها. اعتادت الحضور إلى هنا كل يوم، وتريد أن تراك بأي طريقة".

ذرفتُ دموع الارتياح رغم محاولتي منعها. حصلتُ على منديل ورقي، ونظرة تعاطف من رايان. بدت يدي غريبةً بعض الشيء فوق غطاء السرير الأخضر اللون، فظهرت وكأنها يد شخصٍ آخر. أحاط سوار بلاستيكي بمعصمي. تمكنتُ من ملاحظة وجود بقع صغيرة من الدماء تحت أطافري.

عادت إلي بعض شذرات من ذاكرتي. رأيتُ وميض البرق، ومقبض السكين.

"ماذا حدث مع فورتية؟"

"سنتحدث عنه لاحقاً".

"بل الآن". ازداد الألم في رقبتي. أدركتُ أن لا مزاج لي لتبادل الحديث لمدة

طويلة، كما أنّ فلورنس ناتينجايل ستعود بعد وقت قصير.

"فقَدَ السندل كميةً كبيرةً من الدماء، لكن الطب الحديث أنقذه. فهمتُ أن نصل السكين جرح وُقْب العين، لكنه انزلق نحو العظم الغربي، الذي يقع في مقدمة الدماغ، لكن من دون أن يخترق الجمجمة. سيفقد الرجل عينه، لكن جيوبه الجبهوية ستظل سليمة".

"يا لك من مشاغب يا رايان!"

"دخل الرجل إلى بنايتك من خلال باب المرآب الذي لا يقفل، ثم انتزع قفل باب شقتك. لم يتواجد أحد غيره في الشقة، وهكذا تمكّن من تعطيل جهاز الأمان، وقطع الطاقة الكهربائية عن الشقة. لم تلاحظي ذلك، لأن جهاز الحاسوب عندك يعمل على البطارية تلقائياً عند انقطاع الطاقة عنه، كما أنّ هاتف المنزل لا يرتبط بالكهرباء، ما عدا وحدة الهاتف النقالة. لا بد أنه قطع خط الهاتف بعد أن أجريت مكالمتك الأخيرة. يُحتمل أن الرجل كان في الشقة عندما حاولت كاتي أن تفتح الباب من دون طائل، وهو الأمر الذي اضطرها إلى ترك حقيبتها".

شعرتُ بوخزة باردة من الخوف. تذكّرتُ اليد الساحقة، وذلك الطوق الخانق.

"أين هو الآن؟"

"إنه هنا".

جهدتُ لأجلس، لكنني شعرتُ بألمٍ في معدتي. دفعني رايان برفقي نحو
الوسادة.

"يخضع الرجل لحراسةٍ مشددةٍ، يا قهّب. لن يتمكن من الذهاب إلى أي
مكان".

قلتُ بصوتٍ مرتجفٍ: "هل هو سان جاك بذاته؟"

"ستتحدث لاحقاً عن هذا الموضوع".

فكّرتُ بطرح ألف سؤال، لكن الأوان فات لذلك، إذ أحسستُ أنني أعود
إلى دائرة الفراغ التي أحاطت بي في اليومين الماضيين.

عادت الممرضة ورمقت رايان بنظرة توبيخ. لم أشاهده وهو يغادر.

رأيتُ، عندما استيقظتُ في المرة التالية، رايان وكلوديل قرب نافذة الغرفة
يتحدثان بهدوء. سادت الظلمة في الخارج. كنتُ أحلم بمجويل وجولي.

"هل حضرت جويل تامبو إلى هنا؟"

التفت الرجلان نحوي.

أجاب رايان: "أتت يوم الخميس".

"وماذا بشأن فورتييه؟"

"نقلوه من هنا بحالة حرجة".

"هل اعترف بشيء؟"

"أجل".

"هل هو سان جاك بذاته؟"

"أجل".

"وماذا قال أيضاً؟"

"أعتقد أنه يمكننا تأجيل الحديث بهذا إلى أن تتحسن صحتك".

"أخبرني".

تبادل الرجلان النظرات، ثم اقتربا مني. تنحنح كلوديل.

"يدعى الرجل ليو فورتييه، ويبلغ الثانية والثلاثين من عمره. يعيش في الجزيرة
مع زوجته وولديه. ينتقل بين وظيفةٍ وأخرى، لكنه لا يشغل وظيفة ثابتة. تورط

هو وغرايس داماس في علاقة غرامية في عام 1991. التقيا أثناء عملهما في ملحة (محل جزارة)."

"تدعى لا بوشيري سان دومينيك".

نظر كلوديل إلي بغرابة: "روي. ساءت الأمور بينهما، فهددته بإبلاغ الزوجة بالعلاقة، وبدأت في ابتزاز الأموال من عشيقها. وصل الرجل إلى نقطة لم يعد يقدر بعدها على احتمالها. عندها طلب منها أن تلاقيه في الملحة بعد ساعاتٍ عديدةٍ. قتلها هناك وقطع جنتها".

"إنها مخاطرة كبرى".

"كان المالك خارج المدينة، لذلك أقفل المحل لعدة أسابيع. تتواجد كل العدة الضرورية في المحل. قطع جنتها على أي حال، نقلها إلى سان لامبرت، ثم دفنها في أرض الموناستير. يبدو أن خاله هو المكلف بالإشراف على الموناستير وأراضيه. إما أن العجوز قد أعطاه المفتاح، أو أن فورتييه قد ذهب من تلقاء نفسه".

"هل يدعى العجوز إميل روي؟"

"روي".

رمقني بالنظرة ذاتها مجدداً.

قال رايان: "هذا ليس كل شيء. استخدم الموناستير من أجل الإيقاع بتروتييه وغاغنون. أحدهما إلى هناك، وقتلها، ثم قطع جسديهما في الطابق السفلي. نظّف المكان بنفسه، وهكذا لم يشك روي بشيء، لكن عندما قام جيلبير ورجاله هذا الصباح برشّ الطابق السفلي برذاذ اللومينول، اشتعل المكان مثلما يشتعل جمهور لعبة أورانج بال بالحماسة في وقت منتصف المباراة".

قلت: "وهكذا استخدم الطريقة ذاتها للدخول إلى لا غراندي سيمينايير".

"أجل. يقول إنّ الفكرة خطرت على ذهنه عندما كان يلاحق شانتال تروتييه. يقع منزل والدها قرب المنعطف. يحتفظ روي بلوحة في الموناستير تحتوي على مختلف مفاتيح دار العبادة، وكلها مرتبة ومعلقة على خطافات. أخذ فورتييه المفتاح الذي يريده بكل بساطة".

قال رايان: "أوه. قال جيلبير إنه يحتفظ بمنشار طهارة من أجلك. أضف إنه

يلمع".

لا بد أنه رأى شيئاً في وجهي.

"متى تتحسن صحتك؟"

"أنا متشوقة للخروج". بذلت أقصى جهدي، لكن دماغي المتضرر شرع بالتراجع مجدداً.

دخلت الممرضة إلى الغرفة.

قال **كلوديل**: "إنه حديث رجال الشرطة".

وضعت ذراعيها فوق صدرها بشكل متصالب، وهزت رأسها.
"اخرجنا من فضلكما".

قادت الممرضة الرجلين إلى خارج الغرفة بسرعة، لكنها عادت بعد برهة. لم تعد وحدها، لأنها اصطحبت كاتي معها. عبرت ابنتي الغرفة من دون أن تقول أي كلمة، وشبكت يديّ الاثنتين بيديها. ملأت الدموع عينيّ.

قالت بصوت خافت: "أحبك يا أمي".

اكتفيت بالنظر إليها لبرهة من الزمن، لكن عدداً لا يحصى من المشاعر اختلج في أعماقي: الحب، الامتنان، العجز. أحبّ هذه الفتاة كثيراً أكثر من كل شيء آخر في هذا العالم، وأتمنى لها السعادة من كل قلبي، كما أريد لها أن تكون بأمان. شعرتُ بأنني عاجزة تماماً عن تقديم أي من هذين الأمرين لها. أحسستُ بالدموع تجري على خديّ.

"وأنا أحبك يا عزيزتي".

قربّت كرسيّاً، وجلست بمحاذاة سريري، لكنها لم تترك يديّ. عكس ضوء الفلوريسينت هالة من اللون الأشقر حول رأسها.

تنحنحت وقالت: "أقيم الآن عند هونيكا. إنها تقصد ماك جيل من أجل دراستها الصيفية، وتعيش في منزلها. تعني أسرتها بي جيداً". سكتت قليلاً، وترددت في ما تقوله وما لا تقوله. "يمكنك بيردي معنا".

تطلعت نحو النافذة، ثم عادت بنظرها نحوي.

"يتصل بي رجل شرطة مرتين في اليوم، وهو مستعد لإحضاري إلى هنا متى أريد". انحنيت إلى الأمام وأسندت ساعديها على السرير. "لم أجدك مستيقظة في أحيان كثيرة".

"أنوي أن أتحسن".

ابتسمت بعصبية: "يتصل بي والدي كل يوم كي يتأكد إن كنتُ أحتاج شيئاً، وليسأل عنك".
انضمت مشاعر الذنب والخسارة إلى المشاعر الأخرى التي عصفت بي: "أبلغيه أنني بخير".

عادت المريضة مهدوءة ووقفت إلى جانب كاتي التي وقفت بدورها وهي تقول: "سأعود غداً".

حصلتُ على الدفعة التالية من أخبار فورتييه في الصباح التالي.

"أقدم الرجل منذ أعوام عدة على ممارسات جنسية غير مشروعة. يرجع سجل أعماله هذه إلى العام 1979. أقدم على احتجاز فتاة لمدة يوم ونصف اليوم عندما كان في الخامسة عشرة من عمره، لكن من دون أن يجني شيئاً من عملية الخطف. لم ترفع الجدة الأمر إلى القضاء، لذلك لم يتضمن سجله إلقاء القبض عليه في تلك الفترة. اعتاد الرجل أن يختار امرأة، ويلاحقها، ثم يسجل أنشطتها. قبض عليه أخيراً بتهمة تنفيذ اعتداء في العام 1988..."
"الجدة".

تلقيتُ نظرةً أخرى من نظرات كلوديل المعتادة. لاحظتُ أنّ ربطة عنقه الحريرية تتناسب تماماً مع لون قميصه البنفسجي.

"وي. أمرت المحكمة بتعيين طبيب نفسي لمعالجته في وقت وصفته فيه بأنه رجلٌ مذعورٌ ومولعٌ بالإكراه". التفت نحو رايان وقال: "ماذا كتب ذلك الطبيب النفسي إضافة إلى ذلك؟ الغضب العارم، قابلية للعنف، وعلى الأخص تجاه النساء؟"

"لهذا السبب حُكم عليه بالسجن ستة أشهر قبل أن يُطلق سراحه. إنه أمر غير مستغرب".

اكتفى كلوديل هذه المرة بالتحديق بي. فرك عينيه في منطقة أرنبة أنفه، ثم تابع حديثه.

"في ما عدا أن الأمر يتعلق بنفي وجدته. لم يفعل فورتييه، حتى هذه المرحلة أشياء تتعدى أموراً تافهة. استعجل الرجل كثيراً في قتل غوايس داماس، وقرّر أن

ينتقل إلى أشياء أكثر أهمية. عمد الرجل إلى استئجار أول مخبأ له. أما ذلك المخبأ الموجود في شارع بيرغر فهو أحدث مركز له".
علّق رايان: "لم يرغب الرجل أن يتشارك بهويته مع تلك السيدة الصغيرة التي تشاركه منزله".

"كيف استطاع تأمين قيمة الإيجار من وظيفة بدوام جزئي؟"
"لديه زوجة موظفة. يُحتمل أنه ينتزع قيمة الإيجار منها، بعد أن يلقّق لها كذباً ما. يُحتمل أن تكون لديه هواية أخرى نجعلها. سنعرف تفاصيل أكثر بالتأكيد".

تابع كلوديل روايته تفاصيل القضية بشكل حيادي.
"بدأ في العام التالي بملاحقة النساء جدياً، وبشكل منهجي. كنت على حق بشأن المترو، ويبدو أنه يحب الرقم ستة. يبدأ الرجل بتجاوز ست محطات، ثم يلاحق امرأة تتناسب مع الموصفات التي يضعها. كانت فرانسيس موريسيت - شامبو ضحيته العشوائية الأولى. إذ كان يستقل عربة المترو في محطة بيري - جامعة كيبك ومونتريال، ويترجّل في محطة جورج - فانييه كي يتبع ضحيته حتى منزلها. يستمر الرجل في تتبع المرأة لأسابيع عديدة قبل أن يبدأ بالانقضاء عليها".

فكّرتُ في كلماته وشعرتُ بموجة من الغضب. أرادت تلك المرأة أن تشعر بالأمان، وأن أحداً لا يستطيع إيذاءها داخل منزلها. إنّ هذا هو أقصى ما تحلم به الأنثى. أعادني صوت كلوديل إلى عالم الواقع.
"حمّل هذا النوع من الملاحقة مخاطرةً كبرى لأنه لا يستطيع التحكم به. خطرت على ذهنه فكرة الاستفادة من لافتات العقارات عندما رأى واحدة منها معلقةً أمام منزل موريسيت - شامبو. إنّها العذر المثالي الذي يمكنه من الدخول إلى المنازل".

شعرتُ بألم كبير في أعماقي: "وماذا عن تروتييه؟"
"تروتييه. قرّر الرجل استخدام الخط الأخضر هذه المرة. عبّر ست محطات، وترجّل في أتواتر. استمرّ بالتحوال حتى شاهد لافتة. كانت لافتة تعرض منزل والدها للبيع. واطب على المراقبة بصبرٍ كبير، وراقب شانتال في ذهابها وإيابها.

يقول ذلك المجرم بأنه لاحظ وجود شعار مدرستها على الزي الذي ترتديه، ودفعه هذا إلى الذهاب إلى مدرستها لأيام عديدة. ونصب كمينه بعد ذلك".
علّق رايان: "وجد الرجل في هذا الوقت مكاناً أكثر أماناً يصلح لقتل ضحاياه".

"الموناستير. إنه المكان المثالي لهذه الغاية. لكن، كيف استطاع إقناع شانتال بالذهاب معه؟"

"تربّص بها في أحد الأيام حتى تأكد أنها وحدها. قرع الجرس، وطلب رؤية الشقة. قال إنه يرغب بشراء المنزل ويريد أن يراه من الداخل، لكنها رفضت أن تسمح له بالدخول. رآها بعد ذلك بأيام وهي تغادر المدرسة، وسار إلى جانبها. يا لها من صدفة! ادّعى بأنه على موعد مع والدها الذي تخلف عن الحضور. تعرف شانتال مدى تلهف والدها لبيع المنزل، وهكذا وافقت على مرافقته. نعرف ما تبقى من تفاصيل".

أزّ مصباح الفلوريسينت فوق سريري، واستمر بإصدار صوت خافت. تابع كلوديل حديثه.

"لم يرغب فورتييه في دفن جثة أخرى في أراضي الموناستير، وهكذا ساقها نحو سان جيروم. لم يعجبه ذلك المكان أيضاً. قدّر أن قيادة السيارة ستستغرق زمناً طويلاً، كما وضع في حسبانته أن يتم توقيفه من قبل الشرطة. سبق له أن رأى مدرسة الموناستير، وتذكّر المفتاح الذي يسمح له بدخوله. صمّم أن يرتب المسألة بطريقة أفضل في المرة القادمة".

"أتعني غاغنون؟"

"تعلم الرجل بطريقة منهجية".

"هكذا إذاً".

ظهرت المرضة في تلك اللحظة، لكنها بدت أصغر سناً، وألطف مما كانت عليه في الأيام السابقة. قرأت ملخص التقرير عن حالتي، ووضعت يدها على جبهتي، وقاست معدل نبضات قلبي. لاحظتُ، للمرة الأولى أن الحقنة الوريدية قد اختفت عن ذراعي.

"هل أنت متعبة؟"

"أنا بخير".

"تستطيعين الحصول على دواءٍ آخرٍ مضادٍ للألم إذا أردتِ".
قلتُ: "دعينا نرى كيف تسير الأمور".

ابتسمت لي ثم غادرت.

"وماذا حصل مع أدكينز؟"

قال رايان: "إنه يشعر بإضطراب كبير عندما يتحدث عن أدكينز، ثم يلتزم الصمت. يبدو أنه يفتخر بما فعله مع الأخرى، لكن شعوره تجاهها يختلف كثيراً".
رأيتُ عربة مليئة بالأدوية تعبر الممر، فيما دارت الدواليب المطاطية بصمتٍ فوق بلاطه.

"لماذا كانت أدكينز خارج النمط المعتاد؟"

حسَّ صوت آلي أحد الأطباء كي يتصل بالرقم 237.

لماذا كل هذا الاضطراب؟

فُتحت أبواب المصعد، ثم تناهى إليّ أزيز إغلاقها.

قلتُ: "لنفكر في هذا. يستخدم الرجل ذلك المكان في بيرغر، ويمتلك نظامه الخاص به والجهاز للعمل. يجد هذا المحرم ضحاياه في المترو، وإلى جانب لوحات للبيع. يقوم بعدها بملاحقة ضحاياه إلى أن تحين اللحظة المناسبة. إنه يمتلك مكاناً آمناً ينفذ فيه جرائمه، كما يمتلك مكاناً آمناً يستخدمه لإلقاء جثث ضحاياه فيه. تسير الأمور على ما يرام في هكذا نظام، ولهذا لم تعد هناك ضرورة للعجلة، وهكذا يندفع في مغامرات أكبر، ويقرر أن يعود إلى منزل ضحيته، مثلما فعل مع موريسيت - شامبو".

تذكّرتُ الصور الفوتوغرافية، وبذلة التمارين الرياضية المجمّدة، وبركة الدماء

الداكنة حول الجثة.

"أصبح الرجل مهملًا بعض الشيء. اكتشفنا أنه اتصل مسبقاً من أجل تحديد موعد مع مارغريت أدكينز. لم يحسب حساب أن الزوج سيتصل أثناء زيارته هذه. ترتّب عليه أن يقتلها بسرعة، كما كان عليه أن يقطعها بسرعة أيضاً، وأن يستخدم أدوات قريبة من متناول يده لتنفيذ عملية التشويه. أهي العملية وخرج، لكن بتسرّع، ومن دون أن يكون في حالة من يتحكّم بالوضع".

تذكرتُ التمثال الصغير، والثدي المقطوع.
أوماً رايان.

"يبدو هذا منطقياً. يُعتبر القتل آخر عمل يقوم به في سيناريو تخیلاته للسيطرة. يسمح له هذا السيناريو بقتل الضحية أو بالسماح لها بالعيش. ويسمح له بإخفاء جثتها أو عرضها، ويستطيع أن يحرمها من أعضائها التناسلية عن طريق قطع يديها، أو تدمير مهبلها. يستطيع أيضاً أن يجعلها عاجزةً تماماً عن طريق قطع يديها. لكن الزوج يتصل فجأة، ويهدّد بتدمير كل هذه الصورة الخيالية المثيرة".
قال رايان: "أفسدت السرعة الأمر برمته".

"لم يستخدم الرجل أشياء مسروقة قبل آدكينز. أعتقد بأنه استخدم بطاقتها المصرفية بعد ذلك كي يؤكد سيطرته على الأمور".
قال كلوديل: "أو يُحتمل أنه عانى من مشكلة سيولة، وأراد أن يتناع شيئاً من دون أن يمتلك قوةً شرائية".

علّق رايان بالقول: "يبدو الأمر غريباً. لا أستطيع إثبات جرائمه الأخرى، لكنه كان سريعاً جداً مع آدكينز".
لم يقل أحد شيئاً لمدة من الزمن.
حاولتُ تجنب ما عليّ معرفته، فسألتُ: "وماذا عن بيتري وغوتيه؟"
"يدّعي الرجل بأنه لم يقتلها".

تبادل رايان وكلوديل بضع كلمات، لكنني لم أسمعها. اجتاحتني قشعريرة ملأت صدري، وما لبث أن بدأ سؤال يتشكّل في ذهني. بدأ السؤال بالتشكّل، وعلق في ذهني، ثم انساب قبل أن يفرض صياغته بكلمات.

"وماذا عن غاي؟"

غضّ كلوديل بصره.

تنحى رايان.

"تعرّضتُ إلى..."

فاضت الدموع من عيني، لكنني كرّرتُ: "ماذا عن غاي؟"

أوماً رايان.

"لماذا؟"

لم ينطق أحد بكلمة.

جهدتُ كي أحافظ على هدوء صوتي: "يتعلق الأمر بي، أليس كذلك؟"
قال رايان: "هذا المعتوه مغفلٌ تماماً. يجنّ كي يفرض سيطرته. لم يُعطينا إلا معلومات قليلة عن طفولته، لكنه يَكُن غضباً شديداً تجاه جدّته بحيث يصعب علينا أن ننسى ما قاله عند مغادرتنا. إنه يحمّل هذه الجدة مسؤولية مشاكله كلها، ولا يتوقف عن القول إنها حطّمته. علمنا إنها امرأة تحب فرض سيطرتها على الدوام، بالإضافة إلى أنها امرأة متعصبة." أعتقد أنّ مشاعره بالعجز تعود إلى ما جرى بينهما في الماضي."
قال كلوديل: "نستنتج من ذلك أنّ الرجل فاشلٌ مع النساء، ويحمّل مسؤولية هذا الفشل إلى تلك العجوز".

"لكن ما علاقة كل هذا مع غايي؟"

بدا رايان متردداً في متابعة الحديث.

"استمتع فورتييه بالتلصّص في البداية. كان يراقب ضحاياه، ثم يتبعهن ويلاحقهن، ويعرف كل شيء عنهن، لكن من دون أن يعرف بوجوده. احتفظ الرجل بدفاتر ملاحظات، وقصاصات الجرائد، ثم كان يستمتع بعرض خيالي في ذهنه. كان يستمتع أكثر عندما لا تكون هناك مخاطرة بالرفض. ولم يعد هذا كافياً في النهاية. أقدم بعدها على قتل داماس، فاكتشف أنه استمتع بقتلها، ثم قرّر التوسّع مهنيّاً. مضى الرجل في خطف ضحاياه وقتلهن، كي يحصل على أقصى قدر ممكن من السيطرة. إنها لعبة الحياة والموت: يحتفظ بالسيطرة، ولا يمكن منعه من ارتكاب أي جريمة".

حدّثتُ في بحر الحدّقتين الزرقاوين.

"أتيت أنت وكشفت جثة إيزابيل غاغنون".

توقعتُ ما سيقوله، لذلك أكملتُ عنه: "إذا كنتُ أمثل تهديداً له".

"أفشلت نظامه بالكامل، شعر بوجود خطرٍ كاملٍ يتهدده، وتبيّن له أنّ الدكتوراة برينان هي السبب. تمكّنت أنت من تدمير تخيّلته بكاملها، وهي التخيّلات التي تجعله اللاعب الأقوى".

رحتُ أستعرض في ذهني الأحداث التي جرت في الأسابيع الستة المنصرمة.

"نبشتُ جثة إيزابيل غاغنون، وحدّدت هويتها، في وقت مبكر من شهر حزيران. أقدم فورتييه بعد ذلك بثلاثة أسابيع على قتل مارغريت أدكينز.

ظهرنا نحن في اليوم التالي في شارع بيرغر. اكتشفتُ هيكَل غرايس داماس العظمي بعدها بثلاثة أيام".

"إذا فهمت كل شيء".

"إنه غاضبٌ جداً".

"بالضبط. إن المطاردة هي طريقته في إظهار كراهيته إزاء النساء..."

قال كلوديل معلقاً: "أو كراهيته لجدته".

"يُحتمل هذا. اعتبرك الرجل عائقاً أمامه على أي حال".

"بالإضافة إلى كوني امرأة".

بدأ رايان بتناول سيجارة، لكنه تذكّر المكان الذي يتواجد فيه.

"ارتكب الرجل خطأً ثانياً. كانت آدكينز فوضوية بعض الشيء، لكن استخدامه بطاقتها المصرفية كاد يكلفه كثيراً".

"ولهذا السبب احتاج إلى شخصٍ كي يحمّله المسؤولية".

"لا يعترف الرجل بأنه انتهى، وبالتأكيد فهو لا يستطيع تحمّل وجود امرأة تعمل في سبيل القبض عليه".

"لكن لماذا اختار غايي، وليس أنا؟"

"من يدري؟ لعلها الصدفة؟ أو التوقيت؟ أو لعلها ظهرت أمامه قبلك".

قلتُ: "لا أظن ذلك، فمن الواضح أنه كان يطاردني طيلة فترة من الزمن. فلقد وضع جمجمة في حديقتي، أليس كذلك؟"

أوماً الجميع.

"كان يستطيع انتظاري ثم ينقض عليّ بعد ذلك، أي كما فعل مع الأخريرات".

قال كلوديل: "إنه مجرد نذل مهوس".

"لم تكن غايي كالأخريرات بالنسبة إليه، ولم تكن مجرد ضحية عشوائية محتملة. عرف فورتييه مكان سكني، كما عرف بأنها تسكن معي".

لاحظتُ بأنني أتكلّم مع نفسي أكثر مما كنتُ أتكلّم مع رايان وكلوديل. تكوّنت عندي ما يشبه الجلطة العاطفية على امتداد الأسابيع الستة الماضية، لكنني تمكّنتُ من السيطرة عليها عن طريق الإرادة، لكنها كانت تهدد بالانفجار في أي وقت.

"فَعَلَهَا عَمداً. أَرَادَنِي ذَلِكَ النَّذْلُ أَنْ أَعْرِفَ. كَانَتْ رِسَالَةً لِي، أَيِّ مِثْلَمَا كَانَتْ الْجَمِجِمَةُ".

بَدَأُ صَوْتِي بِالْأَرْتِفَاعِ مِنْ دُونَ أَنْ أَسْتَطِيعَ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَيْهِ. تَخَيَّلْتُ وَجُودَ مَظْرُوفِ أَمَامِ بَابِ شَقِي، وَمَجْمُوعَةَ بِيضَاوِيَةِ مِنَ الْأَحْجَارِ. رَأَيْتُ وَجْهَ غَايِي الْمَتُورِمِ بِكُلِّ زَخَارِفِهِ الْفِضِيَّةِ الصَّغِيرَةِ. تَخَيَّلْتُ أُخِيراً صُورَةَ ابْنَتِي.

انْفَجَرَ أُخِيراً بِالْوَيْهِ الْعَاطِفِيِّ ذُو الْغَلَّافِ الرَّقِيقِ، فَتَدَفَّقْتُ مِنْ خِلَالِ ثَقْبِهِ مَقْدَارَ أَسَابِيْعٍ مِنَ الْحَزَنِ وَالتَّوْتَرِ الْمَكْبُوتَيْنِ.

شَعَرْتُ بِوُجُودِ وَخَزَاتٍ لَا تَحْصِي مِنَ الْأَلْمِ فِي حَنْجَرَتِي، لَكِنِّي صَرَخْتُ: "لَا! لَا! لَا! أَيُّهَا النَّذْلُ الْعَيْنُ!"

سَمِعْتُ رَايَانَ يَتَكَلَّمُ بِحِدَّةٍ مَعَ كَلُودِيْلٍ، وَشَعَرْتُ بِيَدَيْهِ عَلَى ذِرَاعِي. رَأَيْتُ الْمَرْمُضَةَ، وَشَعَرْتُ بِوُخْزِ الْحَقْنَةِ. وَلَمْ أَشْعُرْ بِشَيْءٍ بَعْدَ ذَلِكَ.

43

زارني رايمان في منزلي نهار الأربعاء. أنهت الأرض سبع دورات لها حول نفسها منذ ليلة الجحيم التي مرت عليّ، وهكذا أُتيح لي أن أقوم بصياغة رسمية لما حدث معي. بقيت، رغم ذلك، بعض الثغرات التي أردت تسويتها.

"هل وُجّهت التهمة إلى فورتيه؟"

"وُجّهت خمس تم قتلٍ من الدرجة الأولى إليه نهار الإثنين."

"خمس تم؟"

"يُحتمل أن لا تكون له علاقة بقتل بيتري وغوتيه؟"

"أخبرني شيئاً. كيف عرف كلوديل أن فورتيه سيحضر إلى منزلي؟"

"لم يعرف، في الواقع. أيقن من أسلتك حول تانغواي أنه لا يمكن أن يكون الفاعل. تفحص هذا الأمر فوجد أن الأولاد يحضرون عند الثامنة وينصرفون عند الثالثة وخمس عشرة دقيقة. حاز تانغواي على شارة الحضور المثالي. لم يتغيّب الرجل يوماً واحداً منذ أن بدأ العمل. تأكد أيضاً من عدم وجود عطلاتٍ مدرسيةٍ في الأيام التي سألت عنها. عرف كذلك عن قضية القفزات.

عرف أنك مكشوفة ولهذا أسرع بالعودة إلى شقتك. وصل إلى هنا وحاول الاتصال بك هاتفياً، فوجده معطلاً. قفز كلوديل فوق بوابة الحديقة ووجد أن الأبواب الفرنسية غير مقفلة. لم تستطيعا سماعه بسبب انشغالكما بالعراك. كان يستطيع كسر الزجاج، لكنك فتحت المزلاج عندما حاولت الإفلات منه."

كلوديل. تحرك الرجل لإنقاذي مجدداً.

"هل استجدّ شيء؟"

"وجدوا حقيبة رياضية في سيارة فورتية. احتوت هذه أطواقاً خانقة، وعدة سكاكين تصلح للصيد، وصندوقاً من القفزات الجراحية، ومجموعة من الثياب العادية".

انشغلتُ في إعداد ثيابي أثناء تحدّثه معي، ثم جلستُ على طرف السرير.
"إنها عدة عمله".

"أجل. أنا متأكد من عثورنا على رابط ما بين القفز الذي وجدناه في شارع بيرغر، والقفز الذي كان مع جثة غايي، مع الصندوق الذي وجدناه في سيارته".
تصورته في تلك الليلة التي كان يتحرك فيها بخفة الرجل العنكبوت، وتخلّت يديه تحت القفازين، ذوي اللون الأبيض بلون العظام وسط الظلمة الخالكة.
"اعتاد الرجل أن يرتدي البذلة المخصصة لرياضة قيادة الدراجات الهوائية عندما يقوم بأعماله، وحتى عندما يكون في بيرغر. يفسّر هذا سبب بقائه نظيفاً بعد تنفيذ جرائمه، فلا وجود للشعر، ولا للألياف، ولا لأشياء غير ظاهرة".

"ألم يجدوا حيوانات منوية؟"

"أوه. يمتلك الرجل علبة مليئة بالواقيات الذكرية".

"رائع!"

توجهتُ إلى الخزانة كي أحضر حذائي الرياضي القلم، ووضعتُه في الحقيبة.

"ولماذا فعل هذا؟"

"أشكُّ في أننا سنعرف في يومٍ من الأيام. يبدو أنّ الجدة كانت حريصةً جداً".

"ماذا تعني؟"

"كانت متشددة، ومتعصبة".

"تجاه أي أمور؟"

"الجنس والدين، ولا أهمية في هذا الترتيب بالضرورة".

"أيمكنك أن تعطيني مثلاً على هذا؟"

"اعتادت أن تعطي ليو الصغير حقنةً، قبل أن تجرّه إلى دار العبادة كل صباح،

وذلك من أجل أن تطهّر جسده وروحه".

"أتعني إخضاعه للبروتوكول الخاص يومياً؟"

"تحدثنا إلى أحد الجيران الذي تذكر أنّ الصبي كان يتصارع مع كلب العائلة على الأرض. كاد الشراب المعتقد أن يسيل على الأرض في إحدى المرات، لأن ذلك الكلب الألماني أُصيب بضربة في مكانٍ حساسٍ من جسمه. تبين بعد مرور يومين أن جوف الكلب مليء بسم الفئران".

"وهل يتذكر فورتبييه هذه الأمور؟"

"لم يتحدث عن هذا الموضوع، لكنه تحدّث عن تلك الفترة من عمره عندما كان في السابعة، ويقوم بحركات غير لائقة. ربطت الجدة معصمي ليو الصغير بمعصمها ذات مرة، وظلت تجول به لمدة ثلاثة أيام. يجن الرجل عندما يفكر بأمر يتعلّق باليدين".

توقفتُ بغتة اثناء قيامي بطي كنزرة.

"اليدان".

"أجل".

"هذا ليس كل شيء. علمنا أنّ خالاً له، والذي سبق له أن كان رجل دين، قد أُجبر على التقاعد في عمرٍ مبكر. اعتاد هذا الرجل أن يتجول في المنزل مرتدياً ثوب حمام. يُعتقد أنّ هذا الخال قد استغل الصبي. إنه موضوع آخر يلتزم الصمت التام حياله، لكننا نقوم بالتحقق من هذا الموضوع".

"أين هي الجدة الآن؟"

"ماتت قبل أن يقتل داماس بوقتٍ قصير".

"وما هو سبب موتها؟"

"لا أحد يعلم".

بدأتُ بتفحص بذلات السباحة عندي، لكنني توقفتُ عن ذلك ودسستها في

الحقيبة.

"وماذا بشأن تانغواي؟"

هزّ رايمان رأسه وأخرج نفساً عميقاً. "يبدو أنه مجرد مواطنٍ آخر يمتلك

سلوكاً فاسداً تجاه الأمور المتعلقة بالجنس".

توقفتُ عن ترتيب جواربي ونظرتُ إليه.

"إنه رجلٌ في منتهى الغرابة، لكنني أعتقد أنه غير مؤذٍ".

"ماذا يعني هذا؟"

"عمل الرجل أستاذاً لمادة الأحياء، وجمع الحيوانات التي تُقتل على الطريق، وقام بغلي جثتها، وركّب هياكلها العظمية. حضر هذا الأستاذ معرضاً لطلاب صفه".

"ماذا بشأن المخالب".

"جفّفها من أجل الحصول على مجموعة من مخالب الفقاريات".

"هل قتل إلسا؟"

"يُدّعي بأنه وجدها مقتولة في الشارع قرب جامعة كيبك ومونتريال، وأنه أحضر جثتها إلى المنزل كي يضمها إلى مجموعته. قال إنه قطعها عندما قرأ المقالة الواردة في *الغازيت*. أضاف بأن المقالة أشعرته بالخوف، لذلك وضع الجثة في الكيس، وتركها قرب محطة الباصات. أعتقد بأننا لن نعرف أبداً كيف أخرجها من المختبر".

"إنّ تانغواي هو زبون جولي، أليس كذلك؟"

"نعم بالتأكيد. يحصل الرجل على متعة كبيرة عندما يستأجر بنت هوى ويجعلها ترتدي ثياب نوم والدته. كما أنّ..."

تردّد قليلاً هنا.

"كما أنّ ماذا؟"

"هل أنت مستعدة لما سأخبرك به؟ إنّ تانغواي هو شبه رجل".

"كلا. هل كان يتسلّل إلى غرف النوم؟"

"فهمت الأمر إذاً. هذا هو السبب الذي جعله يخاف عندما قمنا باستجوابه.

ظنّ أننا سنقبض عليه لهذا السبب. تبرّع ذلك النذل المغفل الصغير بسرد أمور كثيرة بنفسه. يبدو أنه يستخدم خطته البديلة عندما يفشل في العثور على مبتغاه في الشارع".

"أتعني أنه يتسلّل ويسرق ثياب نوم أي امرأة أخرى؟"

"نعم، حضرت. اعتبر أنّ ذلك هو عمل أفضل من القيام بأمور أخرى".

بقي هناك أمر آخر يقلقني.

"وماذا بشأن المكالمات الهاتفية؟"

"إنها الخطوة الثالثة. يتصل هاتفياً بامرأة، ويقطع المكالمة، ويستمتع عندما تشعر المرأة بالخوف. إنه نوعٌ نموذجيٌّ من التلصص. يمتلك الرجل لائحة طويلة مليئة بأرقام هاتفية".

"هل هناك فرضية في كيفية حصوله على رقمي أنا؟"

"يُحتمل أنه انتزعه من غايي، التي كان يتلصص عليها".

"هل فعل ذلك عن طريق الصورة التي وجدتها في سلة مهملاتي؟"

"يجب تانغواي الفن الأصيل. كانت الصورة نسخة عما رآه في أحد الكتب.

فعل ذلك كي يعطيها إلى غايي. أراد أن يطلب منها أن لا تستبعده عن مشروعها".

نظرتُ إلى رايبان: "أليس من سخريّة الأمور أن تعتقدَ بأن شخصاً واحداً

يطاردها، في حين أن شخصين كانا يطارداها".

أحسستُ بالدموع تملأ عيني. بدأت تتكوّن عندي تلك الندبة العاطفية، لكنها

كانت ما تزال في بدايتها. سيمرّ بعض الوقت قبل أن أتمكّن من التفكير فيها.

نفض رايبان وتمطى: "أين كاتي الآن؟" طرح عليّ هذا السؤال كي يغيّر

الموضوع.

"ذهبت لإحضار بعض المستحضرات الخاصة بالسمرة". سحبتُ الزمّام

الخاص بالحقيبة إلى نهايته، ثم ألقيتها أرضاً.

"وكيف تسير الأمور معها؟"

"تبدو بخير. إنها تعني بي وكأنها ممرضة خاصة منتدبة".

خدشتُ، عفويّاً، القُطب الموجودة في عنقي.

"يتبعها الواقع بأكثر مما تُظهر. كانت تعرف أن العنف موجود في هذا العالم،

لكنه العنف الذي يظهر في نشرات الأخبار المسائية. كانت تشاهد مناظر العنف في

جنوب لوس أنجلوس، والقدس، وسراييفو. اعتبرت أن العنف هو شيء يحدث

للآخرين. تقصّدتُ أنا وبيتي أن نبقيا بعيدة عن أخبار أعمالنا. تغيّر الأمر الآن،

فالعنف أصبح حقيقياً، وقریباً، وشخصياً. لقد انقلب عالمها، لكنها ستعتاد الواقع

الجديد".

"وأنت؟"

"أنا بخير. فعلاً".

وقفنا بصمت وحدقنا ببعضنا بعضاً لبرهةٍ من الوقت. تناول سترته بعد ذلك وطواها فوق ذراعه.

"هل أنت ذاهبة إلى شاطئ البحر؟" لم يُقنعي عدم اكترائه الذي أظهره.
"سنقصد شواطئ كثيرة في جولتنا هذه التي أطلقنا عليها اسم مغامرة البحث عن الرمال والأمواج العظمى. سنذهب أولاً إلى أوغونكويت، ثم سنعرّج نزولاً إلى شواطئ كايب كود، ريهوبيث، كايب ماي، وشاطئ فيرجينيا. نخطط أيضاً أن نصل إلى ناغز هيد في الخامس عشر من هذا الشهر."
رتّب بيقي هذه الجولة، وهو يخطط للانضمام إلينا.
وضع رايان إحدى يديه على كتفي. أوحى لي عيناه بشيء يتعدى اهتمام زملاء المهنة ببعضهم بعضاً.

"هل ستعودين إلى هنا؟"

طرحتُ هذا السؤال على نفسي طيلة هذا الأسبوع. هل سأعود؟ أعود إلى ماذا؟ هل أعود إلى عملي؟ هل أستطيع تحمّل جولة أخرى مما مررتُ به، ولربما على يد معتوه آخر؟ هل أعود إلى كيبك؟ هل أستطيع أن أتحمّل ملاحقة كلوديل لي عندما يضعني أمام لجنة تحقيق؟ ماذا سيحدث بقضية زواجي؟ تقع صلاحية هذه القضية خارج حدود كيبك. وماذا سأفعل مع بيقي؟ وبماذا سأشعر عندما أراه؟
اتخذتُ قراراً واحداً: لن أفكرّ بكل هذا في الوقت الحاضر. أقسمتُ على وضع كل الشكوك المتعلقة بالغد القريب جانبا، وأن أترك الوقت الذي أمضيه مع كاتي من دون منغصات.

أجبتُ: "سأعود طبعاً. أريد إنهاء كل التقارير، ثم الإدلاء بشهادتي."
"أجل".

مرّت فترة صمت مليئة بالتوتر. عرف كلانا بأن هذا ليس بجواب. تنحنح، ومدّ يده إلى جيب سترته.
"طلب مني كلوديل أن أعطيك هذا".

أخرج مظروفاً أسمر اللون يحمل شعار شرطة مونتريال في زاويته العليا إلى

اليسار.

"رائع!"

وضعته في جيبي، ثم تبعت رايان إلى الباب. لا، ليس الآن.
"رايان".

التفت نحوي.

"كيف تستطيع أن تقوم بعملك يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، من دون أن
تخسر إيمانك بالجنس البشري؟"
لم يقدم لي جواباً فورياً، وبدا أنه يركّز على نقطة ما تتواجد ما بيننا. التقت
أعيننا.

"ينتج الجنس البشري من وقت إلى آخر رجالاً يفترسون من حولهم. لا ينتمي
هؤلاء إلى هذا الجنس. إنهم مجرد طفّرات متحولة من هذا الجنس. أعتقد أنّ هؤلاء
الأندال لا يتمتعون بحق سحب الأوكسجين من جوّنا. إنهم هنا يجولون بيننا، ولهذا
أساعد في عملية القبض عليهم، ووضعهم في مكان لا يستطيعون فيه إنزال
الأذى بالآخرين. إنني أساهم في جعل الحياة أكثر أماناً بالنسبة إلى الذين ينهضون
باكراً، ويذهبون إلى أعمالهم كل يوم، ويعتنون بأولادهم أو بمزروعات البندورة في
أراضيهم، أو بأسمالكهم الاستوائية، أو أولئك الذين يجنون مشاهدة مباراة في كرة
القدم في المساء. يمثّل كل هؤلاء الجنس البشري على حقيقته".

رأيتُه وهو يغادر، وأعجبتُ بهندامه. فكّرتُ عندما أغلقتُ الباب كم أنا
معجبة بذكائه. فكّرتُ مبتسمةً، بيني وبين نفسي، بأنه في يومٍ من الأيام لربما شاء
الله...

توجهتُ أنا وكاتي لشراء بعض الثلجات في وقت لاحق من ذلك المساء.
قدنا السيارة إلى الجبل بعد ذلك. جلستُ في مكاني المفضّل الذي يشرف على
وادي سان لوران بكامله، والذي يبدو من بعيد مثل خط فاصلٍ أسود اللون.
ظهرت مونتريال من هذا المكان منظرًا ساحرًا بأنوارها المتألّقة التي تنتشر حتى
أطرافها.

نظرتُ من مكاني إلى الأريكة، وأحسستُ أنني أحد ركاب الرحلة الجنونية
للسيد تود. انتهت الرحلة أخيراً، ولعلني أتيتُ إلى هذا المكان كي أقول وداعاً.
أنهيتُ تناول الثلجات ثم حشرتُ المنديل الورقي في جيبي. لمستُ بيدي
المظروف الذي أرسله كلوديل لي.

اللجنة! لم لا؟

فتحتته، وسحبت منه رسالةً مكتوبةً بخط اليد. يا للغرابة! لم تكن رسالة الشكوى الرسمية التي توقعتها. كانت رسالةً مكتوبةً باللغة الإنكليزية.

دكتورة برينان

أنتِ على حق. لا ينبغي لأحد أن يموت مجهولاً. لم يحدث هذا للنساء بفضلك أنتِ. انتهت الجرائم التي يقترفها ليو فورتييه، بفضلك أنتِ أيضاً. إننا نخط الدفاع الأخير ضدهم جميعاً: القوادون، والمعتدون على النساء، والذين يقتلون بدماء باردة. سأتشرف بالعمل معك مجدداً.

لوك كلوديل

ومضت الأنوار اللطيفة في قمة الجبل، ناشرةً رسالته فوق الوادي بأكمله. ماذا قال كوجاك؟ أحدهم يحبك يا عزيزتي. أصاب رايان وكلوديل كبد الحقيقة. إننا فعلاً نخط الدفاع الأخير. قلتُ لهذه الليلة الصيفية: "ألقاك قريباً". سألتني كاتي: "ماذا قلت؟" "قلت ألقاك قريباً". بدت الحيرة على وجه ابنتي. "دعينا ننتقل إلى الشاطئ".

المؤلفة في سطور

كاثي رايكس، هي عالمة أنثروبولوجيا عدلية مجازة تعمل في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي في مقاطعة كيبيك، أي أنها مثل الشخصية الخيالية التي ابتكرتها. وتشغل المؤلفة المنصب ذاته في مكتب الطب الشرعي في ولاية كارولينا الشمالية. وتحتل المؤلفة أيضاً منصب نائب رئيس الاتحاد الأميركي للعلوم العدلية، كما تشغل مقعداً في المجلس الاستشاري الكندي لخدمات الشرطة. تعمل رايكس بصفقتها أستاذة لمادة الأنثروبولوجيا في جامعة كارولينا الشمالية في شارلوت. يُذكر أن الدكتورة رايكس حصلت على درجة دكتوراه فلسفة من جامعة نورث ويسترن. تقسم الكاتبة وقتها ما بين شارلوت ومونتريال. أوصلتها روايتها الأولى **ديجا ديد** إلى الشهرة، عندما وُضعت على قائمة الكتب الأفضل مبيعاً في جريدة نيويورك تايمز، وأفضل الكتب مبيعاً على الصعيد الدولي، كما حازت هذه الرواية على جائزة إيليس التي تُمنح لأفضل أول رواية لعام 1997. أما روايتها **عظام ورماد**، فهي الرواية العاشرة التي تجسّد شخصية تمبرنس برينان. موقع المؤلفة على شبكة الإنترنت: www.kathyreichs.com

الرواية التي حازت على جائزة آرثر إيليس (مؤلفي روايات الجريمة في كندا) عن أفضل رواية أولى كتبها مؤلف في عام 1997.

«تأخذ رواية وُجِدَت ميتة مكانها إلى جانب أعمال باتريشيا كورنويل... وتتميز هذه الروايات بقدرتها على سرد قصة رائعة، والتي تكون مخيفة في بعض الأحيان».

– واشنطن تايمز

«مرعبة إلى الحد الذي يدفعك إلى إبقاء المصابيح مضاءة، وإبقاء الكلب في الداخل. تمتلك رايكس هذا القدر من المهارة».

– دايلى نيوز (نيويورك)

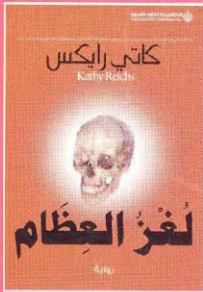
«يجد هواة تحقيقات مسرح الجريمة أنفسهم في سماءٍ من المتعة. عندما يدخلون عالم الدكتوراة تمبرنس برينان، عالمة الأنتروبولوجيا العدلية، وهي النجمة المذهلة التي ابتكرتها كاتي رايكس في رواياتها التي تحقق أكبر رواج».

– صحيفة بيبول.

«تشبه كورنويل في أفضل رواياتها». – ديترويت فري برس

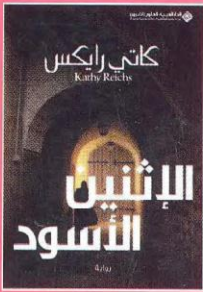
«مسلية، رائعة، ومثيرة». – نيوزداي (نيويورك)

اقرأ أيضاً للروائية كاتي رايكس



لم تستطع تمبرنس برينان التعرف على كيبك بعد عام من انهيار زواجها في كارولينا الشمالية، وذلك بسبب ظروف عملها التي اضطرتها إلى العمل في عطلات نهاية الأسبوع. تكتشف برينان نمطاً مقلقاً في الجرائم بعد أن تنبش جثة امرأة، مقطعة ومشوهة تشويهاً فظيحاً، وملفوفة داخل كيس نفايات. تبدأ برينان بحثاً مضنياً عن القاتل. تتسبب التحقيقات في وضع أقرب الناس إليها – أي أعز صديقاتها وابنتها – ضمن دائرة الخطر المميت...

كاتي رايكس، هي عالمة أنثروبولوجيا عدلية تعمل في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي في مقاطعة كيبك، أي أنها مثل الشخصية الخيالية التي ابتكرتها، وتشغل المؤلفّة منصب نائب رئيس الاتحاد الأمريكي للعلوم العدلية، كما تشغل مقعداً في المجلس الاستشاري الكندي الوطني لخدمات الشرطة. وتُعتبر كاتي رايكس واحدة من مجموعة قليلة لا يتعدى عددها ستة وخمسين عالماً من علماء الأنتروبولوجيا العدلين المجازين من المجلس الأمريكي للأنثروبولوجيا العدلية. تعمل الكاتبة أيضاً بصفتها أستاذة مادة الأنتروبولوجيا في جامعة كارولينا الشمالية في شارلوت. ويُذكر أن رواية «وُجِدَت ميتة» قد أوصلتها إلى الشهرة، وذلك عندما أصبحت ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز. فازت هذه الرواية أيضاً بجائزة «إيليس» لأفضل أول رواية لعام 1997. احتلت الروايات التي كتبها المؤلفّة مكانها في قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز، ومنها رواية «الإثنين الأسود» التي صدرت بالعربية عن الدار العربية للعلوم ناشرون، بالإضافة إلى Death du Jour، Deadly Decisions، Fatal Voyage، Bare Bones، و Cross Bones. موقع المؤلفّة على شبكة الإنترنت www.kathyreichs.com.



ISBN 978-9953-87-496-8



9 789953 874968

ص. ب. 13-5574 شوران 2050-1102

بيروت – لبنان

هاتف: 785107/8 (+961-1)

فاكس: 786230 (+961-1)

البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

www.neelwafurat.com

نيل وفورات. كوم



جميع كتبنا متوفرة
على شبكة الإنترنت